الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٣٤٠م

الترقيم الدولي: ٨-٢٥-٦٢٥٤-٩٧٧-٩٧٨

ISBN 978-977-6254-25-8

002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الحادي عشر

الدار العلمية للنشر والتجليد

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩).

{قَالَ الله هَذَا} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة {يَوْم يَنْفَع الصَّادِقِينَ} فِي الدُّنْيَا كَعِيسَى {صِدْقهمْ} لِأَنَّهُ يوم الجزاء {لَهُمْ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ الله عَنْهُمْ} بِطَاعَتِهِ {وَرَضُوا عَنْهُ} بِثَوَابِهِ {ذَلِكَ الْفَوْز الْعَظِيم} وَلَا يَنْفَع الكاذبين في الدنيا صدقهم فيه كالكفار لما يُؤْمِنُونَ عِنْد رُؤْيَة الْعَذَاب[1].

(١) قوله تعالى: {قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} [المائدة: ١١٩]، أي: "قال الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة: هذا يوم الجزاء الذي ينفع الموحدين توحيدهم ربهم، وانقيادهم لشرعه، وصدقهم في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم".

قال ابن عباس: "يقول: هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم".

قال الكلبي: "ينفع المؤمنين إيمانهم".

قال السدي: "هذا فصل من كلام عيسى، وهذا يوم القيامة".

يعني: "أن قوله: {سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق}، إلى قوله: {فإنك أنت العزيز الحكيم}، من خبر الله عز وجل عن عيسى أنه قاله في الدنيا بعد أن رفعه إليه، وأن ما بعد ذلك من كلام الله لعباده يوم القيامة".

قال البيضاوي: "المعنى هذا الذي مر من كلام عيسى واقع يوم ينفع".

قال ابن كثير: "يقول تعالى مجيبًا لعبده ورسوله عيسى ابن مريم فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين، الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه، عز وجل، فعند ذلك يقول تعالى: {هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}".

قال الماوردي: "وإنما نفعهم الصدق في ذلك اليوم لوقوع الجزاء فيه وإن كان في كلِّ الأيام نافعًا".

=

=

وفي هذا «الصدق»، قولان:

أحدهما: أن صدقهم الذي كان منهم في الدنيا نفعهم في الآخرة جُوزُوا عليه من الثواب.

فعلى هذا المراد بهذا الصدق وجهان محتملان:

أحدهما: أنه صدقهم في عهودهم.

والثاني: أنه تصديقهم لرسل الله وكتبه.

والقول الثاني: أنه صدق يكون منهم في الآخرة ينفعهم لقيامهم فيه بحق الله.

فعلى هذا في المراد بهذا الصدق وجهان محتملان:

أحدهما: أنه صدقهم في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ.

والثاني: صدقهم فيما شهدوا به على أنفسهم عن أعمالهم، ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة، فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم.

قال السعدي: "والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدي القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر".

قال الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى قوله {ينفع الصادقين صدقهم}؟ إن أريد صدقهم في الآخرة فليست الآخرة بدار عمل، وإن أريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟

قلت: معناه الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم".

قرأ نافع وحده: {هذا يوم ينفع} نصبا، وقرأ الباقون: {هذا يوم ينفع} رفعا.

قوله تعالى: {لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [المائدة: ١١٩]، أي: "لهم

=

=

جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار".

قال أبو مالك: "يعني: المساكن تجري أسفلها أنهارها".

قال عبدالله: "أنهار الجنة تفجر من جبل مسك".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [المائدة: ١١٩]، أي: "ماكثين فيها أبدًا".

قال سعيد بن جبير: "يعني: لا يموتون".

عن ابن عباس: {خالدين فيها أبدا}: لا انقطاع له".

قال ابن كثير: ": ماكثين فيها لا يَحُولون ولا يزولون".

قوله تعالى: {رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: ١١٩]، أي: "ﷺ فقبل حسناتهم، ورضوا عنه بما أعطاهم من جزيل ثوابه".

قال الطبري: أي: "رَضي الله عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه، من العمل بطاعته واجتناب معاصيه، ورضوا هم عن الله تعالى ذكره في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه فيما أمرهم ونهاهم، من جزيل ثوابه".

قال النسفي: "{رضي الله عنهم} بالسعي المشكور، {ورضوا عنه} بالجزاء الموفور".

قال القرطبي: "ثم بين تعالى ثوابهم وأنه راض عنهم رضا لا يغضب بعده أبدا، {ورضوا عنه}، أي: عن الجزاء الذي أثابهم به".

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "ثم تجلى لهم الرب تبارك وتعالى فيقول: سلوني، سلوني أعطكم قال: فيسألونه الرضى. فيقول: رضاي أحلكم داري وأنا لكم كرامتي فاسألونى أعطكم، فيسألونه الرضى قال: فيشهدهم أنه قد رضي عنهم".

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة: ١١٩]، أي: "ذلك الجزاء والرضا منه عليهم هو الفوز العظيم".

=

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠).

{لِلَّهِ مُلْك السَّمَاوَات وَالْأَرْض} خَزَائِن الْمَطَر وَالنَّبَات وَالرِّزْق وَغَيْرهَا {وَمَا فِيهِنَّ} أَتَى بِمَا تَغْلِيبًا لِغَيْرِ الْعَاقِل {وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير} وَمِنْهُ إِثَابَة الصَّادِق وَتَعْذِيب الْكَاذِب وَخُصَّ الْعَقْل ذاته فليس عليها بقادر[1].

=

قال سعيد بن جبير: "يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم".

قال النسفي: "لأنه باق بخلاف الفوز في الدنيا فهو غير باق".

قال ابن كثير: "أي: هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: {لِمِثْلِ هَـذَا فَلْيَعْمَـلِ الْعَـامِلُونَ} [الـصافات: ٦١]، وكمـا قـال: {وَفِـي ذَلِـكَ فَلْيَتَنَـافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: ٢٦]".

قال القرطبي: "أي الظفر {العظيم}، أي: الذي عظم خيره وكثر، وارتفعت منزلة صاحبه وشرف".

(١) قوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ} [المائدة: ١٢٠]، أي: "لله وحده لا شريك له ملك السموات والأرض وما فيهن".

والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد فوائد:

الفائدة الأولى: الرضا بقضاء الله، وأن الله لو قضى عليك مرضًا فلا تعترض، ولو قضى عليك فقرًا فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

ويدل لذلك أيضًا ما بينّه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي، فأرسل يقرأ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب).

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبوله والقيام به، لأنك ملكه.

=

=

الفائدة الثالثة: أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكًا لنا بل هو ملك لله، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ).

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون...) رواه مسلم.

فإن قال قائل: ابن آدم يملك؟ فالجواب: أن ملكنا ليس ملكًا عامًا، فملكي ليس ملك لك، وملكك ليس ملكًا لي، ثم نحن لا نملك التصرف فيها، فتصرفنا محدود حسب الشريعة، فلو أراد الإنسان أن يحرق ماله فإنه هذا ممنوع ولا يجوز، فملك غير الله قاصر وغير شامل.

قال السعدي: "لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي".

قال النسفي: "عظم نفسه عما قالت النصارى أن معه إلها آخر".

قال ابن كثير: "أي: هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملْكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه".

قال الطبري: "يقول: له سلطان السموات والأرض، {وما فيهن}، دون عيسى الذين تزعمون أنه إلهكم، ودون أمه، ودون جميع من في السموات ومن في الأرض، فإن السموات والأرض خلق من خلقه وما فيهن، وعيسى وأمُّه من بعض ذلك بالحلول والانتقال، يدلان بكونهما في المكان الذي هما فيه بالحلول فيه والانتقال، أنهما عبدان مملوكان لمن له ملك السموات والأرض وما فيهن. ينبِّههم وجميعَ خلقه على موضع حجته عليهم، ليدَّبروه ويعتبروه فيعقلوا عنه".

=

=

قال الزمخشري: "فإن قلت: في السموات والأرض العقلاء وغيرهم، فهلا غلب العقلاء، فقيل: ومن فيهن؟

قلت: «ما» يتناول الأجناس كلها تناولا عاما. ألا تراك تقول إذا رأيت شبحا من بعيد: ما هو؟ قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره، فكان أولى بإرادة العموم".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٢٠]، أي: "وهو -سبحانه- على كل شيء قدير لا يعجزه شيء".

قال النسفي: أي: "من المنع والإعطاء والإيجاد والإفناء".

قال السعدي: "فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره".

قال الطبري: أي: "الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن، قادرٌ على إفنائهن وعلى إهلاكهن، وإهلاك عيسى وأمه ومن في الأرض جميعًا كما ابتدأ خلقهم، لا يعجزه ذلك ولا شيء أراده، لأن قدرته القدرةُ التي لا تشبهها قدرة، وسلطانه السلطان الذي لا يشبهه سلطان ولا مملكة".

قال محمد بن إسحاق: "{إن الله على كل شيء} ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو {قدير}".

قال البيضاوي: هذه الآية" تنبيه على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل: {ومن فيهن} تغليبا للعقلاء، وقال: {وما فيهن}، اتباعا لهم غير أولي العقل إعلاما بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والنزول عن رتبة العبودية، وإهانة لهم وتنبيها على المجانسة المنافية للألوهية، ولأن ما يطلق متناولا للأجناس كلها فهو أولى بإرادة العموم".

قال الشنقيطي: جرت العادة بذكر قدرته عند الأمور التي لا يستطيعها البشر، كما ذكر ذلك عند نصره لعباده الضعفاء المتمسكين بدينه كقوله تعالى في الأحزاب

=

(وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) وقال في الحديبية (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا).

ومن قدرته أنه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

- **قال الشيخ** ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: الآية عامة، فهو قدير على كل شيء، على ما شاءه وما لم يشأه، وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ، لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما يشاء، وأما قوله تعالى (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة، ولكنها عائدة على الجمع، يعني: إذا أراد جمعهم وشاء جمعهم فهو قدير عليه لا يعجزه شيء.

(تنبيه): قول المصنف (وَخُصَّ الْعَقْل ذاته فليس عليها بقادر) فيه نظر بين.

وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرح الواسطية (ص١٢٥): تنبيه: ذكر في "تفسير الجلالين" -عفا الله عنا وعنه- في آخر سورة المائدة ما نصه "وخص العقل ذاته، فليس عليها بقادر"! ونحن نناقش هذا الكلام من وجهين:

الوجه الأول: أنه لا حكم للعقل فيما يتعلق بذات الله وصفاته، بل لا حكم له في جميع الأمور الغيبية، ووظيفة العقل فيها التسليم التام، وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالا، ولهذا يقال: إن النصوص لا تأتي بمحال، وإنما تأتي بمحار، أي: بما يحير العقول، لأنها تسمع ما لا تدركه ولا تتصوره.

والوجه الثاني: قوله: "فليس عليها بقادر": هذا خطأ عظيم، كيف لا يقدر على نفسه وهو قادر على غيره، فكلامه هذا يستلزم أنه لا يقدر أن يستوى ولا أن يتكلم

=

ولا أن ينزل إلى السماء الدنيا ولا يفعل شيئا أبدا وهذا خطير جدا!!

لكن لو قال قائل: لعله يريد: "خص العقل ذاته، فليس عليها بقادر"، يعني: لا يقدر عل أن يلحق نفسه نقصا قلنا: إن هذا لم يدخل في العموم حتى يحتاج إلى إخراج وتخصيص، لأن القدرة إنما تتعلق بالأشياء الممكنة، لأن غير الممكن ليس بشيء، لا في الخارج ولا في الذهن" فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل، بخلاف العلم.

فينبغي للإنسان أن يتأدب فيما يتعلق بجانب الربوبية، لأن المقام مقام عظيم، والواجب على المرء نحوه أن يستسلم ويسلم، إذا نحن نطلق ما أطلقه الله، ونقول إن الله على كل شيء قدير، بدون استثناء. ا.هـ

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في السفارينية (ص١٣٤): يجب أن نعلم أن المستحيل نوعان:

١- مستحيل لذاته.

٢- ومستحيل لغيره.

فالمستحيل لذاته: ما لا يمكن أن تتعلق به القدرة ، كما مثلنا وقلنا: لو قال قائل: هل يقدر الله أن يخلق مثله ؟ قلنا: هذا مستحيل لذاته ، لأن المماثلة مستحيل أدنى ما نقول: أن نقول: أن هذا مخلوق والرب خالق ، فتنتفي المماثلة على كل حال.

الشيء الثاني: المستحيل لغيره ، بمعنى أن الله تعالى أجرى هذا الشيء على هذه العادة المستمرة التي يستحيل أن تنخرم ، ولكن الله قادر على أن يخرمها ، هذا نقول: إن القدرة تتعلق به ، فيمكن للشيء الذي نرى أنه مستحيل بحسب العادة أن يكون جائزا واقعا بحسب القدرة ، وهذا الشيء كثير كل آيات الأنبياء الكونية من هذا الباب مستحيل لغيره: انشقاق القمر للرسول عليه الصلاة والسلام مستحيل لغيره لكن لذاته غير مستحيل ، لأنه وقع والله قادر على أن يشق القمر نصفين.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها: قوله تعالى:

=

=

"أحلت لكم بهيمة الأنعام " وفى سورة الحج: "وأحلت لكم الأنعام "، للسائل أن يسأل عن وجه ما ورد فى الآيتين مع اجتماعهما فى التعريف بحلية هذا الضرب من الحيوان البهيمى مفصحا فيهما بتقرير حكم التحليل بالماضى وهو قوله "أحلت لكم " ثم خصت آية المائدة بزيادة لفظ "بهيمة " ولم يرد ذلك فى آية الحج فيسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عنه والله أعلم: أن المقصود فى الآيتين مختلف فوردت الألفاظ بما يحرز ذلك وبيانه أن اسم الأنعام إنما يقع على ما ذكر فى آية سورة الأنعام من الأزواج الثمانية حين تفسرت مفصلة فقال تعالى: "ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين " ثم قال تعالى: "ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين " وهى أصناف أربعة الإبل والبقر والضأن والمعز تفصلت بحسب التذكير والتأنيث إلى ثمانية والحمولة منها ما أطاق الحمل على ظهره وهى الإبل والفرش ما سواها وقيل غير هذا وقال تعالى: "وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين " وإنما اللبن المراد هنا المنعم به علينا لبن الأنعام وهى الأزواج الثمانية أما لبن الوحشى غير الإنسى فلم يقصد هنا وان كان حلالا لتعذر إدراكه وليس هو المراد فى الأنعام وان جاز إطلاق اسم الأنعام على الوحشى مجازا لجامع سنذكره بعد.

قال الهروى: الأنعام المواشى من الإبل والبقر والغنم وإذا وضح أن الأنعام هى الأزواج الثمانية فمن المعلوم أن غيرها من الوحشى الذى لا يدرك إلا بالصيد محرم على الحاج ما دام فى عمله قال تعالى: "وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما " ولما كانت آية سورة الحج مناطة بما أمر به الحاج فى قوله: "ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق " والأمر بتعظيم تلك الحرمات والشعائر الإيمانية فى قوله تعالى: "ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه "

=

=

وصل بها ما يحل أكل لحمه للمحرم حال إحرامه فقال تعالى: "وأحلت لكم الأنعام " ولم يكن ليلائم هذا الموضع ما ورد فى آية المائدة من قوله تعالى: "أحلت لكم بهيمة الأنعام " لأن المراد ببهيمة الأنعام الوحشى، قال القرطبى "بهيمة الأنعام وحشيها " وقال الزمخشرى فى أحد تفسيريه "الظباء وبقر الوحشى " ووجه وقوعها فى آية المائدة أن آية المائدة من آخر ما نزل وقد تضمنت متممات من الأحكام كآية الوضوء والتيمم وتفاصيل الصيد واستيفاء المحرمات من المأكولات والمشروبات على التحرير وأحكام هذه السورة كثيرة ومحكمة غير منسوخه وفيها ورد "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " فناسب هذا ذكر حلية بهيمة الأنعام إلحاقا لها بالأنعام إذ لم يذكره الله فى غيرها على ما ورد فى تحرير ذلك وبيان العوارض التى قد تحرم لأجلها وذلك قوله تعالى: "حرمت عليكم الميتة والدم " ثم أتبع بقوله: "والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة " لأن هذه العوارض تكثر فى الوحشى لمخالفة حاله فى التذكية وما تحل به الإنسية من الأنعام ثم أتبع ذكر ما يعرض مما ذكر مما وقعت الإشارة بقوله: "إلا ما يتلى عليكم " ثم أشار قوله: "غير محلى الصيد وأنتم حرم " إلى ما أفصح به قوله تعالى: "وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما " فوضح التناسب وإن عكس الوارد فى الآيتين لم يكن ليناسب والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية من سورة المائدة:

قوله تعالى: "يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا " وفى سورة الفتح: "يبتغون فضلا من الله ورضوانا " وكذا فى سورة الحشر فيسأل عن موجب اختصاص سورة المائدة بما ورد فيها من إضافة اسم الرب تعالى إليهم بخلاف السورتين.

والجواب والله أعلم أن آية المائدة مبنية على تأنيس وتقريب واستلطاف وقد أحرز

=

=

قوله "من ربهم " هذه المعانى الثلاثة حسبما يتبين بعد.

ومن التأنيس أيضا افتتاح خطاب من قصد بها بقوله "يأيها الذين آمنوا " مع انهم نهوا عن عدة منهيات والنهى مما يثير الخوف لمن قصد بالنهى، ثم يحكمه ويقويه ما وصف به آم البيت الحرام من ابتغاء الفضل والرضوان إلى ما تعضيده إضافة التخصيص فى قوله "من ربهم " إذ لا يحصل ذلك من أن لو قيل: يبتغون فضلا من الله عوض قوله "من ربهم " وإذاية من خص بتقريب ليست كإذاية من ليس كذلك، والمعصية قد تكون واحدة ثم تعظم بإيقاعها على صفة ما، وتأمل ما ورد فى الزنا بحليلة الجار والزنا كله كبيرة ولكن وقوعه بحليلة الجار زيادة وذلك لحرمته، وكذلك ما عظم الشرع من الإلحاد فى البيت الحرام والإلحاد كله كفر ولكن فى وقوعه فى البيت الحرام زيادة، وتأمل هذا فى الكتاب العزيز وفى صحيح الأخبار تجد ذلك كثيرا، كما أن هذه الإضافة فى قوله "من ربهم " مشعرة إذا اقترن بها بعض القرائن بالتلطف والتقريب وتأنيس من عنى بها وتخويف من انتهك حرمة من جرت الكناية عنه بها تخصيصا وتأنيسا فلهذا خص هذا الموضوع بها وقدم أيضا تأنيس من خوطب بالنهى إذا هم امثلوا فأنسوا من شدة الخوف الحاصل من مجموع ما ذكرنا فلمجموع ما قصد فى هذه الآية من التأنيس والتخويف والاستلطاف خصت بما ورد فيها.

فإن قلت قد ترد هذه الإضافة حيث لا يقصد التلطف ولا التأنيس كقوله تعالى: "وللذيم كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير " إلى أمثال هذا مما يكثر قلت: أما آية الفتح فلم ينجر فيها تخويف مرتكب ولا بنيت على ذلك ولا داعية إلى ما يستدعى التأنيس كما فى آية المائدة وهذا مع أن المذكورين فى آية الفتح أعظم الأمة قدرا وأجلهم خطرا وهم أهل المزية والاختصاص فلم تين الآية الا على مدحهم وبيان مزيتهم التى لا يدركها غيرهم ولم ينجر فيها تخويف يدعو إلى

=

=

تأنيس من خوطب بها كما فى آية المائدة بل وردت هذه مورد البشارة وتعريف حال الأنعام، وعلى ذلك وردت آية الحشر من الثناء والمدحة ولم يتخللها نهى ولا تخويف ولا ورود تفضيل بذكر مخالفى تلك الأحوال فقال تعالى: "للفقراء المهاجرين " إلى قوله "يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون " فقد وضح الوجه فى ورود كل من هه الآى على ما ورد وإن عكس الوارد فيها لا يناسب على ما تمهد والله سبحانه أعلم.

الآية الثالثة من سورة المائدة: قوله تعالى: "ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا " وقال تعالى فيما بعد: "ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا " فاتفقت الآيتان على وصية المؤمنين وحضهم على مكارم الأخلاق والعفو ممن تقدمت منه إساءة أكسبت بغضه فكأن قد قيل لهم: لا يحملنكم ما وقر فى صدوركم من بغضكم إياهم على متقدم إساءتهم بصدهم إياكم عن المسجد الحرام عام الحديبية ومنعكم عن الاعتمار لا يحملنكم ذلك على الانتقام منهم والانتصار لأنفسكم والعفو أقرب للتقوى وقد ملكتم فاسجحو، خوطب المؤمنون بهذا بعد فتح مكة وقهر مفار العرب وإعلاء كلمة الله فندبوا إلى العفو عما تقدم ولا يحاسب من انقاد واستجاب فى دين الله بما كان تقدم من عدوانهم وان وقر فى النفوس من بغضهم على إساءتهم ما وقر فاستوت الآيتان بأمر المؤمنين بمكارم الأخلاق ثم اختلف تعليق ما حذروا منه أن يحملهم عليه لحظ ما بقى فى نفوسهم فقيل فى الآية الأولى: "أن تعتدوا " وفى الثانية: "على ألا تعدلوا " والاعتداء أشد وأعظم من عدم العدل فللسائل أن يسأل عن وجه ما ورد فى كل من الموضعين ومناسبته لما تقدمه.

والجواب عن ذلك والله أعلم: أن الآية الأولى ورد فيها الإفصاح بعلة البغضاء الحاملة على الانتصار والانتقام وهى صدهم عن البيت الحرام عام الحديبية

=

=

وذلك قوله تعالى: "أن صدوكم " أى من أجل أن صدوكم أى منعوكم فـ "أن " هنا مصدرية فى موضع المفعول من أجله فلما وقع الافصاح بسبب الشنئان ناسب النظم الافصاح بالعقوبة عليه وهو الاعتداء بالانتقام والمجازاة السيئة بالسيئة لولا ما ندب سبحانه إليه من التخلف الايمانى المشروع للمؤمنين تقديمه واختياره فقيل: "أن تعتدوا " أى لا يحملنكم ذلك على أن تعتدوا أى على الاعتداء أولا يكسبنكم ذلك المرتكب الفارط منه الاعتداء ولما لم يرد فى الآية الثانية إفصاح بجريمة بل بنيت على أمر المؤمنين بالعدل فقا تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط " فلما أمروا بالعدل ناسب ذلك وصيتهم وأمرهم ألا يحملهم شئ على ترك العدل الذى أمروا به فقيل "على ألا تعدلوا".

فوضح جليل الالتئام والمناسبة وورود كل من المنهى عن ارتكابه فى الآيتين على ما يجب ويناسب ولا يمكن خلافه والله أعلم.

الآية الرابعة فى سورة المائدة: قوله تعالى: "وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون " وفى النحل: "كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون " فورد فى الآيتين إتمام نعمته سبحانه على عبادة بعبارة متحدة ثن اختلف النترجى منه سبحانه جزاء على ذلك.

والجواب والله أعلم: أن آية المائدة خطاب للمؤمنين بما يجب عليهم من الطهارة لصلاتهم وتعليم لهم كيفية عملهم فى ذلك وإنعام عليهم برخصة التيمم إذا عدموا الماء وكل هذا مستوجب للشكر لله سبحانه فقيل فى ختام هذه الآية "لعلكم تشكرون " وأم آية النحل فإن السورة كلها مكية إلا آيات من آخرها وغالب حالها أنها خطاب لكفار قريش وما كان مثلهم ألا ترى افتتاحها بقوله تعالى: "أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وإنما هذا خطاب للمرتابين فى الساعة تكذيبا وكفرا ثم قال "سبحانه وتعالى عما يشركون " وقرئ بالتاء فأوضح أن الخطاب للمرتابين وقوله

=

=

بعد: "أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون " وقوله "والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم لا يخلقون " إلى ما بعد ثم قال "وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين " ثم قال "قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد " وقال "إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين " ثم قال "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت " ثم قال "ويجعلون لله ما يكرهون "ثم قال بعد آى فذكر بما امتن به سبحانه فقال "ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا... الآية " وعلى هذا استمرت آية سورة النحل وقد تخللها من تذكيرهم بإنعام الله عليهم كثير إلى قوله "والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا " وكل هذا تذكير بعجائبه من إنعامه تعالى لا يمكن نسبة شئ منها لغيره ثم أعقب ذلك بقوله "كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون " أى تدخلون فى دين الإسلام الذى لا يقبل فى الآخرة سواء فهذا أوضح تناسب والسورة مكية.

أما آية المائدة فلم يقع قبلها لغير المؤمنين ولا ما قصد به سواهم ولم يخاطبوا باسم الإيمان إلا وإسلامهم حاصل ثم علموا طهارتهم بعد بيان ما أحل لهم وحرم عليهم ثم أعقب تعليمهم برخصة التيمم عند تعذر الماء فناسب رجاء إنعامه عليهم بهدايتهم للشكر فقيل "لعلكم تشكرون " ولم يكن ليلائم فى كل من ختام الآتين إلا الوارد فيه ولا يناسب عكس الوارد بوجه فورد كل على ما يجب ويناسب والله أعلم بما أراد.

الآية الخامسة من سورة المائدة قوله تعالى: "وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم " وفى سورة الفتح: "وعد الله الذبن آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما "، فقيل هاهنا "منهم "ولم يقل فى آية المائدة "منكم " على مقتضى الخطاب ولا "منهم "على الالتفات فيخصص

=

=

كما فى آية الفتح بل قطع وعد عن نصب مفعوله وجئ بالجملة فى موضعه فقيل لهم مغفرة وأجر عظيم وجرى ذلك على ما يعم الكل ولا يخص فيسأل عن وجه ذلك.

والجواب عنه والله أعلم: أن آية المائدة لما قدمتها خطاب المؤمنين فى قضيتين: الأولى منهما " يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة... إلى قوله لعلكم تشكرون " والثانية قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط...الآية " وقد وقع فيما بين هاتين الآيتين قوله تعالى: "اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به " ولم يقع أثناء هذه الآى إشارة إلى غيرهم ولا انجر معهم أحد من سواهم لم يحتج إلى تخصيص الخطاب الوعدى فأطلق القول ولم يقيد بأن يقال "منهم " ولا علمت وعد فى مفعولها الثانى كما جاء ذلك كله فى آية الفتح بل عدل عن عملها فى لفظ المغفرة وجئ بالجملة فى موضع المفعول وقطع بقوله لهم على الابتداء والخبر ليكون أبلغ فى استحقاقهم ذلك وأما آية الفتح فأعقب بها التمثيل الجارى فى ذكر الزرع فى قوله تعالى: "يعجب الزراع لغيظ بهم الكفار " مع أن العلية الموصوفين بقوله: "أشداء على الكفار رحماء بينهم " إلى ما وصفوا به وعرف أنه مثلهم فى التوراة وأن مثلهم فى الانجيل قد كان كذا فمع ما وصفوا به قد عاصرهم وكان فى أيامهم ومعهم من علم نفاقه فمن كان يتظاهر بالإيمان ويسر الكفر: "وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به " وقد صاروا معهم بظاهر أمرهم وأعلم بذلك قوله تعالى: "ويحلفون بالله أنهم لمنكم وما هم منكم " وعرف سبحانه بأحوالهم وحذر نبيه والمؤمنين منهم فقال: "ولا تطع الكافرين والمنافقين " وقد شمل الكل عموم قوله "والذين معه " بظاهر الإيمان إذ كانوا يتظاهرون بما وصف به المؤمننو فجئ هنا بالوعد محرزا مخرجا منه من كان يتظاهر بالإيمان ويلزق بالمؤمنين وليس

=

=

منهم فقيل "وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم " فجئ بقوله "منهم " ليحرز هذا المعنى الجليل فمن على هذا للتبعيض.

أما آية المائدة فلا يتناول قبلها مما ذكر من الآيات غير المخلص فى إيمانه بخصوص خطابهم بما لا يتناول غيرهم من قوله "يأيها الذين آمنوا " فخصصوا بالنداء ولا يتناول إلا مؤمنا أما مع فيتناول المجتمعين فى الظاهر من حيث تألف أشخاصهم وإن اختلفت قلوبهم ويدل على ذلك قول المنافقين فى القيامة للمؤمنين "ألم نكن معكم " وجواب المؤمنين لهم بقوله "بلى " أى قد كنتم معنا ولكن لم تكونوا مخلصين هذا معنى قولهم "ولكنكم فتنتم أنفسكم... الآية " فقد كانت معية فى الظاهر وصح إطلاقها لغة وهذا القدر من الاحتمال فى اللفظ وإن لم يكن مقصودا فى المعنى حسن التحرير والتحرز فى آية الفتح بقوله منهم أما قوله: "وعد الله الذين آمنوا " بعد أن لم يتقدم إلا ذكر من أفصح بلسانه وإنما الإيمان عمل قلبى لأنه التصديق وإن اتسع فى إطلاقه على الإيمان والإسلام فالتصديق حاصل على كل حال كما لو قيل فى آية سورة الفتح: "والذين آمنوا معهم " إذا تقرر هذا فلا حامل غير التحرز بأن يقال "منهم " لأنهم مستوون غير مختلفين فى ظاهر ولا باطن بخلاف آية الفتح لما فى ظاهر لفظ مع مما تقدم.

فإن قيل: وصفهم بما وصفوا به فى آية الفتح يرفع ما ذكرت من الاحتمال قلت: إذا أمكن رجوعه إلى الأكثر واحتمل لم يندفع ذلك الاحتمال فورد كل من الآيتين على ما يناسب، والله أعلم.

الآية السادسة:

قوله تعالى: "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ " وقال فيما بعد " سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ "

=

=

فى الأولى "عن مواضعه " وفى الثانية "من بعد مواضعه " فيسأل عن موجب ذلك.

والجواب عن ذلك والله أعلم أن الفرق بين الموضعين أن الآية الأولى تضمنت إخبار الله سبحانه لنبيه ﷺ مرتكب من تقدم من كفار بنى إسرائيل حين أخذ عليهم الميثاق فيما عرفه سبحانه فى قوله "ولقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأخذنا منهم اثنى عشر نقيبا "الى قوله "فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل " فأخذ عليهم الميثاق وأخبرهم أنه تعالى معهم مواليهم بالتأييد وتكفير السيئات إن هم وفوا بما أخذ عليهم فى قوله "لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم..

الآية " فنقضوا العهد وقتلوا الأنبياء وحرفوا كلام الله فجعل الله قلوبهم قاسية ولعنهم على لسان داوود وعيسى بن مريم فهذا كله تعريف بمرتكب سلف المعاصرين لرسول الله ﷺ وإخبار بحالهم من تحريفهم وتبديلهم.

وأما الآية الثانية فتعريف له ﷺ بأحوال معاصريه منهم وكل هذا تسلية له ﷺ لئلا يحزنه قولهم ويشق عليه ارتكابهم وليعلم أن ذلك من بعدهم جار على ما قدر عليهم فى الأزل قد تبع فى ذلك الخلف السلف فقال سبحانه: "يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم وإذا جاؤوكم قالوا آمنا " فلما كان هذا الاخبار بحال خلفهم والأول إخبار بحال سلفهم ناسب حال الأولين ذكر ما تناولوه بأنفسهم وباشروه بالتحريف والتبديل فقيل: "يحرفون الكلم عن مواضعه " فهم المزيون لما خوطبوا به عما أريد به لم يتقدمهم فى ذلك غيرهم وأما المعاصرون فقد حرفوا أيضا بعد الاستقرار، ألا ترى إنكارهم صفته ﷺ بعد مشاهدته ورؤيته وهذا مما اختص به الخلف دون السلف إذ لم يباشر أمره ﷺ هؤلاء بعد أن كان سلفهم يعترفون بذلك فقد حرف هؤلاء بعد الاعتراف والثبوت زائدا إلى ما ارتكبه سلفهم فالمقلدون لأسلافهم فى التحريف

=

=

والتبديل قائلون بما قالوه فناسب الإخبار عن مرتكبهم ذكر البعدية إذ قد تقدمهم غيرهم لما ذكر فالسلف منهم مبتدع مخترع والخلف محرف أيضا ومقلد متبع فالبعدية لمن بعد والحالية المحكية لمن قبل على ما يناسب والله أعلم.

الآية السابعة: قوله تعالى: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ " وفيما بعد: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ "

للسائل أن يسأل عما ورد فى هاتين الآيتين من الاختلاف فيما خوطب به بنو إسرائيل ووجه خصوص كل من الموضعين بالوارد فيه مع اتحاد مقصودهما من تذكيرهم وتعنيفهم على إعراضهم وانحرافهم عن الجادة من اتباع من أعلموا بأمره وقدم لهم فيه: "فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به".

على هذه المقدمة من المعنى مدار الآيتين وإذا وضح هذا فلا سؤال فى غير تخصيص كل واحدة من الآيتين بما ورد فيها؟

والجواب والله أعلم: أنه لما تقدم قوله تعالى: "ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا..

الآية " فبين تعالى ما عهد إليهم فيه أى فى معرفة نبوته وأن يؤمنوا به "لتؤمنن به ولتنصرنه " وألزموا الوفاء به وأعلموا بما يكون من أمرهم أن وفوا فقيل لهم: "لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار " فالتزموا بما ألزموا بدليل قالوا أقررنا ثم نقضوا وحرفوا فجوزوا باللعنة وقساوة القلوب قال تعالى: "فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية " فلما تقدم هذا ناسبه قوله تعالى لهم: "يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب "وهذا أوضح تناسب. ولما تقدم الآية الثانية قول النصارى فى المسيح

=

=

عليه السلام وإخباره تعالى عنهم بذلك فى قوله: "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم " وبين تعالى حال المسيح فى عبوديته وانسحاب القهر الربانى عليه كسائر المخلوقات فقال تعالى: "فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا.. الآية " ثم جمع أهل الكتابين فى التعريف بقولهم "نحن أبناء الله وأحباؤه " وليس هذا الإخبار كالمخبر به من حال اليهود فى قبيح عنادهم وشنيع تحريفهم ولم يجر خطاب النصارى وما عرف به من حالهم فى الكتاب العزيز على حد ما جرى فى ذلك فى يهود من التعنيف والتوبيخ وضرب الذلة واللعنة عليهم والبوء بالغضب، فلما كان هذا التعريف المتقدم على الآية الثانية أوطأ مساقا ودون ما تقدم الآية المتقدمة من التوبيخ والمبالغة فى شنعة المرتكب ناسب هذا ما بنى عليه واتبع به من قوله تعالى: "يأهل المكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير " وفى هذا الخطاب استلطاف ورفق ولم يرد هنا ذكر تحريف ولا تبديل ليلائم ما تقدمه فى لين القول ووطأة الإخبار وتأمل التناسب بين الخطابين وما بنيا عليه يلح لك جليل الانتظام وعظيم التلاؤم وأن عكس الوارد لا يمكن ولا يلائم والله سبحانه أعلم.

الآية الثامنة من سورة المائدة قوله تعالى: "قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا " وفى سورة الفتح: "قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا "،

للسائل أن يسأل عن زيداة "لكم "فى سورة الفتح وحذف ذلك فى سورة المائدة؟

والجواب عن ذلك: أن فى آية المائدة عموم يستدعى الإطلاق وعدم التقييد بالمخاطبين وفى سورة الفتح خصوص يستدعى التخصيص بآية الخطاب للمواجهين به وذلك أن الاخبار فى سورة المائدة إنما هو النصارى قال تعالى:

=

=

"لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم " وهذا حكاية قولهم ثم أعلم تعالى بقدرته وقهره للكل فقال: قل يا محمد من يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا أى من يدافع مراده فى خلقه إن أراد هلاكهم ثم ذكر سبحانه خلقه المقهورين من سكان الأرض فبدأ بالمسيح وأمه عليهما السلام ثم قال: "ومن فى الأرض جميعا " فعم الكل فلم يكن ليناسب هذا العموم أداة خطاب تخص. أما آية الفتح فقبلها إخباره سبحانه عن المتخلفين عن غزوة الحديبية قال تعالى: "سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفرلنا " ثم أعلم تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أن قول المخلفين قول بألسنتهم غير مطابق لما فى قلوبهم فقال تعالى: قل يا محمد من يملك لكم معشر المخلفين من الله شيئا أى من يدفع عنكم الضر إن أراده بكم أو يوصل إليكم النفع إن منعه عنكم فالإخبار إنما هو عنهم وتقدير النفع والضر مرفوعا أو لاحقا خاص بهم لم يرد بذلك غيرهم فورد بخطاب المواجهة فقال "لكم " ولم يكن بد من ذلك ليعلم أن الإخبار عنهم والخطاب بما بعد لهم فجاء كل على ما يناسب ويجب ولا يتصور فيه العكس والله أعلم.

الآية التاسعة وهى من تمام هذه التى فرغنا منها وهى قوله تعالى إثر قوله "ومن فى الأرض جميعا " فقال: "ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شئ قدير " وقال تعالى فيما بعد: "وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير " للسائل أن يسأل عن تعقيب الأولى بقوله: "يخلق ما والله على كل شئ قدير " وتعقيب الثانية بقوله "وإليه المصير".

والجواب عن ذلك: أنه سبحانه لما ذكر فى الأولى قدرته وعظيم سلطانه فى قوله:

=

=

"قل من يملك لكم من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا " وعرف سبحانه أنه لا معاند له ولا مانع لما يريده أشار بقوله "يخلق ما يشاء " إلى ما أفصح به قوله: "إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين " وقوله "إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد "فصارت الآية بهذا فى قوة أن لو قيل: قل من يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك من ذكر ويأت بآخرين سواهم فأعقب هذا بقوله "والله على كل شئ قدير " وهذا واضح.

ولما قال فى الآية الأخرى: "وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه " ثم ذكر تعذيبهم بذنوبهم بأنه سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء أعقب هذا بما يشير إلى وقت التعذيب وظهرو المغفرة والمجازاة فقال "وإليه المصير " وهذا واضح أيضا فلما اختلف مقصود الآيتين أعقبت كل واحدة منهما بما يناسب مقصودها بالقهر فى الأولى والاختراع يناسب وصفه ﷻ بالقدرة كما أن التعذيب والغفران فى الثانية يناسبها ذكر المآل فجاء على ما يناسب.

الآية العاشرة قوله ﷻ: "وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يأت أحدا من العالمين "

وفى سورة إبراهيم: "وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبنائكم ويستحيون نسائكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم " فافتتح قول موسى لقومه فى سورة المائدة بندائهم ولم يقع نداؤهم فى سورة إبراهيم فيسأل عن الموجب لذلك وعن وجه الفرق؟

والجواب عن ذلك: أنه لما اعتمد فى آية المائدة تذكيرهم بضروب من الآلاء والنعم الجسام من جعل الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكا وإعطائهم ما لم يعط غيرهم كا ذلك تعريفا باعتنائه سبحانه بهم وتفضيلهم على من عاصرهم وتقدمه من أمم الأنبياء قبلهم فناسب ذلك نداء موسى عليه السلام بقوله "يا قوم " بالاضافة إلى ضميره

=

=

إنباء بالقرب والمزية وناسب هذا النداء المنبئ بالاعتناء ما تقدم من تخصيصهم بما عقب به النادء من التشريف بما منحهم من الآلاء والنعم الجسام ولما قصد فى آية سورة إبراهيم تذكيرهم بنجاتهم من آل فرعون وما كان يسومهم به من ذبح ذكور أبنائهم واستحياء نسائهم للمهنة ولم يذكر هنا شئ مما فى آية المائدة لما اقتصر عليه هنا من التذكير بمجرد الإنجباء فناسب ذلك الاقتصار على خطابهم دون النداء رعيا للمناسبة والله أعلم.

الآية الحادية عشرة: قوله تعالى: "ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شئ قدير " وفى سورة الفتح: "ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما " فقدم فى المائدة ذكر التعذيب وآخرفى سورة الفتح وأعقبت الأولى بقوله: "والله على كل شئ قدير " والثانية بقوله: "وكان الله غفورا رحيما " فهذان سؤالان.

والجواب عن الأول: أنه لما تقدم آية المائدة قوله تعالى: "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا... الآية " وقوله: "والسارق والسارقة... الآية " وقد وقع فى الآيتين ذكر تنكيل الطائفتين ممن حارب أو سرق مقدما فقيل فى الطائفة الأولى: "أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض " فهذا ما يعجل لهم فى الدنيا ثم أعلم تعالى بوعيدهم الأخراوى وجزائهم إن هم وافوا على فعلهم هذا مستحلين ذلك المرتكب أو غير مستحلين إن أنفذ الوعيد عليهم وأعقب تعالى بذكر إقالتهم إن تابوا قبل أن يقدر عليهم بما أعطاه الاشتثناء وأشار إليه قوله تعالى: "فاعلموا أن الله غفور رحيم " وقيل فى الطائفة الثانية: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما " ثم قال: "فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح " إذ أشار إلى من أقلع منهم تائبا وأصلح فإن الله يتوب عليه فقد تقدم فى هاتين القصتين ذكر الامتحان قبل ما به رجاء الغفران وهذا فى مآلهم

=

=

الفدنياوى، ثم أعقب الآية التى أعلم فيها بانفراده بملك السماوات والأرض وأنه تعالى يعذب من يشاء فقد ذكر العذاب على المغفرة تنظيرا لما تقدم ومقابلة تطابق إذ كل ذلك بقره تعالى وسابق مشيئته فهذا وجه التقديم فى آية المائدة.

وأما آية الفتح فقد تقدمها قوله تعالى: "ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا " وبالايمان رجاء الغفران وهو متشبث به كما أن العذاب مرتبط بالكفر ومناط به، فتقدم فى ذهه الآية مثمر الغفران وهو الإيمان وتأخر موجب التعذيب من الكفر والخذلان، ثم أعقب تعالى بقوله: "ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء " فناسب بين الآيتين بالتناظر فى الجزاءين من المغفرة لمن أناب والتعذيب لمن كفر وارتاب وبحسب مشيئته سبحانه وما قدر لكل من الفرقين أولا.

الآية الثانية عشرة

قوله تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " ثم قال بعد: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون " ثم قال بعد: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون "،

فللسائل أن يسأل عن موجب افتراق هذه الأوصاف الوعيدية بوسم من وصف بها بما يستلزم العقاب الأخراوى من الكفر والظلم والفسق إن لم يكن إقلاع وغفران؟ ولم اختلفت مع وحدة الموصوفين بها؟ وكيف ورد فيها الأخف بعد الأثقل؟ وذلك ضد الترقى فى مقابل الوعيد الذى تشير إليه الصفات وهو الوعد.

وطريقته الترقى من حال إلى أعلى وعلى ذلك وردت آى الكتاب كقوله تعالى: "وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات... الآية " فبشروا أولا بالجنات ثم وصف بجرى أنهارها وبذلك حياتها ثم بموالاة رزقها وتشابهه لتأنس النفوس بما ألقت لأن غير المألوف من المطعم ينافره الطبع ومنه قوله ﷺ فى

=

=

الضب حين قرب إليه فرده "لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه " ثم أتبع ذكر الرزق المأكول بالأزواج المطهرة فازداد النعيم واتسع الميلاذ ثم أعقب بالخلود وذلك كمال النعيم وقال تعالى: "يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم " فتأمل ورود الغفران بعد إصلاح الأعمال وكلاهما جزاء على ما منحوه من التقوى وسداد الأقوال وقال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم " وقال تعالى: "وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر " وقال تعالى: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه "، فتأمل ختام الجزاء المذكور فى آية الحديد بالغفران وعظيم ما يثمره والترقى من ذكر ما تقدمه إليه وختام هاتين الآيتين بعد الرضى وهو أعظم ما يعطاه أهل الجنة والحديث الصحيح فى ذلك مشهور ومفهوم الرضى لو لم يرد الحديث أعظم نعمة والترقى فى هذه الآى بين ولم ينكسر هذا المطرد فى آى الوعد على تكررها وعلى ذلك جرت آيات الوعيد، وإلى الوعيد مرجع آى المائدة المتكلم فيها لما ذكرنا من السببيه ومقابل الوعيد الوعد وقد اطرد ذلك فيه فى كل آي القرآن وكذلك فى الآى الوعيدية.

ومن أبين الوارد فى ذلك وأقربه شبها بآى المائدة قوله تعالى: "كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق.. الآيات " إلى قوله: "وما لهم من ناصرين " فقد وقع فى هذه الآى ثلاثة أصناف اجتمعوا فى الكفر بعد الإيمان ثم اختلف حكمهم فيما بعد وقد تحصل فى وعيدهم الانتقال من أخف إلى أثقل فقال تعالى: "كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم " إلى قوله: "وأولئك هم

=

=

الضالون " فهؤلاء مع وعيدهم وما ذكر من لعنهم قد أعقب ذلك بقوله تعالى: "إلا الذين تابوا " فهذا إبقاء خفت به حالهم عت المذكورين بعدهم وكذا ورد فى سبب هذه الآية أن الذى نزلت بسببه كتب بها إلى مكة بعد سؤاله هل له من توبة حين كفر بعد إسلامه ولحق بمكة فلما وفد عليها راجع الإسلام وحسنت توبته ثم قال تعالى: "إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا " فذكر هؤلاء بازدياد الكفر بعد الكفر المعقب به ايمانهم ثم أعقب ذلك بقوله: "لن تقبل توبتهم " فأبقى الله تعالى على الأولين حين قال: "إلا الذين تابوا " واشتد حال المذكورين بعدهم حين قيل فيهم: "لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون " ثم قال تعالى: "إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار " فأعلم من حال هؤلاء بموتهم على الكفر فانقطع رجاؤهم وهؤلاء أشد حالا ممن ذكر قبلهم فى الآية المذكورة ونص فى هذه الأخيرة فكانت أشد، فقد وضح فى هذه الآيات الانتقال من أخف إلى أثقل وهو مطرد فى الوعد والوعيد واللطف والتعريف بالامتنان والأحوال وما يرجع إلى ذلك وعلى هذا كلام العرب فى هذه الضرورة التى أشرنا إليها.

ومن آى الامتنان قوله تعالى: "وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم " وفى هذه الآية الترقى وهى من قبيل ما ذكر وإنما يرد عكس الترقى فيذكر الأخف بعد الأثقل فى التكاليف والأوامر والنواهى وما يرجع إلى ذلك ومنه قوله تعالى: "وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين...

الآيات " فهذا الضرب وما يرد منه ويرجع إليه لا يشترك فيه ما قدم من الترقى والانتقال من أخف إلى أثقل ومن حكم إلى ما هو أعلى منه، أما الوعد والوعيد فالمطرد فيهما وفى الضروب المذكورة معهما ما بيناه من الترقى وهو كلام العرب.

فللقائل أن يقول إذا ثبت ذلك فما جوابكم عما ورد فى آية المائدة وظاهره على

=

=

خلاف ما زعمتم إطراده؟ فأقول: أما القول بخروج آية المائدة عما اطرد فى نظائرها وأنها مما ورد فيه الأخف بعد الأثقل فمرتكب لا يسلم لقائله وغفلة عما عليه آى القرآن وكلام العرب وإن كان قد اعتمده بعض الجلة رحمهم الله والجواب عنه جواب عن السؤال الأول.

وحاصل كلام من أشرنا إليه سؤالا وجوابا أن قال: إن قيل لم قال فى الأولى "هم الكافرون " وفى الثانية "هم الظالمون " والكفر أعظم من الظلم فما الفائدة فى ذكر الأخف بعد الأثقل؟ ثم جاوب بما معناه أنه لما تقدم الآية الأولى قوله تعالى: "فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا " وان ارتكاب شئ مما نهوا عنه وعدم خشيته تعالى تقصير فيما يجب له سبحانه وجحد الواجب له وإنكار نعمه تعالى كفر فأعقب بقوله تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون".

ولما تقدم الآية الثانية قوله تعالى: "وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس... الآية " فلم تتضمن هذه الآية غير الحقوق المتعلقة بالنفوس والوقوع فى شئ من ذلك يوجب إيلامها ودوام عقابها وذلك ظلم لها فأعقبت هذه بقوله تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون " انتهى معنى كلامه وفيه ببادئ النظر مناسبة وملاءمة فى النظم.

إلا أن ما تمهد من المطرد فى آى القرآن وما عليه كلام العرب فى الوعد والوعيد يرد ما اعتمده هذا القائل وقد تقدم فى قوله تعالى فى سورة البقرة: "وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية... الآية " ما فيه شفاء فيما ذكرته هنا.

ثم إن الكلام لو كان جاريا على ما قال لبنى عليه اعتراض يلزمه تكميلا لما ألزم نفسه فى هذه الآى من توجيه الوارد فيها من الأوصاف الثلاثة وهو قصره السؤال والجواب على الوصفين من الكفر والظلم وكأن قوله تعالى فى الآية الثالثة بعد:

=

=

"ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون " غير مناط بما قبله وليس الأمر كذلك فإن المذكورين فى الآى الثلاث قد اجتمعوا فى الحكم بغير ما أنزل الله وقد شملهم ذلك فهم من حيث ذلك صنف واحد ومدار الآى الثلاث إنما هو على فعل يهود المنصوص على حكمهم بغير ما أنزل الله ومخالفتهم منصوص كتابهم فى الرجم وغيره، وما قبل هذه الآى وما بعدها لم يخرج عنهم، فهم أهل الأوصاف الثلاثة وقد نقل المفسرون عن ابن عباس أنه قال: الكافرون والفاسقون والظالمون أهل الكتاب وعن ابن مسعود: هو عام فى اليهود وغيرهم وقال الزمخشرى مشيرا إلى وجه الترتيب فى هذه الأوصاف والمرادون بها فقال: الكافرون والفاسقون والظالمون وصف لهم بالعتو فى كفرهم حين ظلموا بالاستهانة وتمردوا بأن حكمهم بغير ما أنزل الله فجعل الظلم استهانة والفسق تمردا، وقد فسر الفاسقين من قوله تعالى فى آية البقرة: وما يكفر بها إلا الفاسقون بأنهم المتمردون من الكفرة، قلت: جعل الزمخشرى الاستهانة مسيرة ظلمهم ومادته فظلمهم المسبب عنها

بعد حصول كفرهم أشد من الكفر، ثم إن التمرد المعبر عنه فى الآية بالفسق وإن تقدمته الاستهانة وكانت كالمادة فإنه أشد من الاستهانة لأن التمرد تفعل من مرد أى عتا، والتفعل ينبنى علي التعمد والتعمل فتأمل حصول الترقى فى كلامه من أخف إلى أثقل وانسحاب كلامه على الأوصاف الثلاثة من الكفر والظلم والفسق وإن لم يفصح بسؤال ولا جواب وكثيرا ما يعتمده وينقل كلامه من قدمنا مأخذه فى هذه الآى وهو أبو الفضل بن الخطيب ثم أنه عدل عن اعتبار كلامه هنا وارتكب خلافه ولم يستوف توجيه الأوصاف الثلاثة وقصر السؤال على فصل ما بين الكفر والظلم دون الفسق، وأرى ذلك غير ما ينبغى والله أعلم.

وقد تعرض صاحب كتاب الدرة لهذه الآى من حيث خصوص مقصده وبنى

=

=

جوابه على ذلك فانفصل فى الأوليين بأن الظلم فى الآية الثانية واقع على الكفر والظلم فهو أشد من الكفر مجردا هذا معنى ما أراد وقد جرى فيه على المعرض من الترقى إلا أنه لم يتخلص ما بعد ذلك وجعل الآية الثالثة منقطعة عن الآيتين قبلها وحاصل كلامه بالجملة أن ما تقدم من الوصف بالكفر والظلم خاص بيهود لتقدم ذكرهم قبل هذه الآيات وقوله تعالى: "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور.. "إلى قوله نهيا لهم "فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا..

"إلى قوله "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " ولم يتقدم ذكرهم بغير كفرهم وتحريفهم من غير التفات إلى ذكر ظلمهم غيرهم إنما مجرد كفرهم ظلم لأنفسهم فأعقب هذا بقوله "هم الكافرون".

ثم لما اجتمع فى الآية الثانية ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بما ذكر من مخالفتهم فى القصاص المشار إليه بقوله: "وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس "الى آخره، أعقب هذا بقوله تعالى: "فأولئك هم الظالمون " لظلمهم أنفسهم بالكفر وزيادة ظلمهم غيرهم فكان أشد من وصف الكفر إذ هو كفر وزيادة فعبر بالوصف العام للكفر وغيره ثم لما أعقب بذكر إنزال الإنجيل وكان الكلام انقطع عما قبله ومن المعلوم أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون من غير الكافر وان لم تبلغ منزلته الكفر فهو فاسق لا كافر فقيل هنا: "فأولئك هم الفاسقون " انتهى معنى كلامه ثم أعقب هذا بأن قال: فقد بان لك أن كل موضع من الآى الثلاث أخبر فيه عن المذكورين قبل بالكفر والظلم والفسق، ولم يحصل غير ذلك.

قلت فقد حصل من كلامه أن الكفر والظلم لفى الآيتين خاص بيهود وهم المقصودون بذلك وان الفسق يعمهم مع غيرهم وهو مأخذ بناه على ما حكاه من غيره من أن "من " فى ثلاث الآى موصولة بمعنى الذى واعتمده هو فى الأوليين واخنار فى الثالثة من شرطية ليحصل فى الموصولة خصوص وعهد فيمن تقدم

=

=

وليحصل فى الشرطية عموم كما تقدم ثم أنه لم يتعرض لبيان ترق ولا انتقال.

فإن قيل إنما بنى عليه كتابه على مقصد خاص وهو فرق ما بين المتشابهات من الآى ونص السؤال الذى فرض إن قال: لسائل أن يسأل فيقول: الموضع الذى وصف فيه من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر هل باين الموضوع الذى وصف فيه تارك ذلك بالظلم والفسق؟ ثم أجاب بما تقدم فجوابه مطابق لما فرض من السؤال قلت هذا صحيح ولكنه لم يتخلص له جوابه فيما بين الآيتين الا باعتماد طريقة الترقى وهو لم يقصده بسؤال ولا جواب وإنما قصد الفرق الموجب لاختلاف الوصفين فتحصل له بما فى الآيتين من الانتقال فلو اعتبر ذلك ومشى عليه فى الآية الثالثة لكان أنسب وأبين فى جواب ما فرض من السؤال مع زيادة فائدة أهم وأكبر ولما لم يلح ذلك ارتكب التفصيل فى الجواب فجعل "من " فى الآيتين الأوليين موصولة ليحصل من خصوص هاتين الآيتين بيهود ما اعتمده كما تقدم من كلامه وجعلها فى الآية الثالثة شرطية ليحصل له ما قصد من العموم، وليس ذلك كما ذهب إليه ولا انفصلت منها آية أخرى الا بما أعقبت به من الوصف وتوجيهه حاصل منه ما أراده على ما نبينه مع رعى الترقى الثابت على ما قد تقدم وهو أوضح فى توجيهه هذه الأوصاف وأولى فى الجواب عن عين ما فرض صاحب كتاب الدرة من السؤال ووصف يهود بالفسق أعظم من وصفهم بالظلم ووصفهم بالظلم أعظم من وصفهم بالكفر وقد نقل المفسرون عن الحسن أنه قال: إذا استعمل فى نوع من المعاصى يعنى الفسق وقع على أعظم ذلك لنوع من كفر وغيره ثم فى آى سورة البقرة ما يبين وجه ختم آية المائدة بوصف الفسق قال تعالى: "ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات... الآيات " إلى قوله: "وما يكفر بها إلا الفاسقون " فتأمل ما تضمنت هذه الآيات فقد ورد فيها بضع عشرة خصلة من شنيع مرتكبهم

=

=

منها اتباع ما هوته أنفسهم أشار إليه قوله تعالى: "أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم " ومنها استكبارهم وتكذيبهم الرسل وقتلهم إياهم وقولهم: قلوبنا غلف، إلى ما بعد من المرتكبات وقد وقع فى أول هذه الآى ذكر عيسى عليه السلام والتقفية من بعده بالرسل وفى آيات المائدة قوله تعالى: "وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم " والضمير فى "آثارهم " لمن تقدم فى قوله تعالى: "يحكم بها النبيون الذين أسلموا " فورد مفصلا فى آى البقرة ما ورد مجملا فى المائدة وختمت آيات البقرة بقوله تعالى: "وما يكفر بها إلا الفاسقون " وآيات المائدة بقوله: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون " فإلى مجموع ما فى آيات البقرة أشارت آية المائدة وختمت هذه من وصفهم بالفسق بما ختمت تلك وحصل من وصفهم به أنه أعظم من وصفهم بالكفر والظلم لأنه كفر جامع لكل شنيع من مرتكباتهم ولذلك اختير التعبير به عن مرتكب إبليس فى إبايته عن السجود واستكباره فقيل: "إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه " فلم تقع هنا عبارة بكفره ولا ظلمه لأن الفسق بما يعتضد به من القرائن أعظم من الكفر والظلم، وقد حصل الجواب عما فرض السؤال عنه من تقدم وزاد إلى ذلك بيان الترقى المطرد وهو السؤال الأول وأما التفصيل فخطأ بين فأقول وأسأل الله توفيقه إن المفسرين قد أجمعوا على أن الوعد فى هذه الآى يتناول يهود وقد ثبت فى الصحيح إنكارهم الرجم مع ثبوته فى التوراة وفعلهم فيما نعى الله تعالى عليهم من مخالفة ما عهد إليهم فيه ونص فى كتابهم حسب ما أشار إليه قوله تعالى: "وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم " إلى قوله: "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض " إلى ما بعده وهذا كله من حكمهم بغير ما أنزل الله فهم الكافرون والظالمون والفاسقون ففيهم وبسبب مرتكبهم نزلت آيات المائدة ثم تقول مع ذلك أن الحكم إذا نزل بسبب خاص يمنع ذلك من دعوى العموم

=

=

المنزل وهذا باتفاق من حذاق الأصوليين وقد رددوا التمثيل بشاة ميمونة وهذا مع عدم الفرائن.

أما فيما نحن بسبيله فى آيات المائدة فقد عضد العموم فى ذلك وغيرها موضع من الكتاب والسنة فنقول بناء على ذكرنا أن هذه الآية وان نزلت بسبب جعل اليهود ومرتكبهم فى الرجم وغيره فإن ذلك عام فى كل من حكم بغير ما أنزل إليه، ما لم يفعل ذلك جاهلا غير متعمد للمعصية أو عاصيا متعمدا مع صحة اعتقاده وسلامة إقراره بلسانه، فقد حصت الشريعة هذين.

وقد تعلقت الخوارج بعموم هذه الآى وأشباهها فى تكفيرهم مرتكب الكبيرة وليس شئ من ذلك نصا فى مطلوبهم وهو محجوبون بغيرها وإذا كانت هذه الآى على عمومها فيمن بينا، فمن فى المواضع الثلاثة شرطية وهى من المتفق عليه فى ألفاظ العموم عند أربابه وهم الجمهور وأما القول بتفصيل حكم "من " فى هذه الآى وانها من اجتماع المذكورين فى الآيات فيما تقدم من حكمهم بغير ما أنزل الله ووحدة السبب فى نزول الآيات فلا يصح بوجه فقصر السؤال على فصل ما بين الكفر والظلم دون الفسق كما ذكرنا عمن تعرض لهذه الآية من الجلة وجعله الآيتين الأوليين مما ورد فيه الانتقال من الأثقل إلى الأخف غير صواب والله أعلم.

واطراد ما تقدم من الترقى والانتقال فى الوعد والوعيد وتحكيم ما تقرر من ذلك هو الحق الذى لا ينبغى أن يعدل عنه ثم أقول وأسأل الله التوفيق إن هذه الآى جارية على المطرد فى الوعد والوعيد والانتقال فى الوصف بالكفر والظلم والفسق من أخف إلى أثقل جار على ما قد تبين بحول الله إنما يدخل الغلط من أخذ هذه الصفات مجردة عن القرائن وما يثمره الاشتراك فالكفر إذا ورد مجردا عن القرائن إنما يقع على الكفر فى الدين ثم إنه قد يقع على كفر النعمة ويفتقر إلى قرينة ومنه:

=

=

"وفعل فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين".

وأما الظلم فلفظ مشترك فإذا ورد مجردا عن القرائن لم نصا فى شئ من مواقعه، وإنما يتخلص بالقرائن، قال تعالى: "إن الشرك لظلم عظيم " وقال تعالى مخبرا عن نبيه يونس عليه السلام: "سبحانك إنى كنت من الظالمين " ومعاذ الله من الكبيرة فكيف بالشرك الذى لا فلاح معه ولم يخالف أحد من أهل السنة ممن يعتمد نظره انهم معصومون من الكفر قبل الوحى وبعده وجمهورهم متفقون انهم معصومون من الكبائر، وجلة أهل السنة على عصمتهم مما فيه دناءة من الصغائر وبعضهم فى طائفة كبيرة من سيئة المتصوفه يقولون بعصمتهم من الصغائر على الإطلاق وكل هذه الضروب يصح وقوع اسم الظلم عليه وقوله تعالى: "إن الله لا يظلم مثقال ذرة " أوضح شهادة على ذلك.

أما الكفر فلا تنتشر مواقعه وكأم دلالته على كفر النعمة من قبيل ما يدل بتشكيك كدلالة موجود على العرض وأما الظلم فعلى ما تقدم فإذا اقترن بالظلم الكفر كان أعظم من الكفر.

قال المفسرون فى قوله تعالى: "وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون " إنهم المتوغلون فى الظلم المكابرون فهذا كفر وزيادة وقد تقدم تسمية الشرك ظلما وأما الفسق فلم يرد فى القرآن واقعا على صغيرة وقد يقع على الكبيرة حيث يقصد تعظيمها كقوله تعالى: "والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء "الآيى وقد ختمت بوصفهم بالفسق ولا أذكر غيرها وقد عد عليه السلام هذه فى السبع الموبقات وإنما يقع فى الأكثر على الكفر كقوله تعالى: "أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا " لأن المراد هنا الطرفان كقوله تعالى: "فمنكم كافر ومنكم مؤمن " وأكثر وقوعه فى القرآن إنما هو فى وصف يهود والمنافقين كقوله تعالى: "ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون "، نزلت فى ابن صوريا لعنه الله، وكقوله تعالى: "منهم

=

=

المؤمنون وأكثرهم الفاسقون "، وكقوله تعالى: "فلا تأس على القوم الفاسقين "، وكقوله تعالى: "ولكن كثيرا منهم فاسقون".

فى بضع وعشرين آية. وورد الوصف بالفسق فى قوم لوط عليه السلام كقوله تعالى: "إنهم كانوا قوما فاسقين " وكقوله تعالى: "إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون "، وقد وردت فيمن ختم عليهم بالكفر قال تعالى: "كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا إنهم لا يؤمنون "، وقد تقدم وصف إبليس بالفسق فهذا الوصف لا يقع فى كتاب الله الا على ذوى التمرد من الكفرة وأكثر ذلك من يهود والمنافقين، ولم يجر الوصف بالظلم فى كتاب الله مجرى الفسق فى ما ذكرنا وقلما يوصف يهود والمنافقون وان كانوا ظالمين لأنفسهم الا بالفسق.

فالظلم والفسق وان وقعا على المتوغلين فى الكفر حين ذكرنا وبالقرائن فالفسق أشد وأعظم

ولا يوصف به من الكفرة فى كتاب الله الا شرهم.

لما بلغ قوم نوح عليه السلام فى إصرارهم على الكفر وتماديهم عليه إلى قطع رجائه عليه السلام منهم حتى قال: "ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا " قال تعالى فيهم: "إنهم كانوا قوما فاسقين " ولما ارتكب قوم لوط عليه السلام من فحش المرتكب بما لم يسبقوا إليه وسموا بالفسق ولما بلغ يهود والمنافقين ما أعلم به القرآن من حالهم واستحقوا اللعنة والغضب تكرر وصفهم بالفسق فقد وضح أبين الوضوح ان الظلم بالقرائن حسبما تقدم أشنع من الكفر مجردا وان الفسق أشد زأعظم إذا شهدت له القرائن فحصل بالانتقال فى آى المائدة من أخف إلى أثقل على المطرد فى آى الوعيد وفى المقابل من الترقى فى آى الوعد وان عكس الوارد على ما وضح لا يناسب والله أعلم.

=

=

الآية الثالثة عشرة: وهى تمام ما قبلها: قوله تعالى: "وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم " وفى سورة الحديد: "ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم " للسائل أن يسأل عن وجه ما اختلف فى هاتين السورتين من التفصيل فيمن قفى بهم؟

ووجه ما زيد فى آية الحديد من المقفى بهم قبل عيسى عليه السلام، ولم يقع ذلك فى سورة المائدة مع اتحاد ما قصد فى الموضعين من تواتر الرسل وتقفية بعضهم ببعض؟

والجواب والله أعلم: ان آية المائدة ورد الكلام فيما تقدمها فى بنى إسرائيل من لدن قوله تعالى: "ولقد أخذنا الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا " إلى الآية التى نحن فيها ثم استمرت الآيات بعد فيهم إلى قوله تعالى: "لتجدن أشد الناس عداوة..

" الآيات فأكثر آيات هذه السورة إنما نزلت فيهم تعريفا بمرتكباتهم وتحريفهم ونقضهم الميثاق وحكمهم بغير ما أنزل الله وفى أثناء ذلك تسلية نبينا صلى الله عليه وسلم عنهم كقوله تعالى: "يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر.. "الآية

وقوله تعالى: "ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا "، وقوله تعالى: "فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم " وقوله بعد الآية المتكلم فيها: "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة " وقوله: "فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم " وفيما قبل هذا: "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا... "الآيات، ولم يقع فى هذه الآى ذكر لغير بنى إسرائيل ومن كان فيهم من الأنبياء من بعد موسى عليه السلام إلى قوله تعالى: "ثم قفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم " ولا توقف فى تعقيب الرسل والأنبياء بعيسى عليه السلام فلهذا لم يقع هنا ذكر واسطة.

=

=

وأما آية الحديد فمقصدها غير هذا إذ هى وما اتصل بها قبلها وبعدها خطاب للؤمنين وعظات وترغيب وتمثيل وتحذير أن يكونوا كمن عرفوا به ممن طال عليه الأمد وقسا قلبه فلهذا وما يتلوه إلى أول قوله تعالى: "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله " إلى آخر السورة خطاب للمؤمنين فيما لهم وعليهم وما وعدوا به وحذروا منه وكذا سورة الحديد بجملتها وهم المعرفون بقوله: "لقد أرسلنا رسلنا بالبينات "، فالمراد عامة الرسل عليهم السلام ممن كان من بنى إسرائيل وقبلهم تعريفا بما أنعم سبحانه على العباد من رحمتهم بإرسال الرسل ونص من جميعهم على نوح وابراهيم إعلاما بحالهما فى الرسل كما قيل: "وجبريل وميكائيل " بعد دخولهم تحت قوله: "وملائكته " وشمول لفظ الملائكة لهم ولغيرهم.

ثم قال تعالى: "ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم " وذكر ما جعل فى ذريتهما من النبوة والكتاب، اتبع تعالى بتوالى الإنعام بمن بعدهم فقال: "ثم قفينا على آثارهم برسلنا " إشارة إلى من كان بعد نوح وابراهيم وبينهم وبين عيسى وذلك كثير ثم قال: "وقفينا بعيسى " وهذا مقصد مباين ما قصد بآية المائدة فاختلف ما ورد فى الموضعين لاختلاف المقصد فيهما ولم يكن عكس الوارد ليناسب والله أعلم بما أراد.

الآية الرابعة عشرة: قوله تعالى: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين " وفى سورة التغابن: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين "، فورد فى الأولى زيادة: "واحذروا " وزيادة: "فاعلموا " مع اتحاد ما تضمنته الآيتان من الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله والتحذير من التنكب عن ذلك والتولى.

فيسأل عن ذلك؟

=

=

والجواب عن ذلك والله أعلم: أن آية المائدة لما أعقب بها آية الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها، ثم اتبع بعد ذلك بذكر العلة فى تحريمها فقال تعالى: "إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر...

"الآية إلى قوله: "فهل أنتم منتهون " فختمت من التهديد بما يشعر بشديد الوعيد ناسب ذلك قوله تأكيدا لما تقدم من الاشعار بمخوف الجزاء قوله "فاحذروا " وقوله "فإن توليتم فاعلموا " لما فى ذلك من التأكيد لما تقدم.

أما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعى هذا التأكيد ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى: "ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شئ عليم " فلما لم يرد هنا نهى عن محرم متأكد التحريم بما اتبع النهى من التهديد والتأكيد لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك فجاء كل على ما يجب ويناسب وليس عكس الوارد بمناسب والله أعلم.

الآية الخامسة عشرة:

قوله تعالى: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم " وكذا فى سورة الممتحنة: "واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم " فورد فى هاتين الآيتين وصفه تعالى بهاتين الصفتين المشيرتين إلى العزة والقهر وإنما ورد المطرد فى الكتاب العزيز مهما جرى ذكر المغفرة طلبا أو إخبارا ورود ما به يقوى رجاء السائل ويطمع تعلقا به المتذلل الراغب كقوله تعالى: "إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين " فقوله هنا: "وأنت خير الراحمين " توسل مناسب لما تقدم من طلب المغفرة والرحمة وفى سورة يوسف قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " وفى سورة القصص: "قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم " فهذا كله مناسب للطلب وهو كثير فى الكتاب

=

=

العزيز وجار على ما تمهد وأما وصفه سبحانه بالعزة والملكية والحكمة فإنما يرد حيث يراد معنى الاقتدار والاستيلاء والقهر وإحاطة العلم وإفراده سبحانه بالخلق والأمر والربوبية والتعالى وما يرجع إلى هذا كقوله تعالى: "وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم " وقوله تعالى: "وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض... " ثم قال تعالى: "وهو العزيز الحكيم " وقوله تعالى: "ولله جنود السماوات والأرض... " ثم قال: "وكان الله عزيزا حكيما " وقوله تعالى: "سبح لله ما فى السماوات والأرض... " ثم قال: "وهو العزيز الحكيم " وهذا كثير مطرد حيث يراد معنى القهر والملكية والإحاطة والاقتدار فللسائل أن يسأل عن وجه ورود آيتى المائدة والممتحنة معقبتين بما ذكر؟

والجواب عن ذلك والله أعلم: يتفصل فى الآيتين: أما آية المائدة فمبنية على التسليم لله سبحانه وأنه المالك للكل يفعل فيهم ما يشاء فلو ورد هنا عقب آية المائدة: "وإن تغفر لهم فأنت الغفور الرحيم " لكان تعريضا بطلب المغفرة ولم يقصد ذلك بلآية وإنما قيل ذلك على لسان عيسى عليه السلام تبريا وتسليما لله سبحانه وليس موضع طلب مغفرة لهم وإنما هو تنصل من حالهم وتسليم لله فيهم قال القرطبى رحمه الله: "لم يقل "الغفور الرحيم لأن مخرجه على التسليم ولأن فى ذكر الغفور تعريضا للسائل والكلام لتسليم الأمرين والحكمة تقتضيهما وكأنه قال: فالمغفرة لا تنقص من عزك ولا تخرج عن حكمتك.

وأما قوله فى سورة الممتحنة: "ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم " فالجواب عندى هنا ان قوله: "إنك أنت العزيز الحكيم " مبنى على قوله: "لا تجعلنا فتنة للذين كفروا " فإن المراد لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيكون سبب فتنتهم فلا تفعل ذلك بنا فأنت القادر على كفهم

=

=

ونصرنا عليهم فانك العزيز الذى الذى لا معارض لما تريده ولا مانع مما تشاؤه لما كان المؤمنون يعلمون أن ما يصيبهم من مصيبة إنما هى بما كسبت أيديهم سألوا المغفرة من مجترحاتهم وأورد سؤالهم مورد جمل الاعتراض فقدم وهو قوله: "واغفر لنا ربنا " فإن الكلام فى تقدير التقديم والتأخير: ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا إنك أنت العزيز الحكيم واغفر لنا ربنا، فقد قوله: "واغفر لنا ربنا " أثناء الكلام إحرازا لآدابهم ومعتقدهم الإيمانى فقد تبين حال المناسبة فى آية العقود وآية الممتحنة بين الآيتين وبين ما أعقبتا به وأنه لا يمكن على ما تقرر سواه والله أعلم بما أراد.

فإن قلت فما جوابك عما ذكر عن بعض المتأخرين من أن جواب قوله تعالى: "وإن تغفر لهم " محذوف أى وإن تغفر لهم فإنهم عبادك ثم عطف عليه قوله: "فإنك أنت العزيز الحكيم " وأن المناسبة إنما تحصل بهذا التقدير؟.

قلت: هنا خطأ من وجهين: توجيه المناسبة وتوجيه الإعراب أما المناسبة فقد تبينت على أتم وجه وأما الإعراب فيمتنع تقديره فيه على ما نبينه، ثم فى هذا المرتكب فساد المعنى إذ ليس الكلام واردا مورد الاستلطاف وقد بين، وأما امتناع ما اختاره فى الإعراب فمن وجهين: أحدهما التهيئة والقطع وهو متفق علي منافرته إذا أمكنت المندوحة والثانى وهو عاضد لهذا وقاطع فى المسألة وهو أن سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ قد نص أن العرب لا تتكلم به الا فى الشعر قال فى باب الجزاء: "وقبح فى الكلام أن تعمل أن أو شئ من حروف الجزاء فى الفعل حتى تجزمه فى اللفظ ثم لا يكون له جواب فيجزم ما قبله ألا ترى أنك تقول: آتيك إن أتيتنى ولا تقول آتيك إن تأتينى الا فى الشعر لأنك أخرت إن وما عملت فيه فلم تجعل لها جوابا ينجزم بما قبله فهكذا جرى هذا فى كلامهم وقد زاد الإمام بسطا فى الكتاب " فهذا قاطع من سيبويه وقد تقدم قبله ما يحصل فى الكلام من التهيئة والقطع وهو

=

سورة الأنعام[1]

=

كاف لاتفاق النحويين على قبح التهيئة والقطع ثم قد انضم إلى ذلك من نص سيبويه: ان العرب لا تتكلم بهذا فلا تأتى بكلام قد انجزم فيه الفعل بأداة الشرط ثم لا تأتى بجواب مجزوم فى اللفظ أما إذا أتيت بالفاء فى الجواب فلا خلاف فى هذا كما فى الآية وعلى ما قاله سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ كافة النحويين من متقدميهم ومتأخريهم فوضح خطأ هذا القول. ا.هـ من ملاك التأويل (١/ ١١٦-١٣٩).

(١) في وقت نزول السورة أقوال:

أحدها: أنها مكية قيل: إلا آية واحدة هي قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام: ١١١] فإنها مدنية. رواه ابن المنذر عن أبي جحيفة.

والثاني: انها مكية قيل: إلا آيتين ومن ثم اختلفوا فيهما على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الآيتين نزلتا في المدينة في رجل من اليهود قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فنزل فيهم: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٩١] الآيتين، وهو قول الكلبي في رواية أبي الشيخ عنه.

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان مثل ذلك وزاد: "هو فنحاص اليهودي أو مالك بن الصيف ".

القول الثاني: وقيل: هما قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [الأنعام: ١٥١] إلى آخر الآيتين، رواه إسحاق بن راهويه في مسنده عن شهر بن حوشب ، والفريابي عن بشر.

قال محمد رشيد رضا:"وما قبله أقوى من جهة معنى الآيتين، فإنه في محاجة

=

=

اليهود الذين كانوا في المدينة، وأما {قل تعالوا} الآيتين، فمعناهما من موضوع السور المكية، وهم متصلتان بما بعدهما".

القول الثالث: وقيل: هما قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الأنعام: ٩١]، والأخرى، قوله: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [الأنعام: ١٤١]. حكاه القرطبي عن ابن عباس ، وقتادة.

وجاءت في الأخبار، أن قوله: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الأنعام: ٩١]، نزلت في مالك بن الصيف وكعب ابن الأشرف اليهوديين ، وقيل نزلت في فنحاص اليهودي ،وقوله: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [الأنعام: ١٤١]، نزلت في ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري. وقيل: نزلت في معاذ بن جبل.

والثالث: قيل: أنها مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [الأنعام: ١٥١] إلى تمام الآيات الثلاث. رواه النحاس عن مجاهد عن ابن عباس.

قال السيوطي:"وقد صحّ النقل عن ابن عباس باستثناء {قُلْ تَعَالَوْا} الآيات".

والرابع: قال الثعلبي: أنها مكية إلا ست آيات، هي: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ} [الأنعام: ١٥١] الآيات الثلاث، وقوله: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه} [الأنعام: ٩١] ، وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى} [الأنعام: ٩٣] ، الآيتين.

وهذا جمع بين الأقوال السابقة كلها.

والخامس: ذكر البغوي عن ابن عباس أنها مكية إلا ست آيات هي: قوله: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه} [الأنعام: ٩١] إلى آخر ثلاث آيات، وقوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ} [الأنعام: ١٥١]، إلى قوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣].

والسادس: في رواية عن ابن عباس ، أنها مكية إلا خمس آيات، هي: {قُلْ تَعَالَوْا

=

=
أَتْلُ} [الأنعام: ١٥١]، وقوله: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه} [الأنعام: ٩١]، وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى} {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ} [الأنعام: ٩٣]، وقوله: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّك} [الأنعام: ١١٤]، وقوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ} [الأنعام: ٢٠].

والسابع: قال مقاتل: انها مكية إلا سبع آيات، هي: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ} [الأنعام: ١٥١] الآيات الثلاث، وقوله: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه} [الأنعام: ٩١]، وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى} [الأنعام: ٩٣]، وقوله: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَق} [الأنعام: ١١٤]، وقوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ} [الأنعام: ٢٠].

والثامن: قال الزمخشري:" سورة الأنعام مكية إلا الآيات: «٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣»، فمدنية".

والتاسع: وذكر ابن العربي: أن قوله تعالى: {قُلْ لَا أَجِدُ} [الأنعام: ١٤٥]، مدنية مكية في قول الأكثر، نزلت على النبي ﷺ يوم نزل عليه قوله: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي} [المائدة: ٣] وذلك يوم عرفة.

أخرج ابن الضريس وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في "الدلائل"، عن ابن عباس قال: "أنزلت سورة الأنعام بمكة".

قال ابن كثير:" قال العَوْفيّ وعِكْرمة وعَطاء، عن ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة".

قال العلامة ابن عاشور: "واعلم أن نزول هذه السورة جملة واحدة على الصحيح لا يناكد ما يذكر لبعض آياتها من أسباب نزولها، لأن أسباب نزول تلك الآيات إن كان لحوادث قبل الهجرة فقد تتجمع أسباب كثيرة في مدة قصيرة قبل نزول هذه
=

=

السورة، فيكون نزول تلك الآيات مسببا على تلك الحوادث، وإن كان بعد الهجرة جاز أن تكون تلك الآيات مدنية ألحقت بسورة الأنعام لمناسبات. على أن أسباب النزول لا يلزم أن تكون مقارنة لنزول آيات أحكامها فقد يقع السبب ويتأخر تشريع حكمه، وعلى القول الأصح أنها مكية فقد عدت هذه السورة الخامسة والخمسين في عد نزول السور. نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات".

* عدد آياتها مائة وخمس وستون آية عند الكوفيّين، وستّ عند البصريّين والشَّأْميّين، وسبع عند الحجازيّ.

وعدد كلماتها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة وعدد حروفها اثنا عشر أَلفًا ومائتان وأَربعون.

والمختلف فيها أَربع آيات {الظلمات والنور} {بِوَكِيلٍ} {كُنْ فَيَكُوْن} {إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم}.

فواصل آياتها (ل م ن ظ ر) يجمعها (لمَ نظر).

* أسماء السورة.

تسمى سورة «الأنعام»

النّعَم: واحد الانعام، وهي المال الراعية، أو المال السائم، وقيل: النعم: الإبل، والشاء، يذكر ويؤنث، والجمع أتعام، وقيل: الإبل خاصة، والأنعام: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقع الاسم على الإبل ، وقيل: لا يقال لها أنعام، حتى يكون فى جملتها الإبل.

وتسمى هذه السورة بسورة «الأنعام»، لوجهين:

أحدهما: لما ورد فيها من ذكر الأنعام مكررًا، ومفصلًا لأحوالها ، إذ لم يرد في غيرها من السور، فقد ورد ذكر «الأنعام» في مواضع عدة من القرآن ولكن دون تفصيل، أما سورة الأنعام فقد تكرر فيها لفظ «الأنعام» ست مرات، وجاءت

=

=

بحديث طويل عنها، استغرق خمس عشرة آية، من أول الآية (١٣٦) من قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا} [الأنعام: ١٣٦]، إلى آية (١٥٠) وهي قوله: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا... } [الأنعام: ١٥٠].

كما أن التفصيل الوارد فى ذكر «الأنعام» قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [الأنعام: ١٤٢]،لم يرد فى غيرها.

والثاني: لأن أكثر احكامها الموضحة لجهالات المشركين تقربا بها إلى أصنامهم مذكورة فيها.

قال المهايمي: "سميت بها؛ لأن أكثر أحكامها وجهالات المشركين فيها، وفي التقرب بها إلى أصنامهم مذكورة فيها، وقد اشتملت على أكثر جهالاتهم ويتم ظهورها بها".

وتسمى سورة «الحجة» ذكره الفيروزآبادي، ولم نجد من المنقول فيما يؤيد بهذه التسمية، وقد علّل الآبادي تسميتها بذلك من وجهين:

أحدهما: لأنها مقصورة على ذكر حجة النبوة.

والثاني: تكررت فيها الحجة، فى قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام: ٨٣]، وقوله تعالى: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: ١٤٩].

وأيضًا: فهي أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور.

* مقصود السّورة على سبيل الإجمال، ما اشتمل على ذكره: من تخليق السّماوات والأَرض، وتقدير النُّور والظلمة، وقضاءِ آجال الخَلْق، والرّد على منكِرى النبوّة، وذكر إنكار الكفَّار فى القيامة، وتمنّيهم الرّجوع إِلى الدّنيا، وذكر

=

=

تسلية الرسول ﷺ عن تكذيب المكذِّبين، وإلزام الحجّة على الكفار، والنَّهى عن إيذاءِ الفقراءِ، واستعجال الكفَّار بالعذاب، واختصاص الحقّ تعالى بالعلم المغيّب، وقهره، وغلبته على المخلوقات، والنَّهى عن مجالسة النَّاقضين ومؤانستِهم، وإثبات البعث والقيامة، وولادة الخليل عليه السلام، وعرْض الملَكوت عليه، واستدلاله، حال خروجه من الغار، ووقوع نظره على الكواكب، والشمس، والقمر، ومناظرة قومه، وشكاية أَهل الكتاب، وذكرهم حالة النزع، وفى القيامة، وإظهار بُرْهان التَّوحيد ببيان البدائع والصّنَائع، والأَمر بالإعراض عن المشركين، والنَّهى عن سبِّ الأَصنام، وعُبّادها، ومبالغة الكفَّار فى الطّغيان، والنَّهى عن أَكل ذبائح الكفَّار، ومناظرة الكفار، ومحاورتهم فى القيامة، وبيان شَرْع عَمْرو بن لُحىّ فى الأَنعام بالحلال والحرام، وتفصيل محرّمات الشريعة الإسلامية، ومُحْكَمَات آيات القرآن، والأَوامر والنَّواهى من قوله تعالى {قُلْ تَعَالَوْا} إلى آخر ثلاث آيات، وظهور أَمارات القيامة، وعلاماتها فى الزَّمن الأَخير، وذكر جزاءِ الإحسان الواحد بعشرة، وشكر الرّسول على تبرّيه من الشرك، والمشركين، ورجوعه إلى الحق فى مَحياه ومَمَاته، وذكر خلافة الخلائق، وتفاوت درجاتهم، وختم السّورة بذكر سرعة عقوبة الله لمستحِقِّيها، ورحمته، ومغفرته لمستوجبيها، بقوله {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيْمٌ}.

* المتشابهات. قوله: {فَقَدْ كَذَّبُوا بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ} وفى الشعراءِ {فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ} لأَنَّ سورة الأَنعام متقدّمة فقيّد التكذيب بقوله: {بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ} ثمّ قال: {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ} على التمام، وذكر فى الشعراءِ {فَقَدْ كَذَّبُوا} مطلقا؛ لأَن تقييده فى هذه السّورة يدلّ عليه، ثمّ اقتصر على السّين هناك بد (فسوف) ليتَّفق اللفظان فيه على الاختصار.

قوله {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا} فى بعض المواضع بغير واو؛ كما فى هذه السّورة، وفى

=

=

بعضها بالواو، وفى بعضها بالفاءِ؛ هذه الكلمة تأتى فى القرآن على وجهين: أَحدهما متَّصل بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة، فذكره بالأَلف والواو، ليدلّ الألف على الاستفهام، والواو على عطف جملة على جملة قبلها، وكذا الفاءُ، ولكنَّها أَشدّ اتِّصالًا بما قبلها، والثانى متَّصل بما الاعتبارُ فيها بالاستدلال، فاقتُصِر على الأَلف دون الواو والفاءِ، ليجرى مَجْرَى الاستئناف؛ ولا يَنْقُصُ هذا الأَصلَ قوله {أَلَمْ يَرَوْا إلى الطير} فى النَّحل؛ لاتِّصالها بقوله {والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} وسبيله الاعتبار بالاستدلال، فبنى عليه {أَلَمْ يَرَوْا إلى الطير}.

قوله {قُلْ سِيرُوا فِي الأرض [ثُمَّ انظروا} فى هذه السورة فحسب. وفى غيرها: {سِيرُوا فِي الأرض] فَانظُرُوا} لأَنَّ ثُمَّ للتراخى، والفاءَ للتعقيب، وفى هذه السّورة تقدّم ذكرُ القرون فى قوله {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ} ثمّ قال {وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًاءَاخَرِيْنَ} فأُمِرُوا باستقراءِ الدِّيار، وتأَمُّل الآثار، وفيها كثرة فيقع ذلك (فى) سير بعد سير، وزمان بعد زمان، فخصّت بثمّ الدّالة على التَّراخى بعد الفعلين، ليُعلَم أَنَّ السّير مأمور به على حِدَة؛ ولم يتقدّم فى سائر السّور مثلُها، فخُصّت بالفاءِ الدَّالة على التعقيب.

قوله {الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} ليس بتكرار لأَنَّ الأَوّل فى حقِّ الكفَّار، (والثانى) فى حقِّ أَهل الكتاب.

قوله {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ [لاَ يُفْلِحُ الظالمون} وقال فى يونس (فمن) بالفاءِ، وخَتم الآية بقوله {إِنَّهُ] لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُوْنَ} لأَنَّ الآيات الَّتى تقدّمت فى هذه السّورة عُطِف بعضها على بعض بالواو، وهو قوله {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هاذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ... وَإِنَّنِي بَرِيءٌ} ثمّ قال: {وَمَنْ أَظْلَمُ} وخَتَم الآية بقوله: {الظالمون} ليكون آخر الآية موافقا للأَول. وأَما فى سورة يونس فالآيات التى تقدمت عطف بعضها على بعض بالفاءِ وهو قوله: {فَقَدْ

=

=
لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} ثم قال: فمن أَظلم (بالفاءِ وختم الآية] بقوله: {المجرمون} أَيضًا موافقة لما قبلها وهو قوله: {كذلك نَجْزِي القوم المجرمين} فوصفهم بأَنَّهم مجرمون، وقال بعده {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض مِن بَعْدِهِم} فختم الآية بقوله: المجرمون ليعلم أَنَّ سبيل (هؤُلاءِ سبيل) مَن تقدّمهم.

قوله: {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} وفى يونس {يَسْتَمِعُونَ} لأَنَّ ما فى هذه السّورة نَزَل فى أَبى سفيان، والنَّضْر بن الحارث، وعُتْبَة، وشَيْبَةَ، وأُمَيَّةُ، وأُبىّ بن خَلَفَ، فلم يكثروا ككثرة قوله (مَن) فى يونس لأَنَّ المراد بهم جميع الكفَّار، فحمل هاهنا مرَّة على لفظ (مَنْ) فوُحِّدَ؛ لقلَّتهم، ومرَّة على المعنى، فجمع؛ لأَنَّهم وإِن قَلُّوا جماعةٌ. وجُمع ما فى يونس ليوافق اللَّفظ المعنى. وأَمَّا قوله فى يونس: {وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ} فسيأْتى فى موضعه إِن شاءَ الله تعالى.

قوله: {وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النار} ثمّ أَعاد فقال: {وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ} لأَنَّهم أَنكروا النَّار فى القيامة، وأَنكروا الجزاءَ والنَّكال، فقال فى الأُولى: {إِذْ وُقِفُوا عَلَى النار}، وفى الثَّانية {عَلَى رَبِّهِمْ} أَى جزاءِ ربِّهم ونكالِه فى النار، وختم بقوله: {فَذُوْقُوْا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ}.

قوله: {إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} ليس غيره. وفى غيرها بزيادة (نموت ونحيا) لأَنَّ ما فى هذه السّورة عند كثير من المفسرين متَّصل بقوله ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وقالوا إِن هى إِلاَّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولم يقولوا ذلك، بخلاف ما فى سائر السُّوَر؛ فإِنهم قالوا ذلك؛ فحكى الله تعالى عنهم.

قوله: {وَمَا الحياة الدنيآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} قدّم اللَّعب على اللَّهو فى موضعين هنا، وكذلك فى القتال، والحديد، وقدّم اللَّهو على اللَّعب فى الأَعراف، والعنكبوت، وإِنما قدّم اللَّعب فى الأَكثر لأَنَّ اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب، وزمان
=

=

الصبا مقدّم على زمان الشباب. يُبَيِّنه ما ذكر فى الحديد {اعْلَمُوْا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ} كلعب الصبيان {وَلَهْوٌ} كلهو الشبَّان {وَزِيْنَةٌ} كزينة النِّسوان {وَتَفَاخُرٌ} كتفاخر الإخوان {وَتَكَاثُرٌ} كتكاثر السُّلطان. وقريب من هذا فى تقديم لفظ اللعب على اللَّهو قوله {وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ} وقدّم اللَّهو فى الأعراف لأَنَّ ذلك فى القيامة، فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين. وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمانُ الدُّنيا، وأَنَّه سريع الانقضاءِ، قليل البقاءِ، وإِنَّ الدَّار الآخرة لهى الحيوان أى الحياة الَّتى لا بداية لها، ولا نهاية لها، فبدأ بذكر اللهو؛ لأَنَّه فى زمان الشَّباب، وهو أكثر من زمان اللعب، وهو زمان الصِّبا.

قوله: {أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمْ الساعة} ثمّ قال: {أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً} وليس لهما ثالث. وقال: فيما بينهما {أَرَأَيْتُمْ} وكذلك فى غيرها، ليس لهذه الجملة فى العربيّة نظير، لأَنَّه جمْع بين علامَتَى خطاب، وهما التاءُ والكاف، والتَّاءُ اسم بالإجماع، والكاف حرف عند البصريين يفيد الخطاب فحسْبُ، والجمع بينهما يدلُّ على أَن ذلك تنبيه على شئ، ما عليه من مزيد، وهو ذكر

الاستئصال بالهلاك، وليس فيما سواهما ما يدلّ على ذلك، فاكتُفِىَ بخطاب واحد والله أَعلم.

قوله {لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُوْنَ} فى هذه السورة، وفى الأَعراف: {يَضَّرَّعُوْنَ} بالإدغام لأَنَّ هاهنا وافق ما بعده وهو قوله: {جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوْا} ومستقبل تضرَّعوا يتضرَّعون لا غير. قوله: {انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات} مكرّر؛ لأَنَّ التقدير: انظر كيف نصرّف الآيات ثمّ هم يصْدِفُونَ عنها؛ فلا نُعرض عنهم بل نكرّرها لعلهم يفقهون.

=

=

قوله: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله ولا أَعْلَمُ الغيب ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} فكرّر {لَكُمْ} وقال فى هود {وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} فلم يكرّر {لَكُمْ} لأَنَّ فى هود تقدّم {إِنِّيْ لَكُمْ نّذِيْرٌ} وعَقِبه {وَمَا نَرَى لَكُمْ} وبعده {أَنْ أَنْصَحُ لَكُمْ} فلمّا تكرّر {لَكُمْ} فى القصّة أربع مرَّات اكتفى بذلك.

قوله: {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذكرى لِلْعَالَمِينَ} فى هذه السّورة، وفى سورة يوسف: {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} منوَّنًا؛ لأَنَّ فى هذه السّورة تقدّم {بَعْدَ} {وَلَكِنْ ذِكْرَى} فكان {الذِّكْرَى} أَليقَ بها.

قوله: {يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي} فى هذه السّورة؛ وفى آل عمران: {وَتُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَتُخْرِجُ الميت مِنَ الحي} وكذلك فى الرّوم، ويونس {يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي} لأَنَّ [ما] فى هذه السّورة وقعت بين أَسماءِ الفاعلين وهو فالق الحبّ، فالق الإِصباح وجاعل اللَّيل سكنًا، واسم الفاعل يُشْبه الاسم من وجه، فيدخله الأَلفُ واللاَّم، والتنوينُ، والجرُّ (من وجه) وغير ذلك، ويشبه الفعل من وجه، فيعمل عمل الفعل، ولا يثنى و (لا) يجمع إِذا عمل، وغير ذلك. ولهذا جاز العطف عليه بالاسم نحو قوله: الصّابرين والصّادقين، وجاز العطف عليه بالفعل نحو قوله: {إِنَّ المصدقين والمصدقات وَأَقْرَضُوا الله قَرْضًا حَسَنًا}، ونحو قوله: {سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ} فلمّا وقع بينهما ذكر {يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت} بلفظ الفعل و {وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي} بلفظ الاسم؛ عملًا بالشّبَهَين وأُخِّر لفظ الاسم؛ لأَنَّ الواقع بعده اسمان، والمتقدّم اسم واحد، بخلاف ما فى آل عمران؛ لأَنَّ ما قبله وما بعده أَفعال. وكذلك فى يونس والرّوم قبله وبعده أَفعال. فتأَمّل فيه؛ فإِنّه من معجزاتِ القرآن.

قوله {قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} ثمّ قال: {قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ}

=

=

وقال بعدهما {إِنَّ فِي ذلكم لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} لأَنَّ مَن أَحاط علمًا بما فى الآية الأُولى صار عالِمًا، لأَنَّه أَشرف العلوم، فختم بقوله: يعلمون؛ والآية الثانية مشتملة على ما يَستدعى تأمُّلًا وتدبُّرًا، والفقه علم يحصل بالتفكُّر والتدبُّر، ولهذا لا يوصف به الله سبحانه وتعالى، فختم الآية بقوله: {يَفْقَهُونَ} ومَنْ أَقَرَّ بما فى الآية الثالثة صار مؤمنًا حَقًّا، فختم الآية بقوله {يُؤْمِنُوْنَ} وقوله {ذلكم لآيَاتٍ} فى هذه السّورة، لظهور الجماعات وظهور الآيات (عمّ جميع) الخطاب وجُمع الآيات.

قوله: {أَنْشَأَكُمْ}، وفى غيرها {خَلَقَكُمْ} لموافقة ما قبلها، وهو {أَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ} وما بعدها {وَهُوَ الذي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ}.

قوله: {مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ}، وفى الآية الأُخرى {مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} لأَنَّ أكثر ما جاءَ فى القرآن من هاتين الكلمتين جاءَ بلفظ التَّشابه، نحو قوله: {وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} {إِنَّ البقر تَشَابَهَ عَلَيْنَا} {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} فجاءَ {مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} فى الآية الأُولى و {مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} فى الآية الأُخرى على تلك القاعدة. ثمّ كان لقوله "تشابه" معنيان: أَحدهما الْتَبس، والثانى تساوى، وما فى البقرة معناه: الْتبس فحَسْب، فبيّن بقوله: {مُشْتَبِهًا} ومعناه: ملتبسًا أَنَّ ما بعده من باب الالتباس أَيضًا، لا من باب التساوى والله أَعلم.

قوله: {ذلكم الله رَبُّكُمْ لا إلاه إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} فى هذه السورة، وفى المؤمن {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إلاه إِلاَّ هُوَ}؛ لأَنَّ فيها قبله ذكر الشركاء، والبنين، والبنات، فدفع قول قائله بقوله: لا إِله إِلاَّ هو، ثمّ قال {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} وفى المؤْمن قبله ذكر الخَلْق وهو {لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس} لا على نفى الشَّريك، فقدم فى كل سورة ما يقتضيه ما قبله من الآيات.

قوله: {وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} وقال فى الآية الأُخرى من هذه

=

=

السّورة: {وَلَوْ شَآءَ الله مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} لأَنَّ قوله: {وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ} وقع عقِيب آيات فيها ذِكر الرّب مرّات وهى {جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ} الآيات... فختمها بذكر الرّب؛ ليوافق {أُخْرَاهَا أُوْلاَهَا}.

قوله: {وَلَوْ شَآءَ الله مَا فَعَلُوهُ} وقع بعد قوله {وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ} فختم بما بدأَ.

قوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ} وفى ن: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ} بزيادة الباء، ولفظ الماضى؛ لأَنَّ إِثبات الباء هو الأَصل؛ كما فى {ن والقلم} وغيرها من السّور؛ لأَن المعنى لا يعمل فى المفعول به، فقُوِّى بالباءِ. وحيث حُذفت أَضِمرَ فعل يعمل فيما بعده. وخصّت هذه السّورة بالحذف موافقة لقوله: {الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} وعُدِل إِلى لفظ المستقبل؛ لأَنَّ الباءَ لمّا حُذِفتْ الْتبس اللفظ بالإِضافة - تعالى الله عن ذلك - فنبّه بلفظ المستقبل على قطع الإِضافة؛ لأَنَّ أَكثر ما يستعمل بلفظ (أَفعل مَنْ) يستعمل مع الماضى؛ أَعلم مَن دَبّ ودَرَجَ، وأَحسن مَن قام وقعدَ، وأَفضل من حجّ واعتمر. فتنبّهْ فإِنَّه مِن أَسرار القرآن.

قوله: {فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ} بالفاءِ حيث وقع، وفى هود {سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ} بغير فاء؛ لأَنَّه تقدّم فى هذه السورة وغيرها (قل) فَأَمرهم أَمْرَ وعيد بقوله (اعملوا) أَى اعملوا فستجزَونَ، ولم يكن فى هود (قل) فصار استئنافًا. وقيل: {سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ} فى سورة هود صفة لعامل، أَى إِنّى عامل سوف تعلمون، فحَذَف الفاءَ.

قوله {سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ}، وقال فى النحل: {وَقَالَ الذين أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ ولا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} فزاد {مِن دُونِهِ} مرّتين، وزاد (نحن) لأَنَّ لفظ الإِشراك يدل على إِثبات شريك لا يجوز إِثباته، ودلَّ على تحريم أَشياءَ، وتحليل أَشياءَ من دون الله، فلم يحتج إِلى لفظ {مِن دُونِهِ}؛ بخلاف لفظ العبادة؛

=

=
فإنَّها غير مستنكرة، وإنَّما المستنكرة عبادة شئ مع الله سبحانه وتعالى ولا يدل على تحريم شئ مما دلَّ عليه (أَشرك)، فلم يكن بُدٌّ (من تقييده بقوله: "من دونه". ولَمَّا حذف "من دونه" من الآية مرَّتين حذف معه (نحن) لتطَّرد الآية فى حكم التَّخْفيف.

قوله: {نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} وفى سبحان {نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم} على الضِّدّ؛ لأَنَّ التقدير: من إملاق [بكم] نحن نرزقكم وإياهم وفى سبحان: خشية إملاق يقع بهم نحن نرزقهم وإيَّاكم.

قوله: {ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} وفى الثانية {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} وفى الثالثة {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ} لأَنَّ الآية (الأُولى) مشتملة على خمسة أَشياء، كلُّها عظام جسَام، وكانت الوصيّة بها من أَبلغ الوصايا، فختم الآية بما فى الإنسان من أَشرف السّجايا (وهو العقل) الَّذى امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان؛ والآية الثانية مشتملة على خمسة أَشياء يقبح تعاطيها وارتكابها، وكانت الوصيّة بها تجرى مجْرَى الزَّجر والوعظ، فختم الآية بقوله: {تَذَكَّرُونَ} أَى تتَّعظون بمواعظ الله؛ والآية الثالثة مشتملة على ذكر الصّراط المستقيم، والتَّحريض على اتباعه، واجتناب مُنافيه، فختم الآية بالتَّقوى الَّتى هى مِلاك العمل وخير الزَّاد.

قوله: {جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض} فى هذه السّورة، وفى يونس والملائكة {جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض} لأَنَّ فى هذه العشر الآيات تكرّر ذكر المخاطبين مرَّات، فعرّفهم بالإضافة؛ وقد جاءَ فى السّورتين على الأَصل، وهو {جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً} {جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِيْنَ فِيْهِ}. قوله: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} وقال فى الأَعراف {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} لأَنَّ ما فى هذه السّورة وقع بعد قوله {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} وقوله: {وَهُوَ الَّذِيْ جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض} فقُيِّد قوله: {غَفُورٌ رَّحِيمٌ} باللَّام ترجيحًا للغفران
=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١).

{الْحَمْد} وَهُوَ الْوَصْف بِالْجَمِيلِ ثَابِت {لِلَّهِ} وَهَلْ الْمُرَاد الْإِعْلَام بِذَلِك لِلْإِيمَانِ بِهِ أَوْ الثَّنَاء بِهِ أَوْ هُمَا احْتِمَالَات أَفْيَدهَا الثَّالِث قَالَهُ الشَّيْخ فِي سُورَة الْكَهْف {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْض} خَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا أَعْظَم الْمَخْلُوقَات لِلنَّاظِرِينَ {وَجَعَلَ} خَلَقَ {الظُّلُمَات وَالنُّور} أَي كُلّ ظُلْمَة وَنُور وَجَمَعَهَا دُونه لِكَثْرَةِ أَسْبَابهَا وَهَذَا مِنْ دَلَائِل وَحْدَانِيّته {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} مَعَ قِيَام هَذَا الدَّلِيل {بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} يُسَوُّونَ غَيْره فِي العبادة.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢).

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِين} بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَم مِنْهُ {ثُمَّ قَضَى أَجَلًا} لَكُمْ تَمُوتُونَ عِنْد انْتِهَائِهِ {وَأَجَل مُسَمًّى} مَضْرُوب {عِنْده} لِبَعْثِكُمْ {ثُمَّ أَنْتُمْ} أَيّهَا الْكُفَّار {تَمْتَرُونَ} تَشُكُّونَ فِي الْبَعْث بَعْد عِلْمكُمْ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلْقكُمْ وَمَنْ قَدَرَ عَلَى

= على العقاب. ووقع ما فى الأعراف بعد قوله: {وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ} وقوله: {كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} فقيّد العقاب باللّام لما تقدّم من الكلام، وقيّد المغفرة أيضا بها رحمةً منه للعباد؛ لئلاَّ يترجّح جانب الخوف على الرّجاءِ. وقدّم {سَرِيْعُ الْعِقَابِ} فى الآيتين مراعاة لفواصل الآى بصائر ذوي التمييز (١/ ١٨٦ - ٢٠٠).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

الِابْتِدَاء فَهُوَ عَلَى الْإِعَادَة أَقْدَر[1].

---

(١) قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام: ١].

قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} (أل) هنا للاستغراق، أي: جميع الحمد من كل وجه ثابت لله ﷻ، و (اللام) في قوله: (لله): إما للاختصاص، وإما للاستحقاق، ولا تنافي بين المعنيين، وعلى هذا فتكون للاستحقاق والاختصاص؛ لأن (أل) في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} للعموم، ولا أحد يستحق الحمد على العموم إلا الله ﷻ.

ولكن ما هو الحمد؟

كثير من الناس يفسرون الحمد بالثناء على الله بالجميل الاختياري، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأن الثناء هو تكرار الحمد، والدليل على هذا قوله: تبارك وتعالى في الحديث القدسي: "إذا قال العبد {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)} [الفاتحة: ٢]، قال الله: حَمِدني عبدي، وإذا قال: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)} [الفاتحة: ٣] قال: أثني عليَّ، وهذا يدل على أن الثناء هو تكرار الوصف الكامل، والاشتقاق يدل عليه؛ لأن الثناء: من الثني، وهو إعادة الشيء، أو رد الشيء بعضه إلى بعض.

وأما قولهم: "على الجميل الاختياري" فهو بالنسبة لله ﷻ غير صحيح؛ لأن الله يحمد على ما يفعله ﷻ، وهو يختار ما يشاء، ويحمد على كمال صفاته اللازمة التي لا تتعدي إلى أحد، فهو محمود على كمال حياته، ومحمود على كمال قيوميته، الأول: وصف لازم، والثاني: وصف متعدٍ ولازم أيضًا.

فالصواب: أن حمد الله يكون على أفعاله التي يختارها، وعلى صفاته الكاملة اللازمة له، فهو - جل وعلا - مستحق بأن يحمد، والحمد الكامل مختص به.

فبماذا نُعرِّف الحمد؟

نقول: (الحمدُ وصفُ المحمود بالكمال - اللازم والمتعدي - حبًا وتعظيمًا)؛ فقد تصف شخصًا ما بالكمال لا محبة له لكن رجاء لما سيجازيك به، وقد تحبه =

=

وقد تمدحه لا على سبيل المحبة والتعظيم ولكن خوفًا من شره، وكذلك قد يمدح الرجل سلطانًا، أو وزيرًا أو ما أشبه ذلك لا محبة له ولا تعظيمًا، لكن يرجو نواله، أو يخاف منه، أما الحمد فلا بد أن يُقيَّد بأنه على وجه المحبة والتعظيم، فإن لم يكن على وجه المحبة والتعظيم فهو مدح.

وانظر إلى عمق اللغة العربية كيف فَرَّقَتْ بين (حَمِدَ، ومَدَحَ) مع تساويهما في الحروف نوعًا وعددًا، الحروف ثلاثة، هذا العدد، والنوع نفس الحروف (حاء، ميم، دال)، لكن اختلف الترتيب في الحروف "حَمِدَ" "ومَدَحَ"، ولاختلافهما في الترتيب اختلف معناهما، والنسبة بينهما الخصوص والعموم فكلُّ حمدٍ مدحٌ، وليسَ كلُّ مدحٍ حمدًا؛ لأن الحمد - كما تقدم - لا بد أن يكون على وجه المحبة، والتعظيم، والمدحُ بخلاف ذلك.

أما (الله) فهو عَلَمٌ على الله ﷻ، والتعبير بها أحسن من التعبير بغيرها، بعض الناس الآن يعبر فيقول: قال الحق كذا وكذا، هذا صحيح، فإن الله هو الحق المبين، لكن اجعل عبارتك على عبارة السلف، فهم يقولون: قال الله، أو يقولون: قال ربنا، أما (قال الحق) فهذه يأتي بها الإنسان لأجل أن يفتح الأذهان، حيث إن الإنسان السامع يقول: مَن هذا الحق؟ لكن نقول: (قال الله) التي بُنيت عليها الألوهية والعبادة أحسن، لكن لا بأس أن تقول: قال ربنا، أو قال ربكم، كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لأصحابه أحيانًا: "أتدرون ماذا قال ربكم؟".

(الله) مشتقة من الألوهية، وأَلِه، بمعني: تعبد وليست بمعنى تحيّر كما زعمه بعضهم؛ لأن الإنسان إذا قال: الله، لا يجد تحيرًا بل يجد ربًّا معروفًا ﷻ، لا حيرة فيه، يقولون: أصلها الإله، لكن حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وقالوا: إن نظيرها (الناس)، وأصلها: الأُناس، وكلمة (خير) أصلها: أخير، و (شر) أصلها: أشر.

=

=

وهل هو مشتق أو جامد؟ الصواب أنه مشتق، وأنه لا يوجد اسم من أسماء الله، ولا من أسماء الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، ولا من أسماء القرآن، يكون جامدًا أبدًا؛ لأن الجامد معناه: أنه لا معني له إلا الدلالة على المعين فقط؛ لأن العَلَمَ كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

اسمٌ يُعَيِّنُ المُسَمَّى مُطْلَقًا ... عَلَمُهُ كَجَعْفَرٍ وخِرْنَقا

فلو قلنا: إن أسماء الله، أو أسماء الرسول، أو أسماء الكتاب العزيز جامدة فمعني ذلك: أنها لا تدل إلا على تعيين المسمي فقط، ولكن نقول هي مشتقة، تدل على تعيين المسمى، وعلى المعنى الذي اشتقت منه، "فالله" مشتق من الإله أو الألوهية، وهي التعبد لله ﷻ.

قال ابن كثير:" يقول الله تعالى مادحًا نفسه الكريمة، وحامدا لها على خلقه السموات والأرض قرارًا لعباده".

قال مقاتل:" لم يخلقهما باطلا، خلقهما لأمر هو كائن".

قال الزجاج:" فذكر أعظم الأشياء المخلوقة لأن «السماء» بغير عمد ترونها، و «الأرض» غير مائدة بنا".

قال السمرقندي:" حمد الرب نفسه، ودل بصنعه على توحيده، {الذي خلق السماوات والأرض}، يعني: خلق السموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وخلق الأرض وما فيها".

قال ابن عطية:" هذا تصريح بأن الله تعالى هو الذي يستحق الحمد بأجمعه. لأن الألف واللام في الحمد لاستغراق الجنس، فهو تعالى له الأوصاف السنية والعلم والقدرة والإحاطة والأنعام، فهو أهل للمحامد على ضروبها وله الحمد الذي يستغرق الشكر المختص بأنه على النعم، ولما ورد هذا الإخبار تبعه ذكر بعض أوصافه الموجبة للحمد، وهي الخلق «للسماوات والأرض» قوام الناس

=

=

وأرزاقهم".

قال الماوردي:" وقوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}، جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر، وذلك أوليمن أن يجيء بلفظ الأمر فيقول: احْمِدِ الله، لأمرين:

أحدهما: أنه يتضمن تعليم اللفظ والمعنى، وفي الأمر المعنى دون اللفظ.

والثاني: أن البرهان إنما يشهد بمعنى الخبر دون الأمر".

قال الماوردي:" لأن خلق السموات والأرض نِعَمٌ تستوجب الحمد، لأن الأرض تقل، والسماء تظل، وهي من أوائل نعمه على خلقه، ولذلك استحمد بخلقها وأضاف خلقها إلى نفسه عند حمده، على أن مستحق الحمد هو خالق السموات والأرض، ليكون باستحقاق الحمد منفردًا لانفراده بخلق السموات والأرض".

قال الشوكاني: "ثم وصف نفسه بأنه الذي خلق السموات والأرض إخبارًا عن قدرته الكاملة ، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، والخلق يكون بمعنى الاختراع، وبمعنى التقدير".

قال ابن عباس:" {الحمد لله} كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله قال: شكرني عبدي".

وعن ابن عباس أيضا:" {الحمد لله}، هو: الشكر لله الاستخذاء له، الإقرار بنعمه وابتدائه، وغير ذلك".

وقال كعب:" {الحمد لله}: ثناء الله".

وقال الضحاك:" {الحمد لله}: رداء الله، الرحمن تبارك وتعالى".

قال عمر: "قد علمنا سبحان الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد لله؟ قال علي: كلمة رضي الله لنفسه".

وفي جمع «السموات» وتوحيد «الأرض» وجهان:

=

=

أحدهما: لأن السموات أشرف من الأرض، والجمع أبلغ في التفخيم من الوحيد كقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ} [الحجر: ٩].

والثاني: لأن أوامره إلى الأرض تخترق جميع السماوات السبع.

وفي تقديم «السموات» على «الأرض» وجهان:

أحدهما: لتقدم خلقها على الأرض. وهذا قول قتادة.

والثاني: لشرفها فقدمها على ذكر الأرض وإن كانت مخلوقة بعد الأرض.

وهذان الوجهان من اختلاف العلماء أيهما خُلِقَ أولًا.

قوله تعالى: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: ١]، أي:" أي وأنشأ الظلمات والأنوار".

قال السدي:" الظلمات ظلمة الليل، والنور نورُ النهار".

قال قتادة:" فإنه خلق السَّماوات قبل الأرض، والظلمةَ قبل النور، والجنّة قَبل النار".

قال الطبري: أي:" وأظلم الليلَ، وأنارَ النَّهار".

قال السمرقندي:" يعني: خلق الليل والنهار".

قال ابن كثير: أي:" وجعل «الظلمات» و «النور» منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم".

قال الزجاج:" ثم ذكر «الظلمات» و «النور»، وذكر أمر الليل والنهار، وهو مما به قوام الخلق، فأعلم الله ﷻ أن هذه خلق له، وأن خالقها لا شيء مثله".

قال الماوردي: قوله: {وجعل} " يعني: وخلق، فغاير بين اللفظ ليكون أحسن في النظم".

قال الزمخشري:" «جعل» يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى: أحدث وأنشأ، كقوله {وجعل الظلمات والنور}، وإلى مفعولين إذا كان بمعنى: صير، كقوله: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} [الزخرف: ١٩]، والفرق بين

=

=

«الخلق» و «الجعل»: أن «الخلق» فيه معنى: التقدير، وفي «الجعل» معنى: التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئا، أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [الأعراف: ١٨٩]، {وجعل الظلمات والنور}: لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار، {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} [النبأ: ٨]، {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} [ص: ٥]".

قال ابن كثير:"فجمع لفظ «الظلمات» ووحَّد لفظ «النور»؛ لكونه أشرف، كما قال {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ} [النحل: ٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣]".

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم أفرد «النور»؟ قلت: للقصد إلى الجنس، كقوله تعالى {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا} [الحاقة: ١٧]، أو لأن «الظلمات» كثيرة، لأن ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل، وظله هو الظلمة، بخلاف «النور» فإنه من جنس واحد وهو النار".

قال الرازي: "لقائل أن يقول: لم ذكر الظلمات بصيغة الجمع ، والنور بصيغة الواحد؟

فنقول: أما من حمل الظلمات على الكفر والنور على الإيمان ، فكلامه ههنا ظاهر ، لأن الحق واحد والباطل كثير ، وأما من حملها على الكيفية المحسوسة ، فالجواب: أن النور عبارة عن تلك الكيفية الكاملة القوية ، ثم إنها تقبل التناقص قليلًا قليلًا ، وتلك المراتب كثيرة ، فلهذا السبب عبّر عن الظلمات بصيغة الجمع.

وقال ابن عاشور: "وإنّما جُمع (الظلمات) وأفرد (النور) اتّباعًا للاستعمال ، لأنّ لفظ (الظلمات) بالجمع أخفّ ، ولفظ (النور) بالإفراد أخفّ ، ولذلك لم يرد لفظ (الظلمات) في القرآن إلاّ جمعًا ولم يرد لفظ (النور) إلاّ مفردًا.

=

=

قال ابن عاشور: وخَصّ بالذكر من الجواهر والأعراض عرضين عظيمين ، وهما: الظلمات والنور فقال (وجعل الظلمات والنور) لاستواء جميع الناس في إدراكهما والشعور بهما.

وقال ابن عاشور: وقدّم ذكر الظلمات مراعاة للترتّب في الوجود لأنّ الظلمة سابقة النور ، فإنّ النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة ، وكانت الظلمة عامّة".

والمراد بـ «الظلمات» و «النور» هنا، وجوه:

أحدها: وهو المشهور من قول قتادة ، قدم الظلمة على النور، لأنه قدم خلق الظلمة على خلق النور، وجمع «الظلمات» ووحد «النور» لأن «الظلمات» أعم من «النور».

والثاني: أن «الظلمات»: الليل، و «النور»: النهار. قاله قتادة ، والسدي ، والواقدي ، وهو قول الجمهور.

والثالث: أن «الظلمات»: الكفر، و «النور»: الإيمان، قاله الحسن.

قال ابن عطية:" وهذا غير جيد لأنه إخراج لفظ بين في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطن لغير ضرورة، وهذا هو طريق اللغز الذي برئ القرآن منه".

والرابع: يعني: اللجنة والنار. حكاه الثعلبي عن قتادة.

فالمراد بالظلمات: سواد الليل ، وبالنور: ضياء النهار ، وهذا قول جمهور المفسرين.

وبه قال الطبري ، والواحدي ، والبغوي ، وابن عطية ، والرازي ، وابن جزي الكلبي ، وابن كثير ، والقاسمي.

قالوا: لأن الأصل حمل اللفظ على حقيقته، لأن الظلمات والنور إذا كان ذكرهما مقرونين بالسماوات والأرض لم يفهم منه إلا ما ذكرنا.

قال الشوكاني: واختلف أهل العلم في المعنى المراد بالظلمات والنور؛ فقال

=

=

جمهور المفسرين: المراد بالظلمات سواد الليل ، وبالنور ضياء النهار.

وقال الحسن: الكفر والإيمان.

وقد رجح القرطبي أن الظلمات تعم سواد الليل والكفر ، والنور يعم الإيمان وضياء النهار.

وقد وافق القرطبي في ذلك السمعاني ، والسيوطي ، والشوكاني ، والآلوسي ، والسعدي.

قال الشوكاني: والأولى أن يقال: إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة ، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور ، فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الإيمان (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات).

فاستدلوا بالآية. وعموم اللفظ لكلا النوعين.

قال السعدي:... وذلك شامل للحسي من ذلك، كالليل والنهار، والشمس والقمر. والمعنوي، كظلمات الجهل، والشك، والشرك، والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان، واليقين، والطاعة.

قوله تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: ١]، أي:" أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم".

قال مجاهد ، والسدي:" {يَعْدِلُونَ} ، يقال: يشركون".

قال ابن زيد:" الآلهة التي عبَدوها، عدلوها بالله. قال: وليس لله عِدْلٌ ولا نِدٌ، وليس معه آلهة، ولا اتخذ صاحبةً ولا ولدًا".

قال قطرب:" يعني: الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون الأوثان، أي: يشركون وأصله من مساواة الشيء بالشيء يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته به".

=

=

قال الزجاج:" أي: يجعلون لله عديلا، فيعبدون الحجارة الموات، وهم يقرون أن الله خالق ما وصف".

قال ابن كثير:" أي: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكًا وعدلا واتخذوا له صاحبةً وولدًا، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا".

قال الطبري: أي:"يجعلون له شريكًا في عبادتهم إياه، فيعبدون معه الآلهة والأنداد والأصنام والأوثانَ، وليس منها شيء شرِكه في خلق شيءٍ من ذلك، ولا في إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم، بل هو المنفرد بذلك كله، وهم يشركون في عبادتهم إيّاه غيره. فسبحان الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها من عظة، لمن فكَّر فيها بعقل، وتدبرها بفهم!".

قال ابن عطية:" {يعدلون}، معناه: يسوون ويمثلون، وعدل الشيء قرينه ومثيله".

قال الزمخشري:" معنى {ثم}: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك: {ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُون} [الأنعام: ٢]، استبعاد، لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهموباعثهم".

قال النضر بن شميل: «الباء» في قوله: {بِرَبِّهِمْ}، بمعنى: «عن»، وقوله: {يَعْدِلُونَ}، من العدول. أي: يكون ويعرفون. وأنشد:

وسائلةٍ بثعلبةَ بنِ سَيْرٍ ... وَقد عَلِقَتْ بثعلبةَ العَلوق

وأنشد:

شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَقَّعَتْ ... مَتى لُجَج خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ

أي: من البحر، قال الله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللّه} [الإنسان: ٦]،أي: منها".

واختلف فيمن عني بقوله: تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: ١]، على أقوال:

=

=

أحدها: أنهم أهل الكتاب. قاله علي بن ابي طالب ، وابن أبزى.

قال ابن عطية:" وقول ابن أبزى إن المراد أهل الكتاب بعيد".

والثاني: أنهم المشركون من عبدةِ الأوثان. قاله قتادة ، والسدي ، وابن زيد ، ومقاتل.

والثالث: انهم المجوس. وهذا القول حكاه السمرقندي عن الضحاك.

قال ابن عطية:" {الذين كفروا} في هذا الموضع، هم كل من عبد شيئا سوى الله، ومن خصص من المفسرين في ذلك بعضا دون بعض فلم يصب إلا أن السابق من حال النبي ﷺ أن الإشارة إلى عبدة الأوثان من العرب لمجاورتهم له، ولفظ الآية أيضا يشير إلى المانوية ويقال المانية العابدين للنور القائلين إن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلام".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إنّ الله تعالى ذكره أخبر أنّ الذين كفروا بربهم يعدلون، فعمّ بذلك جميع الكفّار، ولم يخصص منهم بعضًا دون بعض. فجميعهم داخلون في ذلك: يهودهم، ونصاراهم، ومجوسهم، وعبدة الأوثان منهم ومن غيرهم من سائر أصناف الكفر".

قال الزمخشري:" فإن قلت: علام عطف قوله: {ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}؟

قلت: إما على قوله: {الحمد لله}، على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ما خلق، لأنه ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا به يعدلون، فيكافرون نعمته.

وإما على قوله: {خلق السماوات}، على معنى: أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواهثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه".

قال كعب:"فاتحة التوراة فاتحة «الأنعام»: {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجَعَل الظلمات والنور ثم الذين كَفَروا بربِّهم يعدلون}".

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ} [الأنعام: ٢]، أي:" هو الذي خلق أباكم

=

=

آدم من طين وأنتم سلالة منه".

قال البيضاوي:" أي: ابتدأ خلقكم منه، فإنه المادة الأولى وأن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه، أو خلق أباكم، فحذف المضاف".

قال ابن كثير:" يعني: أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا في المشارق والمغارب".

قوله تعالى: {ثُمَّ قَضَى أَجَلًا} [الأنعام: ٢]، أي:" ثم كتب مدة بقائكم في هذه الحياة الدنيا".

قال ابن عباس:" يعني: أجل الموت". قال ابن أبي حاتم:" وروي عن الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي وعطية، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم نحو ذلك".

وفي رواية اخرى عن ابن عباس:" أما قوله: {قضى أجلا} فهو النوم، يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه حين اليقظة".

وروي سعيد بن جبير عن ابن عباس: {ثم قضى أجلا}، قال: أجل الدنيا".

وقال عطاء بن أبي مسلم الخراساني:" أما قوله: {قضى أجلا}، فيقال: ما خلق في ستة أيام".

قال يحيى بن سلام:" يعني: أجل الدنيا ومدتها".

قال البيضاوي: أي:" أجل القيامة".

قوله تعالى: {وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ} [الأنعام: ٢]، أي:" وكتب أجلا آخر محدَّدًا لا يعلمه إلا هو جل وعلا وهو يوم القيامة".

قال ابن عباس:" لا يعلمه إلا الله".

وفي رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس:" قوله: {وأجل مسمى عنده}، قال: الوقوف عند الله".

=

=

وروي عن مجاهد، وخالد بن معدان، أنهما قالا: "أجل البعث".

قال يحيى بن سلام: يعني:"وأجل الآخرة".

قال البيضاوي: أي:" أجل الموت".

قال ابن كثير:" معنى قوله: {عِنْدَهُ} أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله تعالى: {إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ} [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا} [النازعات: ٤٢ - ٤٤]".

قال الزمخشري: أفاد التقديم في قوله: {وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ} " تعظيما لشأن الساعة، فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم".

قال البيضاوي:" {وأجل} نكرة خصصت بالصفة ولذلك استغني عن تقديم الخبر والاستئناف به لتعظيمه، ولذلك نكر ووصف بأنه {مسمى}، أي: مثبت معين لا يقبل التغير، وأخبر عنه بأنه {عند الله} لا مدخل لغيره فيه يعلم ولا قدرة، ولأنه المقصود بيانه".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ} [الأنعام: ٢]، على وجوه:

أحدها: أن الاجل الأول هو الدنيا، والأجل الثاني هو الآخرة، والمعنى: ثم قضى الدنيا، وعنده الآخرة. وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن-في قوله الآخر ، وعكرمة ، وقتادة -في قوله الآخر- ، والسدي.

والثاني: أن الله تعالى قضى للناس أجلين: الأجل الأول هو ما بين أن يُخْلق الإنسان إلى أن يموت، والأجل الثاني: ما بين أن يموت إلى أن يبعث، وهو الحياة البرزخ. وهذا قول الحسن ، والضحاك ، وقتادة ، واختاره الزمخشري.

قال البغوي:" وروي ذلك عن ابن عباس، وقال: لكل أحد أجلان أجل إلى

=

=

الموت وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث".

قال ابن كثير هو يرجع إلى ما تقدم ، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة".

والثالث: أن الاجل الأول هو النوم، تُقْبض فيه الروح، ثم ترجع إلى صاحبها حين اليقظة وأما الأجل الثاني: فهو أجل موت الإنسان. وهذا قول ابن عباس.

قال ابن كثير:" وهذا قول غريب".

والرابع: أن الاجل الأول: لمن مضى، والثاني: لمن بقي ولمن يأتي. ذكره البيضاوي.

والخامس: وقال ابن وهب:" خلق آدم من طين، ثم خلقنا من آدم، أخذنا من ظهره، ثم أخذ الأجل والمِيثاق في أجلٍ واحد مسمًّى في هذه الحياة الدنيا".

قال الإمام الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: معناه: ثم قضى أجلَ الحياة الدنيا، {وأجلٌ مسمى عنده}، وهو أجل البَعْث عنده، لأنه تعالى ذكره نبَّه خلقَه على موضع حُجَّته عليهم من أنفسهم فقال لهم: أيها الناس، إن الذي يعدِلُ به كفارُكم الآلهةَ والأندادَ، هو الذي خلقكم فابتدأكم وأنشأكم من طين، فجعلكم صورًا أجسًاما أحياءً، بعد إذ كنتم طينًا جمادًا، ثم قضى آجال حياتكم لفنائكم ومماتكم، ليعيدكم ترابًا وطينًا كالذي كنتم قبل أن ينشئكم ويخلقكم وأجل مسمى عندَه لإعادتكم أحياءً وأجسامًا كالذي كنتم قبل مماتكم، وذلك نظير قوله: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة البقرة: ٢٨]".

=

=

قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} [الأنعام: ٢]، أي:" ثم أنتم بعد هذا تشكُّون في قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت".

قال الربيع بن أنس:" يعني: الشك والريبة في أمر الساعة".

عن خالد بن معدان:" {ثم أنتم تمترون}، يقول: في البعث".

قال الثعلبي والبغوي: أي:"تشكون في البعث.

قال البيضاوي:" استبعاد لامترائهم بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن منقدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانيا، فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث".

قال النسفي:" ومعنى: {ثم} استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم".

وفي قوله تعالى: {تَمْتَرُونَ} [الأنعام: ٢]، وجهان:

أحدهما: تشكون، والامتراء: الشك. قاله ابن زيد ، والسدي ، واختاره الطبري ، والسمعاني ، والثعلبي ، والبغوي وغيرهم.

والثاني: تختلفون، مأخوذ من المراء وهو الاختلاف والمجادلة. ذكره الماوردي ، والنسفي.

قال الطبري: المعنى:" ثم أنتم تَشكُّون في قدرة من قَدَر على خلق السماوات والأرض، وإظلام الليل وإنارة النهار، وخلقكم من طين حتى صيَّركم بالهيئة التي أنتم بها على إنشائه إياكم من بعد مماتكم وفنائكم، وإيجاده إيّاكم بعد عدمكم".

و «المرية» في كلام العرب، الشك في الأمر ، قال الأعشى:

تَدِرُّ عَلَى أَسْوُقِ المُمْتَرِينَ رَكْضًا، إِذَا مَا السَّرَابُ ارْجَحَنّ

قال الراغب:" «المرية»: التردد في الأمر وهو أخص من الشك، والامتراء

=

وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣).

{وهو الله} مستحق للعبادة {في السماوات وفي الأرض يَعْلَم سِرّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} مَا تُسِرُّونَ وَمَا تَجْهَرُونَ بِهِ بَيْنكُمْ {وَيَعْلَم مَا تَكْسِبُونَ} تَعْمَلُونَ مِنْ خير وشر[1].

=

والمماراة: المحاجّة فيما فيه مرية".

قال البيضاوي:" وأصل «الامتراء»: المري، وهو استخراج اللبن من الضرع".

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} [الأنعام: ٣].

قال القاسمي:" أي: المعبود فيهما".

قال الزجاج: أي:" هو الخالق العالم بما يصلح به أمر السماء والأرض، المعنى هو المتفرد بالتدبير فيالسماوات والأرض".

قال السمرقندي:" يعني: هو المتفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض. وهذا كقوله: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} [الزخرف: ٨٤]، يعني: وهو خالق السموات والأرض".

قال السعدي:" أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، متعبدون لربهم، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزه وجلاله، الملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والصديقون، والشهداء والصالحون".

قوله تعالى: {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} [الأنعام: ٣]، أي:" ومن دلائل ألوهيته أنه يعلم جميع ما تخفونه -أيها الناس- وما تعلنونه".

قال ابن عباس:" «السر»: ما أسر ابن آدم في نفسه".

قال سعيد بن جبير:" «السر»: ما حدثت به نفسك".

=

=

قال مقاتل:" يعني: سر أعمالكم وجهرها".

قال السمرقندي:" يعني: يعلم سر أعمالكم وعلانيتكم".

قال القاسمي:" أي: من الأقوال أو الدواعي والصوارف القلبية وأعمال الجوارح".

قال صاحب المنار:" وأما جملة {يعلم سركم وجهركم}، فهي تقرير لمعنى الجملة الأولى لأن الذي استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده".

وقد اختلف العلماء في معنى الآية على أقوال أصحها: أي هو الإله المعبود في السماوات والأرض ، لأنه جلا وعلا هو المعبود بحق في الأرض والسماء ، ويشهد لهذا القول قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) أي: وهو المعبود في السماء والأرض بحق.

واختاره ابن كثير ، حيث قال: فأصح الأقوال أنه المدعو في السموات وفي الأرض ، أي: يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رَغَبًا ورَهَبًا ، إلا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ) ، أي: هو إله مَنْ في السماء وإله مَنْ في الأرض ، وعلى هذا فيكون قوله (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) خبرًا أو حالًا.

ورجحه الشنقيطي وقال: فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ لِلْعُلَمَاءِ مِنَ التَّفْسِيرِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَهُ مِصْدَاقٌ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمَعْنَى وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، أَيْ: وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ بِحَقٍّ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَعَلَى هَذَا فَجُمْلَةُ يَعْلَمُ حَالٌ ، أَوْ خَبَرٌ ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُبَيِّنُهُ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) ، أَيْ: وَهُوَ الْمَعْبُودُ فِي

=

=
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِحَقٍّ ، وَهَذَا الْقَوْلُ فِي الْآيَةِ أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ ، وَاخْتَارَهُ الْقُرْطُبِيُّ. (أضواء البيان).

ورجحه الشوكاني فقال: والأوّل أولى ، ويكون (يعلم سركم وجهركم) جملة مقرّرة لمعنى الجملة الأولى ، لأن كونه سبحانه في السماء والأرض ، يستلزم علمه بأسرار عباده وجهرهم ، وعلمه بما يكسبونه من الخير والشرّ ، وجلب النفع ودفع الضرر.

واختار هذا القول: القرطبي، والبغوي، وابن عطية ، والرازي، وابن تيمية، وابن جزي الكلبي ، وأبو حيان، وابن كثير، والشوكاني، والشنقيطي.

والقول الثاني: أن قوله (وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ) وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال (وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) وهذا اختيار ابن جرير.

وعلى هذا القول: أن الوقف تام على قوله في (السَّمَاوَاتِ) وقوله (وفي الأرض) يتعلق بما بعده ، أي: يعلم سركم وجهركم في الأرض ، ومعنى هذا القول: أن الله مستو على عرشه فوق جميع خلقه ، مع أنه يعلم سر أهل الأرض ، وجهركم لا يخفى عليه شيء من ذلك.

فقوله تعالى: {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} [الأنعام: ٣]، فيه وجوه كما تقدم:

أحدها: أن معنى الكلام: وهو اله المُدَبِّر في السموات وفي الأرض. {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ}، أي: ما تخفون، وما تعلنون. ذكره الزجاج.

قال الماتريدي:" أي: إلى الله تدبير، ما في السماوات وما في الأرض، وحفظهما إليه؛ لأنه هو المتفرد بخلق ذلك كله؛ فإليه حفظ ذلك وتدبيره".

قال الزجاج:" {في} موصولة في المعنى بما يدل عليه اسم الله، المعنى هو الخالق العالم بما يصلح به أمر السماء والأرض، المعنى هو المتفرد بالتدبير فيالسماوات
=

=

والأرض، ولو قلت: هو زيد في البيت والدار، لم يجز إلا أن يكون في الكلام دليل على أن زيدا يدبر أمر البيت والدار، فيكون المعنى هو المدبر في الدار والبيت، ولو قلت: هو المعتضد الخليفة في الشرق والغرب، أو قلت: هو المعتضد في الشرق والغرب، جاز على هذا".

قال ابن عطية:" وهذا عندي أفضل الأقوال وأكثرها إحرازا لفصاحة اللفظ وجزالة المعنى، وإيضاحه أنه أراد أن يدل على خلقه وإيثار قدرته وإحاطته واستيلائه ونحو هذه الصفات فجمع هذه كلها في قوله: {وهو الله} أي: الذي له هذه كلها {في السماوات وفي الأرض} كأنه وهو الخالق الرازق المحيي المحيط {في السماوات وفي الأرض} كما تقول: زيد السلطان في الشام والعراق، فلو قصدت ذات زيد لقلتمحالا، وإذا كان مقصد قوله زيد الآمر الناهي المبرم الذي يعزل ويولي في الشام والعراق فأقمت السلطان مقام هذه كان فصيحا صحيحا، فكذلك في الآية أقام لفظة الله مقام تلك الصفات المذكورة".

والثاني: وهو الله المعظم المعبود في السموات، وفي الأرض. ذكره الزجاج.

قال الزجاج:" وهذا نحو القول الأول".

واختاره القرطبي وقال: وهذا القول" أسلم وأبعد من الإشكال، والقاعدة تنزيهه ﷻ عن الحركة والانتقال وشغل الأمكنة".

قال السمرقندي:"ويقال: هو الذي يوحد ويقر بوحدانيته أهل السموات والأرض".

قال الثعلبي والبغوي:" يعني: وهو إله السماوات وإله الأرض".

والثالث: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وتقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض، لأن في السموات الملائكة، وفي الأرض الإنس والجن، قاله الزجاج ، والنحاس.

=

=

قال النحاس:" ومن أحسن ما قيل فيه: أن المعنى: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض".

قال احمد الكرجي القصاب:" لأنه إله من في السماء من الملائكة، ومن في الأرض من

الخلق يعلم سر الجميع وجهرهم سبحانه وبحمده".

والرابع: أن المعنى: هو عالم بما في السموات وبما في الأرض. ذكره السمرقندي.

والخامس: أن قوله {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ} وقف تام، ثم استأنف الخبر فقال: {وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} وهذا اختيار الطبري كما تقدم.

قال ابن كثير:" اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد الاتفاق على تخطئة قول الجَهْمِيَّة الأول القائلين بأنه - تعالى عن قولهم علوًا كبيرًا - في كل مكان؛ حيث حملوا الآية على ذلك، فأصح الأقوال أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض، أي: يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رَغَبًا ورَهَبًا، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ} [الزخرف: ٨٤]، أي: هو إله مَنْ في السماء وإله مَنْ في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} خبرًا أو حالا".

قال صاحب المنار:" وزعمت الجهمية أن المعنى: أن الله تعالى كائن في السماوات والأرض، ومنه أخذوا قولهم. إنه في كل مكان، والله أعلى وأجل مما قالوا، فهو بائن من خلقه غير حال فيه كله ولا في جزء منه، وما صح من إطلاق كونه في السماء ليس معناه إنه حال في هذه الأجرام السماوية كلها أو بعضها، وإنما هو إطلاق لإثبات علوه على خلقه غير مشابه لهم في شيء بل هو بائن منهم ليس

=

=

كمثله شيء".

قال ابن عاشور: وذكر السرّ لأنّ علم السرّ دليل عموم العلم ، وذكر الجهر لاستيعاب نوعي الأقوال.

قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [الأنعام: ٣]، أي:" ويعلم جميع أعمالكم من خير أو شر".

قال مقاتل:" يعنى: ما تعملون من الخير والشر".

قال السمرقندي: أي:" من الخير والشر فيجازيكم بذلك".

قال ابن كثير:" أي: جميع أعمالهم خيرها وشرها".

قال الماوردي: "أي: ما تعلمون من بعد، ولا يخفى عليه ما كان منكم، ولا ما سيكون، ولا ما أنتم عليه في الحال من سر، وجهر".

قال البيضاوي: أي:" من خير أو شر فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أريد بالسر والجهر ما يخفى وما يظهر من أحوال الأنفس وبالمكتسب أعمال الجوارح".

قال السعدي: أي:" ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدنيكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته".

قال القاسمي:" أي: ما تفعلونه من خير أو شر، فيثيب عليه ويعاقب. وتخصيصه بالذكر، مع اندراجه فيما سبق، على التفسير الثاني للسر والجهر- لإظهار كمال الاعتناء به الذي يتعلق به الجزاء. وهو السر في إعادة {يعلم}".

قال ابن عاشور: والمراد بـ(تكسبون) جميع الاعتقادات والأعمال من خير وشر فهو تعريض بالوعد والوعيد ، والخطاب لجميع السامعين؛ فدخل فيه الكافِرون ، وهم المقصود الأول من هذا الخطاب ، لأنّه تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم وتذكير بالنسبة إلى المؤمنين.

=

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤).

{وَمَا تَأْتِيهِمْ} أَيْ أَهْل مَكَّة {مِنْ} صِلَة {آية من آيات ربهم} من القرآن {إلا كانوا عنها معرضين}.

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥).

{فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ} بِالْقُرْآنِ {لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يأتيهم أنباء} عواقب {ما كانوا به يستهزئون}[1].

=

قال ابن عطية: قوله: {علم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون} " تحذير وزجر، و {تكسبون}، لفظ عام لجميع الاعتقادات والأفعال والأقوال".

قال القرطبي:" والكسب الفعل لاجتلاب نفع أو دفع ضرر ولهذا لا يقال لفعل الله كسب".

(١) قوله تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ} [الأنعام: ٤].

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين المكذبين المعاندين إنهما مهما أتتهم (مِنْ آيَةٍ) أي: دلالة ومعجزة وحجة ، من الدلالات على وحدانية الرب تعالى ﷻ ، وصدق رسله الكرام ، فإنهم يعرضون عنها فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها. (والإعراض: ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله).

قال قتادة:" يقول: ما تأتيهم من شيء من كتاب الله".

قال الطبري: أي:" وما تأتي هؤلاء الكفار الذين بربهم يعدِلون أوثانَهم وآلهتهم حجّة وعلامة ودلالة من حُجج ربهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته، وحقيقة نبوتك، يا محمد، وصدق ما أتيتهم به من عندي".

قال القرطبي:" أي: علامة كانشقاق القمر ونحوها. و {من} لاستغراق الجنس، تقول: ما في الدار من أحد، {من آيات ربهم} {من} الثانية للتبعيض".

=

=

قال البيضاوي:" أي: ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرًا عن المشركين المكذبين المعاندين: إنهم مهما أتتهم {مِنْ آيَةٍ} أي: دلالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الرب، ﷻ، وصدق رسله الكرام".

قال مقاتل:" {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم}، يعني: انشقاق القمر".

قال ابن عباس: "ومن الآيات انشقاق القمر بمكة".

قال أبو العالية:"مثل الشمس والقمر والنجوم".

وقال عطاء:"يريد القرآن".

قال ابن أبي زمنين:" يعني: القرآن".

قال الواحدي:"المراد بالآيات: الدلالات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله وصدق نبيه ﷺ من خلق السموات والأرض وما بينهما مع المعجزات التي أتى بها محمد - ﷺ-".

والأولى في تفسير «الآيات» -هنا-: لعموم، فتشمل الآيات الشرعية والكونية، الآية من القرآن والمعجزة كانشقاق القمر ونحوه، وهواختيارالجمهور.

وقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر. عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-قال: "انشق القمرعلى عهد رسول الله ﷺ شقين، قال النبي ﷺ: «اشهدوا»".

قال الآلوسي:" وإضافة «الآيات» إلى اسم «الرب» المضاف إلى ضميرهم، لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه في حقها، والمراد بها إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه تعالى الموجبة للإقبال عليها والايمان وإيتاؤها نزولالوحي بها".

=

=

قوله تعالى: {إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} [الأنعام: ٤]، أي:" إلاّ تركوا النظر فيها ولم يلتفتوا إليها".

الإعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله جل وعز من خلق السموات والأرض وما بينهما.

قال قتادة:" إلا أعرضوا عنه".

قال مقاتل:" فلم لا يتفكرون فيها فيعتبروا في توحيد الله".

قال ابن أبي زمنين:" يعني به: مشركي العرب".

قال ابن كثير: أي:" فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها".

قال البيضاوي: أي: "تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه".

قال الواحدي:"أي: تاركين التفكر فيها. ومعنى «الإعراض»: الانصراف بالوجه عن الشيء، ثم يبنى عليه الانصراف بالفكر عنه".

قال الطبري:" يقول: إلاأعرضوا عنها، يعني عن الآية، فصدّوا عن قَبُولها والإقرار بما شهدت على حقيقته ودلّت على صحته، جهلا منهم بالله، واغترارًا بحلمه عنهم".

قال القرطبي:" والإعراض: ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله ﷻ من خلق السموات والأرض وما بينهما وأنه يرجع إلى قديم حي غني عن جميع الأشياء قادر لا يعجزه شي عالم لا يخفى عليه شي من المعجزات التي أقامها لنبيه ﷺ «٣»، ليستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به".

قال أبو السعودي:" والتعرض لعنوان الرحمة، لتغليظ شناعتهم وتهويل جنايتهم فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه ﷻ على الإطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى المحض منفعتهم أشنع وأقبح".

قوله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} [الأنعام: ٥].

=

=

قال البغوي:" بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ".

قال الزمخشري:" يعني: القرآن الذي تحدوا به على تبالغهم في الفصاحة".

قال ابن عطية:" {كذبوا بالحق}: وهو محمد عليه السلام وما جاء به".

قال مقاتل:" يعني: القرآن، حين جاءهم به محمد- ﷺ- استهزءوا بالقرآن بأنه ليس من الله، يعني: كفار مكة منهم: أبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج والعاص بن وائل السهمي، وأبى بن خلف، وعقبةابن أبي معيط، وعبد الله بن أبي أمية، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختري ابن هشام بن أسد، والحارث بن عامر بن نوفل، ومخرمة بن نوفل وهشام بن عمرو ابن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وسهل بن عمرو، وعمير بن وهب بن خلف، والحارث بن قيس، وعدى بن قيس، وعامر بن خالد الجمحي، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، ومطعم بن عدي، وقرط بن عبد عمرو بن نوفل، والأخنس ابن شريق، وحويطب بن عبد العزي، وأمية بن خلف كلهم من قريش".

قال أبو حيان: "قوله تعالى (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) (الحق) القرآن أو الإسلام أو محمد ﷺ أو انشقاق القمر أو الوعد أو الوعيد ، أقوال والذي يظهر أنه الآية التي تأتيهم وكأنه قيل (فقد كذبوا) بالآية التي تأتيهم وهي (الحق) فأقام الظاهر مقام المضمر ، لما في ذلك من وصفه بالحق وحقيقته كونه من آيات الله تعالى ، وظاهر قوله (فقد كذبوا) أن الفاء للتعقيب وأن إعراضهم عن الآية أعقبة التكذيب".

قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام: ٥]، أي:" فسوف يرون ما استهزءوا به أنه الحق والصدق، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم، وسيجازيهم عليه".

قال ابن كثير:" وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن

=

=

يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدُنَّ غبه، وليذوقُنَّ وَباله".

قال قتادة:" يقول: سيأتيهم يوم القيامة أنباء ما استهزءوا به من كتاب الله ﷻ".

قال مقاتل:" يعنى: حديث {ما كانوا به}: بالعذاب، {يستهزؤن} بأنه غير نازل بهم ونظيرها في الشعراء، فنزل بهم العذاب ببدر".

قال البغوي:" أي: أخبار استهزائهم وجزاؤه، أي: سيعلمون عاقبة أاستهزائهم إذا عذبوا".

قال الزمخشري: أي:" أنباء الشيء الذي كانوا به يستهزؤن وهو القرآن، أى أخباره وأحواله، بمعنى: سيعلمون بأى شيء استهزءوا. وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته".

قال الطبري:" يقول: سوف يأتيهم أخبارُ استهزائهم بما كانوا به يستهزئون من آياتي وأدلَّتي التي آتيتهم، ثم وفى لهم بوعيده لمّا تمادَوا في غيِّهم، وعَتْوا على ربهم، فقتلتهم يوم بدرٍ بالسَّيف".

قال الزجاج:" دل بهذا أنهم كانوا يستهزئون، وقد ذكر استهزاؤهم في غير هذاالمكان، ومعنى «إتيانه»، أي: تأويله: المعنى: سيعلمون ما يؤول إليه استهزاؤهم".

قال ابن عطية:" توعدهم بأن يأتيهم عقاب استهزائهم، و {ما} بمعنى: «الذس»، ويصح أن تكون مصدرية، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: يأتيهم مضمن أنباء القرآن الذي كانوا به يستهزئون، وإن جعلت

{ما} مصدرية فالتقدير: يأتيهم نبأ كونهم مستهزئين، أي: عقاب يخبرون أنه على ذلك الاستهزاء، وهذه العقوبات التي توعدوا بها تعم عقوبات الدنيا كبدر وغيرها وعقوبات الآخرة".

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦).

{أَلَمْ يَرَوْا} فِي أَسْفَارهمْ إِلَى الشَّام وَغَيْرهَا {كَمْ} خَبَرِيَّة بِمَعْنَى كَثِيرًا {أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلهمْ مِنْ قَرْن} أُمَّة مِنْ الْأُمَم الْمَاضِيَة {مَكَّنَّاهُمْ} أَعْطَيْنَاهُمْ مَكَانًا {فِي الْأَرْض} بِالْقُوَّةِ وَالسِّعَة {مَا لَمْ نُمَكِّن} نُعْطِ {لَكُمْ} فِيهِ الْتِفَات عَنْ الْغَيْبَة {وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء} الْمَطَر {عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا} مُتَتَابِعًا {وَجَعَلْنَا الْأَنْهَار تَجْرِي مِنْ تَحْتهمْ} تَحْت مَسَاكِنهمْ {فأهلكناهم بذنوبهم} بتكذيبهم الأنبياء {وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ} [الأنعام: ٦].

(أَلَمْ يَرَوْا) بأعينهم وبقلوبهم، بأعينهم ، كقوله تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) وإن لم يروا بأبصارهم ولكنهم سمعوا به فتكون رؤية علمية.

قال البغوي:" يعني: الأمم الماضية، والقرن: الجماعة من الناس، وجمعه قرون".

قال ابن كثير:" ثم قال تعالى واعظًا ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعًا، وأكثر أموالا وأولادًا واستغلالا للأرض وعمارة لها، فقال {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ}".

قال ابن الجوزي:" «القرن»: "اسم أهل كل عصر. وسموا بذلك، لاقترانهم في الوجود".

وللمفسرين في المراد بـ«القرن»، أقوال:

=

=

أحدها: أنه أربعون سنة.

الثاني: ثمانون سنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء.

وقيل: إن القرن سبعون سنة ، قاله قتادة.

الثالث: مائة سنة، قاله عبد الله بن بسر المازني ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وهو قول الجمهور.

الرابع: مائة وعشرون سنة، قاله زرارة بن أوفى ، وإياس بن معاوية.

الخامس: عشرون سنة، حكاه الحسن البصري.

السادس: سبعون سنة، ذكره الفراء عن بعضهم.

السابع: أن القرن: أهل كل مدة كان فيها نبي، أو طبقة من العلماء، قلّت السنون، أو كثرت بدليل قوله -ﷺ-: «خيركم قرني» يعني: أصحابي «ثم الذين يلونهم» يعني: التابعين «ثم الذين يلونهم» يعني: الذين أخذوا عن التابعين. وهذا قول الزجاج.

فالقرن: "مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان فهو في كل قوم على مقدار أعمالهم".

الثامن: أن القرن: أمد. قاله أبو مالك.

ورجح القرطبي أن المراد (بالقرن) هم الأمة من الناس ، مقترنين في زمن واحد.

واختار هذا القول: الطبري ، والزجاج ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، وابن كثير ، والسيوطي.

فإن هذه الكلمة يدل اشتقاقها من الاقتران ، أي هم القوم الذين كانوا مقترنين في ذلك الوقت.

ولقوله ﷺ (خير الناس قرني...).

وكثرة استعمال القرآن لهذا المعنى ، ففي سورة الفرقان بعد أن ذكر الله قوم نوح =

=

وفرعون وعادًا وثمود قال (وقرونًا بين ذلك كثيرًا) أي: أممًا وأقوامًا وأجيالًا.

وقيل: المراد بالقرن المدة من الزمن ، واختلفوا في تحديدها على أقوال:

فاشتقاق القرن: من الاقتران. وفي معنى ذلك «الاقتران» قولان:

أحدهما: أنه سمي قرنا، لأنه المقدار الذي هو أكثر ما يقترن فيه أهل ذلك الزمان في بقائهم. هذا اختيار الزجاج.

والثاني: أنه سمي قرنا، لأنه يقرن زمانا بزمان، وأمة بأمة، قاله ابن الأنباري.

وقال أبو عبيدة:" يرون أن أقل ما بين القرنين: ثلاثون سنة".

قوله تعالى: {مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ} [الأنعام: ٦].

قال قتادة:"يقول: أعطيناهم ما لم نعطكم".

قال ابن عباس: "أمهلناهم في العمر مثل قوم نوح وعاد وثمود".

قال مقاتل:" يقول: أعطيناهم من الخير والتمكين في البلاد ما لم نعطكم يأهل مكة".

قال ابن كثير:" أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود".

قال ابن الجوزي: أي:" أعطيناهم ما لم نعطكم. يقال: مكنته ومكنت له: إذا أقدرته على الشيء باعطاء ما يصح به الفعل من العدة. وفي هذه الآية رجوع من الخبر إلى الخطاب".

قال الزمخشري:" مكن له في الأرض: جعل له مكانا فيها. ونحوه: أرض له. ومنه قوله: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ} [الكهف: ٨٤]، {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ} [القصص: ٥٧]، وأما مكنته في الأرض: فأثبته فيها. ومنه قوله {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيه} [الأحقاف: ٢٦]، ولتقارب المعنيين جمع بينهما في قوله: {مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُم}، والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عادا وثمود

=

=

وغيرهم، من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا".

قوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا} [الأنعام: ٦]، أي:" أي أنزلنا المطر غزيرًا متتابعًا يدرُّ عليهم درّا".

عن ابن عباس، قوله: {مدرارا}، يقول: يتبع بعضها بعضا".

وعن ابن عباس -أيضا-:" {مدرارا}، أي: متتابعا في أوقات الحاجات".

قال مقاتل:" بالمطر، يعني متتابعا".

قال ابن كثير:" أي: شيئًا بعد شيء".

وعن هارون التيمي، في قول الله: "{وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا}، قال: المطر في إبانه".

قال الشافعي: "و «المدرار»: الكثير الدر والمطر".

قال الزجاج:" أي: ذات غيث كثير، ومفعال من أسماء المبالغة يقال ديمة مدرار، إذاكان مطرها غزيرا دائما، وهذا كقولهم امرأة مذكار، إذا كانت كثيرة الولادة للذكور، وكذا مئناث في الإناث".

قال الأنباري:" معناه: وأرسلنا المطر عليهم. وقال زهير:

عفا من آل فاطمة الجواء فيمن فالقوادم فالحساء

فذو هاش فميث عريتنات عفتها الريح بعدك والسماء

أراد: والمطر.

وقال حسان بن ثابت:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

ديار من بني الحساس قفر تعفيها الروامس والسماء".

و «المِدرار»: المَطَر الغزير الديمة ، قال الشاعر:

=

=

وسقاك من نَوءِ الثُرَيّا مُزْنةٌ سَحَرًا تَحَلَّبُ وابلًا مِدْرارا

قال ابن الأنباري: "والمراد بالمدرار: "المبالغة في اتصال المطر ودوامه يعني: أنها تدر وقت الحاجة إليها لا أنها تدوم ليلا ونهارا، فتفسد".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ} [الأنعام: ٦]، أي:"وأنعمنا عليهم بجريان الأنهار من تحت مساكنهم؛ استدراجًا وإملاءً لهم".

قال ابن كثير:" أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجًا وإملاء لهم".

قال أبو حيان:" المعنى: أنه تعالى مكنهم التمكين البالغ ووسع عليهم الرزق فذكر سببه وهو تتابع الأمطار على قدر حاجاتهم وإمساك الأرض ذلك الماء، حتى صارت الأنهار تجري من تحتهم".

قوله تعالى: {فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ} [الأنعام: ٦]، أي:" أي فكفروا وعصوا فأهلكناهم بسبب ذنوبهم".

قال مقاتل:" يعني: فعذبناهم بتكذيبهم رسلهم".

قال ابن كثير:" أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها".

قال الطبري:" فغمَطُوا نعمة ربهم، وعصوا رسولَ خالقهم، وخالفوا أمرَ بارئهم، وبغَوْا حتى حقَّ عليهم قَوْلي، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم، وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، وأهلكت بعضهم بالرَّجفة، وبعضهم بالصيحة، وغير ذلك من أنواع العذاب".

قال أبو حيان:" فكثر الخصب فأذنبوا فأهلكوا بذنوبهم، والظاهر أن الذنوب هنا هي كفرهم وتكذيبهم برسل الله وآياته، والإهلاك هنا لا يراد به مجرد الإفناء والإماتة بل المراد الإهلاك الناشئ عن الذنوب والأخذ به كقوله تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ

=

=
خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا} [العنكبوت: ٤٠]، لأن الإهلاك بمعنى الإماتة مشترك فيه الصالح والطالح".

قال ابن سليمان: سمعت مالك بن دينار يقول:"إذا كان القحط يقول: بذنوبنا، وإذا كان الخصب يتلو هذه الآية: {وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين}".

قوله تعالى: {وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [الأنعام: ٦].

أي: ذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث، وخلقنا من بعدهم جيلًا آخر، لنختبرهم، فمن أطاع مكناه ووفقناه، ومن عصى عذبناه، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

وفي هذا بيان لكمال قدرته سبحانه وقوة سلطانه وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء.

قال مقاتل:" يقول: وخلقنا من بعد هلاكهم قوما آخرين".

قال الطبري:"، يقول: وأحدثنا من بعدالذين أهلكناهم قرنًا آخرين، فابتدأنَا سِواهم".

قال ابن كثير:" أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث، {وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} أي: جيلا آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم فهلكوا كهلاكهم. فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثلما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه".

قال أبو حيان:" وفائدة ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم، إظهار القدرة التامة على
=

=

إفناء ناس وإنشاء ناس فهو تعالى لا يتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده وينشئ مكانه آخر يعمر بلاده وفيه تعريض للمخاطبين، بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم ووصف قرنا ب آخرين وهو جمع حملا على معنى قرن، وكان الحمل على المعنى أفصح لأنها فاصلة رأس آية".

قال الزمخشري:" فإن قلت: أي فائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم؟

قلت: الدلالة على أنه لا يتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده منهم؟ فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده، كقوله تعالى: {وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [الشمس: ١٥]".

قال الرازي: "واعلم أن الله تعالى وصف القرون الماضية بثلاثة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: قوله (مكناهم فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ) والمعنى لم نعط أهل مكة مثل ما أعطينا عادًا وثمود وغيرهم من البسطة في الأجسام والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا.

والصفة الثانية: قوله (وَأَرْسَلْنَا السماء عَلَيْهِم مِدْرَارًا) يريد الغيث والمطر ، فالسماء معناه المطر ههنا ، والمدرار الكثير الدر وأصله من قولهم در اللبن إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير فالمدرار يصلح أن يكون من نعت السحاب ، ويجوز أن يكون من نعت المطر يقال سحاب مدرار إذا تتابع أمطاره.

ومفعال يجيء في نعت يراد المبالغة فيه.

قال مقاتل (مِدْرَارًا) متتابعًا مرة بعد أخرى ويستوي في المدرار المذكر والمؤنث.

والصفة الثالثة: قوله (وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ) والمراد منه كثرة البساتين.

واعلم أن المقصود من هذه الأوصاف أنهم وجدوا من منافع الدنيا أكثر مما وجده

=

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧).

{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْك كِتَابًا} مَكْتُوبًا {فِي قِرْطَاس} رَقّ كَمَا اقْتَرَحُوهُ {فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} أَبْلَغ مَنْ عَايَنُوهُ لِأَنَّهُ أَنْفَى لِلشَّكِّ {لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ} مَا {هَذَا إلَّا سِحْر مُبِين} تَعَنُّتًا وعنادا[1].

=

أهل مكة ، ثم بيّن تعالى أنهم مع مزيد العز في الدنيا بهذه الوجوه ومع كثرة العدد والبسطة في المال والجسم جرى عليهم عند الكفر ما سمعتم وهذا المعنى يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة.

(فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) أي: فأتلفناهم ودمرناهم بسبب ذنوبهم.

قال ابن عاشور: والإهلاك: الإفناء ، وهو عقاب للأمّة دالّ على غضب الله عليها ، لأنّ فناء الأمم لا يكون إلاّ بما تجرّه إلى نفسها من سوء فعلها ، بخلاف فناء الأفراد فإنْه نهاية محتّمة ولو استقام المرء طول حياته ، لأنّ تركيب الحيوان مقتض للانتهاء بالفناء عند عجز الأعضاء الرئيسية عن إمداد البدن بمواد الحياة فلا يكون عقابًا إلاّ فيما يحفّ به من أحوال الخزي للهالك.

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن إسحاق؛ قال: دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم، فأبلغ إليهم فيما بلغني، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعبدة بن عبد يغوث، وأبيّ بن خلف بن وهب، والعاص بن وائل بن هشام الذي يقول له: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك؛ فأنزل الله في ذلك من قولهم {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨)}.

=

=

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٦٥ رقم ٧١٢٠) حدثنا محمد بن العباس ثنا محمد بن عمرو ثنا سلمة عنه به. وسنده ضعيف.

وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد، قالوا: يا محمد! لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله؛ فأنزل الله ﷻ: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ}.

ذكره البغوي في "تفسيره" (٣/ ١٢٩) هكذا معلقًا عنهما، ولا يخفى ضعفه ووهائه.

* قوله تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ} [الأنعام: ٧].

يقول تعالى مخبرًا عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ) والخطاب للنبي ﷺ.

قال القرطبي: " المعنى: ولو نزلنا يا محمد بمرأى منهم كما زعموا وطلبوا كلاما مكتوبا {في قرطاس}".

قال الطبري: " إخبار من الله تعالى ذكره نبيَّه محمدًا ﷺ، عن هؤلاء القوم الذين يعدلون بربهم الأوثانَ والآلهة والأصنام. يقول تعالى ذكره: وكيف يتفقهون الآيات، أم كيف يستدِلُّون على بُطْلان ما هم عليه مُقِيمون من الكفر بالله وجحودِ نبوتك، بحجج الله وآياته وأدلته، وهم لعنادهم الحقَّ وبعدِهم من الرشد، لو أنزلت عليك، يا محمد، الوحيَ الذي أنزلته عليك مع رسولي، في قِرْطاس".

قال السعدي: " هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به، ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه".

عن السدي: "{ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس}، الصحف".

=

=

قال قتادة:" يقول: في صحيفة".

قال السمعاني:" والقرطاس: ما يكون مكتوبا، فإذا لم يكن مكتوبا سمي: طرسا".

قوله تعالى: {فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} [الأنعام: ٧]، أي:" فلمسه هؤلاء المشركون بأيديهم".

قال مجاهد:" فمسوه ونظروا إليه، لم يصدِّقوا به".

قال قتادة:" يقول: فعاينوه معاينة".

قال السعدي: أي:" وتيقنوه".

قال الطبري: أي:" يعاينونه ويمسُّونه بأيديهم، وينظرون إليه ويقرءونه منه، معلَّقًا بين السماء والأرض، بحقيقة ما تدعوهم إليه، وصحَّةِ ما تأتيهم به من توحيدي وتنزيلي".

قال ابن كثير:" أي: عاينوه، ورأوا نزوله، وباشروا ذلك".

قال القرطبي:" أي: فعاينوا ذلك ومسوه باليد كما اقترحوا وبالغوا في ميزه وتقليبه جسا بأيديهم ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كله إشكال".

قال ابن الجوزي: "فأما قوله تعالى (فلمسوه بأيديهم) فهو توكيد لنزوله ، وقيل: إنما علَّقه باللمس باليد إبعادًا له عن السحر ، لأن السحر يُتَخَيَّلُ في المرئيات ، دون الملموسات ، ومعنى الآية: إنهم يدفعون الصحيح".

قال ابن عاشور: واللمس وضع اليد على الشيء لمعرفة وجوده ، أو لمعرفة وصف ظاهره من لين أو خشونة ، ومن برودة أو حرارة ، أو نحو ذلك.

قال السمعاني:" فإن قال قائل: لم لم يقل: فرأوه بأعينهم؟

قيل: لأن اللمس أبلغ في إيقاع العلم من الرؤية؛ لأن السحر يجري على المرئي، ولا يجري على الملموس؛ لأن الملموس يصير مرئيا، والمرئي لا يصير ملموسا؛ فذكر اللمس ليكون أبلغ".

=

=

قال الزمخشري:" ولم يقتصر بهم على الرؤية، لئلا يقولوا: سكرت أبصارنا، ولا تبقى لهم علة".

قوله تعالى: {لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الأنعام: ٧]، أي:" لقالوا: إنَّ ما جئت به -أيها الرسول- سحر واضح بيِّن".

قال ابن عباس:" لزادهم ذلك تكذيبا".

قال مجاهد:" فنظروا إليه، ولم يصدقوا به".

قال الطبري: أي: لقال الذين يعدلُون بي غيري فيشركون في توحيدِي سواي ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر سحرتَ به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة، مبين لمن تدبّره وتأمَّله أنه سحر لا حقيقة له".

قال القرطبي: أي:"لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم".

قال السمعاني:" معناه: أنه لا ينفع معهم شيء فإنا وإن أنزلنا عليهم ما اقترحوا قالوا إن هذا إلا سحر مبين".

قال البغوي:" معناه: لا ينفع معهم شيء لما سبق فيهم من علمي".

قال ابن كثير:" وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [الحجر: ١٤، ١٥] وقال تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ} [الطور: ٤٤]".

قال الزجاج:" أعلم الله ﷻ أنهم قد أصلوا في السيئ الباطل في دفع النبوة، لأنهم قد رأوا القمر انشق فأعرضوا، وقالوا سحر مستمر، وكذلك يقولون في كل ما يعجز عنهالمخلوقون سحر، هذا عين الدفعلغاية الحق والنور الساطع المبين، فلو رأوا الكتاب ينزل من السماء لقالواسحر كما أنهم قالوا في انشقاق القمر سحر".

قال السعدي:" فأي بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث

=

=

كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه؟".

قال الشنقيطي: ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْكُفَّارَ لَوْ نَزَّلَ اللهُ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مَكْتُوبًا فِي قِرْطَاسٍ، أَيْ صَحِيفَةٍ ، إِجَابَةً لِمَا اقْتَرَحُوهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ) ، فَعَايَنُوا ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، لَعَانَدُوا ، وَادَّعَوْا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سَحَرَهُمْ ، وَهَذَا الْعِنَادُ وَاللَّجَاجُ الْعَظِيمُ وَالْمُكَابِرَةُ الَّذِي هُوَ شَأْنُ الْكُفَّارِ بَيَّنَهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ).

وَقَوْلِهِ (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ).

وَقَوْلِهِ (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ).

وَقَوْلِهِ (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ).

وَقَوْلِهِ (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ).

وَقَوْلِهِ (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَذَكَرَ تَعَالَى نَحْوَ هَذَا الْعِنَادِ وَاللَّجَاجِ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فِي قَوْلِهِ: وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ).

قال ابن عاشور: وجاء قوله (الذين كفروا) دون أن يقول: لقالوا ، كما قال (فلمسوه) إظهارًا في مقام الإضمار لقصد تسجيل أنّ دافعهم إلى هذا التعنّت هو الكفر ، لأنّ الموصول يؤذن بالتعليل.

وقال ابن عطية: لما أخبر عنهم ﷻ بأنهم كذبوا بكل ما جاءهم من آية تبع ذلك إخبار فيه مبالغة مضمنه أنه لو جاءهم أشنع مما جاء لكذبوا أيضًا.

والغرض أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدلائل ، كما قال

=

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨)

{وَقَالُوا لَوْلَا} هَلَّا {أُنْزِلَ عَلَيْهِ} عَلَى مُحَمَّد ﷺ {مَلَك} يُصَدِّقهُ {وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا} كَمَا اقْتَرَحُوا فَلَمْ يُؤْمِنُوا {لَقُضِيَ الْأَمْر} بِهَلَاكِهِمْ {ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ} يُمْهَلُونَ لِتَوْبَةٍ أَوْ مَعْذِرَة كَعَادَةِ الله فِيمَنْ قَبْلهمْ مِنْ إهْلَاكهمْ عِنْد وُجُود مُقْتَرَحهمْ إذَا لَمْ يُؤْمِنُوا.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩).

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ} أَيْ الْمُنَزَّل إلَيْهِمْ {مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ} أَيْ الْمَلَك {رَجُلًا} أَيْ عَلَى صُورَته لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ رُؤْيَته إذْ لَا قُوَّة لِلْبَشَرِ عَلَى رُؤْيَة الْمَلَك {و} لَوْ أَنْزَلْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا {لَلَبَسْنَا} شَبَّهْنَا {عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} عَلَى أَنْفُسهمْ بِأَنْ يَقُولُوا مَا هَذَا إلَّا بَشَر مِثْلكُمْ[1].

=

تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ). وقال تعالى (وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) وقال تعالى (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ) وقال تعالى (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا) وذكر تعالى نحو هذا العناد واللجاج عن فرعون وقومه في قوله (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ).

وفي هذا علم الله بما سيكون لو كان، لأنه علم ماذا سيكون قول هؤلاء لو نزل عليهم كتاب في قرطاس.

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} [الأنعام: ٨].

أي: هلا نزل عليه ملك نراه ويكلمنا أنه نبي حتى نؤمن به ونتبعه؟ كما قالوا (لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا).

=

=

عن مجاهد: قوله: "{لولا أنزل عليه ملك}، قال: في صورته".

قال ابن كثير:" أي: فيكون معه نذيرا".

قال السعدي:" {وقالوا} أيضا تعنتا مبنيا على الجهل، وعدم العلم بالمعقول. {لولا أنزل عليه ملك} أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله، لا تكون إلا على أيدي الملائكة".

قال السمعاني:" وهذا قول عبد الله بن أبي أمية المخزومي اقترح إنزال ملك".

قوله تعالى: {وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ} [الأنعام: ٨].

قيل: أي لا انتهى الأمر بهلاكهم إذ لم يؤمنوا عند رؤيته ونزوله ، لأن مثل هذه الآية البينة ، وهي نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها فقد استحقوا الإهلاك والمعاجلة بالعقوبة.

ورجح هذا القول: الطبري ، والبغوي ، وابن القيم ، وابن كثير ، والشوكاني ، والقاسمي ، والسعدي، والشنقيطي.

ويؤيد هذا القول: أن الملائكة لا تنزل إلا بوحي أو بعذاب ، ويدل على ذلك قوله تعالى (ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذًا منظرين).والحق هاهنا العذاب.

ويؤيده كذلك قوله تعالى (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين).

قال ابن عباس:" ولو أتاهم ملك في صورته" ، " لأهلكناهم".

قال مجاهد:" {لقضي الأمر}: لقامت الساعة". وروي عن عكرمة مثل ذلك.

قال ابن عطية:" وهذا ضعيف".

قال قتادة:" يقول: لو أنزلنا ملكا، ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب". وروي عن السدي مثل ذلك.

قال ابن عطية:" وهذا قول حسن".

قال البغوي:" أي: لوجب العذاب، وفرغ من الأمر".

=

=

قال السمعاني:" وقيل: معناه: لاستؤصلوا بالعذاب، وهذه سنة الله في الكفار؛ أنهماستأصلهم بالعذاب، كدأب قوم نوح، وعاد وثمود، وقوم لوط، وأمثالهم".

قال القاسمي: والمعنى: أن الملك لو أنزل على رسول الله ﷺ في صورته ، وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ، ثم لم يؤمنوا ، لحاق بهم العذاب ، وفرغ الأمر ، فإن سنة الله قد جرت في الكفار أنهم متى اقترحوا آية. ثم لم يؤمنوا ، استؤصلوا بالعذاب ، كما قال تعالى (مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ) وقوله تعالى (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ).

قال ابن عطية:" وقالت فرقة: لقضي الأمر أي لماتوا من هول رؤية الملك في صورته، ويؤيد هذا التأويل ما بعده من قوله: {ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا}، فإن أهل التأويل مجمعون أن ذلك لأنهم لم يكونوا يطيقون رؤية الملك في صورته، فالأولى في قوله: {لقضي الأمر}، أي: لماتوا من هول رؤيته".

قال النسفي:" لأنهم إذا شاهدوا ملكا في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون".

قال ابن كثير:" أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال تعالى: {مَا نُنزلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ} [الحجر: ٨]، [و] قال تعالى: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ [وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا] } [الفرقان: ٢٢]".

قال السعدي: قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشرا منهم يكون الإيمان بما جاء به، عن علم وبصيرة، وغيب: {ولو أنزلنا ملكا} برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيمانا بالشهادة، الذي لا ينفع شيئا وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم".

=

=

فإن قيل: لماذا لم تهلك قريش لما طلبوا آية فانشق القمر نصفين كما طلبوا؟

الجواب: لأنهم لم يطلبوا آية معينة ، بل قالوا: يا محمد! أرنا آية ، فأراهم انشقاق القمر.

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ} [الأنعام: ٨]، أي:" ثم لا يمهلون لتوبة، فقد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون".

قال ابن عباس:" ثم لا يؤمنون".

قال قتادة:" يقول: ثم لم ينظروا".

قال السمعاني:" أي: ثم لا يمهلون".

قال البغوي:" أي: لا يؤجلون ولا يمهلون".

قال ابن عطية:" معناه يؤخرون، والنظرة التأخير".

قال الزمخشري:" {ثم لا ينظرون} بعد نزوله طرفة عين، إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله ﷺ في صورته وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن، ثم لا يؤمنون كما قال: ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى لم يكن بد من إهلاكهم، كما أهلك أصحاب المائدة. وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة فيجب إهلاكهم. وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكا في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون. ومعنى: {ثم} بعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة".

قال السعدي:"لأن هذه سنة الله، فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها، فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد، وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين خير لهم وأنفع، فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك، فالملك لو أنزل عليهم، وأرسل، لم

=

=

يطيقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقته قواهم الفانية".

قوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًالَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا} [الأنعام: ٩].

قال ابن عباس:"ما آتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة".

قال مجاهد:" في صورة رجل، في خَلْق رجل".

قال قتادة:" يقول: لو بعثنا إليهم ملكًا لجعلناه في صورة آدم".

وقال ابن زيد:" لجعلنا ذلك الملك في صورة رجل، لم نرسله في صورة الملائكة".

قال الماوردي:" يعني: ولو جعلنا معه ملكًا يدل على صدقه لجعلناه في صورة رجل".

قال ابن كثير:" أي: ولو أنزلنا مع الرسول البَشَرِيّ ملكًا، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيًا لكان على هيئة رجل لتُفْهَم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه".

قال الطبري: أي:" ولو جعلنا رسولنا إلى هؤلاء العادلِين بي، القائلين: لولا أنزل على محمّدٍ ملك بتصديقه - ملكًا ينزل عليهم من السماء، يشهد بتصديق محمد ﷺ، ويأمرهم باتباعه " لجعلناه رجلا "، يقول: لجعلناه في صورة رجل من البشر، لأنهم لا يقدرون أن يروا الملك في صورته. يقول: وإذا كان ذلك كذلك، فسواء أنزلت عليهم بذلك ملكًا أو بشرًا، إذ كنت إذا أنزلت عليهم ملكًا إنما أنزله بصورة إنسيّ، وحججي في كلتا الحالتين عليهم ثابتة: بأنك صادق، وأنّ ما جئتهم به حق".

قال السمعاني:" أي: في صورة رجل؛ لأن الرجل أأنس بالرجل، وأفهم منه، وقد جاء جبريل إلى النبي في صورة دحية الكلبي وجاء الملكان إلى داود في صورة رجلين".

=

=

قال الزمخشري:" ولو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك. وتارة يقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم، لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، لجعلناه رجلا لأرسلناه في صورة رجل، كما كان ينزل جبريل على رسول الله ﷺ في أعلم الأحوال في صورة دحية لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم".

وفي وجوب جعله رجلًا وجهان:

أحدهما: لأن الملائكة أجسامهم رقيقة لا تُرَى، فاقتضى أن يُجْعَل رجلًا لكثافة جسمه حتى يرى.

والثاني: أنهم لا يستطيعون أن يروا الملائكة على صورهم، وإذا كان في صورة الرجل لم يعلموا ملك هو أو غير ملك.

ولو قيل: لجعلناه رجلا حتى لا يبطل ركن الإيمان الأعظم، وهو الإيمان بالغيب، لكان قولا وجيها.

قال الرازي (لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا) والحكمة فيه أمور:

أحدها: أن الجنس إلى الجنس أميل.

وثانيها: أن البشر لا يطيق رؤية الملك.

وثالثها: أن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر ، وربما لا يعذرونهم في الإقدام على المعاصي.

ورابعها: أن النبوّة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده ، سواء كان ملكًا أو بشرًا.

قال أبو حيان: ومعنى (لجعلناه رجلًا) أي: لصيرناه في صورة رجل ، كما كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ في غالب الأحوال في صورة دحية ، وتارة ظهر له وللصحابة في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر

=

=

السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة ، وفي الحديث (وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا) ، وكما تصوّر جبريل لمريم بشرًا سويًا والملائكة أضياف إبراهيم وأضياف لوط ومتسوّر والمحراب ، فإنهم ظهروا بصورة البشر وإنما كان يكون بصورة رجل ، لأن الناس لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته.

وقال القرطبي: لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكًا لفروا من مقاربته وما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب والاتقاء له ما يكفهم من كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.

قوله تعالى: {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} [الأنعام: ٩].

أي: لأوقعناهم في اللبس والإشكال والخلط ، كما يفعلون ذلك مع أتباعهم من الضعفاء ، وكما يسعون إلى التلبيس عليك ، وهنا يختلط الأمر عليهم أملكٌ هو أم بشر؟.

قال سفيان:" وللبسنا عنهم فلا يعرفون".

قال البغوي:" أي: خلطنا عليهم ما يخلطون وشبهنا عليهم فلا يدرون أملك هو أم آدمي".

قال ابن كثير:" ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا} [الإسراء: ٩٥]، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائقرسلا منهم، ليدعو بعضهم بعضا، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ} الآية [آل عمران: ١٦٤]".

=

=

قال الطبري: يعني:" ولو أنزلنا ملكًا من السماء مصدِّقًا لك، يا محمد، شاهدًا لك عند هؤلاء العادلين بي، الجاحدين آياتِك على حقيقة نبوّتك، فجعلناه في صورة رجل من بني آدم، إذ كانوا لا يُطيقون رؤية الملك بصورته التي خلقتُه بها التبس عليهم أمرُه، فلم يدروا أملك هو أمْ إنسيّ! فلم يوقنوا به أنَّه ملك، ولم يصدّقوا به، وقالوا: ليس هذا ملكًا! وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقة أمرك، وصحة برهانك وشاهدك على نبوّتك".

قال الشوكاني: "أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم ، لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان ، قالوا: هذا إنسان وليس بملَك ، فإن استدلّ لهم بأنه ملك كذبوه".

وفي قوله تعالى: {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} [الأنعام: ٩]، وجوه:

أحدها: معناه ولخلطنا عليهم ما يخلطون، قاله الكلبي.

والثاني: لشبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم، وهذا قول ابن عباس ، وقتادة ، والسدي.

قال الزجاج: يقال: لبست الأمر على القوم ألبسه، إذا شبهته عليهم، وأشكلته عليهم، وكانوا هم يلبسون على ضعفتهم في أمر النبي ﷺ فيقولون: إنما هذا بشر مثلكم فقال: {ولو أنزلنا ملكا} فرأوا هم الملك رجلا لكان يلحقهم فيه من اللبس مثل ما لحق ضعفتهم منهم". ومنه قول الخنساء:

صدّقْ مقالته واحذرْ عداوته والْبِسْ عليه بشكٍّ مثلَ ما لَبَسا

وذكر السمعاني في معنى هذا القول وجهان:

أحدهما: أنهم شبهوا على ضعفائهم فتشبه عليهم كما شبهوا، وينزل الملك في صورة رجل (حي) يشتبه عليهم؛ فيقول بعضهم: هو ملك، ويقول بعضهم: ليس بملك.

والقول الثاني: أن معناه: أضللناهم بإنزال الملك في صورة رجل، كما ضلوا من

=

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠).

{وَلَقَدْ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلك} فِيهِ تَسْلِيَة لِلنَّبِيِّ ﷺ {فَحَاقَ} نَزَلَ {بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} وَهُوَ الْعَذَاب فَكَذَا يَحِيق بِمَنْ اسْتَهْزَأَ بِك[1].

=

قبل، أي: لو حسبوا أن يهتدوا بإنزال الملك، فإنزال الملك لا يعجزنا من إضلالهم به.

والثالث: معناه: وللبسنا على الملائكة من الثبات ما يلبسه الناس من ثيابهم، ليكونوا على صورهم وعلى زِيِّهم، حكاه الماوردي عن جويبر.

والرابع: ان معنى اللبس: هو تعريف الكلام عن مواضعه. وهذا قول الضحاك ، وهو مروي عن ابن عباس في رواية اخرى.

عن ابن عباس قوله: {وللبسنا عليهم ما يلبسون}، فهم أهل الكتاب، فارقوا دينهم، وكذَّبوا رسلهم، وهو تحريفُ الكلام عن مواضعه".

عن الضحاك في قوله: "{وللبسنا عليهم ما يلبسون}، يعني: التحريفَ، هم أهل الكتاب، فرقوا كتبهم ودينَهم، وكذَّبوا رسلهم، فلبَّس الله عليهم ما لبَّسوا على أنفسهم".

والخامس: ويجوز أن يراد: وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة. ذكره الزمخشري.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} [الأنعام: ١٠].

(اللام) موطئة للقسم ، وقد للتحقيق ، والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذي بعثوا إليهم قبلك.

قال السمرقندي: أي:" في أمر العذاب".

قال الطبري: أي:" هَوِّنْ عليك، يا محمد، ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك،

=

=

المستخفِّين بحقك فيّ وفي طاعتي، وامضِ لما أمرتك به من الدُّعاء إلى توحيدي والإقرار بي والإذعان لطاعتي، فإنهم إن تمادوا في غيِّهم، وأصَرُّوا على المقام على كفرهم، نسلك بهم سبيلَ أسلافهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيل النقمةلهم، وحلول المَثُلاثِ بهم. فقد استهزأت أمم من قبلك برسلٍ أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثل ما فعل قومُك بك".

قوله تعالى: {فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام: ١٠]، أي:"فأحاط ونزل بهؤلاء المستهزئين بالرسل عاقبة استهزائهم".

قال السدي:" يقول: وقع بهم العذاب الذي استهزءوا به".

قال ابن ابي زمنين:" يعني: نزل بهم عقوبة استهزائهم".

قال البغوي:" أي: جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة".

قال مقاتل:" يعني: فدار بالذين سخروا من الرسل ما كانوا بالعذاب يستهزؤنبأنه غير نازل بهم".

قال الطبري: أي:" فنزل وأحاط بالذين هزئوا من رسلهم العذابُ الذي كانوا يهزءون به، وينكرون أن يكون واقعًا بهم على ما أنذرتهم رسلهم".

قال ابن كثير:" هذا تسلية لرسوله محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة".

قال الواحدي:" قال المفسرون: هذه الآية تعزية للنبي ﷺ وتسلية له عما يرى من تكذيب المشركين إياه واستهزائهم به؛ إذ جعل إسوته في ذلك بالأنبياء الذين كانوا قبله، وتحذير المشركين الذين فعلوا بنبيهم ما فعل من قبلهم من مكذبي الرسل فحل بهم العذاب".

قال الربيع بن أنس:" {فَحَاقَ}: ترك". ونقل عنه الواحدي والبغوي، أنه قال:"نزل".

=

=

وقال عطاء: "أحل".

قال الضحاك: "{فَحَاقَ}: أي: أحاط".

قال الثعلبي:" وقيل: وجب".

والأقوال متقاربة، وأكثرهم على أنه بمعنى نزل وأحاط بهم العذاب، قال الرازي:"في تفسيره وجوه كثيرة وهي بأسرها متقاربة".

قال الزجاج:" «الحيق» في اللغة ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، ومنه قوله ﷻ: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣]، أي: لا ترجع عاقبةمكروهه إلا عليهم".

في الآية:

أولًا: تسلية للنبي ﷺ وكذا لأتباعه، لأن الإنسان يتسلى بما وقع لغيره.

قال أبو حيان (وَلَقَدِ استهزاء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ) هذه تسلية لرسول الله ﷺ على ما كان يلقى من قومه وتأسّ بمن سبقً من الرسل وهو نظير (وإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك) لأن ما كان مشتركًا من ما لا يليق أهون على النفس مما يكون فيه الانفراد ، وفي التسلية والتأسي من التخفيف ما لا يخفى ، وقالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي.. على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن.. أسلي النفس عنه بالتأسي

ثانيًا: عناية الله تعالى بنبيه ﷺ حيث ينزل عليه من القرآن ما يسليه.

ثالثًا: تهديد ووعيد شديد للمكذبين المستهزئين.

رابعًا: وعد للنبي ﷺ وللمؤمنين بالنصر والعاقبة في الدنيا والآخرة.

وقد وقع الاستهزاء والسخرية بالأنبياء قبله ﷺ.

فمن استهزائهم بنوح قولهم له: بعد أن كنت نجارًا صرت نبيًا.

وقال تعالى عن نوح (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

=

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١).

{قُلْ} لَهُمْ {سِيرُوا فِي الْأَرْض ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الْمُكَذِّبِينَ} الرُّسُل مِنْ هَلَاكهمْ بالعذاب ليعتبروا(١).

=

ومن استهزائهم بهود ما ذكره الله عنهم بقولهم (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ).

ومن استهزائهم بصالح قولهم فيما ذكر الله عنهم (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وقولهم (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا).

ومن استهزائهم بلوط قولهم فيما حكى الله عنهم (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ).

(١) قوله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا} [الأنعام: ١١].

قوله تعالى: (قُلْ) الخطاب للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون له ولكل من دعا إلى شريعته.

قوله تعالى (قل) فيه أهمية هذا الأمر الذي أُمِر به النبي ﷺ، لأن كل حكم أو خبر يُصدَّر بقل هو دليل على الاهتمام به، لأن الله جعل له عناية خاصة بالوصية بإبلاغه، وإلا فجميع الكتاب قال الله فيه (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ).

قال الطبري: " يقول: جولوا في بلاد المكذِّبين رسلَهم، الجاحدين آياتي مِنْ قبلهم من ضُرَبائهم وأشكالهم من الناس، ثم انظروا".

قال الواحدي: أي:" سافروا في الأرض، فاعتبروا".

قال السمعاني:" يحتمل هذا السير بالفكرة والعقول، ويحتمل السير بالأقدام".

قال البغوي: أي:" معتبرين، يحتمل هذا: السير بالعقول والفكر، ويحتمل السير بالأقدام".

=

=

قال ابن كثير:" أي: فكروا في أنفسكم، وانظروا".

قال الزمخشري:" فإن قلت: أى فرق بين قوله: «فانظروا»، وبين قوله: «ثم انظروا»؟

قلت: جعل النظر مسببا عن السير في قوله: «فانظروا»، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين.

يأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهؤلاء المستهزئين أن يسيروا في الأرض، وهذا السير يشمل السير بالأبدان والسير بالقلوب، والسير بالقلوب: أن يقرأ ويتأمل ما وقع للأمم السابقة من العقوبات، وذلك بقراءة تاريخهم بما صح منها ، وأصح شيء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، والسير بالأقدام بأن ينظروا بأبصارهم آثار المكذبين كما في قوله تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ).

وأما قوله: {سيروا في الأرض ثم انظروا}، فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح".

قوله تعالى: {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام: ١١]، أي:" كيف أعقب الله المكذبين الهلاك والخزي؟ فاحذروا مثل مصارعهم، وخافوا أن يحلَّ بكم مثل الذي حل بهم".

قال الطبري: أي:" كيف أعقَبَهم تكذيبهم ذلك، الهلاكَ والعطبَ وخزيَ الدنيا وعارَها، وما حَلَّ بهم من سَخَط الله عليهم، من البوار وخرابالديار وعفوِّ الآثار. فاعتبروا به، إن لم تنهكم حُلُومكم، ولم تزجركم حُجج الله عليكم، عمَّا أنتم عليه مقيمون من التكذيب، فاحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحلّ بكم مثلُ الذي حلّ بهم".

=

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢).

{قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض قُلْ لِلَّهِ} إنْ لَمْ يَقُولُوهُ لَا جَوَاب غَيْره {كَتَبَ عَلَى نَفْسه} قَضَى عَلَى نَفْسه {الرَّحْمَة} فَضْلًا مِنْهُ وَفِيهِ تَلَطُّف فِي دُعَائِهِمْ إلَى الْإِيمَان {لَيَجْمَعَنكُمْ إلَى يَوْم الْقِيَامَة} لِيُجَازِيَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ {لَا

=

قال الواحدي: {الْمُكَذِّبِينَ}، أي:" مُكذِّبي الرُّسل، يعني: إذا سافروا رأوا آثار الأمم الخالية المهلكة يحذِّرهم مثلَ ما وقع بهم".

قال السمعاني:" عني: ممن سبق من الأمم".

قال البغوي: أي:" أي: آخر أمرهم وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك، فحذر كفار مكة عذاب الأمم الخالية".

قال ابن كثير:" ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم، من العذاب والنكال، والعقوبة في الدنيا، مع ما ادَّخَر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نَجَّى رسله وعباده المؤمنون".

قال ابن أبي زمنين:" كان عاقبتهم أن دمر الله عليهم، ثم صيرهم إلى النار".

قال قتادة:" بئس والله ما كان عاقبة المكذبين، دمر الله عليهم وأهلكهم ثم صيرهم إلى النار".

قال ابن عطية:" {قل سيروا} الآية، حض على الاعتبار بآثار من مضى ممن فعل فعلهم، وقال كان ولم يقل كانت لأن تأنيث العاقبة ليس بحقيقي، وهي بمعنى الآخر والمآل، ومعنى الآية: سيروا وتلقوا ممن سار لأن العبرة بآثار من مضى إنما يستند إلى حس العين".

رَيْب} شَكّ {فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسهمْ} بِتَعْرِيضِهَا لِلْعَذَابِ مُبْتَدَأ خَبَره {فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنعام: ١٢].

أي: قل يا محمد لمن الكائنات جميعًا خلقًا وملكًا وتدبيرًا؟.

قال الزمخشري:" {لمن ما في السماوات والأرض}، سؤال تبكيت".

قال السعدي:" أي: من الخالق لذلك، المالك له، المتصرف فيه؟".

قال الطبري: أي:"قل يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم: لمن ملك ما في السماوات والأرض؟".

قوله تعالى: {قُلْ لِلَّهِ} [الأنعام: ١٢]، أي:" قل: هو لله كما تقرون بذلك وتعلمونه، فاعبدوه وحده".

قال الزمخشري:" {قل لله} تقرير لهم، أى هو- الله- لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئا منه إلى غيره".

قال الواحدي:" فإن أجابوك وإلاَّ {قل لله}".

قال السعدي:" {قل} لهم: {لله} وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟".

قال الطبري: أي:" ثم أخبرهم أن ذلك لله الذي استعبدَ كل شيء، وقهر كل شيء بملكه وسلطانه لا للأوثان والأنداد، ولا لما يعبدونه ويتخذونه إلهًا من الأصنام التي لا تملك لأنفسها نفعًا ولا تدفع عنها ضُرًّا".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن".

قال البغوي:" أمره بالجواب عقيب السؤال ليكون أبلغ في التأثير وآكد في الحجة".

وفي قوله تعالى: {قُلْ لِلَّهِ} [الأنعام: ١٢]، وجهان:

=

=

أحدهما: قال بعض أهل التأويل: في الكلام حذف تقديره: قل لمن ما في السماوات والأرض؟ فإذا تحيروا ولم يجيبوا، قل لله.

والثاني: وقالت فرقة: المعنى أنه أمر بهذا السؤال فكأنهم لما لم يجيبوا ولا تيقنوا سألوا فقيل له: قل لله.

قال ابن عطية:"والصحيح أن الله ﷻ أمر محمدا ﷺ بقطعهم بهذه الحجة الساطعة والبرهان القطعي الذي لا مدافعة فيه عندهم ولا عند أحد، ليعتقد هذا المعتقد الذي بينه وبينهم ثم يتركب احتجاجه عليه، وجاء ذلك بلفظ استفهام وتقرير في قوله: لمن ما في السماوات والأرض والوجه في المحاجة إذا سأل الإنسان خصمه، بأمر لا يدافعه الخصم فيه، أن يسبقه بعد التقرير إليه مبادرة إلى الحجة، كما تقول لمن تريد غلبته بآية تحتج بها عليه، كيف قال الله في كذا؟ ثم تسبقه أنت إلى الآية فتنصها عليه، فكأن النبي ﷺ قال لهم: يا أيها الكافرون العادلون بربهم لمن ما في السماوات والأرض؟ ثم سبقهم فقال: لله، أي لا مدافعة في هذا عندكم ولا عند أحد".

قوله تعالى: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ١٢].

أي: أوجب على نفسه الرحمة.

فمعنى (كتب) أوجب ، لأن الكتابة بمعنى الإيجاب ، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) أي فُرِض وأُوجِب.

والله ﷻ هو الذي ألزم على نفسه الرحمة ، ولله أن يكتب على نفسه ما شاء.

قوله تعالى (عَلَى نَفْسِهِ) أي: على ذاته ، وليست صفته ، كما قال تعالى (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ).

قال ابن قتيبة:" أي: أوجبها على نفسه لخلقه".

=

=

قال الواحدي: أي:" أوجب على نفسه الرَّحمة وهذا تلطُّفٌ في الاستدعاء إلى الإنابة".

قال الطبري:" يقول: قضى أنَّه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة. وهذا من الله تعالى ذكره استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة، يقول تعالى ذكره: أن هؤلاء العادلين بي، الجاحدين نبوّتك، يا محمد، إن تابوا وأنابوا قبلت توبتهم، وإني قد قضيت في خَلْقي أنّ رحمتي وسعت كل شيء".

قال السعدي:" أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتابا أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من

المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم".

قال ابن عطية:" {كتب على نفسه الرحمة}، معناه: قضاها وأنفذها. وفي هذا المعنى أحاديث عن النبي ﷺ تتضمن كتب الرحمة، ومعلوم من غير ما موضع من الشريعة أن ذلك للمؤمنين في الآخرة ولجميع الناس في الدنيا، منها أن الله تعالى خلق مائة رحمة فوضع منها واحدة في الأرض فيها تتعاطف البهائم وترفع الفرس رجلها لئلا تطأ ولدها. وبها تتعاطف الطير والحيتان، وعنده تسع وتسعون رحمة، فإذا كان يوم القيامة صير تلك الرحمة مع التسعة والتسعين وبثها في عباده، فما أشقى من لم تسعه هذه الرحمات تغمدنا الله بفضل منه... ويتضمن هذا الإخبار عن الله تعالى بأنه كتب الرحمة تأنيس الكفار ونفي يأسهم من رحمة الله إذا تابوا، وأن باب توبتهم مفتوح".

قال الزجاج:" الله ﷻ تفضل على العباد بأن أمهلهم عند كفرهم وإقدامهم عليكبائر ما نهاهم عنه بأن أنظرهم وعمرهم وفسح لهم ليتوبوا، فذلك كتبه

=

=

الرحمةعلى نفسه".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي - ﷺ- "إن الله لما خَلَقَ الخَلْق كتب كتابًا عنده فوق العرش، إن رحمتي تَغْلِبُ غَضَبِي".

قال البغوي:" هذا استعطاف منه تعالى للمؤمنين عنه إلى الإقبال عليه وإخباره بأنه رحيم بالعباد لا يعجل بالعقوبة، ويقبل الإنابة والتوبة".

قال سلمان:" إنّ الله تعالى ذكره لما خلق السماء والأرض، خلق مئة رحمةٍ، كل رحمة ملء ما بين السماء إلى الأرض. فعنده تسع وتسعون رحمةً، وقسم رحمة بين الخلائق. فبها يتعاطفون، وبها تشرب الوَحْش والطير الماءَ. فإذا كان يوم ذلك، قصرها الله على المتقين، وزادهم تسعًا وتسعين".

قال طاوس:" إن الله تعالى ذكره لما خلق الخلق، لم يعطف شيء على شيء، حتى خلق مئة رحمة، فوضع بينهم رحمة واحدة، فعطف بعضُ الخلق على بعض".

قال معمر: وأخبرني الحكم بن أبان، عن عكرمة، حسبته أسنده قال: "إذا فرغ الله ﷻ من القضاء بين خلقه، أخرج كتابًا من تحت العرش فيه: «إن رحمتي سبقت غضبي، وأنا أرحم الراحمين»، قال: فيخرج من النار مثل أهل الجنة أو قال: «مِثلا أهل الجنة»، ولا أعلمه إلا قال: «مثلا»، وأما «مثل» فلا أشك مكتوبًا ها هنا، وأشار الحكم إلى نحره، «عتقاء الله»، فقال رجل لعكرمة: يا أبا عبد الله، فإن الله يقول: {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [سورة المائدة: ٣٧]؟ قال: ويلك! أولئك أهلها الذين هم أهلها".

قال عبد الله بن عمرو: "إن لله مئة رحمة، أهبط منها إلى الأرض رحمة واحدة، يتراحم بها الجنّ والإنس، والطير والبهائم وهوامُّ الأرض".

قوله تعالى: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ} [الأنعام: ١٢].

(اللام) موطئة للقسم ، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ويبعثهم يوم القيامة.

=

=

كما قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ).

وقال تعالى (قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ).

قال الواحدي:" أَيْ: ليضمنَّكم إلى هذا اليوم الذي أنكرتموه وليجمعنَّ بينكم وبينه".

قال الطبري: أي:" ليجمعنكم الله، أيها العادلون بالله، ليوم القيامة الذي لا ريب فيه، لينتقم منكم بكفركم به".

قال ابن كثير:" هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامةالذي لا ريب فيه ولا شك فيه عند عبادهالمؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون".

قال الزجاج:" فأما {ليجمعنكم إلى يوم القيامة}، فهو احتجاج على المشركينالذين دفعوا البعث، فقال ﷻ: {ليجمعنكم إلى يوم القيامة}، أي: إلى اليوم الذي أنكرتموه، كما تقول قد جمعت هؤلاء إلى هؤلاء، أي ضممت بينهم في الجمع".

قال البغوي:" {إلى يوم القيامة} أي: في يوم القيامة، وقيل: معناه ليجمعنكم في قبوركم إلى يوم القيامة".

قال الزمخشري:" ثم أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله: {ليجمعنكم إلى يوم القيامة}، فيجازيكم على إشراككم".

قال السعدي:" وقوله {ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه} وهذا قسم منه، وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج والبراهين، ما يجعله حق اليقين".

وقوله (لا رَيْبَ فِيهِ) هذا نفي يراد به تأكيد الإثبات السابق (ليجمعنكم).

قال أبو الدرداء:" الريب: يعني: الشك".

=

=

قال ابن أبي حاتم:" وروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبي مالك، ونافع مولى، بن عمر، وعطاء بن أبي رباح، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والسدي، وإسماعيل بن أبي خالد قالوا: الريب: الشك".

قوله تعالى: {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٢]، أي:" الذين أشركوا بالله أهلكوا أنفسهم، فهم لا يوحدون الله، ولا يصدقون بوعده ووعيده، ولا يقرون بنبوة محمد-ﷺ-".

قال الطبري:" يقول: الذين أهلكوا أنفسهم وغبنوها بادعائهم لله الندَّ والعَدِيل، فأوبقوها بإستيجابهم سَخَط الله وأليم عقابه في المعاد".

قال ابن كثير: {خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} " أي: يوم القيامة، {هُمْ لا يُؤْمِنُونَ}، أي: لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم".

قال البغوي:" {خسروا}: غبنوا".

قال الواحدي: {خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}، أَيْ:" أهلكوها بالشِّرك".

قال الزمخشري:" قوله: لآالذين خسروا أنفسهم}، نصب على الذم، أو رفع، أى: أريد الذين خسروا أنفسهم، أو أنتم الذين خسروا أنفسهم. فإن قلت: كيف جعل عدم إيمانهم مسببا عن خسرانهم، والأمر على العكس؟ قلت: معناه: الذين خسروا أنفسهم في علم الله: لاختيارهم الكفر. فهم لا يؤمنون".

قال السعدي: أي:" ولكن أبى الظالمون إلا جحودا، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، فأوضعوا في معاصيه، وتجرءوا على الكفر به، فخسروا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال: {الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون}".

وأصل: «الخسار»، الغُبْنُ. يقال منه: خسر الرجل في البيع، إذا غبن ، كما قال الأعشى:

لا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ فِي حُكْمِهِ ... وَلا يُبَالِي خَسَرَ الخَاسِر

=

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣).

{وَلَهُ} تَعَالَى {مَا سَكَنَ} حَلَّ {فِي اللَّيْل وَالنَّهَار} أَيْ كُلّ شَيْء فَهُوَ رَبّه وَخَالِقه وَمَالِكه {وَهُوَ السَّمِيع} لِمَا يُقَال {الْعَلِيم} بِمَا يفعل[1].

=

و(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) مبتدأ والخبر يكون محذوفًا والتقدير: الذين خسروا أنفسهم هم الخاسرون حقًا كما قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

والخسران في لغة العرب: هو نقصان مال التاجر ، سواء كان نقصًا في ربح المال ، أو نقصًا في رأس المال ، واصطلاحًا: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه تعالى.

وقد أقسم الله ﷻ في سورة كريمة من كتابه - وكل سورة منه كريمة - ألا وهي سورة العصر أن الخسران لا ينجو منه إنسان كائنًا من كان إلا بأعمال معينة مبينة في قوله (وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).

(فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) توكيد أو بيان للسبب الذي كان به الخسران.

(١) قوله تعالى: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [الأنعام: ١٣].

أي: لله تعالى الساكن.

فالمراد بما سكن أي: بما استقرأ وهدأ ، من السكون ضد الحركة.

كما قال تعالى (وجعل الليل سكنًا...) لأنه يسكن فيه كل متحرك بالنهار.

وقال تعالى (وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أي: يسكن ويهدأ فيه الخلق من تعب النهار.

وبه قال البغوي ، وأبو حيان ، وأبو السعود ، والآلوسي.

وخص الساكن بالذكر ، لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة.

وقيل: المعنى: وله ما سكن فيهما وما تحرك، واكتفي بأحد الضدين عن الآخر

=

=

كقوله تعالى (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) أي: والبرد.

قال ابن الجوزي: فإن قيل: لم خص السكون بالذكر دون الحركة؟ فعنه ثلاثة أجوبة.

أحدها: أن السكون أعم وجودًا من الحركة.

والثاني: أن كل متحرك قد يسكن ، وليس كل ساكن يتحرك.

والثالث: أن في الآية إضمارًا ، والمعنى: وله ما سكن وتحرك؛ كقوله (تقيكم الحر) أراد: والبرد؛ فاختصر.

وقال القرطبي: (سَكَنَ) معناه هدأ واستقر؛ والمراد ما سكن وما تحرك ، فحُذِف لعلم السامع.

وقيل: خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة.

وذهب بعض العلماء: إلى أن المعنى ما خلق ، فهو عام في جميع المخلوقات متحركها وساكنها ، فإنه يجري عليه الليل والنهار؛ وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق ، وهذا أحسن ما قيل؛ لأنه يجمع شتات الأقوال. (قاله القرطبي).

واختار هذا القول الطبري ، والواحدي ، وابن عطية ، ووافقهم البيضاوي ، وابن جزي ، وابن كثير.

واحتج أصحاب هذا القول بأن المقصد من الآية العموم ، فكل ما سكن فهو من مخلوقات الله تعالى ، وهي عامة لكل ما خلق الله ، وما من شيء من مخلوقات الله إلا وهو ساكن بالليل والنهار.

قال ابن عاشور: وتخصيص الليل بالذكر لأنّ الساكن في ذلك الوقت يزداد خفاء، فهو كقوله (ولا حَبَّةٍ في ظلمات الأرض) وعطف النهار عليه لقصد زيادة الشمول، لأنّ الليل لمّا كان مظنّةً الاختفاء فيه قد يظنّ أنّ العالِم يقصد الاطّلاع على

=

=

الساكنات فيه بأهميّة ولا يقصد إلى الاطّلاع على الساكنات في النهار، فذكر النهار لتحقيق تمام الإحاطة بالمعلومات.

قال الطبري:" يقول: وله ملك كل شيء، لأنه لا شيء من خلق الله إلا وهو ساكنٌ في الليل والنهار".

قال السمرقندي:" ما استقر في الليل والنهار من الدواب والطير في البر والبحر، فمنها ما يستقر في الليل وينتشر بالنهار. ومنها ما يستقر بالنهار وينتشر الليل".

قال ابن كثير:" أي: كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، ولا إله إلا هو".

قال البغوي:" أي: استقر، قيل: أراد ما سكن وما تحرك، كقوله: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرّ} [النحل: ٨١]، أي: الحر والبرد، وقيل: إنما خص السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر، وقيل معناه: ما يمر عليه الليل والنهار".

قال الزجاج:" هذا أيضا احتجاج على المشركين لأنهم لم ينكروا أن ما استقر فياليل والنهار لله، أي هو خالقه ومدبره، فالذي هو كذلك قادر على إحياءالموتى".

قال ابن عطية:" و {سكن}، هي من السكنى ونحوه، أي: ما ثبت وتقرر، قاله السدي وغيره وقالت فرقة: هو من السكون، وقال بعضهم: لأن الساكن من الأشياء أكثر من المتحرك إلى غير هذا من القول الذي هو تخليط، والمقصد في الآية عموم كل شيء وذلك لا يترتب إلا أن يكون سكن بمعنى استقر وثبت وإلا فالمتحرك من الأشياء المخلوقات أكثر من السواكن، ألا ترى إلى الفلك والشمس والقمر والنجوم السابحة والملائكة وأنواع الحيوان والليل والنهار حاصران للزمان".

قال السعدي:" ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى، وينقمع به الشرك. فذكر أن {له}

=

=

تعالى {ما سكن في الليل والنهار} وذلك هو المخلوقات كلها، من آدميها، وجنها، وملائكتها، وحيواناتها وجماداتها، فالكل خلق مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم، القاهر المالك، فهل يصح في عقل ونقل، أن يعبد من هؤلاء المماليك، الذي لا نفع عنده ولا ضر؟ ويترك الإخلاص للخالق، المدبر المالك، الضار النافع؟! أم العقول السليمة، والفطر المستقيمة، تدعو إلى إخلاص العبادة، والحب، والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟!".

قال الزمخشري:" {وله} عطف على «الله»، {ما سكن في الليل والنهار} من السكنى، وتعديه بـ {في} كما في قوله: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [إبراهيم: ٤٥]".

قوله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: ١٣]، أي:" وهو السميع لأقوال عباده، الحليم بحركاتهم وسرائرهم".

قال ابن كثير:" أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم".

قال البغوي: أي:" {السميع} لأصواتهم، {العليم} بأسرارهم".

قال الزمخشري:" يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان".

قال ابن عطية:" {وهو السميع العليم}، هاتان صفتان تليقان بنمط الآية من قبل أن ما ذكر قبل من الأقوال الردية عن الكفرة العادلين هو سميع لهم عليم بمواقعها مجاز عليها، ففي الضمير وعيد".

قال السعدي {السميع} لجميع الأصوات، على اختلاف اللغات، بتفنن الحاجات. {العليم} بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن؟!".

=

قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤).

{قُلْ} لَهُمْ {أَغَيْر الله أَتَّخِذ وَلِيًّا} أَعْبُدهُ {فَاطِر السَّمَاوَات وَالْأَرْض} مُبْدِعهمَا {وَهُوَ يُطْعِم} يَرْزُق {وَلَا يُطْعَم} يُرْزَق {قُلْ إِنِّي أُمِرْت أَنْ أَكُون أَوَّل مَنْ أَسْلَمَ} لِلَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّة {و} قِيلَ لِي {لَا تَكُونَن مِنْ المشركين} به[1].

=

فالسميع: اسم من أسماء الله تعالى، متضمن لصفة السمع لله تعالى، فهو سبحانه يسمع جميع الأقوال والأصوات، السر والجهر عنده سواء.

(الْعَلِيمُ) بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم.

قال السعدي: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات، والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

وختم الله هذه الآية بهذين الاسمين: السميع والعليم لأمرين:

أ لأن معرفة أن الله سميع يسمع قولك، عليم يعلم نيتك، فحينئذٍ يقودك ذلك إلى التقوى.

ب ولأن معرفة ذلك حق المعرفة يؤدي بالإنسان إلى الحذر أن يقول قولًا أو يفعل فعلًا خلاف الكتاب والسنة.

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا} [الأنعام: ١٤].

الاستفهام للتوبيخ، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين أغير الله أتخذ وليًا، استنصر به ويتولى أمري، كما قال تعالى (قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ). والمعنى: لا أتخذ وليًا إلا الله وحده لا شريك له.

قال البغوي: أي:" ربا ومعبودا وناصرا ومعينا".

=

=

قال السعدي: " {قل} لهؤلاء المشركين بالله: {أغير الله أتخذ وليا} من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولاني، وينصرني؟!.فلا أتخذ من دونه تعالى وليا".

قال الطبري: " يا محمد، لهؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثانَ والأصنامَ، والمنكرين عليك إخلاص التوحيد لربك، الداعين إلى عبادة الآلهة والأوثان: أشيئًا غيرَ الله تعالى ذكره أستنصره وأستعينه على النوائب والحوادث".

قال ابن كثير: " المعنى: لا أتخذ وليًا إلا الله وحده لا شريك له".

قال الزمخشري: يعني:" أولى غير الله، همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو: «أتخذ» لأن الإنكار في اتخاذ: غير الله وليا، لا في اتخاذ الولي، فكان أولى بالتقديم. ونحوه: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} [الزمر: ٦٤] {آللهُ أَذِنَ لَكُمْ} [يونس: ٥٩]".

قال السدي: " أما «الولي»، فالذي يتولَّونه ويقرّون له بالربوبية".

قال ابن عاشور: "وأعيد الأمر بالقول اهتمامًا بهذا المقول، لأنّه غرض آخر غير الذي أمر فيه بالقول قبله، فإنّه لمّا تقرّر بالقول ، السابق عبودية ما في السماوات والأرض لله ، وأنّ مصير كلّ ذلك إليه انتقل إلى تقرير وجوب إفراده بالعبادة ، لأنّ ذلك نتيجة لازمة لكونه مالكًا لجميع ما احتوته السماوات والأرض ، فكان هذا التقرير جاريًا على طريقة التعريض إذ أمر الرسول - عليه السلام - بالتبرّاء من أن يعبد غير الله".

قوله تعالى: {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنعام: ١٤]، أي:" وهو خالق السموات والأرض وما فيهن".

قال الواحدي: أي:" خالقهما ابتداءً".

قال السعدي: " أي: خالقهما ومدبرهما".

قال الطبري: أي:" مبتدعهما ومبتدئهما وخالقهما".

=

=

قال البغوي: أي:" خالقهما ومبدعهما ومبتديهما".

قال ابن كثير:" أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سَبَق".

قال قتادة والسدي:" خالق السماوات والأرض".

قال ابن عباس:" بديع السموات والأرض".

قال مجاهد:" سمعت ابن عباس يقول: كنت لا أدري ما {فاطر السماوات والأرض}، حتى أتاني أعرابيّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: «أنا فَطَرتها»، يقول: أنا ابتدأتها".

يقال: فطرها الله يَفطُرُها وَيفطِرها فَطرًا وفطورًا، ومنه قوله: {هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} [سورة الملك: ٣]، يعني: شقوقًا وصدوعًا. يقال: سيف فُطارٌ، إذا كثر فيه التشقق، وهو عيب فيه، ومنه قول عنترة:

وَسَيْفِي كَالْعَقِيقَةِ فَهْوَ كِمْعِي، سِلاحِي، لا أَفَلَّ وَلا فُطَارَا

ومنه يقال: فَطَر ناب الجمل، إذا تشقق اللحم فخرج، ومنه قوله: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ} [سورة الشورى: ٥]، أي: يتشققن، ويتصدعن.

وقرئ «فاطر السماوات» بالجر صفة «لله»، وبالرفع على المدح، وقرأ الزهري: «فطر».

قوله تعالى: {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ} [الأنعام: ١٤].

قال السدي:" يَرْزق، ولا يُرزق".

قال الطبري: أي:" وهو يرزق خلقه ولا يرزق".

قال ابن كثير:" أي: وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ* إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ] } [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]".

قال السعدي:" أي: وهو الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم،

=

=

فكيف يليق أن أتخذ وليا غير الخالق الرزاق، الغني الحميد؟".

قال الزمخشري:" المعنى: أن المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع".

أي: (وَهُوَ يُطْعِمُ) أي: الرازق لخلقه ، يطعمهم ويغذيهم ، من مأكولات ومشروبات ومطعومات.

(وَلا يُطْعَمُ) أي: غير محتاج إليهم ، ولذلك لكمال غناه ، فهو أحد صمد ، تصمد إليه الخلائق.

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ).

بل أمر سبحانه عباده أن يسألوه الإطعام فقال تعالى في الحديث القدسي (فاستطعموني أطعمكم).

وقال أبو حيان: (وهو يطعم ولا يطعم) أي يرزق ولا يرزق كقوله (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) والمعنى أن المنافع كلها من عند الله ، وخص الإطعام من بين أنواع الانتفاعات لمس الحاجة إليه كما خص الربا بالأكل وإن كان المقصود الانتفاع بالربا.

قال ابن عاشور: (وهو يطعم ولا يطعم) أي: يُعطي الناس ما يأكلونه ممّا أخرج لهم من الأرض: من حبوب وثمار وكلأ وصيد.

وهذا استدلال على المشركين بما هو مسلّم عندهم ، لأنّهم يعترفون بأنّ الرازق هو الله وهو خالق المخلوقات وإنّما جعلوا الآلهة الأخرى شركاء في استحقاق العبادة.

وقد كثر الاحتجاج على المشركين في القرآن بمثل هذا كقوله تعالى (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون).

وفي هذا أنه سبحانه لا يأكل ولا يشرب لأن هذا نقص ، والمخلوق يأكل ويشرب

=

=

لحاجته للأكل والشرب لنقصه.

ولهذا ذكر تعالى أن عيسى ليبس بإله بدليل أنه يأكل ويشرب فقال تعالى (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ...).

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال:" دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ، قال: فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال: الحمد لله الذي يُطعِم ولا يَطْعَم، ومَنَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسَقانا وكلّ بَلاء حَسَن أبلانا، الحمد لله غير مُودّع ولا مكافَأ ولا مكفور ولا مُسْتَغْنًى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضلال، وبَصَّرنا من العَمَى، وفَضَّلنا على كثير ممن خلق تفضيلا الحمد لله رب العالمين".

قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ} [الأنعام: ١٤]، أي:" قل -أيها الرسول-: إني أُمِرْتُ أن أكون أول مَن خضع وانقاد له بالعبودية من هذه الأمة".

عن ابن عباس:" {أول من أسلم}، أول المصدقين".

قال ابن كثير:" أي: من هذه الأمة".

قال السعدي:" أي: لله بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي؟".

قال البغوي:" يعني: من هذه الأمة، والإسلام بمعنى الاستسلام لأمر الله، وقيل: أسلم أخلص".

قال الزمخشري:" لأن النبي سابق أمته في الإسلام، كقوله: {وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِين} [الأنعام: ١٦٣]، وكقول موسى: {سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِين} [الأعراف: ١٤٣]".

=

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥).

{قُلْ إِنِّي أَخَاف إِنْ عَصَيْت رَبِّي} بِعِبَادَةِ غَيْره {عَذَاب يَوْم عَظِيم} هُوَ يَوْم الْقِيَامَة.

مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦).

{مَنْ يُصْرَف} بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ أَيْ الْعَذَاب وَلِلْفَاعِلِ أَيْ الله وَالْعَائِد مَحْذُوف {عَنْهُ يَوْمئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ} تَعَالَى أَيْ أَرَادَ لَهُ الْخَيْر {وَذَلِكَ الْفَوْز الْمُبِين} النَّجَاة

=

قوله تعالى: {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٤]، أي:" ونهيت أن أكون من المشركين معه غيره".

قال الزمخشري:" معناه: أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك".

قال السعدي:" أي: ونهيت أيضا، عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض علي، وأوجب الواجبات".

قال البغوي:" يعني: وقيل لي ولا تكونن، {من المشركين}".

قال ابن عاشور: (قل) أي: قل لهم ذلك ليَيْأسوا، والكلام نهي من الله لرسوله مقصود منه تأكيد الأمر بالإسلام، لأنّ الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضدّه ، فذكر النهي عن الضدّ بعد ذلك تأكيد له ، وهذا التأكيد لتقطع جرثومة الشرك من هذا الدين.

قال السعدي: أي: ونهيت أيضا ، عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض عليَّ ، وأوجب الواجبات.

والشرك: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

الظَّاهِرَة[1].

(١) قوله تعالى: {قُلْ} [الأنعام: ١٥]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين مع الله غيره".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين العادلين بالله، الذين يدعونك إلى عبادة أوثانهم".

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: "قل يا محمد لكفار أهل مكة".

قوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّيعَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام: ١٥]، أي:" إني أخاف إن عصيت ربي، فخالفت أمره، وأشركت معه غيره في عبادته، أن ينزل بي عذاب عظيم يوم القيامة".

قال الثعلبي والبغوي:" تعبدت غيره".

قال أبو السعود:" أي بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان كان فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا وفيه بيان لكما اجتنابه ﷺ عن المعاصي على الإطلاق".

قال الشوكاني:" أي: بترك إخلاص العبادة له، وتوحيده، والدعاء إلى ترك الشرك وتضليل أهله، قال أكثر المفسرين: المعنى إني أخاف إن عصيت ربي بإجابة المشركين إلى ما دعوني إليه من عبادة غير الله".

قال المراغي: أي:" إن فرض وقوع العصيان منى فإننى أخاف أن يصيبنى عذاب ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة الذي يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويجازيهم بما يستحقون".

قال السعدي:" فإن المعصية في الشرك توجب الخلود في النار، وسخط الجبار. وذلك اليوم هو اليوم الذي يخاف عذابه، ويحذر عقابه؛ لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، ومن نجا فيه فهو الفائز حقا، كما أن من لم ينجمنه فهو الهالك الشقي".

=

=

قال ابن كثير: {يَوْمٍ عَظِيمٍ} "يعني: يوم القيامة".

قال الطبري:" ووصفه تعالى بـ«العظم»، لعظم هَوْله، وفظاعة شأنه".

عن ابن عباس:" {عذاب}، يقول: نكال".

وذكر الماتريدي عن ابن عباس:" {إني أخاف} أي: أعلم {إن عصيت ربي} فعبدت غيره، {عذاب يوم عظيم}".

وعلّق عليه الماتريدي:" هذا التأويل صحيح إن كان ما ذكر من سؤالهم رسول الله ﷺ وعرضهم المال عليه ليعود ويرجع إلى دينهم، فيخرج هذا على الجواب لهم".

قال ابن عطية:" لفظة عصيت عامة في أنواع المعاصي، ولكنها هاهنا إنما تشير إلى الشرك الذي نهي عنه".

وقال أبو حيان:" الظاهر أن الخوف هنا على بابه وهو توقع المكروه.. والخوف ليس بحاصل لعصمته بل هو معلق بشرط هو ممتنع في حقه ﷺ وجوابه محذوف ولذلك جاء بصيغة الماضي. فقيل: هو شرط معترض لا موضع له من الإعراب كالاعتراض بالقسم.

وقيل: هو في موضع نصب على الحال، كأنه قيل: إني أخاف عاصيا ربي".

قال ابن الجوزي:" زعم بعض المفسرين أنه كان يجب عليه أن يخاف عاقبة الذنوب، ثم نسخ ذلك بقوله: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ٢]، والصحيح أن الآيتين خبر، والخبر لا يدخله النسخ، وإنما هو معلق بشرط، ومثله: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥]".

قوله تعالى: {مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ} [الأنعام: ١٦].

قال قتادة:" من يصرف عنه العذاب".

قال الزجاج:" أي: من يصرف عنه العذاب يومئذ".

=

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧).

{وَإِنْ يَمْسَسْك الله بِضُرٍّ} بَلَاء كَمَرَضٍ وَفَقْر {فَلَا كَاشِف} رَافِع {لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْك بِخَيْرٍ} كَصِحَّةٍ وَغِنًى {فَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير} وَمِنْهُ مَسَكَ بِهِ وَلَا

=

قال البغوي:" يعني: من يصرف العذاب عنهيوم القيامة".

قال السمرقندي:" يعني: غفر له وعصمه".

قال ابن كثير:" {مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ} يعني: العذاب {يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ} يعني: فقد رَحِمَهُ اللهُ".

وفي قراءة أبي: «من يصرفه الله».

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عامر وعاصم في رواية حفص: «من يصرف عنه» بضم الياء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: «من يصرف» بنصب الياء ومعناه: من يصرف الله عنه. ولأنه سبق ذكر قوله: «ربي»، فانصرف إليه.

قوله تعالى: {وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [الأنعام: ١٦]، أي:" وذلك الصرف هو الظفر البين بالنجاة من العذاب العظيم".

قال البغوي:"أي: النجاة البينة".

قال السمرقندي:" يعني: صرف العذاب: هو النجاة الوافرة".

قال البيضاوي:" {وذلك الفوز المبين}، أي: الصرف أو الرحمة".

قال ابن عطية:" {وذلك} إشارة إلى صرف العذاب وإلى الرحمة، والفوز والنجاة".

قال ابن كثير:" والفوز: هو حصول الربح ونفي الخسارة".

يَقْدِر عَلَى رَدّه عَنْك غَيْره[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ١٧].

قال مقاتل:" يعني: يصبك الله ببلاء وشدة، لا يقدر أحد من الآلهة ولا غيرهم كشف الضر إلا الله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، إن يصبك الله بشدة في دنياك، وشظَف في عيشك وضيق فيه، فلن يكشف ذلك عنك إلا الله الذي أمرك أن تكون أوّل من أسلم لأمره ونهيه، وأذعن له من أهل زمانك، دون ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام، ودون كل شيء سواها من خلقه".

قال البغوي: أي:" {وإن يمسسك الله بضر} بشدة وبلية، {فلا كاشف له} لا رافع".

قال الزمخشري: أي:" من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو".

قال القرطبي:" المس والكشف من صفات الأجسام، وهو هنا مجاز وتوسع، والمعنى: إن تنزل بك يا محمد شدة من فقر أو مرض فلا رافع وصارف له إلا هو".

قال السمعاني:" الضر: خلاف النفع ومعناه: إن يصبك الله بضر فلا كاشف له إلا هو".

قال الواحدي:" أي: إن جعل الضر يمسسك ويصيبك، فلا يكشف ذلك الضر الذي أصابك غير الله، ولا يصرفه عنك غيره، والضر: اسم جامع لكل ما يتضرر به الإنسان من فقر ومرض وزمانة، كما أن الخير: اسم جامع لكل ما ينتفع به الإنسان".

قال ابن عطية:" يمسسك معناه يصبك وينلك، وحقيقة المس هي بتلافي جسمين =

=

فكأن الإنسان والضر يتماسان، و «الضر» بضم الضاد سوء الحال في الجسم وغيره، «والضر» بفتح الضاد ضد النفع، وناب الضر في هذه الآية مناب الشر".

قال ابن عاشور: والضُرّ بضم الضاد هو الحال الذي يؤلم الإنسان ، وهو من الشرّ ، وهو المنافر للإنسان، ويقابله النفع ، وهو من الخير ، وهو الملائم".

قوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنعام: ١٧]، أي:" وإن يصبك بخير كالغنى والصحة فلا راد لفضله ولا مانع لقضائه، فهو -جل وعلا- القادر على كل شيء".

قال محمد بن إسحاق:" أي: لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك".

قال مقاتل:" يعني يصبك بفضل وعافية، {فهو على كل شيء قدير} من ضر وخير".

قال القرطبي: أي:" وإن يصبك بعافية ورخاء ونعمة، {فهو على كل شيء قدير} من الخير والضر".

قال الطبري:" يقول: وإن يصبك بخير، أي: برخاء في عيش، وسعة في الرزق، وكثرة في المال، فتقرّ أنه أصابك بذلك، والله الذي أصابك بذلك، فهو على كل شيء قدير، هو القادر على نفعك وضرِّك، وهو على كل شيء يريده قادر، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالآلهة الذليلة المَهينة التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها. يقول تعالى ذكره: فكيفتعبد من كان هكذا، أم كيف لا تخلص العبادة، وتقرُّ لمن كان بيده الضر والنفع، والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة، والعزة الظاهرة؟".

قال الواحدي: أي: وإن"يصبك بغنى وسعة في الرزق وصحة في الجسممن الغنى والفقر".

قال البغوي: أي:" عافية ونعمة، {فهو على كل شيء قدير} من الخير والضر".

=

=

قال الزمخشري: أي:" من غنى أو صحة فهو على كل شيء قدير فكان قادرا على ادامته أو إزالته".

وأخرج أبو الشيخ عن السدي:"في قوله {وإن يمسسك بخير} يقول: بعافية".

ونقل ابن عطية عن السدي:" «الضر» هاهنا المرض، و «الخير» العافية".

قال ابن عطية:" وهذا مثال ومعنى الآية الإخبار عن أن الأشياء كلها بيد الله إن ضر فلا كاشف لضره غيره وإن أصاب بخير فكذلك أيضا لا راد له ولا مانع منه، هذا تقرير الكلام، ولكن وضع بدل هذا المقدر لفظا أعم منه يستوعبه وغيره، وهو قوله: على كل شيء قدير ودل ظاهر الكلام على المقدر فيه، وقوله: {على كل شيء قدير} عموم، أي: على كل شيء جائز أن يوصف الله تعالى بالقدرة عليه".

وقال القرطبي: والمعنى: إن تنزِل بك يا محمد شدّة من فقر أو مرض فلا رافع وصارِف له إلاّ هو ، وإن يصِبك بعافية ورخاءٍ ونعمة (فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) من الخير والضر.

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا مُعَقِّب لحكمه ، ولا رَادَّ لقضائه (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) كما قال تعالى (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: اللهم لا مانع لِما أَعْطَيْت، ولا معطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ، ولهذا قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ).

قال البيضاوي:" {فهو على كل شيء قدير}، فكان قادرا على حفظه وإدامته فلا يقدر غيره على دفعه، كقوله تعالى: {فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [يونس: ١٠٧]".

قال السعدي:" فإذا كان وحده النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية".

=

=

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: "اللهم لا مانع لِما أَعْطَيْت، ولا معطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ".

وعن ابن عباس قال: "كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال: ياغلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك؟ إذاسألت فاسأل الله، وإذااستعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لواجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قدكتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف".

قال ابن عاشور: فالخطاب للنبي ﷺ، وهذا مؤذن بأنّ المشركين خوّفوا النبي ﷺ أو عرّضوا له بعزمهم على إصابته بشرّ وأذى فخاطبه الله بما يثبّت نفسه وما يؤيس أعداءه من أن يستزلّوه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي الآيات ردّ على المشركين الذين كانوا إذا ذُكّروا بأنّ الله خالق السماوات والأرض ومن فيهن أقرّوا بذلك، ويزعمون أنّ آلهتهم تشفع عند الله وأنّها تجلب الخير وتدفع الشرّ، فلمَّا أبطلت الآيات السابقة استحقاق الأصنام الإلهية لأنّها لم تخلق شيئًا، وأوجبت عبادة المستحقّ الإلهية بحقّ، أبطلت هذه الآية استحقاقهم العبادة لأنّهم لا يملكون للناس ضرًّا ولا نفعًا، كما قال تعالى (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا) وقال عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ (قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون)".

وفي هذه الآية: برهان على وحدانية الله تعالى، لانفراده تعالى بالضر والنفع.

وعلى الإنسان أن يعلق رجاءه بالله تعالى، لأنه هو سبحانه مالك الضر والنفع.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: واعلم أنَّ سؤالَ اللهِ تعالى دونَ خلقه هوَ المتعين؛ لأنَّ السؤال فيهِ إظهار الذلِّ من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعترافُ بقدرةِ المسؤول على دفع هذا الضَّرر، ونيل المطلوب، وجلبِ المنافع، ودرء

=

=
المضارِّ ، ولا يصلح الذلُّ والافتقار إلاَّ لله وحدَه؛ لأنَّه حقيقة العبادة ، وكان الإمامُ أحمد يدعو ويقول: اللهمَّ كما صُنتَ وجهي عَنِ السُّجود لغيرك فصُنْه عن المسألة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضرِّ وجلب النفع سواه ، كما قال (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ) ، وقال (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ).

والله سبحانه يحبّ أنْ يُسأل ويُرْغَبَ إليه في الحوائج ، ويُلَحَّ في سؤاله ودُعائه ، ويَغْضَبُ على من لا يسأله ، ويستدعي مِنْ عباده سؤاله ، وهو قادر على إعطاء خلقه كُلِّهم سُؤْلَهم من غير أنْ يَنْقُصَ من ملكه شيء ، والمخلوق بخلاف ذلك كله: يكره أنْ يُسأل ، ويُحبُّ أنْ لا يُسألَ ، لعجزه وفقره وحاجته. ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك: ويحك ، تأتي من يُغلِقُ عنك بابَه ، ويُظهِرُ لك فقرَه ، ويواري عنك غناه ، وتدع من يفتحُ لك بابه بنصف الليل ونصف النهار ، ويظهر لك غناه ، ويقول: ادعني أستجب لك؟

وقال طاووس لعطاء: إياك أنْ تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ويجعل دونها حجابه ، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة ، أمرك أنْ تسأله ، ووعدك أنْ يُجيبك.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: فإنَّ العبد إذا علم أنَّه لن يُصيبَه إلا ما كتبَ الله له مِنْ خير وشرٍّ ، ونفعٍ وضرٍّ ، وأنَّ اجتهادَ الخلق كلِّهم على خلاف المقدور غيرُ مفيد البتة ، علم حينئذٍ أنَّ الله وحده هو الضَّارُّ النَّافعُ ، المعطي المانع ، فأوجبَ ذلك للعبدِ توحيدَ ربِّه - عَزَّ وَجَلَّ - ، وإفرادَه بالطاعة ، وحفظَ حدوده ، فإنَّ المعبود إنَّما يقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذمَّ الله من يعبدُ من لا ينفعُ ولا يضرُّ ، ولا يُغني عن عابدِهِ شيئًا ، فمن علم أنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ ، ولا يُعطي ولا يمنعُ غيرُ الله ، أوجبَ له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرُّع والدعاء ، وتقديم
=

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨).

{وَهُـوَ الْقَـاهِر} الْقَـادِر الَّـذِي لَا يُعْجِـزهُ شَـيْء مُـسْتَعْلِيًا {فَـوْق عِبَـاده وَهُـوَ الْحَكِيم} فِي خَلْقه {الخبير} ببواطنهم كظواهرهم[1].

=

طاعته على طاعةِ الخلق جميعًا ، وأنْ يتّقي سخطه ، ولو كان فيه سخطُ الخلق جميعًا ، وإفراده بالاستعانة به ، والسؤال له ، وإخلاص الدعاء له في حال الشدَّة وحال الرَّخاء ، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عندَ الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعَه مِنْ دُونِه، قال الله - ﷻ - (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُـرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ).

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ١٨].

(الْقَاهِرُ) اسم من أسماء الله تعالى.

قال أبو السعود:" تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة".

قال النسفي:" أي: عال عليهم بالقدرة والقهر بلوغ المراد بمنع غيره عن بلوغه".

قال القاسمي:" أي: هو الغالب بقدرته، المستعلي فوق عباده، يدبر أمرهم بما يريد، فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن، فلا يستطيع أحد منهم رد تدبيره، والخروج من تحت قهره وتقديره".

قال الطبري: أي:" والله الغالب عبادَه، المذلِّلهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه".

قال ابن كثير:": هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره".

=

=

قال الثعلبي:"أي: القادر الغالب فوق عباده وفي القهر معنى زائد على القدرة وهو منع غيره عن بلوغ المراد".

قال السعدي:" فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو القاهر وغيره مقهورا، كان هو المستحق للعبادة".

قال السمعاني:" القاهر: الغالب الذي لا يغلب، وقيل: هو المنفرد بالتدبير، يجبر الخلق على مراده، وقوله: {فوق عباده} هو صفة الاستعلاء الذي لله – تعالى – الذي يعرفه أهل السنة".

قال البغوي:" {فوق عباده} هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به الله ﷻ".

قال القرطبي:" القهر الغلبة، والقاهر الغالب، وأقهر الرجل إذا صير بحال المقهور الذليل، قال الشاعر:

تمنى حصين أن يسود جذاعه فأمسى حصين قد أذل وأقهرا

وقهر غلب.

قال الخطابي: "هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة ، وقهر الخلق كلهم بالموت".

والعرب تستعمل فوق إشارة لعلو المنزلة وشفوفها على غيره من الرتب ومنه قوله: {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠]، وقوله: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف: ٧٦]، وقال النابغة الجعدي:

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدًا وَجُدُودُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

يريد: علو الرتبة والمنزلة.

وقوله: (فَوْقَ عِبَادِهِ) متضمن لإثبات صفة العلو بأنواعها الثلاثة:

علو قهر: لهذه الآية (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ).

=

=

وعلو صفة: فكل صفات الله عالية ، له من الصفات أكملها وأعلاها. فهو حي متضمن لصفة الحياة الكاملة ، لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال.

وعلو مكان: وأهل السنة يثبتون علو الله ، فهو سبحانه عالٍ على خلقه بائن منهم.

قوله تعالى (فَوْقَ عِبَادِهِ) المراد بها العبودية العامة ، فإن العبودية تنقسم إلى أقسام: عبودية عامة: وهي عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله ، برِهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فهذه عبودية القهر والملك.

قال تعالى (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا).

وقال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ، وقال تعالى (ومَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ).

والنوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة (الخاصة).

قال تعالى (يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ).

وقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا).

وإثبات علو الله على خلقه وفوقيته عليهم هو مقتضى الفطر السليمة التي لم تتلوث بلوثة الابتداع ولم تَشُبْها شائبة علم الكلام وذلك أن الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله لا يلتفتون يمنة ولا يسرة. وبهذه الحجة قهر الشيخ أبو جعفر الهمداني الأستاذ أبا المعالي الجويني المتكلم المعروف بإمام الحرمين حتى ضرب على رأسه وقال: حيرني الهمداني! حيرني!! كما حكى القصة ابن أبي العز في شرحه لعقيدة الإمام أبي جعفر الطحاوي.

وبذلك أيضا احتج الأشعري في الإبانة. قال:"ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء، لأن الله ﷻ مستو على العرش الذي هو فوق

=

=

السموات، فلو لا أن الله ﷻ على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض".

وقال ابن عبد البر المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن الحجة أيضا في أنه ﷻ على العرش فوق السموات السبع: أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر أو نزلت بهم شدة رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون ربهم تبارك وتعالى. وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته لأنه اضطرار لم يؤنبهم عليه أحد ولا أنكره عليهم مسلم". ثم استشهد بحديث الجارية السابق الذي رواه مالك في الموطأ ومسلم في صحيحه.

قوله تعالى: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٨]، أي:" وهو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها وَفْق حكمته، الخبير الذي لا يخفى عليه شيء".

قال أبو العالية:" الحكيم في أمره".

قال محمد بن إسحاق:" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

قال الثعلبي:"أي: {الحكيم} في أمره، {الخبير} بما جاء من عباده".

قال الطبري:" يقول: والله الحكيم في علِّوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره، {الخبير}، بمصالح الأشياء ومضارِّها، الذي لا يخفي عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمه دَخَل".

قال القرطبي:" {وهو الحكيم} في أمره، {الخبير} بأعمال عباده، أي من اتصف بهذه الصفات يجب ألا يشرك به".

قال ابن القيم: "وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة: أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئًا عبثًا ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل ، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة ، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل".

=

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩).

=

قال السعدي: " {الحكيم} فيما أمر به ونهى، وأثاب، وعاقب، وفيما خلق وقدر. {الخبير} المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد".

قال ابن كثير: " {الْحَكِيمُ} أي: في جميع ما يفعله، {الْخَبِيرُ} بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق".

قال بعض العلماء: الحكمة تكون في صورة الشيء: أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة ، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة.

وتكون في غايته: أي: أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة ، وكذلك الحيوانات ، وكذلك جميع المخلوقات ، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا).

(الْخَبِيرُ) الخبير اسم من أسماء الله ، ومعناه العليم ببواطن الأمور ، (المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها) ، المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور.

قال ابن عاشور: الخبير العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة ، والظاهرة والخفية.

قال القرطبي: (وَهُوَ الحكيم) في أمره (الخبير) بأعمال عباده ، أي من اتصف بهذه الصفات يجب ألاَّ يُشرَكَ به.

قال الشيخ ابن عثيمين: وقرن تعالى هنا بين الحكيم والخبير ، ليعلم الناس أن حكمة الله ﷻ عن خبرة وعلم ببواطن الأمور ، وعلى هذا فقد تكون خفية عن كثير من الناس ، لأنه لا يدرك الحكمة إلا من كان خبيرًا.

ونزل لَمَّا قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ ائْتِنَا بِمَنْ يَشْهَد لَك بِالنُّبُوَّةِ فَإِنَّ أَهْل الْكِتَاب أَنْكَرُوك {قُلْ} لَهُمْ {أَيّ شَيْء أَكْبَر شَهَادَة} تَمْيِيز مُحَوَّل عَنْ الْمُبْتَدَأ {قُلْ الله} إنْ لَمْ يَقُولُوهُ لَا جَوَاب غَيْره هُوَ {شَهِيد بَيْنِي وَبَيْنكُمْ} عَلَى صِدْقِي {وَأُوحِيَ إلَيَّ هَذَا الْقُرْآن لِأُنْذِرَكُمْ} أُخَوِّفكُمْ يَا أَهْل مَكَّة {بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} عُطِفَ عَلَى ضَمِير أُنْذِرَكُمْ أي بلغه القرآن من الإنس والجن {أئنكم لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ الله آلِهَة أُخْرَى} اسْتِفْهَام إنْكَارِيّ {قُلْ} لَهُمْ {لَا أَشْهَد} بِذَلِكَ {قُلْ إنَّمَا هُوَ إلَه وَاحِد وَإِنَّنِي بَرِيء مِمَّا تُشْرِكُونَ} مَعَهُ مِنْ الْأَصْنَام[1].

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: جاء النحام بن زيد وقردم بن كعب وبحري بن عمير، فقالوا: يا محمد! ما تعلم مع الله إلهًا غيره، فقال رسول الله ﷺ: "لا إله إلا الله، بذلك بُعثت وإلى ذلك أدعو"؛ فأنزل الله عز وجل فيهم وفي قولهم: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)}.

أخرجه ابن إسحاق في "المغازي" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٠٤) -: ثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ لجهالة محمد هذا؛ فلم يرو عنه إلا ابن إسحاق، وقال الذهبي في "الميزان": لا يعرف، وقال ابن حجر: مجهول.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٥٦) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. وهو عند ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٧٢/ ٧١٦٨) =

=

معضلًا.

* قوله تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً} [الأنعام: ١٩].

أي: قل لهم يا محمد ، أي شيء أعظم شهادة حتى يشهد لي بأني صادق.

قال البغوي: أي:" أعظم، {شهادة}".

قال ابن كثير:" أي: من أعظم الأشياء شهادة".

قال السمعاني:" قوله {قل الله} جواب أى الله أكبر شهادة فالله مبتدأ والخبر محذوف فيكون دليلا على أنه يجوز إطلاق اسم الشئ على الله تعالى وهذا لأن الشئ اسم للموجود ولا يطلق على المعدوم والله تعالى موجود فيكون شيئا ولذا تقول الله تعالى شيء لا كالأشياء".

قوله تعالى: {قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الأنعام: ١٩]، أي:" قل: الله شهيد بيني وبينكم أي: هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلونه لي".

قال البغوي: أي:" فإن أجابوك، وإلا {قل الله} هو {شهيد بيني وبينكم} على ما أقول، ويشهد لي بالحق وعليكم بالباطل".

قال ابن الجوزي: ومعنى الآية: قل لقريش: أيُّ شيء أعظم شهادة؟ فإن أجابوك ، وإلا فقل: الله ، وهو شهيد بيني وبينكم على ما أقول.

وقال الزجاج: أمره الله أن يحتج عليهم بأن شهادة الله في نُبُوَّته أكبر شهادة، وأن القرآن الذي أتى به، يشهد له أنه رسول الله، وهو قوله (وأوحيَ إليَّ هذا القرآن لأُنذركم به) ففي الإنذار به دليل على نبوته ، لأنه لم يأت أحد بمثله ، ولا يأتي ، وفيه خبر ما كان وما يكون ، ووعد فيه بأشياء ، فكانت كما قال. (زاد المسير).

قال ابن كثير:" أي: هو العالم بما جئتكم به، وما أنتم قائلون لي".

وقد شهد الله لنبيه ﷺ بالصدق بالشهادة القولية والفعلية.

القولية:

=

=

قال تعالى (لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا).

وقال تعالى (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ).

والفعلية: تمكينه ونصره وتأييده.

قال ابن القيم: فإن قيل: وما شهادته [سبحانه] لرسوله؟ قيل: هي ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه بعد العلم بها ضرورة، فدلالتها على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق، فشهادته سبحانه لرسوله أصدق شهادة وأعظمها وأدلها على ثبوت المشهود به، فهذا وجه.

ووجه آخر: أنه صدقه بقوله وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه، فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولًا لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر وصحت الشهادة له به قطعًا، فهذا معنى الآية.

قوله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩].

أي: أوحى الله إليّ هذا القرآن الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به.

الوحي لغة: الإعلام بسرعة وخفاء، واصطلاحًا: ما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ سواء كان بواسطة أو بغير واسطة.

قوله {ومن بلغ} أي: وأنذر به من بلغ إليه، أي: كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة.

قال البغوي: أي:" لأخوفكم به يا أهل مكة، قوله {ومن بلغ} يعني: ومن بلغه القرآن من العجم وغيرهم من الأمم إلى يوم القيامة".

قال القرطبي: "أي: ومن بلغه القرآن، وهذا ما عليه عامة أهل العلم".

قال ابن كثير:" أي: وهو نذير لكل من بلغه، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [هود: ١٧]".

=

=

قال السمعاني:" أي: ومن بلغه القرآن إلى قيام الساعة".

قال مقاتل:" يعني: لكي أنذركم بالقرآن يأهل مكة، {ومن بلغ} القرآن من الجن والإنس فهو نذير لهم، يعني: القرآن إلى يوم القيامة".

وقيل المعنى (ومن بلغ) أي: بلغ الحلم ، أشار اليه الرازي، لكنه قول ضعيف جدا ولذلك قال ابن جزي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهو بعيد.

قال الزجاج:" ففي الإنذار دليل على نبوته، لأنه لم يأت أحد بمثله، ولا يأتي بمثله لأن فيه أخبار الأمم السالفة، جاء بها عليه السلام، وهو أمي لا يقرأ الكتب، وأنبأ بما سيكون، وكان ما أنبأ به حقا، ثم قال: {وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس} [المائدة: ٦٧]، وكان ﷺ معصوما منهم، وقال: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٣، الصف:٩]، فأظهر الله دين الإسلام على سائر الأديان بالحجة القاطعة، وغلبة المسلمين على أكثر أقطار الأرض، وقال في إليهود. وكانوا في وقت مبعثه أعز قوم وأمتنه: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَة} [البقرة: ٦١]، فهم أذلاء إلى يوم القيامة، فأنبأ الله في القرآن بما كان وما يكون، وأتى به مؤلفا تأليفا لم يقدر أحد من العرب أن يأتي بسورة مثله، وهو في الوقت الذي قيل لهمليأتوا بسورة من مثله، خطباء شعراء لم يكن عندهم أوجز من الكلام المنثور، والموزون، فعجزوا عن ذلك".

قال محمد بن كعب:"من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ - زاد أبو خالد: وكَلّمه".

وفي هذه الآية أن الرسول ﷺ منذر لكل من بلغه القرآن كائنًا من كان ، ففي هذا عموم إنذاره ورسالته.

كما قال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا).

=

=

وقال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا).

قال الشنقيطي: قوله تعالى (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ) صرح في هذه الآية الكريمة بأنه ﷺ منذر لكل من بلغه هذا القرآن العظيم كائنًا من كان، ويفهم من الآية أن الإنذار به عام لكل من بلغه، وأن كل من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار، وهو كذلك.

أما عموم إنذاره لكل من بلغه، فقد دلت عليه آيات أخر أيضًا كقوله (قُلْ يا أيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا).

وقوله (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ) وقوله (تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا).

وأما دخول من لم يؤمن به النار، فقد صرح به تعالى في قوله (وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ).

وأما من لم تبلغه دعوة الرسول ﷺ فله حكم أهل الفترة الذين لم يأتهم رسول، والله تعالى أعلم.

وقال الربيع بن أنس: "حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر كالذي أنذر".

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ معقده من النار".

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: "«نضر الله امرأ سمع منا حديثا، فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من ليس بفقية، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»".

قوله تعالى: {أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى} [الأنعام: ١٩].

استفهام توبيخ، أي: إنكم أيها المشركون لتقرون بوجود آلهة أخرى مع الله؟

=

=

فكيف تشهدون أن مع الله آلهة أخرى بعد وضوح الأدلة وقيام الحجة على وحدانية الله؟

كما قال تعالى عنهم (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ... مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ).

(قُلْ لا أَشْهَدُ) كرر الأمر بالقول لأهمية الموضوع ، لأن هذه الشهادة باطلة.

قال مقاتل:" ثم قال: {أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى}؟ قالوا: نعم نشهد".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين، الجاحدين نبوَّتك، العادلين بالله، ربًّا غيره: {أئنكم}، أيها المشركون تشهدون أنّ معه معبودات غيره من الأوثانَ والأصنام".

قال ابن كثير:" {أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ}، أي: أيها المشركون {أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ} كما قال تعالى: {فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ} [الأنعام: ١٥٠]".

قال ابن ابي زمنين:" وهذا على الاستفهام؛ أي: قد شهدتم أن مع الله آلهة أخرى؟".

قوله تعالى: {قُلْ لَا أَشْهَدُ} [الأنعام: ١٩]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: إني لا أشهد على ما أقررتم به".

قال مقاتل:" قال الله للنبي- ﷺ-:قل لهم لا أشهد بما شهدتم".

قال الطبري:" ثم قال لنبيه محمد ﷺ: {قل}، يا محمد {لا أشهد}، بما تشهدون: أن مع الله آلهة أخرى، بل أجحد ذلك وأنكره".

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [الأنعام: ١٩]، أي:" إنما الله إله واحد لا شريك له".

قال مقاتل:" ولكن أشهد قل إنما هو إله واحد".

=

=

قال الطبري:" يقول: إنما هو معبود واحد، لا شريك له فيما يستوجب على خلقه من العبادة".

قوله تعالى: {وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٩]، أي:" وإنني بريء من كل شريك تعبدونه معه".

قال الطبري:" يقول: قل: وإنني بريء من كلّ شريك تدعونه لله، وتضيفونه إلى شركته، وتعبدونه معه، لا أعبد سوى الله شيئًا، ولا أدعو غيره إلهًا".

فأمرَ أولًا بنفي شهادتهم ، ثم أمر ثانيًا: بإثبات شهادته أن الله إله واحد.

كما قال تعالى (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ).

وقال تعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ).

وقال تعالى (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ).

وقال تعالى (قلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ).

وقال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ).

مسألة: كيفية قيام الحجة.

(فرع): التكفير والتعذيب لا يكون إلا بعد قيام الحجة.

استدل أهل السنة بأدلة كثيرة على أن التكفير، والتعذيب لا يكون إلا بعد قيام الحجة ومنها قوله تعالى: (وَمَا كُنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء:١٥] وقوله ﷻ: (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلناسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [النساء:١٦٥] وقوله تعالى: (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ) [الملك:٨ - ٩] وقال تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ

=

=
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ) [الأنعام:١٣٠] وقوله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) [القصص:٥٩]. وقوله تعالى: (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) [فاطر:٣٧].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوي (١٢/ ٤٩٣، ٤٩٤): الكتاب والسنة قد دلا على أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسًا، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية.. ثم ذكر عددًا من الأدلة... إلى أن قال: فمن قد آمن بالله ورسوله، ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول، فلم يؤمن به تفصيلًا، أما أنه لم يسمعه، أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به، فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله ورسوله ما يوجب أن يثيبه الله عليه، وما لم يؤمن به لم تقم عليه به الحجة التي يكفر مخالفها. ا.هـ

وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٣٨٤) بعدما ذكر هذه الآيات: وهذا كثير في القرآن يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة ا.هـ

وقال الإمام الذهبي في الكبائر (ص١٢): فلا يأثم أحد إلا بعد العلم وبعد قيام الحجة عليه، والله لطيف رؤوف بهم، قال تعالى: (وَمَا كُنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء:١٥] وقد كان سادة الصحابة بالحبشة ينزل الواجب والتحريم على النبي ﷺ فلا يبلغهم إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل حتى يبلغهم النص، وكذا يعذر بالجهل من لم يعلم حتى يسمع النص والله أعلم. ا.هـ

لكن قد يقول قائل: إن هذه الأدلة المستدل بها تنفي العذاب في الدنيا فقط؟ فيقال
=

=

أولًا: أنه خلاف ظاهر القرآن، لأن ظاهر القرآن انتفاء التعذيب مطلقًا، فهو أعم من كونه في الدنيا، وصرف القرآن عن ظاهره ممنوع إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

الوجه الثاني: أن القرآن دل في آيات كثيرة على شمول التعذيب المنفي في الآية للتعذيب في الآخرة، كقوله: (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قالوا بلى) [الملك:٨ - ٩] وهو دليل على أن جميع أفواج أهل النار ما عذبوا في الآخرة إلا بعد إنذار الرسل.

ويمكن أن يقال ثالثًا: إن هذه النصوص إذا نفت التعذيب الدنيوي فالأخروي من باب أولى والله أعلم.

إذًا لا تقوم الحجة إلا بإرسال الرسل وإنزال الكتب وبلوغ ذلك إلى المعين.

لقد أرسل الله الرسل عليهم السلام مبشرين ومنذرين، وأقام سبحانه للناس أسباب الهداية، ومن تمام حكمته وعدله أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار).

وتوضيحًا لما سبق ذكره نختار نبذة من مقولات العلماء على النحو الآتي:

قال ابن حزم في الفصل (٤/ ١٠٥): قال الله تعالى (لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ) [الأنعام: ١٩]، وقال ﷻ (وَمَا كُنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء: ١٥].

فنص تعالى على أن النذارة لا تلزم إلا من بلغته، لا من لم تبلغه، وأنه تعالى لا يعذب أحدًا حتى يأتيه رسول من عند الله ﷻ، فصح بذلك أنه من لم يبلغه الإسلام أصلًا فإنه لا عذاب عليه، وهكذا جاء النص عن رسول الله ﷺ، (أنه يؤتى يوم القيامة بالشيخ الخرف، والأصم، ومن كان في الفترة، والمجنون، فيقول

=

=

المجنون يارب أتاني الإسلام، وأنا لا أعقل، ويقول الخرف والأصم، والذي في الفترة أشياء ذكرها، فيوقد لهم نار، ويقال لهم: أدخلوها، فمن دخلها وجدها بردًا وسلامًا)، وكذلك من لم يبلغه الباب من واجبات الدين، فإنه معذور لا ملامة عليه ا.هـ

ويقول الشاطبي: جرت سنته سبحانه في خلقه، أنه لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد إرسال الرسل، فإذا قامت الحجة عليهم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولكل جزاء مثله.

كما أنه تعالى أنزل القرآن برهانًا في نفسه على صحة ما فيه، وإقامة للحجة وزاد على يدي رسوله عليه الصلاة والسلام من المعجزات ما في بعضه كفاية ا.هـ من الموافقات (٣/ ٣٧٧) بتصرف يسير.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٣٠٩ -٣١٤): وهذا أصل لابد من إثباته، وهو أنه قد دلت النصوص على أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولًا تقوم به الحجة عليه... ثم ساق النصوص القرآنية الدالة على ذلك... ثم قال: وإذا كان كذلك، فمعلوم أن الحجة إنما تقوم بالقرآن على من بلغه، كقوله تعالى: (لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ) [الأنعام: ١٩]. فمن بلغه بعض القرآن دون بعض، قامت الحجة عليه بما بلغه دون ما لم يبلغه... ثم قال: والذي عليه السلف والأئمة أن الله تعالى لا يعذب إلا من بلغته الرسالة، ولا يعذب إلا من خالف الرسل كما دل عليه الكتاب والسنة، ومن لم تقم عليه الحجة في الدنيا بالرسالة كالأطفال، والمجانين وأهل الفترات، فهؤلاء فيهم أقوال، أظهرها ما جاءت به الآثار أنهم يمتحنون يوم القيامة، فيبعث إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب، وإن عصوه استحقوا العذاب. ا.هـ

ويقرر الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص ٤١٤)أن العذاب يستحق بسببين،

=

=

أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها، والثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها، فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد، وأما الجهل مع عدم قيام الحجة، وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

ومن الفوائد التي أوردها ابن العراقي في طرح التثريب (٧/ ١٦٠) في شرحه لحديث (لا يسمع بي أحد من هذه الأمة..) قوله: ومفهومه إن لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور على ما تقرر في الأصول أن لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح ا.هـ

وأورد الشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ٤٨١) مسألة: هل يعذر المشركون بالفترة أم لا؟ ثم قال: والتحقيق أنهم معذورون بالفترة في الدنيا، وأن الله يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها، فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا، ومن امتنع دخل النار وعذب فيها، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل. ا.هـ

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٧٣٥): ما هو الضابط بالنسبة للعذر بالجهل بالتوحيد وهل قراءة وتلاوة القرآن تكفي لإزالة هذا العذر؟.

فأجاب: أولًا الضابط سواءً كان يحسن قراءة القرآن أولًا، ويفهمه ثانيًا، أو كان يقرأه ولا يفهمه، أولا يحسن لا فهمه ولا قراءته، فالضابط في ذلك هو أن يعيش المسلم في جو إسلامي صحيح، وتكون العقائد منتشرة في ذلك الجو حتى صارت من قسم ما يسميه علماء الأصول بالمعلوم من الدين بالضرورة.

ولعل جميع الحاضرين يذكرون حديث الجارية التي كانت ترعى غنمًا لرجل في

=

=

أحد وأن الذئب سطى على الغنم... فلما بلغه الخبر قال الرجل معتذرًا لنفسه عما فعل بقوله: قال الرجل أغضب كما يغضب البشر فصككتها صكة، يقول الرسول عليه السلام وعليه عتق رقبه فأمره عليه السلام بأن يأتي بها فقال: لها أين الله؟ فقالت: في السماء فقال: من أنا؟ قالت أنت رسول الله، قال أعتقها فإنها مؤمنة، الشاهد من الحديث أن كون الله عز وجل في السماء في عقيدة قرآنية منصوص عليها في القرآن في غير ما آية صريحة وعقيدة سنية نبوية عليها أحاديث كثيرة جدًا، ولكن الآن كثير من المجتمعات الإسلامية، لا تعتقد العقيدة الإسلامية فالرجل الذي يعيش في هذا الجو يكون معذورًا؛ لأن الحجة لم تبلغه بخلاف من كان في مجتمع آخر عقيدة التوحيد هي فاشية ومنتشرة في ذلك المجتمع الذي أشبه ما يكون بالمجتمع الأول النبوي والذي فيه الجارية وهي راعية الغنم عرفت هذه العقيدة، هل هي درست القرآن، هل هي درست حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ذلك مما يستبعد عادةً من راعية غنم، لكن هي تعيش مع أهل بيت: سيدها وسيدتها فهي تسمع منهم وتتفقه على أيديهم، فتعلم ما لم تكن من قبل تعلم.

وإذا ضممنا إلى هذا الحديث وإلى هذا المعنى قول الله تبارك وتعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥) وفهمنا الآية الكريمة فهمًا صحيحا، وليس فهمًا جامدًا على لفظها دون مرامها ومعناها، وأعني بذلك أن الآية لا تعني فقط بقوله تعالى {حتى نبعث رسولا} أي أن كل جماعة وكل طائفة وفي كل عصر يأتيها رسول، قد يأتيها رسول، وقد يأتيها دعوة الرسول، المهم إذًا أن الآية ليست تعني فقط شخص الرسول وإنما تعني دعوة الرسول؛ ومن الأدلة على ذلك أن الرسول قد يأتي قومًا فيكون فيه المجنون، ويكون فيه المصروع، ويكون فيه غير البالغ، والأصم وإلخ، وهؤلاء جاءهم الرسول، ولكن ما جاءتهم دعوة الرسول، وعلى العكس من ذلك، أمثالنا نحن أتباع محمد عليه السلام، نحن ما جاءنا محمد،

=

=

مباشرة لكن جاءتنا دعوة محمد إذًا من وصلته دعوة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - على نقاوتها وعلى حقيقتها فقد بلغته الحجة، ولا يعذر بالجهل على ما وضحت آنفًا.

من هنا أنا قلت أكثر من مرة أن كثيرًا من الأوروبيين والأمريكيين الذين يفتنون بدعاةٍ منحرفين عن الكتاب والسنة ولنضرب على ذلك مثلًا بطائفة القاديانية؛ لأن هؤلاء من الطوائف التي لها نشاط شديد جدًا في الدعوة إلى ما يعتقدون من دينهم، ولذلك فقط استطاعوا أن يؤثروا على الألوف المؤلفة من الإنجليز والألمان والأمريكان وإلخ، ترى وهنا الشاهد هؤلاء الذين اتبعوا الدعوة القاديانية هل بلغتهم حجة الإسلام؟ الجواب: لا بلغتهم حجة القاديانية وليست حجة الإسلام، فلله الحجة البالغة وهي مناط التكليف إيجابًا وسلبًا، فالضابط إذًا بلوغ الدعوة الصحيحة إلى الأفراد فمن بلغته فقد أقيمت عليه الحجة ومن لا فلا، لكن الذي يضبط الموضوع هو ملاحظة المجتمع الذي يعيش فيه هؤلاء الأفراد؛ فإن كان المجتمع مجتمع أهل السنة والجماعة كما كانوا يقولون قديمًا ولا نرى استعمال هذه الكلمة حديثًا؛ لأنها في عرف المقلدين إنما تعني الأشاعرة والماتريدية وإنما نعني من بلغتهم دعوة السلفية وما كان عليه السلف الصالح فهذا قد أقيمت عليه الحجة ولكن في اعتقادي أن هؤلاء قلة في العالم الإسلامي كله، في اعتقادي أظن يكفي هذا جوابًا على سؤالك. ا.هـ

وسئل أيضا العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٧٦٣): من ناحية الأموات الذي قلت لك أنهم ماتوا على عقيدة دعاء الأموات والأولياء... فالدعاء لهم إذا كان يعتقدون الضر والنفع بالأولياء بغير الله، وماتوا على هذا، إنما هم لا يعرفون حقيقة التوحيد، فالذي عرفوه هو هذا من العلماء.

فأجاب: أنا أجبتك عن هذا في ظني، قلت: أن هؤلاء ما دام أنهم كانوا يحافظون

=

=

على أركان الإسلام، لكن فيهم جهل، والمسؤول عنهم هم هؤلاء الجهلة من أهل العلم، الذين هم يضللونهم، فهؤلاء الذين ماتوا، فالأصل فيهم أنهم مسلمون، فيعاملون معاملة المسلمين، فهم يدفنون في مقابر المسلمين، وبالتالي إذا مر المار بقبورهم يقول: السلام عليكم أهل الديار من المسلمين، ويترحم عليهم ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة، ثم أَمْرُهم إلى الله تبارك وتعالى؛ لأن الله ﷻ يقول: {إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} (النساء:٤٨)، ثم لا يؤاخذ المشرك إلا بعد أن تكون قد بلغته الدعوة، {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥)، فربنا ﷻ من فضله ورحمته بعباده أنه يقبل عذر العبد، فإذا كان أحد هؤلاء المسلمين الخرافيين، فلنسميهم، إذا كان هؤلاء الخرافيين من المسلمين ضل سواء السبيل، ولم يكن هناك من ينبئه ويحذره وينهاه عن ضلاله، فهو يكون معذورًا عند ربه تبارك وتعالى، ولا يؤاخذهم مؤاخذة الذي أقيمت الحجة عليه {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥).... إلخ. ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: هل مَن وقع في الشرك الأكبر؛ مثل: مَن استغاث بغير الله، أو نَذَر نَذْرًا لغير الله، هل يقال: إنه كافر، أم يقال: لا بد من قيام الحجة عليه؟.

فأجاب: كلُّ إنسان يقع في شرك ومثله يجهله فإنه لا يُحكم بشركه حتى تقوم عليه الحجة، كما أنَّ مَن وقع في معصية دون الشرك فإنه لا يُعاقب عليها إذا كان مثله يجهلها؛ فلو أن رجلًا زَنا وهو قريب عهد بالإسلام ولا يعلم أن الزنا حرام فإننا لا نقيم عليه الحد؛ لأنه جاهل، وكذلك الذي يستغيث بغير الله أو يدعو غير الله وهو جاهل ونعلم أن مثله يجهله فإنه لا يُحكم بكفره؛ لأن الآياتِ الصريحةَ كثيرة في أنه لا يُحكم بالكفر إلا بعد العلم، يقول الله ﷻ: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ

=

=

[القصص:٥٩] ولا ظُلْم إلا بالعناد والمُشاقَّة. ويقول تعالى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ [النساء:١٦٥]، فبيَّن أنه لا حجة للخلق على الله إلا إذا أرسل الرسول، وأعلمهم بأن هذا حرام وهذا شرك. وقال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء:١٥]. وقال تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء:١١٥]. وقال الله تبارك وتعالى: وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [التوبة:١١٥]. والآيات في هذا المعنى كثيرة. والإنسان لا يعرف ما حرَّم الله سبحانه وتعالى إلا بعلم مِن قِبَل الرسل. فإذا كان هذا الإنسان مسلمًا يصلي، ويصوم، ويزكي، ويحج، ويستغيث بغير الله وهو لا يدري أنه حرام، فهو مسلم؛ لكن بشرط أن يكون مثله يجهله، بحيث يكون حديث عهد بالإسلام، أو في بلادٍ انتشر فيها هذا الشيء، وصار عندهم كالمباح، وليس عندهم علماء يبينون لهم. أما لو كان في بلدٍ التوحيدُ فيها ثابتٌ مطمئنٌ فإن ادعاءَ الجهلَ قد يكون كاذبًا فيه. ا.هـ

وقال الشيخ أيضا في لقاءات الباب المفتوح (٣٣/ السؤال رقم ١٢): ولكن يبقى النظر إذا فرط الإنسان في طلب الحق، بأن كان متهاونا، ورأى ما عليه الناس ففعله دون أن يبحث فهذا قد يكون آثما، بل هو آثم بالتقصير في طلب الحق ، وقد يكون غير معذور في هذه الحال، وقد يكون معذورا إذا كان لم يطرأ على باله أن هذا الفعل مخالفة ، وليس عنده من ينبهه من العلماء، ففي هذه الحال يكون معذورا، ولهذا كان القول الراجح: أنه لو عاش أحد في البادية بعيدا عن المدن، وكان لا يصوم رمضان ظنا منه أنه ليس بواجب، أو كان يجامع زوجته في رمضان ظنا منه أن الجماع حلال: فإنه ليس عليه قضاء؛ لأنه جاهل ، ومن شرط التكليف

=

=

بالشريعة أن تبلغ المكلف فيعلمها.

فالخلاصة إذا أن الإنسان يعذر بالجهل ، لكن لا يعذر في تقصيره في طلب الحق. ا.هـ

ومن خلال ما أوردناه من نصوص يتقرر أن العذاب والمؤاخذة لا يقع إلا بعد النذارة وقيام الحجة، وأن أهل الفترة ومن في حكمهم يمتحنون يوم القيامة، كما جاءت بذلك الأحاديث والله تعالى أعلم.

(فرع): كيفية قيام الحجة على المعين.

لقد أكد العلماء على ضرورة بلوغ الحجة للمعين، وثبوتها عنده وتمكنه من معرفتها، وكل ذلك لا يتم إلا بوجود من يحسن إقامة الحجة.

قال شيخ الإسلام في في مجموع الفتاوي (٢٣/ ٣٤٦): وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها: قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان. ا.هـ

وقال الإمام ابن القيم طريق الهجرتين (ص٣٨٤) وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة، وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل. ا.هـ

وقال في مدارج السالكين (٢/ ٢٣٩): فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به، سواء علم أو جهل، فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه، فقصر عنه ولم يعرفه، فقد قامت عليه الحجة، والله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه. ا.هـ

وقال ابن حزم في الإحكام (١/ ٦٧): وكل ما قلناه فيه أنه يفسق فاعله أو يكفر بعد

=

=

قيام الحجة، فهو ما لم تقم الحجة عليه، معذور مأجور وإن كان مخطئا، وصفة قيام الحجة عليه أن تبلغه فلا يكون عنده شيء يقاومها وبالله التوفيق. ا.هـ

ويقول العلامة سليمان بن سحمان كما في منهاج الحق والاتباع (ص٦٨) كلامًا متينًا مهما حول من يقيم الحجة: الذي يظهر لي والله أعلم أنها لا تقوم الحجة إلا بمن يحسن إقامتها، وأما من لا يحسن إقامتها كالجاهل الذي لا يعرف أحكام دينه ولا ما ذكره العلماء في ذلك، فإنه لا تقوم به الحجة. ا.هـ

إذًا خلاصة ما سبق أن يقال، لابد من قيام حجة صحيحة تنفي عمن تقام عليه أي شبهة أو تأويل، وبذلك ندرك عظم المسئولية الملقاة على عاتق العلماء والدعاة ممن يحسن إقامة الحجة، ليقيموا الحجة على الخلق ويزيلوا الشبه عنهم.

وقد يشكل على البعض: كيف تقوم الحجة على من قضى الله تعالى بخذلانه وحرمانه؟ والجواب من وجوه

قال ابن القيم في شفاء العليل (ص١٧٣): فإن قيل كيف تقوم حجته عليهم، وقد منعهم من الهدى، وحال بينهم وبينه، قيل: حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى، وبيان الرسل لهم، وإراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عيانًا، وأقام لهم أسباب الهداية باطنًا وظاهرًا، ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب، ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل، أو صغر لا تمييز معه، أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله، فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدى، ولم يحل بينهم وبينه، نعم قطع عنهم توفيقه، ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه، فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه، وهو فعله ومشيئته وتوفيقه ا.هـ

وإقامة الحجة ليس لكل مسألة مطلقًا، فهناك أمور كالمسائل الظاهرة مما هو معلوم من الدين بالضرورة لا يتوقف في كفر قائلها، ولذا يقول الشيخ محمد بن

=

=

عبد الوهاب كما في الدرر السنية (٨/ ٢٤٤): ومسألة تكفير المعين مسألة معروفة، إذا قال قولًا يكون القول به كفرًا، فيقال من قال بهذا القول فهو كافر، لكن الشخص المعين إذا قال ذلك لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهذا في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض الناس وأما ما يقع منهم في المسائل الظاهرة الجلية، أو ما يعلم من الدين بالضرورة فهذا لا يتوقف في كفر قائله ا.هـ

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم في فتاواه (١/ ٧٤): إن الذين توقفوا في تكفير المعين، في الأشياء التي قد يخفى دليلها، فلا يكفر حتى تقوم عليه الحجة الرسالية من حيث الثبوت والدلالة، فإذا أوضحت له الحجة بالبيان الكافي كفر سواء فهم، أو قال: ما فهمت، أو فهم وأنكر، ليس كفر الكفار كله عن عناد وأما ما علم بالضرورة أن رسول الله جاء به وخالفه، فهذا يكفر بمجرد ذلك، ولا يحتاج إلى تعريف سواء في الأصول أو الفروع ما لم يكن حديث عهد بالإسلام. ا.هـ

وإذا أردنا أن نتحدث عن الضابط في قيام الحجة على المعين، فيمكن القول بأن الأصل أنه لا تكفير للمعين إلا إذا كانت الحجة الرسالية قد بلغته، وقد يراد ببلوغ الحجة الرسالية مجرد البلوغ العام الذي تقوم به الحجة بأصل الدين الذي هو عبادة الله والتقرب إليه وحده والإتباع المجمل للشريعة، وقد يراد ببلوغ الحجة ما يتعلق بتفاصيل الحجة الرسالية، والإتباع المفصل للشريعة بفعل الأوامر واجتناب النواهي، فلابد فيه لإقامة الحجة من الإبلاغ التفصيلي، فمن لم تبلغه حجة الله بشيء من تلك الأمور، لم يكن مكلفًا، فالحجة الرسالية على التفصيل شرط في التكليف، وأما الإقرار بأصل الدين الشهادتين علمًا وعملًا فهو كاف في قيام الحجة في استحقاق الله وحده للعبادة دون غيره، ومجمل الإتباع للشريعة.

وأما شرط قيام الحجة على الخلق فالحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط

=

=

التمكن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به، فأما العاجز عن العلم كالمجنون، أو العاجز عن العمل، فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين، أو حصل العجز عن بعضه، كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله، كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلًا، وهذه أوقات الفترات.

ومما يجدر ذكره هاهنا أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأشخاص، كما قال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص: ٤١٤): إن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمان يترجم له. ا.هـ

كما ينبغي أن يفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة، كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما في مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٣/ ١٢، ١٣): (وأصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة، فإن أكثر الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم، كما قال تعالى (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) [الفرقان: ٤٤].

وقيام الحجة وبلوغها نوع، وفهمهم إياها نوع آخر، وكفرهم ببلوغها إياهم وإن لم يفهموها نوع آخر، فإن أشكل عليكم ذلك، فانظروا قول ﷺ في الخوارج: (أينما لقيتموهم فاقتلوهم) مع كونهم في عصر الصحابة، ويحقر الإنسان عمل الصحابة معهم وقد بلغتهم الحجة، ولكن لم يفهموها.

ويقول أيضًا كما في الدرر السنية (٨/ ٧٩): من المعلوم أن قيام الحجة ليس معناه

=

=

أن يفهم كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر رضي الله عنه، بل إذا بلغه كلام الله ورسوله، وخلا من شيء يعذر به فهو كافر، كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن، مع قول تعالى: (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ) [الإسراء: ٤٦] وقوله: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) [الأنفال: ٢٢].

ومقصود الشيخ الإمام من فهم الحجة ها هنا: أي الفهم الذي يقتضي الانتفاع والتوفيق والاهتداء، كما مثل له بفهم الصديق رضي الله عنه، وأما قيام الحجة فتقضي الإدراك وفهم الدلالة، والإرشاد، وإن لم يتحقق توفيق أو انتفاع، كما قال الله تعالى (وَأَما ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) [فصلت: ١٧].

ومما يؤكد ذلك ما سطره تلميذه الشيخ حمد بن ناصر بن معمر رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال كما في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٤/ ٦٣٨): وليس المراد بقيام الحجة أن يفهمها الإنسان فهمًا جليًا كما يفهمها من هداه الله ووفقه، وانقاد لأمره، فإن الكفار قد قامت عليه حجة الله مع إخباره بأنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه. ا.هـ

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٩٢٥): هل تكفي إقامة الحجة على أهل الشرك وسائر أهل البدع أم لابد من فهمها؟ وماهو ضابط هذا الفهم؟ والله تعالى يقول: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً} -وذلك في الكفار- {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}؟.

فأجاب: لا شك أن حجة الله تبارك وتعالى إذا قُدِمت لبعض الناس من الأعاجم باللغة العربية التي لا يفهمونها فلم تقم الحجة عليهم، ومن أجل ذلك قال الله ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}، فإذا أقام العالِم حجة الله على عباده ولم يفهموها بسبب عُجمة طرأت على لسانهم العربي، أو بسبب أنهم

=

=

أعاجم فلا بد لهذا العالم حينذاك أن يشرح لهم حجة الله تبارك وتعالى حتى تتبين لهم، فإذا تبينت لهم الحجة ثم جحدوها بعد أن استيقنتها أنفسهم حين ذلك يُحكم عليهم بأنهم كفار وبأنهم مخلدون في النار، أما مجرد تلاوة الحجة على ناس لا يفقهونها فذلك مما لا تقوم به الحجة باتفاق أهل العلم، والله ﷻ حينما قال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} فإنما يعني رسولًا بلسان قومهم ليفهموا عليه ما يخاطبهم به من الوحي الذي أنزل عليه من ربه تبارك وتعالى، ولذلك تأكيدًا لهذا المعنى جاء قوله عليه الصلاة والسلام كما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم –: «ما من رجل من هذه الأمة من يهوديٍ أو نصراني يسمع بي ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» ففي هذا الحديث قوله صلى الله عليه وآله وسلم في كل كافرٍ على وجه الأرض يبلغه خبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما كان هو عليه السلام في دعوته على حقيقتها ثم يكفر بها؛ فهو في النار، فقوله عليه الصلاة والسلام: «يسمع بي» إنما يعني دعوته الحق، ولا يعني بطبيعة الحال لو سمع أحد الكفار الأوروبيين مثلًا أو الأمريكيين أو غيرهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بطريق القساوسة والرهبان والمستشرقين الذين يتحدثون عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بالأكاذيب، ولا يحدثون أقوامهم بحقيقة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأخلاق والشمائل فيما يتعلق بشخصه ثم هم لا يتحدثون بحقيقة دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأنها دعوة التوحيد وأنها دعوة الإصلاح في كل ميادين الحياة وإنما يحدثون أقوامهم على خلاف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شخصه وفي دعوته، فلا يكون والحالة هذه أولئك الناس قد سمعوا به عليه الصلاة والسلام حقًا ولذلك فلا يشملهم الوعيد المذكور في آخر الحديث.

=

=

أعيد ذكر هذا الحديث لأهميته في هذا الموضوع، فإن كثيرًا من الناس يتوهمون أنه من مجرد بلوغ القرآن الكريم بسبب الإذاعات العربية إلى تلك الشعوب الكافرة، قد قامت حجة الله تبارك وتعالى عليهم ولذلك فليس على المسلمين أن يعملوا شيئًا من تبليغ الدعوة، ليس الأمر كذلك، فإن القرآن إنما نزل بلسان عربي مبين، وأولئك الناس لا يفقهون منه شيئًا، كيف وكثير من العرب أنفسهم من عامتهم هم عادوا أشباه الأعاجم لا يفهمون كثيرًا مما يتلى عليهم من كتاب ربهم فكيف يقال بأن حجة الله تبارك وتعالى قد قامت على أولئك الأوروبيين وأمثالهم من الأعاجم لمجرد أنهم يسمعون كل يوم صباحًا ومساءَ تلاوة القرآن من الإذاعات العربية، فلا جرم أنه يجب على طائفة من المسلمين أن يبلّغوا شريعة الإسلام بلغة أولئك الأقوام، وعلى هؤلاء أن يكونوا من أهل العلم حقًا يحسنون ترجمة القرآن، ترجمة معنوية وليس ترجمة لفظية، هذا هو جواب ذاك السؤال الهام. ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: بعض الإخوة ذهبوا بدعوة صلة أرحامهم في جنوب اليمن وأرحامهم هؤلاء تربوا وترعرعوا على أيدي علماء الصوفية ومما علموهم قالوا: إذا جاءكم أي شخص من الحجاز أو من نجد أو كان موحدًا فهذا يعتبر وهابيًا فلا تقبل منه، وأردنا أن ندعوهم إلى التوحيد فلم يقبلوا منا هذه الدعوة، فهل هذه حجة؟ وهل يشترط مع إقامة الحجة فهم الحجة أم لا؟.

فأجاب: لا شك أنه إذا قيل لهم: هذا هو الحق وهذا هو كتاب الله، وهذه هي سنة رسول الله ﷺ أنه قد قامت عليهم الحجة؛ لأنهم عرب يفهمون بمجرد ما يسمعون، أما لو كان أعجميًا وكنت تتكلم أمامه باللغة العربية وهو لا يفهمها؛ فإن الحجة لم تقم عليه؛ لأنه لا يفهم ما تقول، فإذا كان يعلم ما تقول، وأتيت بالكتاب والسنة

=

=

دليلًا ولكنه أصر وقال: سأتبع مشايخي فقد قامت عليه الحجة، ويكون هذا كالذين قال الله عنهم: وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ [الزخرف:٢٣] إذًا نقول: سمونا ما شئتم، وهابية، أو حنبلية، أو نجدية، أو حجازية، أو ما شئتم، ألستم تؤمنون بالله ورسوله؟! ألستم ترون أن القرآن دليل، وأن السنة دليل؟! ولكن يبدو أن بعض الدعاة يكون منه انفعال، وإذا قالوا: نحن لا نأخذ منكم أنتم وهابية، ينفر منهم، أو يرد عليهم بالمثل، ويقول: أنتم ضلال، وأنتم فيكم كذا وكذا، فلا يحصل منه الدعوة بالحكمة. ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين أيضا في لقاءات الباب المفتوح: مسألة فهم الحجة شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ -وكذلك ابن القيم وابن العربي المالكي رحمهم الله- يقولون: وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها كلامه هذا في الفتاوى. اختلف الدارسون لكتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه القضية أيضًا، وحاولت أن أفهمها ويسر الله لي بعض النقولات الخفيفة التي سأعرضها عليكم ليتجلي الأمر أكثر: رأى بعض طلبة الشيخ رحمهم الله أن الشيخ لا يشترط لقيام الحجة فهمها، ونقلوا عنه بعض النقولات منها: فإن حجة الله هو القرآن فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة، وقيام الحجة وبلوغها نوع، وقد قامت عليهم أي: الكفار والمنافقين وفهمهم إياها نوع آخر. ثم وجد نص آخر للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة للشريف يقول فيها: وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبة عبد القادر والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينبههم وفي رواية: عدم من يفهمهم. ثم في قول آخر: فإذا كان المعين يكفر إذا قامت عليه الحجة، فمن المعلوم أن قيامها ليس معناه أن يفهم كلام الله

=

=

ورسوله مثل فهم أبي بكر الصديق رضي الله عنه بل إذا بلغه كلام الله ورسوله وخلا من شيء يعذر به فهو كافر. وآخرها ما وقفت على كلام للشيخ أخرجه محمد رشيد رضا في طبعة الرسائل النجدية: وليس المراد بقيام الحجة أن يفهمها الإنسان فهمًا جليًا كما يفهمها من هداه الله ووفقه وانقاد لأمره، فالرجاء البيان حفظك الله.

فأجاب: الذي نراه: أن الحجة لا تقوم إلا إذا بلغت المكلف على وجه يفهمها، لكن نعرف أن أفهام الناس تختلف، من الناس من يفهم من هذا النص معنىً جليًا مثل الشمس، ومعنىً لا يحتمل عنده أي شك، ومن الناس من يفهم النص فهمًا أوليًا مع احتمال شك في قلبه، فالأول في قمة المعرفة والعلم، والثاني في أول العلم، والثاني قد قامت عليه الحجة لا شك؛ لأنه فهم منه ما يراد به، لكن ليس على الفهم التام الذي فهمته الطائفة الأولى كأبي بكر وعمر ، وأما من بلغه النص ولكنه لم يعرف منه معنىً أصلًا كرجل أعجمي بلغه النص باللغة العربية ولكن لا يدري ما معنى هذا النص، فهذا لم تقم عليه الحجة بلا شك، ودليل هذا قول الله تبارك وتعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [إبراهيم:٤] أي: بعد البيان بهذا اللسان الذي يفهمونه يضل الله من يشاء، فلا يقبل ويهدي من يشاء فيقبل. وأي فائدة لرجل أعجمي يُقرأ عليه القرآن من لسان عربي وهو لا يدري ما هو، أنت الآن لو أتى إليك رجل أعجمي وأنت عربي لا تفهم الأعجمية ثم كلمك بخطبة خمس صفحات أو أكثر لا تفهم منها شيئًا إطلاقًا فكذلك العجم بالنسبة للعرب. فالذي نرى: أنه لا بد من بلوغ الحجة وفهم معناها على وجه يتبين له الحق، وأما قوله تعالى: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام:١٩] فلا شك أن القرآن نزل بلفظ ومعنى، فالمراد من بلغه لفظه ومعناه، أو ومن بلغه من أهل هذه اللغة الذين تقوم عليهم الحجة إذا بلغهم القرآن

=

=

بمجرد وصوله إليهم، وهذا القول هو الذي تدل عليه الأدلة بخصوصها وأدلة أخرى بعمومها مثل قوله تعالى: لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا [البقرة:٢٨٦] وقوله: فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن:١٦] ومن المعلوم أن من لا يعرف المعنى فإنه ليس بوسعه أن يقبله، لكن على من بلغه أن الرسول محمدًا ﷺ قد بعث، وأن دينه نسخ الأديان كلها، يجب عليه أن يبحث، وهنا قد يفرط في البحث فلا يكون معذورًا لتفريطه. فلا يكون معذورًا لتفريطه ا.هـ

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية: أن تكفير المعين يشترط فيه إقامة الحجة، وإقامة الحجة شرط في أمرين:

الأول: في العذاب الأخروي؛ يعني في استحقاق العذاب الأخروي.

والثاني: في استحقاق الحكم الدنيوي.

والدليل على ذلك قول الله ﷻ {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء:١٥] وكذلك قوله {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى} فشرط لتولية المشاق ما تولى وجعل جهنم له وساءت مصيرا أن يكون تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} [النساء:١١٥]، وكذلك قوله ﷻ {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون} [التوبة:١١٥]، وكذلك قوله ﷻ {وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله} [الجاثية:٢٣]، وكذلك قوله ﷻ {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه} [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، فهذه كلها فيها اشتراط العلم وإقامة الحجة، وكل رسول بعث لإقامة الحجة على العباد، إذا تبين هذا فإن إقامة الحجة

=

=

تحتاج:

إلى مقيم، وإلى صفة، أما المقيم: فهو العالم بمعنى الحجة، العالم بحال الشخص واعتقاده، وأما صفة الحجة: فهي أن تكون حجة رسالية بينة، قال ﷻ {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم:٤] واشترط أهل العلم أن تكون الحجة رسالية؛ يعني أن تكون قول الله ﷻ وقول رسوله ﷺ، يعني أما إن كانت عقلية وليس المأخذ العقلي من النص فإنه لا يكتفى به في إقامة الحجة؛ بل لابد أن تكون الحجة رسالية، لهذا يعبر ابن تيمية ويعبر ابن حزم وجمع بأن تكون الحجة رسالية؛ والسبب لأنها يرجع فيها من لم يأخذ بالحجة إلى رد ما جاء من الله ﷻ ومن رسوله ﷺ.

وأما فهم الحجة فإنه لا يشترط في الأصل، ومعنى عدم اشتراطه: أننا نقول ليس كل من كفر فإنه كفر عن عناد، بل ربما كفر بعد إبلاغه الحجة وإيضاحها له لأن عنده مانع من هوى أو ضلال منعه من فهم الحجة، قال الله ﷻ {وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه}، والآيات في هذا المعنى متعددة.

ما معنى فهم الحجة؟ يعني أن يفهم وجه الاحتجاج بقوة هذه الحجة على شبهته، فهو عنده شبهة في عبادة غير الله، عنده شبهة في استحلاله لما حرم مما أجمع على تحريمه؛ لكن يبلغ بالحجة الواضحة بلسانه ليفهم معنى هذه الحجة، فإن بقي أنه لم يفهم كون هذه الحجة راجحة على حجته فإن هذا لا يشترط -يعني في الأصل؛ لكن في بعض المسائل جعل عدم فهم الحجة -يعني كون الحجة راجحة على ما عنده من الحجج- جعل مانعا من التكفير كما في بعض مسائل الصفات.

يعني أن أهل السنة والجماعة من حيث التأصيل اشترطوا إقامة الحجة ولم يشترطوا فهم الحجة في الأصل؛ لكن في مسائل اشترطوا فيها فهم الحجة، وهذا الذي يعلمه من يقيم الحجة وهو العالم الراسخ في علمه الذي يعلم حدود ما أنزل

=

=

الله ﷻ على رسوله ا.هـ

وسئل الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية أيضا: لماذا كفر أئمة الهدى القائلين بخلق القرآن مع أنهم متأولون، ولم يكفروا القائلين بإنكار الأسماء والصفات أو بعضها لأنهم متأولة؟.

فأجاب: هذه مسألة كبيرة في مسألة التكفير، تكفير الفرق يقال به من جهة الوعيد والتنفير من هذا القول؛ لكن تكفير المعين، يعني تكفير المعتزلة لا يعني أننا نكفر الأفراد، تكفير من قال بخلق القرآن لا يعني نكفر كل من قال به، تكفير من أنكر الأسماء والصفات ليس معناه أنه كل فرد أنكر يكفر، ليس كذلك.

ولذلك أهل السنة والجماعة أجمعوا على عدم تكفير من تأول الصفات لأن ثم شبه.

والتكفير إخراج من الدين والإخراج من الدين لابد أن يكون بأمر يقيني في قوة ما به دخل إلى الإسلام أو ما به صار مسلما وصار مؤمنا.

وهذه المسائل التي فيها تأويل أو اشتباه لو كفر بعض الأمة بعضا فيها لصار هناك تكفير كبير، وهذا لم يعمله أحد من أئمة الإسلام.

فلذلك هناك تكفير بالنوع وهذا وعيد ولأجل إطلاق النصوص وحماية للشريعة.

فإذا جاء المعين لابد في حقه من إقامة الحجة ورد الشبهة والجواب عن شبهته.

قالوا حتى في مسائل الأسماء والصفات يشترط فيها الفهم.

يعني في تأويل الأسماء والصفات لا يقول أقمت الحجة وهذه لا يشترط فيها الفهم.

كما هو القول المعروف الصحيح أن الذي يشترط إقامة الحجة في التكفير أو في التبديع أو في التفسيق إلى آخره، أما فهم الحجة فلا يشترط.

قالوا إلا في الأسماء والصفات فلابد أن يفهم لأن الشبهة فيها قوية وقال بها عدد

=

=

من المنتسبين إلى الحديث والسنة، وفيها نوع اشتباه.

وهذه الكلمة وهي استثناء الأسماء والصفات قالها بعض أئمة الدعوة كما هو موجود في الدرر السنية وفي غيرها، فينتبه لهذا الأصل ا.هـ

وقال الشيخ في شرح كشف الشبهات: وهنا بحث في أنهم إذا لم يفهموا فإنهم لا يُعذرون بذلك لأن فهم الحجة ليس بشرط؛ بل الشرط هو إقامة الحجة في التكفير يعني لا يكفر إلا من قامت عليه الحجة الرسالية التي يكفر من أنكرها أو ترك مقتضاها.

وأما فهم الحجة فإنه لا يشترط لهذا قال الشيخ هنا رَحِمَهُ اللَّهُ (ما فهموا ولن يفهموا) وإذا كانوا لم يفهموا فإنه لا يعني أنه يسلب عنهم الحكم بالشرك الأكبر؛ لأن فهم الحجة ليس بشرط.

وهذا مبحث بحثه علماء الدعوة والعلماء قبلهم هل فهم الحجة شرط أم ليس بشرط والله جل وعلا قال في كتابه (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ) ([٦٣]) يعني جعلنا على قلوبهم أكنة أغطية وحجب أن يفهموا هذا البلاغ وهذا الإنذار (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ) فدل على أن المشرك لم يفقه الكتاب ولم يفقه السنة يعني لم يفهم، وتحقيق المقام هنا لأن بعض الناس قال كيف لا تشترطون فعهم الحجة وكيف تقام الحجة إلى فهم، وتفصيل الكلام هنا أن فهم الحجة نوعان:

النوع الأول فهم لسان، والنوع الثاني فهم احتجاج.

أما فهم اللسان فهذا ليس الكلام فيه فإنه شرط في بلوغ الحجة لأن الله جل وعلا قال (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)[إبراهيم:٤]، والله جل وعلا جعل هذا القرآن عربيا لتقوم الحجة به على من يفقه اللسان العربي.

وإذا كان كذلك فإن فهم اللسان هذا لابد منه؛ يعني إذا أتاك رجل يتكلم بغير

=

=

العربية فأتيت بالحجة الرسالية باللغة العربية، وذاك لا يفهم منها كلمة، فهذا لا تكون الحجة قد قامت عليه بلسان لا يفهمه، حتى يَبْلَغُه بما يفهمه لسانه.

والنوع الثاني من فهم الحجة هو فهم احتجاج يفهم أن تكون هذه الحجة التي في الكتاب والسنة حجة التوحيد أو في غيره ارجح وأقوى واظهر وأبين أو هي الحجة الداحضة لحجج الآخرين، وهذا النوع لا يشترط؛ لأنه جل وعلا بين لنا وأخبر أن المشركين لم يفقهوا الحجة فقال جل وعلا (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ) وقال سبحانه وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا[الكهف:١٠١]، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ[الفرقان:٤٤]، فهم لا يسمعون سمع فائدة، وإن سمعوا سمع أُذُن ولا يستطيعون أن يسمعوا سمع الفائدة وإن كانوا يسمعون سمع الأذن، وقد قال جل وعلا وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ[الأنفال:٢٣]، وقال سبحانه (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)[الأنبياء:٢]، (إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) حتى وصفهم بأنهم يستمعون وليس فقط يسمعون بل يستمعون يعني ينصتون ومع ذلك نفى عنهم السمع بقوله (وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) وبقوله (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ)[الفرقان:٤٤]، وقوله جل وعلا في سورة تبارك (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)[الملك:١٠].

فإذن هم سمعوا سمع لسان لكن لم يسمعوا الحجة سمع قلب وسمع فهم للحجة يعني أنها راجحة فلم يفهموا الحجة ولكنهم فهموها فهم لسان فهموها لأنها أقيمت عليهم بلسانهم الذي يعلمون معه معاني الكلام ولكن لم يفهموها بمعنى أن الحجة هذه راجحة على غيرها، ولهذا قال تعالى (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ) ا.هـ

وقال الشيخ في شرح مسائل الجاهلية: المسألة الخامسة عشرة (اعتذارهم عن =

=

اتباع ما أتاهم الله بعدم الفهم، كقولهم (قُلُوبُنَا غُلْفٌ)، (يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)[هود:٩١]) ونحو ذلك من الآيات، فبين ذلك جل وعلا بأن ذلك وهو عدم الفقه وعدم الفهم بسبب الطبع على قلوبهم وبسبب جعل الأكنة على القلوب، وأن ذلك أيضا كان عدلا من الله جل وعلا، وذلك لأنه بسبب كفرهم بالله جل وعلا.

وهذه المسألة مسألة عظيمة ألا وهي أن المشركين وأهل الجاهلية على اختلاف ملل الجاهليات ونحلهم يعتذرون عن اتّباع الحق ويكون عذرهم هو أنهم لم يفقهوا ما قيل لهم ولم يعلموه، يريدون بذلك أنهم لم يفقهوا الحجة فقه من يستجيب لها، ولم يعلموا أن تلك الحجج التي جاءت بها الرسل أو جاء بها الأنبياء أنها غالبة وأنها مقدمة على الحجج التي يحتجُّ بها أولئك فعند المشركين حجج وعلم والرسل والأنبياء جاءوا بحجج وعلم فلم يفقه أهل الجاهليات أن حجج الأنبياء والمرسلين أدلَّ على المراد من حجج المشركين.

ولبيان ذلك نقول إن الحجة لا بد من إقامتها فالله جل وعلا ما بعث رسول إلا لأجل إقامة الحجة (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[النساء:١٦٥]، وقال سبحانه (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)[الإسراء:١٥]، فمن كمال عدل الله تبارك وتعالى ومن كمال حُكمه وحِكمته أنه جل وعلا ما عذّب أحدا حتى يقيم عليه الحجة، ولذلك بعث الله المرسلين وبعث الأنبياء لكي تنقطع حجج الناس بل إنّ الله جل وعلا أخذ على ابن آدم أو على بني آدم العهد لمّا أخرجهم من ظهور آبائهم ألاّ يكذبوا بتوحيد الله جل وعلا كما قال سبحانه (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)[الأعراف:١٧٢]، إلى أن قال (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

=

=

الْمُبْطِلُونَ)[الأعراف:١٧٢-١٧٣]، فالله جل جلاله أقام الحجج المتنوعة حجج مسموعة وحججا مرئية، وهم اعتذروا عن الاتباع بعدم فهم الحجة، قال سبحانه مخبرا عن قولهم (يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)[هود:٩١]، وقال سبحانه (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) وقال سبحانه مخبرا عن قول اليهود أنهم قالوا (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) وتقرير هذا أن فهم الحجة له نوعان:

النوع الأول: أن يفهم معناها؛ يعني أن يقيم الحجة من يفهم معنى الحجة، بأن يكون بلسان المخاطب، وأن يفهم المراد من الحجة، وهذا النوع متفق على أنه لابد منه، فإن الله جل جلاله ما بعث رسوله إلا بلسان قومه يبين لهم، كل رسول بعث بلسان قوم ذلك الرسول، يتكلم بلغتهم ويتكلم بلسانهم حتى يبين لهم الحجة، وحتى يفهموا معناها، وهذا متفق على أنه لا بد منه؛ لأنه إذا خوطب أحد بغير اللسان الذي يفهمه لم يكن ثَم إقامة للحجة، فإذن هذا النوع رجع إلى أنه في يعني إقامة الحجة، فإقامة الحجة لا يكون إلا بفهم معناها في هذا النوع.

النوع الثاني: فهم الحجة الفهم الذي يتبعه استجابة للحجة، فإن من فهم الحجة فهما مستقيما كاملا لابد أن ينقاد لها وهذا هو الذي لا يشترط في إقامة الحجة، فلم يكن لأولئك عذر بقولهم (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)، (مَا نَفْقَهُ) يعني ما نعلم ولا نفهم أن هذا الذي تقول أرجح من قولنا، ولا نفهم أن علمك الذي أوتيت به أرجح من علمنا، وهذا النوع هو الذي حرمه المشركون في أنهم لم يفهموا فهم استجابة، لم يفهموا الحجة من جهة كونها أرجح من حجتهم، ولكن الحجة فهموا معناها.

فإذن فهم الحجة معناها.

النوع الأول لابد منه، وأما النوع الثاني وهو أن تفهم فهم من يستجيب، فإن هذا لا يشترط في إقامة الحجة، فإن الحجة تقوم ولو زعم الزاعمون أنهم لم يفهموا

=

=

معناها إذا بينت لهم ألفاظها وكانت بلسانهم وبين لهم معناها من أهل العلم والفهم لبيان المعنى.

لهذا قال جل وعلا مخبرا عن قول المشركين (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) وقال (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ) ولم يمنعهم هذا الاحتجاج بأنهم ما فقهوا ولا فهموا بأن تكون الحجة قد أقيمت عليهم، وإذْ أعرضوا حلّ عليهم سخط الرب جل وعلا، وأيضا أخبر سبحانه أن قريش بل والعرب جُعلت على قلوبهم أكنة قال سبحانه (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) جعل الله جل وعلا على قلوب المشركين أكنة تحجب الفقه وتمنع الفهم، حواجز تمنع ذلك أن يفقهوا يعني أن يفهموا، هذا الفهم إنما فهم موقع الاحتجاج؛ فهم رجحان الحجة على ما عندهم من الحجج، وهذا كل طائفة من طوائف الشرك والجاهلية تحتج بهذا بأنه ما فهمت بأنهم ما يريدون أن ينسبوا إلى أنفسهم أنهم ردوا الحجة عنادا واستكبارا.

ولهذا قال أئمتنا إن إقامة الحجة شرط وأما فهم الحجة فلا يشترط. فليس كفر كل من كفر عن عناد وتكذيب؛ لأن أولئك لم يفهموا وجه الحجة الفهم الذي يجعلهم يقدمونها على حجتهم، ولكنهم فهموا تلك الكلمات وفهموا دلائلها وفهموا معناها.

قال الشيخ –محمد بن عبد الوهاب–رحمه الله تعالى هاهنا (فأكذبهم الله جل وعلا في ذلك) يعني فيما احتجوا به من أنهم ما فقهوا يعني أكذبهم في أنهم فهموا المعنى، ولكنه جعلت على قلوبهم أكنة أن يفقهوه الفقه النافع، وهو سبحانه كثيرا في القرآن ينسب الفعل إلى من ينتفع به، فقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ (أكذبهم الله) يعني في أنهم ما فقهوا الفقه الذي هو بمعنى فهم المعنى وبين أنهم فهموا المعنى، ولكنه الله جل وعلا بين أنه جعل على قلوبهم أكنة وكثيرا في القرآن ما يأتي نسبة الفعل إلى من ينتفع به، قال سبحانه إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

=

=
وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ[فاطر:١٨]، فأخبر سبحانه في هذه الآية أن النبي ﷺ إنما ينذر الذين يخشون ربهم بالغيب مع أنه عليه الصلاة والسلام نذير للعالمين، لكن أضيف إلى أولئك الإنذار لأنهم هم الذين انتفعوا به (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ) لأنهم هم الذين اتفعوا بذلك.

فهنا في قول الشيخ فأكذبهم الله جل وعلا في ذلك، وبيّن سبحانه أن سبب عدم الفقه هو الطبع على القلوب، يعني عدم الفقه الذي هو في ترجيح الحجة، الفهم الذي يترتب عليه ترجيح حجة المرسلين على ما عندهم من الأوهام والحجج، وبيّن سبحانه أن ذلك الطبع بسبب كفرهم، عدلا منه جل وعلا وحكمة، وهذا في كل أهل جاهلية يأتون بمثل هذا. وهذه المسألة موسومة في كتب العلماء بمسألة إقامة الحجة وفهم الحجة، وتبيّن لك أن الصواب تقسيم فهم الحجة إلى قسمين؛ لأن من أهل السنة في هذا القرن من اعترض على أئمتنا على عدم اشتراط فهم الحجة لأنه قال لابد من فهم الحجة، كيف تقام الحجة على من لم يفهمها؟ والعلماء بينوا لكن هؤلاء ما انتبهوا إلى أنّ فهم الحجة بالمعنى الأول الذي ذكرناه وهو فهم المعنى، وعهم مدلولات الكلام وفهم الاستدلال ووجه الاستدلال هذا لا بد منه، أما الفهم الذي هو معرفة رجحان هذه الحجة على غيرها وقطع الشبه جميع الشبه فهذا لا يشترط كما بينه الأئمة.ا.ه كلام الشيخ صالح.

وقال صاحب كتاب ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة (ص٣٣١): وهنا قد يقول قائل: إن المناط في قيام الحجة على المعين مطلقا هو مجرد بلوغها، ولا فرق في ذلك بين أن يكون عنده شبهة أولا يكون. ومقتضى ذلك ألا يعذر أحد بالشبهة بعد بلوغ الحجة الرسالية، ويستند من يقول هذا القول إلى أن الله قد حكم بالكفر على من وصفهم بأنهم لا يفقهون، وأنهم لا يعلمون، وأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ونحو ذلك. ومن ذلك قول الله تعالى: (وجعلنا على قلوبهم أكنة
=

=

أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) [الإسراء: ٤٦]. وقول الله تعالى: (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) [الفرقان: ٤٤].

وقوله تعالى: (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [الأنفال: ٢٢ - ٢٣].

وقوله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون_ [الأعراف:١٧٩] وقوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]. ونحو ذلك من الآيات مما في هذا المعنى كثيرة.

والجواب أن هذا بحمد الله لا يعارض إعذار المتأول، ويتبين ذلك بوجهين:

الأول: أن هناك فرقا بين فهم الدلالة وفهم الهداية، فليس كل من بلغته الحجة وفهمها يهتدي بها، لكن الله قد جعل فهم الدلالة شرطا في تكليف عموم الناس، مؤمنهم وكافرهم، ولم يجعل فهم الهداية والتوفيق إلا لمن أراد لهم ذلك.

فالفهم المشروط في قيام حجة الله على العباد غير الفهم الذي هو مقتضى هداية الله تعالى وتوفيقه، والشبهة التي تتعلق بفهم الحجة غير الشبهة التي هي لعدم الهداية ولو بلغت الحجة، وهذا فرق ظاهر، يبين ذلك أن الآيات التي قد يستدل بها من لا يفرق بين هذين الأمرين كلها فيما يتعلق بنفي العلم والعقل الذي هو مقتضى الهداية، ولذلك فإن الله كما نفى عمن حكم بكفرهم في تلك الآيات العلم والفهم، فقد نفى عنهم أنهم يسمعون أو يبصرون. ومعلوم أن السمع والبصر المنفي هنا هو مقتضى الهداية، لا أنهم صم لا يسمعون شيئا عمي لا يرون شيئا.

=

=

فكذلك العقل والفهم المنفي عنهم، هو مقتضى الهداية والتوفيق، لا أنهم مجانين لا يعرفون شيئا، ولا يفهمون ما يقال لهم.

قال الإمام ابن القيم في شفاء العليل (ص٩٧) في تفسير قوله تعالى: (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [الأنفال: ٢٣]. (أخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعا تقوم به عليهم حجته. ا.هـ

وقال السعدي في تفسيره (٣/ ١٥٥): والسمع الذي نفاه الله عنهم، سمع المعنى المؤثر في القلب، وأما سمع الحجة فقد كانت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته ا.هـ ثم يقال أيضا: إن الشبهة التي تحصل للكافر بل وللمبتدع الضال الذي لم يكفر ببدعته ليست ابتداء من الله بعبده، بل لا تكون إلا جزاء على إعراض العبد عن الحق بعد تبينه له وقيام الحجة به عليه، ومعرفة هل الشبهة لأجل عدم الفهم حقيقة أم لأجل عدم الهداية إلى الفهم مما لا يمكن الاطلاع عليه، لأنه أمر باطن لا يعلم، ونحن إنما نحكم على الظاهر، وإذا ثبت أن من حصلت له شبهة من جهة عدم الفهم فهو معذور كان هذا هو الأصل الذي يعتمد عليه في حكم الظاهر، لأنه هو الظاهر.

الثاني: إن من القواعد الشرعية المقررة أن المؤاخذة والتأثيم لا تكون على مجرد المخالفة ما لم يتحقق القصد إليها، والمتأول في حقيقته مخطئ غير متعمد للمخالفة، بل هو يعتقد أنه على حق، وذلك هو قصده ونيته، وقد قال تعالى: وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم [الأحزاب:٥]. وهذا عام في كل خطأ، لأنه يكون عن غير قصد ولا تعمد. وقد جاء في صحيح

=

=

مسلم أنه لما نزل قول الله تعالى: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا [البقرة: ٢٨٦] قال الله: قد فعلت. فدل هذا على أن من أخطأ أو نسي فإنه غير مؤاخذ لوعد الله له بذلك وعفوه عن عباده. وقال الله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) [البقرة: ٢٢٥]، وفي آية أخرى: (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) [المائدة: ٨٩] وهذا ليس خاصا بالخطأ في اليمين، بل هي قاعدة عامة في كل خطأ لايمكن العلم بالحق فيه إلا من جهة الحجة الرسالية. فتبين من كل ما سبق أنه لابد قبل الحكم على المعين من التحقق من قصد المعين بضوابطه الشرعية، وأن ذلك ركن مشروط في الحكم عليه مع تحقق المخالفة في الظاهر، ثم يقال بعد تقرير هذا: إذا كان تحقق القصد إلى المخالفة شرطا في التأثيم والمؤاخذة، فقد لا يكفي مجرد بلوغ الحجة في إزالة الشبهة، فقد يتأول من عنده شبهة تلك الحجة لتوافق شبهته، غير قاصد تكذيب الرسول ﷺ ولا رد الشريعة، ولكنه يظن أن ذلك هو مفهوم الحجة، ومثل هذا معذور إذا تأول، لأنه في الحقيقة مخطئ فكيف يقال مع هذا إن مجرد بلوغ الحجة كاف في قيامها على المعين مطلقا، وعدم إعذاره إذا كان له شبهة؟

وهذا الذي تقرر من الإعذار بالشبهة، ولو مع بلوغ الحجة إذا تأولها المتأول، بحيث نعلم من حاله أنه غير مكذب لها ولا مستحل مخالفتها هو منهج سلف الأمة وأئمتها، وقد يطلقون القول بكفر من قال كذا، كما أطلق الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول بكفر من قال بخلق القرآن لكنهم لا يلتزمون بذلك في الحكم على كل معين لأن الكلام في حكم القول من جهة وصفه الشرعي غير الحكم على المعين بذلك الحكم، ولو تلبس بما هو كفر في الشرع ولو لم تكن الشبهة عذرا معتبرا للزوم تكفير المتكلمين بتأويلهم لنصوص الصفات، وحملهم لها على المجاز، وأنها ليست ثابتة لله على الحقيقة، لظنهم أن ذلك يستلزم تشبيه الله بخلقه، فردهم

=

=

لنصوص الصفات مبني على إرادة التنزيه لله عن مشابهة خلقه حسب ظنهم وعلى هذا فهم لم يريدوا رد تلك النصوص تكذيبا بها، فرد النصوص كفر، لكن من تحقق منه ذلك قد يكون مكذبا بالنص فيكون كافرا، وقد يكون له شبهة فلا يكون مكذبا فلابد من التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المعين ولذلك لم يكفر الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ كل من دعا إلى القول بخلق القرآن بعينه، مع قوله إن القول بخلق القرآن كفر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٧ - ٤٨٩): إن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه.

فإن الإمام أحمد مثلا قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن، ونفي الصفات وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس والقتل والعزل عن الولايات وقطع الأرزاق ورد الشهادة وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذا ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم، يكفرون كل من لم يكن جهميا موافقا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر).

إلى أن قال: (ومعلوم أن هذا من التجهم، فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب، ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم، فإن الاستغفار للكفار

=

=

لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع. وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر، أو يحمل الأمر على التفضيل فيقال: من كفره بعينه فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير وانتفت موانعه، ومن لم يكفره بعينه فلانتفاء ذلك في حقه. هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم. ا.هـ

وقال في المسائل الماردينية (ص١٢٦) عن نفس المسألة: فالإمام أحمد رضي الله تعالى عنه ترحم عليهم واستغفر لهم لعلمه بأنه لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطئوا وقلدوا من قال ذلك لهم. ا.هـ

فهذا الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكفر من أطلق القول بتكفيرهم على العموم، مع أنه قد بلغهم حجة الله في ذلك وجادلهم وعرفوا ما عنده مما يبين حكم الله فيما يقولونه من الكفر، وكان هو في وقته عالم وعلم الأمة، وإمام أهل السنة، فلم يكن المانع من تكفيرهم إلا ما عرفوه الإمام أحمد من حالهم، وأنهم لم يقصدوا التكذيب بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما ظنوا أن قولهم هو الحق، لما عرض لهم من الشبه في ذلك، فعذرهم ولم يكفرهم بأعيانهم، مع قيامه بحجة الله وبيان أن قولهم كفر، ولهذا لم يكفر الإمام ابن تيمية الذين جادلوه من الجهمية في عصره مع أن قولهم كفر، ويحكى ذلك عن نفسه فيقول في الرد على البكري (ص: ٢٥٩): كنت أقول للجهمية من الحلولية - ليس المقصود بالحلولية هنا أهل الحلول والاتحاد، وإنما المقصود الجهمية الذين ينفون أسماء الله وصفاته وكونه على العرش استوى-، والنفاة الذين نفوا أن الله فوق العرش لما وقعت محنتهم: أنا لو وافقتكم كنت كافرا لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم

=

=

جهال، وكان هذا خطابا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم. وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم، في قصور من معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له. ا.هـ

وما وصف به الإمام ابن تيمية هؤلاء من الجهل إنما هو ما حصل لهم من الشبهات التي اقتضت ما قالوه من الكفر، لا أنهم جهال لم تبلغهم الحجة. كيف وقد جادلهم في ذلك، وبين حكم الله فيما قالوه، وبين لهم أن قولهم كفر.

وعلى هذا فقيام الحجة لا يكفي فيه مجرد بلوغها، بل لابد مع ذلك من فهم تلك الحجة، وألا تعرض للمعين شبهة معتبرة تمنعه من اعتقاد ما هو مقتضى تلك الحجة، وإلا كان معذورا إذا تأولها، لا فرق في ذلك بين الشبهة في المقالات الخفية وغيرها، ولا الشبهة عند من نشأ ببادية أو كان حديث عهد بإسلام أو لم يكن كذلك، وذلك أن كون المقالة خفية من الأمور النسبية التي تختلف بحسب أحوال الناس، فلا بد من اعتبار تلك الأحوال، والتبين والتثبت من تحقق شروط التكفير وانتفاء موانعه قبل المعين، وهذا الذي تقرر هو منهج أهل السنة، الذين هم أعلم الناس بالحق وأرحمهم بالخلق، وأما غيرهم من الفرق فقد أسرفوا في تكفير مخالفيهم، بناء على ما قرروه من أن ما هم عليه أصول لا يعذر أحد بمخالفتها لشبهة أو لغير شبهة. وقد تهافتوا في ذلك من غير ضابط، حتى كفروا مخالفيهم بالجزئيات الخفية فضلا عن الظاهرة، وبالإلزام فضلا عن الالتزامات، بل أكثر ما يكفرون به ليس كفرا في الأصل وحكم الشرع، وعدم الجزم بتكفير من تأول لشبهة، ولو كان تأوله كفرا مبني على أصل، وهو أن من تحقق منه ذلك ثبت له وصف الإسلام بيقين، والحكم عليه بالكفر، مع ظهور ما يدل على أن قصده ليس تكذيب الرسول ﷺ ولا مضادة الشريعة مجازفة وتهور من غير بينة ولا برهان. وأحكامنا مبينة على الظاهر، وظاهر من كان كذلك لا قطع فيه بالكفر.

=

=

(فرع): قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص فالمسألة نسبية فقد تقوم الحجة على أهل هذا البلد لانتشار العلم والعلماء، ولا تقوم على بلد آخر لضعف من يدعو ويبلغ، وقد تقوم الحجة على هذا الشخص لعلمه وفهمه، ولا تقوم على آخر لعدم تمكنه من العلم لأنه حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي (١١/ ٤٠٧): وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول.

وقال أيضًا في مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠٧): ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه، أو لم يعلم أن الخمر يحرم لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية.

وقد فصل في هذا المعنى، وزاده إيضاحًا الإمام الخطابي حيث قال في معالم السنن للخطابي (٢/ ٨): وهل إذا أنكرت طائفة من المسلمين في زماننا فرض الزكاة، وامتنعوا عن أدائها يكون حكمهم حكم أهل البغي؟.

قلنا: لا، فإن من أنكر فرض الزكاة في هذه الأزمان كان كافرًا بإجماع المسلمين والفرق بين هؤلاء وأولئك أنهم إنما عذروا لأسباب وأمور لا يحدث مثلها في هذا الزمان، منها قرب العهد بزمان الشريعة الذي كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ،

=

=

ومنها أن القوم كانوا جهالًا بأمور الدين وكان عهدهم بالإسلام قريبًا فدخلتهم الشبهة فعذروا، فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام، واستفاض في المسلمين علم وجوب الزكاة حتى عرفها الخاص والعام واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأول يتأوله في إنكارها، وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرًا كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنا والخمر ونكاح ذوات المحارم ونحوها من الأحكام إلا أن يكون رجلًا حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده فإنه إذا أنكر شيئًا منها جهلًا به لم يكفر وكان سبيله سبيل أولئك القوم في بقاء اسم الدين عليه، فأما ما كان الإجماع فيه معلومًا من طريق علم الخاصة كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها وأن القاتل عمدًا لا يرث، وأن للجدة السدس وما أشبه ذلك من الأحكام فإن من أنكرها لا يكفر بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة. ا.هـ

ومثال ذلك ما قاله الإمام ابن قدامة في المغني (ص:١٣١-١٣٢) في حكم من جحد وجوب الصلاة: ولا خلاف بين أهل العلم في كفر من تركها جاحدًا لوجوبها إذا كان ممن لا يجهل مثله ذلك، فإن كان ممن لا يعرف الوجوب كحديث الإسلام والناشيء بغير دار الإسلام أو بادية بعيدة عن الأمصار وأهل العلم، لم يحكم بكفره، وعرف ذلك وتثبت له أدلة وجوبها فإن جحدها بعد ذلك كفر، وأما الجاحد لها ناشئا في الأمصار بين أهل العلم فإنه يكفر بمجرد جحدها، وكذلك الحكم في مباني الإسلام كلها وهي الزكاة والصيام، والحج لأنها مبادئ الإسلام وأدلة وجوبها لا تكاد تخفى إذ كان الكتاب والسنة مشحونين بأدلتها والإجماع منعقد عليها، فلا يجحدها إلا معاند للإسلام يمتنع من التزام الأحكام غير قابل لكتاب الله تعالى ولا سنة رسوله ولا إجماع أمته، إلى أن يقول: وكذلك كل جاهل

=

=

بشيء يمكن أن يجهله لا يحكم بكفره حتى يعرف ذلك وتزول الشبهة ويستحله بعد ذلك.

ويمكن أن نستخلص من أقوال الأئمة السابقة ما يلي:

أ- اتفاق الأئمة على أن حديث العهد بالإسلام أو من نشأ ببادية بعيدة يعذر بجهل الأحكام الظاهرة المتواترة كوجوب الصلاة والزكاة وتحريم شرب الخمر.. الخ.

ب- أن من أنكر هذه الأمور في دار إسلام وعلم ولم يكن حديث عهد بإسلام أنه يكفر بمجرد ذلك، وبذلك ندرك خطأ من يظن أن الجاهل لا يكفر مطلقًا.

ج- أن هناك أحكامًا ظاهرة متواترة مجمع عليها ومسائل خفية غير ظاهرة ولكنها لا تعرف إلا من طريق الخاصة من أهل العلم. فهذه من أنكرها من العامة لا يكفر، ولكن من أنكرها من الخاصة يكفر إذا كان مثله لا يجهلها.

د- أيضًا يمكن أن يقاس على حديث العهد بالإسلام ومن نشأ ببادية بعيدة، من ينشأ في بلاد يكثر فيها الشرك والانحراف وتضعف بينهم دعوة التوحيد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري (ص٣٧٦) بعدما ذكر بعض أنواع الشرك: وإن ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه. ا.هـ

وقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب كما في مجموعة الشيخ فتاوى ومسائل (٩/ ١١): وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهما، لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم. ا.هـ

وقول الإمام عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب كما في الهدية السنية (٤٦،٤٧) عن بعض من يعمل الشرك إنه لا يكفر: لعدم من يناضل في هذه المسألة في وقته

=

=

بلسانه، وسيفه وسنانه، فلم تقم عليه الحجة ولا وضحت له المحجة. ا.هـ

وقال العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٦٢٧): أنا لا أكفر هؤلاء العامة الذين يطوفون حول القبور لغلبة الجهل، بل وقلت- ولعل الأخ أبو الحسن يذكر هذا: أنني أتعجب من بعض العلماء الذين يقولون بأنه لا يوجد اليوم أهل فترة، فأنا أقول أهل الفترة موجودون خاصة في بلاد الكفر أوروبا وأمريكا ووإلى آخره، بل أنا أقول قولة ما أظن أحد يقولها اليوم، أنا أقول: أهل الفترة موجودون بين ظهرانينا، وأعني هؤلاء الجهلة الذين يجدون من يؤيد ضلالهم: استغاثتهم بغير الله، والنذر لغير الله والذبح لغير الله، ويسمون هذه الشركيات كلها بالتوسل، والتوسل كما تعلمون نوعان، فهؤلاء من أين لنا أن نكفرهم وهم لم تبلغهم دعوة الكتاب والسنة، أعني هؤلاء العامة والمضللين من بعض الخاصة، والبعض الآخر قد يوجدون في بلد، ولا يوجدون في بلد آخر، هذا الكلام الذي تلوته علي آنفًا أنا متأثر به جدًا جدًا، حتى قلت أن أهل الفترة اليوم يعيشون بين ظهرانينا يصلون معنا، ويصومون، ويحجون، لكن هم ما يفقهون ماذا يقولون حينما يقولون أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله وهو كما أشرتم في كلامكم، فيما قرأتم؛ لا بد قبل كل شيء من تحققنا من حال هذا المتكلم بأنه عالم بما يقول ويعني ما يقول، فإذا انتفى أحد الأمرين لم يجز لنا بحقه إلا التعزير. ا.هـ

وسئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٢٨/ ٢١٧) عن: حكم العذر بالجهل في العقائد وغيرها؟

فأجاب: الجهل يكون فيما يمكن خفاؤه، أما الأمور الظاهرة من الدين فلا يعذر فيها الجاهل؛ كأمور التوحيد وأمور الصلاة، لو قال: ما أعرف الصلاة وهو بين المسلمين، ما أعرف أن الصلاة مشروعة، أو ما أعرف الزكاة، أو ما أعرف الصيام

=

=

ما يعذر بالجهل، أو قال: ما أعرف أن الزنا محرم ما يطاع، أو قال: ما أعرف أن اللواط محرم وهو بين المسلمين، ما يطاع، أو قال: ما أعرف أن الخمر محرم ما يطاع.

أما الذي يمكن جهله مثل بعض الصفات، صفات الله التي خفيت عليه أو ما درى أنها من صفات الله فأنكرها، ثم علم وبين له ما يكفر بذلك؛ لأن مثل هذا قد يجهل بعض الصفات أو مثل بعض حقوق النبي ﷺ جهلها ما درى عن بعض الحقوق التي تخفى على العامي أو ما أشبه ذلك، أو إنسان في أطراف أمريكا أو أطراف أفريقيا في بعض المحلات البعيدة عن الإسلام، مثل هذا كأهل الفترة يبين له ولا يكفر حتى يبين له ويعلم، فإذا ما أصر على ذلك وأصر على الكفر يقتل.

الذي يتولاه مسلم أو الدولة المسلمة تحكم به عليه، والحاصل أنه يعذر بالجهل في المسائل التي قد يخفى مثلها، ويكون حكمه حكم أهل الفترات إذا لقي الله جل وعلا.

والصحيح الذي جاءت به الأحاديث أنه يمتحن يوم القيامة ضمن أهل الفترة، فإن أجاب إلى الحق دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وأما في الدنيا ينظر فيه إذا ظن أنه يجهل، وولي الأمر إذا أراد أن يقيم الحد عليه يقيم التعزير عليه إن كان مثله يجهل هذا الشيء وينبهه، لكن لا يترك الحد عليه وهو بين المسلمين ممن يخفى على المسلمين مثل ما تقدم، يقول: أنا لا أعرف أن الناس يصلون، يقول: ما أدري عن الصلاة ولا أعرف الزكاة ولا أعرف الصيام ولا أعرف الجهاد، هذا لا يطاع؛ لأن هذا من التلاعب بالدين. ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح (٤٨/ السؤال رقم ١٥): ما رأي فضيلتكم بمن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم يذبح لغير الله ، فهل يكون مسلما ؟ مع العلم أنه نشأ في بلاد الإسلام؟.

=

=

فأجاب: الذي يتقرب إلى غير الله بالذبح له مشرك شركا أكبر، ولا ينفعه قول "لا إله إلا الله" ولا صلاة ولا غيرها اللهم إلا إذا كان ناشئا في بلاد بعيدة لا يدرون عن هذا الحكم، فهذا معذور بالجهل، لكن يعلم كمن يعيش في بلاد بعيدة يذبحون لغير الله، ويذبحون للقبور ويذبحون للأولياء وليس عندهم في هذا بأس ولا علموا أن هذا شرك أو حرام فهذا يعذر بجهله ، أما إنسان يقال له: هذا كفر فيقول لا ولا أترك الذبح للولي فهذا قامت عليه الحجة فيكون كافرا.

السائل: فإذا نصح وقيل له إن هذا شرك ، فهل أطلق عليه إنه "مشرك" و "كافر"؟.

الشيخ: نعم ، مشرك ، كافر ، مرتد ، يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل.

السائل: وهل هناك فرق بين المسائل الظاهرة والمسائل الخفية ؟.

الشيخ: الخفية تبين ، مثل هذه المسألة ، لو فرضنا أنه يقول: أنا أعيش في قوم يذبحون للأولياء ، ولا أعلم أن هذا حرام: فهذه تكون خفية ؛ لأن الخفاء والظهور أمر نسبي ، قد يكون ظاهرا عندي ما هو خفي عليك ، وظاهر عندك ما هو خفي علي.

السائل: وكيف أقيم الحجة عليه ؟ وما هي الحجة التي أقيمها عليه؟.

الشيخ: الحجة عليه ما جاء في قوله تعالى: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت) الأنعام/ ١٦٢ ، ١٦٣ ، وقال تعالى: (إنا أعطيناك الكوثر*فصل لربك وانحر) (الكوثر/ ١،٢) ، فهذا دليل على أن النحر للتقرب والتعظيم عبادة ، ومن صرف عبادة لغير الله: فهو مشرك

فإذا بلغت الحجة وقيل له: هذا الفعل الذي تفعله شرك ، ففعله: لم يعذر.

السائل: إذن يعرف؟.

الشيخ: نعم، لا بد أن يعرف.

السائل: هناك شبهة وهي أنه يقال إن فعله شرك وهو ليس بمشرك ! فكيف نرد؟.

=

=

الشيخ: هذا صحيح ، ليس بمشرك إذا لم تقم عليه الحجة، أليس الذي قال: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) قال كفرا؟ ومع ذلك لم يكفر؛ لأنه أخطأ من شدة الفرح، وأليس المكره يكره على الكفر فيكفر ظاهرا لا في قلبه، وقلبه مطمئن بالإيمان ؟ والعلماء الذين يقولون "كلمة كفر دون صاحبها" هذا إذا لم تقم عليه الحجة، ولم نعلم عن حاله، أما إذا علمنا عن حاله: فما الذي يبقى ؟ نقول: لا يكفر ؟ معناه: لا أحد يكون كافرا ؟ أي لا يبقى أحد يكفر، حتى المصلي الذي لا يصلي نقول: لا يكفر ؟ حتى ابن تيمية يقول إذا بلغته الحجة: قامت عليه الحجة ولا يكفي مجرد بلوغ الحجة حتى يفهمها ؛ لأنه لو فرضنا أن إنسانا أعجميا وقرأنا عليه القرآن صباحا ومساء لكن لا يدري ما معناها: فهل قامت عليه الحجة ؟ قال تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) (إبراهيم/ ٤).ا.هـ

إذًا الحجة تختلف من بلد إلى آخر ومن زمن إلى آخر، وكذلك تختلف الأنظار والاجتهادات بالنسبة لقيام الحجة على الأشخاص، فقد يرى شخص أن الحجة قائمة على فلان أو على أهل البلد الفلاني، لانتشار العلماء والدعاة وطلبة العلم والكتب والأشرطة والمذياع وما يشبه ذلك، وقد يرى آخر أنه رغم انتشار الدعاة وطلبة العلم إلا أنهم لا يعتنون بمسائل التوحيد والشرك، أو أنهم أنفسهم مصابون بهذا الداء، فمن أين يعرف أهل بلدهم حقيقة التوحيد؟

وأعظم ما يؤدي إلى هذا الاختلاف واللبس أمران أحدهما: التقصير في الدعوة إلى الله وإقامة الحجة على الجهال والبدء بالأهم فالمهم، والثاني: عدم وجود السلطة التي تقيم الحجة وتستتيب من يصر، والتي بها يتضح للناس من قامت عليه الحجة ومن لم تقم، ولعل هذا من أبرز أسباب كثرة الكلام حول هذه المسألة بين المتأخرين والله أعلم. انظر كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠).

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَاب يَعْرِفُونَهُ} أَيْ مُحَمَّدًا بِنَعْتِهِ فِي كِتَابِهِمْ {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسهمْ} مِنْهُمْ {فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} بِهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ} [الأنعام: ٢٠].

قال قتادة:" اليهود ، والنصارى يعرفون رسول الله ﷺ في كتابهم كما يعرفون أبناءهم".

قال الزجاج:" أي: يعرفون محمدا ﷺ أنه نبي كما يعرفون أبناءهم".

قال السمرقندي:" {الذين آتيناهم الكتاب}، يعني: التوراة والإنجيل، {يعرفونه} يعني: محمدا ﷺ بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم".

قال الزمخشري:" يعنى اليهود والنصارى يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة كما يعرفون أبناءهم بحلاهم ونعوتهم لا يخفون عليهم ولا يلتبسون بغيرهم. وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته".

قال القرطبي:" {لذين آتيناهم الكتاب}، يريد اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا".

قال ابن عطية:" {الكتاب}، معناه: التوراة والإنجيل، وهو لفظ مفرد يدل على الجنس".

قال ابن كثير:" ثم قال مخبرًا عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بَشَّروا بوجود محمد ﷺ وببعثه وصفته، وبلده =

=

ومُهَاجَرِه، وصفة أمته".

واختلف في عود الضمير في قوله تعالى: {يَعْرِفُونَهُ} [الأنعام: ٢٠]، على أقوال:

أحدها: أنه عائد إلى رسول الله -ﷺ-، أي: يعرفونه معرفة جلية، يميزون بينه وبين غيره كما يعرفون أبناءهم، لا تشتبه عليهم وأبناء غيرهم. وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن جريج ، وهو قول أكثر المفسرين.

واختاره: القرطبي ، والطبري ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، وابن كثير ، والآلوسي.

أ-لأن الله أخبر أن نبوة محمد ﷺ مذكورة في التوراة والإنجيل ، وأن نعته في كتبهم ظاهر واضح.

ب- ولقول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لأنا أشدّ معرفة برسول الله ﷺ مني بابني، فقال له عمر بن الخطاب: وكيف ذاك يا ابن سلام؟ قال: لأني أشهد أن محمدا رسول الله حقّا يقينا، وأنا لا أشهد بذلك على ابني، لأني لا أدري ما أحدث النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام.

قال ابن عطية:"وذلك على ما في قوله: {وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم} [الأنعام: ١٩]، فكأنه قال: وأهل الكتاب يعرفون ذلك من إنذاري والوحي إلي، وتأول هذا التأويل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يدل على ذلك قوله لعبد الله بن سلام كما تقدم: «إن الله أنزل على نبيه بمكة أنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم فكيف هذه المعرفة فقال عبد الله بن سلام نعم أعرفه الصفة التي وصفه الله في التوراة فلا أشك فيه، وأما ابني فلا أدري ما أحدثت أمه» وتأول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه، وغرض الآية إنما هو الوقوف على صورته فلا يخطئ الأب فيها".

=

=

قال ابن عاشور: "والتشبيه في قوله (كما يعرفون أبناءهم) تشبيه المعرفة بالمعرفة ،... لأن المرء لا يضلّ عن معرفة شخص ابنه وذاته إذا لقيه وأنّه هو ابنه المعروف ، وذلك لكثرة ملازمة الأبناء آباءهم عرفًا".

والثاني: أنه عائد على التوحيد، لقرب قوله: {قل إنما هو إله واحد} [الأنعام: ١٩].

والثالث: أنه عائد على القرآن المذكور قبل.

والرابع: أنه عائد على هذه كلها دون اختصاص، كأنه وصف أشياء كثيرة، ثم قال: {أهل الكتاب يعرفونه}، أي: ما قلنا وما قصصنا. قاله ابن عطية.

والخامس: أنه يعود على «الكتاب»، أي: يعرفونه على ما يدل عليه، أي على الصفة التي هو بها من دلالته على صحة أمر النبي ﷺ. ذكره القرطبي.

قال ابن عطية:"وهذا استشهاد في ذلك على كفرة قريش والعرب بأهل الكتاب".

في سبب تخصيص ذكر الأبناء في المعرفة دون الأنفس في قوله تعالى {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}، قال الرازي: "لأن الذكور أعرف وأشهر وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق".

وقال القرطبي: "وخص الأبناء في المعرفة بالذكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه".

قوله تعالى: {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ٢٠].

يحتمل أن المعنى: هم الذين خسروا أنفسهم ويحتمل المعنى: أولئك هم الخاسرون لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بعد وضوح الآيات.

والمعنى الصحيح: أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم وتمردهم لا يؤمنون بما جاء به الرسول.

=

=

وخسروا أيضًا أهليهم كما قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ).

قال الطبري:" يعنى بقوله:"خسروا أنفسهم"، أهلكوها وألقوها في نار جهنم، بإنكارهم محمدًا أنه لله رسول مرسل، وهم بحقيقة ذلك عارفون، فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون، وقد قيل: إنّ معنى: «خسارتهم أنفسهم»، أن كل عبد له منزل في الجنة ومنزل في النار. فإذا كان يوم القيامة، جعل الله لأهل الجنة منازلَ أهل النار في الجنة، وجعل لأهل النار منازلَ أهل الجنة في النار، فذلك خسران الخاسرين منهم، لبيعهم منازلهم من الجنة بمنازل أهل الجنة من النار، بما فرط منهم في الدنيا من معصيتهم الله، وظلمهم أنفسهم، وذلك معنى قول الله تعالى ذكره: الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، [سورة المؤمنون: ١١]".

قال يحيى بن سلام: {خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}،" لأَنهم كفروا به بعد المعرفة".

قال الزجاج:" {والذين خسروا أنفسهم}، الأشبه أن يكون ههنا يعني به: أهل الكتاب، وجائز أن - يكون يعني به: جملة الكفار من أهل الكتاب وغيرهم".

قال السمرقندي:" يعني: كعب بن الأشرف ومن تابعه ممن طلبوا الرئاسة، آثروا الدنيا على الآخرة".

قال البغوي:" {الذين خسروا أنفسهم}، غبنوا أنفسهم {فهم لا يؤمنون}، وذلك أن الله جعل لكل آدمي منزلا في الجنة ومنزلا في النار، وإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة، ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار، وذلك الخسران".

قال الزمخشري: {الذين خسروا أنفسهم}، أي:" من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين فهم لا يؤمنون به، جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، حيث قالوا: لو شاء

=

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١).

{وَمَنْ} أَيْ لَا أَحَد {أَظْلَم مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله كذبا} بنسبة الشريك له {أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} الْقُرْآن {إِنَّهُ} أَيْ الشَّأْن {لَا يُفْلِح الظَّالِمُونَ} بِذَلِكَ[1].

=

الله ما أشركنا ولا آباؤنا. وقالوا: والله أمرنا بها وقالوا: الملائكة بنات الله وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات، وسموها سحرا، ولم يؤمنوا بالرسول -ﷺ-".

قال البيضاوي: " {الذين خسروا أنفسهم} من أهل الكتاب والمشركين، {فهم لا يؤمنون}، لتضييعهم ما به يكتسب الإيمان".

قال ابن كثير: " أي: خسروا كل الخسارة، {فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه".

(١) قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} [الأنعام: ٢١].

الاستفهام إنكاري ومعناه النفي، أي: لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، لأن الكذب على الله من أعظم الكذب ، وهذا يشمل الكذب عليه في أحكامه أو آياته أو يتكلم بغير علم ، وقد تعالى (وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ).

قال الواحدي: أي:" أي: لا أحد أظلم ممَّن اختلق على الله كذبًا يعني: الذين ذكرهم في قوله: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَة} [الأعراف: ٢٨]،الآية".

قال السمرقندي:" يعني: ممن اختلق على الله كذبا باتخاذ الآلهة وقوله الشرك".

قال الثعلبي: {ومن أظلم}، يعني:"أكفر".

قال السمعاني:" أي: قال عليه ما لم يقله".

=

=

قال ابن كثير:" أي: لا أظلم ممن تَقَوَّل على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن أشدُّ اعتداءً، وأخطأ فعلا وأخطأ قولا ممن اختلق على الله قيلَ باطل، واخترق من نفسه عليه كذبًا، فزعم أن له شريكًا من خلقه، وإلهًا يعبد من دونه - كما قاله المشركون من عبدة الأوثان - أو ادعى له ولدًا أو صاحبةً، كما قالته النصارى".

قوله تعالى: {أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} [الأنعام: ٢١].

(أو) للتنويع ، أي: أو كذب بآيات الله سواء الكونية كالشمس والقمر ، أو الآيات الشرعية كالوحي المنزل على رسول الله.

وقد سبق أن التكذيب بالآيات الكونية: كأن يعتقد أن خالقها غير الله ، أو لله شريكًا ، أو معينًا.

والتكذيب بالآيات الشرعية: بتكذيبها ، أو جحدها ، أو عدم العمل بها.

قال مقاتل:" يعني: بالقرآن أنه ليس من الله".

قال السمعاني:" يعني: آيات القرآن".

قال الواحدي: أي:" بالقرآن وبمحمد ﷺ".

قال الطبري:" يقول: أو كذب بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم، كذّبت بها اليهود".

قال السمرقندي:" يعني: بالقرآن أنه ليس من عند الله".

قال ابن كثير: أي:" ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته".

قال السعدي:" أي: لا أعظم ظلما وعنادا، ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتمعا، افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته، التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس، ويدخل في هذا، كل من كذب على الله، بادعاء الشريك له

=

=

والعوين، أو زعم أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولدا، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم".

قال الحسن: "كل ما في القرآن: «بآياتنا وآياته»، يعني به: الدين بما فيه".

(مسألة): كيف الجمع بين قوله تعالى: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه} [البقرة: ١١٤]، وقوله: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا} [الأنعام: ٢١] وغير ذلك من النصوص التي تبين أن فعلا ما هو الأظلم؟

الجواب من أوجه:

١- أنها جميعها مردها إلى شيء واحد؛ وهو الشرك بالله تعالى.

٢- أنها مشتركة في الأظلمية، أي أنها في مستوى واحد في كونها في قمة الظلم.

٣- أن الأظلمية في النصوص نسبية. أي: لا أحد أظلم ممن فعل كذا بالنسبة لنوع هذا العمل لا في كل شيء.

فيقال مثلا: ومن أظلم -في مشابهة أحد في صنعه- ممن ذهب يخلق كخلق الله؟

ومن أظلم -في منع حق- ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه؟

ومن أظلم -في افتراء كذب- ممن افترى على الله كذبا.

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام: ٢١].

قال مقاتل:" يعني: المشركين في الآخرة يعيبهم نظيرها في «يونس» ".

قال الطبري:" يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقاءَ في الجنان، والمفترون عليه الكذب، والجاحدون بنبوة أنبيائه".

قال ابن كثير:" أي: لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب".

قال السمرقندي:" يعني: أنه لا يأمن الكافرون من عذابه".

قال الواحدي: أي:" لا يسعد مَنْ جحد ربوبيَّة ربِّه وكذَّب رسله، وهم الذين ظلموا أنفسهم بإهلاكها بالعذاب".

=

=

قال الثعلبي:" {الظالمون}: الكافرون".

فالظلم المراد به الشرك ، لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، والمشرك ظالم ، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده ، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر.

كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم...).

وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) قال: بشرك ، ثم تلا قول لقمان (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).

وقال تعالى (وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ).

فالمشرك لا يفلح ، وهو خالد في النار إذا مات من غير توبة ، كما قال تعالى (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) وقال تعالى (إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا).

الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الشرك.

وهو أعظم الظلم وأشده.

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ) أي: من المشركين.

قال ابن رجب: فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتألهه ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين ، إنما

=

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢).

{وَ} اذْكُرْ {يَوْم نَحْشُرهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُول لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا} تَوْبِيخًا {أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} أَنَّهُمْ شُرَكَاء الله.

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣).

{ثُمَّ لَمْ تَكُنْ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء {فِتْنَتهمْ} بِالنَّصْبِ وَالرَّفْع أَيْ مَعْذِرَتهمْ {إِلَّا أَنْ قَالُوا} أَيْ قَوْلهمْ {وَاَللهِ رَبّنَا} بِالْجَرِّ نَعْت وَالنَّصْب نِدَاء {ما كنا مشركين}.

انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤).

قال تعالى {اُنْظُرْ} يَا مُحَمَّد {كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسهمْ} بِنَفْيِ الشِّرْك عَنْهُمْ {وَضَلَّ} غَابَ {عَنْهُمْ مَا كانوا يفترون} هـ عَلَى الله مِنْ شُرَكَاء[1].

=

أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

والثاني: ظلم العبد نفسه بالمعاصي.

كما قال تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ).

والثالث: ظلم العبد لغيره.

كما في الحديث (قال الله تعالى: إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا) رواه مسلم.

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه.

وعن ابن عمر. قال: قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه.

(١) قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [الأنعام: ٢٢].

=

=

أي: واذكر يوم نحشرهم جميعًا للحساب ، فلا يفلت منهم أحدًا.

والحشر هو: جمع الخلائق يوم القيامة لحسابهم والقضاء بينهم.

والحشر ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

يحشر كل شيء حتى البهائم ودل على حشر البهائم عدة أدلة:

أ- قوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ).

ب- قوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

ج- وحديث أبي ذر (أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟ قال: قلت: لا ، قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما) رواه أحمد.

د- وحديث (مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأوه بأظلافها). متفق عليه.

قال مجاهد:" الحشر: الموت".

قال السمرقندي:" قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا}: يوم القيامة".

قال السمعاني:" أراد به: حشر القيامة".

قال الواحدي: أي:" واذكر يوم {نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا}".

قال البغوي:" أي: العابدين والمعبودين، يعني: يوم القيامة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء المفترين على الله كذبًا، والمكذبين بآياته، لا يفلحون اليومَ في الدنيا، ولا يوم نحشرهم جميعًا- يعني: ولا في الآخرة. ففي الكلام محذوف قد استغني بذكر ما ظَهر عما حذف، وتأويل الكلام: إنه لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا، {ويوم نحشرهم جميعًا}، فقوله: {ويوم نحشرهم}، مردود على المراد في الكلام. لأنه وإن كان محذوفًا منه، فكأنه فيه، لمعرفة السامعين بمعناه".

=

=

قال البيضاوي: " {ويوم نحشرهم جميعا}، منصوب بمضمر، تهويلا للأمر".

قال الزمخشري: " {ويوم نحشرهم} ناصبه محذوف تقديره: ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف".

قوله تعالى: {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام: ٢٢].

أي: نقول للمشركين الذين أشركوا مع الله في الدنيا.

(أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) المراد من هذا الاستفهام للتوبيخ والتبكيت، أي: أين آلهتكم التي جعلتموها مع الله شريكًا لله. من صنم أو حجر أو غيرها من المعبودات.

قال السمرقندي:" يعني: أين آلهتكم {التي} تعبدون من دون الله".

قال القرطبي: "قوله تعالى (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ) سؤال إفضاح لا إفصاح".

قال السمعاني:" يعني أين الشركاء الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء الله، والزعم قول الكذب، قال ابن عباس: «الزعم الكذب في كل موضع»، وفي الآثار: «زعموا مطية الكذب» ".

قال الواحدي:" {أَيْنَ شركاؤكم} أصنامكم وآلهتكم {الذين كنتم تزعمون} أنَّها تشفع لكم وهذا سؤال توبيخ".

قال الطبري:" يقول: ثم نقول، إذا حشرنا هؤلاء المفترين على الله الكذب، بادِّعائهم له في سلطانه شريكًا، والمكذِّبين بآياته ورسله، فجمعنا جميعهم يوم القيامة: {أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون}، أنهم لكم آلهة من دون الله، افتراء وكذبًا، وتدعونهم من دونه أربابًا؟ فأتوا بهم إن كنتم صادقين!".

قال مقاتل:" وذلك أن المشركين في الآخرة لما رأوا كيف يتجاوز الله عن أهل

=

=

التوحيد فقال بعضهم لبعض إذا سئلنا قولوا: كنا موحدين فلما جمعهم الله وشركاءهم: قال لهم: {أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون} في الدنيا بأن مع الله شريكا".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرًا عن المشركين: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه".

قال السعدي:" يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم {أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون}، أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء".

قال الزمخشري:" {أين شركاؤكم}، أى: آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، وقوله: {الذين كنتم تزعمون}، معناه: تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان، وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ، ويجوز أن يشاهدوهم، إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة. فكأنهم غيب عنهم، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها، فيروا مكان خزيهم وحسرتهم".

قال البيضاوي:" {أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ}، أي: آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، {الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}، أي: تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان والمراد من الاستفهام التوبيخ، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب عنهم".

و «الزعم»:" بالضم والفتح قريبًا من «الظن»، قاله ابن الأثير ، والأصل فيه: أن يقال في الأمر الذي لا تعلم حقيقته، وفي المثل: زعموا مطية الكذب.

وقرأ يعقوب: «يقول»، بالياء.

قوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ} [الأنعام: ٢٣].

=

=

قال ابن كثير:" أي: حجتهم".

وفي معنى «الفتنة» في الآية الكريمة، أربعة أقوال:

أحدها: يعني معذرتهم، فسماها فتنة لحدوثها عن الفتنة، قاله قتادة ، ومقاتل. وهو مروي عن ابن عباس -أيضا- وهو مروي عن قتادة، وابن زيد، وبه قال أبو إسحاق الحربي وغيرهم من أهل العلم.

قال ابن الأنباري:" فالمعنى: اعتذروا بما هو مهلك لهم، وسبب لفضيحتهم".

والثاني: أنها بمعنى البلية، يعني: بَلِيَّتُهم التي ألزمتهم الحجة وزادتهم لائمة، قاله عطاء الخراساني ، وأبو عبيد القاسم بن سلام.

والثالث: أنها بمعنى الكلام والقول. وهذا قول ابن عباس ، وقتادة-في قوله الآخر - والضحاك.

والرابع: أنها بمعنى الافتتان، والمعنى: لم تكن عاقبة فتنتهم، وهو شركهم. وهذا معنى قول الزجاج، وبه قال ابن جرير، وابن كثير، وغيرهم- من أهل العلم -.

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: معناه: ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم، اعتذارًا مما سلف منهم من الشرك بالله {إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين}، فوضعت «الفتنة» موضع «القول»، لمعرفة السامعين معنى الكلام. وإنما «الفتنة»، الاختبار والابتلاء، ولكن لما كان الجواب من القوم غيرَ واقع هنالك إلا عند الاختبار، وضعت «الفتنة» التي هي الاختبار، موضع الخبر عن جوابهم ومعذرتهم".

وقال صاحب المنار: "فهم عندما يكذبون وينكرون شركهم، إما لاعتقادهم أن ما كانوا عليه ليس شركا، وإنما هو استشفاع وتوسل إلى الله بمن اختار من خلقه، وإما مكابرة وتوهما أن ذلك ينفعهم ويدرأ عنهم العذاب، عند ذلك يشهد عليهم الأنبياء المرسلون أنهم لم يكونوا متبعين فيما أحدثوا من شركهم، وإنما كان شيئا

=

=

ابتدعوه من عند أنفسهم بقياس ربهم على ملوكهم الظالمين وأمرائهم المستبدين الذين يتركون عقاب بعض المسيئين بشفاعة المقربين إليهم من بطانتهم ويقربون من لا يستحق التقريب بشفاعتهم أيضا، فإذا شهدوا عليهم تمنوا لو كانوا سويت بهم الأرض وما افتروا ذلك الكذب...".

قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]، أي:" أقسموا كاذبين بقولهم والله يا ربنا ما كنا مشركين".

قال الطبري:"يعني بقوله: {ما كنا مشركين}، ما كنا ندعو لك شريكًا، ولا ندعو سواك".

قال القرطبي:" تبرءوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين. قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فقال الله تعالى: أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يكتم حديثا، فذلك قوله: {يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا} [النساء: ٤٢]".

وقال الزجاج:" وتأويل هذه الآية تأويل حسن في اللغة لطيف لا يفهمه إلا من عرف

معاني الكلام وتصرف العرب في ذلك، والله جل وعز ذكر في هذه الأقاصيص التي جرت في أمر المشركين وهم مفتتنون بشركهم، أعلم الله أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه إلا أن تبرأوا منه وانتفوا منه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين. ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنسانا يحب غاويا، فإذا وقع في هلكة تبرأ

=

=

منه، فتقول له ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه".

قال القرطبي: تبرؤا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين.

قال ابن عباس: يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: تعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين ، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون.

فإن قيل: كيف كذبوا في الآخرة بجحود الشرك ولا يصح منهم الكذب في الآخرة لأمرين: أحدهما: أنه لا ينفعهم. والثاني: أنهم مصروفون عن القبائح ملجؤون إلى تركها لإزالة التكليف عنهم، ولو لم يلجؤوا إلى ترك القبيح ويصرفوا عنه مع كما عقولهم وجب تكليفهم ليقلعوا به عن القبيح، وفي عدم تكليفهم دليل على إلجائهم إلى تركه.

قيل: عن ذلك جوابان:

أحدهما: أن قولهم: {وَاللهِ رَبِّنَآ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}، أي: في الدنيا عند أنفسنا لاعتقادنا فيها أننا على صواب، وإن ظهر لنا خطؤه الآن، فلم يكن ذلك منهم كذبًا، قاله قطرب.

قال الزمخشري:" وأما قول من يقول: معناه: ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا، وحمل قوله: {انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الأنعام: ٢٤] ، يعنى: في الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عى وإقحام، لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمترجم عنه ولا منطبق عليه، وهو ناب عنه أشد النبو. وما أدرى ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة: ١٨]، بعد قوله: {وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [المجادلة: ١٤]، فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا".

=

=

والثاني: أن الآخرة مواطن، فموطن لا يعلمون ذلك فيه ولا يضطرون إليه، وموطن يعلمون ذلك فيه ويضطرون إليه، فقالوا ذلك في الموطن الأول، قاله بعض متأخري المتكلمين.

قال الماوردي:" وهذا ليس بصحيح لأنه يقتضي أن يكونوا في الموطن الأول مكلفين لعدم الإلجاء والاضطرار، وفي الموطن الثاني غير مكلفين، وقد يعتل الجواب الأول بقوله تعالى بعد هذه الآية: {انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ}، فأخبر عنهم بالكذب، وهم على الجواب الأول غير كاذبين، وقد أُجِيب عن هذا الاعتراض بجواب ثالث، وهو أنهم أنكروا بألسنتهم، فلما نطقت جوارحهم أقروا، وفي هذا الجواب دخل لأنه قد كذبوا نُطْقَ الجوارح".

وفي الوقت الذي يحلفونثلاثة أقوال:

أحدها: إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مسلما، قالوا: تعالوا نكابر عن شركنا، فحلفوا، قاله ابن عباس.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "أتاه رجل فقال: يا أبا عباس. سمعت الله يقول: {والله ربنا ما كنا مشركين}، قال: أما قوله: {والله ربنا ما كنا مشركين}، فإنهم إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا فلنجحد فيجحدون، فيختم على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثا. فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا وقد أنزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه".

والثاني: أنهم إذا دخلوا النار، ورأوا أهل التوحيد يخرجون والذنوب تغفر، فحلفوا واعتذروا، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد.

والثالث: أنهم إذا سئلوا: أين شركاؤكم؟ تبرؤوا، وحلفوا: ما كنا مشركين، قاله مقاتل.

=

=

وقال الضحاك، عن ابن عباس: هذه في "المنافقين المشركين، وإنما سماهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك، وأظهروا الإيمان، فقالوا وهم في النار: هلموا فلنكذب هاهنا فلعله أن ينفعنا كما نفعنا في الدنيا، فإنا كذبنا في الدنيا فنفعنا، حقنا دماءنا وأموالنا، فقالوا: يا ربنا ما كنا مشركين".

قال ابن كثير:" وفي هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة: ١٨]، وهكذا قال في حق هؤلاء: {انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} كَمَا قَالَ {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ} [غافر: ٧٣، ٧٤]".

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: {والله ربنا} بالكسر فيهما، وقرأ حمزة والكسائى: {والله ربنا} بالنصب.

قال القرطبي:" ومن نصب فعلى النداء، أي: يا ربنا، وهي قراءة حسنة، لأن فيها معنى الاستكانة والتضرع، إلا أنه فصل بين القسم وجوابه بالمنادي".

قال مجاهد:" بتكذيب الله إياهم".

عن ابن عباس قوله: "قال الله: {انظر كيف كذبوا على أنفسهم} هنا في القيامة".

قال ابن الجوزي:" أي: باعتذارهم بالباطل".

قال السمعاني:" كذبهم على أنفسهم: تبرئهم من الشرك".

قال البغوي: أي:" باعتذارهم بالباطل وتبريهم عن الشرك".

قال الطبري:" ومعنى: «النظر» في هذا الموضع، النظر بالقلب، لا النظر بالبصر. وإنما معناه: تبين فاعلم كيف كذبوا في الآخرة، وقال: {كذبوا}، ومعناه: يكذبون، لأنه لما كان الخبر قد مضى في الآية قبلها، صار كالشيء الذي قد كانَ ووُجد".

=

=

قوله تعالى: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ٢٤]، أي:" وذهب وغاب عنهم ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم".

قال الطبري:" يقول: وفارقهم الأنداد والأصنام، وتبرءوا منها، فسلكوا غير سبيلها، لأنها هلكت".

قال البغوي: أي:" زال وذهب عنهم {ما كانوا يفترون} من الأصنام، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها، فبطل كله في ذلك اليوم".

قال ابن الجوزي:" أي: ذهب ما كانوا يدعون ويختلقون من أن الاصنام شركاء لله، وشفعاؤهم في الآخرة".

قال الزمخشري: أي:" وغاب عنهم {ما كانوا يفترون}، أى: يفترون إلهيته وشفاعته".

وفي قوله تعالى: {عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ٢٤]، وجهان من التفسير:

أحدها: معناه: ما كانوا يكذبون في الدنيا. قاله ابن عباس.

والثاني: معناه: ماكانوا يشركون. قاله قتادة.

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟

قلت: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشا: ألا تراهم يقولون ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه، ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك وقد علموا أنه لا يقضى عليهم".

وقال القرطبي:" والنظر في قوله: {انظر} يراد به نظر الاعتبار، ثم قيل: كذبوا بمعنى يكذبون، فعبر عن المستقبل بالماضي، وجاز أن يكذبوا في الآخرة لأنه موضع دهش وحيرة وذهول عقل. وقيل: لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة، لأنها دار جزاء على ما كان في الدنيا- وعلى ذلك أكثر أهل النظر- وإنما ذلك في

=

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥).

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِع إلَيْك} إذَا قَرَأْت {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبهمْ أَكِنَّة} أَغْطِيَة ل {أَنْ} لَا {يَفْقَهُوهُ} يَفْهَمُوا الْقُرْآن {وَفِي آذَانهمْ وَقْرًا} صَمَمًا فَلَا يَسْمَعُونَهُ سَمَاع قَبُول {وَإِنْ يَرَوْا كُلّ آيَة لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إذَا جَاءُوك يُجَادِلُونَك يَقُول الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ} مَا {هَذَا} الْقُرْآن {إلَّا أَسَاطِير} أَكَاذِيب {الْأَوَّلِينَ} كَالْأَضَاحِيكِ

=

الدنيا، فمعنى {والله ربنا ما كنا مشركين} على هذا: ما كنا مشركين عند أنفسنا، وعلى جواز أن يكذبوا في الآخرة يعارضه قوله: {وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢]، ولا معارضة ولا تناقض، لا يكتمون الله حديثا في بعض المواطن إذا شهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بعملهم، ويكذبون على أنفسهم في بعض المواطن قبل شهادة الجوارح على ما تقدم".

قال القاسمي: (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِم) أي: بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب، بحضرة من لا ينحصر من الشهود (وَضَلَّ) أي: وكيف ضاع وغاب (عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي: من الشركاء، فلم تغن عنهم شيئًا، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم، كقوله تعالى (قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا).

فإن قال قائل: كيف قال الله: انظر كيف كذبوا على أنفسهم، والأمر لم يأت بعد؟

الجواب: أن الله يذكر الأشياء المستقبلية بصيغة الماضي لتحقق وقوعها كقوله تعالى (أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وأمر الله لم يأت بعد، وكقوله تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ).

وَالْأَعَاجِيب جَمْع أُسْطُورَة بِالضَّمِّ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} [الأنعام: ٢٥].

أي: ومن هؤلاء المشركين من يستمع لقراءتك.

قال الزمخشري: أي:" حين تتلوا القرآن".

قال ابن كثير:" أي: يجيؤوك ليسمعوا قراءتك".

قال الطبري: أي:" ومن هؤلاء العادلين بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ من قومك، يا محمدمن يستمع القرآن منك، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك، وأمره ونهيه".

قال القرطبي:" أفرد على اللفظ، يعني المشركين كفار مكة".

قال أبو عبيدة:" «من» -هاهنا- فى موضع جميع".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ} [الأنعام: ٢٥] أي: صيّرنا على قلوبهم أكنة ، والأكنة جمع كِنان ، وهو الغطاء.

قال السدي:" أما {أكنة}، فالغطاء أكن قلوبهم". قال ابن أبي حاتم:"وروي، عن مجاهد، وعطية، والضحاك، نحو ذلك".

وعن السدي ايضا:" قوله: {أن يفقهوه}: لا يفقهون الحق".

قال مقاتل:" يعني: الغطاء عن القلب لئلا يفقهوا القرآن".

قال ابن كثير:" أي: أغطية لئلا يفقهوا القرآن".

قال البغوي: أي:" أغطية أن يعلموه".

قال الطبري: أي:" ولا يفقه ما تقول ولا يُوعِيه قلبَه، ولا يتدبره، ولا يصغي له سمعه، ليتفقهه فيفهم حجج الله عليه في تنزيله الذي أنزله عليك، إنما يسمع صوتك وقراءَتك وكلامك، ولا يعقل عنك ما تقول، لأن الله قد جعل على قلبه: «أكنة»".

=

=

قال القرطبي:" أي: فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم. وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم، قوله {أن يفقهوه}، أي: يفهموه وهو في موضع نصب، المعنى كراهية أن يفهموه، أو لئلا يفهموه".

والـ«أكنة» جمع: «كنان»، وهو الغطاء، مثل: سِنان، وأسنة، يقال منه: أكننت الشيءَ في نفسي، بالألف، وكننت الشيء، إذا غطيته، ومن ذلك قوله تعالى: {بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [الصافات: ٤٩]، وهو الغطاء، ومنه قول الشاعر:

تَحْتَ عَيْنٍ، كِنَانُنَا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّل

يعني: غطاؤُهم الذي يكنُهم.

قوله تعالى: {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [الأنعام: ٢٥]، أي:" وجعلنا في آذانهم ثقلا وصممًا فلا تسمع ولا تعي شيئًا".

قال قتادة:" يسمعونه بآذانهم، ولا يعون منه شيئا، كمثل البهيمة التي تسمع النداء، وما تدري ما يقال لها".

عن السدي:" {وفي آذانهم وقرا}، قال: صمم".

قال مقاتل:" يعني: ثقلا، فلا يسمعوا، يعني: النضر".

قال القرطبي:" أي: ثقلا".

قال الطبري: أي:" وجعل في آذانهم ثِقلا وصممًا عن فهم ما تتلو عليهم، والإصغاء لما تدعوهم إليه".

قال البغوي: أي:" صمما وثقلا هذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى، ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن".

قال ابن كثير:" أي: صمما عن السماع النافع، فَهُم كما قال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً [صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا

=

=
يَعْقِلُونَ] } [البقرة: ١٧١]".

و «الوقر»: الثقل، ومنه: الوَقَار إذا ثقل في المجلس، يقال منه: وقرت أذنه -بفتح الواو- توقر وقرا أي صمت، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين، وقد وقر الله أذنه يقرها وقرا، يقال: اللهم قر أذنه. وحكى أبو زيد عن العرب: أذن موقورة على ما لم يسم فاعله، فعلى هذا: وقرت،-بضم الواو-.

و «الوقر»: الحمل، يقال منه: نخلة موقر وموقرة إذا كانت ذات ثمر كثير. ورجل ذو قرة إذا كان وقورا بفتح الواو، ويقال منه: وقر الرجل -بضم القاف- وقارا، ووقر -بفتح القاف- أيضا.

قوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا} [الأنعام: ٢٥]، أي:" وإن يروا الآيات الكثيرة الدالة على صدق محمد ﷺ لا يصدقوا بها لفرط العناد".

قال مقاتل:" يعني: انشقاق القمر، والدخان فلا يصدقوا بأنها من الله- ﷻ-".

قال ابن كثير:" أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات، لا يؤمنوا بها. فلا فَهْم عندهم ولا إنصاف، كما قال تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣]".

قال البغوي:" {وإن يروا كل آية}، من المعجزات والدلالات".

قال القرطبي:" أخبر الله تعالى بعنادهم لأنهم لما رأوا القمر منشقا قالوا: سحر، فأخبر الله ﷻ بردهم الآيات بغير حجة".

قال السمعاني:" وهذا في قوم مخصوصين، علم الله أنهم لا يؤمنون".

قال السعدي:" وهذا غاية الظلم والعناد، أن الآيات البينات الدالة على الحق، لا ينقادون لها، ولا يصدقون بها، بل يجادلون بالباطل الحق ليدحضوه".

قال ابن الجوزي: وإنما فُعلَ ذلك بهم مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم ، وليس المعنى أنهم لم يفهموه ولم يسمعوه ، ولكنهم لما عدلوا عنه ، وصرفوا فكرهم
=

=

عما عليهم في سوء العاقبة ، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع.

والله ﷻ فعل ذلك بسبب ذنوبهم وكفرهم.

كما قال تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ).

وقال تعالى (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

وقال تعالى (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ).

قال ابن القيم: أن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده، وقع في باطل مُقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده، ولا، حتى في الأعمال ، من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق ، فرغب عن العمل لمن ضَره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده ، فابتليَ بالعمل لمن لا يملك له شيئًا من ذلك وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتُليَ بإنفاقه لغير الله وهو راغم.

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا) أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات - بأبصارهم أو بقلوبهم - والحج والبينات والبراهين ، لايؤمنوا بها ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف كقوله تعالى (وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ).

فقريش كذبت بالقرآن وقالت: ساحر ، وقالت: أساطير الأولين ، وكذبت بانشقاق القمر.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنعام: ٢٥]، أي:" حتى إذا جاؤوك -أيها الرسول- بعد معاينة الآيات الدالة على صدقك يخاصمونك: يقول الذين جحدوا آيات الله: ما هذا الذي نسمع إلا ما تناقله الأولون من حكايات لا حقيقة لها".

=

=

قال الطبري:" يقول: حتى إذا صاروا إليك بعد معاينتهم الآيات الدالة على حقيقة ما جئتهم به، يخاصمونك الذين جحدوا آيات الله وأنكروا حقيقتها، يقولون لنبيِّ الله ﷺ إذا سمعوا حجج الله التي احتجَّ بها عليهم، وبيانَه الذي بيَّنه لهم: ما هذا إلا ما كتبه الأوَّلون".

قال ابن كثير:" أي يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل {يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}، أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم".

قال ابن عباس:"هم المشركون، يجادلون المسلمين في الذَّبيحة، يقولون: أما ما ذبحتم وقتلتم فتأكلون، وأما ما قتل الله فلا تأكلون! وأنتم تتَّبعون أمرَ الله تعالى ذكره".

قال الزمخشري:" المعنى: أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك. وفسر مجادلنهم بأنهم يقولون: {إن هذا إلا أساطير الأولين}، فيجعلون كلام الله وأصدق الحديث، خرافات وأكاذيب، وهي الغاية في التكذيب".

قال السعدي:" {أساطير الأولين} أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة، التي ليست عن الله، ولاعن رسله. وهذا من كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوي لأنباء السابقين واللاحقين، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون، والحق، والقسط، والعدل التام من كل وجه، أساطير الأولين؟".

وفيما كانوا يجادلون به النبي -ﷺ- قولان:

أحدهما: أنهم كانوا يجادلونه بما ذكره الله تعالى من قوله عنهم {إِنْ هَـذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}، قال الحسن.

قال مقاتل:" يجادلونك في القرآن بأنه ليس من الله".

=

=

والثاني: هو قولهم: تأكلون ما قتلتم ولا تاكلون ما قتل ربكم، قاله ابن عباس.

قال القرطبي:" مجادلتهم، قولهم: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله".

قال الماوردي:" ومعنى: {أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}، أي: أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها في كتبهم، وقيل: أنه جادلهم بهذا النضر بن الحارث".

قال البغوي:" {أساطير الأولين}، يعني: أحاديثهم وأقاصيصهم، والأساطير جمع: أسطورة، وإسطارة، وقيل: هي الترهات والأباطيل، وأصلها من سطرت، أي: كتبت".

وفي معنى «الأساطير»، قولان:

أحدهما: أنها ما سطر من أخبارهم وأحاديثهم.

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: "أساطير الأولين: كذبهم، وأحاديثهم في دهرهم".

عن السدي قوله: "{إن هذا إلا أساطير الأولين}: أساجيع الأولين".

عن قتادة: {أساطير الأولين}، أي: أحاديث الأولين وباطلهم".

وقال أبو الحسن الاخفش: "فبعضهم يزعم أن واحده: أسطورة، وبعضهم: إسطارة، ولا أراه إلا من الجمع الذي ليس له واحد نحو: عباديد ومذاكير وأبابيل".

وقال ابن قتيبة: {أساطير الأولين} أخبارهم. وما سطر منها أي كتب. ومنه قوله: {وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١]، أي: يكتبون. واحدها سطر ثم أسطار، ثم أساطير جمع الجمع، مثل: قول وأقوال وأقاويل".

والقول الثاني: أن معنى أساطير الأولين: الترهات.

قال أبو عبيدة: "«أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، واحدتها: أسطورة، وإسطارة لغة، ومجازها مجار الترّهات البسابس ليس له نظام، وليس بشئ".

=

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦).

{وَهُمْ يَنْهَوْنَ} النَّاس {عَنْهُ} عَنْ اتِّبَاع النَّبِيّ ﷺ {وَيَنْأَوْنَ} يَتَبَاعَدُونَ {عَنْهُ} فَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقِيلَ نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِب كَانَ يَنْهَى عَنْ أَذَاهُ وَلَا يُؤْمِن بِهِ {وَإِنْ} مَا {يُهْلِكُونَ} بِالنَّأْيِ عَنْهُ {إِلَّا أَنْفُسهمْ} لِأَنَّ ضَرَره عَلَيْهِمْ {وَمَا يَشْعُرُونَ} بِذَلِكَ[1].

=

قال ابن قتيبة:"وأبو عبيدة يجعل واحدها: أسطورة وإسطارة، معناها: الترهات البسابس وهو الذي لا نظام له. وليس بشيء صحيح".

وان قيل: لم عابوا القرآن بأنه أساطير الأولين، وقد سطر الأولون ما فيه علم وحكمة، وما لا عيب على قائله؟

فعنه جوابان:

أحدهما: أنهم نسبوه إلى أنه ليس بوحي من الله.

والثاني: أنهم عابوه بالإشكال والغموض، استراحة منهم إلى البهت والباطل.

فعلى الجواب الأول تكون «أساطير» من التسطير، وعلى الثاني تكون بمعنى الترهات، وقد شرحنا معنى الترهات.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت في أبي طالب، كان نهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاء به.

أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣١٥) -وعنه البيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٣٤٠، ٣٤١) -، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٤٤) من طريق محمد بن منده الأصبهاني ثنا بكر بن بكار ثنا حمزة بن حبيب عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

=

=

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: حبيب بن أبي ثابت؛ مدلس وقد عنعنه، ورواه عنه الثوري كما سيأتي؛ فقال: عمن سمع ابن عباس.

والثانية: بكر بن بكار؛ ضعيف؛ ضعفه النسائي، وابن معين، وأبو حاتم، وابن الجارود، وابن أبي حاتم وغيرهم، راجع: "الميزان" (١/ ٣٤٣ رقم ١٢٧٤)، و"اللسان" (٢/ ٤٨ رقم ١٧٨) وغيرها.

والصواب: أن حبيب لم يسمعه من سعيد؛ كذا رواه الثقة الثبت الحافظ الثوري؛ فأخرجه عبد الرزاق في "التفسير" (١/ ٢/ ٢٠٦) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١١٠)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٣٤٠) -، والطبري -أيضًا- من طريق أخرى (٧/ ١١٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٧٦، ١٢٧٧ رقم ٧١٩٩)، والحاكم (٢/ ٣١٥) -وعنه البيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٣٤٠) - من طرق عن الثوري -وهذا في "تفسيره" (١٠٦ - ١٠٧/ ٢٦٤) - عن حبيب بن أبي ثابت عمن سمع ابن عباس به.

ورواه الطبراني في "الكبير" (١٢/ ١٠٤ رقم ١٢٨٢) من طريق قيس بن الربيع عن حبيب عن ابن عباس، وهذا كما ترى شبه الموصول، وليس الأمر كذلك فقيس ضعيف لا يعادل الثوري في الحفظ، والصواب أن حبيبًا لم يسمعه، فعلته الانقطاع.

أما الحاكم، فقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وقال الذهبي: صحيح!!

وفاتهما ما ذكرنا.

وتوبع الإمام الثوري: تابعه حماد بن شعيب عن حبيب به؛ أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٥/ ١٠ - ١١/ ٨٧٤ - تكملة). وحماد ضعيف يستشهد به.

وعن القاسم بن مخيمرة؛ قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى عن النبي ﷺ أن

=

=

يؤذي ولا يصدق به.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١١٠) من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد عن القاسم به.

قلنا: وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن عطاء بن دينار؛ قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن إيذاء رسول الله ﷺ، وينأى عما جاء به من الهدى.

أخرجه الطبري (٧/ ١١٠) بسند صحيح إليه. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن سعيد بن أبي هلال؛ قال نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٧٧ رقم ٧٢٠٤): ثنا أبي ثنا هشام بن خالد ثنا الوليد عن ابن لهيعة عن خالد بن يزيد عنه به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: الإعضال. والثانية: ابن لهيعة؛ سيئ الحفظ. والثالثة: الوليد بن مسلم يدلس تدليس التسوية، وقد عنعنه.

* قوله تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [الأنعام: ٢٦].

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: نزلت في أبي طالب، كان نهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاء به.

قال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ١٣٢): حسن لغيره، أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٥) -وعنه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٤٠، ٣٤١) -، والواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٤) من طريق محمد بن منده الأصبهاني ثنا بكر بن بكار ثنا حمزة بن حبيب عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: حبيب بن أبي ثابت؛

=

=
مدلس وقد عنعنه، ورواه عنه الثوري كما سيأتي؛ فقال: عمن سمع ابن عباس. الثانية: بكر بن بكار؛ ضعيف؛ ضعفه النسائي، وابن معين، وأبو حاتم، وابن الجارود، وابن أبي حاتم وغيرهم، راجع: "الميزان" (١/ ٣٤٣ رقم ١٢٧٤)، و"اللسان" (٢/ ٤٨ رقم ١٧٨) وغيرها. والصواب: أن حبيب لم يسمعه من سعيد؛ كذا رواه الثقة الثبت الحافظ الثوري؛ فأخرجه عبد الرزاق في "التفسير" (١/ ٢/ ٢٠٦) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١١٠)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٤٠) -، والطبري -أيضًا- من طريق أخرى (٧/ ١١٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٧٦)، والحاكم (٢/ ٣١٥) -وعنه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٤٠) - من طرق عن الثوري -وهذا في "تفسيره" (١٠٦ - ١٠٧/ ٢٦٤) - عن حبيب بن أبي ثابت عمن سمع ابن عباس به. ورواه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٠٤) من طريق قيس بن الربيع عن حبيب عن ابن عباس، وهذا كما ترى شبه الموصول، وليس الأمر كذلك؛ فقيس ضعيف لا يعادل الثوري في الحفظ، والصواب أن حبيبًا لم يسمعه، فعلته الانقطاع. أما الحاكم، فقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وقال الذهبي: صحيح!! وفاتهما ما ذكرنا. وتوبع الإمام الثوري: تابعه حماد بن شعيب عن حبيب به؛ أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥/ ١٠ - ١١/ ٨٧٤ - تكملة). قلنا: وحماد ضعيف يستشهد به.

قال البغوي:" أي: ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ {وينأون عنه}، أي: يتباعدون عنه بأنفسهم، نزلت في كفار مكة".

قال الزمخشري: أي:" وهم ينهون الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه، ويثبطونهم عن الإيمان به وينأون عنه بأنفسهم فيضلون ويضلون".

قال السعدي:" وهم: أي المشركون بالله، المكذبون لرسوله، يجمعون بين
=

=

الضلال والإضلال، ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه".

قال القرطبي:" النهي الزجر، والنأي البعد، وهو عام في جميع الكفار أي ينهون عن اتباع محمد ﷺ، وينأون عنه".

وقال الحافظ في الفتح ٨/ ٢٨٧: "وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: { وهم ينهون عنه وينأون عنه } قال: يتباعدون، وكذا قال أبو عبيد: ينأون عنه: يتباعدون عنه".

وهذا القول مروي عن مجاهد، وقتادة، وبه قال أبو عبيدة معمر بن المثنى، والطبري، والزجاج، والبغوي، وابن الجوزي، وأبو حيان، وأبو السعود، والألوسي.

والعرب تقول لكل من بعد عن شيء: قد نأى عنه، فهو ينأى نَأْيًا، ومسموع منهم: نأيتُكَ، بمعنى: نأيت عنك، وأما إذا أرادوا: أبعدتُك عني، قالوا: أنأيتك. ومن: نأيتك، بمعنى: نأيتُ عنك، قول الحطيئة:

نَأَتْكَ أُمَامَةُ إلا سُؤَالا وَأَبْصَرْتَ مِنْهَا بِطَيْفٍ خَيَالا

وفي قوله تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [الأنعام: ٢٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها: يَنْهَون عن اتباع محمد -ﷺ-، ويتباعدون عنه فرارًا منه، قاله محمد ابن الحنفية ، والحسن ، والسدي ، والضحاك ، وحبيب بن ابي ثابت.

قال ابن كثير:" وهذا القول أظهر".

والثاني: يَنْهَون عن القرآن أن يُعْمَل بما فيه، ويتباعدون من سماعه كيلا يسبق إلى قلوبهم العلم بصحته، قاله مجاهد ، وقتادة.

والثالث: ينهون عن أذى محمد -ﷺ-، ويتباعدون عن اتباعه، وهذا قول ابن عباس.

=

=

وروي عن محمد بن كعب: ينهون، عن قتله".

واستشهد مقاتل بما دل على ذلك عن شعر أبي طالب السابق ، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه النبي -ﷺ-، فقال له أبو طالب: أما أن أدخل في دينك فلا، قال ابن عباس: "لسابق

القضاء في اللوح المحفوظ" ، وبه قال عطاء ، والقاسم.

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، قولُ من قال: تأويلُه: {وهم ينهون عنه}، عن إتباع محمد ﷺ مَنْ سواهم من الناس، وينأون عن اتباعه، وذلك أن الآيات قبلَها جرت بذكر جماعة المشركين العادِلين به، والخبرِ عن تكذيبهم رسولَ الله ﷺ، والإعراض عما جاءهم به من تنزيل الله ووحيه، فالواجب أن يكون قوله: {وهم ينهون عنه}، خبرًا عنهم، إذ لم يأتنا ما يدُلُّ على انصراف الخبر عنهم إلى غيرهم. بل ما قبل هذه الآية وما بعدها، يدلّ على صحة ما قلنا، من أن ذلك خبر عن جماعة مشركي قوم رسولِ الله ﷺ، دون أن يكون خبرًا عن خاصٍّ منهم".

قوله تعالى: {وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام: ٢٦].

أي: ما يهلكون بهذا الصنيع ، ولا يعود وباله إلا عليهم ، بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه وهو عذاب الضلال والإضلال.

قال القرطبي:" أي: وما يهلكون إلا أنفسهم بإصرارهم على الكفر، وحملهم أوزار الذين يصدونهم".

قال البغوي:" أي: لا يرجع وبال فعلهم إلا إليهم، وأوزار الذين يصدونهم عليهم".

قال الزمخشري: أي:" لا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله ﷺ".

=

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧).

{وَلَوْ تَرَى} يَا مُحَمَّد {إِذْ وُقِفُوا} عُرِضُوا {عَلَى النَّار فَقَالُوا يَا} لِلتَّنْبِيهِ {لَيْتَنَا نُرَدّ} إِلَى الدُّنْيَا {وَلَا نُكَذِّب بِآيَاتِ رَبّنَا وَنَكُون مِنْ الْمُؤْمِنِينَ} بِرَفْعِ الْفِعْلَيْنِ اسْتِئْنَافًا وَنَصْبهمَا فِي جَوَاب التَّمَنِّي وَرَفْع الْأَوَّل وَنَصْب الثَّانِي وَجَوَاب لو رأيت أمرا عظيما.

=

قال الطبري: " يقول: وما يهلكونَ بصدّهم عن سبيل الله، وإعراضهم عن تنزيله، وكفرهم بربهم - إلا أنفسهم لا غيرها، وذلك أنهم يكسِبُونها بفعلهم ذلك، سخط الله وأليم عقابه وما لا قِبَل لها به، وما يدرون ما هُمْ مكسبوها من الهلاك والعطب بفعلهم".

قال السعدي: أي:" ولن يضروا الله ولا عباده المؤمنين، بفعلهم هذا، شيئا".

قال ابن عاشور: "وأصل الهلاك الموت ، ويطلق على المضرّة الشديدة لأنّ الشائع بين الناس أنّ الموت أشدّ الضرّ ، فالمراد بالهلاك هنا ما يلقونه في الدنيا من القتل والمذلّة عند نصر الإسلام وفي الآخرة من العذاب. والنأي: البعد".

(وَمَا يَشْعُرُونَ) أي: لا يحسون بذلك ، ولذلك تجدهم يفتخرون بكفرهم وما هم عليه من الضلال.

وهذا غاية الضلال ، أن يرى الإنسان أنه على حق وهو على باطل ، ولذلك في الحديث (اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه).

بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨).

قال تعالى {بَلْ} لِلْإِضْرَابِ عَنْ إرَادَة الْإِيمَان الْمَفْهُوم مِنْ التَّمَنِّي {بَدَا} ظَهَرَ {لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْل} يَكْتُمُونَ بِقَوْلِهِمْ {وَاَللَّه رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} بِشَهَادَةِ جَوَارِحهمْ فَتَمَنَّوْا ذَلِكَ {وَلَوْ رُدُّوا} إلَى الدُّنْيَا فَرْضًا {لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} مِنْ الشِّرْك {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} فِي وَعْدهمْ بالإيمان(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ} [الأنعام: ٢٧]، أي:" أي لو ترى - أيها الرسول- هؤلاء المشركين يوم القيامة إذ عرضوا على النار لرأيت أمرًا عظيمًا".

قال السمعاني:" أي: دخلوا النار، والوقوف: الاطلاع على حقيقة الشيء".

قال الطبري:"أي: {ولو ترى}، يا محمد، هؤلاء العادلين بربهم الأصنامَ والأوثانَ، الجاحدين نبوّتك، الذين وصفت لك صفتهم إذ حُبِسوا في النار".

قال الواحدي:" ولو ترى: يا محمد المشركين {إذ وقفوا على النار}، أي: عاينوها ووقفوا عندها، فهم موقوفون على أن يدخلوها".

قال ابن كثير:" يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال".

قال الزمخشري:" {ولو ترى}، جوابه محذوف تقديره: ولو ترى لرأيت أمرا شنيعا، {وقفوا على النار}: أروها حتى يعاينوها".

قال القرطبي:" وجواب {لو} محذوف، ليذهب الوهم إلى كل شي فيكون أبلغ في التخويف، والمعنى: لو تراهم في تلك الحال لرأيت أسوأ حال، أو لرأيت منظرا هائلا، أو لرأيت أمرا عجبا وما كان مثل هذا التقدير".

قال البيضاوي:" {ولو ترى إذ وقفوا على النار}: جوابه محذوف، أي: لو تراهم =

=

حين يوقعون على النار حتى يعاينوها، أو يطلعون عليها، أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها لرأيت أمرا شنيعا".

قال ابن عطية:" المخاطبة فيه لمحمد ﷺ، وجواب {لو} محذوف، تقديره في آخر هذه الآية: لرأيت هؤلاء أو مشقات أو نحو هذا، وحذف جوابها في مثل هذا أبلغ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيله، ووقعت إذ في موضع إذا التي هي لما يستقبل وجاز ذلك لأن الأمر المتيقن وقوعه يعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع، و {وقفوا}، معناه: حبسوا".

قال الآلوسي: "والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من له أهلية ذلك قصدًا إلى بيان سوء حالهم وبلوغها من الشناعة إلى حيث لا يختص استغرابها دون راء".

وقال ابن عاشور: "الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام لأنّ في الخبر الواقع بعده تسلية له عمّا تضمّنه قوله (وهم ينهون عنه وينأون عنه) فإنّه ابتدأ فعقّبه بقوله (وإن يهلكون إلاّ أنفسهم) ثم أردفه بتمثيل حالهم يوم القيامة ، ويشترك مع الرسول في هذا الخطاب كلّ من يسمع هذا الخبر".

وفي تفسير قوله تعالى: {إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ} [الأنعام: ٢٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن يكونوا عاينوها.

والثاني: أن يكونوا عليها وهي تحتهم.

وفي هذا السياق قال كعب: "ترفع جهنم يوم القيامة كأنها متن إهالة وتستوي أقدام الخلائق، فينادي منادٍ: أن خذي أصحابك ودعي أصحابي، فتنخسف بهم ولهي أعرف بهم من الوالدة بولدها وتمر أولياء الله تندى ثيابهم".

والثالث: يعني: حبسوا على النار. قاله الكلبي.

والرابع: عرضوا على النار. قاله مقاتل.

الخامس: يعني: جمعوا على ابوابها. قاله الضحاك.

=

=

معناه: أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها، كما تقول في الكلام: قد وقفت على ما عند فلان، تريد قد فهمته وتبينته. قال الزجاج: وهو " الأجود".

قال الرازي: قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى) يقتضي الله جوابًا وقد حذف تفخيمًا للأمر وتعظيمًا للشأن ، وجاز حذفه لعلم المخاطب به وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر.

ولو قدرت الجواب ، كان التقدير: لرأيت سوء منقلبهم أو لرأيت سوء حالهم وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ، ألا ترى: أنك لو قلت لغلامك ، والله لئن قمت إليك وسكت عن الجواب ، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه ، من الضرب ، والقتل ، والكسر ، وعظم الخوف ولم يدر أي الأقسام تبغي.

ولو قلت: والله لئن قمت إليك لأضربنك فأتيت بالجواب ، لعلم أنك لم تبلغ شيئًا غير الضرب ولا يخطر بباله نوع من المكروه سواه ، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيرًا في حصول الخوف

في ذلك الوقت يتمنون أمنيات:

(فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ) أي: إلى الحياة الدنيا ، ليعملوا صالحًا ، وهذه الأمنية الأولى.

قال الرازي: فإن قيل: كيف يحسن منهم تمني الرد مع أنهم يعلمون أن الرد يحصل لا ألبتة.

والجواب من وجوه: الأول: لعلّهم لم يعلموا أن الرد لا يحصل.

والثاني: أنهم وإن علموا أن ذلك لا يحصل؛ إلا أن هذا العلم لا يمنع من حصول إرادة الرد كقوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النار) وكقوله (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الماء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله) فلما صح أن يريدوا هذه الأشياء مع العلم بأنها لا تحصل ، فبأن يتمنوه أقرب ، لأن باب التمني أوسع ، لأنه يصح أن يتمنى ما لا يصح أن يريد من الأمور الثلاثة الماضية.

=

=

قوله تعالى: {فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا} [الأنعام: ٢٧]، أي:" قالوا: ياليتنا نُعاد إلى الحياة الدنيا، فنصدق بآيات الله ونعمل بها".

قال مقاتل:" يعني: كفار قريش هؤلاء الرؤساء تمنوا فقالوا: {يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا}، يعني: القرآن بأنه من الله".

قال الطبري:" فقال هؤلاء المشركون بربهم، إذ حُبسوا في النار: {يا ليتنا نردّ}، إلى الدنيا حتى نتوب ونراجعَ طاعة الله، ولا نكذّب بحجج ربنا ولا نجحدها، ونكون من المصدّقين بالله وحججه ورسله، متَّبعي أمره ونهيه".

قال الزجاج:" المعنى: يا ليتنا نرد، ونحن لا نكذب، بآيات ربنا رددنا أم لم نرد".

قال ابن كثير:" يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملا صالحا، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين".

قال الزمخشري:" {يا ليتنا نرد}: تم تمنيهم. ثم ابتدءوا: {ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين}، واعدين الإيمان، كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات.

وشبهه سيبويه بقولهم: «دعني ولا أعود، بمعنى دعني وأنا لا أعود، تركتني أو لم تتركني».

ويجوز أن يكون معطوفا على: {نرد}، أو حالا على معنى: يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين، فيدخل تحت حكم التمني.

فإن قلت: يدفع ذلك قوله وإنهم لكاذبون لأن المتمنى لا يكون كاذبا.

قلت: هذا تمن قد تضمن معنى العدة، فجاز أن يتعلق به التكذيب، كما يقول الرجل: ليت الله يرزقني مالا فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك، فهذا متمن في معنى الواعد، فلو رزق مالا ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب، كأنه قال: إن رزقني الله مالا كافأتك على الإحسان".

=

=
قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائى وعاصم فى رواية أبى بكر: {ولا نكذب}، {ونكون} جميعا بالرفع، وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم فى رواية حفص {ولا نكذب}، {ونكون} بنصبهما ، هذه رواية ابن ذكوان عن أصحابه عن ابن عامر، وقال هشام بن عمار بإسناده عن ابن عامر {ولا نكذب} رفعا، {ونكون} نصبا.

قوله تعالى: {وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام: ٢٧]، أي:"ونكون من المؤمنين بالله إِيمانًا صادقا".

قال مقاتل:" يعني: المصدقين بالقرآن".

قال الزجاج:" أي: قد عاينا وشاهدنا ما لا نكذب معه أبدا".

قال الواحدي:" يتمنون الرد [إلى الدنيا]، لكي يؤمنوا ويصدقوا".

قال ابن عباس:" ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا".

قوله تعالى: {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ} [الأنعام: ٢٨].

قال الطبري:" يقول: بل بدا لهم ما كانوا يخفون من أعمالهم السيئة التي كانوا يخفونها"من قبل ذلك في الدنيا، فظهرت".

قال السمعاني:" أي: ظهر لهم ما أخفوا من قبل من تبرئهم عن الشرك بقولهم: {والله ربنا ما كنا مشركين}؛ وذلك أنهم إذا قالوا ذلك؛ يختم الله على أفواههم، وتنطق جوارحهم بشركهم؛ فيبدو لهم ما كانوا يخفون من قبل".

قال الزمخشري: أي: {ماكانوا يخفون} " من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم، فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجرا، لا أنهم عازمون على أنهم لو ردوا لآمنوا. وقيل: هوفي المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه.
=

=

وقيل: هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله ﷺ".

قال البغوي:" {بل} تحته رد لقولهم، أي: ليس الأمر على ما قالوا إنهم لو ردوا لآمنوا، بل بدا لهم، ظهر لهم، {ما كانوا يخفون} يسرون، {من قبل} في الدنيا من كفرهمومعاصيهم، وقيل: ما كانوا يخفون وهو قولهم "والله ربنا ما كنا مشركين" (الأنعام، ٢٣)، فأخفوا شركهم وكتموا حتى شهدت عليهم جوارحهم بما كتموا وستروا، لأنهم كانوا لا يخفون كفرهم في الدنيا، إلا أن تجعل الآية في المنافقين".

وعن قتادة في قوله:" {بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل}، قال: من أعمالهم".

قال ابن عاشور:"... أي خطر لهم حينئذ ذلك المخاطر الذي كانوا يخفونه، أي الذي كان يبدو لهم، أي يخطر ببالهم وقوعه فلا يعلنون به فبدا لهم الآن فأعلنوا به وصرحوا معترفين به. ففي الكلام احتباك، تقديره: بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه. وذلك أنهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة والأنفة من الاعتراف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم، وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم ،... وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِين) وهذا التفسير يغني عن الاحتمالات التي تحير فيها المفسرون وهي لا تلائم نظم الآية، فبعضها يساعده صدرها وبعضها يساعده عجزها وليس فيها ما يساعده جميعها.

ومعنى الإضراب (بَلْ بَدَا لَهُمْ...) فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان ، بل خوفًا من العذاب الذي عاينوه ، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار".

وفي قوله تعالى: {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ} [الأنعام: ٢٨]، وجوه:

=

=

أحدها: بدا لهم وبال ما كانوا يخفون.

قال المبرد:" قال المبرد: بدا لهم جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه".

والثاني: بدا لهم ما كان يخفيه بعضهم عن بعض، قاله الحسن.

وعليه فإن:" المراد الكفار وكانوا إذا وعظهم النبي ﷺ خافوا وأخفوا ذلك الخوف لئلا يفطن بهم ضعفاؤهم، فيظهر يوم القيامة".

والثالث: بدا للأتباع مما كان يخفيه الرؤساءعنهم من أمر البعث والقيامة، لأن بعده:: {وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين}.

والرابع: بدت لهم أعمالهم في الآخرة، التي أخفوها في الدنيا. قاله السدي.

والخامس: ظهر لهم ما كانوا يجحدونه من الشرك فيقولون: {والله ربنا ما كنا مشركين}، فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر فذلك حين {بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل}. قاله أبو روق.

والسادس: وقيل: {بدا لهم} ما كانوا يكتمونه من الكفر، أي بدت أعمالهم السيئة كما قال: {وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون} [الزمر: ٤٧].

قال ابن كثير: المعنى:" بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها، في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ}.

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبرًا عن موسى أنه قال لفرعون: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ} الآية [الإسراء: ١٠٢]. قال تعالى مخبرًا عن فرعون وقومه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: ١٤].

=

=

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخبارا عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت، فقال: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون إخبارًا عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب يظهر لهم حينئذغب ما كانوا يبطنون من الكفر والشقاق والنفاق.

وأما معنى الإضراب في قوله: {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ} فَهُم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفا من العذاب الذي عاينوه جزاء ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار".

قوله تعالى: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام: ٢٨]، أي:" ولو فرض أن أعيدوا إلى الدنيا فأمهلوا لرجعوا إلى العناد بالكفر والتكذيب".

قال قتادة:" يقول: ولو وصل الله لهم دُنيا كدنياهم، لعادوا إلى أعمالهم أعمالِ السوء".

قال ابن عباس:" فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى، وقال: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون}".

قال الطبري:" يقول: ولو ردّوا إلى الدنيا فأمْهلوا، لرجعوا إلى مثل العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا قبل ذلك، من جحود آيات الله، والكفر به، والعمل بما يسخط عليهم ربِّهم".

قال الماوردي:" يعني: ولو ردوا إلى ما تمنوا من الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر".

قال السمعاني:" أي: ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر، والشرك بالله".

=

=

قال الزمخشري:" {ولو ردوا إلى الدنيا} بعد وقوفهم على النار، {لعادوا لما نهوا عنه} من الكفر والمعاصي".

قال القرطبي:" أي: لصاروا ورجعوا إلى ما نهوا عنه من الشرك لعلم الله تعالى فيهم أنهم لا يؤمنون، وقد عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: ٢٨]، أي:" وإنهم لكاذبون في قولهم: لو رددنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا، وكنا من المؤمنين".

قال النسفي: أي:"فيما وعدوا من أنفسهم لا يوفون به".

قال الطبري: أي:"في قيلهم: {لو رددنا لم نكذب بآيات ربّنا وكنا من المؤمنين}، لأنهم قالوه حين قالوه خشية العذاب، لا إيمانًا بالله".

قال ابن كثير:" أي: في تمنيهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان".

قال الزمخشري: أي:" فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: ٢٨]، وجهان:

أحدهما: أنه خبر مستأنف أخبر الله به عن كذبهم لا أنه عائد إلى ما تقدم من تمنّيهم، لعدم الصدق والكذب في التمنِّي.

والثاني: {إِنَّهُمْ لَكَاذِبونَ}، يعني: في الإخبار عن أنفسهم بالإيمان إن رُدُّوا.

قال القرطبي:"قوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}:إخبار عنهم، وحكاية عن الحال التي كانوا عليها في الدنيا من تكذيبهم الرسل، وإنكارهم البعث، كما قال: {وإن ربك ليحكم} [النحل: ١٢٤]، فجعله حكاية عن الحال الآتية".

وهذه الآية تدل على أن الله جل وعلا الذي أحاط علمه بكل موجود ومعدوم ، يعلم المعدوم الذي سبق في الأزل أنه لا يكون لو وجد كيف يكون ، لأنه يعلم أن رد الكفار يوم القيامة إلى الدنيا مرة أخرى لا يكون ، ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع كيف يكون ، وهذا المعنى جاء مصرحًا به في آيات ، فمن ذلك أنه

=

وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩).

{وَقَالُوا} أَيْ مُنْكِرُو الْبَعْث {إنْ} مَا {هِيَ} أي الحياة {إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين}(١).

=

تعالى سبق في علمه أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لا يخرجون إليها معه ﷺ، والله ثبطهم عنها لحكمة، كما صرح به في قوله (ولَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ) وهو يعلم هذا الخروج الذي لا يكون لو وقع كيف يكون، كما صرح به تعالى في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا).

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} [الأنعام: ٢٩]، أي:"وقال هؤلاء المشركون المنكرون للبعث: ما الحياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها".

قال ابن كثير:"أي: لعادوا لما نهوا عنه، إنهم لكاذبون ولقالوا: {إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا} أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا معاد بعدها".

قال السعدي:"أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا إلا الحياة الدنيا وحدها".

قال السمرقندي:" {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا}،يعني: ما هي إلا آجالنا تنقضي في الدنيا، فيموت الآباء، ويجيء الأبناء".

قال الزمخشري:" {وقالوا}، عطف على {لعادوا}، أى: ولو ردوا لكفروا ولقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة، ويجوز أن يعطف على قوله: {وإنهم لكاذبون}، على معنى: وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء، وهم الذين قالوا: {إن هي إلا حياتنا الدنيا}، وكفى به دليلا على كذبهم".

وفي قوله تعالى: {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} [الأنعام: ٢٩]، ثلاثة وجوه:

أحدها: حكاية قولهم، لو ردوا لقالوا.

قال أصبغ بن الفرج: "سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول في قوله: {ولو

=

=

ردوا لعادوا لما نهوا عنه}، قال: وقالوا- حين يردون-: {إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين}".

والثاني: -وهو قول الجمهور-أن قوله: {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} إخبار عن منكري البعثأنهم كذلك كانوا يقولون في الدنيا.

والثالث: وهو الجمع بين القولين، فيقال: لما كان ديدنهم في الدنيا هو الكذب بالآخرة الذي كانوا يعبرون عنه بتلك المقولة: {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} فإنهم لوردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ديدنهم ذلك ولقالوا نفس المقولة.

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [الأنعام: ٢٩]، أي:"وما نحن بمبعوثين بعد موتنا".

قال السمرقندي: يعني: "بعد الموت".

قال القاسمي:"أي: بعد مفارقتنا هذه الحياة".

قال السمعاني:"هذا في إنكارهم البعث والقيامة".

قال الزجاج:"فأنكروا البعث ليجرئوا عنى المعاصي".

قال الطبري:"وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين، العادلين به الأوثان والأصنام، الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عنهم، يخبر عنهم أنهم ينكرون أنّ الله يُحيي خلقه بعد أن يُميتهم، ويقولون: لا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور بعد الفناء، فهم بجحودهم ذلك، وإنكارهم ثوابَ الله وعقابَه في الدار الآخرة، لا يبالون ما أتوا وما ركبوا من إثم ومعصية، لأنهم لا يرجون ثوابًا على إيمان بالله وتصديق برسوله وعملٍ صالح بعد موت، ولا يخافون عقابًا على كفرهم بالله ورسوله وسيّئٍ من عمل يعملونه".

قال البغوي:"هذا إخبار عن إنكارهم البعث، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، هذا من قولهم لو ردوا لقالوه".

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠).

{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا} عُرِضُوا {عَلَى رَبِّهِمْ} لَرَأَيْت أَمْرًا عَظِيمًا {قَالَ} لَهُمْ عَلَى لِسَان الْمَلَائِكَة تَوْبِيخًا {أَلَيْسَ هَذَا} الْبَعْث وَالْحِسَاب {بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبّنَا} إنَّهُ لَحَقّ {قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} بِهِ فِي الدُّنْيَا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ} [الأنعام: ٣٠]، أي:"ولو ترى - أيها الرسول- منكري البعث إذ حُبسوا بين يدي الله تعالى لقضائه فيهم يوم القيامة، لرأيت أسوأ حال".

والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يتوجه له الخطاب.

والاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي: أليس هذا البعث الذي كنتم تنكرونه وتجحدونه؟

قال مقاتل:"يعني: عرضوا على ربهم".

قال البغوي:"أي: على حكمه وقضائه ومسألته".

قال ابن كثير:"أي: أوقفوا بين يديه".

قال السمرقندي:"يعني: عرضوا وسيقوا وحبسوا عند ربهم وعند عذاب ربهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {لو ترى}، يا محمد، هؤلاء القائلين: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين {إذ} حبسوا، يوم القيامةعلى حكم الله وقضائه فيهم".

قال الزمخشري:" {وقفوا على ربهم}: مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه. وقيل: وقفوا على جزاء ربهم. وقيل عرفوه حق التعريف".

قوله تعالى: {قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ} [الأنعام: ٣٠]، أي:"إذ يقول الله جل وعلا =

=

أليس هذا بالحق، أي: أليس هذا البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقًّا؟".

قال الطبري:"فقيل لهم: أليس هذا البعثُ والنشر بعد الممات الذي كنتم تنكرونَه في الدنيا، حقًّا؟".

قال السمرقندي:"يعني: العذاب والبعث بالحق".

قال ابن كثير:"أي: أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون؟".

قال البغوي:"تقول لهم الخزنة بأمر الله، {أليس هذا بالحق}؟ يعني: أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟".

قال السمعاني:"وذلك حين تكشف لهم الغيوب والسرائر".

قال الزمخشري:" {قال}: مردود على قول قائل قال: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ فقيل: قال أليس هذا بالحق، وهذا تعيين من الله تعالى لهم على التكذيب، وقولهم- لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء-: ما هو بحق وما هو إلا باطل".

قوله تعالى: {قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا} [الأنعام: ٣٠]، أي:"قالوا: بلى وربنا إنه لحق".

قال الطبري:"فأجابوا، فقالوا: بلى والله إنه لحقّ".

قال السمرقندي:"أقروا في وقت لا ينفعهم الإقرار".

قال ابن عباس: "هذا في موقف، وقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين في موقف آخر، وفي القيامة مواقف، ففي موقف يقرون، وفي موقف ينكرون".

قوله تعالى: {قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنعام: ٣٠]، أي:"قال الله تعالى: فذوقوا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا بسبب جحودكم بالله تعالى ورسوله محمد ﷺ".

قال الطبري:"فقال الله تعالى ذكره لهم: فذوقوا العذاب الذي كنتم به في الدنيا تكذبون، بتكذيبكم به وجحودكموه الذي كان منكم في الدنيا".

=

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١).

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله} بِالْبَعْثِ {حَتَّى} غَايَة لِلتَّكْذِيبِ {إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَة} الْقِيَامَة {بَغْتَة} فَجْأَة {قَالُوا يَا حَسْرَتنَا} هِيَ شِدَّة التَّأَلُّم وَنِدَاؤُهَا مَجَاز أَيْ هَذَا أَوَانك فَاحْضُرِي {عَلَى مَا فَرَّطْنَا} قَصَّرْنَا {فِيهَا} أَيْ الدُّنْيَا {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارهمْ عَلَى ظُهُورهمْ} بِأَنْ تَأْتِيهِمْ عِنْد الْبَعْث فِي أَقْبَح شَيْء صُورَة وَأَنْتَنه رِيحًا فَتَرْكَبهُمْ {أَلَا سَاءَ} بِئْسَ {مَا يَزِرُونَ} يَحْمِلُونَهُ حَمْلهمْ ذَلِكَ[1].

=

قال ابن كثير:"أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مَسّه، {أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ} [الطور: ١٥]".

قال الثعلبي:"أي: بكفركم".

قال الزمخشري: أي:"بكفركم بلقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، وقد حقق الكلام فيه في مواضع أخر".

قال مقاتل: {تكذبون} "بالعذاب بأنه غير كائن نظيرها في الأحقاف ".

(١) قوله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ} [الأنعام: ٣١].

أي: لقد خسر هؤلاء الكفار المكذبون بالبعث، فالمراد بلقاء الله: أي: البعث.

وأصل الخسران في لغة العرب: هو نقصان مال التاجر ، سواء كان نقصًا في ربح المال ، أو نقصًا في رأس المال ، واصطلاحًا: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه ، لأن الإنسان إذا غُبن في حظوظه من ربه فقد خسر خسرانًا مبينًا.

قال مقاتل:"يعني: بالبعث".

=

=

قال الطبري:"قد هلك ووُكس، في بيعهم الإيمان بالكفر، الذين أنكروا البعثَ بعد الممات، والثواب والعقابَ، والجنةَ والنارَ، من مشركي قريش ومَنْ سلك سبيلهم في ذلك".

قال البغوي:"أي: خسروا أنفسهم بتكذيبهم المصير إلى الله بالبعث بعد الموت".

عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: "يلقى العبد يوم القيامة، فيقول: أي فل. ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع، فظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني".

قال ابن الجوزى: "قوله تعالى (قد خسر الذين كذَّبوا بلقاء الله) إنما وُصِفُوا بالخسران ، لأنهم باعوا الإيمان بالكفر ، فعظم خسرانهم ، والمراد بلقاء الله: البعث والجزاء؛ والساعة: القيامة؛ والبغتة: الفجأة".

قال الزجاج: "كلُّ ما أتى فجأة فقد بغت ، يقال قد بغته الأمر يَبْغَتُه بَغْتًا وبغتةً: إذا أتاه فجأة".

(حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ) أي: القيامة ، وسبق لماذا سميت بذلك.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} [الأنعام: ٣١]، أي:"حتى إِذا جاءتهم القيامة فجأةً من غير أن يعرفوا وقتها".

قال مقاتل:"يعني: يوم القيامة فجأة".

قال الطبري:"يقول: حتى إذا جاءتهم السَّاعة التي يَبْعث الله فيها الموتى من قبورهم".

قال البغوي:" {الساعة} أي: القيامة، {بغتة} أي: فجأة".

والمراد بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، وسميت بذلك لسرعة الحساب فيها ، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة ، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة.

والساعة تطلق على ثلاثة معان:

=

=

الساعة الصغرى: وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد قامت قيامته ، لدخوله في عالم الآخرة.

والساعة الوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد ، ويؤيد ذلك ما روته عائشة قالت (كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم ، فقال: إن يعش هذا لم يدركه الهرم ، قامت عليكم ساعتكم) رواه مسلم. أي: موتهم ، والمراد ساعة المخاطبين.

والساعة الكبرى: وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

وإذا أطلقت الساعة في القرآن ، فالمراد بها القيامة الكبرى كقوله تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).

قال الزمخشري:" و {حتى} غاية لـ «كذبوا» لا لـ «خسر»، لأن خسرانهم لا غاية له. أى: ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة.

فإن قلت: أما يتحسرون عند موتهم؟ قلت: لما كان الموت وقوعا في أحوال الآخرة ومقدماتها، جعل من جنس الساعة وسمى باسمها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» ، أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة. {بغتة}: فجأة وانتصابها على الحال بمعنى: باغتة، أو على المصدركأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة".

قال الزجاج:"كل ما جاء فجاءة، فقد بغت، يقال: قد بغته الأمر يبغته بغتا وبغتة، إذا أتاه

فجاءة. قال الشاعر:

ولكنهم ماتوا ولم أخش بغتةوأفظع شيء حين يفجؤك البغت"

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه

=

=

يلوكها ولا يسيغها ولا يلفظها، وعلى رجلين قد نشرا بينهما ثوبا يتبايعانه، فلا يطويانه ولا يبتاعانه".

قال عكرمة:"لا تقوم الساعة حتى ينادي مناد: يا أيها الناس. أتتكم الساعة، أتتكم الساعة، أتتكم الساعة. ثلاثا".

قوله تعالى: {قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} [الأنعام: ٣١]، أي:"قالوا يا ندامتنا عليما قصَّرنا وضيّعنا في الدنيا من صالح الأعمال".

قال مقاتل:"يعني: كفار قريش، {على ما فرطنا فيها}،: يا ندامتنا على ما ضيعنا في الدنيا من ذكر الله".

قال السدي:"أمّا {يا حسرتنا}، فندامتنا، {على ما فرطنا فيها}، فضيعنا من عمل الجنة".

عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله: {يا حسرتنا}، قال:"يرى أهلُ النار منازلهم من الجنة فيقولون: {يا حسرتنا}".

عن ابن عباس في قوله:" {يا حسرة}، قال: الندامة".

عن مجاهد: "{يا حسرة}، قال: كانت عليهم حسرة استهزاؤهم بالرسل".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وُكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم منازلهم من الجنة بمنازل من اشتروا منازله من أهل الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعة بغتةً قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا، وتبيَّنوا خسارة صفقة بَيْعهم التي سلفت منهم في الدنيا، تندُّمًا وتلهُّفًا على عظيم الغَبْن الذي غبنوه أنفسهم، وجليلِ الخسران الذي لا خسرانَ أجلَّ منه، {يا حسرتنا على ما فرطنا فيها}، يقول: يا ندامتنا على ما ضيّعنا فيها، يعني: صفقتهم تلك".

قال البغوي: أي:" [يا] ندامتنا، ذكر على وجه النداء للمبالغة، وقال سيبويه: كأنه يقول: أيتها الحسرة هذا أوانك، {على ما فرطنا} أي: قصرنا {فيها} أي: في

=

=

الطاعة، وقيل: تركنا في الدنيا من عمل الآخرة".

قوله {فَرَّطْنَا فِيهَا} قيل: الضمير يعود على الدنيا ، أي: على ما فرطنا في حياتنا.

ورجحه ابن جزي حيث قال: الضمير فيها للحياة الدنيا لأن المعنى يقتضي ذلك وإن لم يجر لها ذكر ، وقيل: الساعة أي فرطنا في شأنها ، والاستعداد لها ، والأول أظهر.

وقيل: الضمير يعود على الساعة ، أي: على الاعتداد بها والتصديق بها ، لأنها أقرب مذكور.

وقيل: يعود على الصفقة ، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر والدنيا بالآخرة ، فالخسران لا يكون إلا في صفقة.

قال الطَّبري: (الهاء) راجعة إلى الصَّفْقة ، وذلك أنهم لما تَبيّن لهم خسران صَفْقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر ، والآخرة بالدنيا ، (قَالُوا يا حسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) أي في الصَّفْقة ، وترك ذكرها لدلالة الكلام عليها؛ لأن الخسران لا يكون إلا في صفْقة بيع؛ دليله قوله (فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ).

والراجح القول الأول ، وأن الضمير يعود إلى الحياة الدنيا.

أ-أن التفريط هو التقصير والتضييع بترك العمل الصالح النافع في الدار الآخرة ، وهذا بدلالة العقل إنما يكون في الحياة الدنيا.

ب-ويؤيد هذا الوجه آيات قرآنية:

كقوله تعالى (على ما فرطت في جنب الله).

وقوله تعالى (يقول يا ليتني قدمت لحياتي).

وقوله تعالى (لعلي أعمل صالحًا فيما تركت).

ج- أنه المتبادر إلى الذهن.

د- والسياق يدل عليه ، فإن الآيات في ذكر الحياة الدنيا سباقًا كقوله (وقالوا إن هي

=

=

إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) ولحاقًا كقوله تعالى (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو).

قال ابن كثير: {فَرَّطْنَا فِيهَا} "وهذا الضمير يحتمل عَوْدُه على الحياة الدنيا، وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أي: في أمرها".

قال الزجاج:"وتأويل: «يا حسرتاه»: انتبهوا على أننا قد خسرنا، وهذا مثله في الكلام في أنك أدخلت عليه يا للتنبيه، وأنت تريد الناس قولك: لا أرينك ههنا، فلفظك لفظ الناهي نفسه، ولكنه لما علم أن الإنسان لا

يحتاج أن يلفظ بنهي نفسه دخل المخاطب في النهي فصار المعنى: لا تكونن ههنا، فإنك إذا كنت رأيتك، وكذلك {يا حسرتنا}، قد علم أن الحسرة لا تدعى، فوقع التنبيه للمخاطبين، ومعنى: {فرطنا فيها}، قدمنا العجز".

قوله تعالى: {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ} [الأنعام: ٣١]، أي:"وهم يحملون آثامهم على ظهورهم".

قال الزجاج:"أي: يحملون ثقل ذنوبهم، وهذا مثل. جائز أن يكون جعل ما ينالهممن العذاب بمنزلة أثقل ما يحمل، لأن الثقل قد يستعمل في الوزر، وفيالحال، فتقول في الحال قد ثقل على خطاب فلان، تأويله قد كرهت خطابهكراهة اشتدت علي، فتأويل الوزر الثقل من هذه الجهة، واشتقاقه من الوزر، وهو الجبل الذي يعتصم به الملك والنبي، أي يعينه، ومنه قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا} [الفرقان: ٣٥]، سأل موسى ربه أن يجعل أخاه وزيرا له".

قال الزمخشري:" {يحملون أوزارهم على ظهورهم}، كقوله: {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم} [الشورى: ٣٠]، لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور، كما ألف الكسب بالأيدى".

=

=

قال ابن عطية:" «الأوزار»: جمع: وزر- بكسر الواو- وهو الثقل من الذنوب، تقول: منه وزر يزر إذا حمل، قال الله تعالى: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} [الأنعام: ١٦٤]، وتقول: وزر الرجل فهو موزور، قال أبو عبيد والعامة مازور، وأما إذا اقترن ذلك بما جوز فإن العرب تقول: مأزور... قال أبو علي وغيره فهذا للإتباع اللفظي، والوزر هنا: تجوز وتشبيه بثقل الأحمال، وقوى التشبيه بأن جعله على الظهور إذ هو في العادة موضع حمل الأثقال، ومن قال إنه من الوزر وهو الجبل الذي يلجأ إليه ومنه الوزير وهو المعين فهي مقالة غير بينة، وقال الطبري وغيره هذا على جهة الحقيقة".

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تأتي الإبل على صاحبها على خير ما كانت، إذا هو لم يعط فيها حقها، تطؤه بأخفافها، وتأتي الغنم على صاحبها على خير ما كانت إذا لم يعط فيها حقها، تطؤه بأظلافها، وتنطحه بقرونها»، وقال: «ومن حقها أن تحلب على الماء» قال: "ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يعار، فيقول: يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد بلغت، ولا يأتي ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول: يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا، قد بلغت".

وفي الصحيحين عن عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنع أنه قال: (أن رسول الله ﷺ استعمل عاملا، فجاءه العامل حين فرغ من عمله، فقال: يا رسول الله، هذا لكم وهذا أهدي لي. فقال له: «أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك، فنظرت أيهدى لك أم لا؟» ثم قام رسول الله ﷺ عشية بعد الصلاة، فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: "أما بعد، فما بال العامل نستعمله، فيأتينا فيقول: هذا من عملكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر: هل يهدى له أم لا، فوالذي نفس محمد بيده، لا يغل أحدكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن

=

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

=

كان بعيرا جاء به له رغاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تيعر، فقد بلغت " فقال أبو حميد: ثم رفع رسول الله ﷺ يده، حتى إنا لننظر إلى عفرة إبطيه).

قوله تعالى: {أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [الأنعام: ٣١]، أي:"فما أسوأ الأحمال الثقيلة السيئة التي يحملونها!".

قال قتادة:"ساء ما يعملون".

قال ابن كثير:"أي: يحملون".

قال ابن ابي زمنين:"أي: بئس ما يحملون".

قال الزجاج:"أي: بئس الشيء شيئا، أي: يحملونه".

قال الطبري:"يعني: ألا ساء الوزر الذي يزرون، أي: الإثم الذي يأثمونه بربهم".

قال الزجاج:"أي: بئس الشيء شيئا أي يحملونه، وقد فسرنا عمل نعم وبئس فيمامضى من الكتاب، وكذلك {سَاءَ مَثَلًا الْقَوْم} [الأعراف: ١٧٧]، أي: مثل القوم".

قال ابن عطية:" {أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} :إخبار عن سوء ما يأثمون مضمن التعظيم لذلك والإشادة به، وهذا كقول النبي -ﷺ-: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب» ، وقوله ألا هل بلغت، فإنما أراد الإشادة والتشهير وهذا كله يتضمنه ألا، وأما ساء ما يزرون فهو خبر مجرد كقول الشاعر:

رضيت خطة خسف غير طائلة فساء هذا رضى يا قيس غيلانا

و «ساء»: فعل ماض وما فاعلة به كما تقول: ساءني أمر كذا، ويحتمل أن تجري ساء هنا مجرى بئس، ويقدر لها ما يقدر ل «بئس» إذ قد جاء في كتاب الله ساء مثلا القوم [الأعراف: ١٧٧]".

(٣٢).

{وَمَا الْحَيَاة الدُّنْيَا} أَيْ الِاشْتِغَال بِهَا {إِلَّا لَعِب وَلَهْو} وَأَمَّا الطَّاعَة وَمَا يُعِين عَلَيْهَا فَمِنْ أُمُور الْآخِرَة {وَلَلدَّار الْآخِرَة} وَفِي قِرَاءَة وَلَدَار الْآخِرَة أَيْ الْجَنَّة {خَيْر لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} الشِّرْك {أَفَلَا يَعْقِلُونَ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء ذَلِكَ فَيُؤْمِنُونَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [الأنعام: ٣٢] أي: ما الحياة الدنيا إلا مجرد لعب ولهو، لعب بالأبدان والجوارح، ولهو وغفلة بالقلوب.

قوله تعالى (الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) هي هذه الحيلة التي نعيشها التي قبل الآخرة، وسميت لدنيا لسببين:

السبب الأول: لأنها قبل الآخرة في الزمن.

السبب الثاني: لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة. كما قال تعالى (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) وقال تعالى (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء) رواه الترمذي، وقال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري.

(وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) أي: والدار الآخرة وما فيها من النعيم خير لعباد الله المتقين من الدنيا دار الفناء والزوال.

كما قال تعالى (والآخرة خير وأبقى).

وقال تعالى (وللآخرة خير لك من الأولى).

وقال تعالى (وللدار الآخرة خير للذين يتقون).

سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا.

قال البغوي: أي:"باطل وغرور لا بقاء لها".

قال ابن كثير:"أي: إنما غالبها كذلك".

=

=

قال الواحدي:"لأنَّها تفنى وتنقضي كاللَّهو واللَّعب تكون لذَّةً فانيةً عن قريبٍ".

قال السمرقندي:"يعني: لعب كلعب الصبيان يبنون بنيانا، ثم يهدمونه، ويلعبون ويلهون ويبنون ما لا يسكنون. كذلك أهل الدنيا يجمعون ما لا يأكلون، ويبنون ما لا يسكنون ويأملون ما لا يدركون".

قال ابن ابي زمنين:"أي: أن أهل الدنيا أهل لعب ولهو".

قال الثعلبي: أي:"باطل وغرور لا يبقى، وهذا تكذيب من الله للكفار في قولهم ما هي إلا حياتنا الدنيا الآية وللدار الآخرة".

قال الطبري:"وهذا تكذيب من الله تعالى ذكره هؤلاء الكفارَ المنكرين البعثَ بعد الممات في قولهم: {إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [سورة المائدة: ٢٩]، يقول تعالى ذكره، مكذبًا لهم في قبلهم ذلك: {ما الحياة الدنيا}، أيها الناس {إلا لعب ولهو}، يقول: ما باغي لذاتِ الحياة التي أدْنيت لكم وقرّبت منكم في داركم هذه، ونعيمَها وسرورَها، فيها، والمتلذذُ بها، والمنافسُ عليها، إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذِ فيها بملاذّها، أو تأتيه الأيام بفجائعها وصروفها، فَتُمِرُّ عليه وتكدُر، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا، ويُورثه منه تَرحًا. يقول: لا تغتروا، أيها الناس، بها، فإن المغتر بها عمّا قليل يندم".

قال الزمخشري:"جعل أعمال الدنيا لعبا ولهوا واشتغالا بما لا يعنى ولا يعقب منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة".

عن مجاهد قال: "«اللهو» هو: الطبل".

قوله تعالى: {وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأنعام: ٣٢]، أي:" ولدّار الآخرة وما فيها من انواع النعيم خير للذين يخشون الله، فيتقون عذابه بطاعته واجتناب معاصيه".

=

=

عن ابن عباس قوله: "{وللدار الآخرة خير}، يقول: باقية".

عن عكرمة قوله: "{وللدار الآخرة}، يقول: الجنة".

قال السمرقندي:"يعني: الجنة خير للذين يتقون الشرك والفواحش".

قال الطبري:"يقول: وللعمل بطاعته، والاستعدادُ للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تَبقى منافعها لأهلها، ويدوم سرورُ أهلها فيها، خيرٌ من الدار التي تفنى وشيكًا، فلا يبقى لعمالها فيها سرور، ولا يدوم لهم فيها نعيمللذين يخشون الله فيتقونه بطاعته واجتناب معاصيه، والمسارعة إلى رضاه".

قال الزمخشري:"قوله {للذين يتقون}، دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو".

وفي قوله تعالى: {وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأنعام: ٣٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: وما أمر الدنيا والعمل لها إلا لعب ولهو، فأما عمل الصالحات فيها فهو من عمل الآخرة، فخرج من أن يكون لعبًا ولهوًا.

والثاني: وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو لاشتغالهم بها عما هو أولى منها، قاله الحسن.

والثالث: أنهم كأهل اللعب واللهو لانقطاع لذاتهم وقصور مدتهم، وأهل الآخرة بخلافهم لبقاء مدتهم واتصال لذتهم، وهو معنى قوله تعالى: {وَلَلدَّارُ الأخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ}، لأنه قَدْ دام لهم فيها ما كان منقطعًا في غيرها.

والرابع: أنها لعب لمن جمعها، لهو لمن يرثها. ذكره الماوردي عن بعضهم.

قال الثعلبي:"سميت الدنيا لدنوها، وقيل: لدناءتها وسميت الآخرة، لأنها بعد الدنيا".

قرأ ابن عامر: «ولدار الاخرة»، بلام واحدة بالتخفيف، وبكسر «الآخرة» على معنى الإضافة. وقرأالباقون: «وللدار الآخرة» بلامين، والآخرة بالضم على معنى

=

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣).

{قَدْ} لِلتَّحْقِيقِ {نَعْلَم إنَّهُ} أَيْ الشَّأْن {لَيَحْزُنك الَّذِي يَقُولُونَ} لَك مِنْ التَّكْذِيب {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَك} فِي السِّرّ لِعِلْمِهِمْ أَنَّك صَادِق وَفِي قِرَاءَة بِالتَّخْفِيفِ أَيْ لَا يَنْسُبُونَك إلَى الْكَذِب {وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ} وَضَعَهُ مَوْضِع

=

النعت.

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنعام: ٣٢]، أي:"أفلا تعقلون -أيها المشركون المغترون بزينة الحياة الدنيا- فتقدِّموا ما يبقى على ما يفنى؟، والاستفهام هنا للتوبيخ ، والمعنى: اعقلوا هذه الحقيقة ، واعرفوا قدر الدنيا وقدر الآخرة.

قال الماوردي: أي:"أن ذلك خير لكم".

قال السمرقندي:"أي: أن الآخرة أفضل من الدنيا".

قال الواحدي: أي:"أنَّها كذلك فلا تَفْتُروا في العمل لها".

قال الطبري:"يقول: أفلا يعقل هؤلاء المكذّبون بالبعث حقيقةَ ما نخبرهم به، من أن الحياة الدنيا لعب ولهوٌ، وهم يرون من يُخْتَرم منهم، ومن يهلك فيموت، ومن تنوبه فيها النوائب وتصيبُه المصائب وتفجعه الفجائع.

ففي ذلك لمن عقل مدَّكر ومزدجر عن الركون إليها، واستعباد النفس لها ودليلٌ واضح على أن لها مدبِّرًا ومصرفًا يلزم الخلقَ إخلاصُ العبادة له، بغير إشراك شيءٍ سواه معه".

والمراد بالعقل هنا عقل الرشد لا عقل التكليف ، لأن هؤلاء يعقلون لكنها عقول ليست عقول رشد.

الْمُضْمَر {بِآيَاتِ الله} الْقُرْآن {يَجْحَدُونَ} يُكَذِّبُونَ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به؛ فأنزل الله: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ...}.

أخرجه الترمذي (٣٠٦٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٧٢٣٤)، والدارقطني في العلل (٤/ ١٤٣، ١٤٤)، والضياء في المختارة (٢/ ٣٦٤، ٣٦٥ رقم ٧٤٨) والحديث قال عنه الترمذي بعد روايته من طريق ابن مهدي مرسلًا: "وهذا أصح"، وقال الدارقطني في العلل (٤/ ١٤٣ رقم ٤٧٤) -عن حديث ناجية بن كعب-: "يرويه الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب عن علي؛ قاله معاوية بن هشام عن الثوري. وغيره يرويه عن الثوري مرسلًا لا يذكر فيه عليًا، وهو المحفوظ"، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الترمذي، وكذا ضعفه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن الترمذي (٥/ ٣٠٤).

وعن أبي صالح في قوله: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ}؛ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين، فقال له: "ما يحزنك؟"، فقال: "كذبني هؤلاء"، قال: فقال له جبريل: "{فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ} هم يعلمون أنك صادق ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١١٥): ثنا هناد وسفيان بن وكيع كلاهما قال: ثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح السمان به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن أبي ميسرة؛ قال: مر رسول الله ﷺ على أبي جهل، فقال: والله يا محمد ما نكذبك؛ إنك عندنا لمصدق، ولكنا نكذب بالذي جئت به؛ فأنزل الله: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ}.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٦٤)، والشوكاني في "فتح القدير" (٢/ ١١٣) ونسباه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

وذكره الدارقطني في "العلل" (٤/ ١٤٣)، وقال: "ورواه إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة مرسلًا عن النبي ﷺ". وأبو إسحاق مدلس مختلط وقد عنعنه، ورواية إسرائيل عنه بعد اختلاطه؛ كما قال الإمام أحمد.

وعن أبي صالح؛ قال: كان المشركون إذا رأوا رسول الله ﷺ بمكة؛ قال بعضهم لبعض فيما بينهم: إنه لنبي؛ فنزلت هذه الآية: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٦٤) ونسبه لأبي الشيخ.

* قوله تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ} [الأنعام: ٣٣].

أي: قد أحطنا علمًا بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم.

كانوا يقول عنه: إنه ساحر ، ومجنون ، وكاهن وغيرها من الأقوال التي قيلت فيه.

وكان ﷺ يحزن لكفرهم كما قال تعالى (فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) وقال تعالى (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) وقال تعالى (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) باخع: أي مهلك.

قال مقاتل: أي:"في العلانية بأنك كذاب مفتر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قد نعلم}، يا محمد، إنه ليحزنك الذي يقول المشركون، وذلك قولهم له: إنه كذّاب".

قال الزمخشري:" {قد} في {قد نعلم}، بمعنى: «ربما» الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته، كقوله:

أخي ثِقَةٍ لا تُهْلِكُ الخَمْرُ مَالَه ... ولكنَّه قد يُهلِك المالَ نائلُه

و {الذي يقولون}، هو قولهم: ساحر كذاب".

=

=

قال أبو السعود:"استئناف مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عن الحزن الذي يعتريه مما حكي عن الكفرة من الإصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله ﷻ وأن ما يفعلونه في حقه فهو راجع إليه تعالى في الحقيقة وأنه ينتقم منهم لا محالة أشد انتقام وكلمة قد لتأكيد العلم بما ذكر المفيد لتأكيد الوعيد كما في قوله تعالى ما أنتم عليهخ وقوله تعالى قد يعلم الله المعوقين ونحوهما بإخراجها إلى معنى التكثير حسبما يخرج إليه ربما في مثل قوله:

وإن تُمْسِ مهجورَ الفِناءِ فرُبَّما أقامَ به بعدَ الوُفودِ وُفودُ

جريا على سنن العرب عند قصد الإفراط في التكثير تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رب فارس عندي وعنده مقانب جمة، يريد بذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه يروم إظهار براءته عن التزيد وإبراز أنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا عن تكثير القلل، وعليه قوله ﷻ: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} [الحجر: ٢].

وهذه طريقة إنما تسلك عند كون الأمر من الوضوح بحيث لا تحو حوله شائبة ريب حقيقة كما في الآيات الكريمة المذكورة أو ادعاءكما في البيت، وقوله:

قد أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أنامِلُه [كأنَّ أثوابَهُ مُجّتْ بفِرْصادِ]

وقوله:

[أَخي ثِقَةٍ لَا يُذْهِبُ الْخَمْرُ مَالَهُ] وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهْ

والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة تعلقه، وهو متعد إلى اثنين وما بعده ساد مسدهما، واسم «إن» ضمير الشأن وخبرها الجملة المفسرة له والموصول فاعل «يحزنك» وعائده محذوف، أي: الذي يقولونه، وهو ما حكي عنهم من قولهم: {إن هذا إلا أساطير الاولين} ونحو ذلك".

=

=

وقرئ: «ليحزنك» بفتح الياء وضمها.

قال الشنقيطي: قوله تعالى (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ) صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، بأنه يعلم أن رسوله ﷺ يحزنه ما يقوله الكفار من تكذيبه ﷺ، وقد نهاه تعالى عن هذا الحزن المفرط في مواضع أخر كقوله (فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) الآية، وقوله (فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين)، وقوله (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بهذا الحديث أَسَفًا)، وقوله (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) الباخع: هو المهلك نفسه.

وقوله (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ) في الآيتين يراد به النهي عن ذلك، ونظيره (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ) أي: لا تهلك نفسك حزنًا عليهم في الأول، ولا تترك بعض ما يوحى إليك في الثاني.

قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ} [الأنعام: ٣٣]، أي:"فإنهم لا يكذبونك في قرارة أنفسهم، بل يعتقدون صدقك".

قال مقاتل: أي:"في السر بما تقول بأنك نبي رسول، بل يعلمون أنك صادق وقد جربوا منك الصدق فيما مضى".

قال القرطبي:"أي: لا يجدونك تأتي بالكذب، كما تقول: أكذبته وجدته كذابا، وأبخلته وجدته بخيلا، أي لا يجدونك كذابا إن تدبروا ما جئت به".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ}، أي: قد أحطنا علما بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم، {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨] كما قال تعالى في الآية الأخرى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣]، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٧]".

=

=

قال الزمخشري:"المعنى: أن تكذيبك أمر راجع إلى الله، لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته، فاله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق، وليشغلك عن ذلك ما هو أهم وهو استعظامك بجحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه. ونحوه قول السيد لغلامه- إذا أهانه بعض الناس-: إنهم لم يهينوك وإنما أهانونى. وفي هذه الطريقة قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ} [الفتح: ١٠]".

قال أبو السعود: قوله: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ} "تعليل لما يشعرون به الكلام السابق من النهي عن الاعتداد بما قالوا لكن لا بطريق التشاغل عنه وعده هينا والإقبال التام على ما هو أهم منه من استعظام جحودهم بآيات الله ﷻ كما قيل فإنه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية مما يوهم كون حزنه عليه الصلاة والسلام لخاصة نفسه بل بطريق التسلي بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام في جلالة القدر ورفعة المحل والزلفى من الله ﷻ إلى حيث لا غاية وراءه حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه ﷺ تكذيبا لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله} [النساء: ٨٠]، بل نفى تكذيبهم عنه ﷺ وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله} [الفتح: ١٠] أيذانا بكمال القرب واضمحلال شئونه ﷺ في شأن الله ﷻ نعم فيه استعظام لجنايتاهم منبئ عن عظم عقوبتهم كأنه قيل لا: تعتد به وكله إلى الله تعالى فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذبونك في الحقيقة".

وفي قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ} [الأنعام: ٣٣]، خمسة وجوه:

أحدها: فإنهم لا يكذبونك بحجة، وإنما هو تكذيب بهت وعناد، فلا يحزنك، فإنه لا يضرك، قاله أبو صالح ، وقتادة ، والسدي.

قال السدي:" لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة، إن

=

=
محمدًا ابن أختكم، فأنتم أحقُّ مَنْ كَفَّ عنه، فإنه إن كان نبيًّا لم تقاتلوهُ اليوم، وإن كان كاذبًا كنتم أحق من كف عن ابن أخته! قفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم فإن غُلب محمدٌ [ﷺ] رجعتم سالمين، وإن غَلَب محمدٌ فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئًا فيومئذ سمّي: «الأخنس» ، وكان اسمه «أبيّ» فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا! فقال أبو جهل: وَيْحك، والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمّد قط، ولكن إذا ذهب بنو قُصَيٍّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: {فإنهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون}، فآيات الله: محمدٌ ﷺ.

وعن عن أبي يزيد المدني:" أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه. فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ. فقال: والله إني لأعلم أنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا؟ فتلا أبو يزيد: {فإنهم لا يكذبونك}، الآية".

والثاني: فإنهم لا يكذبون قولك لعلمهم بصدقك، ولكن يكذبون ما جئت به، قاله ناجية بن كعب.

والثالث: لا يكذبونك في السر لعلمهم بصدقك، ولكنهم يكذبونك في العلانية لعداوتهم لك، قاله الكلبي.

والرابع: معناه أن تكذيبهم لقولك ليس بتكذيب لك، لأنك رسول مُبَلّغ، وإنما هو تكذيب لآياتي الدالة على صدقك والموجبة لقبول قولك، وقد بين ذلك بقوله تعالى: {وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِئَأَيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ}، أي: يكذبون.

عن سعيد بن جبير: "{فإنهم لا يكذبونك}، قال: ليس يكذّبون محمدًا، ولكنهم بآيات الله يجحدون".

والخامس::معناه: أنهم لا يبطلون ما في يديك. وهذا قول محمد بن كعب، وكان
=

=

يقرؤها: «فغنهم لا يكذبونك بالتخفيف».

والخامس: معناه: انهم لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبات به مما في كتبهم: كذبت. قاله الزجاج.

عن سالم بن أبي حفصة قال: "قرأ علي بن أبي طالب: {فإنهم لا يكذبونك}، قال: لا يجيئون بحق هو أحق من حقك. وقرأ: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَق} [الأنعام: ٦٦]".

وقرأ علي ونافع والكسائي: «لاَ يُكْذِبونَكَ»،بمعنى: إنهم لا يُكْذِبونك فيما أتيتهم به من وحي الله، ولا يدفعون أن يكون ذلك صحيحًا، بل يعلمون صحته، ولكنهم يجحَدون حقيقته قولا فلا يؤمنون به.

وقرأته جماعة من قرأة المدينة والعراقيين والكوفة والبصرة: «فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ» بمعنى: أنهم لا يكذّبونك علمًا، بل يعلمون أنك صادق ولكنهم يكذبونك قولا عنادًا وحسدًا.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما جماعة من القرأة، ولكل واحدة منهما في الصحة مخرج مفهوم. وذلك أن المشركين لا شكَّ أنه كان منهم قوم يكذبون رسولَ الله ﷺ، ويدفعونه عما كان الله تعالى ذكره خصه به من النبوّة، فكان بعضهم يقول: هو شاعر، وبعضهم يقول: هو كاهن "، وبعضهم يقول: هو مجنون، وينفي جميعُهم أن يكون الذي أتَاهم به من وحي السماء، ومن تنزيل رب العالمين، قولا. وكان بعضهم قد تبين أمرَه وعلم صحة نبوّته، وهو في ذلك يعاند ويجحد نبوّته حسدًا له وبغيًا".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣]، أي:"ولكنهم لظلمهم وعدوانهم يجحدون البراهين الواضحة على صدقك، فيكذبونك فيما

=

=

جئت به".

قال قتادة:" يقول: يعلمون أنك رسول الله ويجحدون".

قال مقاتل: "يعني: بالقرآن بعد المعرفة".

قال ابن كثير:"أي: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم".

قال الطبري:": ولكن المشركين بالله، بحجج الله وآي كتابه ورسولِه يجحدون، فينكرون صحَّة ذلك كله".

وقال السدي:"آيات الله: محمدٌ -ﷺ-".

قال الزجاج:"لأنهم إنما جحدوا براهين الله جل وعز وجائز أن يكون فإنهم لايكذبونك، أي أنت عندهم صادق، لأنه ﷺ كان يسمى فيهم الأمين قبل الرسالة، ولكنهمجحدوا بألسنتهم ما تشهد قلوبهم يكذبهم فيه".

قال البغوي:"يقول: إنهم لا يكذبونك في السر لأنهم عرفوا صدقك فيما مضى، وإنما يكذبون وحيي ويجحدون آياتي، كما قال: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُم} [النمل: ١٤]".

قال الزمخشري:"قوله: {ولكن الظالمين}، من إقامة الظاهر مقام المضمر، للدلالة على أنهم ظلموا في جحودهم".

قال أبو السعود:"أي ولكنهم بآياته تعالى يكذبون، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالرسوخ في الظلم الذي جحودهم هذا فن من فنونه والالتفات إلى الإسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته تعالى وإيراد الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه كما في قوله تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُم} [النمل: ١٤]، وهو المعني بقول من قال إنه نفي ما في القلب إثباته أو إثبات ما في

=

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤).

{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُل مِنْ قَبْلك} فِيهِ تَسْلِيَة لِلنَّبِيِّ ﷺ {فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرنَا} بِإِهْلَاكِ قَوْمهمْ فَاصْبِرْ حَتَّى يَأْتِيك النَّصْر بِإِهْلَاكِ قَوْمك {وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ الله} مَوَاعِيده {وَلَقَدْ جَاءَك مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ} مَا يَسْكُن بِهِ قَلْبك[1].

=

القلب نفيه".

قال أبو الأشهب:" قرأ رجل عند الحسن: «فإنهم لا يكذبونك» خفيفة. قال الحسن: «فإنهم لا يكذبونك». وقال: إن القوم قد عرفوه، ولكنهم جحدوا بعد المعرفة".

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ} [الأنعام: ٣٤]، أي:"ولقد كذَّب الكفارُ رسلا من قبلك أرسلهم الله تعالى إلى أممهم، وهذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له ، فيمن كذبه من قومه.

قال الضحاك وابن جريج:"يعزّي نبيَّه -ﷺ-".

قال البغوي: أي:"كذبهم قومهم كما كذبتك قريش".

قال الزمخشري:" {ولقد كذبت}، تسلية لرسول الله ﷺ، وهذا دليل على أن قوله: {فإنهم لا يكذبونك}، ليس بنفي لتكذيبه، وإنما هو من قولك لغلامك: ما أهانوك ولكنهم أهانونى".

قال الطبري:"وهذا تسلية من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، وتعزيةٌ له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إيّاه على ما جاءهم به من الحق من عند الله، يقول تعالى ذكره: إن يكذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك، فيجحدوا نبوّتك،

=

=

وينكروا آيات الله أنّها من عنده، فلا يحزنك ذلك، واصبر على تكذيبهم إياك وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله، حتى يأتي نصر الله، فقد كُذبت رسلٌ من قبلك أرسلتهم إلى أممهم، فنالوهم بمكروه".

قال الآلوسي: "تسلية إثر تسلية لرسول الله ﷺ فإن عموم البلوى ربما يهونها بعض تهوين ، وفيه إرشاد له - عليه السلام - إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام في الصبر على الأذى وعدة ضمنية بمثل ما منحوه من النصر ، وتصدير الكلام بالقسم لتأكيد التسلية.

ومعنى الآية: ولقد كذبت رسل كثير من قِبل أقوامهم.

كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ).

وقال تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ).

وقال تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ...).

وفي الحديث قال ﷺ (يأتي النبي ﷺ ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ﷺ وليس معه أحد)".

قوله تعالى: {فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [الأنعام: ٣٤]، أي:"فصبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء والأذى ومضوا في دعوتهم وجهادهم حتى أتاهم نصر الله".

قال قتادة:"يعزِّي نبيه ﷺ كما تسمعون، ويخبره أن الرسل قد كُذّبت قبله، فصبروا على ما كذبوا، حتى حكم الله وهو خير الحاكمين".

قال الطبري: أي:"فصبروا على تكذيب قومهم إياهم، ولم يثنهم ذلك من المضيّ لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم".

قال ابن أبي زمنين:"أي: أنه سينصرك، ويظهر دينك، كما نصر الرسل الذين كذبوا

=

=

من قبلك".

قال ابن كثير:"هذه تسلية للنبي-ﷺ- وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة".

قال الواحدي:" {فصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا} رجاء ثوابي، {وأوذوا}، حتى نشروا بالمناشير وحرِّقوا بالنَّار".

قال القرطبي:"قوله تعالى: {فصبروا على ما كذبوا}، أي: فاصبر كما صبروا، {وأوذوا حتى أتاهم نصرنا}، أي: عوننا، أي فسيأتيك ما وعدت به".

قال البغوي:" {حتى أتاهم نصرنا} بتعذيب من كذبهم".

قال البيضاوي: أي:"فتأس بهم واصبر. {حتى أتاهم نصرنا}، فيه إيماء بوعد النصر للصابرين".

فالدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر ، ذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأوهامهم ومألوفاتهم ، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة ، فلهذا يقاومونها بكل قوة ، ويحاربون دعاتها بكل سلاح ، مدلين بأنهم أكثر مالًا وأعز نفرًا ، وأقوى نفوذًا ، وأوسع سلطانًا. فأذية الداعية طبيعة البشر.

قال الله تعالى لنبيه (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) .

والرسل أوذوا بالقول والفعل ، قال الله (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون).

بل إن منهم من تعرض للقتل، قال سبحانه (أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى

=

=
أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُون).
ومن قام بما قام به الرسل ناله ما نالهم ، قال سبحانه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا).
وبالصبر مع التقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ).
وقوله (حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) هذا وعد لهم بالنصر بعدما صبروا ، وفي الآية إرشاد إلى أن النصر مع الصبر.
وقد قال تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ).
وقال تعالى (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ).
قوله تعالى: {وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ} [الأنعام: ٣٤]، أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين.
كما قال (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ).
وقال تعالى (كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ).
قال الطبري:" و «كلماته» - تعالى ذكره -: ما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ، من وعده إياه النصر على من خَالفه وضادّه، والظفرَ على من تولّى عنه وأدبر".
قال مقاتل:"يعني: لا تبديل لقول الله بأنه ناصر محمد- ﷺ-، ألا وقوله حق كما نصر الأنبياء قبله".
قال الواحدي والبغوي:"لا ناقِضَ لحكمه وقد حكم بنصر الأنبياء في قوله: {كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١]".
قال السمعاني:"أي: لعلم الله وأحكامه".
=

=

قال الزمخشري: أي:"لمواعيده من قوله: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]".

قال الزجاج:"أي: إذ قال الله لرسوله: {وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: ٦٧]، وإذ قال: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [التوبة: ٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، فلا مبدل لكلمات الله أي لا يخلف الله وعده ولايغلب أولياءه أحد".

قال ابن كثير:"أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: {كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ٢١]".

قال الكلبي: {كلمات الله}: "يعني" القرآن".

وقال الحسن بن الفضل: "لا خلف لعداته".

وقال عكرمة: {كلمات الله}: "يعني: قوله: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا} [الصافات: ١٧١]، إلى قوله: «غالبون» ، وقوله: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [غافر: ٥١]، وقوله تعالى: {كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١]".

قال القرطبي:" {ولا مبدل لكلمات الله}، مبين لذلك النصر، أي: ما وعد الله ﷻ به فلا يقدر أحد أن يدفعه، لا ناقض لحكمه، ولا خلف لوعده، و {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد: ٣٨]، {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا} [غافر: ٥١]، {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، {كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١]".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام: ٣٤]، أي:"ولقد جاءك بعض أخبار المرسلين الذين كُذّبوا وأُوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم

=

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥).

{وَإِنْ كَانَ كَبُرَ} عَظُمَ {عَلَيْك إعْرَاضهمْ} عَنْ الْإِسْلَام لِحِرْصِك عَلَيْهِمْ {فَإِنْ

=

فتسلَّ ولا تحزن فإن الله ناصرك كما نصرهم".

قال السمعاني:"أي: أخبار المرسلين".

قال الزمخشري: أي:"بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرةالمشركين".

قال البيضاوي:"أي: بعض قصصهم وما كابدوا من قومهم".

قال مقاتل:"يعني: من حديث المرسلينحين كذبوا وأوذوا ثم نصروا".

قال ابن كثير:"أي: من خبرهم كيف نُصِروا وأُيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة".

قال ابن أبي زمنين: أي:"من أخبار المرسلين أنهم قد نصروا بعد الأذى، وبعد الشدائد".

قال الواحدي:"أَيْ: خبرهم في القرآن كيف أنجيناهم ودَمَّرنا قومهم".

قال الطبري: أي:"ولقد جاءك يا محمد، من خبر من كان قبلك من الرسل، وخبر أممهم، وما صنعتُ بهم حين جحدوا آياتي وتمادَوا في غيهم وضلالهم... فانتظر أنت أيضًا من النصرة والظفر مثل الذي كان منِّي فيمنكان قبلك من الرسل إذ كذبهم قومهم، واقتد بهم في صبرهم على ما لَقُوا من قومهم".

قال القاسمي: قوله تعالى (وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ) أي: من خبرهم في مصابرة الكافرين ، وما منحوه من النصر ، فلا بد أن نزيل حزنك بإهلاكهم ، وليس إمهالهم لإهمالهم ، بل لجريان سنته تعالى بتحقق صبر الرسل وشكرهم.

اسْتَطَعْت أَنْ تَبْتَغِي نَفَقًا} سَرَبًا {فِي الْأَرْض أَوْ سُلَّمًا} مِصْعَدًا {فِي السَّمَاء فَتَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ} مِمَّا اقْتَرَحُوا فَافْعَلْ الْمَعْنَى أَنَّك لَا تَسْتَطِيع ذَلِكَ فَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُم الله {وَلَوْ شَاءَ الله} هِدَايَتهمْ {لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى} وَلَكِنْ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ فَلَمْ يُؤْمِنُوا {فَلَا تَكُونَن مِنْ الْجَاهِلِينَ} بِذَلِكَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ} [الأنعام: ٣٥]، أي:"وإن كان عَظُمَ عليك -أيها الرسول- صدود هؤلاء المشركين وانصرافهم عن الاستجابة لدعوتك".

قال مقاتل:"يعني: ثقل عليك إعراضهم عن الهدى ولم تصبر على تكذيبهم إياك".

قال ابن كثير:"أي: إن كان شق عليك إعراضهم عنك".

قال الطبري: أي:"إن كان عظم عليك، يا محمد، إعراض هؤلاء المشركين عنك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق الذيبعثتُك به، فشقَّ ذلك عليك، ولم تصبر لمكروه ما ينالك منهم".

قال الزجاج:"أي: إن كان عظم عليك أن أعرضوا إذ طلبوا منك أن تنزل عليهم ملكا، لأنهم قالوا: {لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَك} [الأنعام: ٨]،ثم أعلم الله جل وعز أنهم لو نزلتعليهم الملائكة وأتاهم عظيم من الآيات ما آمنوا".

قال البغوي:"أي: عظم عليك وشق أن أعرضوا عن الإيمان بك، وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص، وكانوا إذ سألوا آية أحب أن يريهم الله تعالى ذلك طمعا في إيمانهم".

قال الزمخشري:"كان يكبر على النبي ﷺ كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل " {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَك} [الكهف: ٦، الشعراء:٣]، {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت} [القصص: ٥٦]، {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُم} [الأنعام: ٣٥]".

=

=

قوله تعالى: {فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ} [الأنعام: ٣٥]، أي:"فإن استطعت أن تتخذ نفقًا في الأرض".

قال الطبري:"يقول: فإن استطعت أن تتَّخذ سَرَبا في الأرض مثلَ نَافِقاء اليَرْبُوع، وهي أحد جِحَرِته فتذهب فيه".

قال الزمخشري: أي:"منفذا تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها".

قال ابن عباس:"و «النفق»: السَّرب، فتذهب فيه، {فتأتيهم بآية}".

قال قتادة والسدي:" {نَفَقًا}: سَرَبًا".

قال الزجاج:"و «النفق»: الطريق النافذ في الأرض، والنافقاء ممدود أحد جحرة اليربوعيخرقه من باطن الأرض إلى جلدة الأرض فإذا بلغ الجلدة أرقها حتى إنرابة دبيب رفع برأسه هذا المكان وخرج منه. ومن هذا سمي المنافقمنافقا، لأنه أبطن غير ما أظهر، كالنافقاء الذي ظاهره غير بين، وباطنه حفرفي الأرض".

قوله تعالى: {أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ٣٥]، أي:"أو مصعدًا تصعد فيه إلى السماء".

قال ابن عباس:"أو تجعل لك سلَّمًا في السماء، فتصعد عليه".

قال الطبري:"يقول: أو مصعدًا تصعد فيه، كالدَّرَج وما أشبهها، كما قال الشاعر:

لا تُحْرِزُ الْمَرْءُ أَحْجَاءُ البِلادِ، وَلا يُبْنَى لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ السَّلالِيم "

وفي قوله تعالى: {أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ٣٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها: مصعدًا، قاله السدي.

والثاني: دَرَجًا، قاله قتادة.

والثالث: سببًا، قاله الكلبي ، وأبو عبيدة.

قال أبو عبيدة:" و «السلّم»:السبب والمرقاة، قال الشّيبانىّ:

=

=

هم صلبوا العبدى فى جذع نخلة فلا عطست شيبان إلّا بأجدعا

وقال ابن مقبل:

لا تحرز المرء أحجاء البلاد ولا يبنى له فى السموات السّلاليم

ويقول الرجل: اتخذتني سلّما لحاجتك أي سببا".

ومن ذلك قول كعب بن زهير:

ولا لَكُمَا مَنْجىً عَلَى الأرْضِ فَابْغِيَابه نَفَقًا أوْ فِي السَّمَوَات سُلَّمًا

قال الزجاج:"و «السلم»: مشتق من السلامة، وهو الشيء الذي يسلمك إلى مصعدك".

قوله تعالى: {فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ} [الأنعام: ٣٥]، أي:"فتأتيهم بعلامة وبرهان على صحة قولك غير الذي جئناهم به، فافعل".

قال ابن عباس:"فتأتيهم بآية أفضل مما أتيناهم به، فافعل".

قال الماوردي: أي:"يعني أفضل من آيتك ولن تستطيع ذلك، لم يؤمنوا لك، فلا يحزنك تكذيبهم وكفرهم".

قال الفراء: "وفي الكلام مضمر محذوف وتقديره: فتأتيهم بآية "فافعل، وإنما تفعله العرب في كل موضع يعرف فيه معنى الجواب ألا ترى أنك تقول للرجل: إن استطعت أن تتصدق، إن رأيت أن تقوم معنا، بترك الجواب لمعرفتك بمعرفته به".

قال الزجاج:"المعنى: فإن استطعت هذا فافعل، وليس في القرآن فافعل، لأنه قد يحذف مافي الكلام دليل عليه، ومثل ذلك قولك: إن رأيت أن تمضي معنا إلى فلان. ولا تذكر فافعل. فأعلم الله نبيه ﷺ أنه لا يستطيع أن يأتي بآية إلا بإذن الله. وإعلامه النبي هذا هو إعلام الخلق أنهم إنما اقترحوا هم الآيات وأعلم الله جل وعز أنه قادر على أن ينزل آية آية، وأنه لو أنزلت الملائكة وكلمهمالموتى ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله".

=

=

قال الطبري:"وتُرِك جواب الجزاء فلم يذكر، لدلالة الكلام عليه، ومعرفة السامعين بمعناه. وقد تفعل العرب ذلك فيما كان يُفهم معناه عند المخاطبين به، فيقول الرجل منهم للرجل:"إن استطعت أن تنهض معنا في حاجتنا، إن قدرت على مَعُونتنا"، ويحذف الجواب، وهو يريد: إن قدرت على معونتنا فافعل. فأما إذا لم يعرف المخاطب والسامع معنى الكلام إلا بإظهار الجواب، لم يحذفوه. لا يقال: إن تقم، فتسكت وتحذف الجواب، لأن المقول ذلك له لا يعرف جوابه إلا بإظهاره، حتى يقال: إن تقم تصب خيرًا، أو: إن تقم فحسن، وما أشبه ذلك، ونظيرُ ما في الآية مما حذف جَوَابه وهو مراد، لفهم المخاطب لمعنى الكلام قول الشاعر:

فَبِحَظٍّ مِمَّا نَعِيشُ، وَلا تَذْ هَبْ بِكِ التُّرَّهَاتُ فِي الأَهْوَالِ

والمعنى: فبحظٍّ مما نعيش فعيشي".

قال الزمخشري: أي:" {فتأتيهم} منها {بآية} فافعل. يعنى أنك لا تستطيع ذلك. والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم. وقيل: كانوا يقترحون الآيات فكان يور أن يجابوإليها لتمادى حرصه على إيمانهم. فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون. ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو الإتيان بالآيات، كأنه قيل: لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرقى إلى السماء لفعلت، لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها.

وحذف جواب «أن» كما تقول: إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان نزوره ولو شاء الله لجمعهم على الهدى بأن يأتيهم بآية ملجئة، ولكنه لا يفعل لخروجه عن

=

=

الحكمة".

قال أبو حيان:"والظاهر من قوله: {فتأتيهم بآية}، أن الآية هي غير ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء، وأن المعنى: أن تبتغي نفقا في الأرض فتدخل فيه أو سلما في السماء فتصعد عليه إليها فتأتيهم بآية غير

الدخول في السرب والصعود إلى السماء مما يرجى إيمانهم بسببها أومما اقترحوه رجاء إيمانهم، وتلك الآية من إحدى الجهتين".

قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى} [الأنعام: ٣٥]، أي:"ولو شاء الله لَجَمعهم على الهدى الذي أنتم عليه ووفَّقهم للإيمان، ولكن لم يشأ ذلك لحكمة يعلمها سبحانه".

قال البغوي: أي:"فآمنوا كلهم".

قال الماوردي:"يعني: بالإلجاء والاضطرار".

قال مقاتل:"ثم عزى نبيه- ﷺ- ليصبر على تكذيبهم فقال: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى".

قال ابن عباس:"يقول الله سبحانه: لو شئتُ لجمعتهم على الهدى أجمعين".

قال الطبري:"وفي هذا الخبر من الله تعالى ذكره، الدلالةُ الواضحة على خطإ ما قال أهل التَّفْويض من القدريّة، المنكرون أن يكون عند الله لطائف لمن شاءَ توفيقه من خلقه، يلطفُ بها له حتى يهتدِيَ للحقّ، فينقاد له، وينيبَ إلى الرشاد فيذعن به ويؤثره على الضلال والكفر بالله. وذلك أنه تعالى ذكره أخبر أنه لو شاءَ الهداية لجميع من كفر به، حتى يجتمعوا على الهدى، فعلَ. ولا شك أنه لو فعل ذلك بهم، كانوا مهتدين لا ضلالا. وهم لو كانوا مهتدين، كان لا شك أنّ كونهم مهتدين كان خيرًا لهم. وفي تركه تعالى ذكره أن يجمعهم على الهدى، تركٌ منه أن يفعل بهم في دينهم بعض ما هو خيرٌ لهم فيه، مما هو قادر على فعله بهم، وقدترك

=

=

فعله بهم. وفي تركه فعل ذلك بهم، أوضحُ الدليل أنه لم يعطهم كل الأسباب التي بها يصلون إلى الهداية، ويتسبّبون بها إلى الإيمان".

قال الزجاج:"وقوله: {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى}، فيه غير قول، فأحدها أنه لو شاء الله أن يطبعهم على الهدى لفعلذلك، وقول آخر: {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى}، أي: لو شاء لأنزل عليهم آية تضطرهم إلى الإيمان كقوله جل وعز: {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْ} [الشعراء: ٤]، فإنما أنزل الله الآيات التي يفكر الناس معها، فيؤجر ذو البصر، ويثاب على الإيمان بالآيات، ولو كانت نار تنزل على من يكفر أو يرمى بحجر من السماء لان كل واحد".

قوله تعالى: {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [الأنعام: ٣٥]، أي:"فلا تكونن -أيها الرسول- من الجاهلين الذين اشتد حزنهم، وتحسَّروا حتى أوصلهم ذلك إلى الجزع الشديد".

قال الماوردي:"يعني: تجزع في مواطن الصبر، فتصير بالأسف والتحسر مقاربًا لأحوال الجاهلين".

قال البغوي:"أي: بهذا الحرف، وهو قوله: {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى}، وأن من يكفر لسابق علم الله فيه".

قال الزمخشري: أي:"من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه".

قال مقاتل:"فإن الله لو شاء لجعلهم مهتدين".

قال الخازن:"يعني: ولا تجزع من إعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم، وإنما نهاه عن هذه الحالة وغلّظ له الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة".

قال ابن عطية: هذه الآية "فيها إلزام الحجة للنبي ﷺ وتقسيم الأحوال عليه حتى يبين أن لا وجه إلا الصبر والمضي لأمر الله تعالى، والمعنى إن كنت تعظم

=

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦).

{إِنَّمَا يَسْتَجِيب} دُعَاءَك إِلَى الْإِيمَان {الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} سَمَاع تَفَهُّم وَاعْتِبَار {وَالْمَوْتَى} أَيْ الْكُفَّار شَبَّهَهُمْ بِهِمْ فِي عَدَم السَّمَاع {يَبْعَثُهُمْ الله} فِي الْآخِرَة {ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} يُرَدُّونَ فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ[1].

=

تكذيبهم وكفرهم على نفسك وتلتزم الحزن عليه فإن كنت تقدر على دخول سرب في أعماق الأرض أو على ارتقاء سلم في السماء فدونك وشأنك به، أي إنك لا تقدر على شيء من هذا، ولا بد لك من التزام الصبر واحتمال المشقة ومعارضتهم بالآيات التي نصبها الله تعالى للناظرين المتأملين، إذ هو لا إله إلا هو لم يرد أن يجمعهم على الهدى، وإنما أراد أن ينصب من الآيات ما يهتدي بالنظر فيه قوم ويضل آخرون، إذ خلقهم على الفطرة وهدى السبيل وسبقت رحمته غضبه، وله ذلك كله بحق ملكه، {فلا تكونن من الجاهلين}، في أن تأسف وتحزن على أمر أراده الله وأمضاه وعلم المصلحة فيه".

ولا يلزم من نهي الله لنبيه ﷺ عن أن يكون من الجاهلين أن يكون النبي ﷺ فَعَلَ فِعْل الجاهلين ، كما قال تعالى (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) وقوله تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ).

قال ابن عاشور: وإنّما عدل على الأمر بالعلم لأنّ النّهي عن الجهل يتضمّنه فيتقرّر في الذهن مرتين، ولأنّ في النهي عن الجهل بذلك تحريضًا على استحضار العلم به ، كما يقال للمتعلّم: لا تنسى هذه المسألة.

وليس في الكلام نهي عن شيء تلبّس به الرسول ﷺ كما توهّمه جمع من المفسّرين ، وذهبوا فيه مذاهب لا تستبين.

(١) قوله تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} [الأنعام: ٣٦]، أي:"نما يجيبك –

=

=

أيها الرسول- إلى ما دعوت إليه من الهدى الذين يسمعون الكلام سماع قبول، أما الكفار فهم في عداد الموتى؛ لأن الحياة الحقيقية إنما تكون بالإسلام، كما قال تعالى (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) فالمراد بالسماع هنا سماع الانقياد والقبول وليس سماع الإدراك.".

قال السمعاني:"هاهنا الوقف، ومعناه: إنما يستجيب الذين يسمعون سماع القبول".

قال ابن قتيبة:"أي: يجيبك من يسمع".

قال البيضاوي:"إنما يجيب الذين يسمعون بفهم وتأمل لقوله: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]،وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون".

قال البغوي:"يعني: المؤمنين الذين يسمعون الذكر فيتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمعه".

قال قتادة:"هذا مثل المؤمن سمع كتاب الله فأخذ به، وانتفع به وعقله".

قال الزجاج:"أي: الذين يسمعون سماع قابلين، وجعل من لم يقبل بمنزلة الأصم، قال الشاعر:

أَصَمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ"

قال ابن كثير:"أي: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [يس: ٧٠]".

قال الزمخشري:"يعنى: أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسماعون، وإنما يستجيب من يسمع، كقوله: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [النمل: ٨٠]".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يكبُرنّ عليك إعراض هؤلاء المعرضين عنك، وعن الاستجابة لدعائك إذا دعوتهم إلى توحيد ربّهم والإقرار

=

=

بنبوّتك، فإنه لا يستجيب لدعائك إلى ما تدعوه إليه من ذلك، إلا الذين فتح الله أسماعهم للإصغاء إلى الحق، وسهَّل لهم اتباع الرُّشد، دون من ختم الله على سمعه، فلا يفقه من دعائك إياه إلى الله وإلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رُعاتها، فهم كما وصفهم به الله تعالى ذكره: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة: ١٧١]".

قال القرطبي:" {يسمعون}، أي: سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق، وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون".

قال السعدي:"يقول تعالى لنبيه ﷺ: {إنما يستجيب} لدعوتك، ويلبي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك {الذين يسمعون} بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع.

والمراد بالسماع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر. فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى، باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر، في عدم القبول".

وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} [الأنعام: ٣٦]، ثلاثة اقوال:

أحدها: يعني الذين يعقلون، قاله الكلبي.

والثاني: يعني: الذين يسمعون الهدى، يعني: القرآن. قاله مقاتل.

والثالث: الذين يسمعون طلبًا للحق، لأن الاستجابة قد تكون من الذين يسمعون طلبًا للحق، فأما من لا يسمع، أو يسمع لكن لا بقصد طلب الحق، فلا يكون منه استجابة.

قال ابن عطية:"هذا من النمط المتقدم في التسلية أي لا تحفل بمن أعرض فإنما يستجيب لداعي الإيمان الذين يقيمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول، فعبر عن ذلك كله ب يسمعون إذ هو طريق العلم بالنبوة والآياتالمعجزة، وهذه لفظة

=

=

تستعملها الصوفية إذا بلغت الموعظة من أحد مبلغا شافيا قالوا سمع".

قوله تعالى: {وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ} [الأنعام: ٣٦]، أي:"والموتى يخرجهم الله من قبورهم أحياء".

قال الزجاج:"أي: يحييهم".

قال ابن عطية:"أي: يحشرهم يوم القيامة".

قال ابن قتيبة: أي:"فأما الموتى فالله يبعثهم. شبههم بالموتى".

قال مقاتل:" يعني: كفار مكة يبعثهم الله في الآخرة".

قال مجاهد:" {والموتى}: الكفار، حين يبعثهم الله مع الموتى".

قال ابن كثير:"يعني: بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد فقال: {وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} وهذا من باب التهكم بهم، والازدراء عليهم".

قال الطبري:"يقول: والكفارُ يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتًا، ولا يعقلون دعاء، ولا يفقهون قولا إذ كانوا لا يتدبرون حُجج الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزجرون عما هم عليه من تكذيب رُسل الله وخلافهم".

قال السعدي:"أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب، الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك، ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون، ويحتمل أن المراد بالآية، على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا، متضمنا للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ} [الأنعام: ٣٦]، قولان:

أحدهما: أن المراد بالموتى هنا الكفار، قاله الحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، واختاره الطبري ، والقرطبي ، والسمرقندي ، والواحدي ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن كثير ، والشوكاني.

ويكون معنى الكلام: إنما يستجيب المؤمنون الذين يسمعون، والكفار لا يسمعون إلا عند معاينة الحق اضطرارًا حين لا ينفعهم حتى يبعثم الله كفارًا ثم يحشرون كفارًا.

قال ابن عطية:" {والموتى}، يريد الكفار، فعبر، عنهم بضد ما عبر عن المؤمنين وبالصفة التي تشبه حالهم في العمى عن نور الله تعالى والصمم عن وعي كلماته، أي: هم بمثابة الموتى حين لا يرون هدى ولا يسمعون فيعون".

قال الشوكاني: "شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعًا لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق.

كما قال تعالى في نظائر هذه الآية (أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي...)".

والقول الثاني: أنهم الموتى الذين فقدوا الحياة، وهو مثل ضربه الله تعالى لنبيه -ﷺ-، ويكون معنى الكلام: كما أن الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله فكذلك الذين لا يسمعون.

قال الزمخشري:" {والموتى يبعثهم الله}: مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة".

قوله تعالى (يَبْعَثُهُمُ اللهُ) أي: للحساب والجزاء.

واختار هذا البغوي ، وابن عطية ، وأبو حيان ، والسيوطي.

كما قال تعالى في نظائر ذلك (يوم يبعثهم الله جميعًا).

=

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

=

وقال تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا...).

وهذا هو المعنى الظاهر المتبادر إلى الأذهان ، ولذلك قال أبو حيان: والظاهر أن الموت هنا والبعث حقيقة.

قال السعدي: ويحتمل أن المراد بالآية، على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا، متضمنًا للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

وقيل: المراد يهديهم الله إلى الإيمان به وبرسوله ، وهذا في الدنيا.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [الأنعام: ٣٦]، أي:"ثم يعودون إليه يوم القيامة ليوفوا حسابهم وجزاءهم".

قال مقاتل:" يعني: يردون فيجزيهم".

قال البغوي: أي:"فيجزيهم بأعمالهم".

قال ابن عطية:"أي: إلى سطوته وعقابه يرجعون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، والكفارُ الذين يحول الله بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئًا، فيثيب هذا المؤمن على ما سلف من صالح عمله في الدنيا بما وعد أهل الإيمان به من الثواب، ويعاقب هذا الكافرَ بما أوعدَ أهل الكفر به من العقاب، لا يظلم أحدًا منهم مثقال ذرة".

قال الزمخشري: يعني:"للجزاء، فكان قادرا على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان. وأنت لا تقدر على ذلك. وقيل معناه: وهؤلاء الموتى- يعنى الكفرة- يبعثهم الله. ثم إليه يرجعون، فحينئذ يسماعون. وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم".

لَا يَعْلَمُونَ (٣٧).

{وَقَالُوا} أَيْ كُفَّار مَكَّة {لَوْلَا} هَلَّا {نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَة مِنْ رَبّه} كَالنَّاقَةِ وَالْعَصَا وَالْمَائِدَة {قُلْ} لَهُمْ {إِنَّ الله قَادِر عَلَى أَنْ يُنَزِّل} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {آيَة} مِمَّا اقْتَرَحُوا {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨).

{وَمَا مِنْ} زَائِدَة {دَابَّة} تَمْشِي {فِي الْأَرْض وَلَا طَائِر يَطِير} فِي الْهَوَاء {بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَم أَمْثَالكُمْ} فِي تَدْبِير خَلْقهَا وَرِزْقهَا وَأَحْوَالهَا {مَا فَرَّطْنَا} تَرَكْنَا {فِي الْكِتَاب} اللَّوْح الْمَحْفُوظ {مِنْ} زَائِدَة {شَيْء} فَلَمْ نَكْتُبهُ {ثُمَّ إِلَى رَبّهمْ يُحْشَرُونَ} فَيَقْضِي بَيْنهمْ وَيَقْتَصّ لِلْجَمَّاءِ مِنْ الْقَرْنَاء ثُمَّ يَقُول لَهُمْ كُونُوا تُرَابًا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [الأنعام: ٣٧]، أي:"وقال المشركون -تعنتًا واستكبارًا-: هلا أنزل الله علامة تدل على صدق محمد ﷺ من نوع العلامات الخارقة".

قال مقاتل:"يعني: هلا {نزل عليه} محمد، كما أنزل على الأنبياء {آية من ربه}".

قال السمرقندي:"يعني: الكفار. قالوا: هلا نزل عليه آية من ربه يعني: علامة لنبوته".

قال مكي:"أي: قال هؤلاء العادلون بالله غيره: هلا نزل على محمد آية، أي: علامة".

قال البيضاوي:"أي: آية بما اقترحوه، أو آية أخرى سوى ما أنزل من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عنادا".

قال الزجاج:"أي: آية تجمعهم على الهدى". قال القرطبي:" أي: جمع إلجاء".

=

=

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم كانوا يقولون: {لَوْلا نزلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} أي: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، ومما يتعنتون كما قالوا: {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعًا} الآيات [الإسراء: ٩٠]".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء العادلون بربهم، المعرضون عن آياته: هلا نزل على محمد آية من ربه؟ كما قال الشاعر:

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَل مَجْدِكُمْ بَنِي ضَوْطَرَي، لَولا الكَمِيَّ المُقَنَّعَا

بمعنى: هلا الكميَّ.

و «الآية»، العلامة، وذلك أنهم قالوا: مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأسْوَاقِ لَوْلا أُنزلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنز أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا [سورة الفرقان: ٧،٨]".

قال الزمخشري:"وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول الله ﷺ، لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عنادا منهم".

قال مقاتل: أرادوا بالآية مثل آيات الأنبياء.

وقال غيره: "أرادوا نزول ملك يشهد له بالنبوة".

قال القرطبي:" قال الحسن: {لولا} -ها هنا- بمعنى «هلا»، وقال الشاعر:

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَل مَجْدِكُمْ بَنِي ضَوْطَرَي، لَولا الكَمِيَّ المُقَنَّعَا

وكان هذا منهم تعنتا بعد ظهور البراهين، وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله، لما فيه من الوصف وعلم الغيوب".

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً} [الأنعام: ٣٧]، أي:"لهم -أيها الرسول-: إن الله قادر على أن ينزل عليهم آية".

قال الطبري: أي:"قل، يا محمد، لقائلي هذه المقالة لك: {إنّ الله قادر على أن

=

=

ينزل آية}، يعني: حجة على ما يريدون ويسألون".

قال ابن كثير:"أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك".

قال الزمخشري: يعني: فـ"تضطرهم إلى الإيمان. كنتق الجبل على بنى إسرائيل ونحوه، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب".

قال السمعاني:"يعني: أنه قادر على إنزال الآيات، وقد أنزل كثيرا من الآيات والمعجزات، ولكن لا ينزل الآيات على اقتراح الكفار".

قال البيضاوي: أي: آية مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل، أو آية إن جحدوها هلكوا".

وقرئ: «أن ينزل»، بالتشديد والتخفيف.

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٣٧]، أي:"ولكن أكثرهم لا يعلمون أن إنزال الآيات إنما يكون وَفْق حكمته تعالى، ولأنه لو نزلت الآية التي طلبوها ولم يؤمنوا لنزل بهم العذاب العاجل ، كما وقع بقوم صالح لما اقترحوا عليه إخراج ناقة عشراء ، من صخرة صماء ، فأخرجها الله لهم منها بقدرته ومشيئته فعقروها (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) فأهلكهم الله دفعة واحدة بعذاب استئصال ، وذلك في قوله تعالى (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا).".

قال البغوي: يعني:"ما عليهم في إنزالها".

قال السمرقندي:"أي: لا يعلمون أن الله إنما ينزل ما فيه الصلاح لعباده".

قال مكي:"أي: قال هؤلاء العادلون بالله غيره: هلا نزل على محمد آية، أي: علامة".

قال الزمخشري: أي:"أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، وأن صارفا من الحكمة

=

=

يصرفه عن إنزالها".

قال القرطبي:"أي: لا يعلمون أن الله ﷻ إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده، وكان في علم الله أن يخرج من أصلابهم أقواما يؤمنون به ولم يرد استئصالهم.

وقيل: {ولكن أكثرهم لا يعلمون} أن الله قادر على إنزالها".

قال الطبري:"يقول: ولكن أكثر الذين يقولون ذلك فيسألونك آية، لا يعلمون ما عليهم في الآية إن نزلها من البلاء، ولا يدرون ما وجه ترك إنزال ذلك عليك، ولو علموا السبب الذي من أجله لم أنزلها عليك، لم يقولوا ذلك، ولم يسألوكه، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك".

قال ابن كثير:"لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا} [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: {إِنْ نَشَأْ نُنزلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [الشعراء: ٤]".

قوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام: ٣٨]، أي:"ليس في الأرض حيوان يَدِبُّ على الأرض أو طائر يطير في السماء بجناحيه إلا جماعات متجانسة الخلق مثلكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المعرضين عنك، المكذبين بآيات الله: أيها القوم، لا تحسبُنَّ الله غافلا عما تعملون، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون! وكيف يغفل عن أعمالكم، أو يترك مجازاتكم عليها، وهو غير غافل عن عمل شيء دبَّ على الأرض صغيرٍ أو كبيرٍ، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء، بل جعل ذلك كله أجناسًا مجنَّسة وأصنافًا مصنفة، تعرف كما

=

=

تعرفون، وتتصرف فيما سُخِّرت له كما تتصرفون".

قال الزجاج:"وقال: {يطير بجناحيه} على جهة التوكيد لأنك قد تقول للرجل: طر في حاجتي أي أسرع، وجميع ما خلق الله ﷻ فليس يخلو من هاتين المنزلتين، إما أن يدب أو يطير، {إلا أمم أمثالكم}، أي: في الخلق والموت والبعث".

قال الواحدي:"يعني: جميع الحيوانات لأنها لا تخلوا من هاتين الحالتين، {إلاَّ أمم أمثالكم} أصناف مصنَّفة تُعرف بأسمائها فكلُّ جنس من البهائم أُمَّةٌ كالطَّير والظِّباء والذُّباب والأُسود وكلُّ صنفٍ من الحيوان أُمَّةٌ مثل بني آدم يعرفون بالإِنس".

قال ابو هلال العسكري:"لما جعلها أمثالهم في الخلق والموت والبعث، جعلها أمما".

عن مجاهد في قوله: "{أمم أمثالكم}، أصناف مصنفة تُعرَف بأسمائها".

قال قتادة:" يقول: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة".

قال السدي:"يقول: إلا خلق أمثالكم".

قال ابن جريج:"الذرّة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من الدواب".

قال ابو الحسن:"الدابة: كل ما دب من الحيوان، معنى قوله: {إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ}، أي: في الحاجة وشدة الفاقة إلى مدبر يدبرهم في أغذيتهم وكسبهم ونومهم ويقظتهم وما أشبه ذلك".

قال القرطبي:"و {دابة} تقع على جميع ما دب، وخص بالذكر ما في الأرض دون السماء لأنه الذي يعرفونه ويعاينونه. وقيل: هي أمثال لنا في التسبيح والدلالة، والمعنى: وما من دابة ولا طائر إلا وهو يسبح الله تعالى، ويدل على وحدانيته لو تأمل الكفار".

قال الماوردي: «الدَابَّة»:" يعني: جميع الحيوان الذي أنشأه فيها، سماه {دابة}

=

=

لدبيبه عليها".

قال القرطبي: "وقد أخرج بعض الناس الطير، وهو مردود قال اللّه تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦] فإن الطير يدب على رجليه في بعض حالاته" ، ومنه قول الأعشى:

نياف كغض البان ترتجّ إنْ مشتْ دبيب قطا البطحاء في كل منهل

وقال علقمة بن عبدة:

فكأنما صَابَتْ عليه سحابة صواعقها لطيرهن دبيب

وقال الحافظ ابن حجر: "الدابة: ما دبّ من الحيوان" ، واستثنى بعضهم الطير لقوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [الأنعام: ٣٨]، ولقوله تعالى: {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} [هود: ٥٦]، وعرفًا: ذوات الأربع ، وقيل: يختص بالفرس ، وقيل: بالحمار ، والمراد هنا المعنى اللغوي" ، أي: كل ما دب على الأرض من كائن له روح ليفيد العموم.

قوله: (إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) قيل: جماعات مثلكم ، خلقهم الله كما خلقكم ، ورزقهم كما رزقكم ، داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء.

وقيل: أمثالكم في أن لها أسماء تعرف بها.

وقيل: أمثالكم في الخلق والرزق والموت والاقتصاص.

قيل: يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني.

وإلى هذا القول ذهب طائفة كبيرة من المفسرين وقالوا: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتحمده وتوحده وتسبحه واحتجوا عليه بقوله تعالى (وَإِنْ مِمَّنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) وبقوله في صفة الحيوانات (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) وبما أنه تعالى خاطب النمل وخاطب الهدهد.

وقيل: المراد أنها أمثالنا في أن دبرها الله تعالى وخلقها وتكفل برزقها.

=

=

وقيل: المراد أنه تعالى كما أحصى في الكتاب كل ما يتعلق بأحوال البشر، من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة فكذلك أحصى في الكتاب جميع هذه الأحوال في كل الحيوانات، لقوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيءٍ).

وقيل: أراد تعالى أنها أمثالنا في أنها تحشر يوم القيامة يوصل إليها حقوقها.

وقيل: المراد ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم، فمنهم من يقدم إقدام الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاوس، ومنهم من يشبه الخنزير فإنه لو ألقي إليه الطعام الطيب تركه وإذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه.

فكذلك نجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها، ولم يجلس مجلسًا إلا رواه عنه.

والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر أن ينزل آية.

وفي قوله تعالى: {إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام: ٣٨]، قولان:

أحدهما: أنها الجماعات. قاله الأخفش، وغيره.

والثاني: أنها الأجناس، قاله الفراء، وأبو عبيدة.

قال أبو عبيدة:"إلا أجناس يعبدون الله، ويعرفونه، وملك".

قال الماوردي:"وليس يريد بقوله {أَمْثَالُكُم} في التكليف كما جعل قوم اشتبه الظاهر عليهم وتعلقوا مع اشتباه الظاهر برواية أبي ذر، قال: «انتطحت شاتان عند النبي -ﷺ-، فقال: يا أبا ذر أتدري فيم انتطحتا؟ قلت: لا، قال: لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا، قال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله -ﷺ- وما يقلب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكّرنا منه علمًا»، لأنه إذا كان العقل سببًا للتكليف كان عدمه لارتفاع التكليف".

=

=
والمراد بقوله تعالى: {أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام: ٣٨]، ثلاثة وجوه:
أحدها: أنها أجناس وتتميز في الصور والأسماء.
والثاني: أنها مخلوقة لا تُظْلَم، ومرزوقة لا تُحْرَم.
والثالث: يعني: في العلم بالضار والنافع، والتوقي عن الهلاك، ومعرفة العدو.
قال السمعاني: المراد"أنها أمثالكم في الخلق، والموت، والبعث، يعني: يخلقها كما يخلقكم، ويميتها كما يميتكم ويبعثها كما يبعثكم".
قال الزمخشري:" {أمم أمثالكم}: مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم".
قال القرطبي:" {إلا أمم أمثالكم}، أي: هم جماعات مثلكم في أن الله ﷻ خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم، فلا ينبغيأن تظلموهم، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به".
قال الطبري:"فإن قال قائل: فما وجهُ قوله: {ولا طائر يطير بجناحيه}؟ وهل يطير الطائر إلا بجناحيه؟ فما في الخبر عن طيرانه بالجناحين من الفائدة؟
قيل: قد قدمنا القول فيما مضى أن الله تعالى ذكره أنزل هذا الكتاب بلسان قوم، وبلغاتهم وما يتعارفونه بينهم ويستعملونه في منطقهم خاطبهم. فإذ كان من كلامهم إذا أرادوا المبالغة في الكلام أن يقولوا: كلمت فلانًا بفمي، ومشيت إليه برجلي، وضربته بيدي، خاطبهم تعالى بنظير ما يتعارفونه في كلامهم، ويستعملونه في خطابهم، ومن ذلك قوله تعالى ذكره: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى} [سورة ص: ٢٣]".
قال الزمخشري:"معنى زيادة قوله: {في الأرض ويطير بجناحيه}: زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة فقط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير
=

=

مهمل أمرها. فإن قلت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان".

قال القرطبي:" {بجناحيه} تأكيد وإزالة للإبهام، فإن العرب تستعمل الطيران لغير الطائر، تقول للرجل: طرفي حاجتي، أي أسرع، فذكر {بجناحيه} ليتمحض القول في الطير، وهو في غيره مجاز.

وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ولو كان غير معتدل لكان يميل، فأعلمنا أن الطيران بالجناحين و {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ال} [النحل: ٧٩].

و «الجناح»: أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي، ومنه جنحت السفينة إذا مالت إلى ناحية الأرض لاصقة بها فوقفت. وطائر الإنسان عمله، وفي التنزيل: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِه} [الإسراء: ١٣]".

وقرأ ابن أبى عبلة: «ولا طائر»، بالرفع على المحل، كأنه قيل: وما دابة ولا طائر. وقرأ علقمة: «ما فرطنا»، بالتخفيف.

قوله تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]، أي:"ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئًا إلا أثبتناه، أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحدًا من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان بريًا أو بحريًا، كما قال (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)".

قال ابن عباس:"ما تركنا شيئًا إلا قد كتبناه في أم الكتاب".

=

=

قال ابن زيد:"لم نُغفِل الكتاب، ما من شيء إلا وهو في الكتاب".

قال الطبري:"معناه: ما ضيعنا إثبات شيء منه".

قال أبو عبيدة:"ما تركنا ولا ضيعنا ولا خلقنا".

قال ابن ابي زمنين:"من آجالها وأعمالها وأرزاقها وآثارها؛ أي: أن ذلك كله مكتوب عند الله".

قال الواحدي: أي:" ما تركنا في الكتاب من شيءٍ بالعباد إليه حاجةٌ إلاَّ وقد بيَّناه إمَّا نصًّا وإمَّا دلالة وإمَّا مجملًا وإمَّا مفصَّلًا كقوله: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} أَيْ: لكلِّ شيء يحتاج إليه من أمر الدِّين".

قال الزمخشري: يعني"في اللوح المحفوظ من شيء من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به".

قال القرطبي:"أي: في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقيل: أي في القرآن أي ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب، قال الله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩]، وقال: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: ٤٤]، وقال: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧]، فأجمل في هذه الآية وآية «النحل» ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شي إلا ذكره، إما تفصيلا وإما تأصيلا، وقال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم} [المائدة: ٣]".

وفي قوله تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]، ثلاثة أقوال:

أحدها: ما تركنا خلقًا إلا أوجبنا له أجلًا، والكتاب هنا هو إيجاب الأجل كما قال تعالى: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ} [الرعد: ٣٨] قاله ابن بحر وأنشد لنابغة بني جعدة:

=

=

بلغو الملوك وأدركوا الـ كتاب وانتهى الأجل

والثاني: وهو قول الجمهور: أن الكتاب هو القرآن الكريم الذي أنزله، ما أخل فيه بشيء من أمور الدين، إما مُفَصَّلًا يَسْتَغْنِي عن التفسير، أو مجْمَلًا جعل إلى تفسيره سبيلًا.

والثالث: ما فرطنا فيه بدخول خلل عليه، أو وجود نقص فيه، فكتاب الله سليم من النقص والخلل. افاده الماوردي.

والرابع: أنه ذكر فيه جميع الاحتجاجات على مخالفيه. أفاده ابو الحسن.

قال السمعاني:"فإن قال قائل: نرى كثيرا من الأحكام ليست في الكتاب، فما معنى قوله: {ما فرطنا في الكتاب من شيء}؟ قيل: ما من شيء إلا وأصله في الكتاب، وقيل: ما قاله الرسول، فإنما قاله من الكتاب؛ لأنه قد قال في خبر معروف: "أوتيت القرآن ومثله " وقد قال الله – تعالى –: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣ – ٤]، فكل ما ثبت بالسنة؛ فكأنه ثابت في الكتاب، وقيل: معناه: ما فرطنا في الكتاب من شيء تقع الحاجة إليه".

قال السعدي: أي ما أهملنا ولا أغفلنا ، في اللوح المحفوظ شيئا من الأشياء ، بل جميع الأشياء ، صغيرها وكبيرها ، مثبتة في اللوح المحفوظ ، على ما هي عليه ، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم.

فالمراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ ، أي: ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئًا فلم نكتبه ، فالله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ.

قال ابن القيم: وقالت طائفة المراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس وكان هذا القول أظهر في الآية والسياق يدل عليه فإنه قال (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم) وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير

=

=

الأول وأنها لم تخلق سدى بل هي معبدة مذللة قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها ثم قال إلى ربهم يحشرون فذكر مبدأها ونهايتها وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} أي كلها قد كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول.

وقيل: المراد بالكتاب هنا ، القرآن ، ورجحه الرازي لكنه قول ضعيف.

وفي هذه الآية دليل لأحد مراتب الإيمان بالقدر وهي الكتابة ، فإن مراتب القدر أربعة:

أولًا: الإيمان بأن الله علم بكل شيء جملة وتفصيلًا ، أزلًا وأبدًا.

قال تعالى (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وقال تعالى (وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا).

ثانيًا: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

كما قال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا).

وقال ﷺ (إن الله كتب مقادير السموات والأرض قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه مسلم.

وفي هذين الأمرين يقول الله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ).

الثالث: الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى.

قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) وقال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا).

الرابع: الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله.

قال تعالى (ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ).

=

=

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٣٨]، أي:"ثم إنهم إلى ربهم يحشرون يوم القيامة، فيحاسب الله كلا بما عمل، فالأمم كلها تحشر من الدواب والطير وغيرها، وينصف الله بعضها من بعض، حتى يأخذ للجماء من القرناء".

قال الواحدي:"أَيْ: هذه الأمم {يحشرون} للحساب والجزاء".

قال الزمخشري:"يعنى: الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٣٨]، وجهان:

أحدهما: أن الحشر الجمع لبعث الساعة. وهذا قول أبي ذر ، وابي هريرة ، والحسن وغيرهم.

قال أبو ذر: "بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزان، فقال رسول الله ﷺ: أتدرون فيما انتطحتا؟ قالوا: لا ندري! قال: لكن الله يدري، وسيقضي بينهما".

قال أبو هريرة:"يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة، البهائمَ والدوابَّ والطيرَ وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذَ للجمَّاء من القَرْناء، ثم يقول: كوني ترابًا، فلذلك يقول الكافر: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا [سورة النبأ: ٤٠]".

والثاني: أن المراد بالحشر الموت، قاله ابن عباس ، والضحاك ، واختاره الفراء.

قال الفراء:"حشرها: موتها، ثم تحشر مع الناس فيقال لها: كوني ترابا. وعند ذلك يتمنى الكافر أنه كان ترابا مثلها.

قال القرطبي:"والأول أصح لظاهر الآية والخبر الصحيح، وفي التنزيل: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [التكوير: ٥]، وقالت جماعة: هذا الحشر الذي في الآية يرجع إلى الكفار وما تخلل كلام معترض وإقامة حجج، وأما الحديث فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد منه، وأنه لا محيص له عنه، وعضدوا هذا بما في الحديث في غير

=

=

الصحيح عن بعض رواته من الزيادة فقال: حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء، وللحجر لما ركب على الحجر، وللعود لما خدش العود، قالوا: فظهر من هذا أن المقصود منه التمثيل المفيد للاعتبار والتهويل، لأن الجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها، ولم يصر إليه أحد من العقلاء، ومتخيله من جملة المعتوهين الأغبياء، قالوا: ولأن القلم لا يجري عليهم فلا يجوز أن يؤاخذوا. قلت: الصحيح القول الأول لما ذكرناه من حديث أبي هريرة، وإن كان القلم لا يجري عليهم في الأحكام ولكن فيما بينهم يؤاخذون به".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنّ كل دابة وطائر محشورٌ إليه. وجائز أن يكون معنيًّا بذلك حشر القيامة وجائز أن يكون معنيًّا به حشر الموت وجائز أن يكون معنيًّا به الحشران جميعًا، ولا دلالة في ظاهر التنزيل، ولا في خبر عن النبي ﷺ أيُّ ذلك المراد بقوله: {ثم إلى ربهم يحشرون}، إذ كان «الحشر»، في كلام العرب الجمع، ومن ذلك قول الله تعالى ذكره: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} [سورة ص: ١٩]، يعني: مجموعة. فإذ كان الجمع هو «الحشر»، وكان الله تعالى ذكره جامعًا خلقه إليه يوم القيامة، وجامعهم بالموت، كان أصوبُ القول في ذلك أن يُعَمَّ بمعنى الآية ما عمه الله بظاهرها وأن يقال: كل دابة وكل طائر محشورٌ إلى الله بعد الفناء وبعد بعث القيامة، إذ كان الله تعالى ذكره قد عم بقوله: {ثم إلى ربهم يحشرون}، ولم يخصص به حشرًا دون حشر".

قال الماوردي:"فإن قيل: فإذا كانت غير مُكَلَّفَةٍ فلماذا تبعث يوم القيامة؟

قيل: ليس التكليف علة البعث، لأن الأطفال والمجانين يبعثون وإن كانوا في الدنيا غير مكلفين، وإنما يبعثها ليعوض ما استحق العوض منها بإيلام أو ظلم، ثميجعل ما يشاء منها ترابًا، وما شاء من دواب الجنة يتمتع المؤمنون بركوبه ورؤيته".

=

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩).

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} الْقُرْآن {صُمّ} عَنْ سَمَاعهَا سَمَاع قَبُول {وَبُكْم} عَنْ النُّطْق بِالْحَقِّ {فِي الظُّلُمَات} الْكُفْر {مَنْ يَشَأْ الله} إضْلَاله {يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ} هِدَايَته {يَجْعَلهُ عَلَى صِرَاط} طَرِيق {مُسْتَقِيم} دِين الْإِسْلَام[1].

=

قال السمعاني:"ولا شك في حشر البهائم والحيوانات يوم القيامة، حتى روى: «أن الله - تعالى - يحشرها ويقتص للجماء من القرناء» ، وروى أبو ذر: «أن النبي رأى شاتين تنتطحان؛ فقال: يا أبا ذر، أتدري فيما نتطحان؟ فقلت: لا. فقال لكن الله يدري، وسيقضي بينهما» ، وأمثال هذا كثير، وسبيل الناس أن يؤمنوا به، ويكلوا علمه إلى الله - تعالى - فإنه شيء لا تهتدي إليه العقول، وعلى هذه الآية حكاية: حكي أن بهلول المجنون رأى أبا يوسف القاضي في الطريق؛ فسأله وقال: إن الله - تعالى - يقول: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام: ٣٨]، ثم يقول: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِير} [فاطر: ٢٤]، فما نذير الكلاب؟ فتحير أبو يوسف عن الجواب، فأخذ بهلول حجرا من الأرض، وقال: هذا نذير الكلاب".

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأنعام: ٣٩].

أي: والذين كذبوا بآياتنا كالقرآن المنزل ، وسمي آية لأنه علامة ودليل على صدق من جاء به.

قال الطبري: يقول:"والذين كذبوا بحجج الله وأعلامه وأدلته".

قال مقاتل:" {بآياتنا}، يعني: القرآن".

قال السمرقندي:" {بآياتنا} يعني: محمدا ﷺ والقرآن".

=

=

قوله تعالى: {صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ} [الأنعام: ٣٩]، أي:"صمٌ لا يسمعون كلام الله سماع قبول بكمٌ لا ينطقون بالحق خابطون في ظلمات الكفر".

عن قتادة:" {صم وبكم}، هذا مثل الكافر، أصم أبكم، لا يبصر هدًى، ولا ينتفع به، صَمَّ عن الحق في الظلمات، لا يستطيع منها خروجًا، متسكِّع فيها".

قال مقاتل:" {صم} لا يسمعون الهدى، {وبكم}، لا يتكلمون به، {في الظلمات} يعني: الشرك".

قال السمرقندي:" {صم} عن الخبر فلا يسمعون الهدى، {وبكم}، يعني: خرسا فلا يتكلمون بخير، {في الظلمات}، يعني: في الضلالات".

قال البغوي: {صُمٌّ وَبُكْمٌ}: أي:" لا يسمعون الخير ولا يتكلمون به، {في الظلمات} في ضلالات الكف".

قال أبو عبيدة:"مثل للكفار، لأنهم لا يسمعون الحق والدين وهم قد يسمعون غيره، وبكم لا يقولونه، وهم ليسوا بخرس".

قال القرطبي:"أي: عدموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم، فكل أمة من الدواب وغيرها تهتدي لمصالحها والكفار لا يهتدون، {في الظلمات}، أي: ظلمات الكفر، وقال أبو علي: يجوز أن يكون المعنى {صم وبكم} في الآخرة، فيكون حقيقة دون مجاز اللغة".

قال ابن كثير:"أي: مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم - وهو الذي لا يسمع - أبكم - وهو الذي لا يتكلم - وهو مع هذا في ظلام لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يُخْرج مما هو فيه؟ كما قال تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ} [البقرة: ١٧، ١٨} وكما قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ

=

=
ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: ٤٠]".

قال الطبري: يقول:" {صمٌّ}، عن سماع الحق، {بكم}، عن القيل به، {في الظلمات}، يعني: في ظلمة الكفر حائرًا فيها، يقول: هو مرتطم في ظلمات الكفر، لا يبصر آيات الله فيعتبر بها، ويعلم أن الذي خلقه وأنشأه فدبَّره وأحكم تدبيره، وقدَّره أحسن تقدير، وأعطاه القوة، وصحح له آلة جسمه لم يخلقه عبثًا، ولم يتركه سدًى، ولم يعطه ما أعطاه من الآلات إلا لاستعمالها في طاعته وما يرضيه، دون معصيته وما يسخطه. فهو لحيرته في ظلمات الكفر، وتردّده في غمراتها، غافلٌ عمَّا الله قد أثبت له في أمّ الكتاب، وما هو به فاعلٌ يوم يحشر إليه مع سائر الأمم".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف أتبعه قوله: {والذين كذبوا بآياتنا}؟

قلت: لما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادى على عظمته قال: والمكذبون {صم} لا يسماعون كلام المنبه، {بكم} لا ينطقون بالحق، خابطون في ظلمات الكفر، فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه".

قوله تعالى: {مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٣٩]، أي:"من يشأ الله إضلاله يضلله، ومن يشأ هدايته يجعله على صراط مستقيم".

قال ابن كثير:"أي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء".

قال السمرقندي:" {من يشأ الله يضلله}، يعني: يخذله فيموت على الكفر، {ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم}، يعني: يستنقذه من الكفر فيوفقه للإسلام".

قال القرطبي: قوله:" {من يشأ الله يضلله} دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله. ألا ترى أنه قال: {وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٣٩]، أي: على دين الإسلام لينفذ فيه فضله. وفيه إبطال لمذهب القدرية، =

=

والمشيئة راجعة إلى «الذين كذبوا»، فمنهم من يضله ومنهم من يهديه".

قال البيضاوي: يعني:"من يشأ الله إضلاله يضلله، وهو دليل واضح لنا على المعتزلة، {ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم}، بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه".

قال الطبري:"ثم أخبر تعالى ذكره أنه المضِلّ من يشاء إضلالَه من خلقه عن الإيمان إلى الكفر، والهادي إلى الصراط المستقيم منهم من أحبَّ هدايته، فموفّقه بفضله وطَوْله للإيمان به، وترك الكفر به وبرسله وما جاءت به أنبياؤه، وأنه لا يهتدي من خلقه أحد إلا من سبق له في أمّ الكتاب السعادة، ولا يضل منهم أحد إلا من سبق له فيها الشقاء، وأنّ بيده الخير كلُّه، وإليه الفضل كله، له الخلق والأمر".

قال ابن عطية:"الصراط: الطريق الواضح".

عن الحارث، قال: "دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الصراط المستقيم: كتاب الله".

عن النواس بن سمعان الأنصاري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، قال: فالصراط: الإسلام".

وعن عاصم الأحول عن أبي العالية، قال: "«الصراط المستقيم»: هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده. قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن. فقال صدق أبو العالية ونصح".

وعن مجاهد في قوله: «صراط مستقيم»، قال: الحق".

* أن كل فعل علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة ، أي: أنها ليست مشيئة مجردة هكذا تأتي عفوًا، وهذا عام في أحكام الله الشرعية والقدرية:

في الشرعية قال تعالى في المواريث (فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا).

وفي الأمور القدرية قال تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا

=

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠).

{قُلْ} يَا مُحَمَّد لِأَهْلِ مَكَّة {أَرَأَيْتُكُمْ} أَخْبِرُونِي {إِنْ أَتَاكُمْ عَذَاب الله} فِي الدُّنْيَا {أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَة} الْقِيَامَة الْمُشْتَمِلَة عَلَيْهِ بَغْتَة {أَغَيْر الله تَدْعُونَ} لَا {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِي أَنَّ الْأَصْنَام تَنْفَعكُمْ فَادْعُوهَا.

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١).

{بَلْ إِيَّاهُ} لَا غَيْره {تَدْعُونَ} فِي الشَّدَائِد {فَيَكْشِف مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ} أَنْ يَكْشِفهُ عَنْكُمْ مِنْ الضُّرّ وَنَحْوه {إِنْ شَاءَ} كَشْفه {وَتَنْسَوْنَ} تَتْرُكُونَ {مَا تُشْرِكُونَ} مَعَهُ مِنْ الْأَصْنَام فَلَا تدعونه[1].

=

حَكِيمًا).

وهذه الحكمة قد تكون معلومة للجميع ، وقد تكون معلومة لبعض الناس ، وقد تكون مجهولة لكل الناس ، لا يحيطون بالله علمًا.

قال ابن القيم: من نزهه – سبحانه – أن يفعل لغرض أو حكمة حذرًا من تشبيهه بالفاعلين لذلك فقد شبهه بأهل السفه والعبث الذين لا يقصدون بأفعالهم غاية محمودة ، ولا غرضًا مطلوبًا محبوبًا.

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ} [الأنعام: ٤٠]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن جاءكم عذاب الله في الدنيا أو جاءتكم الساعة التي تبعثون فيها".

قوله تعالى: {قُلْ}، أي: يا محمد، وإن شئت فقل: إن الخطاب عامّ لكل من يصح خطابه {أَرَأَيْتَكُمْ} قال العلماء: أرأيت بمعنى أَخْبِرْني وإعرابها كالتالي: الهمزة: للاستفهام، والرؤيا هنا علمية، والتاء فاعل، والكاف للخطاب توكيدًا، وليس لها

=

=

محل من الإعراب، والميم علامة الجمع، وقوله: {أَرَأَيْتَ} تحتاج إلى مفعول أول ومفعول ثانٍ؛ لأن الرؤية هنا علمية، و (رأى) العلمية تنصب مفعولين والمفعول الأول هنا محذوف ويقدر بما يناسب المقام، والذي يناسب المقام هنا حالكم عند الشدة، والجملة الاسمية {أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ} في محل نصب المفعول الثاني، يعني: أخبروني إذا وقعتم في شدة أتدعون غير الله؟

الجواب: لا، وهذا تفسير بالمعنى، أما التفسير المطابق للفظ: أعلمتم هذا فأخبروني.

قال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [لقمان: ٣٢]، أي: إذا وقعوا في الشدة عرفوا الله، والعجب أن المشركين إذا وقعوا في الشدة دعوا الله، وأن بعض الطوائف المبتدعة في هذه الأمة إذا وقعوا في الشدة دعوا غير الله، إذا وقعوا في الشدة دعوا عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ، دعوا على بن أبي طالب، أو الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وما أشبه ذلك، فصار حال المشركين خيرًا من حال هؤلاء.

عن مجاهد: قوله:" {قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله}، قال: فجاءة آمنين".

قال ابن أبي زمنين:" {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ}، قال الحسن: يعني: في الدنيا بالاستئصال، {أو أتتكم الساعة} بالعذاب".

قال الطبري: أي:" قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بالله الأوثانَ والأصنامَ: أخبروني، إن جاءكم، أيها القوم، عذاب الله، كالذي جاء من قبلكم من الأمم الذين هلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصاعقة أو جاءتكم الساعة التي تنشرون فيها من قبوركم، وتبعثون لموقف القيامة".

قال الزجاج:"أي: أتدعون هذه الأصنام والحجارة التي عبدتموها من دون الله، فاحتج الله عليهم بما لا يدفعونه، لأنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله".

=

=

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا مُعقِّب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء؛ ولهذا قال: {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ} أي: أتاكم هذا أو هذا".

قال البغوي: قوله: {أَرَأَيْتَكُمْ}، أي:"هل رأيتم؟ والكاف فيه للتأكيد".

قال الفراء:"العرب لها فى «أرأيت» لغتان، ومعينان:

أحدهما: أن يسأل الرجل الرجل: أرأيت زيدا بعينك؟ فهذه مهموزة. فإذا أوقعتها على الرجل منه قلت: أرأيتك على غير هذه الحال؟ تريد: هل رأيت نفسك على غير هذه الحال. ثم تثنى وتجمع، فتقول للرجلين: أرايتما كما، وللقوم: أرأيتموكم، وللنسوة: أرأيتنكن، وللمرأة: أرأيتك، تخفض التاء والكاف، لا يجوز إلا ذلك.

والمعنى الآخر: أن تقول: أرأيتك، وأنت تريد: أخبرني وتهمزها، وتنصب التاء منها وتترك الهمز إن شئت، وهو أكثر كلام العرب، وتترك التاء موحدة مفتوحة للواحد والواحدة والجميع مؤنثه ومذكره. فتقول للمرأة: أرايتك زيدا هل خرج، وللنسوة: أرايتكن زيدا ما فعل".

وقرأ أهل المدينة: «أرايتكم»، و «أرايتم»، و «أرايت»، بتليين الهمزة الثانية، والكسائي بحذفها.

قوله تعالى: {أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ} [الأنعام: ٤٠]، أي:"أغير الله تدعون هناك لكشف ما نزل بكم من البلاء".

قال السمرقندي: أي:"ليدفع عنكم العذاب".

قال الثعلبي: أي:" في صرف العذاب".

قال الطبري: يقول:"أغير الله هناك تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء، أو إلى

=

=

غيره من آلهتكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء؟".

قال الواحدي:"أَيْ: أتدعون هذه الأصنام والأحجار التي عبدتموها من دون الله".

قال ابن كثير:"أي: لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه".

قال ابن أبي زمنين:"أي: أنكم لا تدعون إلا الله؛ فتؤمنوا حيث لا يقبل الإيمان منكم؛ وقد قضى الله ألا يقبل الإيمان عند نزول العذاب".

قال الماتريدي: يعني:"في رفع ذلك، وكشفه عنكم، وقوله - تعالى-: {أغير الله تدعون}،

يحتمل: حقيقة الدعاء عند نزول الجلاء، ويحتمل: العبادة، أي: أغير الله تعبدون على رجاء الشفاعة لكم، وقد رأيتم أنها لم تشفع لكم عند نزول البلايا".

قال السمعاني:"هذا استفهام بمعنى التقرير، يعني: لا تدعون إلا الله، وأراد به في أحوال الضرورات؛ فإن الكفار في حال الضرورات يدعون الله - تعالى - كما قال: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين}".

قال الزمخشري:"بمعنى أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضر، أم تدعون الله دونها بل إياه تدعون بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأنعام: ٤٠]، أي:"إن كنتم محقين في زعمكم أن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله تنفع أو تضر؟".

قال الطبري: يقول:"إن كنتم محقّين في دعواكم وزعمكم أنّ آلهتكم التي تدعونها من دون الله تنفع أو تضر".

قال الماتريدي: أي:"أن معه شركاء وآلهة، أو أن ما تعبدون شفعاؤكم عند الله، أو تقربكم عبادتكم إياها إلى الله".

قال ابن كثير:" أي: في اتخاذكم آلهة معه".

=

=

قال الواحدي:" {إن كنتم صادقين} جوابٌ لقوله: {أرأيتكم} لأنَّه بمعنى أخبروني كأنَّه قيل: إنْ كنتم صادقين أخبروا مَنْ تدعون عند نزول البلاء بكم".

قال النحاس:"في هذها لآية أعظم الاحتجاج؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، فإذا وقعوا في شدة، دعوا الله".

قوله تعالى: {بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ} [الأنعام: ٤١]، أي:"بل تدعون -هناك- ربكم الذي خلقكم لا غيره، وتستغيثون به".

قوله: {بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ} {بَلْ} للإضراب الإبطالي، إبطال أنهم يدعون غير الله و {إِيَّاهُ} مفعول مقدم لـ {تَدْعُونَ}، وتقديم المعمول يفيد الحصر، والمعنى: بل لا تدعون إلا الله.

قوله: فَيَكشفُ بمعنى: يزيل كما تكشف المستور فتزيل ستره حتى يظهر ويبدو، {مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ}، أي: ما دعوتم به إلى الله ﷻ، أي: يكشف الدعاء الذي أنهيتموه إلى الله ﷻ، {إِنْ شَاءَ}، وإنما قال: {إِنْ شَاءَ} لئلا يطمع هؤلاء في كشف الكربة فإذا لم تكشف احتجوا على الله، فإذا قال: {إِنْ شَاءَ} صارت المسألة تحت مشيئة الله، قد يشاء الله ﷻ كشف هذه الكربة، وقد لا يشاء حسب ما تقتضيه حكمته تبارك وتعالى.

قال الثعلبي: أي:"تخلصون".

قال البغوي:"أي: تدعون الله ولا تدعون غيره".

قال ابن عطية:"المعنى: بل لا ملجأ لكم إلا الله".

قال البيضاوي: أي:"بل تخصونه بالدعاء كما حكي عنهم في مواضع، وتقديم المفعول لإفادة التخصيص".

قال السمعاني:"هذا تقرير لما استفهم منه في الآية الأولى، يعني: بل تدعون الله، ولا تدعون غيره".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مكذبا لهؤلاء العادلين به الأوثان: ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة بمستجيرين بشيء غير الله في حال شدة الهول النازل بكم من آلهة ووثن وصنم، بل تدعون هناك ربكم الذي خلقكم وبه تستغيثون وإليه تفزعون دون كل شيء غيره".

قال ابن كثير:"أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحدا سواه".

قال الزجاج:"فأعلمهم الله جل وعز أنهم لا يدعون في حال الشدائد إلا إياه، وفي ذلك أعظم الحجة عليهم، لأنهم قد عبدوا الأصنام".

قال الواحدي:" {بل} - هاهنا- نفي دعائهم غير الله في الشدائد وإثبات دعائهم إياه".

قوله تعالى: {فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ} [الأنعام: ٤١]، أي:"فيفرج عنكم البلاء العظيم النازل بكم إن شاء".

قال الواحدي:"أي: فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم".

قال القرطبي:"أي: يكشف الضر الذي تدعون إلى كشفه إن شاء كشفه".

قال الزمخشري:" أى: ما تدعونه إلى كشفه، {إن شاء}، إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة".

قال الطبري:"يقول: فيفرِّج عنكم عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه، عظيم البلاء النازل بكم إن شاء أن يفرج ذلك عنكم، لأنه القادر على كل شيء، ومالك كل شيء، دون ما تدعونه إلهًا من الأوثان والأصنام".

قال الزجاج:"المعنى: فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم، وهذا على اتساع الكلام. مثل: سل القرية: المعنى: سل أهل القرية".

قال ابن أبي زمنين:" وهذه مشيئة القدرة، ولايشاء أن يكشف عنهم عند نزول العذاب".

=

=

قال البغوي:"قيد الإجابة بالمشيئة، والأمور كلها بمشيئته".

قال السمعاني:"قيّد إجابة الدعوة بالمشيئة -هاهنا-، وأطلقها في قوله: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠]، قال أهل العلم: وذلك مقيد بالمشيئة أيضا، بدليل هذه الآية".

قال ابن عطية: "و {إن شاء}: استثناء، لأن المحنة إذا أظلت عليهم فدعوا إليه في كشفها وصرفها فهو لا إله إلا هو كاشف إن شاء ومصيب إن شاء لا يجب عليه شيء".

عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ما من الناس أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل، وكف عنه من السوء مثله، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم".

قوله تعالى: {وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ٤١].

قوله: {وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ}، أي: تذهلون عنه لشدة ما وقع بكم فتنسون كل شيء، وقيل: إن النسيان هنا بمعنى الترك، أي: أنهم يدعون الله ﷻ بحضور قلب وذكر وهما متلازمان في الواقع؛ لأن الإنسان عند الدهشة ينسى معبوداته، ولأنه أيضًا عند الشدة يعتقد أن معبوده لا ينفعه فهي صالحة للأمرين، وفسرها بهذا كثيرٌ من المفسرين بأن النسيان هنا بمعنى الترك كما قال ﷻ: {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ} [السجدة: ١٤]، وقال {نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة: ٦٧]، والنسيان المضاف إلى الله هو الترك في مثل هذا، وأما في قوله: {لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه: ٥٢] فالمراد بالنسيان هنا أن يغيب عنه ما كان ذاكرًا له من قبل، فالنسيان المثبت لله يجب أن يكون بمعنى الترك لا بمعنى الذهول عن المعلوم، أما المنفي عن الله، فهو الذي يكون بمعنى الذهول.

قال القرطبي:"قيل: عند نزول العذاب".

وقال الحسن: "أي تعرضون عنه إعراض الناسي، وذلك لليأس من النجاة من قبله

=

=

إذ لا ضرر فيه ولا نفع".

قال البيضاوي: أي:"وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت، لما ركز في العقول على أنه القادر على كشف الضر دون غيره، أو وتنسونه من شدة الأمر وهوله".

قال ابن أبي زمنين: أي:" {ما تشركون} بالله من هذه الأوثان؛ فتعرضون عنها".

قال مقاتل:"يعني: وتتركون ما تشركون بالله من الآلهة فلا تدعونهم أن يكشفوا عنكم ولكنكم تدعون الله".

قال الطبري:"يقول: وتنسون حين يأتيكم عذاب الله أو تأتيكم الساعة بأهوالها، ما تشركونه مع الله في عبادتكم إياه، فتجعلونه له ندًّا من وثن وَصنم، وغير ذلك مما تعبدونه من دونه وتدعونه إلهًا".

قال السمرقندي:"يعني: تتركون دعاء الآلهة عند نزول الشدة".

قال ابن كثير: أي:"وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم".

قال ابن عطية: أي:"وأصنامكم مطرحة منسية".

قال السمعاني:"وذلك أنهم لما تركوا الأصنام في حال الضرورات إلى دعاء الله؛ فكأنهم نسوا ما يشركون".

قال الزمخشري: أي:" وتتركون آلهتكم، أو لا تذكرونها في ذلك الوقت، لأن أذهانكم في ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده، إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره. ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: {أغير الله تدعون}، كأنه قيل: أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله.

فإن قلت: إن علقت الشرط به فما تصنع بقوله: {فيكشف ما تدعون إليه}، مع قوله: {أو أتتكم الساعة} وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين؟

قلت: قد اشترط في الكشف المشيئة، وهو قوله: {إن شاء} إيذانا بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه".

=

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَم مِنْ} زَائِدَة {قَبْلك} رُسُلًا فَكَذَّبُوهُمْ {فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ} شِدَّة الْفَقْر {وَالضَّرَّاء} الْمَرَض {لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} يَتَذَلَّلُونَ فَيُؤْمِنُونَ.

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣).

{فَلَوْلَا} فَهَلَّا {إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسنَا} عَذَابنَا {تَضَرَّعُوا} أَيْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ مَعَ قِيَام الْمُقْتَضِي لَهُ {وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبهمْ} فَلَمْ تَلِنْ لِلْإِيمَانِ {وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَان مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} مِنْ الْمَعَاصِي فَأَصَرُّوا عَلَيْهَا.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤).

{فَلَمَّا نَسُوا} تَرَكُوا {مَا ذُكِّرُوا} وُعِظُوا وَخُوِّفُوا {بِهِ} مِنْ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء فَلَمْ يَتَّعِظُوا {فَتَحْنَا} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {عَلَيْهِمْ أَبْوَاب كُلّ شَيْء} مِنْ النِّعَم اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ {حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا} فَرَح بَطَر {أَخَذْنَاهُمْ} بِالْعَذَابِ {بَغْتَة} فَجْأَة {فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} آيِسُونَ مِنْ كُلّ خَيْر.

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥).

=

قال الزجاج:" {وتنسون} -ههنا- على ضربين: جائز أن يكون تنسون تتركون، وجائز أنيكون المعنى إنكم في تركككم دعاءهم بمنزلة من يسهون".

{فَقُطِعَ دَابِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} أَيْ آخِرهمْ بِأَنْ اُسْتُؤْصِلُوا {وَالْحَمْد لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ} عَلَى نَصْر الرُّسُل وَإِهْلَاك الْكَافِرِينَ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ} [الأنعام: ٤٢]، أي:" ولقد بعثنا -أيها الرسول- إلى جماعات من الناس من قبلك رسلا يدعونهم إلى الله تعالى، والآية تسلية للنبي ﷺ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره متوعدًا لهؤلاء العادلين به الأصنامَ ومحذِّرَهم أن يسلك بهم إن هم تمادَوا في ضلالهم سبيلَ من سلك سبيلهم من الأمم قبلهم، في تعجيل الله عقوبته لهم في الدنيا ومخبرًا نبيَّه عن سنته في الذين خلوا قبلهم من الأمم على منهاجهم في تكذيب الرسل: {لقد أرسلنا}، يا محمد، {إلى أمم}، يعني: إلى جماعات وقرون".

قوله تعالى: {فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ} [الأنعام: ٤٢]، أي:" فكذَّبوهم، فابتلينـاهم في أموالهم بشدة الفقر وضيق المعيشة، وابتلينـاهم في أجسامهم بالأمراض والآلام".

قال ابن أبي زمنين:" {البأساء}: البؤس؛ وهي الشدائد من الجدوبة، وشدة المعاش. و {الضراء}، يعني: الضر من الأمراض والأوجاع".

قال ابن كثير:" {بِالْبَأْسَاءِ} يعني: الفقر والضيق في العيش {وَالضَّرَّاءِ} وهي الأمراض والأسقام والآلام".

قال الطبري:" يقول: فأمرناهم ونهيناهم، فكذبوا رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، فامتحناهم بالابتلاء {بالبأساء}، وهي شدة الفقر والضيق في المعيشة، {والضراء}، وهي الأسقام والعلل العارضة في الأجسام، وفي الكلام محذوفٌ قد استغني بما دلّ عليه الظاهر من إظهاره دون قوله: {ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم}، وإنما كان سبب أخذه إياهم، تكذيبهم الرسل وخلافهم أمرَه لا =

=

إرسال الرسل إليهم. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن معنى الكلام: {ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك} رسلا فكذبوهم، {فأخذناهم بالبأساء}".

قال الزجاج:" قيل {الباسا}: الجوع، و {الضراء}: النقص في الأموال والأنفس، والمعنى: أن الله جل ثناؤه أعلم نبيه ﷺ أنه قد أرسل الرسل قبله إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم ليخضعوا ويذلوا لأمر الله، لأن القلوب تخشع. والنفوس تضرع عند ما يكون من أمر الله في البأساء والضراء. فلم تخشع ولم تضرع".

قال ابن عطية: "في الكلام حذف يدل عليه الظاهر تقديره فكذبوا فأخذناهم ، ومعناه لازمناهم وتابعناهم الشيء بعد الشيء ، (البأساء) المصائب في الأموال ، (والضراء) في الأبدان ، هذا قول الأكثر ، وقيل قد يوضع كل واحد بدل الآخر".

قال أبو حيان: "هذا تسلية للرسول ﷺ وإن عادة الأمم مع رسلهم التكذيب والمبالغة في قسوة القلوب حتى هم إذا أخذوا بالبلايا لا يتذللون لله ولا يسألونه كشفها".

وقال ابن عاشور: "والمراد: أنّ الله قدّم لهم عذابًا هيّنًا قبل العذاب الأكبر ، كما قال (ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّهم يرجعون) وهذا من فرط رحمته الممازجة لمقتضى حكمته؛ وفيه إنذار لقريش بأنّهم سيصيبهم البأساء والضرّاء قبل الاستئصال ، وهو استئصال السيف".

وفي تفسير {الْبَأْسَاءِ} [الأنعام: ٤٢]، على أربعة أقوال:

أحدهما: أنه الفقر. قاله عبد الله بن مسعود ، قال ابن أبي حاتم:" وروي، عن ابن عباس، وأبي العالية، والحسن -في أحد قوليه-، ومرة الهمداني، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس والسدي ومقاتل ابن حيان نحو ذلك.

والثاني: أنه البلاء. قاله الحسن.

=

=

والثالث: انه البؤس. قاله عبيد بن عمير.

والرابع: انه الخوف من السلطان. وهذا قول سعيد بن جبير.

واختلف في قوله: {الضَّرَّاءِ} [الأنعام: ٤٢]، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه السقم. قاله السدي ، قال ابن ابي حاتم:"وروي عن ابن عباس وأبي العالية ومرة وأبي مالك والحسن ومجاهد والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان، والضحاك نحو ذلك".

الثاني: أنه الأمراض والجوع. قاله الحسن.

الثالث: أنه البلاء والشدة. قاله سعيد بن جبير.

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} [الأنعام: ٤٢]، لعل: للتعليل، أي:" رجاء أن يتذللوا لربهم، ويخضعوا له وحده بالعبادة".

قال الزمخشري: أي:" يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم".

قال الواحدي: أي:" لكي يتذلَّوا ويتخشعوا".

قال البغوي:" أي: يتوبون ويخضعون، والتضرع: السؤال بالتذلل".

قال النحاس:" أي: ليكون العباد على رجاء من التضرع".

قال ابن كثير:" أي: يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون".

قال السمرقندي:" يعني: لكي يرجعوا إليه ويؤمنوا به".

قال الطبري:" يقول: فعلنا ذلك بهم ليتضرعوا إليّ، ويخلصوا لي العبادة، ويُفْردوا رغبتهم إليَّ دون غيري، بالتذلل منهم لي بالطاعة، والاستكانة منهم إليّ بالإنابة".

عن أبي مالك قوله: "{لعلهم}، يعني: كي".

قال الزجاج:" معنى لعل ترج، وهذا الترجي للعباد، أخذهم الله بذلك ليكون ما يرجوه العباد منه بالتضرع، كما قال ﷻ في قصة فرعون: {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٤]، قال سيبويه: «المعنى اذهبا على رجائكما، والله عالم بما يكون وراء

=

=

ذلك» ".

و «التضرع»: هو: التفعل من «الضراعة»، وهي الذلة والاستكانة".

قال السمعاني:" التضرع: السؤال بالتذلل".

قال الواحدي:" معنى التضرع: التخشع وهو حال ظاهرة تنبئ عن الانقياد للطاعة، وأصله من الضراعة وهي الذلة، يُقال: ضرع الرجل يضرع ضراعة، وهو ضارع، ورجل ضرع: ذليل ضعيف".

قال أهل اللغة: "ضَرَعَ الرجل يضرَع ضَرَعًا وضَرَاعَة: إذا استكان وذل، فهو ضارع بين الضَّراعة، وتَضَرَّع إلى الله، أي: ابتهل، والضَّرَعُ بالتحريك: الضعيف".

قال الرازي: فإن قيل: أليس قوله (بَلْ إياه تَدْعُونَ) يدل على أنهم تضرعوا؟ وههنا يقول: قست قلوبهم ولم يتضرعوا.

قلنا: أولئك أقوام ، وهؤلاء أقوام آخرون.

أو نقول أولئك تضرعوا لطلب إزالة البلية ولم يتضرعوا على سبيل الإخلاص لله تعالى فلهذا الفرق حسن النفي والإثبات.

قال ابنُ رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: مِن لَطَائِفِ البَلايَا وفوائِدِها تكفيرُ الخطايا بها والثواب على الصبر عليها، وهل يثاب على البلاء نَفْسِهِ، فيه اختلاف بين العلماء.

ومنها: تذكير العبد بذنوبه فربما تاب ورجع منها إلى الله ﷻ.

ومنها: زوالُ قسوة القلوب وحدوثُ رقَّتِها.

قال بعضُ السلف إن العبدَ لَيُمْرِضُ فيذكرُ ذُنُوبَهَ فَيَخْرُجَ منه مثلُ رَأَسِ الذباب من خشيةِ اللهِ فيغفرُ له.

ومنها: انْكِسارُهُ لِلَّهِ ﷻ وذِلَّهُ وذلك أَحَبُ إلى اللهِ مِن كثيرٍ مِن طاعاتِ الطائعين.

ومنها: أنها تُوجِبُ لِلعبدِ الرجُوعَ بِقلبه إلى الله ﷻ والوقوفَ ببابه والتضرعَ لَهُ والاستكانة وذلك مِن أعظَمِ فوائِدِ البَلاءِ وقد ذَمَّ اللهُ مَن لا يَسْتكينُ لَهُ عند

=

=

الشدائد.

قال تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) وقال (وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ).

قوله تعالى: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا} [الأنعام: ٤٣]، أي:" فهلا إذ جاء هذه الأمم المكذبة بلاؤنا تذللوا لنا".

قال ابن كثير:" أي: فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا".

قال مقاتل:" يعني: الشدة والبلاء تضرعوا إلى الله وتابوا إليه لكشف ما نزل بهم من البلاء".

قال الطبري: أي:" فهلا إذ جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رسلَها، الذين لم يتضرعوا عند أخذِناهم بالبأساء والضراء، فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته، فيصرف ربهم عنهم بأسه، وهو عذابه".

قال الزمخشري:" معناه: نفى التضرع، كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا. ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم".

قال الفراء:" معنى {فَلَوْلَا}: فهلا. ويكون معناها على معنى «لولا»، كأنك قلت: لولا عبد الله لضربتك. فإذا رأيت بعدها اسما واحدا مرفوعا فهو بمعنى لولا التي جوابها اللام وإذا لم تر بعدها اسما فهي استفهام كقوله: {لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} [المنافقون: ١٠]، وكقوله: {فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة: ٨٦ - ٨٧]".

قال ابن قتيبة:" أي: فهلا إذ جاءهم بأسنا". "وقال: {فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ} [يونس: ٩٨]، وقال الشاعر:

تعدّون عقر النّيب أفضل مجدكم بني ضوطرى لولا الكميّ المقنّعا

=

=

أي: فهّلا تعدّون الكميّ".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ} [الأنعام: ٤٣]، أي:" ولكن ظهر منهم النقيض حيث قست قلوبهم فلم تلن للإيمان".

وقسوة القلب: غلظته وشدته بحيث لا يعتبر ولا يتعظ.

وقد حذر الله من قسوة القلب فقال تعالى (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ).

وهو من صفات أهل الكتاب فقال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) فوصف أهل الكتاب بالقسوة ، ونهانا عن التشبه بهم.

قال ابن القيم: ما ضربَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله.

قال مقاتل:" يعني: جفت قلوبهم فلم تلن".

قال ابن كثير:" أي: ما رقت ولا خشعت".

قال الطبري:" يقول: ولكن أقاموا على تكذيبهم رسلهم، وأصرُّوا على ذلك، واستكبروا عن أمر ربهم، استهانةً بعقاب الله، واستخفافًا بعذابه، وقساوةَ قلب منهم".

قال قتادة:" عاب الله عليهم القسوة عند ذلك، فتضعضعوا لعقوبة الله. بارك الله فيكم لا تعرضوا لعقوبة الله بالقسوة، فإنه عاب ذلك على قوم قبلكم".

قوله تعالى: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٤٣]، أي:" وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من المعاصي، ويأتون من الشرك".

قال الطبري:" يقول: وحسن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الأعمال التي يكرهها الله ويسخطها منهم".

قال مقاتل:" من الشرك والتكذيب".

=

=

قال البغوي: أي:" من الكفر والمعاصي".

قال ابن كثير:" أي: من الشرك والمعاصي".

قوله تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ} [الأنعام: ٤٤].

أي: فلما تركوا وأعرضوا عما جاءهم من التذكير وجعلوه وراء ظهورهم.

فالنسيان هنا الترك ، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به ، إذ ليس هو من فعلهم.

قال ابن عباس:" يعني: تركوا ما ذكروا به".

وعن ابن جريج قوله: "{نسوا ما ذكروا به} ، قال: ما دعاهم الله إليه ورسله، أبوْه وردُّوه عليهم".

قال الطبري: أي:" فلما تركوا العمل بما أمرناهم به على ألسن رسلنا".

قال الزمخشري: {ما ذكروا به} ، أي:" من البأساء والضراء: أى تركوا الاتعاظ به ولم ينفع فيهم ولم يزجرهم".

قال البغوي: أي:" تركوا ما وعظوا وأمروا به".

قال القرطبي: "قوله تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) يُقال: لِم ذمّوا على النسيان وليس من فعلهم؟

فالجواب أنّ (نَسُوا) بمعنى تركوا ما ذكّروا به ، عن ابن عباس وابن جُرَيْج ، وهو قول أبي عليّ.

وذلك لأن التارك للشيء إعراضًا عنه قد صيره بمنزلة ما قد نسِي ، كما يُقال: تركه في النِّسْي.

جواب آخر وهو أنهم تعرّضوا للنّسيان فجاز الذمّ لذلك؛ كما جاز الذمّ على التعرّض لسخط الله ﷻ وعقابه".

قال ابن كثير:" أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم".

=

=

قوله تعالى: {فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ٤٤]، أي:" فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق فأبدلناهم بالبأساء رخاءً في العيش، وبالضراء صحة في الأجسام؛ استدراجا منا لهم".

قال الفراء:" يعني: أبواب الرزق والمطر، وهو الخير في الدنيا لنفتنهم فيه، وهو مثل قوله: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا} [يونس: ٢٤]، ومثله: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا.. } [الجن: ١٦ - ١٧]، و «الطريقة»: طريقة الشرك، أي: لو استمروا عليها فعلنا ذلك بهم".

قال الزجاج:" أي: فتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مغلقا عليهم من الخير".

قال الطبري:" يقول: بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة في العيش، ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام، استدراجًا منَّا لهم".

قال الزمخشري: أي:" من الصحة والسعة وصنوف النعمة، ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى، طلبا لصلاحه".

قال ابن كثير:" أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذا بالله من مكره".

قال البغوي: أي:" وهذا فتح استدراج ومكر، أي: بدلنا مكان البلاء والشدة الرخاء والصحة".

عن مجاهد في قول الله تعالى ذكره: "{فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، قال: رخاء الدنيا ويُسْرها، على القرون الأولى".

قال قتادة:" يعني الرخاء وسعة الرزق".

=

=

عن السدي قوله: "{فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، يقول: من الرزق".

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج " ثم تلا رسول الله ﷺ: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون} [الأنعام: ٤٤].

وروي عن أبي سنان الشيباني، أنه قال في قوله: "{فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، قال: فتح عليهم أربعين سنة".

قال الحسن: مكَر بالقوم ورب الكعبة ، أعطُوا حاجتهم ثم أخذوا.

وقال الحسن: من وسّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له.

قال الطبري:" فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: {فتحنا عليهم أبوابَ كل شيء}، وقد علمت أن بابَ الرحمة وباب التوبة [لم يفتحا لهم]، لم تفتح لهم أبواب أخر غيرهما كثيرة؟

قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننتَ من معناه، وإنما معنى ذلك: فتحنا عليهم، استدراجًا منا لهم، أبوابَ كل ما كنا سددنا عليهم بابه، عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا، إذ لم يتضرعوا وتركوا أمر الله تعالى ذكره، لأنّ آخر هذا الكلام مردودٌ على أوله. وذلك كما قال تعالى ذكره في موضع آخر من كتابه: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}، [سورة الأعراف: ٩٤ - ٩٥]، ففتح الله على القوم الذين ذكر في هذه الآية [أنهم نسوا ما] ذكرهم، بقوله: {فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، هو تبديله لهم مكانَ السيئة التي كانوا فيها في حال امتحانه إياهم، من ضيق العيش إلى الرخاء والسعة، ومن الضر في الأجسام

=

=

إلى الصحة والعافية، وهو: فتح أبواب كل
شيء، كان أغلق بابه عليهم، مما جرى ذكره قبل قوله: {فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، فردّ قوله: {فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، عليه".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا} [الأنعام: ٤٤]، أي:" حتى إذا بطروا، وأعجبوا بما أعطيناهم من الخير والنعمة".

قال الطبري:" حتى إذا فرح هؤلاء المكذّبون رسلهم بفتحنا عليهم أبوابَ السَّعة في المعيشة، والصحة في الأجسام".

قال الزجاج:" أي: حتى إذا ظنوا أن كل ما نزل بهم لم يكن انتقاما من الله جل وعز، وأنهم لما فتح عليهم ظنوا أن ذلك باستحقاقهم".

قال الزمخشري: أي:" بما أوتوا من الخير والنعم، لم يزيدوا على الفرح والبطر، من غير انتداب لشكر ولا تصد لتوبة واعتذار".

قال ابن كثير:" أي: من الأموال والأولاد والأرزاق".

قال البغوي:" وهذا فرح بطر مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا".

عن السدي: "{حتى إذا فرحوا بما أوتوا}، من الرزق".

قال ابن جريج:"أعجبَ ما كانت إليهم، وأغَرَّها لهم".

قال الفضيل بن عياض:" {حتى إذا فرحوا بما أوتوا} من الدنيا وركنوا إليها، واطمأنوا بها، {أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}".

قوله تعالى: {أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً} [الأنعام: ٤٤]، أي:" أخذناهم بالعذاب فجأة".

قال مجاهد:" فجأة آمنين".

قال السدي:" يقول: أخذهم العذابُ بغتةً".

قال ابن قتيبة: أي: "فجأة وجهرة معاينة".

قال ابن كثير:" أي: على غفلة".

=

=

قال الطبري: أي:" أتيناهم بالعذاب فجأة، وهم غارُّون لا يشعرون أن ذلك كائن، ولا هو بهم حالٌّ".

قال الزجاج:" أي: فاجأهم عذابنا من حيث لا يشعرون".

قال البغوي: يعني:" فجأة آمن ما كانوا، وأعجب ما كانت الدنيا إليهم".

قال أبو عبيدة:" {بَغْتَةً}: أي فجأة، يقال: بغتني، أي: فاجأنى".

عن محمد بن النضر الحارثي في قوله:" {خذناهم بغتة}، قال: أُمهلوا عشرين سنة".

عن سفيان قوله: "{أخذناهم بغتة}، قال: ستين سنة".

عن حماد بن زيد قال: "كان رجل يقول: رَحم الله رجلا تلا هذه الآية، ثم فكر فيها ماذا أريد بها: {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة}".

وقال قتادة:" بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوما قط إلا عند سلوتهم وعزتهم ونعمتهم، فلا تفتروا بالله، إنه لا يفتر بالله إلا القوم الفاسقون".

قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: ٤٤]، أي:" فإذا هم آيسون منقطعون من كل خير".

عن ابن عباس، "قوله: أبلسوا، يقول: أيسوا".

قال السدي:" فإذا هم مهلكون، متغيِّر حالهم".

وفي رواية اخرى عن السدي:" فإذا هم مبلسون، قال: تغير الوجه، وإنما سمي إبليس لأن الله ﷻ أبلسه وغيره".

عن مجاهد: {فإذا هم مبلسون}، قال: الاكتئاب".

وعن عكرمة قال: "{فإذا هم مبلسون}، قال: عام الفتح".

قال الطبري: أي:" فإنهم هالكون، منقطعة حججهم، نادمون على ما سلف منهم من تكذيبهم رسلَهم".

=

=

قال ابن قتيبة: أي: "يائسون ملقون بأيديهم".

قال الزمخشري: أي:" متحسرون آيسون".

قال البغوي وابن كثير: أي:" آيسون من كل خير".

وفي اصل «الإبلاس» خمسة اقوال:

أحدها: أنه الحزن على الشيء والندم عليه. وهذا قول أبو عبيدة ، والزجاج ، وهو معنى قول السدي.

قال أبو عبيدة:" المبلس: الحزين الدائم... قال رؤبة:

وحضرت يوم خميس الأخماس وفى الوجوه صفرة وإبلاس

أي: اكتئاب وكسوف وحزن".

قال الزجاج:" «المبلس»: الشديد الحسرة، واليائس الحزين".

قال البغوي: "وأصل «الإبلاس»:الإطراق من الحزن والندم".

والثاني: أنه السكوت وانقطاع الحجة. وهذا قول الفراء ، وحكاه الطبري عن بعضهم.

قال الفراء:" المبلس: اليائس المنقطع رجاؤه. ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب: قد أبلس" ، ثم استشهد بقول العجّاج:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسَا؟ قَالَ: نَعَمْ! أَعْرِفُه! وَأَبْلَسَا

أي: "لم يحر إلي جوابا".

والثالث: أنه الخشوع. حكاه الطبري عن بعضهم.

والرابع: أن الإبلاس: الإياس. قال عدي بن زيد:

ملك إذا حل العفاة ببابه غبطوا وأنجح منهم المستبلس

يعني: الآيس.

=

=

والخامس: أنه الخذلان. ذكره الماوردي.

عن ابن وهب قال ابن زيد:" «المبلس»: الذي قد نزل به الشرّ الذي لا يدفعه. والمبلس أشد من المستكين، وقرأ: {فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} [سورة المؤمنون: ٧٦]. وكان أول مرة فيه معاتبة وبقيّة، وقرأ قول الله: {أخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون} {فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا}، حتى بلغ: {وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون}، ثم جاء أمرٌ ليس فيه بقية، وقرأ: {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}، فجاء أمر ليس فيه بقية، وكان الأوّل، لو أنهم تضرعوا كُشف عنهم".

وروي عن الحسن، أنه قال:" من وسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له. ثم قرأ: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}، قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا".

قوله تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [الأنعام: ٤٥]، أي:" فاستؤصل هؤلاء القوم وأُهلكوا إذ كفروا بالله وكذَّبوا رسله، فلم يبق منهم أحد".

قال السدي:" يقول: قطع أصل الذين ظلموا".

قال عبد الرحمن بن زيد:" استؤصل القوم".

قال أبو عبيدة:" أي: آخر القوم الذي يدبرهم".

قال ابن قتيبة: "أي: آخرهم. كما يقال: اجتث أصلهم".

قال الزمخشري:" {دابر القوم}: آخرهم، لم يترك منهم أحد، قد استؤصلت شأفتهم ".

قال البغوي: {دابر القوم}: "أي: آخرهم الذين بدبرهم، يقال: دبر فلان القوم يدبرهم دبرا ودبورا إذا كان آخرهم، ومعناه أنهم استؤصلوا بالعذاب فلم يبق منهم

=

=

باقية".

قوله تعالى: {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٤٥]، أي:" والشكر والثناء لله تعالى -خالق كل شيء ومالكه- على نصرة أوليائه وهلاك أعدائه".

قال أبو حيان: "قوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) عبارة عن استئصالهم بالهلاك والمعنى: فقطع دابرهم ونبه على سبب الاستئصال بذكر الوصف الذي هو الظلم ، وهو هنا الكفر والدابر التابع للشيء من خلفه".

قال الزجاج:" حمد الله ﷻ نفسه على أن قطع دابرهم، واستأصل شأفتهم، لأنه جل وعز أرسل إليهم الرسل، وأنظرهم بعد كفرهم، وأخذهم بالبأساء والضراء فبالغ جل وعز في إنذارهم وإمهالهم، فحمد نفسه، لأنه محمود في إمهاله من كفر به وانتظاره توبته".

قال البغوي: حمد الله نفسه على أن قطع دابرهم لأنه نعمة على الرسل، فذكر الحمد لله تعليما لهم ولمن آمن بهم، أن يحمدوا الله على كفايته شر الظالمين، وليحمد محمد ﷺ وأصحابه ربهم إذا أهلك المكذبين".

عن الضحاك، عن ابن عباس قال: "ثم قال جبريل: قل يا محمد: الحمد لله رب العالمين قال: قل يا محمد لله الخلق كله، السموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن، ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

قال الزمخشري: "إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة وأنه من أجل النعم وأجزل القسم".

وقال أبو حيان: والذي يظهر أنه تعالى لما أرسل إلى هؤلاء الأمم كذبوهم وآذوهم فابتلاهم الله تارة بالبلاء ، وتارة بالرخاء فلم يؤمنوا فأهلكهم واستراح الرسل من شرهم وتكذيبهم وصار ذلك نعمة في حق الرسل إذ أنجز الله وعده على لسانهم بهلاك المكذبين فناسب هذا الفعل كله الختم بالحمدلة.

=

=

وقال ابن عاشور: وهذا الحمد شكر لأنّه مقابل نعمة، وإنّما كان هلاكهم صلاحًا لأنّ الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحقّ والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم فإذا هلك الظالمون عاد العدل، وهو ميزان قوام العالم.

واختُلِف في (العالم)، على أقوال:

أحدها: أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا قول أبي إسحاق الزجَّاج ، وقتادة ، ومجاهد ، وابن عباس في رواية الضحاك عنه.

قال الثعلبي:"واحتجوا بقوله: {قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا} [الشعراء:٢٣ - ٢٤]".

والثاني: أنّه الإنس، والجنِّ، وهذا قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن جريج ، ومقاتل بن سليمان.

ودليلهم قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، ولم يكن نذيرا للبهائم.

كما ويقوي هذا القول، جمع الكلمة على (عالمون)، وهو جمع لايكون إلا مع العاقل! فيكون هذا دليلا على أن الحديث عن عوالم عاقلة.

والثالث: أن العالم: الدنيا وما فيها.

والرابع: أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، لقوله تعالى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦٥]، أي من الناس ، وقال العجّاج:

فَخِنْدِفٌ هامَةُ هَذَا العَالَمِ مبارك للأنبياء خاتم

وقال جرير بن الخطفى:

تنصفه البرية وهو سام ويضحي العالمون له عيالا

والخامس: أن العالم عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس والجن والملائكة

=

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦).

{قُلْ} لِأَهْلِ مَكَّة {أَرَأَيْتُمْ} أَخْبِرُونِي {إِنْ أَخَذَ الله سَمْعكُمْ} أَصَمّكُمْ {وَأَبْصَاركُمْ} أَعْمَاكُمْ {وَخَتَمَ} طَبَعَ {عَلَى قُلُوبكُمْ} فَلَا تَعْرِفُونَ شَيْئًا {مَنْ إلَه غَيْر الله يَأْتِيكُمْ بِهِ} بِمَا أَخَذَهُ مِنْكُمْ بِزَعْمِكُمْ {اُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّف} نُبَيِّن {الْآيَات} الدَّلَالَات عَلَى وَحْدَانِيَّتنَا {ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ} يُعْرِضُونَ عَنْهَا فلا يؤمنون[1].

=

والشياطين، ولا يقال للبهائم: عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. وهذا قول الفراء وأبي عبيدة.

والسادس: أن العالمين، أي: المخلوقين. قاله أبو عبيدة ، وأنشد قول لبيد بن ربيعة:

ما إن رأيت ولا سمعـ تُ بمثلهم فى العالمينا

والسابع: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم ، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم الروحانيّون، وابن قتيبة ، وهو معنى قول ابن عباس كذلك: "كل ذي روح دبّ على وجه الأرض".

والثامن: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق.

والظاهر أن {العالَمين}: جمع «عالم»، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و «العالَم» جمع لا واحدَ له من لفظه، و «العوالم» أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم. والله أعلم.

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ} [الأنعام: ٤٦]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أذهب الله سمعكم

=

=

فأصمَّكم، وذهب بأبصاركم فأعماكم".

قال الزمخشري:"بأن يصمكم ويعميكم".

قال أبو عبيدة: أي:"إن أصم الله أسماعكم وأعمى أبصاركم، تقول العرب: قد أخذ الله سمع فلان، وأخذ بصر فلان".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بي الأوثانَ والأصنامَ، المكذبين بك: أرأيتم، أيها المشركون بالله غيرَه، إن أصمَّكم الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، حتى لا تفقهوا قولا ولا تبصروا حجة".

قال السمرقندي:"أي: قل لاهل مكة أرأيتم إن أخذ الله سمعكم فلم تسمعوا شيئا وأبصاركم فلم تبصروا شيئا".

قال ابن عطية:"هذا ابتداء احتجاج على الكفار، و {أخذ الله}، معناه: أذهبه وانتزعه بقدرته، ووحد «السمع»، لأنه مصدر مفرد يدل على جمع".

قرأ نافع: «أرأيتم»: بعد الألف بغير همز. وقرأ الكسائي بغير مد ولا همز. وقرأ الباقون: بالهمز. فهي كلها لغات العرب.

قوله تعالى: {وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ} [الأنعام: ٤٦]، أي:"وطبع على قلوبكم فأصبحتم لا تفقهون قولا".

عن أبي مالك، قوله: "{وختم}، يعني: طبع".

قال الزمخشري:"بأن يغطى عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم".

قال الطبري: أي:"فطبع عليها حتى لا تفهموا مفهومًا".

قال البغوي: أي:"حتى لا تفقهوا شيئا ولا تعرفوا مما تعرفون من أمور الدنيا".

قوله تعالى: {مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ} [الأنعام: ٤٦].

أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على

=

=

ذلك أحد سواه، وإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك ، فلمَ عبدتم معه مَنْ لا قدرة له على شيء إلا إذا شاءه الله ، وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك.

قال السمرقندي:"يعني: هل أحد يرده عليكم يأتيكم به يعني: يخلقها لكم".

قال ابن ابي زمنين:"يقول: ليس بفعل ذلك؛ حتى يرده عليكم إن شاء إلا هو".

قال الطبري: يقول:"أيّ إله غير الله الذي له عبادة كل عابد يرد عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فتعبدوه أو تشركوه في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، وعلى ردّه عليكم إذا شاء؟ وهذا من الله تعالى ذكره، تعليم نبيَّه الحجة على المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا، وإنما يستحق العبادةَ عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقبض والبسط، القادرُ على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء".

قال البغوي:"ولم يقل «بها» مع أنه ذكر أشياء، قيل: معناه: يأتيكم بما أخذ منكم، وقيل: الكناية ترجع إلى السمع الذي ذكر أولا ويندرج غيره تحته، كقوله تعالى: {وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} [التوبة: ٦٢]، فالهاء راجعة إلى الله، ورضى رسوله يندرج في رضى الله تعالى".

قال ابن عطية:"والاستفهام في قوله: {من إله} معناه التوقيف، أي: ليس ثمة إله سواه فما بال تعلقكم بالأصنام وتمسككم بها وهي لا تدفع ضررا ولا تأتي بخير".

وقرأ الأعرج وغيره: «به انظر» بضم الهاء، ورواها المسيبي وأبو وجزة عن نافع.

قال الخازن: "وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء ، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا".

قوله تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ} [الأنعام: ٤٦]، أي:" انظر كيف نبيّن

=

=

ونوضح الآيات الدالة على وحدانيتنا".

قال الطبري:"يقول: انظر كيف نتابع عليهم الحجج، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ليعتبروا ويذكروا فينيبوا".

قال البغوي:"أي: نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة".

قال السمرقندي:"أي: كيف تبين لهم العلامات فيما ذكر من تخويفهم".

قال ابن عطية:"وتصريف الآيات هو نصب العبر ومجيء آيات القرآن بالإنذار والاعذار والبشارة ونحوه".

والتصريف: المجيء بالآيات على جهات مختلفة ، تارة إنذارًا ، وتارة إعذارًا ، وتارة ترغيبًا ، وتارة ترهيبًا.

قال القرطبي: وتصريف الآيات الإتيان بها من جهات؛ من إعذار وإنذار وترغيب وترهيب ونحو ذلك.

والآية هي العلامة الدالة على عظمة الله ووحدانيته سبحانه ، وقد نوع الله الآيات ووضحها.

قال تعالى (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ).

وقال تعالى (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا).

فكل شيء في الكون دال على وحدانية الله تعالى.

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي

=

=
تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ)

وخلق السموات من أعظم الآيات كما قال تعالى (اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) وقال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ).

فواعجبًا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحدُ

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قوله تعالى: {ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ} [الأنعام: ٤٦]، أي:" ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها فلا يعتبرون".

عن ابن عباس قوله:" {يصدفون}، قال: يعدلون".

عن السدي:" {ثم هم يصدفون}، قال: يصدُّون".

عن مجاهد في قوله:" {يصدفون}، قال: يعرضون".

عن قتادة في قوله:" {نصرف الآيات ثم هم يصدفون}، قال: يعرضون عنها".

قال أبو عبيدة: أي:"يعرضون، يقال: صدف عنى بوجهه، أي أعرض".

قال السمرقندي:"يعني: يعرضون ولا يعتبرون".

قال الثعلبي: أي:" يعرضون عنها مكذبين بها".

قال الزمخشري:"يعرضون عن الآيات بعد ظهورها".

قال القرطبي:"أي: مائلون معرضون عن الحجج والدلالات".

=

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧).

{قُلْ} لَهُمْ {أَرَأَيْتُكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَاب الله بَغْتَة أَوْ جَهْرَة} لَيْلًا أَوْ نَهَارًا {هَلْ يُهْلَك إِلَّا الْقَوْم الظَّالِمُونَ} الْكَافِرُونَ أَيْ مَا يُهْلَك إِلَّا هُمْ[1].

=

قال الزجاج:"أي: يعرضون، أعلم الله جل وعز أنه يصرف لهم الآيات، وهيالعلاماتالتي تدل على توحيده، وصحة نبوة نبيه ﷺ ثم هم يعرضون عما وضح لهم وظهر عندهم".

قال الطبري:"يقول: ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجج، وتنبيهنا إياهم بالعبر، عن الادّكار والاعتبار يُعْرضون، يقال منه: صدف فلانٌ عني بوجهه، فهو يصدِفُ صُدوفًا وصَدفًا، أي: عدل وأعرض، ومنه قول ابن الرقاع:

إِذَا ذَكَرْنَ حَدِيثًا قُلْنَ أَحْسَنَهُ، وَهُنَّ عَنْ كُلِّ سُوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ

وقال لبيد:

يُرْوِي قَوامِحَ قَبْلَ اللَّيْلِ صَادِفَةً أَشْبَاهَ جِنّ، عَلَيْهَا الرَّيْطُ وَالأُزُرُ "

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً} [الأنعام: ٤٧]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن نزل بكم عقاب الله فجأة وأنتم لا تشعرون به، أو ظاهرًا عِيانًا وأنتم تنظرون إليه".

عن مجاهد:" {قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة}، فجأة آمنين، {أو جهرة}، وهم ينظرون".

قال الزجاج:"البغتة: المفاجأة، والجهر: أو يأتيهم وهم يرونه".

قال مقاتل:" {بغتة}، يعني: فجأة لا تشعرون حتى ينزل بكم، {أو جهرة}، أو معاينة ترونه حين ينزل بكم: القتل ببدر".

قال ابن كثير:" {بَغْتَةً} أي: وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم، {أَوْ جَهْرَةً}

=

=

أي: ظاهرًا عيانًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ، المكذبين بأنك لي رسول إليهم: أخبروني {إن أتاكم عذاب الله}، وعقابه على ما تشركون به من الأوثان والأنداد، وتكذيبكم إيايَ بعد الذي قد عاينتم من البرهان على حقيقة قولي، فجأة على غرة لا تشعرون، أو أتاكم عذاب الله وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه".

قال الزمخشري:"لما كانت البغتة أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته، قيل: بغتة أو جهرة".

وقال ابن أبي زمنين ، والسمعاني:" {بغتة} أي: ليلا {أو جهرة} نهارا". وعزاه البغوي إلى ابن عباس والحسن.

قال ابن عطية:"قوله تعالى: {قل أرأيتكم} الآية، وعيد وتهديد، و {بغتة}، معناه: لا يتقدم عندكم منها علم، و {جهرة}، معناه: تبدو لكم مخايله ومباديه ثم تتوالى حتى تنزل".

وقرئ: «بغتة أو جهرة»، بتحريك الغين والهاء.

قال ابن عاشور: "والجهرة: الجهر، ضد الخفية، وضد السر. وقد تقدم عنه قوله تعالى: وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة في سورة البقرة [٥٥].

وقد أوقع الجهرة هنا في مقابلة البغتة وكان الظاهر أن تقابل البغتة بالنظرة أو أن تقابل الجهرة بالخفية، إلا أن البغتة لما كانت وقوع الشيء من غير شعور به كان حصولها خفيا فحسن مقابلته بالجهرة، فالعذاب الذي يجيء بغتة هو الذي لا تسبقه علامة ولا إعلام به. والذي يجيء جهرة هو الذي تسبقه علامة مثل الكسف المحكي في قوله تعالى: فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا [الأحقاف: ٢٤] أو يسبقه إعلام به كما في قوله تعالى: فعقروها فقال

=

=

تمتعوا في داركم ثلاثة أيام [هود: ٦٥]. فإطلاق الجهرة على سبق ما يشعر بحصول الشيء إطلاق مجازي. وليس المراد من البغتة الحاصل ليلا ومن الجهرة الحاصل نهارا".

وقال الشنقيطي: "ولم يبين هنا نوع العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص لله، ولم يبين هنا أيضًا إذا كشف عنهم العذاب هل يستمرون على إخلاصهم، أو يرجعون إلى كفرهم وشركهم، ولكنه بين كل ذلك في مواضع أخر. فبين أن العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص، هو نزول الكروب التي يخاف من نزلت به الهلاك، كأن يهيج البحر عليهم وتلتطم أمواجه، ويغلب على ظنهم أنهم سيغرقون فيه إن لم يخلصوا الدعاء لله وحده، كقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [١٠/ ٢٢،٢٣]، وقوله: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} [١٧/ ٦٧]، وقوله: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [٢٩/ ٦٥]، وقوله: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [٣١/ ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين أنهم إذا كشف الله عنهم ذلك الكرب، رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشرك في مواضع

كثيرة كقوله: {فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْأِنْسَانُ كَفُورًا} ، وقوله: {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} ، وقوله: {قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ} [٦/ ٤٦]، وقوله: {فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} ، إلى غير ذلك من الآيات.

=

=

وبين تعالى أن رجوعهم للشرك بعد أن نجاهم الله من الغرق من شدة جهلهم، وعماهم: لأنه قادر على أن يهلكهم في البر كقدرته على إهلاكهم في البحر، وقادر على أن يعيدهم في البحر مرة أخرى، ويهلكهم فيه بالغرق فجرأتهم عليه إذا وصلوا البر لا وجه لها. لأنها من جهلهم وضلالهم، وذلك في قوله: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا، أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} [١٧/ ٦٨،٦٩]".

قوله تعالى: {هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام: ٤٧]، أي:"هل يُهلك إلا القوم الظالمون الذين تجاوزوا الحد، بصرفهم العبادة لغير الله تعالى وبتكذيبهم رسله؟".

قال مقاتل:"يعني: المشركون".

قال الزجاج:"أي: هل يهلك الأ أنتم ومن أشبهكم، لأنكم كفرتم معاندين، فقد علمتم أنكم ظالمون".

قال الزمخشري:"أى: ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون".

قال الطبري:"يقول: هل يهلك الله منا ومنكم إلا من كان يعبد غير من يستحق علينا العبادة، وترك عبادة من يستحق علينا العبادة؟".

قال ابن كثير:"أي: إنما: كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ﷻ وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما قال تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢]".

قال ابن أبي زمنين:"يخوفهم العذاب؛ إن لم يؤمنوا".

وأصل «الظلم»: في كلام العرب، وضعُ الشيء في غير موضعه، ومنه قول نابغة بني

=

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨).

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ} مَنْ آمَنَ بِالْجَنَّةِ {وَمُنْذِرِينَ} مَنْ كَفَرَ بِالنَّارِ {فَمَنْ آمَنَ} بِهِمْ {وَأَصْلَحَ} عَمَله {فَلَا خَوْف عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} فِي الْآخِرَة.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩).

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسّهُمْ الْعَذَاب بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} يَخْرُجُونَ عَنْ الطَّاعَة[1].

=

ذبيان:

إِلا أُوَارِيَّ لأيًا مَا أُبَيِّنُهَا وَالنُّؤْيُ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلَدِ

فجعل الأرض مظلومة، لأن الذي حفر فيها النؤى حَفر في غير موضع الحفر، فجعلها مظلومة، لموضع الحفرة منها في غير موضعها، ومن ذلك قول ابن قَميئة في صفة غيث:

ظَلَمَ الْبِطَاحَ بِهَا انْهِلالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النِّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ الْمُقْلَعِ

قوله: ظلمه إياه: مجيئه في غير أوانه، وانصبابه في غير مصبِّه. ومنه: ظَلم الرجلُ جَزوره، وهو نحره إياه لغير علة. وذلك عند العرب وَضْع النحر في غير موضعه.

(١) قوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [الأنعام: ٤٨].

أي: وما نرسل الرسل إلا مبشرين لمن آمن بالجنات والخيرات، ومنذرين من كفر بالنار والعقوبات، لم نرسل المرسلين لتكون بيدهم خزائن السماوات والأرض، أو يكون ملائكة، أو يقترح عليهم من شاء كل ما شاء من التعنتات، لا، ليس الأمر كذلك، وإنما أرسلناهم تبشيرًا وإنذارًا.

=

=

التبشير الإخبار بما يسر ، سمي بذلك لأن البشر يظهر على الوجه ، والإنذار: هو الإعلام المقرون بالتخويف.

والبشارة أغلب ما تطلق على الإخبار بما يسر خاصة ، وجاء في القرآن إطلاقها على الإخبار بما يسوء كقوله (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) إما تهكمًا ، وإما أن هذا أسلوب من أساليب العرب.

في هذه الآية حصر مهمة الرسل بالتبشير والإنذار ، حتى لا يتوهم متوهم أن له قدرة على الهداية أو الرزق أو الربوبية.

قال ابن كثير:"أي: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات".

قال الطبري: يقول:"وما نرسل رسلنا إلا ببشارة أهل الطاعة لنا بالجنة والفوز المبين يوم القيامة، جزاءً منَّا لهم على طاعتنا وبإنذار من عصَانا وخالف أمرنا، عقوبتنا إياه على معصيتنا يوم القيامة، جزاءً منا على معصيتنا، لنعذر إليه فيهلك إن هلك عن بينة".

قال الزجاج:"أي: ليس إرسالهم بأن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات، وإنمايأتون من الآيات بما يبين الله به براهينهم، وإنما قصدهم التبشيروالإنذار".

قال الزمخشري:" {مبشرينومنذرين}، لمن آمن بهم وبما جاءوا به وأطاعهم، ومن كذبهم وعصاهم ولم يرسلهم ليتلهى بهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة".

قال البيضاوي:"مبشرين المؤمنين بالجنة، ومنذرين الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهى بهم".

عن ابن عباس، قوله: "{مبشرين} قال: مبشرا بالجنة" ، {ومنذرين}، قال:"نذيرا من النار".

=

=

قال أبي بن كعب:"إن الله إنما بعث الرسل وأنزل الكتاب عند الاختلاف".

قال قتادة:"فكان أول نبي بعث نوحا ﷺ".

قوله تعالى: {فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ} [الأنعام: ٤٨].

(فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ) وإصلاح العمل يكون بأمرين: الإخلاص ، ومتابعة الشريعة، والقاعدة المقررة عند العلماء: أن الإيمان إذا جاء مطلقًا ولم يُعطف عليه العمل الصالح فهو يشمل الإيمان من الجهات الثلاث: إيمان القلب بالاعتقاد، وإيمان اللسان بالإقرار، وإيمان الجوارح بالعمل الصالح، وإذا عُطف عليه العمل الصالح كقوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قوله هنا (آمَنَ وَأَصْلَحَ) انصرف الإيمان إلى ركنه الأكبر وهو الاعتقاد القلبي، وصار الإصلاح بعده يُراد به الأعمال.

قال ابن كثير:"أي: فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم".

قال الطبري:"يقول: فمن صدَّق من أرسلنا إليه من رسلنا إنذارهم إياه، وقبل منهم ما جاؤوه به من عند الله، وعمل صالحًا في الدنيا".

قال السعدي:"أي: آمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته".

عن قتادة:" {وأصلح} قال: أصلح ما بينه وبين الله".

قال الزمخشري:" {وأصلح} ما يجب عليه إصلاحه مما كلف".

قوله تعالى: {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [الأنعام: ٤٨].

قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان:"يعني: في الآخرة".

قال الثعلبي:"حين يخاف أهل النار".

قال ابن كثير:"أي: بالنسبة إلى ما يستقبلونه".

قال البيضاوي: أي:"من العذاب".

=

=

قال السعدي:"أي: فيما يستقبل".

قال الطبري: أي:"عند قدومهم على ربهم، من عقابه وعذابه الذي أعدَّه الله لأعدائه وأهل معاصيه".

قال محمد رشيد رضا:"أي: فلا خوفعليهم من عذاب الدنيا الذي ينزل بالجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذي أعده الله للكافرين".

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأنعام: ٤٨]، أي:"ولا يحزنون على شيء فاتهم من حظوظ الدنيا".

قال سعيد بن جبير:" يعني: لا يحزنون للموت".

قال السمعاني:"يعني: يوم القيامة".

قال البيضاوي: أي:"بفوات الثواب".

قال السعدي: أي: "على ما مضى".

قال ابن كثير: "أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، الله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه".

قال الطبري: أي:" عند ذلك على ما خلَّفوا وراءَهم في الدنيا".

قال محمد رشيد رضا:"ولا هم يحزنون يوم لقاء الله تعالى على شيء فاتهم ؛ لأن الله تعالى يقيهم من كل فزع: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) {ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} [عبس: ٣٨ - ٣٩]،ولك أن تقول: إن هؤلاء الكملة لا يحزنون في الدنيا أيضا مما يحزن منه الكفار والفساق كفوات شهوات الدنيا ولذاتها، أو لا يكون حزنهم كحزنهم في شدته وطول أمده، فإنهم إذا عرض لهم الحزن لسبب صريح كموت الولد، والقريب، والصديق، أو فقد المال، وقلة النصير - يكون حزنهم رحمة وعبرة، مقرونا بالصبر وحسن الأسوة، لا يضرهم في أنفسهم ولا أبدانهم، ولا يغير شيئا

=

=

من عاداتهم وأعمالهم، فالإيمان بالله يعصمهم من إرهاق البأساء والضراء، ومن بطر السراء والنعماء، عملا بقوله ﷻ: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٢٢) {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد: ٢٢ - ٢٣]".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأنعام: ٤٩]، أي:"والذين كذَّبوا بآياتنا من القرآن والمعجزات".

قال القرطبي:"أي: بالقرآن والمعجزات. وقيل: بمحمد عليه الصلاة والسلام".

قال الطبري: أي:"وأما الذين كذَّبوا بمن أرسلنا إليه من رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، ودافعوا حجتنا".

قال محمد رشيد رضا:"أي: والذين كذبوا بآياتنا التي أرسلنا بها الرسل".

قوله تعالى: {يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأنعام: ٤٩]، أي:"فأولئك يصيبهم العذاب يوم القيامة، بسبب كفرهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى".

قال السمعاني:"أي: يصيبهم عذاب النار".

قال القرطبي:"أ أي يصيبهم [العذاب]، {بما كانوا} يكفرون".

قال الطبري: أي:"فإنهم يباشرهم عذابُنا وعقابنا، على تكذيبهم ما كذبوا به من حججنا بما كانوا يكذّبون".

قال ابن كثير:"أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا محارمه ومناهيه وانتهاك حرماته".

قال السعدي:" {يمسهم العذاب} أي: ينالهم، ويذوقونه".

قال محمد رشيد رضا: أي:"يصيبهم العذاب في الدنيا أحيانا، ولا سيما عند الجحود والعناد الذي يكون في المجموع دون بعض الأفراد، وفي الآخرة على

=

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠).

{قُلْ} لَهُمْ {لَا أَقُول لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِن الله} الَّتِي مِنْهَا يَرْزُق {وَلَا} إِنِّي {أَعْلَم الْغَيْب} مَا غَابَ عَنِّي وَلَمْ يُوحَ إِلَيَّ {وَلَا أَقُول لَكُمْ إِنِّي مَلَك} مِنْ الْمَلَائِكَة {إِنْ} مَا {أَتَّبِع إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى} الْكَافِر {وَالْبَصِير} الْمُؤْمِن لا {أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} فِي ذَلِكَ فَتُؤْمِنُونَ[1].

=

سبيل الشمول والاطراد، وذلك بسبب فسقهم، أي كفرهم وإفسادهم، فهؤلاء قد ذكروا في مقابل الذين آمنوا وأصلحوا أنفسهم وأعمالهم ومعاملاتهم، فالتكذيب يقابل الإيمان، والفسق يقابل الإصلاح، وإن كان أعم منه في اللغة والاصطلاح، فهو يطلق على الكفر والخروج من الطاعة".

قال ابن زيد:" كل «فسق» في القرآن، فمعناه: الكذب".

وقال البغوي: {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، أي:"يكفرون".

قال ابن عطية:" {يمسهم}، أي: يباشرهم ويلصق بهم".

قال الزمخشري:"جعل العذاب ماسا، كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام. ومنه قولهم: «لقيت منه الأمرين والأقورين»، حيث جمعوا جمع العقلاء، وقوله: {إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [الفرقان: ١٢]".

وقرأ الحسن والأعمش «العذاب بما»، بإدغام الباء في الباء، ورويت عن أبي عمرو، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش: «يفسقون» بكسر السين، وهي لغة.

(١) قوله تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ} [الأنعام: ٥٠]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: - وذلك حينما طلبوا منه الآيات تعنتًا -إني لا أدَّعي أني أملك خزائن السموات والأرض، فأتصرف فيها".

=

=

قال السمعاني:"قوله - تعالى -: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ}، أنزل هذا حين اقترحوا الآيات، وكانوا يقولون: لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء، وسائر مااقترحوا من الآيات؛ فنزل قوله: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ}، فأعطيكم ما تريدون".

قال البغوي:"نزل حين اقترحوا الآيات فأمره أن يقول لهم: {لا أقول لكم عندي خزائن الله}".

قال ابن عطية: هذه الآية"من الرد على القائلين لولا أنزل عليه آية والطالبين أن ينزل ملك أو تكون له جنة أو أكثر أو نحوهذا، والمعنى: لست بهذه الصفات فيلزمني أن أجيبكم باقتراحاتكم".

قال الثعلبي: "يعني: رزق الله".

قال الواحدي: أي: الخزائن:"التي منها يرزق ويعطي".

قال البغوي:"أي: خزائن رزقه فأعطيكم ما تريدون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المنكرين نبوّتك: لستُ أقول لكم إنّي الرب الذي له خزائنُ السماوات والأرض".

قال الزجاج:"هذا متصل بقوله: {لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّه} [الأنعام: ٣٧]، فأعلمهم النبي ﷺ أنه لا يملك خزائن الله التي بها يرزق ويعطي".

وقال مقاتل:"يعني: مفاتيح الله بنزول العذاب".

قال الزمخشري:"أى: لا أدعى ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله- وهي قسمه بين الخلق وإرزاقه".

وفي قوله تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ} [الأنعام: ٥٠]، وجهان من التفسير:

أحدهما: الرزق، أي لا أقدر على إغناء فقير، ولا إفقار غني، قاله الكلبي.

=

=

والثاني: مفاتيح خزائن العذاب، لأنه خَوَّفهُم منه، فقالوا متى يكون هذا؟، أو لقولهم: {ائْتِنَا بِعَذَابِ الله} [العنكبوت: ٢٩].وهذا قول مقاتل ، وبه قال ابن أبي زمنين.

قوله تعالى: {وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [الأنعام: ٥٠]، أي:"ولا أدَّعي أني أعلم الغيب".

قال الثعلبي: يعني: "ما يخفى عن الناس".

قال الواحدي:"فأخبركم بعاقبة ما تصيرون إليه".

قال البغوي:"فأخبركم بما غاب مما مضى ومما سيكون".

قال الطبري: أي:" [ولستُ أقول لكم إنّي] أعلم غيوب الأشياء الخفية التي لا يعلمها إلا الرب الذي لا يخفى عليه شيء، فتكذبوني فيما أقول من ذلك، لأنه لا ينبغي أن يكون ربًّا إلا من له ملك كل شيء، وبيده كل شيء، ومن لا يخفى عليه خافية، وذلك هو الله الذي لا إله غيره".

قال الزجاج: أخبرهم بـ"أنه لا يعلم الغيب فيخبرهم بما غاب عنه مما مضى، وما سيكون إلا بوحي من الله جل وعز".

قال السمعاني:"و «الغيب»: كل ما غاب عنك ويكون ماضيا، ويكون في المستقبل، والماضي منه يجوز أن يعلمه الإنسان بخبر مخبر ونحوه. فأما المستقبل فلا يعلمه إلا الله، ورسول ارتضاه، كما قال في «سورة الجن» ، وقوله: {ولا أعلم الغيب} فيه إضمار، أي: ولا أعلم الغيب إلا ما أعلمنيه الله".

قال ابن عطية:"وقوله: {لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [الأنعام: ٥٠]، يحتمل معنيين:

أظهرهما: أن يريد أنه بشر لا شيء عنده من خزائن الله ولا من قدرته ولا يعلم شيئا مما غيب عنه.

والآخر: أنه ليس بإله، فكأنه قال: لا أقول لكم إني أتصف بأوصاف إله في أن

=

=

عندي خزائنه وأني أعلم الغيب". وهذا هو قول الإمام الطبري.

قوله تعالى: {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [الأنعام: ٥٠]، أي:"ولا أدَّعي أني ملك".

قال الثعلبي: "فتنكرون قولي وتجحدون أمري".

قال ابن أبي زمنين:"إنما أنا بشر، ولكني رسول يوحى إليّ".

قال الزجاج:"أي: الملك يشاهد من أمور الله ﷻ ما لا يشاهده البشر".

قال البغوي:"قال ذلك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي ويشاهد ما لا يشاهده الآدمي، يريد لا أقول لكم شيئا من ذلك فتنكرون قولي وتجحدون أمري".

قال مقاتل:"لقولهم في «حم السجدة»: {لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً} [فصلت: ١٤]، رسلا فنؤمن بهم، فأما أنت يا محمد فلا نصدقك فيما تقول".

قال الطبري:"لأنه لا ينبغي لملك أن يكون ظاهرًا بصورته لأبصار البشر في الدنيا، فتجحدوا ما أقول لكم من ذلك".

قال الزمخشري: أي: ولا أدعي:"أنى من الملائكة.. أى: لم أدع إلهية ولا ملكية، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة، حتى تستبعدوا دعواي وتستنكرونها".

قال السمعاني:"إنما أمره بذلك؛ لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي، وقيل: لأن الملك يشاهد ما لا يشاهد الآدمي، واستدل بهذا من فضل الملائكة على الآدميين ، وليس فيه مستدل، ومعناه: ما بينا".

وفي قوله تعالى: {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [الأنعام: ٥٠]، وجهان:

أحدهما: أنه يريد أنه لا يقدر على ما يعجز عنه العباد، وإن قدرت عليه الملائكة.

والثاني: أنه يريد بذلك أنه من جملة البشر وليس بمَلَك، لينفي عن نفسه غُلُوَّ النصارى في المسيح وقولهم: إنه ابن الله.

=

=

ثم في نفيه أن يكون ملكًا وجهان:

أحدهما: أنه بَيَّنَ بذلك فضل الملائكة على الأنبياء، لأنه دفع عن نفسه منزلة ليست له.

والثاني: أنه أراد إني لست ملكًا في السماء، فأعلم غيب السماء الذي تشاهده الملائكة ويغيب عن البشر، وإن كان الأنبياء أفضل من الملائكة مع غيبهم عما تشاهده الملائكة.

قال ابن عطية:"وتعطي قوة اللفظ في هذه الآية الملك أفضل من البشر، وليس ذلك بلازم من هذا الموضع، وإنما الذي يلزم منه أن الملك أعظم موقعا في نفوسهم وأقرب إلى الله، والتفضيل يعطيه المعنى عطاء خفيا وهو ظاهر من آيات أخر، وهي مسألة خلاف".

قوله تعالى: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأنعام: ٥٠]، أي:"وإنما أنا رسول من عند الله، أتبع ما يوحى إليَّ، وأبلِّغ وحيه إلى الناس".

قال الواحدي:"أَيْ: ما أخبركم إلاَّ بما أنزل الله عليّ".

قال ابن أبي زمنين:"أي: إنما أبلغ عن الله ما أمرني به".

قال مقاتل:"من القرآن".

قال ابن عطية:" {ما يوحى}، يريد القرآن وسائر ما يأتي به الملك، أي: وفي ذلك عبر وآية لمن تأمل ونظر".

قال الطبري:"يقول: قل لهم: ما أتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، إلا وحي الله الذي يوحيه إليّ، وتنزيله الذي ينزله عليّ، فأمضي لوحيه وأئتمر لأمره، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله عذركم على صحة قولي في ذلك، وليس الذي أقول من ذلك بمنكر في عقولكم ولا مستحيل كونه، بل ذلك مع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمة البالغة، فما وجه إنكاركم ذلك؟ وذلك تنبيه من الله تعالى

=

=
نبيَّه ﷺ على موضع حُجته على منكري نبوّته من مشركي قومه".
قال الثعلبي:"وذلك غير منكر ولا مستحيل في العقل مع وجود الدلائل والحجة البالغة".
قال الزجاج:"فأعلمهمأنه يتبع الوحي فقال: {إن أتبع إلا ما يوحى إلي}، أي: ما أنبأتكم به من غيب فيما مضى، وفيما سيكون فهو بوحي منالله، فأما الإنباء بما مضى، فإخبار بقصص الأمم السالفة، والإخبار بما سيكون كقوله: {غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِين... } [الروم: ٢ – ٤]، فوجد من ذلك ما أنبأ به، ونحو قوله: {وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: ٦٧]، فاجتهدوا في قتله، فلم يصلوا إلى ذلك.
وقوله: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [التوبة: ٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، وما يروى من الأخبار عنه بما يكون أكثر من أن يحصى".
قوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [الأنعام: ٥٠]، أي:"قل –أيها الرسول– لهؤلاء المشركين: هل يستوي الكافر الذي عَمِي عن آيات الله تعالى فلم يؤمن بها والمؤمن الذي أبصر آيات الله فآمن بها؟".
قال الواحدي: أَيْ: "الكافر والمؤمن".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق، والبصير به، و {الأعمى}، هو الكافر الذي قد عَمى عن حجج الله فلا يتبيَّنها فيتبعها و {البصير}، المؤمن الذي قد أبصرَ آيات الله وحججه، فاقتدى بها واستضاء بضيائها".
قال مقاتل:" {الأعمى} بالهدى فلا يبصره وهو الكافر، {والبصير} بالهدى وهو المؤمن".
قال ابن أبي زمنين:" {الأعمى} يعني: الذي لا يبصر {والبصير} الذي يبصر؛ هذا
=

=

مثل المؤمن والكافر".

عن مجاهد في قول الله تعالى ذكره:" {قل هل يستوي الأعمى والبصير}، قال: الضال والمهتدي".

قال قتادة:" {الأعمى}، الكافر الذي قد عمي عن حق الله وأمره ونعمه عليه، و {البصير}، العبد المؤمن الذي أبصر بصرًا نافعًا، فوحّد الله وحده، وعمل بطاعة ربه، وانتفع بما آتاه الله".

قال السمعاني:" {الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ}: قيل: الجاهل والعالم".

قال الزمخشري: {الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ}:"مثل للضال والمهتدى، ويجوز أن يكونمثلا لمن اتبع ما يوحى إليه. ومن لم يتبع. أو لمن ادعى المستقيم وهو النبوة، والمحال وهو الإلهية أو الملكية".

قال ابن عطية:"أي: قل لهم إنه لا يستوي الناظر المفكر في الآيات أو المعرض الكافر المهمل للنظر، فالأعمى والبصير مثالان للمؤمن والكافر".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام: ٥٠]، أي:"أفلا تتفكرون في آيات الله؛ لتبصروا الحق فتؤمنوا به؟".

قال مقاتل:"يعنى: فهلا يتفكرون فتعلمون أنهما لا يستويان".

قال البغوي:"أي: أنهما لا يستويان".

قال ابن عطية:"أي: ففكروا أنتم وانظروا، وجاء الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتحضيض".

قال الطبري:"يقول لهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله: أفلا تتفكرون فيما أحتجّ عليكم به، أيها القوم، من هذه الحجج، فتعلموا صحة ما أقول وأدعوكم إليه، من فساد ما أنتم عليه مقيمون من إشراك الأوثان والأنداد بالله ربّكم، وتكذيبكم إياي مع ظهور حجج صدقي لأعينكم، فتدعوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون، إلى ما

=

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١).

{وَأَنْذِرْ} خَوِّفْ {بِهِ} أَيْ الْقُرْآن {الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبّهمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونه} أَيْ غَيْره {وَلِيّ} يَنْصُرهُمْ {وَلَا شَفِيع} يَشْفَع لَهُمْ وَجُمْلَة النَّفْي حَال مِنْ ضَمِير يُحْشَرُوا وَهِيَ مَحَلّ الْخَوْف وَالْمُرَاد بِهِمْ الْمُؤْمِنُونَ الْعَاصُونَ {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} الله بِإِقْلَاعِهِمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ وَعَمَل الطَّاعَات[1].

=

أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون؟".

قال الزمخشري: أي:"فلا تكونوا ضالين أشباه العميان. أو فتعلموا أنى ما ادعيت ما لا يليق بالبشر. أو فتعلموا أن أتباع ما يوحى إلى مما لا بد لي منه".

(١) قوله تعالى: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ} [الأنعام: ٥١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وأنذر، يا محمد، بالقرآن الذي أنزلناه إليك، القومَ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، علمًا منهم بأن ذلك كائن، فهم مصدقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضي الله، دائبون في السعي، فيما ينقذهم في معادهم من عذاب الله".

قال الزجاج:"قوله: {وأنذر به}، أي بالقرآن، وإنما ذكر الذين يخافون الحشر، دونغيرهم وهو ﷺ منذر جميع الخلق، لأن الذين يخافون الحشر الحجة عليهم أوجب، لأنهم أفهم بالميعاد، فهم أحد رجلين، إما رجل مسلم فيؤدي حق الله في إسلامه، وإما رجل من أهل الكتاب، فأهل الكتاب أجمعون معترفونبأن الله جل ثناوه خالقهم، وأنهم مبعوثون".

قال أبو حيان:"لما أخبر أنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه أمره الله تعالى أن ينذر به فقال: {وأنذر به} أي بما أوحي إليك. وقيل: يعود على الله أي بعذاب الله. وقيل:

=

=

يعود على الحشر وهو مأمور بإنذار الخلائق كلهم وإنما خص بالإنذار هنا من خاف الحشر لأنه مظنة الإيمان، وكأنه قيل: الكفرة المعرضون دعهم ورأيهم وأنذربالقرآن من يرجى إيمانه".

قال البغوي: أي:"خوف بالقرآن، {الذين يخافون أن يحشروا} يجمعوا ويبعثوا إلى ربهم، وقيل: يخافون أي يعلمون، لأن خوفهم إنما كان من علمهم".

قال السمعاني:" {وانذر به}، أي: خوف به {الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم} قيل: هم المسلمون، وقيل: كل من يؤمن بالبعث من المسلمين وأهل الكتاب".

وقوله تعالى (به) أي: بالقرآن وهذا هو الصحيح ، وقد رجح هذا القول: ابن جرير ، والقرطبي ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن الجوزي.

أ-لدلالة السياق ، قال أبو حيان: لما أخبر أنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه ، أمره أن ينذر به.

ب- أن الأولى عود الضمير إلى أقرب مذكور وهو قوله (ما يوحى إليّ) ، ولذلك قال الشنقيطي: وأصح الأقوال في مرجع الضمير: أنه راجع إلى القرآن المعبر عنه بقوله (إن أتبع إلا ما يوحى إليّ).

وقيل: إلى الله ، وقيل: إلى اليوم الآخر.

قال الزمخشري:" {وأنذر به} الضمير راجع إلى قوله: {ما يوحى إلي} و {الذين يخافون أن يحشروا}، إما قوم داخلون في الإسلام مقرون بالبعث، إلا أنهم مفرطون في العمل، فينذرهم بما يوحى إليهلعلهم يتقون أى يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين. وإما أهل الكتاب لأنهم مقرون بالبعث. وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار، دون المتمردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء".

=

=

قال أبو حيان:"وظاهر قوله: {الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم} عموم من خاف الحشر وآمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني فلا يتخصص بالمسلمين المقرين بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل فينذرهم بما أوحي إليه".

عن السدي قوله: "{وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع}، هؤلاء المؤمنون".

وقال الفضيل بن عياض: "ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون فقال: {وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم}".

وقد اختلف في المراد ب (الذين يخافون):

فقيل: كل من خاف من البعث ، سواء كان مسلمًا فإنه ينذر ليترك المعاصي ، أو كان من أهل الكتاب فينذر ليتبع الحق ، ورجحه القرطبي ، وابن عطية ، وابن الجوزي.

لعموم اللفظ ، قال أبو حيان: وظاهر قوله (الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ) عموم من خاف الحشر ، وآمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني.

ب- أنه ﷺ كان مبعوثًا للكل ، فكلهم منذرين.

وقيل: المراد بالاسم الموصول هم المؤمنون.

وبه قال ابن كثير ، والقاسمي.

قالوا: لأن له شاهدًا من القرآن كقوله (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) وقوله (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب).

فإن قيل: لما خص الإنذار على الذين يخافون أن يحشروا ، مع أن القرآن إنذار للأسود والأبيض (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) وقال تعالى (أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ)؟

لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف ، بخلاف من لا يخاف الحشر

=

=

كقوله تعالى (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) مع أنه تذكير للأسود والأبيض ، وكقوله (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) وهو منذر للأسود والأبيض.

في الآية وجوب الإنذار بالقرآن ، لكن لا ينتفع به إلا من آمن بالقيامة ولقاء الله.

كما قال تعالى (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا).

وقال تعالى (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ).

قوله تعالى: {لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ} [الأنعام: ٥١]، أي:"ليس لهم غير الله وليّ ينصرهم، ولا شفيع يشفع لهم عنده تعالى، فيخلصهم من عذابه".

والشفاعة: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة ، فشفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف أن يقضَى بينهم من نوع دفع الضر ، وشفاعته ﷺ لأهل الجنة بدخولها من نوع جلب منفعة.

قال ابن كثير:" أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم".

قال الطبري:"أي: ليس لهم من عذاب الله إن عذبهم، {وليّ}، ينصرهم فيستنقذهم منه، {ولا شفيع}، يشفع لهم عند الله تعالى ذكره فيخلصهم من عقابه".

قال البغوي: أي:" {ليس لهم من دونه} من دون الله، {ولي} قريب ينفعهم، {ولا شفيع} يشفع لهم".

قال الزجاج:"لأن النصارى، واليهود ذكرت أنها أبناء الله وأحباؤه، فأعلم الله أنه لاولي له إلا المؤمنون، وأن أهل الكفر ليس لهم عن دون الله ولي ولا شفيع".

قال السمعاني:"فإن قيل: أليس يشفع الأنبياء والأولياء يوم القيامة، فما معنى قوله: {ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع}؟

قلنا: معناه: لا شفاعة إلا بإذنه، وهم إنما يشفعون بإذنه، أو هذا رد لما زعموا أن الملائكة والأصنام يشفعون لنا".

=

=

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأنعام: ٥١]، أي:"لعلهم يتقون الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي".

قال مجاهد:"لعلهم يطيعون".

قال الضحاك:" لعلهم يتقون النار بالصلوات الخمس".

قال الزمخشري:"أى: يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين".

قال ابن كثير:" أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله، ﷻ {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه".

قال الطبري:"يقول: أنذرهم كي يتقوا الله في أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سَخطه باجتناب معاصيه".

قال البغوي: أي:"فينتهون عما نهوا عنه".

قال أبو حيان:"أي: يدخلون في زمرة أهل التقوى ولا بأهل الكتاب ولا بناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار دون المتمردين منهم، و {يخافون} باق على حقيقته، أي: يخافون ما يترتب على الحشر من مؤاخذتهم بذنوبهم، وأما الحشر فمتحقق".

وقال الفراء:"يقول: يخافون أن يحشروا إلى ربهم علما بأنه سيكون. ولذلك فسر المفسرون {يخافون}: يعلمون".

قال الطبري:"فوضعت «المخافة» موضع «العلم»،لأنّ خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شك منهم في ذلك".

قال ابن عطية:"وهذا غير لازم، «ويخافون» على بابها في الخوف أي الذين يخافون ما تحققوه من أن يحشروا ويستعدون لذلك، ورب متحقق لشيء مخوف

=

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢).

{وَلَا تَطْرُد الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبهمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ} بِعِبَادَتِهِمْ {وَجْهه} تَعَالَى لَا شَيْئًا مِنْ أَعْرَاض الدُّنْيَا وَهُمْ الْفُقَرَاء وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ طَعَنُوا فِيهِمْ وَطَلَبُوا أَنْ يَطْرُدهُمْ لِيُجَالِسُوهُ وَأَرَادَ النَّبِيّ ﷺ ذَلِكَ طَمَعًا فِي إسْلَامهمْ {مَا عَلَيْك مِنْ حِسَابهمْ مِنْ} زَائِدَة {شَيْء} إنْ كَانَ بَاطِنهمْ غَيْر مَرْضِيّ {وَمَا مِنْ حِسَابك عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْء فَتَطْرُدهُمْ} جَوَاب النَّفْي {فَتَكُون مِنْ الظَّالِمِينَ} إنْ فَعَلْت ذَلِكَ[1].

=

وهو لقلة النظر والحزم لا يخافه ولا يستعد له".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن مسعود؛ قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد! اطردهم، أرضيت هؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ فلعل إن طردتهم أن نأتيك، قال: فنزلت: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}.

أخرجه أحمد في (١/ ٤٢٠)، والطبري في تفسيره (٧/ ١٢٧)، والبزار (٢٢٠٩ - كشف)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٧٣٢٦)، والواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٦) والحديث قال عنه الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠، ٢١): رجال أحمد رجال "الصحيح غير كردوس وهو ثقة، وقال

=

=

العلامة الألباني في الصحيحة (٣٢٩٧): إسناده ضعيف لضعف أشعث بن سوار عند الجمهور، ثم ذكر الشيخ شاهد له وقواه به، وصححه الشيخ أحمد شاكر تحقيق المسند (٦/ ٣٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٧/ ٩٢): حديث حسن. وهذا إسناد ضعيف لضعف أشعث، وهو ابن سوار الكندي، وكردوس - وهو ابن عباس الثعلبي - روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في الثقات، وضعفه صاحبا الإستيعاب (٢/ ١٣٦).

وعن سعد بن أبي وقاص؛ قال: فيّ نزلت: {وَلَا تَطْرُدِ...}؛ قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا له: تدني هؤلاء. وفي رواية: كنا مع النبي ﷺ في ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء؛ لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ما شاء أن يقع، فحدث نفسه؛ فأنزل الله: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}.

أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤/ ١٨٧٨ رقم ٢٤١٣)، والنسائي في "الكبرى" (٥/ ٧٢، ٧٣ رقم ٨٢٦٤، ٨٢٦٦)، و"التفسير" (١/ ٤٦٩، ٤٧٠ رقم ١٨٣) وغيرهما كثير. وفي رواية لابن ماجه (٢/ رقم ٤١٢٨)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٤٥) تسمية الستة وهم: ابن مسعود وسعد وصهيب وعمار والمقداد وبلال، وفي سنده قيس بن الربيع؛ قال الحافظ: "صدوق، تغيّر لما كبر، أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به".

وعن خباب بن الأرت؛ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ؛ حقروهم، فأتوه فخلوا به،

=

=

وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا، تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك؛ فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا؛ فاقعد معهم إن شئت، قال: "نعم"، قالوا: فاكتب لنا عليك كتابًا، قال: فدعا بصحيفة ودعا عليًا ليكتب ونحن قعود في ناحية؛ فنزل جبريل عليه السلام فقال: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)} ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فقال: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)} ثم قال: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}؛ قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا؛ فأنزل الله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} ولا تجالس الأشراف {تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا}؛ يعني: عيينة والأقرع، {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨]، قال: هلاكًا، قال: أمر عيينة والأقرع، ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا. قال خباب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم.

أخرجه ابن ماجة (٤١٢٧)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٢٠٧)، والبزار (٢١٣٠)، والطحاوي في المشكل (١/ ١٥٧)، والطبري (٩/ ٢٥٩)، والطبراني (٣٦٩٣)، والخطيب في الأسماء المبهمة (ص ٤٨٣) وغيرهم، والحديث ضعفه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٦٠) بقوله: هذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة:

=

=

إسناده صحيح ورجاله ثقات، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة، وقال صاحبا الإستيعاب: وهذا إسناد حسن -إن شاء الله-، السدي صدوق يهم؛ كما في "التقريب" وأبو سعيد الأزدي أو أبو سعد الأزدي؛ صدوق -إن شاء الله-؛ روى عنه جمع ووثقه ابن حبان (٥/ ٥٦٨)، ولخصه الحافظ بقوله: "مقبول"، وأما أبو الكنود؛ فهو ثقة روى عنه جمع من الثقات، ووثقه ابن حبان (٥/ ١٤٤) وكذا ابن سعد في "الطبقات" (٦/ ١٧٧)، ولخصه الحافظ بقوله: "مقبول" ويشهد له في الجملة ما سبق؛ فيرتقي إلى درجة الصحيح لغيره -إن شاء الله-، قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٥/ ٢٤٣): إسناده ضعيف، أسباط بن نصر كثير الخطأ، ذكره الذهبي في "الميزان" فقال: وثقه ابن معين، وتوقف فيه أحمد، وضعفه أبو نعيم وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال حرب بن إسماعيل، قلت لأحمد: كيف حديثه؟ قال: ما أدري وكأنه ضعفه.

وعن عبد الله بن عباس ﷺ؛ قال: نزلت هذه الآية: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ} في بلال، وصهيب، وعمار، ومهجع، وعامر بن فهيرة، وخباب، وسالم.

أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في "معرفة "الصحابة" (٥/ ٢٦١٤ رقم ٦٢٩٦)، وابن منده في "معرفة "الصحابة"، وأبو موسى المديني في "الصحابة"؛ كما في "أسد الغابة" (٤/ ٥٠٤)، و"الإصابة" (٣/ ٤٦٧) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به.

ومن دون ابن عباس كذابون متهمون.

وعنه -أيضًا-ﷺ؛ أنه قال: نزلت هذه الآية: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} في بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، وسعد بن خولة، ومالك بن خولي وأصحابهم.

أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في "معرفة "الصحابة" (٣/ ١٢٨٢ رقم ١٢٨٤، ٣٢١٨، ٥/ ٢٦١٤ رقم ٦٢٩٥) من طريق عبد الغني بن سعيد الثقفي ثنا موسى

=

=

بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس به. وإسناده تالف.

وعن عكرمة؛ قال: جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل، في أشراف من بني عبد مناف من الكفار إلى أبي طالب، فقالوا: لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا؛ فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا؛ كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لأتباعنا إياه، وتصديقًا له، قال: فأتى أبو طالب النبي ﷺ فحدثه بالذي كلموه به، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون وإلام يصيرون من قولهم؛ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)}.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٢٨) -: ثنا حجاج بن محمد المصيصي عن ابن جريج عن عكرمة. وهذا سند ضعيف؛ فيه ثلاث علل:

الأولى: الإرسال. والثانية: ابن جريج لم يسمع عن عكرمة. والثالثة: سنيد صاحب "التفسير" هذا؛ ضعيف؛ ضعفه أبو حاتم والنسائي وغيرهما.

وعن عمر بن عبد الله بن المهاجر مولى غفرة؛ أنه قال في أسطوان التوبة: كان أكثر نافلة النبي ﷺ إليها، وكان إذا صلى الصبح انصرف إليها وقد سبق إليها الضعفاء، والمساكين، وأهل الضر، وضيفان النبي ﷺ والمؤلفة قلوبهم، ومن لا مبيت له إلا المسجد، قال: وقد تحلقوا حولها حلقًا بعضها دون بعض، فينصرف إليهم من مصلاه من الصبح، فيتلو عليهم ما أنزل الله عليه من ليلته، ويحدثهم ويحدثونه،

=

=

حتى إذا طلعت الشمس جاء أهل الطول والشرف والغنى فلم يجدوا إليه مخلصًا؛ فتاقت أنفسهم إليه وتاقت نفسه إليهم؛ فأنزل الله ﷻ: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} إلى منتهى الآيتين، فلما نزل ذلك فيهم؛ قالوا: يا رسول الله! لو طردتهم عنا ونكون نحن جلساءك وإخوانك لا نفارقك؛ فأنزل الله ﷻ: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٧٤) ونسبه للزبير بن بكار في أخبار المدنية.

وعن الربيع بن أنس؛ قال: كان رجال يستبقون إلى مجلس رسول الله ﷺ؛ منهم: بلال، وصهيب، وسلمان، فيجيء أشراف قومه وسادتهم وقد أخذ هؤلاء المجلس فيجلسون ناحية، فقالوا: صهيب: رومي، وسلمان: فارسي، وبلال: حبشي، يجلسون عنده ونحن نجيء فنجلس ناحية، حتى ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ: أنا سادة قومك وأشرافهم، فلو أدنيتنا منك إذا جئنا؟ قال: فَهَمَّ أن يفعل؛ فأنزل الله: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٩٨ رقم ٧٣٣٢): ثنا أبي ثنا سهل بن عثمان ثنا عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عنه به. هذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن مجاهد؛ قال: كان أشراف قريش يأتون النبي ﷺ وعنده بلال وسلمان وصهيب وغيرهم؛ مثل: ابن أم عبد وعمار وخباب، فإذا أحاطوا به؛ قال أشراف قريش: بلال: حبشي، وسلمان: فارسي، وصهيب: رومي، فلو نحاهم لأتيناه؛

=

=

فأنزل الله -تعالى-: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٧٥) ونسبه لابن عساكر.

وعن قتادة؛ قال: إن ناسًا من كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إن سرك أن نتبعك! فاطرد عنك فلانًا وفلانًا ناسًا من ضعفاء المسلمين، فقال الله: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٠٨) -ومن طريقه الخطيب في "الأسماء المبهمة" (ص ٤٨٢) -: نا معمر عن قتادة. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن الكلبي في قوله -تعالى-: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}؛ قال عيينة بن حصن للنبي ﷺ: إن سرّك أن نتبعك؛ فاطرد عنك فلانًا وفلانًا؛ فإنه قد آذاني ريحهم؛ يعني: بلالًا، وسلمانَ، وصهيبًا، وناسًا من ضعفاء المسلمين؛ فأنزل الله ﷻ: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٠٧) عن معمر عن الكلبي. والكلبي كذاب متهم، اعترف بنفسه بالكذب.

* قوله تعالى: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الأنعام: ٥٢]، أي:"ولا تُبْعد -أيها النبي- عن مجالستك ضعفاء المسلمين الذين يعبدون ربهم أول النهار وآخره".

=

=

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: في نزلت: {ولا تطرد...}؛ قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا له: تدني هؤلاء. وفي رواية: كنا مع النبي ﷺ في ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء؛ لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ما شاء أن يقع، فحدث نفسه؛ فأنزل الله: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين (٥٢)}. أخرجه مسلم (٢٤١٣).

وعن خباب بن الأرت؛ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ؛ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا، تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك؛ فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا؛ فاقعد معهم إن شئت، قال: "نعم"، قالوا: فاكتب لنا عليك كتابا، قال: فدعا بصحيفة ودعا عليا ليكتب ونحن قعود في ناحية؛ فنزل جبريل - عليه السلام - فقال: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين (٥٢)} ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فقال: {وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين (٥٣)} ثم قال: {وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة}؛ قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا؛ فأنزل الله: {واصبر نفسك مع

=

=

الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم} ولا تجالس الأشراف {تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا}؛ يعني: عيينة والأقرع، {واتبع هواه وكان أمره فرطا} [الكهف: ٢٨]، قال: هلاكا، قال: أمر عيينة والأقرع، ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا. قال خباب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم. قال صاحبا الإستيعاب (٢/ ١٣٨): أخرجه ابن أبي شيبة في "مسنده" (١/ ٣١٨، ٣١٩ رقم ٤٧٧)، و"مصنفه" (١٢/ ٢٠٧، ٢٠٨ رقم ١٢٥٦٤) -ومن طريقه الطبراني في "المعجم الكبير" (٤/ ٧٥، ٧٧ رقم ٣٦٩٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ١٤٦، ١٤٧) -ومن طريقه المزي في "تهذيب الكمال" (٣٤، ٢٣٠، ٢٣١) -، وإسحاق بن راهويه في "مسنده" -ومن طريقه البيهقي في "الشعب" (٧/ ٣٣٤/ ١٠٤٩) -، وأبو يعلى في "مسنده"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (١/ ٤٣٩)، و"المطالب العالية" (٨/ ٥٦٨، ٥٦٩ رقم ٣٩٧٧)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٠٧، ١٠٨ رقم ٧٧٤٣)، والبزار في "البحر الزخار" (٦/ ٦٩، ٧١ رقم ٢١٢٩، ٢١٣٠)، وابن ماجه في "سننه" (٢/ ١٣٨٢، ١٣٨٣ رقم ٤١٢٧)، والطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٢٧، ١٢٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٩٧ رقم ٧٣٣١)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (١/ ١٥٧، ١٥٨)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٤٥، ١٤٦)، و"الوسيط" (٢/ ٢٧٤، ٢٧٥)، والخطيب البغدادي في "الأسماء المبهمة" (ص ٤٨٣)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (١/ ٣٥٢، ٣٥٣) من طريق حكيم بن يزيد وأسباط بن نصر كلاهما عن السدي عن أبي سعيد الأزدي عن أبي الكنود عن خباب به. قلنا: وهذا إسناد حسن -إن شاء الله-، السدي صدوق يهم؛ كما في "التقريب" وأبو سعيد الأزدي أو أبو سعد الأزدي؛ صدوق -إن شاء الله-؛ روى

=

=

عنه جمع ووثقه ابن حبان (٥/ ٥٦٨)، ولخصه الحافظ بقوله: "مقبول"، وأما أبو الكنود؛ فهو ثقة روى عنه جمع من الثقات، ووثقه ابن حبان (٥/ ١٤٤) وكذا ابن سعد في "الطبقات" (٦/ ١٧٧)، ولخصه الحافظ بقوله: "مقبول". ويشهد له في الجملة ما سبق؛ فيرتقي إلى درجة الصحيح لغيره -إن شاء الله-. قال البوصيري في "مصباح الزجاجة" (٣/ ٢٧٦، ٢٧٧ رقم ١٤٦٢): "هذا إسناد صحيح، رواه أبو بكر بن أبي شيبة في "مسنده" عن أحمد بن المفضل ثنا أسباط بن نصر فذكره بإسناده ومتنه... وأصله في "صحيح مسلم" وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص". وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ١٣٩): "وهذا حديث غريب؛ فإن الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بشهر". وصححه شيخنا في "صحيح ابن ماجه".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٧٣) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

قال الطبري: "نزلت هذه الآية في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين، قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك، وأراد النبي ﷺ طمعًا في إسلامهم، فنهاه الله أن يبعد هؤلاء الذين يدعون الله من مجلسه من أجل الكفار الفجرة".

قوله تعالى: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) كما قال (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا).

قوله تعالى (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) المراد بالدعاء هنا دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فدعاء المسألة، أن يقول: يا ربنا اغفر لي وارحمني، ودعاء العبادة، أن يقوم ويصلي ويصوم ويحج، ووجه كون العابد داعيًا، لأنه بعبادته يريد بذلك ثواب الله

=

=

والخوف من عقابه ، فهو دعاء بلسان الحال.

قال ابن كثير:"أي: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، كما قال: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨].وقوله {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} أي: يعبدونه ويسألونه".

قال الزجاج:"كان قوم من المشركين أرادوا الحيلة على النبي ﷺ فقالوا لو باعدت عنك هؤلاء السفلة والعبيد لجلس إليك الكبراء والأشراف، وكانوا عنوا بالذين قدروا أن يباعدهم النبي ﷺ صهيبا وخبابا، وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وبلالا، فأعلم الله ﷻ، أن أمر الدين هو المقدم، ونهاه أن يباعد هؤلاء".

وفي معنى «الدعاء» في قوله تعالى: {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} [الأنعام: ٥٢]، ستة أقوال:

أحدها: أنه الصلاة المكتوبة، قاله ابن عمر ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وسعيد بن المسيب ، وعبدالرحمن بن أبي عمرة ، وعامر.

قال ابن كثير:"وهذا كقوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] أي: أتقبل منكم".

وفي رواية عن مجاهد ، وقتادة ، قالا: يعني "صلاة الصبح والعصر".

وزعم مقاتل أن الصلاة يومئذ كانت "ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ثم فرضت الصلوات الخمس".

ونقل ابن أبي زمنين عن الحسن:" يعني: صلاة مكة؛ حين كانت الصلاة ركعتين غدوة، وركعتين عشية، قبل أن تفترض الصلوات الخمس".

والثاني: أنه ذكر الله تعالى، قاله إبراهيم النخعي ، وعنه كالقول الأول.

والثالث: أنه عبادة الله، قاله الضحاك ، وعنه كالقول الاول.

=

=

والرابع: أنه تعلم القرآن غدوة وعشية، قاله أبو جعفر.

والخامس: أنه دعاء الله بالتوحيد، والإخلاص له، وعبادته، قاله الزجاج.

والسادس: أنه يريد الدعاء في أول النهار وآخره، ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق. ويختموه بالدعاء طلبا للمغفرة. أفاده الماوردي.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى نبيه محمدًا ﷺ أن يطرُد قومًا كانوا يدعون ربّهم بالغداة والعشي، و الدعاء لله، يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولا وكلامًا وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمالَ التي كان عليهم فرضُها، وغيرُها من النوافل التي ترضي عن العامل له عابدَه بما هو عامل له. وقد يجوز أن يكون القوم كانوا جامعين هذه المعاني كلها، فوصفهم الله بذلك بأنهم يدعونه بالغداة والعشي، لأن الله قد سمى: العبادة، دعاء، فقال تعالى ذكره: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [سورة غافر: ٦٠]. وقد يجوز أن يكون ذلك على خاصّ من الدعاء.

ولا قول أولى بذلك بالصحة، من وصف القوم بما وصفهم الله به: من أنهم كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي، فيعمُّون بالصفة التي وصفهم بها ربهم، ولا يخصُّون منها بشيء دون شيء.

فتأويل الكلام إذًا: يا محمد، أنذر القرآن الذي أنزلته إليك، الذين يعلمون أنهم إلى ربهم محشورون فهم من خوف ورودهم على الله الذي لا شفيع لهم من دونه ولا نصير، في العمل له دائبون إذ أعرض عن إنذارك واستماع ما أنزل الله عليك المكذبون بالله واليوم الآخر من قومك، استكبارًا على الله ولا تطردهم ولا تُقْصِهم، فتكون ممن وضع الإقصاء في غير موضعه، فأقصى وطرد من لم يكن له طرده وإقصاؤه، وقرّب من لم يكن له تقديمه بقربه وإدناؤه، فإن الذين نهيتُك عن

=

=

طردهم هم الذين يدعون ربهم فيسألونه عفوه ومغفرته بصالح أعمالهم، وأداء ما ألزمهم من فرائضه، ونوافل تطوّعهم، وذكرهم إياه بألسنتهم بالغداة والعشي".

وفي تخصيص الغداة والعشي عدة أوجه:

قيل: أن العرب إذا أرادت الدوام أطلقت الليل والنهار ، والغداة والعشي ، يعنون أنهم دائمون على ذلك.

وقيل: أن أول النهار وآخره من أفضل الأوقات التي تُنتهز فيها فرصة العبادات.

قوله تعالى: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام: ٥٢]، أي:"يريدون بأعمالهم الصالحة وجه الله، فهم مخلصون فيما هم من العبادات والطاعات ، لا يريدون رياء ولا سمعة ، ولا غرضًا من أغراض الدنيا.".

قال البغوي:"أي: يريدون الله بطاعتهم".

وقال ابن عباس: "يطلبون ثواب الله".

قال ابن كثير:" أي: يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات".

قال الزجاج:"أي يريدون اللهويقصدون الطرق التي أمرهم بقصدها وإنما قدروا بهذا أن يباعدهم فتكون لهم حجةعليه".

قال الطبري: أي:" يلتمسون بذلك القربة إلى الله، والدنوّ من رضاه".

قال ابن عطية:"و {وجهه}، في هذا الموضع معناه: جهة التزلق إليه كما تقول خرج فلان في وجه كذا أي في مقصد وجهة".

وقال القرطبي:" {يريدون وجهه} : أي طاعته، والإخلاص فيها، أي: يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره. وقيل: يريدون الله الموصوف بأن له الوجه كما قال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٧]، وهو كقوله:" والذين {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} [الرعد:

=

=

٢٢]".

سئل سهل التستري عن قوله: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه}، قال: "أي: يريدون وجه الله ورضاه، ولا يغيبون عنه ساعة. ثم قال: أزهد الناس أصفاهم مطعما، وأعبد الناس أشدهم اجتهادا في القيام بالأمر والنهي، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه. وسئل عن العمر قال: الذي يضيع العمر".

قوله تعالى: {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٥٢]، أي:"ما عليك من حساب هؤلاء الفقراء من شيء، إنما حسابهم على الله".

قال البغوي: "أي: لا تكلف أمرهم، وقيل: ليس رزقهم عليك فتملهم".

قال ابن عطية:"معناه: لم تكلف شيئا غير دعائهم فتقدم أنت وتؤخر، ويظهر يكون الضمير في {حسابهم} و {عليهم} للكفار الذين أرادوا طرد المؤمنين، أي: ما عليك منهم آمنوا ولا كفروا فتطرد هؤلاء رعيا لذلك".

قال الطبري:"يقول: ما عليك من حساب ما رزقتهم من الرزق من شيء".

قال ابن كثير:"كما قال نوح، عليه السلام، في جواب الذين قالوا: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ} قال: {وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ} [الشعراء: ١١٢، ١١٣]، أي: إنما حسابهم على الله، عز وجل، وليس على من حسابهم من شيء".

قوله تعالى: {وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٥٢]، أي:"وليس عليهم شيء من حسابك".

قال البغوي: أي:"ولا يتكلفون أمرك، وقيل: ولا رزقك عليهم".

قال الطبري: أي:"وما عليهم من حساب ما رزقتك من الرزق من شيء".

قال ابن كثير:"كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء".

=

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣).

{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا} ابْتَلَيْنَا {بَعْضهمْ بِبَعْضٍ} أَيْ الشَّرِيف بِالْوَضِيعِ وَالْغَنِيّ بِالْفَقِيرِ بِأَنْ قَدَّمْنَاهُ بِالسَّبْقِ إلَى الْإِيمَان {لِيَقُولُوا} أَيْ الشُّرَفَاء وَالْأَغْنِيَاء مُنْكِرِينَ {أَهَؤُلَاءِ} الْفُقَرَاء {مَنَّ الله عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَنَا} بِالْهِدَايَةِ أَيْ لَوْ كَانَ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُدًى ما سبقونا إليه قال تعالى {أَلَيْسَ الله بِأَعْلَم بِالشَّاكِرِينَ} لَهُ فَيَهْدِيهِمْ بَلَى[1].

=

قوله تعالى: {فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٥٢]، أي:"فإن أبعدتهم فإنك تكون من المتجاوزين حدود الله، الذين يضعون الشيء في غير موضعه".

قال ابن كثير:"أي: إن فعلت هذا والحالة هذه".

قال الطبري: أي:"حذارَ محاسبتي إياك بما خوّلتهم في الدنيا من الرزق".

قال عبدالرحمن بن زيد بن اسلم:"ما بينك وبين أن تكون من الظالمين إلا أن تطردهم".

وقال السمعاني:"يعني: إن طردتهم، وقيل: في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فتكون من الظالمين، (ثم قال): {ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء}".

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} [الأنعام: ٥٣]، أي:"وكذلك ابتلى الله تعالى بعض عباده ببعض بتباين حظوظهم من الأرزاق والأخلاق".

كما قال تعالى في آخر سورة الأنعام (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيم).

قال قتادة:"يقول: ابتلينا بعضهم ببعض".

=

=

قال ابن عباس:"يعني: أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء".

قال ابن قتيبة:"أي: ابتلينا بعضا ببعض".

قال الطبري والزجاج:"أي: اختبرنا وابتلينا".

قال ابن كثير:"أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض".

قال الزمخشري: أي:"ومثل ذلك الفتن العظيم، فتنا بعض الناس ببعض، أى: ابتليناهم بهم".

قال السمرقندي:"يقول: هكذا ابتلينا بعضهم ببعض يعني: الشريف بالوضيع، والعربي بالمولى، والغني بالفقير".

قال مقاتل:"يقول: وهكذا ابتلينا فقراء المسلمين من العرب والموالي بالعرب من المشركين: أبي جهل، والوليد، وعتبة، وأمية، وسهل بن عمرو، ونحوهم".

قال السمعاني:"هو فتنة الأغنياء بالفقراء، والله – تعالى – يفتن الأغنياء بالفقراء، ويفتن الفقراء بالأغنياء، والمراد هاهنا: فتنة أكابرهم بفقرائهم؛ حيث امتنعوا عن الإيمان بسببهم؛ وذلك كان فتنة لهم".

قال البغوي:" أراد ابتلاء الغني بالفقير والشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد سبقه بالإيمان امتنع من الإسلام بسببه فكان فتنة له".

قال ابن عطية:" {فتنا}، معناه في هذه الآية: ابتلينا، فابتلاء المؤمنين بالمشركين هو ما يلقون منهم من الأذى، وابتلاء المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوما لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيه قدرا ومنزلة، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة".

قوله تعالى: {لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا} [الأنعام: ٥٣]، أ أي: ليقول الأشراف والأغنياء أهؤلاء الضعفاء والفقراء منّ الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا! قالوا: ذلك إنكارًا واستهزاء.

=

=

قال مقاتل:"يعني: أنعم الله عليهم بالإسلام من بيننا".

قال ابن عباس:"فقال الأغنياء للفقراء: {أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا}، يعني: هداهم الله. وإنما قالوا ذلك استهزاءً وسُخريًّا".

قال السمعاني:"يقول الأغنياء: أهؤلاء الفقراء سبقونا بالإيمان".

قال الزجاج:"أي: ليكون ذلك آية أنهم اتبعوا الرسول وصبروا على الشدة، وهم في

حال شديدة".

قال الطبري:"يقول تعالى: اختبرنا الناس بالغنى والفقر، والعزّ والذل، والقوة والضعف، والهدى والضلال، كي يقول من أضلّه الله وأعماه عن سبيل الحق، للذين هداهم الله ووفقهم: {أهؤلاء منّ الله عليهم}، بالهدى والرشد، وهم فقراء ضعفاء أذلاء، ونحن أغنياء أقوياء؟ استهزاءً بهم، ومعاداةً للإسلام وأهله".

قال الواحدي:"أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضيلةٍ أو خصُّوا بنعمةٍ".

قال الزمخشري:"وذلك أن المشركين كانوا يقولون للمسلمين أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا أى أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا، ونحن المقدمون والرؤساء، وهم العبيد والفقراء، إنكارا لأن يكون أمثالهم على الحق وممنونا عليهم من بينهم بالخير، ونحوه: {أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا} [القمر: ٢٥]، {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْه} [الأحقاف: ١١]".

قال ابن كثير:"وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول البعثه، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قومُ نوح لنوح: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ} الآية [هود: ٢٧]، وكما قال هرقل ملك الروم لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم.

=

=

فقال: هم أتباع

الرسل ،والغرض: أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: {أَهَـؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا}؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيرا - ويدعنا، كما قالوا: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [الأحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [مريم: ٧٣]، قال الله تعالى في جواب ذلك: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا} [مريم: ٧٤]".

قال ابن عطية:" {وليقولوا}، معناه: ليصير بحكم القدر أمرهم إلى أن يقولوا، فهي «لام» الصيرورة، كما قال تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص: ٨]،أي: ليصير مثاله أن يكون لهم عدوا، وقول المشركين على هذا التأويل: {أهؤلاء من الله عليهم من بيننا} هو على جهة الاستخفاف والهزء.

ويحتمل الكلام معنى آخر: وهو أن تكون «اللام» في: {ليقولوا} على بابها في «لام كي»، وتكون المقالة منهم استفهاما لأنفسهم ومباحثة لها وتكون سبب إيمان من سبق إيمانه منهم، فمعنى الآية على هذا التأويل: وكذلك ابتلينا أشراف الكفار بضعفاء المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك ويكون سبب نظر لمن هدي.

والتأويل الأول أسبق والثاني يتخرج، ومن على كلا التأويلين إنما هي على معتقد المؤمنين، أي هؤلاء من الله عليهم بزعمهم أن دينهم منة".

قال السمرقندي:"فلم يكن الاختبار لأجل أن يقولوا ذلك، ولكن كان الاختبار سببا لقولهم، وهكذا قوله تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص: ٨]، فلم يأخذوه لأجل ذلك، ولكن كان أخذهم سببا لذلك فكأنهم

=

=

أخذوه لأجل ذلك، هاهنا ما كان الاختبار لأجل أن يقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا لأنهم كانوا يقولون: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْه} [الأحقاف: ١١]، ومعناه: ليظهر الذين يقولون: {هؤلاء من الله عليهم من بيننا}".

قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام: ٥٣]، أي:"أليس الله تعالى بأعلم بمن يشكرون نعمته، فيوفقهم إلى الهداية لدينه؟".

قال مقاتل:"يعني: بالموحدين منكم من غيره، وفيهم نزلت فى الفرقان: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَة.... } إلى آخر الآية".

قال السمعاني:"يعني: أليس الله بأعلم من هو أهل للإسلام؛ فيدخل في الإسلام؟!".

قال الواحدي:": إنَّما يهدي إلى دينه مَنْ يعلم أنَّه يشكر".

قال الزمخشري:"أى: الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان. وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق".

قال ابن عطية:"أي: يا أيها المستخفون أو المتعجبون على التأويل الآخر ليس الأمر أمر استخفاف ولا تعجب، فالله أعلم بمن يشكر نعمته والمواضع التي ينبغي أن يوضع فيها فجاء إعلامهم بذلك في لفظ التقدير إذ ذلك بين لا تمكنهم فيه معاندة".

قال البغوي:"استفهام بمعنى التقرير، أي: الله أعلم بمن شكر الإسلام إذ هداه الله ﷻ".

قال ابن كثيرأي: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطًا مستقيما، كما قال تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]. وفي الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى

=

=

صوركم، ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ".

قال الطبري:"وهذا منه تعالى ذكره إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أن يكون الله هدى أهل المسكنة والضعف للحق، وخذلهم عنه وهم أغنياء وتقريرٌ لهم: أنا أعلم بمن كان من خلقي شاكرًا نعمتي، ممن هو لها كافر. فمنِّي على من مَنَنْتُ عليه منهم بالهداية، جزاء شكرهإياي على نعمتي، وتخذيلي من خذلت منهم عن سبيل الرشاد، عقوبة كفرانه إياي نعمتي، لا لغنى الغني منهم ولا لفقر الفقير، لأن الثواب والعقاب لا يستحقه أحدٌ إلا جزاءً على عمله الذي اكتسبه، لا على غناه وفقره، لأن الغنى والفقر والعجز والقوة ليس من أفعال خلقي".

قال ابن عطية: "فابتلاء المؤمنين بالمشركين هو ما يلقون منهم من الأذى ، وابتلاء المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قومًا لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيه قدرًا ومنزلة ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة".

قال الشنقيطي: "أجرى الله تعالى الحكمة بأن أكثر أتباع الرسول ضعفاء الناس ، ولذلك لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن نبينا ﷺ: أأشرف الناس يتبعونه ، أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم. قال: هم أتباع الرسل، فإذا عرفت ذلك فاعلم أنه تعالى أشار إلى أن من حكمة ذلك فتنة بعض الناس ببعض، فإن أهل المكانة والشرف والجاه يقولون: لو كان في هذا الدين خير لما سبقنا إليه هؤلاء، لأنا أحق منهم بكل خير كما قال هنا (وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ) لآية إنكارًا منهم أن يمن الله على هؤلاء الضعفاء دونهم، زعمًا منهم أنهم أحق بالخير منهم، وقد رد الله قولهم هنا بقوله (أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ) وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله تعالى (وَقَالَ الذين كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ) الآية، وقوله (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ

=

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤).

{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ} لَهُمْ {سَلَام عَلَيْكُمْ كَتَبَ} قَضَى {رَبّكُمْ عَلَى نَفْسه الرَّحْمَة أَنَّهُ} أَيْ الشَّأْن وَفِي قِرَاءَة بِالْفَتْحِ بَدَل مِنْ الرَّحْمَة {مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ} مِنْهُ حَيْثُ ارْتَكَبَهُ {ثُمَّ تَابَ} رَجَعَ {مِنْ بَعْده} بَعْد عَمَله عَنْهُ {وَأَصْلَحَ} عَمَله {فَإِنَّهُ} أَيْ الله {غَفُور} لَهُ {رَحِيم} بِهِ وَفِي قِرَاءَة بِالْفَتْحِ أَيْ فَالْمَغْفِرَة لَهُ[1].

=

وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ) ، إلى غير ذلك من الآيات.

فالأغنياء غالبًا يبتلون بالفقراء ويفتنون بما يعطيه الله للفقراء من الدين والإيمان ، والفقراء غالبًا يبتلون بما يعطيه الله للأغنياء من الدنيا ، فيقول الفقراء: كيف أعطيَ هؤلاء الغنى والدنيا ونحن خير منهم ولم نعطها؟ يحسدونهم على غناهم ، كما أن الأغنياء يقولون: كيف يكون هؤلاء الفقراء على حق ودين ويكونون أفضل منا ونحن خير منهم.

وقد أخبر الله تعالى أن هذا الابتلاء يحتاج إلى صبر ، وأن لله حكمة كما قال (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا).

فقال تعالى ردًا عليهم:

(أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا.

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن ماهان؛ قال: جاء قوم إلى النبي ﷺ قد أصابوا ذنوبًا عظامًا، فما أخاله رد عليهم شيئًا، قال: فأنزل: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٣٢)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٠٠/ ٧٣٤٥)، ومسدد في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٨/ ٥٦٧ رقم ٣٩٧٣ - المسندة)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ٧٢ رقم ٧٦٦١ - ط الرشد)، وسفيان الثوري في "تفسيره" (ص ١٠٧ رقم ٢٦٦) من طريق يحيى بن سعيد القطان وقبيصة وأبي نعيم ثلاثتهم عن الثوري عن مجمع التميمي قال: سمعت ماهان به. وهذا مرسل رجاله ثقات، وأما البوصيري؛ فقال: "هذا إسناد ضعيف؛ لجهالة بعض رواته".

* قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا} [الأنعام: ٥٤].

اختلف في المراد بهؤلاء:

فقيل: هم الذين نهاه الله عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين.

وبه قال القرطبي ، وابن جزي ، والشوكاني ، والشنقيطي.

وقيل: نزلت في قوم أصابوا ذنوبًا عظامًا ولم يرد عليهم ، فنزلت الآية ، ورجحه الطبري.

ومن المفسرين من حمل الآية على عمومها، كابن عطية ، والرازي ، وابن تيمية ، والقاسمي ، والسعدي. وحجتهم عموم اللفظ.

قال ابن عطية: وهي على هذا تعم جميع المؤمنين دون أن تشير إلى فرقة.

وقال الرازي: والأقرب من هذه الأقاويل أن تحمل الآية على عمومها.

=

=

قال مقاتل: {يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا} "يعني: يصدقون بالقرآن أنه من الله".

قال الواحدي: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا} "يعني: الصَّحابة وهؤلاء الفقراء".

قال الطبري: يقول:"وإذا جاءك، يا محمد، القومُ الذين يصدِّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا، فيقرّون بذلك قولا وعملا مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة.

والمعنيُّون: غيرُ الذين نهى الله النبي ﷺ عن طردهم. لأن قوله: {وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا}، خبر مستأنَفٌ بعد تقضِّي الخبر عن الذين نهى الله نبيه صلى اللهعليه وسلم عن طردهم. ولو كانوا هم، لقيل: وإذا جاؤوك فقل سلام عليكم. وفي ابتداء الله الخبرَ عن قصة هؤلاء، وتركه وصلَ الكلام بالخبر عن الأولين، ما ينبئ عن أنهم غيرُهم".

قال صاحب المنار:"المراد بـ«الآيات»: آيات القرآن، المشتملة على حجج الله وآياته في الأنفس والآفاق، وهذهالآية معطوفة على آية النهي: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم}. إلخ. والآية التي بينهما معترضة بين فيها ابتلاء كبراء المشركين بضعفاء المؤمنين ورغبتهم في طردهم".

قوله تعالى: {فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [الأنعام: ٥٤]، أي: "فأكرمهم بالسلام عليهم، تطييبًا لخواطرهم وإكرامًا لهم".

قال مقاتل:"يقول: مغفرة الله عليكم".

قال الطبري: أي:"أَمَنَةُ الله لكم من ذنوبكم، أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها".

قال ابن كثير:"أي: فأكرمهم برد السلام عليهم".

قال الواحدي: أي:"سلّم عليهم بتحيَّة المسلمين".

قال ابن عطية: قال جمهور المفسرين (الذين) يراد بهم القوم الذين كان عرض طردهم فنهى الله ﷻ عن طردهم، وشفع ذلك بأن أمر بأن يسلم النبي ﷺ عليهم

=

=

ويؤنسهم.

قوله تعالى (سَلامٌ عَلَيْكُمْ) قيل: أن النبي ﷺ أمِرَ بأن يُسلم عليهم مبتدئًا إياهم بالسلام ، وقيل: إن هذا السلام هو من جهة الله ، أي: أبلغهم منا السلام لما احتقرهم أعداء الله.

قال القرطبي: وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى.

وقال: ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم؛ فإن في ذلك غضب الله ، أي حلول عقابه بمن آذى أحدًا من أوليائه.

قال السعدي: أي:"فحيهم ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلاما".

وفي قوله تعالى: {فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [الأنعام: ٥٤]، ثلاثة تاويلات:

أحدها: أنه تحية أمر الله تعالى رسوله أن يبدأ بها الذين يؤمنون بآياته إذا جاءوه إكراما خاصا بهم مخالفا للأصل العام – وهو كون القادم هو الذي يلقي السلام. وهو خاص بمن قال: إن الآية نزلت فيهم. هذا قول خبّاب ،عكرمة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وبعض المتأخرين.

والثاني: انه تحية منه تعالى أمر رسوله أن يبلغهم إياها عنه. وهذا قول الحسن.

والثالث: انه إخبار عنه تعالى بسلامتهم وأمنهم من عقابه، قفى عليه ببشارتهم بمغفرته ورحمته. وهذا قول الإمام الطبري ، وحكاه بعض المفسرين عن ابن عباس.

قال صاحب المنار: القول"الثالث هو أظهرها".

قال القرطبي: معناه:"سلمكم الله في دينكم وأنفسكم، نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام»،

فعلى هذا كان السلام من جهة النبي ﷺ. وقيل: إنه كان من جهة الله تعالى، أي

=

=

أبلغهم منا السلام، وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى، وفي صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو: «أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ونفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟! فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي» ، فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم.. ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم، فإن في ذلك غضب الله، أي حلول عقابه بمن آذى أحدا من أوليائه".

قال صاحب المنار:" «السلام»: من أسماء الله تعالى، يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من نقص، وعجز، وفناء، وغير ذلك من عيوب الخلق وضعفهم. واستعمل السلام في المتاركة وفي التحية معرفة ونكرة، يقال: سلام عليكم، والسلام عليكم، وهو بمعنى الدعاء بالسلامة من كل ما يسوء، ويفيد تأمين المسلم عليه من كل أذى يناله من المسلم، فهو آية المودة والصفاء، وثبت في التنزيل أن السلام تحية أهل الجنة يحييهم بها ربهم جل وعلا، وملائكته الكرام ويحيي بها بعضهم بعضا، وهو تحية الإسلام الذي هو دين السلم والمسالمة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً} [البقرة: ٢٠٨]".

قوله تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤]، أي:"وبَشِّرهم برحمة الله الواسعة؛ فإنه جلَّ وعلا أوجب ذلك على نفسه إيجاب فضل وإحسان وامتنان، وقد قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) وقال ﷺ (لما قضى الله الخلْق: كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي) متفق عليه.

قال الطبري:"يقول: قضى ربكم الرحمة بخلقه".

=

=

قال البغوي:"أي: قضى على نفسه الرحمة".

قال الواحدي: أي:"أوجب الله لكم الرَّحمة إيجابًا مُؤكَّدا".

قال ابن كثير:"أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلا منه وإحسانًا وامتنانًا".

قال السعدي: أي:"وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم، من رحمة الله، وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق، يوصل لذلك".

قال صاحب المنار:"وكتابتها، إيجابها على ذاته العلية، وله أن يوجب على نفسه ما شاء ولا يوجب عليه أحد شيئا. فالرحمة من شئون الربوبية الواجبة لها لا عليها، وإن في نظام الفطرة البشرية وما سخر الله للبشر من أسباب المعيشة المادية، وما آتاهم من وسائل العلوم الكسبية، ومن هداية الوحي الوهبية – لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية، وتربية عباده بها في حياتهم الجسدية والروحية، بل هي التي وسعت كل شيء، ولكن كتابتها أمر آخر خص به بعض الخلق".

قوله تعالى: {أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ} [الأنعام: ٥٤]، أي: بسفاهة ، ولهذا أجمع الصحابة على أن كل ذنب عصيَ الله به فهو جهالة عمدًا كان أو جهلًا ، لأن من يعصي الله فهو جاهل بالله وبقدره وعظمته.

وليس المراد بالجهالة هنا الجهالة التي هي ضد العلم ، لأن من يعمل السوء وهو جاهل غير عالم لا يؤاخذ ولا ذنب عليه بل هو معذور.

والسوء: السيئة ، سميت سيئة لأنها تسوء صاحبها في الدنيا وفي الآخرة ، في الدنيا بظهور آثارها عليه من الهمّ والضيق في الصدر والخلق والرزق ، فيفقد من السعادة في الحياة بقدر ما عمل من السوء ، قال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) وقال تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ). وتسوؤه آجلًا بعد موته لمعاقبته عليها إن لم يتب منها أو

=

=

يتداركه الله بعفوه.

قال الطبري: أي:"أنه من اقترف منكم ذنبًا، فجهل باقترافه".

قال الواحدي:"يريد: إن ذنوبكم جهل ليس بكفرٍ ولا جحود لأنَّ العاصي جاهلٌ بمقدار العذاب في معصيته".

قال الضحاك:" ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا ولا حراما، ولكن من جهالته حين دخل فيه".

قال ابن كثير:"قال بعض السلف: كل من عصى الله، فهو جاهل".

قال مجاهد:"من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع، عن معصيته".

وعن مجاهد ايضا:" {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ} ، قال: الجهالة العمد".وروي، عن عطاء، مثله.

وعن جهير بن يزيد قال: "سألت الحسن، عن قوله: {السوء بجهالة}، قلت: ما هذه الجهالة؟ قال: هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم. قلت: أرأيت لو كانوا علموا؟ قال: فليخرجوا منها، فإنها جهالة".

وروي عن عكرمة في قوله: "{السوء بجهالة}، قال: الدنيا كلها جهالة".

وقال خالد بن دينار أبو خلدة: "كنا إذا دخلنا على أبي العالية قال: {وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة}".

قرأ عاصم، وابن عامر، ونافع: «أنه من عمل» بفتح الهمزة، وقرأ ابن كثير وابو عمرو وحمزة والكسائي: «إنه»، بكسرها.

فأما قراءة الفتح: فعلى البدل من الرحمة، أي بدل البعض من الكل؛ إذ ذكر من أنواع الرحمة المكتوبة ما هم أحوج إلى معرفته بنص الوحي، وهو حكم من يعمل السوء من المؤمنين، وكيف يعامله الله تعالى، وأما سائر أنواعها، وما هو إحسان غير مكتوب منها، فيمكن أن يستدل عليهما بالنظر في الأنفس والآفاق، وهو ما

=

=

أشرنا إليه في تفسير كتابتها.

وأما قراءة الكسر: فعلى الاستئناف النحوي أو البياني، كأنه قيل: ما هذه الرحمة؟ أو: ما حظنا منها في أعمالنا؟ وهل من مقتضاها ألا نؤاخذ بذنب، وأن يغفر لنا كل سوء بلا شرط ولا قيد؟ فجاء الجواب: إنه - أي الحال والشأن - من عمل منكم عملا تسوء عاقبته وتأثيره لضرره الذي حرمه الله لأجله حال كونه متلبسا بجهالة دفعته إلى ذلك السوء.

قوله تعالى: {ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ} [الأنعام: ٥٤]، أي: رجع عما كان عليه من المعاصي من بعد المعصية ، وذلك بالإقلاع عن هذه المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها ، وأن تكون خالصة لله تعالى ، وأن تكون في وقتها المناسب: قبل حضور الموت وبلوغ الروح الحلقوم ، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

فالتوبة: هي الرجوع والعودة إلى الله والإنابة إليه ، أي: الرجوع من المعصية إلى الطاعة.

قال الواحدي: يعني:"رجع عن ذنبه {وأصلح} عمله".

قال ابن كثير:"أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على ألا يعود وأصلح العمل في المستقبل".

قال السعدي:"أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع، والندم عليها، من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة".

قوله تعالى: {فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: ٥٤]، أي:"فإنه تعالى يغفر ذنبه، فهو غفور لعباده التائبين، رحيم بهم.

قال السعدي:"أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به".

=

=

قال سعيد بن جبير:" {غفور}، يعني: لما كان منه قبل التوبة" ، " {رحيم}: لمن تاب".

عن قتادة: قوله: "{رحيم} قال: رحيم بعباده".

قَرَأَ ابْن كثير وَأَبُو عَمْرو وَحَمْزَة ونافع والكسائى: «فَأَنَّهُ غَفُور رَحِيم»، بكسر الْألف، وَقَرَأَ عَاصِم وَابْن عَامر: «فَأَنَّهُ» بالفتح.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ "إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق، أخرج كتابًا من تحت العرش: إن رحمتي سبقت غضبي، وأنا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقًا لم يعملوا خيرًا، مكتوب بين أعينهم. عُتَقَاء الله".

قال ابن كثير:"ومما يناسب هذه الآية لكريمة من الأحاديث أيضا قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «أتدري ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا، ثم قال: أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم» ".

قوله تعالى: (فَأَنَّهُ غَفُورٌ) اسم من أسماء الله.

قال السعدي: الغفور: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب.

قال ابن القيم:

وهو الغفور فلو أتى بقرابها من غير شرك بل من العصيان

لأتاه بالغفران ملء قرابها سبحانه هو واسع الغفران.

متضمن للمغفرة الواسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) ، وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى (ورحمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق ، والتجاوز عن عقوبته ، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه – ﷻ –

=

=

حتى يضع كنفه - أي ستره ورحمته - فيقرره بذنوبه ، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم ، أي ربي ، حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال الله: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) رواه البخاري ومسلم.

ومنه سمي المغفر ، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

(رَحِيمٌ) اسم من أسماء الله دال على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى ، كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).

ورحمة الله تعالى لعباده نوعان:

الأولى: رحمة عامة.

وهي لجميع الخلائق بإيجادهم ، وتربيتهم ، ورزقهم ، وإمدادهم بالنعم والعطايا ، وتصحيح أبدانهم ، وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم ، ومساكنهم ، ولباسهم ، وحركاتهم ، وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

الثانية: رحمة خاصة.

وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين فيرحمهم الله في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراط المستقيم ، ويثبتهم عليه ، ويدافع عنهم وينصرهم على الكافرين ويرزقهم الحياة الطيبة ويبارك لهم فيها ، ويمدهم بالصبر واليقين عند المصائب ، ويغفر لهم ذنوبهم ، ويكفرها بالمصائب ، ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم والرضا عنهم والإنعام عليهم بدخول الجنة ، كما قال تعالى (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا). قال الشيخ ابن عثيمين: فهي رحمة إيمانية دينية دنيوية.

مسألة: هل يجب على الله تعالى شيء؟

=

=

أن المعتزلة بناء منهم على القول بالحسن والقبح العقليين، أوجبوا على الله تعالى أمورا، كالصلاح واللطف.

والأشاعرة والسلف والماتريدية منعوا أن تكون واجبة عليه.

معنى الوجوب

تستعمل كلمة "وجب" في اللغة بمعنى سقط، والواجب بمعنى الساقط، ومنه قوله تعالى: فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا [الحج: ٣٦] أي سقطت على الأرض.

كما تستعمل بمعنى لزم. قال في القاموس:"وجب يجب وجوبا وجبة لزم، ثم قال: واستوجبه استحقه، والوجيبة الوظيفة، ووجب يجب وجيبة سقط".

ويطلق واجب الوجود على الله تعالى. ونلاحظ أن معاني الوجوب المذكورة تدور حول اللزوم، أي أن الواجب هو اللازم؛ لأن الدابة إذا سقطت مذبوحة فإنها تلزم الأرض.

وكذلك الوجيبة بمعنى الوظيفة فيها معنى اللزوم. أما استوجبه بمعنى استحقه فظاهر فيه معنى اللزوم، أي لزم له هذا الحق، وتعين أداؤه له.

إذا فالوجوب بمعنى اللزوم، والواجب هو اللازم.

المراد بالوجوب في حق الله:

فإذا قيل: يجب على الله تعالى شيء فإما أن يراد بالواجب:

أولا: ما يستحق تاركه الذم.

ثانيا: أو ما يكون تركه مخلا بالحكمة؛ فيكون لازما لاقتضاء الحكمة إياه.

ثالثا: أو هو عبارة عما قدر الله تعالى على نفسه أن يفعله ولا يتركه، وإن كان تركه جائزا.

والتعريف: الأول والثاني ينسبان للمعتزلة، والتعريف الثالث اختيار بعض المتكلمين. هذا ما ذكره الجلال الدواني في معاني الواجب. أما الآمدي فقد ذكر

=

=

معاني الواجب، فقال:

"ثم إن الواجب قد يطلق على الساقط...

وقد يطلق على ما يلحق بتاركه ضرر... وقد يطلق على ما يلزم من فرض عدمه المحال". والمقصود بما يلزم من فرض عدمه المحال: هو ما علم الله وقوعه فيقال وقوعه واجب، بمعنى أنه إن لم يقع يؤدي إلى أن ينقلب العلم جهلا، وذلك محال فيكون معنى وجوبه أن ضده محال.

رأي الأشاعرة في مسألة الوجوب في حق الله: ذهبت الأشاعرة إلى أن الله تعالى لا يجب عليه شيء؛ لأنه المالك على الإطلاق، وله التصرف في ملكه كيف يشاء.

وإليك ما قاله الجلال الدواني في إبطال معاني الوجوب الثلاثة في حقه تعالى:

"والأول باطل؛ لأنه تعالى المالك على الإطلاق، وله التصرف في ملكه كيف يشاء، فلا يتوجه إليه الذم أصلا على ترك فعل من الأفعال، بل هو المحمود في كل أفعاله.

وكذا الثاني؛ لأنا نعلم إجمالا: أن جميع أفعاله تتضمن الحكم والمصالح، ولا يحيط علمنا بحكمته ومصلحته، على أن التزام رعاية الحكمة والمصلحة مما لا يجب عليه تعالى لايسأل عما يفعل وهم يسألون. وكذا الثالث؛ لأنه إن قيل بامتناع صدور خلافة عنه تعالى، فهو ينافي ما صرح به في تعريفه من جواز الترك، وإن لم يقل به فات معنى الوجوب، وحينئذ يكون محصله أن الله تعالى لا يتركه على طريق جري العادة، وذلك ليس من الوجوب في شيء بل يكون إطلاق الوجوب عليه مجرد اصطلاح".

وبهذا نرى أن الأشاعرة يمنعون وجوب شيء في حقه تعالى عقلا؛ لأنه المالك المتصرف على الإطلاق.

رأي المعتزلة: أما المعتزلة فقد ذهبوا إلى القول بوجوب بعض الأفعال على الله،

=

=

وعدوا ذلك من أمور العدل.

ويقول القاضي عبدالجبار في ذلك:"وأما علوم العدل؛ فهو أن يعلم أن أفعال الله تعالى كلها حسنة، وأنه لا يفعل القبيح، ولا يخل بما هو واجب عليه، وأنه لا يكذب في خبره، ولا يجور في حكمه".

فهم يرون وجوب ما حكم العقل بحسنه على الله تعالى، بمعنى أن تركه نقص يتنزه الله عنه.

وقال متأخرو المعتزلة: إن معنى الوجوب على الله تعالى: "إنه يفعله البتة ولا يتركه، وإن جاز أن يتركه"، فليس كل من الفعل والترك لازما لذاته بحيث يستحيل الطرف الآخر.

وأجيب عن هذا القول من قبل الأشاعرة:"بأن الوجوب على هذا مجرد تسمية؛ إذ يكون محصله: أن الله تعالى لا يتركه على سبيل جري العادة، وذلك ليس من الوجوب في شيء، بل إطلاق الوجوب عليه مجرد اصطلاح".

وقال صاحب المسايرة في بيان مراد المعتزلة بالواجب على الله:"واعلم أنهم يريدون بالواجب ما يثبت بتركه نقص بسبب ترك مقتضى قيام الداعي، وهو هنا كمال القدرة والغني مع انتفاء الصارف فترك المذكورة - أي ترك رعاية الأصلح للعباد - مع ذلك بخل يجيب تنزيهه عنه فيجب، أي لا يمكن أن يقع غيره لتعاليه عما لا يليق".

الرأي الراجح: لقد سلك كل من المعتزلة والأشاعرة في مسألة الوجوب على الله طريقين كلاهما خطأ، ولم يوفقوا لطريق الحق الذي هو الطريق الوسط، والذي دل عليه الكتاب والسنة، وتوضيح ذلك:

١ - أن المعتزلة أفرطوا في تمجيد العقل، حتى أوجبوا بمقتضاه على الله تعالى أمورا وحرموا عليه أمورا أخرى، ووضعوا لله شريعة التعديل والتجوير، فهم

=

=

بذلك شبهوا الخالق بالمخلوق.

٢- أما الأشاعرة فقد أخطأوا في إطلاقهم القول بنفي الوجوب في حقه تعالى؛ فلم ينزهوه عن فعل شيء، بناءً منهم على نفي التحسين والتقبيح العقليين. وقالوا: إن الوجوب لا يتصور في حقه؛ لأنه المالك المتصرف ولا يسأل عما يفعل، ونسوا أنه لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته.

٣- وهنا يأتي دور الفريق الوسط، الذين منعوا أن يوجب العقل على الله تعالى شيئا، ولكن لم يمنعوا أن يوجب الله على نفسه بعض الأمور التي يقتضيها كماله، والتي أخبر أنه أوجبها على نفسه، كما قال تعالى: وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ [الأنعام: ٥٤]. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (إن الله لما قضى الخلق كتب على نفسه كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي).

هذا، ولا يلزم من كونه تعالى أوجب على نفسه بعض الأمور أن يكون فاعلا بالإيجاب، أي لا اختيار له؛ لأنه سبحانه أوجبه على نفسه باختياره، فإذا شاء الحسن واختاره لم يكن ذلك نافيا للاختيار، فاختياره وإرادته اقتضت التعلق بما كان حسنا، على وجه اللزوم، فكيف لا يكون مختارا!

ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - موقف السلف في مسألة الوجوب على الله، حيث يقول:

"وأما الإيجاب عليه سبحانه وتعالى، والتحريم بالقياس على خلقه، فهذا قول القدرية - أي المعتزلة - وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول. وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن العباد لا يوجبون عليه شيئا. ولهذا كان من قال من أهل السنة بالوجوب قال: إنه كتب على نفسه الرحمة، وحرم الظلم على

=

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥).

{وَكَذَلِكَ} كَمَا بَيَّنَّا مَا ذُكِرَ {نُفَصِّل} نُبَيِّن {الْآيَات} الْقُرْآن لِيَظْهَر الْحَقّ فَيُعْمَل بِهِ {وَلِتَسْتَبِينَ} تَظْهَر {سَبِيل} طَرِيق {الْمُجْرِمِينَ} فَتُجْتَنَب وَفِي قِرَاءَة بالتحتانية وَفِي أُخْرَى بالفوقانية وَنَصْب سَبِيل خِطَاب لِلنَّبِيِّ ﷺ(١).

=

نفسه، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير فهو الخالق لهم وهو المرسل إليهم الرسل، وهو الميسر لهم الإيمان والعمل الصالح".

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ} [الأنعام: ٥٥]، أي: وكما فصلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على ضلالات المشركين ، كذلك نبين ونوضّح لكم أمور الدين.

عن قتادة:" {وكذلك نفصل الآيات}، نبين الآيات".

قال ابن زيد في:" {نفصل الآيات}، نبين". وروي عن السدي مثل ذلك.

قال البغوي:"أي: وهكذا، وقيل: معناه وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلناوإعلامنا على المشركين {كذلك نفصل الآيات}، أي: نميز ونبين لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل".

قال الطبري: أي:"وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها، يا محمد، إلى هذا الموضع، حجتَنا على المشركين من عبدة الأوثان، وأدلتَنا، وميَّزناها لك وبيَّناها، كذلك نفصِّل لك أعلامنا وأدلتنا في كل حقّ ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل غيرهم، فنبينها لك".

قال الزمخشري: أي:"ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين، من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة، ومن دخل في الإسلام إلا أنه

=

=

لا يحفظ حدوده".

قال القرطبي:"التفصيل: التبيين الذي تظهر به المعاني، والمعنى: وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نفصل لكم الآيات في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين، ونبين لكم أدلتنا وحججنا في كل حق ينكره أهل الباطل".

وقال القتبي:" {نفصل الآيات}، نأتي بها شيئا بعد شي، ولا ننزلها جملة متصلة".

قال أبو عبيدة: {نُفَصِّلُ الْآيَاتِ} "أي: نميزها ونبيّنها، قال يزيد ابن ضبّة فى البغتة: ولكنّهم بانوا ولم أدر بغتة وأفظع شئ حين يفجؤك البغت"

قوله تعالى: {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام: ٥٥]، أي:" ليتبين الحق، وليظهر طريق أهل الباطل المخالفين للرسل".

والمجرمين جمع مجرم ، والجريمة: الذنب الذي يستحق صاحبه العذاب والنكال.

فإن قيل: لماذا خص سبيل المجرمين دون المؤمنين؟ فالجواب: أن سبيل المجرمين إذا عُرفتْ عرفتْ منها سبيل المؤمنين ، لأن الأشياء تعرف بأضدادها ، وإذا عرف الإنسان الشر عرف أن مقابله هو الخير.

قال البغوي:"أي: طريق المجرمين".

قال القرطبي:"أي: ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين".

قال ابن زيد:" {ولتستبين}، قال: لتعرفها". {سبيلَ المجرمين} "الذين يأمرونك بطرد هؤلاء".

قال الزمخشري: أي:"ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به".

قال الطبري: أي:"حتى تبين حقه من باطله، وصحيحهُ من سقيمه".

=

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦).

{قُلْ إِنِّي نُهِيت أَنْ أَعْبُد الَّذِينَ تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله قُلْ لَا أَتَّبِع أَهْوَاءَكُمْ} فِي عِبَادَتهَا {قَدْ ضَلَلْت إِذًا} إِنْ اتبعتها {وما أنا من المهتدين.

قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧).

{قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَة} بَيَان {مِنْ رَبِّي و} قد {كذبتم به} بِرَبِّي حَيْثُ أَشْرَكْتُمْ

=

قال الزجاج:"فإن قال قائل أفلم يكن النبي ﷺ مستبيناسبيل المجرمين؟

فالجواب في هذا أن جميع ما يخاطب بهالمؤمنون يخاطب به النبي ﷺ، فكأنه قال ولتستبينوا المجرمين، أي لتزدادوا استبانة لها، ولم يحتج أن يقول ولتستبين سبيل المؤمنين مع ذكر سبيل المجرمين، لأن سبيل المجرمين إذا استبانت فقد بانت معها سبيل المؤمنين.

وجائز أن يكون المعنى: ولتستبين سبيل المجرمين ولتستبين سبيلالمؤمنين، إلا أن الذكر والخطاب ههنا في ذكر المجرمين فذكروا وتركذكر سبيل المؤمنين، لأن في الكلام دليلا عليهاكما قال ﷻ: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرّ} [النحل: ٨١] ولم يقل: تقيكم البرد، لأن الساتر يستر من الحر والبرد، ولكن جرى ذكر الحر لأنهم كانوا في مكانهم أكثر معاناة له من البرد".

قَرَأَ ابْن كثير وَأَبُو عَمْرو وَابْن عَامر، وحَفْص عَن عَاصِم: {ولتستبين} بِالتَّاءِ {سَبِيل} رفعا، وَقَرَأَ نَافِع: {ولتستبين} بِالتَّاءِ {سَبِيل} نصبا، وَقَرَأَ عَاصِم فى رواية أَبى بكر وَحَمْزَة والكسائى: «وليستبين»، بِالْيَاءِ، {سَبِيل} رفعا.

{مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} مِنْ الْعَذَاب {إنْ} مَا {الْحُكْم} فِي ذلك وغيره {إلا لله يقضي} الْقَضَاء {الْحَقّ وَهُوَ خَيْر الْفَاصِلِينَ} الْحَاكِمِينَ وَفِي قِرَاءَة يَقُصّ أَيْ يَقُول.

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨).

{قُلْ} لَهُمْ {لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْر بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} بِأَنْ أُعَجِّلهُ لَكُمْ وَأَسْتَرِيح وَلَكِنَّهُ عِنْد الله {وَاَلله أَعْلَم بِالظَّالِمِينَ} مَتَى يُعَاقِبهُمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الأنعام: ٥٦]، أي: (قُلْ) يا محمد لهؤلاء المشركين المعرضين عن عبادة الله إذا دعوك إلى عبادة آلهتهم.

(إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) إن الله نهاني أن أعبد الذين تدعون من دونه من الأصنام والمعبودات التي تعبدونها من دون الله ، لأن الله قال لنبيه ﷺ (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. بَلِ اللهَ) أي: بل الله وحده (فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِين).

قال الزمخشري: " {نهيت}: صرفت وزجرت، بما ركب فى من أدلة العقل، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله وفيه استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة".

قال الزجاج:"كانوا يعبدون الأصنام، وقالوا: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣]، فأعلم الله ﷻ أنه لا يعبد غيره".

قال القرطبي:"قيل: {تدعون} بمعنى تعبدون. وقيل: تدعونهم في مهمات أموركم على جهة العبادة، أراد بذلك الأصنام".

قوله تعالى: {قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ} [الأنعام: ٥٦]، أي: أي: ولقد نهاني الله عن =

=

اتباع أهوائكم ، أي: مهوياتكم التي تميل إليها نفوسكم باتباع الهوى والباطل ، كما قال تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) والمعنى: لا أتبع أهواءكم الباطلة في عبادة الأصنام والإشراك بالله تعالى.

وفي هذا تنبيه على ضلالهم.

والهوى: ميل النفس ، وأكثر ما يطلق في الشرع: إلى ميلها إلى ما لا ينبغي.

قال البغوي:" {لا أتبع أهواءكم} في عبادة الأوثان وطرد الفقراء".

قال الزمخشري:"أى: لا أجرى في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل".

قال الزجاج:"أي: إنما عبدتموها على طريق الهوى لا على طريق البينة والبرهان".

قال القرطبي: أي:"فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياء، ومن طرد من أردتم طرده".

قوله تعالى: {قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [الأنعام: ٥٦]، أي: فإن خالفت أمر ربي ﷻ وعبدتُ آلهتكم التي تعبدون أو اتبعت أهواءكم فيما تريدون مخالفًا بذلك أمر ربي ، فقد تركت محجة الحق ، وسلكت على غير الهدى ، فصرت ضالًا مثلكم على غير استقامة. (والضلال ضد الرشاد).

وفي هذا أنه يجب على الإنسان أن يتبرأ من عبادة غير الله.

كما قال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ. إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ).

وقال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ. وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ).

=

=

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

وقال تعالى (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

وفيها أن من اتبع هواه بغير علم ولا دليل أنه ضال وأنه ليس من المهتدين.

قال الزجاج: "قد ضللت إن عبدتها، {وما أنا من المهتدين} وما أنا من النبيين الذين سلكوا طريق الهدى".

قال القرطبي:"أي: قد ضللت إن اتبعت أهواءكم، {وما أنا من المهتدين}، أي: على طريق رشد وهدى".

قال البغوي:"يعني: إن فعلت ذلك فقد تركت سبيل الحق وسلكت غير طريق الهدى".

قال الزمخشري:"أى: إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال، وما أنا من الهدى في شيء، يعنى: أنكم كذلك".

قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [الأنعام: ٥٧]، أي:"قل -أيها الرسول لهؤلاء المشركين-: إني على بصيرة واضحة من شريعة الله التي أوحاها إليَّ، وذلك بإفراده وحده بالعبادة".

قال أبو عمران الجوني:" {على بينة من ربي}، على ثقة".

قال مقاتل:"يعني: بيان من ربي بما أمرني من عبادته وترك عبادة الأصنام، حين قالوا له: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين".

قال ابن كثير:"أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إليّ".

قال البغوي:"أي: على بيان وبصيرة وبرهان".

=

=

قال القرطبي:"أي: دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى، ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره".

قال الزمخشري: أي:"إنى من معرفة ربى وأنه لا معبود سواه، على حجة واضحة وشاهد صدق، يقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه، إذا كان ثابتا عندك بدليل، وقيل على بينة من ربي على حجة من جهة ربى وهي: القرآن".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم، الداعين لك إلى الإشراك بربك: إني على بيان قد تبينته، وبرهان قد وضح لي {من ربي}، يقول: من توحيدي، وما أنا عليه من إخلاص عُبُودته من غير إشراك شيء به".

تقول العرب: فلان على بينة من هذا الأمر، إذا كان على بيان، منه، ومن ذلك قول الشاعر:

أَبَيِّنَةً تَبْغُونَ بَعْدَ اعْتِرَافِهِ وقَوْلِ سُوَيْدٍ قَدْ كَفَيْتُكُمُ بِشْرَا

أي: بيانا.

قوله تعالى: {وَكَذَّبْتُمْ بِهِ} [الأنعام: ٥٧]، أي: وكذبتم بالحق الذي جاءني من الله وهو القرآن ، واختاره ابن عطية ، والبغوي.

وقيل: إن الضمير يعود إلى الرب ، أي: وكذبتم بربكم.

واختاره الطبري ، والرازي ، والشوكاني ، والسعدي ، لأنه أقرب مذكور.

وقيل: وكذبتم به ، أي: بالعذاب ، وقيل: بالبينة.

قال الطبري:"يقول: وكذبتم أنتم بربكم".

قال ابن كثير:"أي: بالحق الذي جاءني من عند الله".

قال البغوي:"أي: ما جئت به".

قال الزمخشري: أي:"حيث أشركتم به غيره، وقيل: بالبينة".

=

=

قال القرطبي:"أي: بالبينة لأنها في معنى البيان، كما قال: {وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه} [النساء: ٨]، وقيل يعود على «الرب»، أي: كذبتم بربي، لأنه جرى ذكره. وقيل: بالعذاب. وقيل: بالقرآن".

قوله تعالى: {مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} [الأنعام: ٥٧]، أي: من العذاب ، فهو ليس بيدي وإنما بيد الله ، فإن الكفار كانوا يقولون للنبي ﷺ: هذا الذي تهددنا به من عذاب الله ، فإن كنت صادقًا نبيًا فعجّله لنا ، كما ذكر ذلك الله عنهم في آيات:

كقوله تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ).

وقال تعالى (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ).

وقال تعالى (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ): أيْ: أيّ شيء يحبس العذاب ويؤخره، ولمَ لا تعجله؟

وقيل: (مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) من الآيات التي تقترحونها عليّ.

قال مقاتل:"من العذاب، يعني: كفار مكة".

قال ابن كثير:"أي: من العذاب".

قال الزمخشري:"يعنى: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: {فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ} [الأنفال: ٣٢]".

قال الطبري: أي:"ما الذي تستعجلون من نقم الله وعذابه بيدي، ولا أنا على ذلك بقادر. وذلك أنهم قالوا حين بعث الله نبيَّه محمدًا ﷺ بتوحيده، فدعاهم إلى الله، وأخبرهم أنه رسوله إليهم: {هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} [سورة الأنبياء: ٣]. وقالوا للقرآن: هو أضغاث أحلام. وقال بعضهم: بل هو اختلاق اختلقه. وقال آخرون: بل محمد شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل

=

=

الأولون فقال الله لنبيه ﷺ: أجبهم بأن الآيات بيد الله لا بيدك، وإنما أنت رسول، وليس عليك إلا البلاغ لما أرسلت به".

قال البغوي:"قيل: أراد به استعجالهم العذاب، كانوا يقولون: {إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة} [الأنفال] الآية، قيل: أراد به القيامة، قال الله تعالى: {يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها} [الشورى: ١٨]".

قال القرطبي:" أي: العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم: {أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا} [الاسراء: ٩٢]، {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء} [الأنفال: ٣٢].

وقيل: ما عندي من الآيات التي تقترحونها".

قوله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام: ٥٧]، أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله ، إن شاء عجّل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظرَكم وأجّلكم ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة.

قال مقاتل:"يعني: ما القضاء إلا لله في نزول العذاب بكم في الدنيا".

قال الزمخشري: أي:"في تأخير عذابكم".

قال ابن كثير:"أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عَجَّل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة".

قال الطبري: أي:"ما الحكم فيما تستعجلون به، أيها المشركون، من عذاب الله وفيما بيني وبينكم، إلا الله الذي لا يجور في حكمه، وبيده الخلق والأمر".

قال القرطبي:"أي: ما الحكم إلا لله في تأخير العذاب وتعجيله. وقيل: الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله".

قوله تعالى: {يَقُصُّ الْحَقَّ} [الأنعام: ٥٧]، أي: يخبر الخبر الحق ويبينه البيان الشافي ، كما قال تعالى (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا

=

=
الْقُرْآنَ) ، ويحتمل أن يكون (يقص) من قصْ الأثر بمعنى تبِعَه ، ويكون المعنى: (يقص الحق) أي: يتبع الحق فيما يفصل به بينكم.

قال القرطبي":أي: يقص القصص الحق، وبه استدل من منع المجاز في القرآن".

قال الطبري:"يقضي الحق بيني وبينكم".

قال الزمخشري:"أى: القضاء الحق في كل ما يقضى من التأخير والتعجيل في أقسامه".

قال مقاتل:"يعني: يقول الحق، ومن قرأها: «يقضي الحق»، يعني: يأتي بالعذاب ولا يؤخره إذا جاء".

قال مجاهد: "لو كانت يقص، لكانت يقضي بالحق، ولكنها يقص الحق".وروي، عن عطية مثله.

قَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَعَاصِم: {يقص} بالصَّاد،، بمعنى «القصص»، وتأوّلوا في ذلك قول الله تعالى ذكره: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [يوسف: ٣]. وذكر ذلك عن ابن عباس.

قال الزمخشري:" أى: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره، من قصر أثره".

وقرأ أَبُو عَمْرو وَحَمْزَة وَابْن عَامر والكسائى: «يقْض الْحق» بالضاد ،، من «القضاء»، بمعنى الحكم والفصل بالقَضَاء، واعتبروا صحة ذلك بقوله: {وهو خير الفاصلين} ، وأن «الفصل» بين المختلفين إنما يكون بالقضاء لا بالقَصَص.

عن سعيد بن جبير:"أنه قال: في قراءة عبد الله: «يَقْضِي الْحَقَّ وَهُو أَسْرَعُ الْفَاصِلِينَ»".

عن الأصمعي قال: "قرأ أبو عمرو: «يقض الحق»، وقال: لا يكون الفصل إلا بعد القضاء".

وعن إبراهيم قال مغيرة: "فسمعته يقرأ: «يقضى الحق وهو خير الفاصلين». قال
=

=

ابن حمى: لا يكون الفصل إلا مع القضاء".

قال الطبري:"وهذه القراءة عندنا أولى القراءَتين بالصواب".

قوله تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [الأنعام: ٥٧]، أي: هو خير من بيّن وميّز بين المحق والمبطل وأعدلهم ، لأنه لا يقع في حكمه وقضائه حيف إلى أحد لوسيلة له إليه ولا لقرابة ولا مناسبة ، ولا في قضائه جور.

ويفصل بين الناس يوم القيامة كما قال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

وفي هذه الآية أن الحكم لله جميعًا ، وإن سبب النزول خاص في الحكم الكوني ، حيث قالوا: عجل لنا العذاب ، فالحكم الكوني والشرعي لله ، فلا تشريع لأحد ، ولا تحليل لأحد إلا له سبحانه ، فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه الله.

قال الزمخشري:"أى: القاضين".

قال مقاتل:"بيني وبينكم، يعني: خير الحاكمين في نزول العذاب بهم".

قال الطبري: أي:"وهو خير الفاصلين بيننا بقضائه وحكمه".

قال ابن كثير:"أي: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين الحاكمين بين عباده".

قوله تعالى: {قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} [الأنعام: ٥٨]، أي:"قل -أيها الرسول-: لو أنني أملك إنزال العذاب الذي تستعجلونه، أي: لو كان بيدي لعجلته عليكم.".

قال القرطبي:"أي: من العذاب".

قال الزمخشري:" أى: لو في قدرتي وإمكانى ما تستعجلون به من العذاب".

قال ابن كثير:"أي: لو كان مرجع ما تستعجلون به إليّ".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الآلهة والأوثان، المكذبيك فيما جئتهم به، السائليك أن تأتيهم بآية استعجالا منهم بالعذاب: لو أنّ بيدي ما تستعجلون به من العذاب".

قوله تعالى: {لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الأنعام: ٥٨]، أي:"لأنزلته بكم، وقضي الأمر بيني وبينكم".

قال البغوي:"أي: فرغ من العذاب وأهلكتم، أي: لعجلته حتى أتخلص منكم".

قال الزمخشري:" أى: لأهلكتكم عاجلا غضبا لربي وامتعاضا من تكذيبكم به. ولتخلصت منكم سريعا".

قال ابن كثير: أي: "لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك".

قال القرطبي: أي:"لأنزلته بكم حتى ينقضي الأمر إلى آخره. والاستعجال: تعجيل طلب الشيء قبل وقته".

قال الطبري: أي:"ففصل ذلك أسرع الفصل، بتعجيلي لكم ما تسألوني من ذلك وتستعجلونه".

عن عكرمة، في قوله: {لقضي الأمر بيني وبينكم} قال: قامت الساعة".

وعن ابن جريج قال، بلغني في قوله: {لقضي الأمر}، قال: ذبح الموت".

قال الطبري:"وأحسب أن قائل هذا القول، نزع لقوله: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} [سورة مريم: ٣٩]، فإنه روي عن النبي ﷺ في ذلك قصة تدل على معنى ما قاله هذا القائل في «قضاء الأمر» ، وليسقوله: {لقضي الأمر بيني وبينكم} من ذلك في شيء، وإنما هذا أمرٌ من الله تعالى ذكره نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لمن استعجله فصلَ القضاء بينه وبينهم من قوله بآية يأتيهم بها: لو أن العذاب والآيات بيدي وعندي، لعاجلتكم بالذي تسألوني من ذلك، ولكنه بيد من هو أعلم بما يُصلح خلقه، منّي ومن جميع خلقه".

=

=

قوله تعالى: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٥٨]، أي:"ولكن ذلك إلى الله تعالى، وهو أعلم بالظالمين الذين تجاوزوا حدَّهم فأشركوا معه غيره".

قال القرطبي:"أي: بالمشركين وبوقت عقوبتهم".

قال الزمخشري:" أى: وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم".

قال الطبري: أي:"ولكن ذلك بيد الله، الذي هو أعلم بوقت إرساله على الظالمين، الذين يضعون عبادتهم التي لا تنبغي أن تكون إلا لله في غير موضعها، فيعبدون من دونه الآلهة والأصنام، وهو أعلم بوقت الانتقام منهم، وحالِ القضاء بيني وبينهم".

قال ابن كثير:"فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت في الصحيحين عن عائشة؛ أنها قالت لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: "لقد لقيتُ من قومك، وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل ابن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظَلَّتْني، فنظرت فإذا فيها جبريل، عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني مَلَك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئا».

فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم، فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا. فما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

=

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩).

{وَعِنْده} تَعَالَى {مَفَاتِح الْغَيْب} خَزَائِنه أَوْ الطُّرُق الْمُوَصِّلَة إِلَى عِلْمه {لَا يَعْلَمهَا إِلَّا هُوَ} وَهِيَ الْخَمْسَة الَّتِي فِي قَوْله {إِنَّ الله عِنْده عِلْم السَّاعَة} الْآيَة كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيّ {وَيَعْلَم مَا} يَحْدُث {فِي الْبَرّ} الْقِفَار {وَالْبَحْر} الْقُرَى الَّتِي عَلَى الْأَنْهَار {وَمَا تَسْقُط مِنْ} زَائِدَة {وَرَقَة إِلَّا يَعْلَمهَا وَلَا حَبَّة فِي ظُلُمَات الْأَرْض وَلَا رَطْب وَلَا يَابِس} عُطِفَ عَلَى وَرَقَة {إِلَّا فِي كِتَاب مُبِين} هُوَ اللَّوْح الْمَحْفُوظ وَالِاسْتِثْنَاء بَدَل اشْتِمَال مِنْ الِاسْتِثْنَاء قبله[1].

=

وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ}؟

فالجواب - والله أعلم -: أن هذه الآية دَلَّت على أنه لو كان إليه وقوعُ العذاب الذي يطلبونه حالَ طَلبهم له، لأوقعه بهم. وأما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه مَلَك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين - وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا - فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم".

(١) قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ٥٩]، أي:" عند الله خزائن الغيب وهي الأمور المغّيبة الخفيّة لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو، وهذا التركيب يفيد الحصر والاختصاص".

المفاتح جمع: مَفتَح بفتح الميم أي: خزائن الغيب ، أي: عند الله خزائن الغيب لا عند غيره ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

ثم أكد هذا بقوله:

=

=

(لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) تأكيد لما سبق.

وهذه المفاتح فسرها أعلم الخلق بربه وهو النبي ﷺ بقوله في حديث ابن عمر (مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) رواه البخاري.

وهي:

الأولى (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ): فلا أحد يعلم متى تقوم الساعة إلا الله.

كما قال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ).

وقال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا. إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا).

ولما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة؟ قال له: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل...) رواه مسلم.

فمن ادعى علم الساعة فهو كافر، ومن صدقه فهو أيضًا كافر، لأنه مكذب للقرآن.

الثانية (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ). أي: الوقت الذي ينزل فيه المطر لا يعلمه إلا الله وحده.

الثالثة (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ). أي: الذي يعلم ما في أرحام الإناث هو الله وحده، أذكر هو أم أنثى؟ قبيح أو جميل؟ شقي أو سعيد؟

الرابعة (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا). أي: لا يدري ما يكسب غدًا من خير أو شر، ما يكسب من الحسنات التي تقربه إلى الله، وما يكسب من السيئات التي تبعده عن الله، وما يدري ما يكسب غدًا من المال.

الخامسة (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ). أي: لا يدري أحد أين يموت، هل

=

=

يموت في أرضه أم في أرض أخرى ، ولا يدري هل يموت في البر أو في البحر ، ولا يدري أيضًا بأي ساعة يموت ، لأنه إذا كان لا يمكنه أن يدري بأي أرض يموت ، فكذلك لا يدري بأي زمن وساعة يموت.

وقد جاء في حديث عن النبي ﷺ (أنه إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة) رواه أحمد.

هذه مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله.

وقد بيّن تعالى أن الغيب كله لا يعلمه إلا الله كما قال تعالى (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).

وأعظم الخلق: الملائكة ، والرسل لا يعلمون الغيب.

فالملائكة لما قال لهم الله (فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ) أجابوا بأن قالوا (سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا).

والرسل عليهم الصلاة - مع ما أعطاهم الله من العلم والمكانة - يقولون: إنهم لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله.

فهذا سيدهم وخاتمهم قد أمره ربه أن يقول (قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ).

وأمره أيضًا في سورة الأعراف أن يقول (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ).

وهذا نوح - عليه السلام - ذكر الله عنه في سورة هود أنه قال لقومه (وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا).

وهذا نبي الله إبراهيم كما قال الله (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) ولم يدرِ أن الذين ينضج لهم عجله ملائكة كرام لا يأكلون.

=

=

وهذا نبي الله يعقوب قال الله فيه (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ) ومع هذا فولده يوسف كان في مصر ، وما بينه وبينه ثمان مراحل ، ولا يعلم عن أمره شيئًا.

وهذا نبي الله سليمان - عليه السلام - ، الذي أعطاه الله الريح ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وما كان يدري عن قصة بلقيس وجماعتها ، حتى جاءه الهدهد الضعيف المسكين ، وكان قد خرج بغير إذن ، وكان نبي الله سليمان يتوعده ويتهدده على الخروج بغير إذن كما قص الله في سورة النمل (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ...) حتى قال له (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ...).

قال الطبري: أي:" والله أعلم بالظالمين من خلقه، وما هم مستحقُّوه وما هو بهم صانع، فإنّ عنده علم ما غاب علمه عن خلقه فلم يطلعوا عليه ولم يدركوه، ولن يعلموه ولن يدركوه".

قال الثعلبي:" يعني: ومن عنده معرفة الغيب وهو يفتح ذلك بلطفه".

قال الزجاج:" معنى {مفاتح الغيب}، أي: عنده الوصلة إلى علم الغيب، وكل ما لا يعلم إذا استعلم يقال فيه: افتح على".

قال الزمخشري:" جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة، لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المتوثق منها بالأغلاق والأقفال. ومن علم مفاتحها وكيف تفتح، توصل إليها، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها، فهو المتوصل إلى ما في المخازن".

قال ابن مسعود: "أوتي نبيكم علم كل شيء إلا علم مفاتيح الغيب".

عن السدي قوله: "{وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو}، يقول: خزائن الغيب".

=

=

قال الضحاك ومقاتل: "{مفاتح الغيب}: خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب".

قال عطاء: "ما غاب عنكم من الثواب والعقاب، وما يصير إليه أمري وأمركم".

قال الثعلبي والبغوي: وقيل: {مفاتيح الغيب} " هي الآجال ووقت انقضائها، وقيل: أحوال العباد من السعادة والشقاوة، وقيل: عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال، وقيل: هي ما لم يكن بعد إنه يكون أم لا يكون وما يكون كيف يكون وما لا يكون أن لو كان كيف يكون".

وروي عن أبي عزة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أراد الله ﷻ قبض عبد بأرض، جعل له بها حاجة فلم ينته حتى يقدمها. ثم قرأ آخر سورة لقمان. ثم قال: هذه {مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}".

قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام: ٥٩]، أي: يحيط علمه العظيم بجميع الموجودات بريها وبحريها ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

قال مجاهد: "{البر} القفار، و {البحر} كل قرية فيها ماء «لا يحدث فيهما شيء إلا بعلم الله»".

قال الطبري: " يقول: وعنده علم ما لم يغب أيضًا عنكم، لأن ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين، يعلمه العباد. فكأن معنى الكلام: وعند الله علم ما غابَ عنكم، أيها الناس، مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثرَ بعلمه نفسَه، ويعلم أيضًا مع ذلك جميع ما يعلمه جميعُكم، لا يخفى عليه شيء، لأنه لا شيءَ إلا ما يخفى عن الناس أو ما لا يخفى عليهم. فأخبر الله تعالى ذكره أن عنده علم كل شيء كان ويكون، وما هو كائن مما لم يكن بعد، وذلك هو الغيب".

قال ابن كثير: " أي: يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بَريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وما أحسن ما

=

=

قال الصّرْصَريّ:

قال الشوكاني: خصهما بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله ، أي يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علمًا مفصلًا لا يخفى عليه منه شيء ، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما.

قال القرطبي: قوله تعالى (وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر) خصّهما بالذّكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر ، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر.

ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحبّ والنّوى ، وما في البحر من الدواب ورزق ما فيها.

قوله تعالى: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} [الأنعام: ٥٩]، أي:" أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها والأرض التي تسقط عليها".

قال الطبري: أي:" ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرى، إلا الله يعلمها".

قال ابن كثير:" أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩]".

قال الزجاج:" المعنى: أنه يعلمها ساقطة وثابتة، وأنت تقول: ما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه، فليس معناه إلا وأنا أعرفه في حال مجيئه فقط".

قال السعدي:" {وما تسقط من ورقة} من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة {إلا يعلمها}".

وقال أبو بكر بن عبدوس: "معناه: يعلم كما تقلبت ظهرا لبطن إلى أن سقطت على الأرض".

=

=

أخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس في قوله: "{وما تسقط من ورقة إلا يعلمها}، قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا ملك موكل بها يكتب ما يسقط منها".

قال السمعاني:"فإن قال قائل: لم خص الورق الساقط وهو يعلم الساقط والثابت؟ قيل: هذا معناه: أي: وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ساقطة وثابتة، قال جعفر بن محمد الصادق: أراد بالورقة الساقطة: السقط".

قوله تعالى: {وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]، أي:" فكل حبة في خفايا الأرض، وكل رطب ويابس، مثبت في كتاب واضح لا لَبْس فيه، وهو اللوح المحفوظ".

قال السمرقندي:" ولا حبة في ظلمات الأرض يعني: تحت الصخرة التي هي أسفل الأرضين السابعة. ويقال: الحبة التي تحت الأرض التي يخرج منها النبات، ثم قال: ولا رطب يعني: الماء ولا يابس يعني: الحجر ويقال: ولا رطب: يعني العمران والأمصار والقرى ولا يابس يعني: الخراب والبادية {إلا في كتاب مبين}: يعني في اللوح المحفوظ. ويقال: ولا رطب ولا يابس يعني: لا قليل ولا كثير إلا في كتاب مبين يعني: في اللوح المحفوظ. ويقال: القرآن قد بين فيه كل شيء، بعضه مفسر، وبعضه يعرف بالاستدلال والاستنباط".

قال الزمخشري:" {ولا حبة... ولا رطب ولا يابس}، عطف على ورقة وداخل في حكمها، كأنه قيل: وما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه. وقوله إلا في كتاب مبين كالتكرير لقوله إلا يعلمها لأن معنى: {إلا يعلمها}، ومعنى: {إلا في كتاب مبين} واحد. و «الكتاب المبين»: علم الله تعالى، أو اللوح".

قال السعدي:" {ولا حبة في ظلمات الأرض} من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ وبذور النوابت البرية التيينشئ منها أصناف النباتات، {ولا رطب ولا يابس} هذا عموم بعد خصوص {إلا في كتاب مبين}

=

=

وهو اللوح المحفوظ، قد حواها، واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور، يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته، في أوصافه كلها، وأن الخلق -من أولهم إلى آخرهم- لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط، وجل من إله، لا يحصي أحد ثناء عليه، بل كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث".

قال مقاتل:" {إلا في كتاب مبين}، يقول: هو بين في اللوح المحفوظ".

قال الطبري:"يقول: ولا شيء أيضًا مما هو موجود، أو ممّا سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عددُه ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحالُ التي يفنى فيها، ويعني بقوله: {مبين}، أنه يبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رُسم فيه على ما رُسم".

قال السمعاني:" {ولا حبة في ظلمات الأرض} هو الحب المعروف، وقال جعفر الصادق: هو الولد {ولا رطب ولا يابس} قيل: معناه: ولا حي ولا موات، وقيل: هو عبارة عن كل شيء {إلا في كتاب مبين} يعني: أن الكل مكتوب في اللوح المحفوظ، وهو مثل قوله - تعالى -: {وكل صغير وكبير مستطر}".

قال الواحدي:" {ولا حبة في ظلمات الأرض}، يعني: في الثرى تحت الأرض".

قال الثعلبي: "{في ظلمات الأرض}، أي: في بطون الأرض، وقيل: تحت الصخرة في أسفل الأرضين، {وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ}: قيل: هي الأشجار والنبات".

قال ابن عباس: "«الرطب»: الماء، و «اليابس» البادية".

وقال ابن عباس، وعطاء: "يريد ما ينبت وما لا ينبت".

وقال الحسن: "يكتبه الله رطبا ويكتبه يابسا، لتعلم يا بن آدم إن عملك أولى بها من

=

=

إصلاح تلك الجنة، وقال: «الرطب» لسان المؤمن رطب بذكر الله، و «اليابس» لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله، وبما يرضي الله ﷻ".

قال الزجاج:" {في كتاب مبين} هنا على معنيين يتصرف، ويجوز أن يكون معنى {في كتاب مبين} أن يكون الله أثبت ذلك فى كتاب من قبل أن يخلق كما قال: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} [الحديد: ٢٢]، فأعلم أنه قد أثبت ما خلق من قبل خلقه".

عن عبد الله بن الحارث قال: "ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا عليها ملك موكل، يأتي الله ربنا بعلمها رطوبتها إذا رطبت، ويبسها إذا يبست".

قال ابن عباس:" خلق الله تبارك وتعالى النون- وهي الدواة- وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا حتى تنقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}".

عن قتادة قوله: "{في كتاب مبين}، قال: كل ذلك في كتاب من عند الله مبين".

وقرأ بعضهم: «ولا حبة ولا رطب ولا يابس»: كل ذلك بالضم على معنى الابتداء. وهي قراءة شاذة، والقراءة المعروفة بالكسر لأجل: {من}.

قال الطبري:" فإن قال قائل: وما وجهُ إثباته في اللوح المحفوظ والكتاب المبين، ما لا يخفى عليه، وهو بجميعه عالم لا يُخَاف نسيانَه؟

قيل له: لله تعالى ذكره فعل ما شاء. وجائز أن يكون كان ذلك منه امتحانًا منه لحفَظَتِه، واختبارًا للمتوكلين بكتابة أعمالهم، فإنهم فيما ذُكر مأمورون بكتابة أعمال العباد، ثم بعرضها على ما أثبته الله من ذلك في اللوح المحفوظ، حتى أثبت فيه ما أثبت كل يوم.

وقيل إن ذلك معنى قوله: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجاثية:

=

=

٢٩].

وجائز أن يكون ذلك لغير ذلك، مما هو أعلم به، إمّا بحجة يحتج بها على بعض ملائكته، وأما على بني آدم وغير ذلك".

قال ابن الجوزي: وفي الكتاب المبين قولان.

أحدهما: أنه اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل.

والثاني: أنه علم الله المتقَنُ ، ذكره الزجاج.

(فائدة): قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)} الأنعام: ٥٩، هذه الآية ترد على بدعتين متقابلتين، وبيان ذلك فيما يلي:

- أولًا: بيان وجه رد الآية على بدعة التفريط.

في هذه الآية الكريمة ردٌ على بطلان كل مذهب أنكر ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات إنكارا كليا أو جزئيا تصريحا أو ضمنيا، كمذهب الجهمية والمعتزلة الغلاة والقدرية نفاة العلم والفلاسفة الذين أنكروا علم الله بالجزئيات، - وقالوا: إنه لا يعلم الأشياء على وجه كلي ثابت، وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئا -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا-، فإن كل ما في الخارج هو جزئي -، وقد أثبت الله تعالى علمه بالجزئيات فأثبت علمه بالحبة والورقة التي تسقط قال تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)}.

قال الإمام الشافعي - رَحِمَهُ اللَّهُ - تعالى: "ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروا كفروا" ؛ لأن الله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلًا وأبدًا ، {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)} الأنفال: ٧٥، {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)}

=

=

الأحزاب: ٤٠، ولم يتقدم علمه بالأشياء جهالة {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)} مريم: ٦٤، لذلك فإن الإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه لا يمكن أن يؤخذ إلا من الكتاب أو السنة.

- ثانيًا: بيان وجه رد الآية على بدعة الإفراط.

كما أن فيها ردًا على بطلان مذاهب ممثلة الصفات، كالغلاة الصوفية والرافضة وغيرهم، ممن بالغوا في إثبات الصفات حتى أشركوا في كمالها المقدس غير الله فزعموا أن أئمتهم وسادتهم يعلمون الغيب وغير ذلك من صفات الربوبية، فسووا الخالق بالمخلوق على وجه المماثلة، فرد الله عليهم بقوله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}، ونفى عن غيره علم الغيب، وأنه سبحانه المتفرد بذلك.

- ثالثًا: المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان.

المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان هو: خطؤهم في باب القدر؛ لأنهم أرادوا أن ينزهوا الله بعقولهم، ولم ينزهوه كما نزه نفسه.

فسلك المعطلة منهم إلى جعل الله تعالى معزولًا عن تدبير الكون وتصريفه حتى لا يشغل نفسه بهذا الناقص؛ وذلك لأن الجزئيات تحتوي على بلاء وشر؛ كالقتل والنهب وغيرها، فيقولون: لو قلنا: إن الله يعلمها، لما نزهنا الله! وهذا من الجهل بالله - ﷻ -، فإنهم أرادوا أن ينزهوا الله بعقولهم، ولم ينزهوه كما نزه نفسه.

فقالوا: إن الله تعالى لا يعلم الجزئيات، وذلك حتى لا يعلم الشر؛ لأنه لو علم بالشر فسيكون قد قدره، والشر والقبيح موجود في العالم، إذًا لا بد أن ننزه الله عنه، وبذلك وصفوا الله تعالى بالجهل حتى ينزهوه!.

أما المشبهة فقد أوقعهم مذهبهم الفاسد في باب القدر في التشبيه المذموم، إذ شبهوا الله - ﷻ - بخلقه فيما يتعلق بأفعاله - ﷻ -، ولهذا اعتبرهم السلف الصالح بمشبهة الأفعال.

=

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠).

{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} يَقْبِض أَرْوَاحكُمْ عِنْد النَّوْم {وَيَعْلَم مَا جَرَحْتُمْ}

=

فقاسوا الرب - ﷻ - على خلقه، فقيل: ما حسن من المخلوق حسن من الخالق وما قبح من المخلوق قبح من الخالق، مما ترتب على ذلك أن قاسوا الظلم الذي حرمه الله - ﷻ - وتنزه عن فعله وإرادته بأنه هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض ، وتشبيه الخالق بالمخلوق والمخلوق بالخالق في الأفعال، قول باطل كما أن تمثيل الخالق بالمخلوق والمخلوق بالخالق في الصفات باطل.

قال الإمام الطحاوي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسةً" ، وهكذا فكل من أراد أن ينزه الله تعالى من غير طريق الكتاب والسنة، فإنه ينسب إليه النقص والعيب الذي لا يليق بالمخلوق، فإنه لو قيل عن المخلوق: إنه يجهل ما لا ينبغي لمثله أن يجهله؛ لكان ذلك عيبًا ونقصًا، فكيف يقال ذلك في حق الله سبحانه وتعالى؟ !.

لقد أتت هذه الآية الكريمة للدلالة على أن المذهب الحق ليس ما ذهب إليه أصحاب التعطيل والتمثيل، بل هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، "فعقيدة أهل السنة أصح مباني وأوضح معاني، وحسبك أنها جامعة لمحاسن العقائد" ؛ فأهل السنة نزهوه عن التعطيل والتمثيل وأثبتوا له ما أثبته لنفسه من صفات الكمال ونزهوه فيها عن الشبه والمثال فأثبتوا له المثل الأعلى ولم يضربوا له الأمثال فكانوا أسعد الطوائف بمعرفته وأحقهم بالإيمان به وبولايته ومحبته وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

كَسَبْتُمْ {بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} أَيْ النَّهَار بِرَدِّ أَرْوَاحكُمْ {لِيُقْضَى أَجَل مُسَمًّى} هُوَ أَجَل الْحَيَاة {ثُمَّ إلَيْهِ مَرْجِعكُمْ} بِالْبَعْثِ {ثُمَّ يُنَبِّئكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} فيجازيكم به[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} [الأنعام: ٦٠]، يخبر تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، كما قال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم، وهذا هو التوفي الأصغر ، كما قال تعالى (إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا..) وقال تعالى (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً).

عن السدي:" أما {يتوفاكم بالليل}، ففي النوم".

قال مجاهد:" أمّا وفاته إياهم بالليل، فمنامهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وقل لهم، يا محمد، والله أعلم بالظالمين، والله هو الذي يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم".

قال السمعاني:" أي: يقبض أرواحكم بالليل إذا نمتم، وهذا نظير قوله: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر: ٤٢].

فإن قال قائل: أليس من نام فروحه معه؛ فما معنى هذا القبض؟

قيل: هو قبض النفس المميزة المتصرفة".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى: {إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [الزمر: ٤٢]، فذكر في هذه الآية الوفاتين: الكبرى والصغرى،

=

وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى".

ومعنى «التوفي»، في كلام العرب: استيفاء العدد، كما قال منظور الوبري:

إِنَّ بَنِي الأَدْرَم لَيْسُوا مِنْ أَحَدْ وَلا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ فِي العَدَدْ

بمعنى: لم تدخلهم قريش في العدد.

قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام: ٦٠]، أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار.

وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركاتهم كما قال تعالى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) أي في الليل (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أي: في النهار، وقال تعالى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا. وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا).

قال ابن عباس:" يعني: ما اكتسبتم من الإثم". وروي عن السدي مثله.

وقال قتادة:" ما عملتم بالنهار". وفي رواية اخرى عنه أيضا:": ما عملتم من ذنب فهو يعلمه، لا يخفى عليه شيء من ذلك".

قال مجاهد:" يقول: ما اكتسبتم بالنهار".

قال ابن قتيبة:" أي: كسبتم".

قال ابن كثير:" أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركتهم، كما قال: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد: ١٠]، وكما قال تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ} أي: في الليل {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} [القصص: ٧٣] أي: في النهار، كما قال: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا} [النبأ: ١٠، ١١]".

=

=

قال الطبري:" يقول: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار... وهذا الكلام وإن كان خبرًا من الله تعالى عن قدرته وعلمه، فإنّ فيه احتجاجًا على المشركين به، الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم وبعثهم بعد فنائهم. فقال تعالى ذكره محتجًا عليهم: {وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى}، يقول: فالذي يقبض أرواحكم بالليل ويبعثكم في النهار، لتبلغوا أجلا مسمى، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحّته، غير منكرٍ له القدرة على قبض أرواحكم وإفنائكم، ثم ردِّها إلى أجسادكم، وإنشائكم بعد مماتكم، فإن ذلك نظير ما تعاينون وتشاهدون، وغير منكر لمن قدر على ما تعاينون من ذلك، القدرةُ على ما لم تعاينوه. وإن الذي لم تروه ولم تعاينوه من ذلك، شبيه ما رأيتم وعاينتم".

و «الاجتراح» عند العرب: هو عمل الرجل بيده أو رجله أو فمه، وهي «الجوارح» عندهم، جوارح البدن فيما ذكر عنهم. ثم يقال لكل مكتسب عملا: جارح، لاستعمال العرب ذلك في هذه «الجوارح»، ثم كثر ذلك في الكلام حتى قيل لكل مكتسب كسبًا، بأيّ أعضاء جسمه اكتسب: «مجترِح».

قوله تعالى: {ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} [الأنعام: ٦٠]، أي:" ثم يعيد أرواحكم إلى أجسامكم باليقظة من النوم نهارًا بما يشبه الأحياء بعد الموت".

قال الطبري: أي: ثم" يثيركم ويوقظكم من منامكم في النهار".

قال ابن قتيبة:" أي: يبعثكم في النهار من نومكم".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} [الأنعام: ٦٠]، وجهان:

أحدهما: أي: في النهار. قاله مجاهد ، وقتادة ، والسُّدِّي. واختاره الطبري.

والثاني: أي: في المنام. قاله عبد الله بن كثير.

قال ابن كثير:"والأول أظهر. وقد روى ابن مَرْدُوَيه بسنده عن الضحاك، عن ابن

=

=

عباس، عن النبي ﷺ قال: "مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه، ويُرَد إليه. فإن أذن الله في قبض روحه قبضه، وإلا رد إليه" ، فذلك قوله: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ}".

قوله تعالى: {لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى} [الأنعام: ٦٠]، أي:" لتُقضى آجالكم المحددة في الدنيا".

قال الطبري:" يقول: ليقضي الله الأجل الذي سماه لحياتكم، وذلك الموت، فيبلغ مدته ونهايته".

قال الزجاج:" أي: يبعثكم من نومكم إلى أن تبلغوا أجالكم".

قال ابن قتيبة: أي:" الموت".

قال ابن كثير:" يعني به: أجل كل واحد من الناس".

عن مجاهد: "{ليقضي أجل مسمى}، وهو الموت".

قال مقاتل:" يعنى: منتهيا إليه".

قال السدي:" هو أجل الحياة إلى الموت".

عن عبد الله بن كثير: {ليقضي أجل مسمى}، قال: مدّتهم".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ} [الأنعام: ٦٠]، أي:" ثم إلى الله تعالى معادكم بعد بعثكم من قبوركم أحياءً".

قال مقاتل:" في الآخرة".

قال ابن كثير:" أي: يوم القيامة".

قال الطبري:" يقول: ثم إلى الله معادكم ومصيركم".

عن الضحاك، قوله: "{إليه مرجعكم قال}: البر والفاجر".

قال أبو العالية:" يعني قوله: إليه مرجعكم قال: يرجعون إليه بعد الحياة".

قوله تعالى: {ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٦٠]، أي:" ثم يخبركم بما

=

=

كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك".

قال مقاتل:" في الدنيا من خير أو شر، هذا وعيد".

قال ابن كثير:" أي: فيخبركم {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي: ويجزيكم على ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

قال الطبري:" يقول: ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشرًّا".

(منبهة): وافق الأشاعرة أهل السنة في مسألة خلق أفعال العباد الاختيارية والاضطرارية فقالوا: إنها مخلوقة لله تعالى، ولم تختلف عبارتهم في ذلك.

قال صاحب الجوهرة:

فخالق لعبده وما عمل موفق لمن أراد أن يصل

وأقاموا الأدلة النقلية والعقلية على صحة هذا القول.

ولكنهم خالفوا أهل السنة في بعض فروع هذه المسألة، ومن ذلك: هل العبد فاعل لفعله حقيقة أو لا؟

فالأشعرية نسبوا فعل الإنسان الاختياري إليه كسبًا لا خلقًا، وهذا صحيح، ولكنهم اضطربوا في هذا الكسب الذي أثبتوه للعبد واختلفت عبارتهم فيه. والتفسير المستقر عندهم الآن هو كما قال شارح أم البراهين: "والكسب مقارنة القدرة الحادثة للفعل من غير تأثير".

وحاولوا بهذا التفسير التوسط بين الجبرية والمعتزلة، فقالوا بالكسب فرارًا من قول الجبرية، وزعموا أنهم بهذا الكسب يثبتون للعبد اختيارًا!، وقالوا بعدم تأثير قدرة العبد الحادثة في الفعل فرارًا من قول المعتزلة وتحقيقًا تامًا لوحدانية الأفعال فلا مؤثر إلا الله وحده، ولا يوجد تأثير للأسباب في مسبباتها!!.

المناقشة: الأول: تفسيرهم الكسب بالاقتران مخالف للغة العرب واستعمال

=

=

القرآن الكريم، فهو في اللغة بمعنى الطلب والجمع، وهو في القرآن لم يخرج عن هذا المعنى، فمن ذلك قول الله تعالى: أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ [البقرة: ٢٦٧]، وهو يستعمل في فعل الصالحات والسيئات، فمن الأول قوله تعالى: أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا [الأنعام: ١٥٨] ومن الثاني قوله تعالى: فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ [البقرة: ٧٩] ومن الآيات التي تجمع بينهما قوله تعالى: ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ [عمران: ١٦١].فظهر مما تقدم أن الكسب يرجع إلى ما يكسبه الإنسان من عمل القلب أو عمل الجوارح وهو المعبر عنه بالاجتراح والعمل، وظهر أن تفسير الأشعرية للكسب بالمقارنة قول لم يسبقوا إليه.

الثاني: إثباتهم قدرة للعبد غير مؤثرة فرارًا من القول بأن ذلك يفضي إلى إثبات مؤثر غير الله تعالى، فيستلزم القول بأن أفعال العباد مخلوقة لهم بقدرتهم قول تبين ضعفه فإنه إذا تبين أن الله قد خلق العبد وخلق صفاته التي بها يقع الفعل من القدرة والإرادة وهما من أسباب العمل، وخلق أيضًا عمله على وفق سنته من تأثير الأسباب في مسبباتها - على حسب ما تم تفصيله - فلا حرج بعد ذلك، ولا يلزم أن تكون الأسباب هي الخالقة للفعل. الثالث: إن بناء التكليف على هذه المقارنة غير معقول وينتهي إلى القول بتكليف العاجز، وهذا هو الذي دفع الإيجي إلى وصفه الأشعرية بأنهم مجبرة متوسطة، ودفع التفتازاني إلى أن يقول: "فالإنسان مضطر في صورة المختار"، ودفع الرازي بعد أن أورد إشكالات على كسب الأشعري: "وعند هذا التحقيق يظهر أن الكسب اسم بلا مسمى".الرابع: إثبات مقارنة القدرة الحادثة للفعل قول عند التحقيق قصد به مخالفة الجبرية وهو ليس بشيء، كما تقدم في الفقرة السابقة، إذ يقال لهم: ما الداعي لذكرها إذًا إذا كانت لا تؤثر؟، وما المزية لها في الذكر إذا كانت لا تؤثر في الفعل؟. فإن قولكم: الفعل يقارن القدرة الحادثة قول لا طائل تحته إذ يمكن أن نقول: إنه يقارن العلم

=

=

والسمع والبصر الحادث وغير ذلك من الصفات... فصار بهذا ذكرهم للقدرة لا معنى له وهو مجرد تمويه.

وقد تنازع الأشعرية في معنى قدرة العبد على الطاعة. فقال الأشعري: هي العرض المقارن للطاعة. وهذا فيما حكاه عنه الأشاعرة. وقال إمام الحرمين: هي سلامة السباب والآلات.

وأورد على كلام الأشعري الإلزام الذي تقدم، وهو أنه يلزم من هذا تكليف العاجز، لأن التكليف على قوله واقع قبل إقدراه على العمل.

وأجيب عن هذا الإيراد بجوابين بناء على أن العرض هل يبقى زمانين أو لا؟

فعلى قول الأشعري: إن العرض لا يبقى زمانين: فالجواب: إن العبد قادر بالقوة لما اتصف به من سلامة الأسباب والآلات. وهي التي عليها اعتبار التكليف.

وعلى القول بأن العرض يبقى زمانين فإنه لا مانع من تقدم القدرة على الطاعة، ولكن ما زال الإشكال باقيًا عليه في عدم فائدة هذه القدرة غير المؤثرة!

وأما تفسير إمام الحرمين فأورد عليه: أن الكافر أيضًا يكون قادرًا بهذا الاعتبار على الطاعة، فاحتاجوا إلى إدخال جملة أخرى تكون قيدًا لكلامه وهي:"وتسهيل سبيل الخير إليه" وبهذا يخرج الكافر. مع ملاحظة أمرين: الأول: إن إمام الحرمين نص على مسألة تسهيل سبيل الخير في رسالته النظامية.

الثاني: إن إمام الحرمين أثبت قدرة للعبد مؤثرة في مقدورها. ولكي يكون هذا القول صوابًا لابد من تفسير التأثير تفسيرًا صحيحًا وهو: أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة لا أنها منفردة بالإيجاد سواء كان في صفة الفعل أو ذاته. ومع هذا فما خلقه الله فعلًا للعبد كان العبد هو الفاعل له حقيقة، لأنه قائم به، والشيء إنما يوصف به من قام به.

فقد أراد الأشاعرة أن يوفقوا بين الجبرية والقدرية فجاءوا بنظرية الكسب وهي في

=

=

مآلها جبرية خالصة؛ لأنها تنفي أي قدرة للعبد أو تأثير، أما حقيقتها النظرية الفلسفية فقد عجز الأشاعرة أنفسهم عن فهمهما فضلا عن إفهامها لغيرهم ولهذا قيل:

مما يقال ولا حقيقة تحته معقولة تدنوا إلى الأفهام

الكسب عند الأشعري والحال عند البهشمى وطفرة النظام.

ولهذا قال الرازي الذي عجز هو الآخر عن فهمها: "إن الإنسان مجبور في صورة مختار".

أما البغدادي فأراد أن يوضحها فذكر مثالا لأحد أصحابه في تفسيرها شبه فيه اقتران قدرة الله بقدرة العبد مع نسبة الكسب إلى العبد "بالحجر الكبير قد يعجز عن حمله رجل ويقدر آخر على حمله منفردا به فإذا اجتمعا جميعا على حمله كان حصول الحمل بأقواهما، ولا خرج أضعفهما بذلك عن كونه حاملا"!!

وعلى مثل هذا المثال الفاسد يعتمد الجبرية وبه يتجرأ القدرية المنكرون؛ لأنه لو أن الأقوى من الرجلين عذب الضعيف وعاقبه على حمل الحجر فانه يكون ظالما باتفاق العقلاء، لأن الضعيف لا دور له في الحمل، وهذه المشاركة الصورية لا تجعله مسؤولا عن حمل الحجر.

والإرادة عند الأشاعرة معناها "المحبة والرضا" وأولوا قوله تعالى: {ولا يرضى لعباده الكفر} بأنه لا يرضاه لعباده المؤمنين! فبقي السؤال واردا عليهم: وهل رضيه للكفار أم فعلوه وهو لم يرده؟. وفعلوا بسائر الآيات مثل ذلك.

ومن هذا القبيل كلامهم في الاستطاعة، والحاصل أنهم في هذا الباب خرجوا عن المنقول والمعقول ولم يعربوا عن مذهبهم فضلا عن البرهنة عليه!!.

فالأشاعرة يقولون: إن الله - سبحانه وتعالى - خالق أفعال العباد، وبهذا الأصل خالفوا المعتزلة القائلين بأن الله لا يخلق أفعال العباد بل هم الخالقون لها، وبتميز

=

=

هذا الجانب عند الأشاعرة والماتريدية صار مذهبهم مشهورًا بأنه مذهب أهل السنة والجماعة، وهذا حق.

ولكن عند عرض مذهبهم في الجانب الثاني من قضية خلق أفعال العباد وهو جانب تعلق أفعال العباد بهم، وهل هم الفاعلون لها؟ أم هي كسب لهم، وما مدى تعلق قدرة العباد بأفعالهم... الخ.

أقول: عند عرض مذهبهم في هذا يتضح مدى اختلافهم وبعدهم عن مذهب أهل السنة والجماعة الحقيقي.

وهناك آمر آخر، وهو أن بعض كبار الأشاعرة قد رجعوا عن آرائهم التي كانوا يقولون بها في القدر إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وهذا يستلزم الدقة في عرض الآراء، وخاصة في نسبة الأقوال إلى أصحابها من الناحية التاريخية.

وقد عرض آراء الأشاعرة - من خلال كتبهم - نورد ما أورده الشهرستاني حول مذهب الأشاعرة في القدر، وتطور آرائهم على يد كبار علمائهم، الواحد تلو الآخر، يقول: "قال (أي أبو الحسن الأشعري): والعبد قادر على أفعاله إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقة ضرورية بين حركات الرعدة والرعشة، وبين حركات الاختيار والإرادة، والتفرقة راجعة إلى أن الحركات الاختيارية حاصلة تحت القدرة، متوقفة على اختيار القادر، فمن هذا قال: المكتسب هو المقدور بالقدرة الحاصلة، والحاصل تحت القدرة الحادثة.

ثم على أصل أبي الحسن: لا تأثير للقدرة الحادثة في الإحداث، لأن جهة الحدوث قضية واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الجوهر والعرض، فلو أثرت في قضية الحدوث لأثرت في حدوث كل محدث حتى تصلح لإحداث الألوان والطعوم والروائح وتصلح لإحداث الجواهر والأجسام، فيؤدي إلى تجويز وقوع السماع على الأرض بالقدرة الحادثة، غير أن الله تعالى أجرى سننه بأن يحقق

=

=

عقيب القدرة الحادثة أو تحتها، أو معها: الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له، ويسمى هذا الفعل كسبًا، فيكون خلقا من الله تعالى إبداعًا وإحداثًا، وكسبا من العبد: حصولا تحت قدرته.

والقاضي أبو بكر الباقلاني تخطى عن هذا القدر قليلا، فقال: الدليل قد قام على أن القدرة الحادثة لا تصلح للإيجاد، لكن ليست تقتصر صفات الفعل أو وجوهه واعتباراته على جهة الحدوث فقط، بل ها هنا وجوه أخرهن وراء الحدوث من كون الجوهر جوهرا متحيزًا، قابلًا للعرض، ومن كون العرض عرضا، ولونا، وسوادا، وغير ذلك... قال: فجهة كون الفاعل حاصلا بالقدرة الحادثة أو تحتها نسبة خاصة، ويسمى ذلك كسبا، وذلك هو أثر القدرة الحادثة... فأثبت القاضي تأثيرًا للقدرة الحادثة وأثرها....

ثم إن إمام الحرمين أبو المعالي الجويني تخطى عن هذا البيان قليلا، قال: أما نفي هذه القدرة والاستطاعة فمما يأباها العقل والحس، وأما إثبات قدرة لا أثر لها يوجه فهي كنفي القدرة أصلًا، وأما إثبات في حالة لا يفعل فهو كنفي التأثير، خصوصا والأحوال على أصلهم لا توصف بالوجود والعدم، فلا بد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضًا عدم الاستقلال...".

فهذا النص - عن الشهرستاني - يوضح كيف أن قول الأشاعرة في أفعال العباد لم يثبت على قدم الإستقرار، ولم يكن مقنعا لكبار علمائهم الذين بحثوا هذه المسألة، ويلاحظ في عرض هذا التطور لمذهب الأشاعرة أنهم يسرون نحو القول الحق الذي يقول به أهل السنة والجماعة - كما سيأتي - مع العلم بأن الذي استقر عليه مذهب الأشاعرة موافق لما قالوه أولا، والذي ذكر الشهرستاني أنه قول أبي

=

=

الحسن الأشعري، وأنه لا تأثير للقدرة الحادثة.

ونعرض لأهم أقوال الأشاعرة:

١ - قول جمهور الأشاعرة ومتأخريهم، وهؤلاء يقولون إن الله خالق أفعال العباد فيثبتون مرتبتي المشيئة والخلق، ولكن يقولون: "إن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها، وليس لقدرتهم تأثير فيها بل الله سبحانه أجرى عادته بأن يوجد في العبد قدرة واختيارا، فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارنا لهما، فيكون الفعل مخلوقًا لله إبداعاص وإحداثًا، ومكسوبًا، للعبد، والمراد بكسبه إياه: مقارنته وإرادته من غير أن يكون هناك منه تأثير أو مدخل في وجوده سوى كونه محلا له".

ثم إن إمام الحرمين أبو المعالي الجويني تخطى عن هذا البيان قليلا، قال: أما نفي هذه القدرة والاستطاعة فمما يأباها العقل والحس، وأما إثبات قدرة لا أثر لها يوجه فهي كنفي القدرة أصلًا، وأما إثبات في حالة لا يفعل فهو كنفي التأثير، خصوصا والأحوال على أصلهم لا توصف بالوجود والعدم، فلا بد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضًا عدم الاستقلال...".

فهذا النص - عن الشهرستاني - يوضح كيف أن قول الأشاعرة في أفعال العباد لم يثبت على قدم الإستقرار، ولم يكن مقنعا لكبار علمائهم الذين بحثوا هذه المسألة، ويلاحظ في عرض هذا التطور لمذهب الأشاعرة أنهم يسرون نحو القول الحق الذي يقول به أهل السنة والجماعة - كما سيأتي - مع العلم بأن الذي استقر عليه مذهب الأشاعرة موافق لما قالوه أولا، والذي ذكر الشهرستاني أنه قول أبي الحسن الأشعري، وأنه لا تأثير للقدرة الحادثة.

=

=

ونعرض لأهم أقوال الأشاعرة:

١- قول جمهور الأشاعرة ومتأخريهم، وهؤلاء يقولون إن الله خالق أفعال العباد فيثبتون مرتبتي المشيئة والخلق، ولكن يقولون: "إن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها، وليس لقدرتهم تأثير فيها بل الله سبحانه أجرى عادته بأن يوجد في العبد قدرة واختيارا، فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارنا لهما، فيكون الفعل مخلوقًا لله إبداعاص وإحداثًا، ومكسوبًا، للعبد، والمراد بكسبه إياه: مقارنته وإرادته من غير أن يكون هناك منه تأثير أو مدخل في وجوده سوى كونه محلا له".

٢- قول أبي بكر الباقلاني: وهو كقول جمهور الأشاعرة إلا أنه خالفهم بأن الأفعال واقعة بمجموع القدرتين "على أن تتعلق قدرة الله بأصل الفعل وقدرة العبد بصفته، أعين بكونه طاعة ومعصية، إلى غير ذلك من الأوصاف التي لا توصف بها أفعال تعالى، كما في لطم اليتيم تأديبا أو إيذاء، فإن ذات اللطم واقعة بقدرة الله وتأثيره، وكونه طاعة على الأول، ومعصية على الثاني بقدرة العبد وتأثيره"، يقول الباقلاني في رسالة الحرة: "ويجب أن يعلم أن العبد له كسب وليس مجبورًا، بل مكتسب لأفعاله من طاعة ومعصية لأنه تعالى قال: {لَهَا مَا كَسَبَت} (البقرة: من الآية ١٣٤) يعني من ثواب طاعة {وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَت} (البقرة: من الآية ٢٨٦) يعني من عقاب معصية... ويدل على صحة هذا أيضًا: أن العاقل منا يفرق بين تحرك يده جبرا وسائر بدنه عند وقوع الحمى به، أو الارتعاش، وبين أن يحرك هو عضوا من أعضائه قاصدا إلى ذلك باختياره، فأفعال العباد هي كسب لهم وهي خلق الله تعالى، فما يتصف به الحق لا يتصف به الخلق، وما يتصف به الخلق لا يتصف به الحق، وكما لا يقال لله تعالى إنه مكتسب، كذلك لا يقال للعبد إنها خالق".

=

=

إذن فمذهب الباقلاني أن الفعل واقع بقدرة العبد بوصفه طاعة أو معصية يترتب عليه الثواب والعقاب.

٣- قول أبي المعالي الجويني: كان في الو أمره يقول بقول عامة الأشاعرة وقد صرح بمذهبه هذا في الإرشاد: قال "اتفق سلف الأمة قبل ظهور البدع والأهواء واضطراب الآراء على أن الخالق المبدع رب العالمين، ولا خالق سواه، ولا مخترع إلا هو، فهذا هو مذهب أهل الحق، فالحوادث كلها حدثت بقدرة الله تعالى، ولا فرق بين ما تعلقت قدرة العباد به، وبين ما تفرد الرب بالاقتدار عليه ويخرج من مضمون هذا الأصل أن كل مقدور لقادر فالله تعالى قادر عليه وهو مخترعه ومنشئه". ثم قال: "فالوجه القطع بأن القدرة الحادثة لا تؤثر في مقدورها أصلا، وليس من شرط تعلق الصفة أن تؤثر في متعلقها، إذ العلم معقول تعلقه بالمعلوم مع أنه لا يؤثر فيه، وكذلك الإرادة المتعلقة بفعل العبد لا تؤثر في متعلقها". وواضح من هذا الكلام تمسك الجويني بمذهب الأشاعرة، وكلننا نجد في "العقيدة النظامية" وهي آخر ما كتب في العقيدة يرد قوله هذا وقول عموم الأشاعرة وقد أطال الكلام في هذه المسألة ووضح مذهبه الذي انتهى إليه، وهو موافق لمذهب أهل السنة والجماعة.

٤- قول أبي حامد الغزالي، وهو أن أفعال العباد واقعة بمجموع القدرتين على فعل واحد، وجوز اجتماع المؤثرين على فعل واحد، يقول "وإنما الحق إثبات القدرتين على فعل واحد، والقول بمقدور منسوب إلى قادرين فلا يبقى إلا استبعاد توارد القدرتين على فعل واحد، وهذا إنما يبعد إذا كان تعلق القدرتين على وجه واحد، فإن اختلفت القدرتان واختلف وجه تعلقهما، فتوارد التعلقين على شيء واحد غير محال"، فالمؤثر عنده مجموع القدرتين، قدرة الله وقدرة العباد.

=

=

القول الخامس: قول أهل السنة والجماعة، وهؤلاء يقرون بالمراتب الأربع الثابتة والتي دلت عليها النصوص، وهي: العلم، والكتابة، والمشيئة والخلق، أما أفعال العباد فهي داخلة في المرتبة الرابعة، ولذلك فهم يقولون فيها: إن الله خالق أفعال العباد كلها، والعباد فاعلون حقيقة، ولهم قدرة حقيقة على أعمالهم ولهم إرادة، ولكنها خاضعة لمشيئة الله الكونية فلا تخرج عنها.

* الرد على الأشاعرة في هذه المسألة.

أولًا: يوافق الأشاعرة أهل السنة في إثبات القدر، وأن الله خالق أفعال العباد.

ثانيًا: أما قولهم بإثبات قدرة للعبد غير مؤثرة، وتسمية فعله كسبا، فشيخ الإسلام يرجع أصل قولهم هنا إلى قولهم: إن الفعل هو المفعول، والخلق هو المخلوق، وعدم تفريقهم بين ما يقوم بالله من الأفعال، وما هو منفصل عنه، وجعلهم كل أفعال الله مفعولة له منفصلة عنه.

فلما جاءوا إلى مسألة القدر وأفعال العباد واعتقدوا أنها مفعولة لله، قالوا: هي فعله، لأن الفعل عندهم هو المفعول، فيقيل لهم في ذلك: أهي فعل العبد؟ فاضطربوا في الإجابة، وانقسموا حيالها إلى أقوال ثلاثة:

- جمهورهم قالوا: هي كسب العبد لا فعله، ولم يفرقوا بين الكسب والفعل بفرق محقق.

- ومنهم من قال: بل هي فعل بين فاعلين. وهو قول الغزالي الذي سبق.

- ومنهم من قال: بل الرب فعل ذات الفعل والعبد صفته وهذا قول الباقلاني - كما سبق -.

"والتحقيق الذي عليه أئمة السنة وجمهور الأمة من الفرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق. فأفعال العباد هي كغيرها من المحدثات مخلوقة مفعولة لله، ما أن نفس العبد وسائر صفاته مخلوقة مفعول لله، وليس ذلك نفس خلقه وفعله،

=

=

بل هي مخلوقة ومفعولة، وهذه الأفعال هي فعل العبد القائم به، ليست قائمة بالله ولا يتصف بها، فإنه لا يتصف بمخلوقاته ومفعولاته، وإنما يتصف بخلقه وفعله كما يتصف بسائر ما يقوم بذاته، والعبد فاعل لهذه الأفعال وهو المتصف بها، وله عليها قدرة، وهو فاعلها باختياره ومشيئته، وذلك كله مخلوق لله، فهي فعل العبد، وهي مفعول للرب".

وبهذا التفصيل الجيد يتبين غلط الأشاعرة حين جعلوا الفعل هو المفعول، فأوقعهم هذا في مأزق الكسب الذي اشتهروا به ولم يستطيعوا التخلص منه.

ومع هذا الرد المجمل فإن لشيخ الإسلام كثيرًا من الردود التفصيلية، وأهمها:

١- أن كسب الأشعري لا حقيقة له، لأنهم فسروه بأنه عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة، وقالوا: الخلق هو المقدور بالقدرة القديمة. وما دام العبد ليس بفاعل، ولا له قدرة مؤثرة في الفعل فالزعم بأنه كاسب، وتسمية فعله كسبا لا حقيقة له، لأنه القائل بذلك لا يستطيع أن يوجد فرقا بين الفعل الذي نفاه عن العبد، والكسب الذي أثبته له. وكثيرا ما يشير شيخ الإسلام إلى أن قول الأشاعرة هذا قريب من قول الجهم الذي يصرح بالجبر.

٢- أما زعمهم بأنهم يفرقون بين الكسب الذي أثبتوه وبين الخلق بأن الكسب: عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة، وقولهم أيضًا: الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه، وزعمهم أن هذا يبعد قولهم عن قول الجهم الذي يقول بالجبر المحض أما مزاعمهم هذه فمردودة بما يلي:

أن قولهم هذا "لا يوجب فرقًا بين كون العبد كسب، وبين كونه فعل، وأوجد، وأحدث، وصنع، وعمل، ونحو ذلك، فإن فعله وإحداثه وعمله وصنعه هو أيضًا مقدور بالقدرة الحادثة، وهو قائم في محل القدرة الحادثة".

=

=

ب "وأيضًا فإنه لا فرق لا حقيقة له، فإن كون المقدور في محل القدرة أو خارجًا عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه، وهو مبني على أصلين: أن الله لا يقدر على فعل يقوم بنفسه، وأن خلقه للعالم هو نفس العالم، وأكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم على خلاف ذلك، والثاني أن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في كل وجودها، ولا يكون شيء من مقدورها خارجا عن محلها. وفي ذلك نزاع طويل".

فالأشاعرة بنوا أقوالهم في الكسب وقدرة العبد على أصول غير مسلمة.

جـ - وتفسيرهم التأثير بمجرد الاقتران يقتضي أن لا يكون هناك فرق بين أن يكون الفارق في المحل أو خارجًا عن المحل.

ح- أن "من المستقر في فطر الناس، أن من فعل العدل فهو عادل، ومن فعل الظلم فهو ظالم، ومن فعل الكذب فهو كاذب، فإذا لم يكن العبد فاعلا لكذبه وظلمه وعدله، بل الله فاعل ذلك لزم أن يكون هو المتصف بالكذب والظلم"، وهذا من أعظم الباطل. ويقال للأشاعرة أيضًا: يقال لكم هنا ما تقولونه أنتم للمعتزلة في مسألة الكلام وأن من قام به الكلام فهو المتكلم، وأن الكلام إذا كان مخلوقًا كان كلامًا للمحلى الذي خلقه فيه. فكذلك إرادة العبد وقدرته.

خ أن القرآن مملوء بذكر إضافة أفعال العباد إليهم، ومن ذلك قوله تعالى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (السجدة: من الآية ١٧) وقوله: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُم} (فصلت: من الآية ٤٠) وقوله: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ} (التوبة: من الآية ١٠٥) وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} (البقرة: من الآية ٢٧٧) وغيرها كثير جدًا.

د- "أن الشرع والعقل متفقان على أن العبد يحمد ويذم على فعله، ويكون حسنة له أو سيئة، فلو لم يكن إلا فعل غيره لكان ذلك الغير هو المحمود المذموم

=

=

عليها".

ثالثًا: أن التفصيل الذي ذكره السلف، هو الحق وبه يزول الإشكال الذي توهمه هؤلاء في مسألة العباد، وكونها مخلوقة لله تعالى، وفي فعل للعباد حقيقة. وقد بنى السلف ذلك على أن الفعل غير المفعول والخلق غير المخلوق.

ومع وضوح مذهب السلف فإن شيخ الإسلام شرح بعض القضايا الغامضة حول مذهبهم، ومنها:

١ – ما يقال من أنه إذا كانت أفعال العباد مخلوقة لله، وهي فعل لهم حقيقة، فكيف نجمع بين هذين الأمرين؟

يجيب عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول: "قول القائل: هذا فعل هذا، وفعل هذا: لفظ فيه إجمال، فإنه تارة يراد بالفعل نفس الفعل، وتارة يراد به مسمى المصدر، فيقولك فعلت هذا أفعله فعلا، وعملت هذا أعمله عملا، فإذا أريد بالعمل نفس العمل الذي هو مسمى المصدر كصلاة الإنسان وصيامه ونحو ذلك، فالعمل هنا هو المعمول، وقد اتحد هنا مسمى المصدر والفعل، وإذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب وبناء الدار ونحو ذلك، فالعمل هنا غير المعمول، قال تعالى: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَات} (سبأ: من الآية ١٣) فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن، ومن هذا الباب قوله تعالى: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} (الصافات:٩٦) أي والله خلقكم وخلق الأصنام التي تنحتونها... والمقصود أن لفظ "الفعل" و"العمل" و"المصنع" أنواع وذلك كلفظ البناء والخياطة والتجارة تقع على نفس مسمى المصدر، وعلى المفعول وكذلك لفظ "التلاوة" و"القراءة" و"الكلام" و"القول" يقع على نفس مسمى المصدر، وعلى ما يحصل بذلك من نفس القول والكلام، فيراد بالتلاوة والقراءة نفس القرآن المقرؤ المتلو، كما يراد بها مسمى

=

=

المصدر.

والمقصود أن القائل إذا قال: هذه التصرفات فعل الله أو فعل العبد، فإن أراد بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر فهذا باطل باتفاق المسلمين، وبصريح العقل، ولكن من قال هي فعل الله وأراد به أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات فهذا حق"، ثم وضح المسألة فقال: "وأما من قال (وهم جمهور أهل السنة): خلق الرب تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته، قال: إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات، ومفعولة للرب كسائر المفعولات، ولم يقل: إنها نفس فعل الرب وخلقه، بل قال: إنها نفس فعل العبد، وعلى هذا تزول الشبهة، فإنه يقال: الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلا له، كما يفعلها العبد، وتقوم به، ولا يتصف بما خلقه في غيره من الطعوم والألوان والروائح والأشكال والمقادير والحركات وغير ذلك، فإن كان قد خلق لون الإنسان لم يكن هو المتلون به، وإذا خلق رائحة منتنة أو طعما مرا أو صورة قبيحة ونحو ذلك مما هو مكروه مذموم مستقبح، لم يكن هو متصفا بهذه المخلوقات القبيحة المذمومة المكروهة والأفعال القبيحة، ومعنى قبحها كونها ضارة لفاعلها، وسببا لذمه وعقابه، وجالبة لألمه وعذابه، وهذا أمر يعود على الفاعل الذي قامت به لا على الخالق الذي خلقها فعلا لغيره".

٢- ومن الأمور التي تحتاج إلى بيان: مسألة قدرة العبد وهل لها تأثير أولا؟ يوضح هذا شيخ الإسلام ابن تيمية: فيقولك "إن التأثير إذا فسر بوجود شرط الحادث أو سبب يتوقف حدوث الحادث به على سبب آخر، وانتفاء موانع - وكل ذلك بخلق الله تعالى - فهذا حق، وتأثير قدرة العبد في مقدورها ثابت بهذا الاعتبار، وإن فسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالأثر من غير مشارك معاون ولا معاوق مانع، فليس شيء من المخلوقات مؤثرا، بل الله وحده خالق كل شيء لا

=

=

شريك له ولاند له، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن... فإذا عرف ما في لفظ "التأثير من الإجمال والاشتراك ارتفعت الشبهة، وعرف العدل المتوسط بين الطائفتين"، ويقول في موضع آخر: "الذي عليه السلف وأتباعهم وأئمة أله السنة وجمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر، المخالفون للمعتزلة: إثبات الأسباب، وأن قدرة العبد مع فعله لها تأثير كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خلق الأسباب والمسببات، والأسباب ليست مستقلة بالمسببات، بل لا بد لها من أسباب أخر تعاونها، ولها مع ذلك أضداد تمانعها، والسبب لا يكون حتى يخلق الله جميع أسبابه، ويدفع عنه أضداده المعارضة له، وهو سحبانه يخلق جميع ذلك بمشيئته وقدرته كما يخلق سائر المخلوقات، فقدرة العبد سبب من الأسباب، وفعل العبد لا يكون بها وحدها، بل لا بد من الإرادة الجازمة مع القدرة، وإذا أريد بالقدرة القوة بالإنسان فلا بد من إزالة الموانع كإزالة القيد والحبس ونحو ذلك، والصاد عن السبيل كالعدو وغيره".

وقد وضع شيخ الإسلام هذه القضية توضيحاص تاما فقال: "التأثير اسم مشترك، قد يراد بالتأثير الانفراد بالابتداع والتوحيد بالاختراع فإن أريد بتأثير قدرة العبد هذه القدرة فحاشًا الله، لم يقله سني، وإنما هو المعزو إلى أهل الضلال. وإن أريد التأثير في ذات الفعل، إذ لا فرق بين إضافة الانفراد بالتأثير إلى غير الله سبحانه في ذرة أو فيل، وهل هو إلا شرك دون شرك وإن كان قائل هذه المقالة ما نحا إلا نحو الحق.

وإن أريد بالتأثير أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان يتوسط القدرة المحدثة، بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه وتعالى الفعل بهذه القدرة، كما خلق النبات بالماء، وكما خلق الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا التفسير إلى

=

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١).

{وَهُوَ الْقَاهِر} مُسْتَعْلِيًا {فَوْق عِبَاده وَيُرْسِل عَلَيْكُمْ حَفَظَة} مَلَائِكَة تُحْصِي أَعْمَالكُمْ {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدكُمْ الْمَوْت تَوَفَّتْهُ} وَفِي قِرَاءَة تَوَفَّاهُ {رُسُلنَا} الْمَلَائِكَة الْمُوَكَّلُونَ بِقَبْضِ الْأَرْوَاح {وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} يُقَصِّرُونَ فِيمَا يُؤْمَرُونَ

=

قدرة العبد شركا، وإلا فيكون إثبات جميعا لأسباب شركًا".

وكلام ابن تيمية في هذين الموضوعين واضح تمام الوضوح، وفيه حل لاشكالات كثيرة، وما وجدت أحدًا قبل شيخ الإسلام -رَحِمَهُ اللَّهُ- بين هذا البيان في هذه القضايا المهمة التي كثر فيها الكلام، واختلط فيها الحق بالباطل. فلقد كان شرحه وافيًا، شافيًان دقيقًا. وما وجدت من كتب في القدر ككتابة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله تعالى.

٣- ومن الأمور التي ينبغي الإشارة إليها: معنى الكسب عند أهل السنة، فكثيرًا ما يذكر علماء السنة أن أفعال العباد كسب لهم، وقد يقع إيهام في ذلك خاصة وإن الأشاعرة يعبرون عن مذهبهم في هذا الموضوع بالكسب، فيقع الإيهام أحيانًا، ونوضح هنا أن أهل السنة عندما يقولون: أن أفعال العباد كسب لهم، معناه: أنها أفعالهم التي تعود على فاعليها بنفع أو ضر، ما قال تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} (البقرة: من الآية ٢٨٦) "فبين سبحانه أن كسب النفس لها أو عليها، ولما كان العباد يكملون بأفعالهم ويصلحون بها، إذ كانوا في أول الخلق خلقوا ناقصين، صح إثبات السبب، إذ كمالهم وصلاحهم من أفعالهم". فمقصود أهل السنة أنها كسب لهم واقعة بقدرتهم وإرادتهم وكل أفعالهم مخلوقة لله سبحانه وتعالى.

بِهِ.

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢).

{ثُمَّ رُدُّوا} أَيْ الْخَلْق {إِلَى الله مَوْلَاهُمْ} مَالِكهمْ {الْحَقّ} الثَّابِت الْعَدْل لِيُجَازِيَهُمْ {أَلَا لَهُ الْحُكْم} الْقَضَاء النَّافِذ فِيهِمْ {وَهُوَ أَسْرَع الْحَاسِبِينَ} يُحَاسِب الْخَلْق كُلّهمْ فِي قَدْر نِصْف نَهَار مِنْ أَيَّام الدُّنْيَا لِحَدِيثٍ بِذَلِكَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ٦١]، أي:" والله تعالى هو القاهر فوق عباده، كل شيء خاضع لجلاله وعظمته".

قال الطبري: أي:" والله الغالب خلقه، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم، المذلَّل المعْلُوّ عليه لذلته".

قال ابن كثير:" أي: هو الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء".

قال السعدي:" {وهو} تعالى {القاهر فوق عباده} ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئا، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه".

قوله تعالى: {وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً} [الأنعام: ٦١].

أي: الملائكة ، يحفظون بدن الإنسان ، ويحفظون عمله ويُحصونه عليه.

قال الطبري:" وهي ملائكته الذين يتعاقبونكم ليلا ونهارًا، يحفظون أعمالكم ويحصونها، ولا يفرطون في حفظ ذلك وإحصائه ولا يُضيعون".

قال ابن كثير:" أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ} [الرعد: ١١]، وحفظة يحفظون عمله ويحصونه عليه كما قال: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وقال: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ =

=
* مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٧، ١٨]".

قال السعدي:" وكّل بالعباد حفظة من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار:١٠ - ١٢] {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق:١٧ - ١٨]، فهذا حفظه لهم في حال الحياة".

قال قتادة:" يقول: حفظة، يا ابن آدم، يحفظون عليك عملك ورزقك وأجلك".

قال السدي:" هي المعقبات من الملائكة، يحفظونه ويحفظون عمله".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} [الأنعام: ٦١]، أي:" حتى إذا نزل الموت بأحدهم قبض روحَه مَلكُ الموت وأعوانه".

قال ابن كثير:" أي: إذا احتضر وحان أجله {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} أي: ملائكة موكلون بذلك".

قال السعدي:" أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح".

قال قتادة:"يقول تعالى ذكره: إن ربكم يحفظكم برسل يعقِّب بينها، يرسلهم إليكم بحفظكم وبحفظ أعمالكم، إلى أن يحضركم الموت، وينزل بكم أمر الله، فإذا جاء ذلك أحدكم، توفاه أملاكنا الموكَّلون بقبض الأرواح، ورسلنا المرسلون به".

وقال قتادة أيضا:" إن ملك الموت له رسل، فيرسل ويرفع ذلك إليه، وقال الكلبي: إن ملك الموت هو يلي ذلك، فيدفعه، إن كان مؤمنًا، إلى ملائكة الرحمة، وإن كان كافرًا إلى ملائكة العذاب".

قال الطبري:" فإن قال قائل: أو ليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت، فكيف قيل: {توفته رسلنا}، و «الرسل» جملة وهو واحد؟ أو ليس قد قال: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} [سورة السجدة: ١١]؟

قيل: جائز أن يكون الله تعالى ذكره أعان ملك الموت بأعوان من عنده، فيتولون
=

=
ذلك بأمر ملك الموت، فيكون " التوفي " مضافًا وإن كان ذلك من فعل أعوان ملك الموت إلى ملك الموت إذ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك بأمره، كما يضاف قتلُ من قتل أعوانُ السلطان وجلدُ من جلدوه بأمر السلطان، إلى السلطان، وإن لم يكن السلطان باشر ذلك بنفسه، ولا وليه بيده".

عن الحسن بن عبيد الله في قوله:" {توفته رسلنا وهم لا يفرطون}، قال: سئل ابن عباس عنها فقال: إن لملك الموت أعوانًا من الملائكة".

عن إبراهيم:" {توفته رسلنا وهم لا يفرطون}، قال: الرسل توفَّى الأنفس، ويذهب بها ملك الموت".

وروي عن الثوري، عن منصور عن إبراهيم في قوله:" {توفته رسلنا}، قال: تتوفاه الرسل، ثم يقبض منهم ملك الموت الأنفس، قال الثوري: وأخبرني الحسن بن عبيد الله، عن إبراهيم قال: هم أعوان لملك الموت، قال الثوري: وأخبرني رجل، عن مجاهد قال: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول من حيث شاء، وجعلت له أعوان يتوفَّون الأنفس ثم يقبضها منهم".

وعن عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، قال: "سألت الربيع بن أنس عن ملك الموت، أهو وحده الذي يقبض الأرواح، قال: هو الذي يلي أمرَ الأرواح، وله أعوان على ذلك، ألا تسمع إلى قول الله تعالى ذكره: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} ؟ [سورة الأعراف: ٣٧]. وقال: {توفته رسلنا وهم لا يفرطون}، غير أن ملك الموت هو الذي يسير كل خطوة منه من المشرق إلى المغرب. قلت: أين تكون أرواح المؤمنين؟ قال: عند السدرة في الجنة".

عن مجاهد:" ما من أهل بيت شَعَرٍ ولا مَدَرٍ إلا وملك الموت يُطيف بهم كل يوم مرتين".

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: ٦١]، أي:" وهم لا يضيعون ما أُمروا
=

=

به".

قال ابن عباس:" يقول: لا يضيعون". وروي عن قتادة ، والسدي مثل ذلك.

قال مقاتل:" يعني: لا يضيعون ما أمروا به".

قال البغوي: أي:" لا يقصرون".

قال السعدي: يعني:" فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه ولا ينقصون ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية".

قال ابو عبيدة:" أي: لا يتوانون ولا يتركون شيئا، ولا يخلفونه ولا يغادرون".

قال ابن كثير:" أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله، ﷻ، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عياذا بالله من ذلك".

قوله تعالى: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ} [الأنعام: ٦٢]، قيل: الملائكة ، وقيل: الخلائق كلهم إلى يوم القيامة فيحكم بينهم بعدله كما قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) ، وقال تعالى (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا).

قال مقاتل:" ثم ردوا من الموت إلى الله في الآخرة، فيها تقديم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ثم ردت الملائكة الذين توفَّوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم، إلى الله سيدهم الحق".

قال السعدي: "{ثُمَّ} بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر، {رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ} أي: الذي تولاهم بحكمه القدري فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير ثم تولاهم بأمره ونهيه وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات ويعاقبهم على الشرور والسيئات".

=

=

قال ابن كثير:" ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ} يعني: الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال [تعالى] {قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} إلى قوله: {وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٧ - ٤٩]".

قال البغوي: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ} " يعني: الملائكة، وقيل: يعني العباد يردون بالموت إلى الله مولاهم الحق.

قوله: (مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) أي: خالقهم وراقهم وباعثهم ومالكم (الحق) الذي لا شك فيه ، فلا شك في وجوده ، ولا يسع أحدًا إنكاره لظهور دلائل إثباته ، فهو سبحانه حق في ذاته ، حقٌّ في صفاته ، حق في أقواله ، حق في أفعاله ، كامل الصفات والنعوت ، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والكمال والجمال موصوفًا.

ولهذا قال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

وفي الحديث كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال (اللهم لك الحمد ،..أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق...) متفق عليه.

والمراد بالولاية هنا العامة ، لأن الولاية تنقسم إلى قسمين:

ولاية عامة: بمعنى أن يتولى شؤون عباده ، وهذا للكفار والمؤمنين.

ودليلها هذه الآية (. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) وقوله تعالى (وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

ولاية خاصة ، وهذه للمؤمنين.

كما قال تعالى (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقال تعالى

=

=

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ).

مقتضى النوع الأول: أن لله تعالى كمال السلطان ، والتدبير في جميع خلقه.

ومقتضى النوع الثاني: الرأفة ، والرحمة ، والتوفيق.

فإن قيل: الآية في المؤمنين والكفار جميعا وقد قال في آية أخرى: {وأن الكافرين لا مولى لهم} [محمد: ١١]، فكيف وجه الجمع؟

فقيل: المولى في تلك الآية بمعنى الناصر ولا ناصر للكفار، والمولى هاهنا بمعنى الملك الذي يتولى أمورهم، والله ﷻ مالك الكل ومتولي الأمور، وقيل: أراد هنا المؤمنين خاصة يردون إلى مولاهم، والكفار فيه تبع".

قوله تعالى: {أَلَا لَهُ الْحُكْمُ} [الأنعام: ٦٢]، أي:". ألا له القضاء والفصل يوم القيامة بين عباده".

قال مقاتل:" يعنى: القضاء".

قال البغوي:" أي: القضاء دون خلقه".

قال الطبري:" يقول: ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه".

قال السعدي: "{لَهُ الْحُكْمُ} وحده لا شريك له".

قوله تعالى: {وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام: ٦٢].

يحتمل معنيان:

الأول: أن اليوم الآخر - الذي يقع فيه الحساب - أن مجيئه قريب وسريع ، وكل ما هو آت قريب والله أخبر عن أمر الساعة أنه كلمح البصر أو هو أقرب.

والثاني: - وهو المتبادر -: أن ذلك الحساب لا يطول لكثرة الخلق الذين يحاسبهم ، بخلاف حال المخلوقين فإنهم إذا كثر ذلك عليهم فإن ذلك يقتضي طول الوقت الذي تستغرقه تلك المحاسبة.

قال مقاتل:" يقول: هو أسرع حسابا من غيره وذلك قوله: {وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}

=

=

[الأنبياء: ٤٧]".

قال البغوي:" أي: إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لا يحتاج إلى فكرة ورؤية وعقد يد".

قال الطبري:" يقول: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم، أيها الناس، وأحصاها، وعرف مقاديرها ومبالغها، لأنه لا يحسب بعقد يد، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، {و لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة سبأ: ٣]".

قال السعدي: "{وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} لكمال علمه وحفظه لأعمالهم بما أثبتته في اللوح المحفوظ ثم أثبته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير وهو القاهر فوق عباده وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم وهو الذي له الحكم القدري والحكم الشرعي والحكم الجزائي فأين للمشركين العدولُ عن من هذا وصفه ونعته إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء ولا عنده مثقال ذرة من النفع ولا له قدرة وإرادة؟

أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم وهم يبارزونه بالشرك والكفران ويتجرءون على عظمته بالإفك والبهتان وهو يعافيهم [ص:٢٦٠] ويرزقهم لانجذبت دواعيهم إلى معرفته وذهلت عقولهم في حبه ولمقتوا أنفسهم أشد المقت حيث انقادوا لداعي الشيطان الموجب للخزي والخسران ولكنهم قوم لا يعقلون".

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها

=

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣).

{قُلْ} يَا مُحَمَّد لِأَهْلِ مَكَّة {مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَات الْبَرّ وَالْبَحْر} أَهْوَالهمَا فِي أَسْفَاركُمْ حِين {تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا} عَلَانِيَة {وَخُفْيَة} سِرًّا تَقُولُونَ {لَئِنْ} لَام قَسَم {أَنْجَيْتنَا} وَفِي قِرَاءَة أَنْجَانَا أَيْ الله {مِنْ هَذِهِ} الظُّلُمَات وَالشَّدَائِد {لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ} الْمُؤْمِنِينَ.

قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤).

=

ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السَّماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبْشري بروح وريحان ورب غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ. وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء. فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول".

عن أبي بكر بن عياش، قال: "دخلت على عاصم قبل أن يموت وهو يقرأ: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}، وأما أعلمه يعقل".

{قُلْ} لَهُمْ {الله يُنَجِّيكُمْ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {مِنْهَا وَمِنْ كُلّ كَرْب} غَمّ سِوَاهَا {ثُمَّ أَنْتُمْ تشركون} به.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥).

{قُلْ هُوَ الْقَادِر عَلَى أَنْ يَبْعَث عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقكُمْ} مِنْ السَّمَاء كَالْحِجَارَةِ وَالصَّيْحَة {أَوْ مِنْ تَحْت أَرْجُلكُمْ} كَالْخَسْفِ {أَوْ يُلْبِسكُمْ} يَخْلِطكُمْ {شِيَعًا} فِرَقًا مُخْتَلِفَة الْأَهْوَاء {وَيُذِيق بَعْضكُمْ بَأْس بَعْض} بِالْقِتَالِ قَالَ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ هَذَا أَهْوَن وَأَيْسَر وَلَمَّا نزل ما قبله أَعُوذ بِوَجْهِك رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَرَوَى مُسْلِم حَدِيث سَأَلْت رَبِّي أَلَّا يَجْعَل بَأْس أُمَّتِي بَيْنهمْ فَمَنَعَنِيهَا وَفِي حَدِيث لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ أَمَا إنَّهَا كَائِنَة وَلَمْ يَأْتِ تَأْوِيلهَا بَعْد {انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّف} نُبَيِّن لَهُمْ {الْآيَات} الدَّلَالَات عَلَى قُدْرَتنَا {لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا هُمْ عليه باطل[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن زيد بن أسلم؛ قال: لما نزلت: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ}؛ قال رسول الله ﷺ: "لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف"، فقالوا: ونحن يا رسول الله؟ نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: "نعم"، فقال بعض الناس: لا يكون هذا أبدًا، فأنزل الله -تعالى-: {انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٤٥، ١٤٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" =

=

(٤/ ١٣١٢ رقم ٧٤١٨) من طريق المؤمل بن إسماعيل البصري نا يعقوب بن إسماعيل عن زيد به. وهذا سند ضعيف؛ لإرساله، ومؤمل هذا؛ صدوق سيئ الحفظ.

* قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام: ٦٣]، أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البر والبحر؟.

عن قتادة قوله: "{قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر}، يقول: من كرْب البر والبحر".

قال مقاتل:" قل يا محمد لكفار مكة: {من ينجيكم من ظلمات البر والبحر}، يعني: الظلل والظلمة والموج".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم، الداعين إلى عبادة أوثانهم: من الذين ينجيكم " من ظلمات البر "، إذا ضللتم فيه فتحيَّرتم، فأظلم عليكم الهدى والمحجة ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه، فأخطأتم فيه المحجة، فأظلم عليكم فيه السبيل".

قال البغوي:" {من ظلمات البر والبحر} أي: من شدائدهما وأهوالهما، كانوا إذا سافروا في البر والبحر فضلوا الطريق وخافوا الهلاك، دعوا الله مخلصين له الدين فينجيهم".

قال الفخر: "(ظلمات البر والبحر) مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما ، يقال: لليوم الشديد يوم مظلم".

قال السعدي:" أي: {قُلْ} للمشركين بالله، الداعين معه آلهة أخرى، ملزما لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروا من توحيد الإلهية {مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي: شدائدهما ومشقاتهما".

=

=

قال ابن كثير:" يقول تعالى ممتنا على عباده في إنجائه المضطرين منهم {مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي: الحائرين الواقعين في المهامه البرية، وفي اللجج البحرية إذا هاجت الريح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء: ٦٧] وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس: ٢٢] وقال تعالى: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: ٦٣]".

قوله تعالى: {تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأنعام: ٦٣]، أي:" أليس هو الله تعالى الذي تدعونه في الشدائد متذللين جهرًا وسرًّا؟".

قال مقاتل:" {تضرعا}، يعني: مستكينين، {وخفية}، يعني: في خفض وسكون".

قال ابن كثير:" أي: جهرا وسرا".

قال البغوي:" أي: علانية وسرا".

قال الطبري: أي:" فلا تهتدون له غير الله الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء {تضرعًا}، منكم إليه واستكانة جهرًا، {وخفية}، يقول: وإخفاء للدعاء أحيانًا، وإعلانًا وإظهارًا".

قوله تعالى: {لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأنعام: ٦٣]، أي:" تقولون: لئن أنجانا ربنا من هذه المخاوف لنكونن من الشاكرين بعبادته ﷻ وحده لا شريك له".

قال ابن عباس:" يقول: إذا أضل الرجل الطريق، دعا الله: {لئن أنجيتنا من هذه

=

=

لنكونن من الشاكرين}".

قال مقاتل:" {لئن أنجانا} من هذه الأهوال، {لنكونن من الشاكرين} لله في هذه النعم فيوحدوه".

قال الطبري:" تقولون: لئن أنجيتنا من هذه يا رب، أي: من هذه الظلمات التي نحن فيها، لنكونن ممن يوحدك بالشكر، ويخلص لك العبادة، دون من كنا نشركه معك في عبادتك".

قال البغوي:" أي: يقولون لئن أنجيتنا من هذه الظلمات، {لنكونن من الشاكرين} والشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقها".

قال ابن كثير:" {لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ} أي: من هذه الضائقة، {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}، أي: بعدها".

قال السعدي:" وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدْعون ربكم تضرعا بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون وأنتم في تلك الحال: {لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ} الشدة التي وقعنا فيها {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} لله، أي المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته".

قال القرطبي: "وبّخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره".

قال الرازي: "ولفظ الآية يدل على أن عند حصول هذه الشدائد يأتي الإنسان بأمور:

أحدها: الدعاء، وثانيها: التضرع، وثالثها: الإخلاص بالقلب ، وهو المراد من قوله: (وَخُفْيَةً)".

قوله تعالى: {قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ} [الأنعام: ٦٤]، أي:" قل لهم –

=

=

أيها الرسول-: الله وحده هو الذي ينقذكم من هذه المخاوف ومن كل شدة".

قال مقاتل:" يعني: من أهوال كل كرب، يعني: من كل شدة".

قال السعدي:" أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء العادلين بربهم سواه من الآلهة، إذا أنت استفهمتهم عمن به يستعينون عند نزول الكرب بهم في البر والبحر: الله القادرُ على فَرَجكم عند حلول الكرب بكم، ينجيكم من عظيم النازل بكم في البر والبحر من همّ الضلال وخوف الهلاك، ومن كرب كل سوى ذلك وهمّ لا آلهتكم التي تشركون بها في عبادته، ولا أوثانكم التي تعبدونها من دونه، التي لا تقدر لكم على نفع ولا ضرّ".

قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر: «ينجيكم» بالتشديد، مثل قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُم} [الأنعام: ٦٣]، وقرأ الآخرون هذا بالتخفيف.

قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ٦٤]، أي:" ثم أنتم بعد ذلك تشركون معه في العبادة غيره".

قال الطبري: يقول" أنتم بعد تفضيله عليكم بكشف النازل بكم من الكرب، ودفع الحالِّ بكم من جسيم الهم، تعدلون به آلهتكم وأصنامكم، فتشركونها في عبادتكم إياه. وذلك منكم جهل بواجب حقه عليكم، وكفر لأياديه عندكم، وتعرضٌ منكم لإنزال عقوبته عاجلا بكم".

قال ابن كثير:" أي: بعد ذلك {تُشْرِكُونَ} أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى".

قال البغوي:" يريد أنهم يقرون أن الذي يدعونه عند الشدة هو الذي ينجيهم ثم تشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها لا تضر ولا تنفع".

قال القرطبي: "قوله تعالى (ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) تقريع وتوبيخ؛ مثل قوله في أوّل

=

=

السورة (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص ، وهم قد جعلوا بدلًا منه وهو الإشراك؛ فحسُن أن يُقرَّعوا ويُوَبَّخُوا على هذه الجهة وإن كانوا مشركين قبل النجاة ط.

قال السعدي: أي:" لا تفون لله بما قلتم، وتنسون نعمه عليكم، فأي برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك، وصحة التوحيد؟".

قال الزحيلي:" لا يثبت الإنسان غالبًا على العهد، ولا يفي بالوعد، ولا يستقر على حال الاستقامة، فتراه بطبعه غدارًا خائنًا، يلجأ إلى الله وقت الشدة والخوف، وينسى الله بعد النجاة، ويعود إلى ضلالة وجهله. والواجب الذي يمليه العقل والوفاء بالجميل والإخلاص أن يستمر الإنسان على أصل العقيدة الصحيحة والإيمان الحق والعبادة لمن أنعم عليه بجلائل النعم ودقائقها، لا سيما في أحوال الأزمات والمحن.

وهذه حال من الأحوال التي ذكرتها الآية: وهي إذا أخطأتم الطريق وخفتم الهلاك ودعوتم الله، وأقسمتم: لئن أنجانا الله من هذه الشدائد، لنكونن من الطائعين المستقيمين.

وهذا توبيخ من الله لأولئك المشركين في دعائهم إياه عند الشدائد، ثم يدعوه معه غيره في حالة الرخاء، كما قال: {ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ} . إنه مثل ضربه الله، بقصد التقريع والتوبيخ لمن تعهد بالإيمان ونبذ الشرك لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة، وحب الإخلاص، والمشركون قد جعلوا بدلًا منه وهو الإشراك، فحسن أن يقرعوا ويوبخوا على هذا المنهج، وإن كانوا مشركين قبل النجاة وفي الآية إيماء إلى أن من أشرك في عبادة الله تعالى غيره، فهو لم يعبده لأن شرط العبادة الإخلاص، والتوحيد أساس العبادة.

والآية صريحة بأنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية في وقت المحنة

=

=

بأنه لا ملجأ إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضل الله، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات إذ لا يقبل عقلًا أن يأتي الإنسان بأمور أربعة عند حصول الشدائد: وهي الدعاء، والتضرع، والإخلاص بالقلب، والتزام الاشتغال بالشكر، ثم يرتد على عقيبه، ويعمل بنقيض هذه الأمور بعد النجاة وإحراز السلامة من الله تعالى وحده الذي يهيئ الأسباب للإنجاء من المخاوف، أو يغمر عباده بواسع الرحمة والفضل، وبدقائق اللطف والإلهام.

فالمشرك يرجع إلى الله ويخلص وقت الضراء ، ثم وقت الرخاء يشرك ويرجع:

كما قال تعالى (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا).

وقال تعالى (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ...).

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ).

وقال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ).

وفي هذا فضل التوحيد والإخلاص.

قال ابن القيم: التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه ، فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ، ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات ، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا

=

=

به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة ، ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه ، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل هذه سنة الله في عباده ، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد ، فلا يلقى في الكرب العظام إلا الشرك ، ولا ينجى منها إلا التوحيد ، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها. (الفوائد).

قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [الأنعام: ٦٥]، أي:" قل -أيها الرسول-: الله ﷻ هو القادر وحده على أن يرسل عليكم عذابًا مِن فوقكم كالرَّجْم أو الطوفان، وما أشبه ذلك، أو من تحت أرجلكم كالزلازل والخسف".

قال السعدي:" أي: هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء العادلين بربهم غيره من الأصنام والأوثان، يا محمد: إن الذي ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر ومن كل كرب، ثم تعودون للإشراك به، هو القادر على أن يرسل عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم، لشرككم به، وادّعائكم معه إلهًا آخر غيره، وكفرانكم نعمه، مع إسباغه عليكم آلاءه ومِنَنه".

قال القرطبي:" أي: القادر على إنجائكم من الكرب، قادر على تعذيبكم. ومعنى {من فوقكم}: الرجم والحجارة والطوفان والصيحة والريح، كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح، {أو من تحت أرجلكم} الخسف والرجفة، كما فعل بقارون وأصحاب مدين".

وفي قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [الأنعام: ٦٥]، وجوه:

=

=

أحدها: أن العذاب الذي من فوقهم الرجم، والذي من تحت أرجلهم الخسف، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وأبو مالك ، والسدي. واختاره الطبري ، وابن قتيبة ، وابن كثير.

عن ابن زيد في قوله: "{قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم} قال: كان ابن مسعود يصيح وهو في المجلس أو على المنبر: ألا أيها الناس، إنه نزل بكم. إن الله يقول: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم}، لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحد، {أو من تحت أرجلكم}، لو خسف بكم الأرض أهلككم، لم يبق منكم أحد، {أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض}، ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث".

والثاني: أن العذاب الذي من فوقهم أئمة السوء، والعذاب الذي من تحت أرجلهم عبيد السوء، قاله ابن عباس.

والثالث: أن الذي من فوقهم الطوفان، والذي من تحت أرجلهم الريح، حكاه علي بن عيسى.

والرابع: أن العذاب الذي من فوقهم طوارق السماء التي ليست من أفعال العباد لأنها فوقهم، والتي من تحت أرجلهم ما كان من أفعال العباد لأن الأرض تحت أرجل جميعهم. أفاده الماوردي.

الخامس: أن العذاب الذي من فوقهم: كالرَّجْم أو الطوفان، وما أشبه ذلك، والعذاب الذي من تحت أرجلهم: كالزلازل والخسف.

قال الطبري:" والصواب عندي، قولُ من قال: عنى بالعذاب من فوقهم، الرجمَ أو الطوفان وما أشبه ذلك مما ينزل عليهم من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم، الخسفَ وما أشبهه. وذلك أن المعروف في كلام العرب من معنى «فوق» و «تحت» الأرجل، هو ذلك، دون غيره. وإن كان لما روي عن ابن عباس في ذلك

=

=

وجه صحيح، غير أن الكلام إذا تُنُوزع في تأويله، فحمله على الأغلب الأشهر من معناه أحق وأولى من غيره، ما لم تأت حجة مانعة من ذلك يجب التسليم لها".

قال ابن كثير:" وهو كما قال ابن جرير، رَحِمَهُ اللَّهُ، ويشهد له بالصحة قوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [الملك: ١٦ - ١٨]، وفي الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قَذْفٌ وخَسْفٌ ومَسْخٌ» ، وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراطها وظهور الآيات قبل يوم القيامة".

عن الحسن: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ}، قال: هذه للمشركين".

وعن مجاهد: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ}: لأمة محمد ﷺ، فعفا عنهم".

وقد روى البخاري عن جابر قال (لما نزلت (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك، قال (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال: أعوذ بوجهك (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ) قال رسول الله ﷺ (هذا أهون).

وعن سعد. قال: قال رسول الله ﷺ (سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها) رواه مسلم.

وقي صحيح مسلم قال ﷺ (... وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك: أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلّط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون

=

=

بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا) رواه مسلم.

وعن أبي العالية، عن أبي بن كعب: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ} إلى قوله: {وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}، قال: فهن أربع خلال، جاء منهم اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة: ألبسوا شيعا، وأذيق بعضهم بأس بعض. وبقيت اثنتان هما لا بد واقعتان: الرجم، والخسف".

وعن الحسن في قوله:" {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا}، قال: حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها، فما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها".

عن عامر بن عبد الرحمن، قال: "أن ابن عباس كان يقول في هذه الآية: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ}: فأئمة السوء".

وعن حمزة بن إسماعيل قال: "سمعت أبي يقول: ثنا أبو سنان في قوله: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ}، قال: أشرافكم وأمراؤكم".

قال ابن ابي حاتم:"وروي عن عمير بن هاني أنه قال: أمراء السوء".

قوله تعالى: {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا} [الأنعام: ٦٥]، أي:" أو يخلط أمركم عليكم فتكونوا فرقًا متناحرة".

قال الطبري: يعني:" أو يخلطكم أهواء مختلفة وأحزابًا مفترقة".

قال ابن قتيبة:" من الالتباس عليكم حتى تكونوا شيعا أي فرقا مختلفين".

قال ابو عبيدة:" يخلطهم، وهو من الالتباس، و «شيعا»: فرقا، واحدتها: شيعة".

قال ابن كثير:" أي: يجعلكم ملتبسين شيعا فرقا متخالفين".

قال القرطبي:" أي: يلبس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين وحرف الجر، كما قال: {وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ} [المطففين: ٣]، وهذا اللبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلفي الأهواء".

=

=

وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: "وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». وفي رواية: «قيل فمن الناجية؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي». رواه جماعة من الأئمة.

وفي قوله تعالى: {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا} [الأنعام: ٦٥]، وجوه من التأويل:

أحدها: أنها: الأهواء والاختلاف، قاله ابن عباس.

وقال ابن زيد:" {أو يلبسكم شيعًا}: الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف، والأهواء، وسفك دماء بعضهم بعضًا".

وقال مجاهد:" الأهواء المفترقة". وروي عن مقاتل بن حيان مثله.

وعن السدي: "{أو يلبسكم شيعًا}، قال: يفرق بينكم".

والثاني: أنها الفتن والاختلاف، قاله مجاهد.

والثالث: أي: يسلط عليكم أتباعكم الذين كانوا أشياعكم، فيصيروا لكم أعداء بعدما كانوا أولياء، وهذا من أشد الانتقام أن يستعلي الأصاغر على الأكابر. أفاده الماوردي.

والرابع: وقيل: معنى {يلبسكم شيعا} يقوي عدوكم حتى يخالطكم وإذا خالطكم فقد لبسكم." شيعا" معناه فرقا.

والخامس: وقيل يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا، وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم على طلب الدنيا.

عن قتادة: "{قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا}، الآية. ذكر لنا أن رسول الله ﷺ صَلى ذات يوم الصبح فأطالها، فقال له بعض أهله: يا نبي الله، لقد صلّيت صلاة ما كنت تصَليها؟ قال: إنها صلاةُ رَغبة ورَهبة، وإني سألت ربّي فيها ثلاثًا، سألته أن لا يسلط على أمتي عدوًّا من غيرهم، فيهلكهم، فأعطانيها. وسألته أن لا يسلط على أمتي السنة، فأعطانيها. وسألته أن لا يلبسهم شيعًا ولا يذيق بعضهم

=

=
بأس بعض، فمنعنيها. ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله".

عن الزهري في قوله: {أو يلبسكم شيعًا}، قال: "راقب خباب بن الأرتّ، وكان بدريًّا، النبيَّ ﷺ وهو يصلي، حتى إذا فرغ، وكان في الصبح، قال له: يا رسول الله، لقد رأيتك تصلي صلاة ما رأيتك صليت مثلها؟ قال: أجل، إنها صلاة رَغَبٍ ورَهَبٍ، سألت ربي ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة: سألته أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم، فأعطاني. وسألته أن لا يسلط علينا عدوًّا، فأعطاني. وسألته أن لا يلبسنا شيعًا، فمنعني".

روي عن أبي عبد الله المدني: «أو يلبسكم» بضم الياء، أي: يجللكم العذاب ويعمكم به، وهذا من اللبس بضم الأول، وقراءة الفتح من اللبس.

قوله تعالى: {وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} [الأنعام: ٦٥]، أي:" ويقتل بعضكم بعضًا".

قال الشاطبي:" تكفير البعض للبعض حتى يتقاتلوا، كما جرى للخوارج حين خرجوا على أهل السنة والجماعة".

قال ابن قتيبة: أي:" بالقتال والحرب".

قال البغوي:" يعني: السيوف المختلفة، يقتل بعضكم بعضا".

قال الطبري:" يعني: بقتل بعضكم بيد بعض".

قال مقاتل:" يقول: يقتل بعضكم بعضا فلا يبقى منكم أحد إلا قليل".

قال ابن عباس:"يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل".

قال نوف:" هي والله للرجال بأيديها الحراب، يطعن بها حواصلهم".

قال السعدي:" أي: في الفتنة، وقتل بعضكم بعضا، فاحذروا من الإقامة على معاصيه، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر
=

=

على ذلك. ولكن من رحمته، أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب، ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالخسف، ولكن عاقب من عاقب منهم، بأن أذاق بعضهم بأس بعض، وسلط بعضهم على بعض، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون، ويشعر بها العالمون".

قوله تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ} [الأنعام: ٦٥]، أي:" انظر -أيها الرسول- كيف نُنوِّع حججنا الواضحات لهؤلاء المشركين".

قال القرطبي:" أي: نبين لهم الحجج والدلالات".

قال ابن كثير:" أي: نبينها ونوضحها ونُقِرُّهَا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: انظر، يا محمد، بعين قلبك إلى ترديدنا حججنا على هؤلاء المكذبين بربّهم الجاحدين نعمه، وتصريفناها فيهم".

قال مقاتل:" انظر يا محمد {كيف نصرف الآيات} يعني: العلامات في أمور شتى من ألوان العذاب".

قال السعدي:" {نُصَرِّفُ الآيَاتِ} أي: ننوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق".

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: ٦٥]، أي:" لعلهم يفهمون فيعتبروا".

قال مقاتل:" عن الله فيخافوه ويوحدوه".

قال ابن كثير:" أي: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه".

قال الطبري:" يقول: ليفقهوا ذلك ويعتبروه فيذّكروا ويزدجروا عما هم عليه مقيمون مما يسخطه الله منهم، من عبادة الأوثان والأصنام، والتكذيب بكتاب الله تعالى ذكره ورسوله ﷺ".

قال السعدي:" أي: يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية، والمطالب الإلهية".

=

=

قال القرطبي:" يريد بطلان ما هم عليه من الشرك والمعاصي".

واختلف أهل التأويل في نزول هذه الآية على ثلاثة أقوال:

أحدها: عني بها المسلمون من أمة محمد ﷺ، وفيهم نزلت، وهذا قول عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبي العالية ، والسدي.

قال قتادة:" ذكر لنا أن رسول الله ﷺ صَلى ذات يوم الصبح فأطالها، فقال له بعض أهله: يا نبي الله، لقد صلّيت صلاة ما كنت تصَليها؟ قال: إنها صلاةُ رَغبة ورَهبة، وإني سألت ربّي فيها ثلاثًا، سألته أن لا يسلط على أمتي عدوًّا من غيرهم، فيهلكهم، فأعطانيها. وسألته أن لا يسلط على أمتي السنة، فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسهم شيعًا ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها. ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله".

واختاره القرطبي، وقال:" وهو الصحيح، فإنه المشاهد في الوجود، فقد لبسنا العدو في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضا واستباحة بعضنا أموال بعض نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن".

والقول الثاني: أنها نزلت في المشركين، وهذا قول الحسن في رواية أخرى ، وبه قال بعض المتأخرين.

عن حفص بن سليمان، عن الحسن في قوله: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم}، قال: هذا للمشركين، {أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض}، قال: هذا للمسلمين".

والثالث: أنها عامة في المسلمين والكفار. ذكره القرطبي.

قال الطبري:" والصواب من القول عندي أن يقال: إنّ الله تعالى ذكره توعَّد بهذه

=

=

الآية أهلَ الشرك به من عبدة الأوثان، وإياهم خاطبَ بها، لأنها بين إخبار عنهم وخطاب لهم، وذلك أنها تتلو قوله: {قل ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعًا وخُفْية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون}، ويتلوها قوله: {وكذب به قومك وهو الحق}. وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذبين، فإذا كان غير جائز أن يكون ذلك كذلك، وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين، كان بيّنًا أن ذلك وعيدٌ لمن تقدّم وصف الله إياه بالشرك، وتأخر الخبر عنه بالتكذيب لا لمن لم يجر له ذكر. غير أن ذلك وإن كان كذلك، فإنه قد عم وعيدُه بذلك كلَّ من سلك سبيلهم من أهل الخلاف على الله وعلى رسوله، والتكذيب بآيات الله من هذه وغيرها.

وأما الأخبار التي رويت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سألت ربي ثلاثًا، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة»، فجائز أن هذه الآية نزلت في ذلك الوقت وعيدًا لمن ذكرتُ من المشركين، ومن كان على منهاجهم من المخالفين ربهم، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعيذ أمته مما ابتلى به الأمم الذين استوجبوا من الله تعالى ذكره بمعصيتهم إياه هذه العقوبات، فأعاذهم بدعائه إياه ورغبته إياه، من المعاصي التي يستحقون بها من هذه الخلال الأربع من العقوبات أغلظها، ولم يُعذهم من ذلك ما يستحقون به اثنتين منها.

وأما الذين تأوّلوا أنه عني بجميع ما في هذه الآية هذه الأمة، فإني أراهم تأوّلوا أن في هذه الأمة من سيأتي من معاصي الله وركوب ما يُسخط الله، نحو الذي ركب مَن قبلهم من الأمم السالفة، من خلافه والكفر به، فيحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من المثلات والنقمات، وكذلك قال أبو العالية ومن قال بقوله: «جاء منهن اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة. وبقيت اثنتان، الخسف والمسخ»، وذلك أنه رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سيكون في هذه الأمة خسف ومسخ

=

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦).

{وَكَذَّبَ بِهِ} بِالْقُرْآنِ {قَوْمك وَهُوَ الْحَقّ} الصِّدْق {قُلْ} لَهُمْ {لَسْت عَلَيْكُمْ بِوَكِيل} فَأُجَازِيكُمْ إنَّمَا أَنَا مُنْذِر وَأَمْركُمْ إلَى الله وَهَذَا قَبْل الأمر بالقتال.

لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧).

{لِكُلِّ نَبَإ} خَبَر {مُسْتَقَرّ} وَقْت يَقَع فِيهِ وَيَسْتَقِرّ وَمِنْهُ عَذَابكُمْ {وَسَوْف تَعْلَمُونَ} تَهْدِيد لَهُمْ(١).

=

وقذف» ، وأن قومًا من أمته سيبيتون على لهو ولعب، ثم يصبحون قردة وخنازير ، وذلك إذا كان، فلا شك أنه نظير الذي في الأمم الذين عتوا على ربهم في التكذيب وجحدوا آياته. وقد روي نحو الذي روي عن أبي العالية، عن أبيّ: «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعًا "، قال: أربع

خِلال، وكلهن عذاب، وكلهن واقعٌ قبل يوم القيامة، فمضت اثنتان بعد وفاة النبيّ ﷺ بخمس وعشرين سنة، ألبسوا شيعًا، وأذيق بعضهم بأس بعض. وثنتان واقعتان لا محالة: الخسف والرجم»".

(١) قوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ} [الأنعام: ٦٦]، أي: وكذب بهذا القرآن قومك يا محمد، وهو الكتاب الصادق في كل ما جاء به".

قال السدي:" يقول: كذبت قريش بالقرآن، وهو الحق".

قال السعدي:" {وَكَذَّبَ بِهِ} أي: بالقرآن {قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ} الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه".

قال البغوي:" أي: بالقرآن، وقيل: بالعذاب".

=

=

قال ابن كثير:" أي: بالقرآن الذي جئتهم به، والهدى والبيان. {قَوْمُكَ} يعني: قريشا {وَهُوَ الْحَقُّ} أي: الذي ليس وراءه حق".

قال الطبري: يقول" وكذب، يا محمد، قومك بما تقول وتخبر وتوعد من الوعيد، والوعيدُ الذي أوعدناهم على مقامهم على شركهم: من بعث العذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، أو لبسهم شيعًا، وإذاقة بعضهم بأس بعض {الحق} الذي لا شك فيه أنه واقع إن هم لم يتوبوا وينيبوا مما هم عليه مقيمون من معصية الله والشرك به، إلى طاعة الله والإيمان به".

قوله تعالى: {قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام: ٦٦]، أي:". قل لهم: لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما أنا رسولٌ الله أبلغكم ما أرسلت إليكم".

قال السدي:" وأما «الوكيل»، فالحفيظ".

قال الطبري:" يقول: قل لهم، يا محمد، لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم".

قال البغوي: أي:" برقيب، وقيل: بمسلط ألزمكم الإسلام شئتم أو أبيتم، إنما أنا رسول".

قال ابن كثير:" أي: لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: ٢٩] أي: إنما علي البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني، سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني، فقد شقي في الدنيا والآخرة".

قال السعدي:" {قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} أحفظ أعمالكم، وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ".

قوله تعالى: {لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ} [الأنعام: ٦٧]، أي:" لكل خبر قرار يستقر عنده، ونهاية ينتهي إليها، فيتبيَّن الحق من الباطل".

=

=

قال السعدي:" أي: وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر".

قال الزجاج:" أي: لأخذكم بالإيمان على جهة الحرب، واضطراركم إليه ومقاتلتكم عليه، {مستقر}، أي وقت".

قال الطبري:" يقول: لكل خبر مستقر، يعني: قرار يستقرّ عنده، ونهاية ينتهي إليه، فيتبين حقه وصدقه، من كذبه وباطله".

قال ابن كثير:" أي: لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [ص: ٨٨]، وقال {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد: ٣٧]، وهذا تهديد ووعيد أكيد؛ ولهذا قال بعده: {وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}".

قال البغوي: أي: لكل" خبر من أخبار القرون، حقيقة ومنتهى ينتهي إليه فيتبين صدقه من كذبه وحقه من باطله، إما في الدنيا وإما في الآخرة".

قال القرطبي: أي:" لكل خبر حقيقة، أي لكل شي وقت يقع فيه من غير تقدم وتأخر. وقيل: أي لكل عمل جزاء".

عن ابن عباس قوله: "{لكل نبأ مستقر}، يقول: حقيقة".

وفي رواية اخرى عنه- أيضا-: {لكل نبأ مستقر} " فعل وحقيقة، ما كان منه في الدنيا وما كان منه في الآخرة".

وعن مجاهد:" {لكل نبأ مستقر}، لكل نبأ حقيقة، إما في الدنيا وإما في الآخرة".

وقال السدي:" وأما {لكل نبأ مستقر}، فكان نبأ القرآن استقر يوم بدر بما كان يَعِدهم من العذاب".

قال مقاتل:" يقول لكل حديث حقيقة ومنتهى يعنى: العذاب منه في الدنيا وهو القتل ببدر، ومنه في الآخرة نار جهنم".

وقال الكلبي: "لكل قول أو فعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه. وما كان منه في الآخرة فسوف يبدو لهم".

=

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨).

{وَإِذَا رَأَيْت الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتنَا} الْقُرْآن بِالِاسْتِهْزَاءِ {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} وَلَا تُجَالِسهُمْ {حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيث غَيْره وَإِمَّا} فِيهِ إدْغَام نُون إنْ الشَّرْطِيَّة فِي مَا الْمَزِيدَة {يُنْسِيَنك} بِسُكُونِ النُّون وَالتَّخْفِيف وَفَتْحهَا وَالتَّشْدِيد {الشَّيْطَان} فَقَعَدْت مَعَهُمْ {فَلَا تَقْعُد بَعْد الذِّكْرَى} أَيْ تَذْكِرَة {مَعَ الْقَوْم

=

قوله تعالى: {وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٦٧]، أي:" وسوف تعلمون -أيها الكفار- عاقبة أمركم عند حلول عذاب الله بكم".

قال السعدي: أي: "ما توعدون به من العذاب".

قال الطبري:" يقول: وسوف تعلمون، أيها المكذبون بصحة ما أخبركم به من وعيد الله إياكم، أيها المشركون، حقيقته عند حلول عذابه بكم، فرأوا ذلك وعاينوه، فقتلهم يومئذ بأيدي أوليائه من المؤمنين".

قال الزجاج:" جائز أن يكون وعدهم بعذاب الآخرة، وجائز أن يكون وعدهم بالحرب، وأخذهم بالإيمان شاءوا أو أبوا، إلا أن يعطي أهل الكتاب الجزية".

قال الطبري:"وكان الحسن يتأوّل في ذلك أنه الفتنة التي كانت بين أصحاب رسول الله ﷺ".

عن جعفر بن حيان، عن الحسن أنه قرأ: "{لكل نبأ مستقر}، قال: حبست عقوبتها، حتى إذا عمل ذنبها أرسلت عقوبتها".

ونقل القرطبي عن في قوله: {لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَر}، قال: "هذا وعيد من الله تعالى للكفار، لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث".

الظَّالِمِينَ} فِيهِ وَضْع الظَّاهِر مَوْضِع الْمُضْمَر وقال المسلمون إن قمنا كلمنا خَاضُوا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَجْلِس فِي الْمَسْجِد وَأَنْ نَطُوف فَنَزَلَ.

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩).

{وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ} الله {مِنْ حِسَابهمْ} أَيْ الْخَائِضِينَ {مِنْ} زَائِدَة {شَيْء} إذَا جَالَسُوهُمْ {وَلَكِنْ} عَلَيْهِمْ {ذِكْرَى} تَذْكِرَة لَهُمْ وَمَوْعِظَة {لَعَلَّهُمْ يتقون} الخوض[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [الأنعام: ٦٨]، أي:" وإذا رأيت -أيها الرسول- المشركين الذين يتكلمون في آيات القرآن بالباطل والاستهزاء".

والخوض هو التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله.

قال ابو مالك:"يعني: المشركين".

عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله: "{وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا}، قال: الذين يكذبون بآياتنا". وروي عن مجاهد مثل ذلك.

قال ابن كثير: {يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا}،" أي: بالتكذيب والاستهزاء".

قال القرطبي:" بالتكذيب والرد والاستهزاء".

قال الطبري:": يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا رأيت، يا محمد، المشركين الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليك، ووحينا الذي أوحيناه إليك، و «خوضهم فيها»، كان استهزاءَهم بها، وسبَّهم من أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها".

قال السعدي: "المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، =

=

والقدح فيه وفي أهله، فأمر الله رسوله أصلا وأمته تبعا، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر، بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره، زال النهي المذكور.

فإن كان مصلحة كان مأمورا به، وإن كان غير ذلك، كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل، حث على البحث، والنظر، والمناظرة بالحق".

قال أبو جعفر:" لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله".

عن ابن عباس قوله: "{وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا}، وقوله: {الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} [سورة الأنعام: ١٥٩]؛ وقوله: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [سورة آل عمران: ١٠٥]؛ وقوله: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [سورة الشورى: ١٣]، ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمِراء والخصومات في دين الله".

قال القرطبي:" الخطاب مجرد للنبي ﷺ. وقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه، وهو صحيح، فإن العلة سماع الخوض في آيات الله، وذلك يشملهم وإياه. وقيل المراد به النبي ﷺ وحد، لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك، فأمر أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزءوا وخاضوا ليتأدبوا بذلك ويدعوا الخوض والاستهزاء".

و «الخوض»: "أصله في الماء، ثم استعمل بعد في غمرات الأشياء التي هي مجاهل، تشبيها بغمرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول.

وقيل: هو مأخوذ من: الخلط. وكل شي خضته فقد خلطته، ومنه خاض الماء

=

=

بالعسل خلطه".

قوله تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [الأنعام: ٦٨]، أي:" فابتعد عنهم حتى يأخذوا في حديث آخر".

قال ابن كثير:" أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب".

قال الطبري:": يقول: فصد عنهم بوجهك، وقم عنهم، ولا تجلس معهم، حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله من حديثهم بينهم".

قال ابن العربي:" قال علماؤنا: أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالإعراض عن المشركين الذين يخوضون في آيات الله، وفي ذلك نزلت.

و «الخوض» هو المشي فيما لا يتحصل حقيقة، من الخائض في الماء الذي لا يدرى باطنه، استعير من المحسوس للمعقول على ما نبهنا عليه في الأصول، وحرم الله سبحانه المشاركة لهم في ذلك على رسوله بالمجالسة، سواء تكلم معهم في ذلك أو كرهه.

وهذا دليل على أن مجالسة أهل المنكر لا تحل".

قال القرطبي:" فأدب الله ﷻ نبيه -ﷺ- بهذه الآية، لأنه كان يقعد إلى قوم من المشركين يعظهم ويدعوهم فيستهزءون بالقرآن، فأمره الله أن يعرض عنهم إعراض منكر. ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكرا وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه".

قوله تعالى (حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) حتى: للغاية، يعني: إلى أن يخوضوا في حديث غيره، وتأتي (حتى) للتعليل مثل قوله تعالى (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) فهنا (حتى) للتعليل، أي: لا تنفقوا لأجل أن ينفضوا.

قال ابن عاشور: "والخوض حقيقته الدخول في الماء مشيًا بالرّجْلين دون سباحة

=

=

ثم استعير للتصرّف الذي فيه كلفة أو عنت، كما استعير التعسّف وهو المشي في الرمل لذلك. واستعير الخوض أيضًا للكلام الذي فيه تكلّف الكذب والباطل لأنَّه يتكلّف له قائله، قال الراغب: وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يُذمّ الشروع فيه، قال تعالى (يخوضون في آياتنا) (نخوض ونلعب) ، (وخضتم كالذي خاضوا) ، (ذرهم في خوضهم يلعبون).

فمعنى (يخوضون في آياتنا) يتكلّمون فيها بالباطل والاستهزاء.

والخطاب للرسول ﷺ مباشرة وحكم بقية المسلمين كحكمه ، كما قال في ذكر المنافقين في سورة النساء (١٤٠) (فلا تقعدوا معهم حتَّى يخوضوا في حديث غيره). (تفسير ابن عاشور).

فالآية دليل على تحريم الجلوس مع الذين يستهزئون بآيات الله ، وقد قال تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ..) أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك ، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه.

وقال تعالى (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ) وقال تعالى (وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا).

وإنما حرم الله الجلوس معهم لأسباب:

أولًا: لأن فيه دلالة على رضاه بفعلهم الشنيع.

ثانيًا: أنه ربما يتأثر بما يقولون وينخدع وتقع الشبهة في قليه (والشبَه خطافة).

ثالثًا: أنه يكون في حضوره ذريعة لعوام الناس في حضورهم مثل هذه المجالس.

قال: وَسَبَبُ هَذَا النَّهْيِ أَنَّ الْإِقْبَالَ عَلَى الْخَائِضِينَ وَالْقُعُودَ مَعَهُمْ أَقَلُّ مَا فِيهِ أَنَّهُ إِقْرَارٌ لَهُمْ عَلَى خَوْضِهِمْ ، وَإِغْرَاءٌ بِالتَّمَادِي فِيهِ ، وَأَكْبَرُهُ أَنَّهُ رِضَاءٌ بِهِ وَمُشَارَكَةٌ فِيهِ ، وَالْمُشَارَكَةُ فِي الْكُفْرِ وَالِاسْتِهْزَاءِ كُفْرٌ ظَاهِرٌ

=

=

قال الشوكاني: وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة، الذين يحرّفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردّون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإن إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقلّ الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير.

وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزّهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه، وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها، علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرّمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدّة عمره ويلقى الله به معتقدًا أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر.

وقال ابن عاشور: والإعراض عنهم هنا هو ترك الجلوس إلى مجالسهم، وهو مجاز قريب من الحقيقة لأنَّه يلزمه الإعراض الحقيقي غالبًا، فإن هم غشُوا مجلس الرسول - عليه السلام - فالإعراض عنهم أن يقوم عنهم وعن ابن جريج: فجَعَل إذَا استهزأوا قام فحذِروا وقالوا لا تستهزءوا فيقومَ. وفائدة هذا الإعراض زجرهم وقطع الجدال معهم لعلَّهم يرجعون عن عنادهم.

قوله تعالى: {وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ} [الأنعام: ٦٨]، أي:" وإن أنساك الشيطان هذا الأمر".

قال ابو مالك:" إن نسيت فذكرتَ فلا تجلس معهم".

=

=

قال السدي:" يقول: نَهْيَنَا فتقعد معهم، فإذا ذكرت فقم".

قال السعدي:" أي: بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة".

قال الطبري:" يقول: وإن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا، ثم ذكرت ذلك، فقهم عنهم".

قال ابن كثير:" والمراد بهذا كلّ فرد، فرد من آحاد الأمة، ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسيًا".

قال القرطبي:" المعنى: يا محمد إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فجالستهم بعد النهي، قيل: هذا خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، ذهبوا إلى تبرئته عليه السلام من النسيان. وقيل: هو خاص به، والنسيان جائز عليه".

قال ابن العربي:" هذا خطاب من الله سبحانه لنبيه ﷺ والمراد بذلك الأمة، وكأن القائلين بذلك ذهبوا إلى تنزيه النبي ﷺ عن النسيان وهم كبار الرافضة، قبحهم الله، وإن عذرنا أصحابنا في قولهم: إن قوله تعالى: {لئن أشركت ليحبطن عملك} [الزمر: ٦٥]، خطاب للأمة باسم النبي ﷺ؛ لاستحالة الإشراك عليه فلا عذر لهم في هذا لجواز النسيان على النبي ﷺ قال الله تعالى: {سنقرئك فلا تنسى} [الأعلى: ٦].

وقال ﷺ مخبرا عن نفسه: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون».

وقال وقد سمع قراءة رجل يقرأ: «لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أنسيتها».

وقال في ليلة القدر: «تلاحى رجلان فنسيتها».

وقال: «بئسما لأحدكم أن يقول نَسِيْتُ آية كيت وكيت بل هو نُسِّيَ استذكروا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفصيًا من صدور الرجال من النعم من عقلها» ، كراهية إضافة اللفظ إلى القرآن؛ لقوله تعالى: {كذلك أتتك آياتنا فنسيتها

=

=

وكذلك اليوم تنسى} [طه: ١٢٦].

وفائدته: أن لفظ «نسيت» ينطلق على تركت انطلاقا طبقيا، ثم نقول في تقسيم وجهي متعلقه سهوت إذا كان تركه عن غير قصد، وعمدت إذا كان تركه عن قصد؛ ولذلك قال علماؤنا: إن قوله: «إذا نسى أحدُكم صلاةً أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها» عام في وجهي النسيان العمد والسهو.

وقوله: إذا ذكرها: يعني أن الساهي يطرأ عليه الذكر فيتوجه عليه الخطاب، وأن العامد ذاكر أبدا فلا يزال الخطاب يتوجه عليه أبدا".

وقرأ ابن عباس وابن عامر «ينسينك» بتشديد السين على التكثير، يقال: نسى وأنسى بمعنى واحد لغتان، قال الشاعر:

قالت سليمى أتسري اليوم أم تقل وقد ينسيك بعض الحاجة الكسل

وقال امرؤ القيس:

ومثلك بيضاء العوارض طفلة لعوب تنسى أذا قمت سربالي.

قوله تعالى: {فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٦٨]، أي:" فلا تقعد بعد تذكرك مع القوم المعتدين، الذين تكلموا في آيات الله بالباطل".

قال الطبري: أي:" ولا تقعد بعد ذكرك ذلك مع القوم الظالمين الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوضُ فيه بما خاضوا به فيه".

قال القرطبي:" أي" إذا ذكرت فلا تقعد {مع القوم الظالمين}، يعني: المشركين. و «الذكرى»: اسم للتذكير".

قال ابن كثير: أي:" بعد التذكر، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: {وَقَدْ نزلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} الآية [النساء: ١٤٠] أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه".

=

=

قال السعدي:" يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.

قال الشوكاني: والمعنى: إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد الذكرى إذا ذكرت (مَعَ القوم الظالمين) أي الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها.

قال ابن عاشور: فالمعنى إن أنساك الشيطان الإعراض عنهم فإن تذكّرتَ فلا تقعد معهم ، فهذا النسيان ينتقل به الرسول ﷺ من عبادة إلى عبادة، ومن أسلوب في الدّعوة إلى أسلوب آخر، فليس إنساء الشيطان إيَّاه إيقاعًا في معصية إذ لا مفسدة في ارتكاب ذلك ولا يحصل به غرض من كيد الشيطان في الضلال، وقد رفع الله المؤاخذة بالنسيان، ولذلك قال (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) ، أي بعد أن تتذكَّر الأمر بالإعراض.

وهذا النهي والتحريم، لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم، وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم".

وقد ورد في الحديث: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

قال قتادة:" نهاه الله أن يجلس مع الذين يخوضون في آيات الله يكذبون بها، فإن نسي فلا يقعد بعد الذكر مع القوم الظالمين".

قال السدي:" كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ والقرآن فسبوه واستهزءوا به، فأمرهم الله أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره".

قوله تعالى: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٦٩].

=

=

في معنى قوله: (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) وجهين للعلماء:

الأول: أن المعنى: وما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله من حساب الكفار من شيء، وعلى هذا الوجه فلا إشكال في الآية أصلًا.

الوجه الثاني: أن معنى الآية وما على الذين يتقون ما يقع من الكفار في الخوض في آيات الله في مجالستهم لهم من شيء، وعلى هذا القول فهذا الترخيص في مجالسة الكفار للمتقين من المؤمنين كان في أول الإسلام للضرورة ثم نسخ بقوله تعالى: (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ) ، وممن قال بالنسخ فيه مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم كما نقله عنهم ابن كثير.

فظهر أن لا إشكال على كلا القولين. (الشنقيطي).

قال مجاهد:" إن قعدوا، ولكن لا تقعد".

قال أبو مالك:" وما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك".

قال السمعاني:" يعني: إذا لقوهم، ولم يخوضوا فيما يخوضون".

قال ابن كثير:" أي: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن اتقى الله فخافه، فأطاعه فيما أمره به، واجتنب ما نهاه عنه، فليس عليه بترك الإعراض عن هؤلاء الخائضين في آيات الله في حال خوضهم في آيات الله، شيء من تبعة فيما بينه وبين الله، إذا لم يكن تركه الإعراضَ عنهم رضًا بما هم فيه، وكان لله بحقوقه متقيًا، ولا عليه من إثمهم بذلك حرج".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأنعام: ٦٩]، أي:" ولكن عليهم أن يعظوهم ويذكّروهم ليمسكوا عن ذلك الكلام الباطل، لعلهم يتقون الله تعالى".

قال الطبري: أي:" ولكن ليعرضوا عنهم حينئذ ذكرى لأمر الله، {لعلهم يتقون}،

=

=

يقول: ليتقوا".

قال ابن كثير:" أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه؛ لعلهم يتقون ذلك، ولا يعودون إليه".

قال السعدي:" أي: ولكن ليذكرهم، ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالى".

قال السمعاني:" أمر بتذكيرهم ومنعهم عن ذلك، وقيل: معناه: في حال الذكر، وليس عليهم شيء في حال ما يذكرونهم إذا لم يرضوا بما خاضوا فيه".

قال الشنقيطي: ومعنى قوله تعالى: (وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) على الوجه الأول أنهم إذا اجتنبوا مجالستهم سلموا من الإثم ولكن الأمر باتقاء مجالستهم عند الخوض في الآيات لا يسقط وجوب تذكيرهم ووعظهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لعلهم يتقون الله بسبب ذلك، وعلى الوجه الثاني فالمعنى أن الترخيص في المجالسة لا يسقط التذكير لعلهم يتقون الخوض في آيات الله بالباطل إذا وقعت منكم الذكرى لهم وأما جعل الضمير للمتقين فلا يخفى بعده والعلم عند الله تعالى.

واختلف في نسخ الآية على قولين:

أحدهما: انها منسوخة بقوله: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُم} [النساء: ١٤٠]. وهذا قول سعيد بن جبير ، وأبي مالك ، ومجاهد ، والسدي ، وابن جريج ، وأخرجه النحاس بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وذكره مكي بن أبي طالب عنه بدون إسناد.

عن السدي قوله: "{وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء}، يقول: من حساب الكفار من شيء، {ولكن ذكرى}، يقول: إذا ذكرت فقم، {لعلهم يتقون} مساءتكم، إذا رأوكم لا تجالسونهم استحيوا منكم، فكفوا عنكم. ثم نسخها الله بعد، فنهاهم أن يجلسوا معهم أبدًا، قال: {وَقَدْ نزلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا

=

=

سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا} ، الآية".

قال ابن جريج: "كان المشركون يجلسون إلى النبي ﷺ يحبون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزءوا، فنزلت: {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره}، الآية، قال: فجعل إذا استهزءوا قام، فحذروا وقالوا لا تستهزءوا فيقوم! فذلك قوله: {لعلهم يتقون}، أن يخوضوا فيقوم، ونزل: {وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء}، إن قعدوا معهم، ولكن لا تقعدوا. ثم نسخ ذلك قوله بالمدينة: {وَقَدْ نزلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [سورة النساء: ١٤٠]، فنسخ قولَه: {وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء}، الآية".

وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك في قوله: "{وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء} قالا: نسخها: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها} الآية".

والثاني: أنها محكمة، لأنها دلت على أن كل عبد يختص بحساب نفسه، ولا يلزمه حساب غيره. وهذا قول الطبري ، والنحاس ، ومكي بن أبي طالب ، وابن الجوزي. وهو الصحيح. والله أعلم.

قال ابن الجوزي: "ولو قال: هؤلاء: أنها منسوخة بآية السيف كان أصلح وكان معناها عندهم إباحة مجالستهم وترك الاعتراض عليهم، والصحيح أنها محكمة لأنها خبر وقد بينا أن المعنى: ما عليكم شيء من آثامهم إنما يلزمكم إنذارهم".

(تتمة): اعلم رحمني الله وإياك أن فوائد الهجر للمبتدع التي قصدها الشرع كثيرة، منها ما يعود إلى الهاجرين القائمين بهذه الوظيفة الشرعية العقدية، ومنها ما يعود إلى المهجور وإلى عامة المسلمين، وإلى حماية السنن من البدع والأهواء،

=

=

فالهجر الشرعي ومنه (هجر المبتدعة): عقوبة زجرية متعددة الغايات والمقاصد الشرعية المحمودة، وهي على ما يلي:

١- أن (الزجر بالهجر) عقوبة شرعية للمهجور، فهي من جنس الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وأداء لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقربًا إلى الله تعالى بواجب الحب والبغض فيه سبحانه وتعالى.

٢- بعث اليقظة في نفوس المسلمين من الوقوع في هذه البدعة وتحذيرهم.

٣- تحجيم انتشار البدعة.

٤- قمع المبتدع وزجره، ليضعف عن نشر بدعته، فإنه إذا حصلت مقاطعته والنفرة منه بات كالثعلب في جحره.

أما معاشرته ومخالطته، وترك تحسيسه ببدعته: فهذا تزكية له، وتنشيط وتغرير بالعامة، إذ العامي مشتق من العمى، فهو بيد من يقوده غالبًا، فلابد إذًا من الحجر على المبتدع استصلاحًا للديانة وأحوال الجماعة، وهو ألزم من الحجر الصحي لاستصلاح الأبدان.

وبعد أن نقل الشاطبي -رحمه الله تعالى- بعض الآثار في النهي عن توقير المبتدع، قال: (فإن الإيواء يجامع التوقير، ووجه ذلك ظاهر، لأن المشي إليه والتوقير له تعظيمٌ له لأجل بدعته، وقد علمنا أن الشرع يأمر بزجره وإهانته وإذلاله بما هو أشد من هذا، كالضرب والقتل، فصار توقيره صدودًا عن العمل بشرع الإسلام، وإقبالًا على ما يضاده وينافيه، والإسلام لا ينهدم إلا بترك العمل به والعمل بما ينافيه.

وأيضًا فإن توقير صاحب البدعة مظنة لمفسدتين تعودان بالهدم على الإسلام:

أحدهما: التفات العامة والجهال إلى ذلك التوقير، فيعتقدون في المبتدع أنه أفضل الناس، وأن ما هو عليه خير مما عليه غيره، فيؤدي ذلك إلى اتباعه على

=

=

بدعته دون اتباع أهل السنة على سنتهم.

والثانية: أنه إذا وقر من أجل بدعته صار ذلك كالحادي المحرض له على انتشار الابتداع في كل شيء.

وعلى كل حال فتحيا البدع وتموت السنن، وهو هدم الإسلام بعينه. ا.هـ.

٥- إعطاء ضمانة للسنن من شائبة البدع ومداخلتها لصفاء السنن. والله أعلم.

* أنواع الهجر: وهى ثلاثة:

الأول: الهجر ديانة، أي: (الهجر لحق الله تعالى) وهو من عمل أهل التقوى، في: هجر السيئة، وهجر فاعلها، مبتدعًا أو عاصيًا.

وهذا النوع من الهجر للفجار على قسمين:

١- هجر ترك: بمعنى هجر السيئات، وهجر قرناء السوء الذين تضره صحبتهم إلا لحاجة أو مصلحة راجحة.

قال الله تعالى: (والرُّجْزَ فَاهْجُرْ)، وقال سبحانه: (واهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا). وقال تعالى: (وإِذَا رَأَيْتَ الَذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ).

وقال تعالى: (وقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا ويُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ)، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: (المهاجر من هجر ما نهى الله عنه).

٢- هجر تعزير: وهذا من العقوبات الشرعية التبصيرية التي يوقعها المسلم على الفجار كالمبتدع، على وجه التأديب، في دائرة الضوابط الشرعية للهجر، حتى يتوب المبتدع ويفيء.

وهذا القسم هو الذي يدور عليه البحث.

=

=

وهذا النوع بقسميه من أصول الاعتقاد، والأمر فيه أمر إيجاب في أصل الشرع، ومباحثه في كتب السنن والتوحيد والاعتقاد وغيرها.

تنبيه: في هجر الكافر: قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: قال الطبري: قصة كعب بن مالك أصل في هجران أهل المعاصي، وقد استشكل كون هجران الفاسق أو المبتدع مشروعًا ولا يشرع هجران الكافر، وهو أشد جرمًا منهما لكونهم من أهل التوحيد في الجملة.

وأجاب ابن بطال: بأن لله أحكامًا فيها مصالح للعباد وهو أعلم بشأنها وعليهم التسليم لأمره فيها، فجنح إلى أنه تعبد لا يعقل معناه.

وأجاب غيره: بأن الهجران على مرتبتين: الهجران بالقلب، والهجران باللسان، فهجران الكافر بالقلب وبترك التودد والتعاون والتناصر لا سيما إذا كان حربيًا، وإنما لم يشرع هجرانه بالكلام لعدم ارتداعه بذلك عن كفره، بخلاف العاصي المسلم فإنه ينزجر بذلك غالبًا، ويشترك كل من الكافر والعاصي في مشروعية مكالمته بالدعاء إلى الطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما المشروع ترك المكالمة بالموادة ونحوها". ا.هـ.

والظاهر ما قاله النووي -رحمه الله تعالى- من أن للمسلم هجر الكافر من غير تقييد، لما هو معلوم من الأصل الشرعي العام من تحريم موالاة الكفار، والتحذير من موادتهم وتعظيم ما يؤدي إلى ذلك، ونصب الأسباب الموصلة إلى ظهور المسلم عليهم كما في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله -ﷺ- قال: "لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه " رواه أحمد ومسلم وغيرهما. والنصوص في تحريم موالاة الكافرين من الكتاب والسنة وآثار السلف كثيرة مشهورة، والله أعلم.

الثاني: الهجر لاستصلاح أمر دنيوي، أي (الهجر لحق العبد): وفيه جاءت

=

=

أحاديث الهجر بما دون ثلاث ليال، رواها جماعة من الصحابة ﷺ، بأسانيد في الصحيحين وغيرها، وجميعها تفيد أن الشرع لم يرخص بهذا النوع من الهجر بين المسلمين إلا بما دون ثلاث ليال، كما لم يرخص في إحداد غير الزوجة أكثر من ثلاث.

ومن الهجر هنا: هجر الوالد لولده، والزوج لزوجته، وقد هجر النبي ﷺ نساءه شهرا، عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال).

وبعد أن بين الخطابي رحمه الله تعالى: أن ما وراء الثلاث على المنع قال: (فأما هجران الوالد ولده والزوج لزوجه، ومن كان في معناهما فلا يضيق أكثر من ثلاث، وقد هجر رسول الله ﷺ نساءه شهرًا) ا. هـ

وهذا النوع من الهجر من مباحث الرقاق والآداب.

النوع الثالث: الهجر قضاء، وهو من العقوبات التعزيزية للمعتدين، وهذا يبحثه الفقهاء في باب التعزيز.

* المبحث الثالث شروط الهجر:

الهجر الشرعي للفجار من المبتدعين، والفساق (عبادة)، والعبادة لابد من توفر ركنيها: الإخلاص، وهو ميزان الأعمال في باطنها، والمتابعة، وهو ميزان الأعمال في ظاهرها.

فلابد من أن يكون الهجر: خالصًا صوابًا، فالهجر لهوى النفس: ينقض الإخلاص، والهجر على خلاف الأمر: ينقض المتابعة. والله أعلم.

* المبحث الرابع صفات الهجر: الأصل في الهجر هو الإعراض بالكلية عن المبتدع والبراءة منه.

=

=

ومن مفرداته: عدم مجالسته. الابتعاد عن مجاورته. ترك توقيره، ترك مكالمته. ترك السلام عليه. ترك التسمية له. عدم بسط الوجه له مع عدم هجر السلام والكلام. عدم سماع كلامه وقراءتهم. عدم مشاورتهم. وهكذا من الصفات التي يتأدى بها الزجر بالهجر، وتحصل مقاصد الشرع.

* المبحث الخامس منزلة الهجر من الاعتقاد: يؤصل علماء الإسلام (هجر المبتدع ديانة) تحت القاعدة العقدية الكبرى (قاعدة الولاء والبراء) وهذه القاعدة مشتركة لفظا بين أهل السنة والجماعة وحقيقتها لديهم كما علمت، وبين الخوارج (لا ولاء إلا ببراء) أي لا موالاة لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلا بالبراءة من أميري المؤمنين عثمان وعلي رضي الله عنهما وبين الشيعة (لا ولاء إلا ببراء) إي لا ولاء لعلي وآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة رضي الله عنهم ومعتقد أهل السنة والجماعة موالاة جميع الصحابة رضى الله عنهم بتزكية الله لهم.

ولدى أهل السنة والجماعة كذلك (بدعية الولاء والبراء) من وجه: بمعنى أن يتبرأ من قوم هم على دين الإسلام والسنة، ويتولى من ليسوا كذلك، كما ذكره ابن بطة رحمه الله تعالى في: الشرح والإبانة، (ص٣٤١ رقم / ٤٧٢).

ومفهوم هذه القاعدة الشريفة لدى أهل السنة والجماعة هو: الحب والبغض في الله، فهم يوالون أولياء الرحمن، ويعادون أولياء الشيطان، وكلٍ بحسب ما فيه من الخير والشر، وفي حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره المرء أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار) متفق عليه.

وعن أبي إمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من أحب لله، وأبغض لله،

=

=

وأعطى لله، فقد استكمل الإيمان) رواه أبو داود والضياء.

وقال يحيى بن معاذ: (حقيقة الحب في الله أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء).

وهذه القاعدة من مسلمات الاعتقاد في الإسلام، لكثرة النصوص عليها من الكتاب والسنة والأثر.

ومن أولى مقتضياتها - التي يثاب فاعلها ويعاقب تاركها - البراءة من أهل البدع والأهواء، ومعاداتهم، وزجرهم بالهجر ونحوه، على التأبيد حتى يفيئوا، وهذا موفور في عامة كتب اعتقاد أهل السنة والجماعة.

واكتفى بما أصله الإمام أبو إسماعيل الصابوني م سنة ٤٤٩هـ رحمه الله تعالى إذ قال: (ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الديني، ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان قَرّت بالآذان وقرت بالقلوب ضرّت وجرّت إليها من الوساوس والخطرات الفاسدة ما جَرَّت، وفيه أنزل الله ﷻ قوله وإذَا رَأَيْتَ الَذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. ثم ذكر علامات أهل البدع، وعلامات أهل السنة، ثم قال: (واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم وإقصائهم، والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم والتقرب إلى الله ﷻ بمجانبتهم ومهاجرتهم...) ا.هـ.

والعقوبة بالهجر للمبتدع إحدى العقوبات الشرعية التي ينزلها أهل السنة بالمبتدعة، حسب البدع والأهواء التي يتلبسون، بها، ومنها ما تقدمت الإشارة إليه والله أعلم.

* الضوابط الشرعية للهجر هذا بيان (لميزان الشرع في الهجر) وهو من أهم أبحاث هذا الواجب الشرعي، وعليه: فإذا علمنا أن الزجر بالهجر للمبتدع حتى

=

=

يتوب إلى الله تعالى، قد قامت عليه أدلة بخصوصه، وأنه من أولى مفردات قاعدة الشريعة المطردة (الولاء والبراء) أي الحب والبغض في الله تعالى.

وعلمنا أيضًا: أن المقصود بالهجر: زجر المهجور، وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله، إلى آخر مقاصد الإسلام من مشروعية الهجر كما تقدم.

وأن الهجر الشرعي لحق الله تعالى (عبادة) من جنس الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعبادة لا بد من توفر ركنيها: الإخلاص، والمتابعة، أي بأن يكون الهجر (خالصًا صوابًا) خالصًا لله، صوابًا وفق السنة، وأن (هوى النفس) ينقض ركنية (الإخلاص)، كما أن ركن المتابعة ينقضه (عدم موافقة الهجر للمأمور به). إذا تقرر جميع ذلك: فليعلم أن الشرع الشريف يزن الواقعات والأحوال الداخلة تحت قاعدته العامة (الولاء والبراء) بميزان قسط، وقسطاس مستقيم، وسطًا عدلًا بين جانبي الإفراط والتفريط، فلا تزيد عن حدها ولا تنقص عنه، فتلتقي العفوية للمبتدع بالهجر مع مقدار بدعته باعتبارات مختلفة، وما يحف بذلك من أحوال تنزل على قاعدة رعاية المصالح وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها، فنقول إذًا: الأصل في الشرع هو: هجر المبتدع لكن ليس عامًا في كل حال ومن كل إنسان ولكل مبتدع. وترك الهجر والإعراض عنه بالكلية، تفريط على أي حال، وهجر لهذا الواجب الشرعي المعلوم وجوبه بالنص، والإجماع، وأن مشروعية الهجر هي في دائرة ضوابطه الشرعية المبنية على رعاية المصالح ودرء المفاسد، وهذا مما يختلف باختلاف البدعة نفسها واختلاف مبتدعها واختلاف أحوال الهاجرين، واختلاف المكان والقوة والضعف، والقلة والكثرة، وهكذا من وجوه الاختلاف والاعتبار التي يرعاها الشرع وميزانها للمسلم الذي به تنضبط المشروعية هو: مدى تحقق المقاصد الشرعية من الهجر: من الزجر، والتأديب، ورجوع العامة، وتحجيم المبتدع وبدعته وضمان السنة من شائبة

=

=

البدعة.

هذا محصل الضوابط الشرعية للهجر، لكن ليحذر كل مسلم من توظيف (هوى نفسه) وتأمير (حظوظها) على نفسه، فإن هذا هلكة في الحق، وهو شر ممن يترك الهجر عصيانًا لأنه يعصي الله تعالى بترك الهجر الشرعي للمبتدع، وإظهاره ترك الهجر باسم الشرع تحت غطاء وهمي باسم (المصلحة) و (تأليف القلوب) وهكذا، فالتزام الهجر الشرعي للمبتدع بضوابطه الشرعية لاغير. وعلى هذا التأصيل تتنزل كلمات الأئمة كالإمام أحمد وغيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في المسلك الحق في الهجر: (فإن أقوامًا جعلوا ذلك عامًا، فاستعملوا من الهجر والإنكار ما لم يؤمروا به، فلا يجب ولا يستحب، وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرمات. وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية، بل تركوها ترك المعرض لاترك المنتهي الكاره، أو وقعوا فيها، وقد يتركونها ترك المنتهي الكاره، ولا ينهون عنها غيرهم، ولا يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها، فيكونون قد ضيعوا من النهي عن المنكر ما أمروا به إيجابًا أو استحبابًا، فهم بين فعل المنكر أو ترك المنهي عنه، وذلك فعل ما نهوا عنه وترك ما أمروا به، فهذا هذا، ودين الله وسط بين المغالي فيه والجافي عنه، والله سبحانه أعلم). فاعتبار اختلاف مرتبة البدعة من الإثم هو من عدة جهات:

* من جهة كونها كفرًا أو غير كفر: فالمكفرة مثل: البابية، والبهائية، والقاديانية، وغلاة البريلوية.

وغير المكفرة مثل عامة البدع في العبادات حقيقية كانت أو إضافية.

ومن جهة كون صاحبها مستترًا بها أو معلنًا لها ففرق بين المعلن لبدعته الداعي لها، وبين الكاتم لها لأن الداعية، والمعلن لها، أظهرها فاستحق العقوبة بخلاف

=

=

الكاتم فإنه ليس شرًا من المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، هذا وهم في الدرك الأسفل من النار.

* ومن جهة كونها حقيقية أو إضافية: فالبدعة الحقيقية هي: البدعة التعبدية المحدثة استقلالًا كصلاة الرغائب، وليست بدعة إضافية، ومثل القول بالقدر، وصلاة الألفية ليلة النصف من شعبان، وبدعة الموالد، والأعياد الحكومية، وعيد غدير خم لدى الشيعة، وهكذا.

والبدعة الإضافية: هي الأمر المبتدع مضافاً إلى ما هو مشروع أصلًا بزيادة أو نقص، مثاله: الدعاء الجماعي بعد الصلاة، فالدعاء مشروع وجعله جماعيًا بدعة مضافة لم يرد بها النص، وبناء العبادات على التوقيف، وسجود الشكر جماعة، واتخاذ التبليغ خلف الإمام سنة راتبة مع عدم الحاجة إليه، وهكذا.

ومن جهة كونها بينة أو مشكلة، أي كونها ظاهرة المأخذ فهي بدعة متمحضة كبدع المآتم والموالد، وصلاة الرغائب، أو بدعة فيها احتمال لاستشباه مأخذها، مثاله: القنوت في صلاتي العشاء والصبح فإنه كان ثم نسخ وبقي المشروع فيها عند النوازل، وشبهة الخلاف لا تصيره مشروعًا راتبًا.

والحقيقة أن هذا الوجه: صوري لا حقيقي إذ البدع مشكلة المأخذ يلحق بها من الإشاعة والتعصب ما يجعلها بينة، والله أعلم.

* ومن جهة اجتهاده فيها أو كونه مقلدًا: فالمجتهد مفترع للبدعة، فالزيغ أمكن في قلبه من المقلد، وإن كان كل منهما موزورًا لكن أثم من سن سنة سيئة أعظم وزرًا، والله أعلم.

* ومن جهة الإصرار عليها أو عدمه: أما الإصرار عليها فيجعلها من باب: الدعوة إليها فيكون داعية معلنًا لها، وأما عدم الإصرار فهو من باب كونها: فلتة، وزلة عالم، إذا كانت منه ثم لم يعاودها.

=

=

* ويختلف باختلاف حال المبتدع وما فيه من خير وشر: (وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته، هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة...).

وفرق بين عالم تشربت نفسه بالبدع، لكنه لم يختلط بعلماء أهل السنة ولم يتلق عنهم، وبين عالم تلقى عن المبتدعة فنالت منه منالًا، ثم خالط أهل السنة وعلماءهم وجاورهم مدة بمثلها يحصل برد اليقين بل يكون عاشرهم عشرات السنين، ثم هو يبقى على مشاربه البدعية يعملها، ويدعو إليها، ويصر عليها، فهذا قامت عليه الحجة أكثر، واستبانت له المحجة فما أبصر. فهو من أعظم خلق الله فجورًا، وغيضًا على أهل السنة، فالأول في تأليف قلبه وتوددة للرجوع إلى السنة مجال، أما الثاني: فلا والله، بل يتعين هجره، ومنابذته وإبعاده، وإنزال العقوبات الشرعية للمبتدعة عليه، وأن يُهجر ميتًا كما هُجر حيًا فلا يصلي أهل الخير عليه، ولا يشيعون جنازته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في حق بعض العصاة المظهرين لفجورهم: (وأما إذا أظهر الرجل المنكرات، وجب الإنكار عليه علانية، ولم يبق له غيبة، ووجب أن يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره، فلا يسلم عليه، ولا يرد عليه السلام، إذا كان الفاعل لذلك متمكنًا من ذلك من غير مفسدة راجحة.

وينبغي لأهل الخير والدين أن يهجروه ميتًا، كما هجروه حيًا، إذا كان في ذلك كف لأمثاله من المجرمين فيتركون تشييع جنازته، كما ترك النبى ﷺ على غير واحد من

=

=

أهل الجرائم، وكما قيل لسمرة ابن جندب: إن ابنك مات البارحة، فقال: لو مات لم أصل عليه، يعني لأنه أعان على قتل نفسه، فيكون كقاتل نفسه، وقد ترك النبي ﷺ الصلاة على قاتل نفسه. وكذلك هجر الصحابة الثلاثة الذين ظهر ذنبهم في ترك الجهاد الواجب حتى تاب الله عليهم، فإذا أظهر التوبة أظهر له الخير...).

* وفرق في حال المهجور: بين القوي في الدين وبين الضعيف فيه، فإن القوي يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ به الضعيف في الدين كما في قصة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم.

* وكذلك بالنسبة للأماكن: ففرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع، كما كثر القدر بالبصرة، والتنجيم بخراسان، والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك.

وهذا على ما أفتى به الأئمة أحمد وغيره بناء على هذا الأصل: رعاية المصالح الشرعية.

* ويختلف باختلاف الهاجرين أنفسهم في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم.

فإذا كانت الغلبة والظهور لأهل السنة كانت مشروعية هجر المبتدع قائمة على أصلها، وإن كانت القوة والكثرة للمبتدعة - ولا حول ولا قوة إلا بالله - فلا المبتدع ولا غيره يرتدع بالهجر ولا يحصل المقصود الشرعي، لم يشرع الهجر وكان مسلك التأليف، خشية زيادة الشر.

وهذا كحال المشروع مع العدو (القتال تارة، والمهادنة تارة، وأخذ الجزية تارة، كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح).

ومن أهم المهمات هنا: إذا كانت الواجبات لدى أهل السنة مثل: التعليم، والجهاد، والطب، والهندسة، ونحوها متعذر إقامتها إلا بواسطتهم، فإنه يعمل على تحصيل مصلحة الجهاد، ومصلحة التعليم وهكذا، مع الحذر من بدعته، واتقاء الفتنة به وبها ما أمكن، وبقدر الضرورة، فإذا زالت عاد أهل السنة إلى

=

=

الأصل في الهجر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في جوابه المحرر في الهجر المشروع: (.. فإذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب: كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرًا من العكس، ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل).

هذا وإن الناظر في أحوال المبتدعة من وجه ما هم عليه من الشناعات، وإماتة السنن، والنشاط في غير هدى والنصرة لغير حق، وأنهم يفسدون على أهل السنة صفاء الإسلام، رآهم مستحقين لما قاله الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- في أهل الكلام: (حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من أعرض عن الكتاب والسنة وأقبل على الكلام)، وإذا نظرت إلى المبتدعة بعين القدر، والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم رحمتهم، وترفقت بهم، أوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، وأعطوا فهومًا وما أعطوا علومًا، وأعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ولا أَبْصَارُهُمْ ولا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

وختامًا: احذر المبتدع، واحذر بدعته، وأعمل الولاء والبراء معه، وتقرب إلى الله بذلك، وبهجره الهجر الشرعي منزلًا له على قواعد الشريعة وأصولها في رعاية المصالح ودفع المفاسد، وإياك ثم إياك من تأمير الهوى هجرًا أو تركًا. انظر هجر المبتدع للدكتور بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ.

وسئل شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٣): عمن يجب أو يجوز بغضه أو هجره أو كلاهما لله تعالى ؟ وماذا يشترط على الذي يبغضه أو يهجره لله تعالى

=

=

من الشروط ؟ وهل يدخل ترك السلام في الهجران أم لا ؟ وإذا بدأ المهجور الهاجر بالسلام هل يجب الرد عليه أم لا ؟ وهل يستمر البغض والهجران لله ﷻ حتى يتحقق زوال الصفة المذكورة التي أبغضه وهجره عليها ؟ أم يكون لذلك مدة معلومة ؟ فإن كان لها مدة معلومة فما حدها ؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب: الهجر الشرعي نوعان أحدهما بمعنى الترك للمنكرات والثاني بمعنى العقوبة عليها فالأول: هو المذكور في قوله تعالى { وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين }. وقوله تعالى { وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم } فهذا يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة مثل قوم يشربون الخمر يجلس عندهم وقوم دعوا إلى وليمة فيها خمر وزمر لا يجيب دعوتهم وأمثال ذلك. بخلاف من حضر عندهم للإنكار عليهم أو حضر بغير اختياره ولهذا يقال حاضر المنكر كفاعله وفي الحديث { من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر } وهذا الهجر من جنس هجر الإنسان نفسه عن فعل المنكرات كما قال ﷺ { المهاجر من هجر ما نهى الله عنه } ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان فإنه هجر للمقام بين الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به ومن هذا قوله تعالى { والرجز فاهجر } النوع الثاني الهجر على وجه التأديب وهو هجر من يظهر المنكرات يهجر حتى يتوب منها كما { هجر النبي ﷺ والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم } حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر ولم يهجر من أظهر الخير وإن كان منافقا فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير والتعزير يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات كتارك

=

=

الصلاة والزكاة والتظاهر بالمظالم والفواحش والداعي إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع وهذا حقيقة قول من قال من السلف والأئمة إن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم ولا يصلى خلفهم ولا يؤخذ عنهم العلم ولا يناكحون فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا ؛ ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية ؛ لأن الداعية أظهر المنكرات فاستحق العقوبة بخلاف الكاتم فإنه ليس شرا من المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله مع علمه بحال كثير منهم ولهذا جاء في الحديث { أن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة } وذلك لأن النبي ﷺ قال { إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه } فالمنكرات الظاهرة يجب إنكارها ؛ بخلاف الباطنة فإن عقوبتها على صاحبها خاصة وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله. فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعا وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك بل يزيد الشر والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر ؛ بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قوما ويهجر آخرين كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيرا من أكثر المؤلفة قلوبهم لما كان أولئك كانوا سادة مطاعين في عشائرهم فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم وهؤلاء كانوا مؤمنين والمؤمنون سواهم كثير فكان في هجرهم عز الدين وتطهيرهم من ذنوبهم وهذا كما أن المشروع في العدو القتال تارة والمهادنة تارة وأخذ الجزية تارة كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح. وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل

=

=

ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع كما كثر القدر في البصرة والتنجيم بخراسان والتشيع بالكوفة وبين ما ليس كذلك ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه وإذا عرف هذا فالهجرة الشرعية هي من الأعمال التي أمر الله بها ورسوله فالطاعة لا بد أن تكون خالصة لله وأن تكون موافقة لأمره فتكون خالصة لله صوابا. فمن هجر لهوى نفسه أو هجر هجرا غير مأمور به كان خارجا عن هذا. وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانة أنها تفعله طاعة لله والهجر لأجل حظ الإنسان لا يجوز أكثر من ثلاث كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: { لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ؛ يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام } فلم يرخص في هذا الهجر أكثر من ثلاث كما لم يرخص في إحداد غير الزوجة أكثر من ثلاث. وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال { تفتح أبواب الجنة كل اثنين وخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا ؛ إلا رجلا كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا } فهذا الهجر لحق الإنسان حرام وإنما رخص في بعضه كما رخص للزوج أن يهجر امرأته في المضجع إذا نشزت وكما رخص في هجر الثلاث. فينبغي أن يفرق بين الهجر لحق الله وبين الهجر لحق نفسه.

فالأول مأمور به والثاني منهي عنه ؛ لأن المؤمنين إخوة وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح { لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم } وقال ﷺ في الحديث الذي في السنن { ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين }. وقال في الحديث الصحيح { مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذ اشتكى منه

=

=

عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر } .

وهذا لأن الهجر من باب العقوبات الشرعية فهو من جنس الجهاد في سبيل الله وهذا يفعل لأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله والمؤمن عليه أن يعادي في الله ويوالي في الله فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه ؛ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية قال تعالى { وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين } إنما المؤمنون إخوة فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي والأمر بالإصلاح بينهم. فليتدبر المؤمن الفرق بين هذين النوعين فما أكثر ما يلتبس أحدهما بالآخر وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك ؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعادات والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة فيجتمع له من هذا وهذا كاللص الفقير تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم عليه فلم يجعلوا الناس لا مستحقا للثواب فقط ولا مستحقا للعقاب فقط وأهل السنة يقولون إن الله يعذب بالنار من أهل الكبائر من يعذبه ثم يخرجهم منها بشفاعة من يأذن له في الشفاعة بفضل رحمته كما استفاضت بذلك السنة عن النبي ﷺ والله سبحانه وتعالى أعلم وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

=

=

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: فصل: في مسائل إسحاق بن منصور - وذكره الخلال في " كتاب السنة " في باب مجانبة من قال القرآن مخلوق - عن إسحاق أنه قال لأبي عبد الله: من قال: القرآن مخلوق ؟ قال: ألحق به كل بلية. قلت: فيظهر العداوة لهم أم يداريهم ؟ قال: أهل خراسان لا يقوون بهم. وهذا الجواب منه مع قوله في القدرية: لو تركنا الرواية عن القدرية لتركناها عن أكثر أهل البصرة ومع ما كان يعاملهم به في المحنة: من الدفع بالتي هي أحسن ومخاطبتهم بالحجج يفسر ما في كلامه وأفعاله من هجرهم والنهي عن مجالستهم ومكالمتهم حتى هجر في زمن غير ما أعيان من الأكابر وأمر بهجرهم لنوع ما من التجهم فإن الهجرة نوع من أنواع التعزير والعقوبة نوع من أنواع الهجرة التي هي ترك السيئات. فإن النبي ﷺ قال: { المهاجر من هجر السيئات } وقال: { من هجر ما نهى الله عنه } فهذا هجرة التقوى. وفي هجرة التعزير والجهاد: هجرة الثلاثة الذين خلفوا وأمر المسلمين بهجرهم حتى تيب عليهم. فالهجرة تارة تكون من نوع التقوى إذا كانت هجرا للسيئات. كما قال تعالى: { وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين } { وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون } فبين سبحانه أن المتقين خلاف الظالمين وأن المأمورين بهجران مجالس الخوض في آيات الله هم المتقون. وتارة تكون من نوع الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود وهو عقوبة من اعتدى وكان ظالما. وعقوبة الظالم وتعزيره مشروط بالقدرة ؛ فلهذا اختلف حكم الشرع في نوعي الهجرتين: بين القادر والعاجز وبين قلة نوع الظالم المبتدع وكثرته وقوته وضعفه كما يختلف الحكم بذلك في سائر أنواع الظلم من الكفر والفسوق والعصيان. فإن كلما حرمه الله فهو ظلم ؛ إما في حق الله فقط وإما في حق عباده وإما فيهما. وما أمر به من هجر الترك

=

=

والانتهاء وهجر العقوبة والتعزير إنما هو إذا لم يكن فيه مصلحة دينية راجحة على فعله وإلا فإذا كان في السيئة حسنة راجحة لم تكن سيئة وإذا كان في العقوبة مفسدة راجحة على الجريمة لم تكن حسنة ؛ بل تكون سيئة ؛ وإن كانت مكافئة لم تكن حسنة ولا سيئة فالهجران قد يكون مقصوده ترك سيئة البدعة التي هي ظلم وذنب وإثم وفساد وقد يكون مقصوده فعل حسنة الجهاد والنهي عن المنكر وعقوبة الظالمين لينزجروا ويرتدعوا. وليقوى الإيمان والعمل الصالح عند أهله. فإن عقوبة الظالم تمنع النفوس عن ظلمه وتحضها على فعل ضد ظلمه: من الإيمان والسنة ونحو ذلك. فإذا لم يكن في هجرانه انزجار أحد ولا انتهاء أحد ؛ بل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم تكن هجرة مأمورا بها كما ذكره أحمد عن أهل خراسان إذ ذاك: أنهم لم يكونوا يقوون بالجهمية. فإذا عجزوا عن إظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة وكان مداراتهم فيه دفع الضرر عن المؤمن الضعيف ولعله أن يكون فيه تأليف الفاجر القوي. وكذلك لما كثر القدر في أهل البصرة فلو ترك رواية الحديث عنهم لا ندرس العلم والسنن والآثار المحفوظة فيهم. فإذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب: كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرا من العكس. ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل وكثير من أجوبة الإمام أحمد وغيره من الأئمة خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله أو خرج خطابا لمعين قد علم حاله فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول ﷺ إنما يثبت حكمها في نظيرها. فإن أقواما جعلوا ذلك عاما فاستعملوا من الهجر والإنكار ما لم يؤمروا به فلا يجب ولا يستحب وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرمات. وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية ؛ بل تركوها ترك المعرض ؛ لا

=

=

ترك المنتهي الكاره أو وقعوا فيها وقد يتركونها ترك المنتهي الكاره ولا ينهون عنها غيرهم ولا يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها فيكونون قد ضيعوا من النهي عن المنكر ما أمروا به إيجابا أو استحبابا فهم بين فعل المنكر أو ترك النهي عنه وذلك فعل ما نهوا عنه وترك ما أمروا به. فهذا هذا. ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه. والله سبحانه أعلم ا.هـ

وقال العلامة ابن باز كما في فتاوى إسلامية (٤ / ٥٢٠) وقد سئل عن الموقف ممن يفعل بعض الكبائر: من يتهم بهذه المعاصي تجب نصيحته وتحذيره منها ومن عواقبها السيئة، وأنها من أسباب مرض القلوب وقسوتها وموتها، أما من أظهرها وجاهر بها فالواجب أن يقام عليه حدها، وأن يرفع أمره إلى ولاة الأمور، ولا تجوز صحبتهم، ولا مجالستهم، بل يجب هجرهم لعل الله يهديهم ويمن عليهم بالتوبة ، إلا أن يكون الهجر يزيدهم شرا فالواجب الإنكار عليهم دائما بالأسلوب الحسن والنصائح المستمرة حتى يهديهم الله، ولا يجوز اتخاذهم أصحابا، بل يجب أن يستمر في الإنكار عليهم وتحذيرهم من أعمالهم القبيحة ا.هـ

وقال العلامة العثيمين في الشرح الممتع (١٢/ ٣٢٢): قوله: «يحرم هجره»، أفادنا أن من المسلمين من لا يحرم هجره؛ وذلك أن الهجر ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: من يجب هجره، وذلك كصاحب البدعة الداعي إلى بدعته، إذا لم ينته إلا بالهجر، فإنه يجب علينا أن نهجره وجوبا؛ لأن في الهجر فائدة، وهو ترك الدعوة إلى البدعة، فإذا وجدنا شخصا يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن، أو إلى أن الله ـ تعالى ـ في كل مكان وجب علينا أن نهجره، فلا نسلم عليه، ولا نرد عليه السلام، ولا نجيب دعوته، ولا نتحدث إليه حديث الصديق؛ لأن هجره هنا فيه مصلحة، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أمر بهجر من فعل محرما، كما في قصة كعب

=

=

وصاحبيه ﷺ، وفاعل المحرم أهون ممن يدعو إلى البدعة؛ لأن البدعة تستمر بالدعوة إليها، وفاعل المحرم فعله وانتهى.

القسم الثاني: من هجره سنة، وهو هجر فاعل المعصية التي دون البدعة، إذا كان في هجره مصلحة، كهجر إنسان يحلق لحيته، فإذا رأينا شخصا قد أصر على ذلك، وكان في هجره مصلحة، وهو الرجوع إلى حظيرة السنة، فالهجر هنا سنة حتى يرجع، وكذلك يقال في شارب الدخان، والموظف في جهات ربوية، ولا نقول: إنه واجب؛ لأننا لا نتحقق به ترك المحرم، فلو تحققنا به ترك المحرم لكان الهجر واجبا.

إذا هنا الهجر سنة بشرط المصلحة، فإن لم يكن في هجره مصلحة فإنه لا يهجر؛ لأن الأصل أن هجر المؤمن حرام لقوله ﷺ: «لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة»، فإن لم يكن مصلحة صار الهجر حراما، إذ لا يحصل منه إلا عكس ما نريد، وأما ما يفعله بعض الإخوة المستقيمين الغيورين على دينهم من هجر أهل المعاصي مطلقا فغلط، ومخالف للسنة، لقول النبي ﷺ: «لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة»، وفاعل المعصية أخ لك مهما فعل من الكبائر، إلا إذا كفر، وعلى هذا فلا يجوز هجر أهل المعاصي إلا لوجود المصلحة.

القسم الثالث: هجر مباح وهو ما يحصل بين الإنسان وأخيه بسبب سوء تفاهم، وهو مقيد بثلاثة أيام فأقل.

والقول الراجح أن الهجر لا يجب، ولا يسن، ولا يباح إلا حيث تحققت المصلحة، فإذا كان هناك مصلحة هجرنا وإلا فلا؛ لأن الهجر إما دواء وإما تعزير، فإن كان من أجل معصية مستمرة فهو دواء، وإن كان من أجل معصية مضت وانتهت فهو تعزير، فيحرم أن يهجر أخاه المؤمن ما لم يصل إلى الكفر، والدليل على ذلك عمومات الأدلة الدالة على حقوق المسلم على المسلم، والمؤمن لا

=

=

يخرج من الإيمان بمجرد الفسوق والعصيان عند أهل السنة والجماعة، ولذلك الأصل تحريم هجر المؤمنين، ولو فعلوا المعصية وتجاهروا بها؛ لأنهم مؤمنون، وقد قال النبي ﷺ: «وحق المسلم على المسلم ست، ومنها: إذا لقيته فسلم عليه»، فقال: حق المسلم، ولم يقل: حق المؤمن؛ لأن الإسلام أوسع من الإيمان، لكن إذا كان في الهجر مصلحة فإنه إما أن يسن، وإما أن يجب، حسب ما تقتضيه المصلحة، وحسب عظم الذنب، فإذا كان هذا الرجل الحالق للحية إذا هجرناه ارتدع، وصار يمشي بين الناس غريبا، لا يسلم عليه، ولا يرد سلامه، فيخجل ويعفي لحيته، كان هجره سنة أو واجبا؛ لأن هجره مفيد، أما إذا كان هذا الرجل إذا هجرناه ازداد شره، ونفر من أخيه المؤمن، وحصلت الوحشة بينهما، فلا يسن الهجر هنا، بل لا ينبغي، والمسبل لثيابه مجاهر بالمعصية، والذي يبدو لنا أنه أعظم من حلق اللحية؛ لأنه متوعد عليه، فهو من كبائر الذنوب، وأعظم من شرب الدخان، مع أن شرب الدخان الآن أكثر من حلق اللحية والإسبال.

المهم أن المذهب يقسمون الهجر إلى ثلاثة أقسام: واجب، وسنة، ومباح، ولكن الصحيح عندنا أنه لا ينقسم إلى هذه الأقسام، وأن الأصل في الهجر التحريم، إلا إذا كان فيه مصلحة.

هذا بالنسبة لمن كان مسلما، أما غير المسلمين فلا يبدؤون بالسلام، سواء كانوا غير منتسبين للإسلام، كأن يصرحوا بأنهم نصارى، أو يهود، أو وثنيون، أو كانوا منتسبين للإسلام لكن بدعتهم تخرجهم من الإسلام؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول في أهل الكتاب: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه»، لكن إن سلم علينا نرد عليه، فإن قال: السلام عليكم، قلنا: وعليكم السلام، وإن قال: السام عليكم، قلنا: وعليكم.

ففي المسألة ثلاثة احتمالات:

=

=

إن سلم سلاما صريحا، رددنا سلاما صريحا، وإن قال: السام عليكم، قلنا: وعليكم، كما قال النبي ﷺ، وإن قال: السام عليكم، وأدغمه نقول: وعليكم ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاوه (٣/ ١٥): عن الموالاة والمعاداة؟ وعن حكم هجر المسلم؟

فأجاب: إن الموالاة والمعاداة يجب أن تكون لله ﷻ، فإن من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فقد سلك الطريق التي بها تنال ولاية الله ﷻ، أما من كانت ولايته ومعاداته وحبه وبغضه للهوى، أو للتقليد الأعمى، فقد حرم خيرا كثيرا، وربما يقع في أمر كبير، فقد يعادي وليا من أولياء الله ﷻ، فيكون حربا لله تعالى، كما في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: من عادى لي وليا فقد آذنته في الحرب»" الحديث.

وربما يحب ويوالي عدوا من أولياء الله ﷻ، فيقع في أمر كبير وخطر عظيم كما قال الله تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم}.

وقال: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم}.

وهجر المسلم في الأصل حرام، بل من كبائر الذنوب إذا زاد على ثلاثة أيام، فقد صح عن النبي - أنه قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». متفق عليه، وروى أبو داود والنسائي بإسناده قال المنذري: إنه على شرط البخاري وسلم: «فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار».

=

=

ومن المعلوم أن المسلم لا يخرج عن الإسلام بالمعاصي وإن عظمت، ما لم تكن كفرا، وعلى هذا فلا يحل هجر أصحاب المعاصي، إلا أن يكون في هجرهم مصلحة بإقلاعهم عنها، وردع غيرهم عنها؛ لأن المسلم العاصي ولو كانت معصيته كبيرة أخ لك؛ فيدخل في قوله -: لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث... " ومن الأدلة على أن العاصي أخ للمطيع، وإن عظمت معصيته قوله تعالى فيمن قتل مؤمنا عمدا: {فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان}. فجعل الله القاتل عمدا أخا للمقتول، مع أن القتل -قتل المؤمن عمدا- من أعظم الكبائر، وقوله تعالى في الطائفتين المقتتلتين من المؤمنين: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما}. إلى قوله: {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم}. فلم يخرج الله الطائفتين المقتتلتين من الإيمان، ولا من الأخوة الإيمانية.

فإن كان في الهجر مصلحة، أو زوال مفسدة، بحيث يكون رادعا لغير العاصي عن المعصية أو موجبا، لإقلاع العاصي عن معصيته كان الهجر حينئذ جائزا، بل مطلوبا طلبا لازما، أو مرغبا فيه، حسب عظم المعصية التي هجر من أجلها، ودليل ذلك قصة كعب بن مالك وصاحبيه ﭫ وهم الثلاثة الذين خلفوا؛ فقد أمر النبي ﷺ بهجرهم، ونهى عن تكليمهم، فاجتنبهم الناس، حتى إن كعبا -رضي الله عنه-دخل على ابن عمه أبي قتادة -رضي الله عنه- وهو أحب الناس إليه، فسلم عليه فلم يرد ﷺ، فصار بهذا الهجر من المصلحة العظيمة لهؤلاء الثلاثة من الرجوع إلى الله -ﷻ-، والتوبة النصوح والابتلاء العظيم، ولغيرهم من المسلمين ما ترجحت به مصلحة الهجر على مصلحة الوصل.

أما اليوم، فإن كثيرا من أهل المعاصي لا يزيدهم الهجر إلا مكابرة وتماديا في معصيتهم، ونفورا وتنفيرا عن أهل العلم والإيمان؛ فلا يكون في هجرهم فائدة لهم

=

=

ولا لغيرهم.

وعلى هذا فنقول: إن الهجر دواء يستعمل حيث كان فيه الشفاء، وأما إذا لم يكن فيه شفاء أو كان فيه إشفاء، وهو الهلاك فلا يستعمل.

فأحوال الهجر ثلاث:

إما أن تترجح مصلحته فيكون مطلوبا.

وإما أن تترجح مفسدته فينهى عنه بلا شك.

وإما أن لا يترجح هذا ولا هذا، فالأقرب النهي عنه؛ لعموم قول النبي، ﷺ: «لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة».

أما الكفار المرتدون فيجب هجرهم والبعد عنهم، وأن لا يجالسوا ولا يواكلوا، إذا قام الإنسان بنصحهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى الإسلام فأبوا، وذلك لأن المرتد لا يقر على ردته، بل يدعى إلى الرجوع إلى ما خرج منه، فإن أبى وجب قتله، وإذا قتل على ردته، فإنه لا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين، وإنما يرمى بثيابه، ورجس دمه في حفرة بعيدا عن المقابر الإسلامية في مكان غير مملوك.

وأما الكفار غير المرتدين فلهم حق القرابة إن كانوا من ذوي القربى، كما قال تعالى: {وآت ذا القربى حقه} ، وقال في الأبوين الكافرين المشركين: {وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي} ا.هـ

وقال العلامة صالح الفوزان - حفظه الله - في المنتقى (١ / ٢٧٣ ، ٢٧٤): هجر المؤمن لا يجوز فوق ثلاثة أيام إذا كان على أمر من أمور الدنيا ، بل عليه أن يصالح أخاه وأن يسلم عليه إذا لقيه ، ومع أنه لا ينبغي ابتداءا أن يهجر على أمر من أمور الدنيا ، ولكن لو حصل شيء من الهجر: فإنه لا يتجاوز ثلاثة أيام ، وهذا هو

=

=

المراد بالحديث: (لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث) يعني: إذا كان الهجر على أمر من أمور الدنيا، أما إذا كان الهجر لأجل معصية ارتكبها ذلك المهجور، وكانت هذه المعصية من كبائر الذنوب، ولم يتركها: فإنه يجب مناصحته وتخويفه بالله ﷻ، وإذا لم يمتنع عن فعل المعصية ولم يتب فإنه يهجر؛ لأن في الهجر تعزيرا له وردعا له لعله يتوب؛ إلا إذا كان في هجره محذور؛ بأن يخشى أن يزيد في المعصية وأن يترتب على الهجر مفسدة أكبر؛ فإنه لا يجوز هجره في هذه الحالة؛ فهجر العاصي إنما يجوز إذا كان من ورائه مصلحة ولا يترتب عليه مضرة أكبر.

المسألة الثانية: كيفية التعامل مع كتب أهل البدع.

لقد حذّر رسول الله ﷺ من قراءة كتب أهل الكتاب مع أنها قد لا تخلو من حق، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه (أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فغضب، وقال: "أمتهوكون يا ابن الخطاب؟! والذي نفسي بيده؛ لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده؛ لو أنّ موسى عليه السلام كان حيًا ما وسعه إلا أن يتّبعني)

قال الإمام ابن خزيمة كما في الاستقامة (١/ ١٠٨) لما سئل عن الكلام في الأسماء والصفات فقال: بدعة ابتدعوها، لم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين، مثل مالك، وسفيان، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، ويحيى بن يحيى، وابن المبارك، ومحمد بن يحيى، وأبي حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأبي يوسف: يتكلمون في ذلك، وينهون عن الخوض فيه، ويدلّون أصحابهم على الكتاب والسنّة، فإياك والخوض فيه والنظر في كتبهم بحال ا.هـ

وقال الإمام مالك كما في جامع بيان العلم (٢/ ٩٤٢): لا تجوز الإجارات في شيء

=

=

من كتب الأهواء والبدع والتنجيم ا.هـ

وقال الإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل كما في العلل ومعرفة الرجال (١/ ٢٥٣-٢٥٤): سمعت أبي يقول: سلام بن أبي مطيع من الثقات، حدثنا عنه ابن مهدي، ثم قال أبي: كان أبو عوانة وضع كتابًا فيه معايب أصحاب رسول الله ﷺ وفيه بلايا، فجاء سلام بن أبي مطيع فقال: يا أبا عوانة، أعطني ذاك الكتاب فأعطاه، فأخذه سلام فأحرقه. قال أبي: وكان سلام من أصحاب أيوب وكان رجلًا صالحًا ا.هـ

وعن الفضل بن زياد كما في السنّة للخلال (٣/ ٥١١) أن رجلًا سأله عن فعل سلام بن أبي مطيع، فقال لأبي عبد الله: أرجو أن لا يضرّه ذاك شيئًا إن شاء الله؟ فقال أبو عبد الله: يضره!! بل يؤجر عليه إن شاء الله ا.هـ

وقال الفضل بن زياد كما في المعرفة والتاريخ للفسوي (٣/ ٤٩٤): سألت أبا عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - عن الكرابيسي وما أظهره؟ فكلح وجهه ثم قال: إنما جاء بلاؤهم من هذه الكتب التي وضعوها تركوا آثار رسول الله ﷺ وأصحابه، وأقبلوا على هذه الكتب ا.هـ

وقال المروذي كما فيهداية الأريب (ص٣٨): قلت لأبي عبد الله: استعرت كتابًا فيه أشياء رديئة، ترى أن أخرقه أو أحرقه؟ قال: نعم. قال المروذي: قال أبو عبد الله: يضعون البدع في كتبهم، إنما أحذر منها أشد التحذير ا.هـ

وقال الإمام أحمد -أيضًا- كما في السير (١١/ ٢٣١): إياكم أن تكتبوا عن أحد من أصحاب الأهواء قليلًا ولا كثيرًا، عليكم بأصحاب الآثار والسنن ا.هـ

وفي السنّة للخلال (٣/ ٥١١): عن حرب بن إسماعيل قال سألت إسحاق بن راهوية، قلت: رجل سرق كتابًا من رجل فيه رأي جهم أو رأي القدر؟ قال: يرمي به. قلت: إنّه أخذ قبل أن يحرقه أو يرمي به هل عليه قطع؟ قال: لا قطع عليه، قلت لإسحاق: رجل عنده كتاب فيه رأي الإرجاء أو القدر أو بدعة فاستعرته منه فلما

=

=

صار في يدي أحرقته أو مزقته؟ قال: ليس عليك شيء ا.هـ

وقال أبو محمد ابن أبي حاتم كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنّة للالكائي (١/ ١٩٧-٢٠٢): وسمعت أبي وأبا زرعة: يأمران بهجران أهل الزيغ والبدع، يغلظان في ذلك أشد التغليظ، وينكران وضع الكتب برأي في غير آثار، وينهيان عن مجالسة أهل الكلام والنظر في كتب المتكلمين، ويقولان لا يفلح صاحب كلام أبدًا ا.هـ

وقال أيضًا كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٨٠): ووجدت في كتب أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ مما سمع منه يقول: مذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم بإحسان، وترك النظر في موضع بدعهم والتمسك بمذهب أهل الأثر وترك رأي الملبّسين المموهين المزخرفين الممخرقين الكذابين وترك النظر في كتب الكرابيسي ومجانبة من يناضل عنه من أصحابه ا.هـ

وقال نعيم بن حماد كما في الميزان (١/ ٦١): أنفقت على كتبه - يعني إبراهيم بن أبي يحيى - خمسة دنانير ثم أخرج إلينا يومًا كتابًا فيه القدر وكتابًا فيه رأي جهم، فقرأته فعرفت، فقلت: هذا رأيُك؟! قال: نعم. فحرقتُ بعض كتبه فطرحتها ا.هـ

وقد عقد الإمام أبو نصر عبيد الله بن سعيد السِّجزي في رسالته إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص٢٣١-٢٣٤) فصلًا في ذلك فقال: الفصل الحادي عشر في الحذر من الركون إلى كل أحد، والأخذ من كل كتاب؛ لأن التلبيس قد كثر والكذب على المذاهب قد انتشر، اعلموا رحمنا وإياكم الله سبحانه، أن هذا الفصل من أولى هذه الفصول بالضبط لعموم البلاء، وما يدخل على الناس بإهماله، وذلك أن أحوال أهل الزمان قد اضطربت، والمعتمد فيهم قد عز، ومن يبيع دينه بعرض يسير، أو تحببًا إلى من يراه قد كثر، والكذب على

=

=

المذاهب قد انتشر فالواجب على كل مسلم يحب الخلاص أن لا يركن إلى كل أحد ولا يعتمد على كل كتاب، ولا يسلّم عنانه إلى من أظهر له الموافقة فمن رام النجاة من هؤلاء، والسلامة من الأهواء فليكن ميزانه الكتاب، والأثر في كل ما يسمع ويرى؛ فإن كان عالمًا بهما عرضه عليهما واتباعه للسلف ولا يقبل من أحد قولًا إلا طالبه على صحته بآية محكمة، أو سنة ثابتة، أو قول صحابي من طريق صحيح وليحذر تصانيف من تغير حالهم فإن فيها العقارب وربما تعذّر التياق ا.هـ

وقال الحافظ أبو عثمان سعيد بن عمرو البردعي كما في كتاب الضعفاء لأبي زرعة ضمن كتاب أبو زرعة الرازي وجهوده في السنة النبوية (٢/ ٥٦١-٥٦٢): شهدت أبا زرعة وقد سئل عن الحارث المحاسبي وكتبه فقال للسائل: إياك وهذه الكتب هذه كتب بدع وضلالات عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب

قيل له: في هذه الكتب عبرة فقال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمين صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟! هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع ا.هـ

قال الذهبي في الميزان (١/ ٤٣١)معلقًا: وأين مثل الحارث؟ فكيف لو رأى أبو زرعة تصانيف المتأخرين كالقوت لأبي طالب، وأين مثل القوت ! كيف لو رأى بهجة الأسرار لابن جهضم، وحقائق التفسير للسلمي لطار لُبُّه، كيف لو رأى تصانيف أبي حامد الطوسي في ذلك على كثرة ما في الإحياء من الموضوعات؟!. كيف لو رأى الغنية للشيخ عبد القادر ! كيف لو رأى فصوص الحكم والفتوحات المكية؟!. بلى لما كان الحارث لسان القوم في ذلك العصر كان معاصره ألف إمام في الحديث، فيهم مثل أحمد بن حنبل وابن راهويه، ولما صار أئمة الحديث مثل

=

=

ابن الدخميس، وابن شحانة كان قطب العارفين كصاحب الفصوص وابن سفيان. نسأل الله العفو والمسامحة آمين ا.هـ

وقال الشيخ ربيع بن هادي المدخلي - حفظه الله في منهج أهل السنة والجماعة في نقد الرجال والكتب والطوائف (ص:١٣٥-١٣٦) بعد نقله لكلام الذهبي السابق: "أقول: رحم الله الإمام الذهبي؛ كيف لو رأى مثل الطبقات للشعراني، وجواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض أبي العباس التيجاني لعلي ابن حرازم الفاسي؟! كيف لو رأى خزينة الأسرار لمحمد حقي النازلي؟! كيف لو رأى نور الأبصار للشلنبجي؟! كيف لو رأى شواهد الحق في جواز الاستغاثة بسيد الخلق وجامع الكرامات للنبهاني؟! كيف لو رأى تبليغي نصاب وأمثاله من مؤلفات أصحاب الطرق الصوفية؟! كيف لو رأى مؤلفات غزالي هذا العصر وهي تهاجم السنّة النبويّة وتسخر من حملتها والمتمسكين بها من الشباب السلفي وتقذفهم بأشنع التهم وأفظع الألقاب؟! كيف لو رأى مؤلفات المودودي وما فيها من انحراف عقدي وعقلي وسلوكي؟! كيف لو رأى مؤلفات القرضاوي وهي تدافع عن أهل البدع وتنتصر لها، بل تشرح أصولها، والذي ينحى منحى غزالي هذا العصر، بل هو أخطر؟! كيف لو رأى دعاة زماننا وقد أقبلوا على هذه الكتب المنحرفة، وهم يُسيّرون شبابهم وأتباعهم على مناهج الفرق المنحرفة الضالّة، بل وينافحون عنها وعن قادتها المبتدعين؟! كيف لو رأى مصنفات الكوثري وتلاميذه أبي غدّة وإخوانه من كبار متعصبي الصوفيّة والمذهبية؟! كيف لو رأى مصنفات البوطي وأمثاله من خصوم السنّة وخصوم مدرسة التوحيد ومدرسة ابن تيميّة؟! كيف لو رأى شباب الأمة بل شباب التوحيد وقد جهلوا منهج السلف بل جهلوا الكتاب والسنّة وأقبلوا على هذه الكتب المهلكة؟! ا.هـ

وقال ابن قدامة في لمعة الاعتقاد (ص٣٣): ومن السنة هجران أهل البدع

=

=

ومباينتهم وترك الجدال والخصومات في الدين، وترك النظر في كتب المبتدعة، والإصغاء إلى كلامهم،وكل محدثة في الدين بدعة ا.هـ

وقال أيضًا كما في تحريم النظر في كتب الكلام (ص٤١) في أثناء ردّه على ابن عقيل: أما هو وحزبه من أهل الكلام، فما ذكرهم إلا ذمّهم والتحذير منهم، والتنفير من مجالستهم، والأمر بمباينتهم وهجرانهم، وترك النظر في كتبهم ا.هـ

وقال العلامة ابن مفلح في كتابه الآداب الشرعية (١/ ٢٣٢): وذكر الشيخ موفق الدين رَحِمَهُ اللَّهُ في المنع من النظر في كتب المبتدعة، قال: كان السلف ينهون عن مجالسة أهل البدع، والنظر في كتبهم والاستماع لكلامهم ا.هـ

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٣٦): ومن هذا الباب سماع كلام أهل البدع، والنظر في كتبهم لمن يضره ذلك ويدعوه إلى سبيلهم وإلى معصية الله ا.هـ

وقال الشيخ محمد خليل هراس في شرحه لنونيّة ابن القيم (١/ ٣٦٠-٣٦١) معلقًا على هذه الأبيات: "ولا يظنن أحد أننا نتجنى على القوم أو نتهمهم بغير الحق، فتلك كتبهم تخبر عنهم كل من ينظر فيها وتشهد عليهم شهادة صدق، فليقرأها من شاء ليتأكد من صحة ما نسبناه إليهم، لكنا مع ذلك ننصح كل أحد أن لا يقرأ هذه الكتب حتى لا يقع في حبائلها ويغرّه ما فيها من تزويق المنطق وتنميق الأفكار، لا سيما إذا لم يكن ممن رسخ في علوم الكتاب والسنة قدمه ولا تمكن منهما فهمه، فهذا لا يلبث أن يقع أسير شباكها، تبكيه نائحة الدوح على غصنها، وهو يجتهد في طلب الخلاص فلا يستطيع، والذنب ذنبه هو، حيث ترك أطيب الثمرات على أغصانها العالية حلوة المجتنى طيبة المأكل، وهبط إلى المزابل وأمكنة القذارة يتقمّم الفضلات كما تفعل الديدان والحشرات، وما أروع تشبيه الشيخ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حال من وقع أسير هذه الكتب وما فيها من ضلالات مزوقة قد

=

=

فتن بها لُبُّه وتأثر بها عقله، بحال طير في قفص قد أحكم غلقه فهو يضرب بجناحيه طالبًا للخلاص منه فلا يجد فرجة ينفذ منها لضيق ما بين العيدان من فرج، وما أجمل أيضًا تشبيهه لعقائد الكتاب والسنة بثمرات شهية كريمة المذاق على أغصان عالية، بحيث لا يصل إليها فساد ولا يلحقها تلوث، وتشبيهه لعقائد هؤلاء الزائغين بفضلات قذرة وأطعمة عفنة ألقيت في أحدى المزابل، فلا يأوي إليها إلا أصحاب العقول القذرة والفطرة المنتكسة ا.هـ

وقال الذهبي في السير (١٩/ ٣٢٨-٣٢٩) بعد أن ذكر بعض كتب أهل الضلال كرسائل إخوان الصفا وأمثالها: فالحذارِ الحذارِ من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شُبَه الأوائل، وإلا وقعتم في الحيرة، فمن رام النجاة والفوز فليلزم العبودية، وليدمن الاستغاثة بالله، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام وأن يتوفى على إيمان الصحابة، وسادة التابعين، والله الموفق ا.هـ

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن كما في الدرر السنية (٣/ ٢٠٩-٢١٠) في أثناء كلامه على الأشاعرة: فصنف المتأخرون من هؤلاء على مذهبهم الفاسد مصنفات، كالأرجوزة التي يسمونها: جوهرة التوحيد؛ وهي إلحاد وتعطيل، لا يجوز النظر إليها، ولهم مصنفات أخر نفوا فيها علو الرب تعالى، وأكثر صفات كماله نفوها، ونفوا حكمة الرب تعالى ا.هـ

وقال صديق حسن خان في قطف الثمر في عقيدة أهل الأثر(ص١٥٧): ومن السنة هجران أهل البدع ومباينتهم وترك الجدال والخصومات في الدين والسنة، وكل محدثة في الدين بدعة، وترك النظر في كتب المبتدعة والإصغاء إلى كلامهم في أصول الدين وفروعه، كالرافضة والخوارج والجهمية والقدرية والمرجئة والكراميّة والمعتزلة، فهذه فرق الضلالة وطرائق البدع ا.هـ

وسئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ كما في شريط بعنوان رياض

=

=

الصالحين عن مقولة سيد قطب في كتابه كتب وشخصيات (ص٢٤٢): (إن معاوية وزميله عمرًا لم يغلبا عليًا لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب، ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع، وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم، لا يملك علي أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل. فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح).

فأجاب العلامة ابن باز بقوله: "كلام قبيح هذا، كلام قبيح لسبّه معاوية وسبه عمرو بن العاص، كل هذا كلام قبيح، وكلام منكر ومعاوية وعمرو مجتهدون أخطئوا، مجتهدون أخطئوا. والله يعفو عنهم".

فقال سائل له: أحسن الله إليك، ما ينهى عن هذه الكتب التي فيها هذا الكلام؟

فقال: "ينبغي أن تمزق " ا.هـ

وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٥/ ٨٩-٩٠): ومن هجران أهل البدع ترك النظر في كتبهم خوفًا من الفتنة بها، أو ترويجها بين الناس، فالابتعاد عن مواطن الضلال واجب؛ لقوله ﷺ في الدجّال (من سمع بالدجال فلينأ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات أو لما يبعث به من الشبهات) لكن إذا كان الغرض من النظر في كتبهم معرفة بدعتهم للرد عليها فلا بأس بذلك لمن كان عنده من العقيدة الصحيحة ما يتحصن به، وكان قادرًا على الرد عليهم، بل ربما كان واجبًا؛ لأن رد البدعة واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ا.هـ

وسئل الدكتور صالح الفوزان حفظه الله كما الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة (ص٧٠): ما هو القول الحق في قراءة كتب المبتدعة، وسماع أشرطتهم؟

=

=

فأجاب: لا يجوز قراءة كتب المبتدعة ولا سماع أشرطتهم إلا لمن يريد أن يرد عليهم ويبين ضلالهم ا.هـ

فهكذا كان أهل السنة يعاملون أهل البدع ومؤلفاتهم، فقف حيث وقفوا فإنه يسعك ما وسعهم، ومن لم يسعه ما وسع رسول الله - ﷺ - ووسع السلف والأئمة بعده فلا وسّع الله عليه، ومن لم يكتف بما اكتفوا به ويرضى بما رضوا به ويسلك سبيلهم؛ فهو من حزب الشيطان و{ إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير } ومن لم يرض الصراط المستقيم سلك إلى صراط الجحيم، ومن سلك غير طريق سلفه أفضت به إلى تلفه، ومن مال عن السنّة فقد انحرف عن طريق الجنّة، فاتقوا الله تعالى وخافوا على أنفسكم، فإن الأمر صعب، وما بعد الجنّة إلا النار وما بعد الحق إلا الضلال، ولا بعد السنّة إلا البدعة.

أضف إلى ذلك أن السلف قالوا بوجوب إتلاف كتب أهل البدع وإفسادها كما قال شيخ الإسلام ابن القيم في الطرق الحكميّة (ص٢٣٣-٢٣٥): وكذلك لا ضمان في تحريق الكتب المضلة وإتلافها، قال المرّوذي: قلت لأحمد: استعرت كتابًا فيه أشياء رديئة ترى أني أخرقه أو أحرقه؟ قال: نعم، وقد رأى النبي ﷺ بيدي عمر كتابًا اكتتبه من التوراة وأعجبه موافقته للقرآن، فتمعّر وجه النبي ﷺ حتى ذهب به عمر إلى التنور فألقاه فيه فكيف لو رأى النبي ﷺ ما صنف بعده من الكتب التي يعارض بعضها ما في القرآن والسنة؟ والله المستعان وكل هذه الكتب المتضمنة لمخالفة السنة غير مأذون فيها بل مأذون في محقها وإتلافها وما على الأمة أضر منها... إلى أن قال: والمقصود: أن هذه الكتب المشتملة على الكذب والبدعة، يجب إتلافها وإعدامها، وهي أولى بذلك من إتلاف آنية الخمر؛ فإن ضررها أعظم من ضرر هذه، ولا ضمان فيها، كما لاضمان في كسر أواني الخمر وشق زقاقها ا.هـ

=

=

وقال ابن القيم أيضًا في زاد المعاد (٣ / ٥٨١) عند قول كعب بن مالك: "فتيممت بالصحيفة التنور: "فيه المبادرة إلى إتلاف ما يخشى منه الفساد والمضرة في الدين، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره، وهذا كالعصير إذا تخمّر، وكالكتاب الذي يخشى منه الضرر والشرّ، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه ا.هـ

ونقل تقي الدين الفاسي في كتابه العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٢/ ١٧٦-١٧٧) عن الشيخ شرف الدين عيسى الزواوي المالكي ما نصه: ويجب على ولي الأمر إذا سمع بمثل هذا التصنيف -أي مؤلفات ابن عربي كالفصوص والفتوحات المكيّة- البحث عنه وجمع نسخه حيث وجدها وإحراقها، وأدّب من اتهم بهذا المذهب أو نسب إليه أو عرف به، على قدر قوّة التهمة عليه، إذا لم يثبت عليه، حتى يعرفه الناس ويحذروه، والله ولي الهداية بمنّه وفضله ا.هـ

ونقل أيضًا في العقد الثمين (٢/ ١٨٠-١٨١) عن الشيخ أبي يزيد عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون المالكي، مانصه: وأما حكم هذه الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلّة، وما يوجد من نُسخها بأيدي الناس مثل الفصوص، والفتوحات لابن عربي، والبُدّ لابن سبعين، وخلع النعلين لابن قسي، وعين اليقين لابن بَرَّجان، وما أجدر الكثير من شعر ابن الفارض، والعفيف التلمساني، وأمثالهما، أن تُلحق بهذه الكتب، وكذا شرح ابن الفرغاني للقصيدة التائية من نظم ابن الفارض، فالحكم في هذه الكتب كلها وأمثالها، إذهاب أعيانها متى وُجدت بالتحريق بالنار والغسل بالماء، حتى ينمحي أثر الكتابة، لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين، بمحو العقائد المضِلّة.... ثم قال: فيتعيّن على ولي الأمر، إحراق هذه الكتب دفعًا للمفسدة العامة، ويتعيّن على من كانت عنده التمكين منها للإحراق، وإلا فينزعها وليّ الأمر، ويؤدبه على معارضته على منعها؛ لأن ولي الأمر لا يعارض في المصالح العامة ا.هـ

=

=

وقال السخاوي في الجواهر والدرر (٢/ ٦٣٧-٦٣٨) في ترجمة شيخه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن الاتفاقيات الدالة على شدة غضبه لله ولرسوله: أنهم وجدوا في زمن الأشرف برسباي شخصًا من أتباع الشيخ نسيم الدين التبريزي وشيخ الخروفية المقتول على الزندقة سنة عشرين وثمانمائة ومعه كتاب فيه اعتقادات منكرةٌ فأحضروه، فأحرق صاحب الترجمة الكتاب الذي معه، وأراد تأديبه، فحلف أنه لا يعرف ما فيه، وأنّه وجده مع شخص، فظنّ أنّ فيه شيئًا من الرقائق، فأُطلق بعد أن تبرّأ مما في الكتاب المذكور، وتشهّد والتزم أحكام الإسلام ا.هـ

وقد أحرق علي بن يوسف بن تاشفين كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، وكان ذلك بإجماع الفقهاء الذين كانوا عنده. كما في المعيار المعرب (١٢/ ١٨٥).

ومن المواقف تجاه أهل البدع التي تسطر بماء الذهب ما حصل من الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم -رَحِمَهُ اللَّهُ- من تعزيره لعبدالله الخنيزي مؤلف كتاب (أبو طالب مؤمن قريش) وأصدر فيه حكمًا حازمًا، حتى أعلن الخنيزي توبته وكتبها، وإليك نص القرار الذي اتخذه الشيخ ابن إبراهيم كما فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١٢/ ١٨٧-١٨٩): من محمد بن إبراهيم إلى المكرم مدير شرطة الرياض سلمه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فبالإشارة إلى المعاملة الواردة منكم برقم ٩٤٤ وتأريخ ١٠/ ١١/ ١٣٨١ المتعلقة بمحاكمة عبدالله الخنيزي، فإنه جرى الاطلاع على المعاملة الأساسية ووجدنا بها الصك الصادر من القضاة الثلاثة المقتضي إدانته، والمتضمن تقريرهم عليه، يعزر بأمور أربعة:

(أولًا): مصادرة نسخ الكتاب وإحراقها، كما صرّح العلماء بذلك في حكم كتب المبتدعة.

=

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠).

{وَذَرْ} اُتْرُكْ {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينهمْ} الَّذِي كُلِّفُوهُ {لَعِبًا وَلَهْوًا} بِاسْتِهْزَائِهِمْ بِهِ {وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاة الدُّنْيَا} فَلَا تَتَعَرَّض لَهُمْ وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْقِتَالِ {وذكر} عظ {به} بالقرآن الناس ل {أَنْ} لَا {تُبْسَل نَفْس} تَسْلَم إلَى الْهَلَاك {بما كسبت} عملت {ليس لهما مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {وَلِيّ} نَاصِر {وَلَا شَفِيع} يَمْنَع عَنْهَا

=

(ثانيًا): تعزير جامع الكتاب بسجنه سنة كاملة، وضربه كل شهرين عشرين جلدة في السوق مدّة السنة المشار إليها بحضور مندوب من هيئة الأمر بالمعروف مع مندوب الإمارة والمحكمة.

(ثالثًا): استتابته؛ فإذا تاب وأعلن توبته وكتب كتابة ضد ما كتبه في كتابه المذكور ونشرت في الصحف وتمت مدّة سجنه خلي سبيله بعد ذلك، ولا يطلق سراحه وإن تمت مدّة سجنه ما لم يقم بما ذكرنا في هذه المادة.

(رابعًا): فصله من عمله، وعدم توظيفه في جميع الوظائف الحكومية، لأن هذا من التعزير.

هذا ما يتعلق بالتعزير الذي قررته اللجنة، وبعد استكماله يبقى موضوع التوبة يجرى فيه ما يلزم إن شاء الله. والسلام عليكم ا.هـ

وإنصافًا لعبدالله الخنيزي فإنه قد تاب مما خطته يداه في كتابه المذكور وأعلن توبته وكتبها، وهي مدونة بعد القرار المذكور. انظر كتاب إجماع العلماء على الهجر والتحذير من أهل الأهواء.

الْعَذَاب {وَإِنْ تَعْدِل كُلّ عَدْل} تَفْدِ كُلّ فِدَاء {لَا يُؤْخَذ مِنْهَا} مَا تَفْدِي بِهِ {أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَاب مِنْ حَمِيم} مَاء بَالِغ نِهَايَة الْحَرَارَة {وَعَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم {بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} بكفرهم(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا} [الأنعام: ٧٠]، أي:" واترك -أيها الرسول- هؤلاء المشركين الذين جعلوا دين الإسلام لعبًا ولهوًا؛ مستهزئين بآيات الله تعالى، دعهم وأعرض عنهم ، وأمهلهم قليلًا ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم".

قال الطبري:" وذكّر بالقرآن هؤلاء الذين يخوضون في آياتنا وغيرهم ممن سلك سبيلهم من المشركين".

قال ابن كثير:" أي: دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلا فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم؛ ولهذا قال: {وَذَكِّرْ بِهِ} أي: وذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة".

قال البغوي:" يعني: الكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزءوا بها وتلاعبوا عند ذكرها، وقيل: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيدا فاتخذ كل قوم دينهم -أي: عيدهم -لعبا ولهوا، وعيد المسلمين الصلاة والتكبير وفعل الخير مثل الجمعة والفطر والنحر".

قال الزمخشري:" معنى «ذرهم»: اعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم".

عن قتادة: {اتخذوا دينهم لعبا ولهوا} قال: أكلا وشربا".

عن مجاهد قال:"كل لعب لهو".

قال الفراء:" يقال: ليس من قوم إلا ولهم عيد فهم يلهون في أعيادهم، إلا أمة محمد ﷺ فإن أعيادهم بر وصلاة وتكبير وخير".

=

=

وقد اختلف المفسرون في معنى اتخاذ الكفار دينهم لهوًا ولعبًا على أقوال منها:

أولًا: أنهم اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو الإسلام لعبًا ولهوًا حيث سخروا به واستهزؤوا به، إذًا المراد بكونهم جعلوا دينهم لهوًا ولعبًا سخروا بالإسلام واستهزؤوا به، فإذا دعاهم الداعي إلى الإسلام سخروا به وهزءوا به، وهذا موجود في كل زمان ومكان، وهذا كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ} [المائدة: ٥٧، ٥٨].

ثانيًا: أنهم اتخذوا ما هو لهوٌ ولعبٌ من عبادة الأصنام وغيرها دينًا لهم وتركوا دين الحق وهو الإسلام.

والأول أقرب من هذا لكنه هذا غير مستبعد، بمعنى أن اتخاذ الدين لهوًا ولعبًا أن يعبد الأصنام، ولذلك قد يتخذوا الصنم من تمر وعجين ثم إذا جاع أكله، هذا لَعِب كيف أنت تعبده من دون الله ﷻ وتستغيث به وتستفتح به الأمور ويكشف لك الضر ويجلب لك النفع ويدفع عنك الضر ثم بعد ذلك تأكله؟ هذا لعب ولهو.

ثالثًا: أن الكفار كانوا يحكمون في دين الله بمجرد التشهي والتمني وما تزينه لهم شياطينهم ونفوسهم من تحليل حرام، أو تحريم حلال، أو تعبد بما لم يشرعه الله، وهذا له أمثلة كثيرة وذكرها في الشرح هناك.

رابعًا: وهو أن المراد به الإشارة إلى من يتوصل بدينه إلى دنياه، يعني: يجعل الدين وسيلة إلى تحصيل الدنيا، وهذا اختلاف تنوع لا تضاد وتشترك في أمر واحد وهو: عدم الاهتمام بأمر الدين.

قوله تعالى: {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الأنعام: ٧٠]، أي:" وخدعتهم هذه الحياة

=

=

الفانية بزينتها".

قال الربيع بن أنس: "غرهم ما كانوا يفترون".

قال الرازي: "اعلم أن هؤلاء هم المذكورون بقوله (الذين يَخُوضُونَ فِي ءاياتنا) ومعنى (ذَرْهُمْ) أعرض عنهم وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه تعالى قال بعده (وَذَكّرْ بِهِ) ونظيره قوله تعالى (أُولَئِكَ الذين يَعْلَمُ الله مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) والمراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم ولا يترك إنذارهم وتخويفهم".

قوله تعالى: {وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} [الأنعام: ٧٠]، أي:" وذكّر بالقرآن الناس مخالفة أن تُسْلم نفسٌ للهلاك وتُرهن بسوء عملها".

قال ابن كثير:" أي: لئلا تبسل".

قال الماوردي:" قيل: معناه: أن لا تبسل، كما قال تعالى: {يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا} [النساء: ١٧٦] بمعنى: أن لا تضلوا".

قال الطبري: أي:" كيلا تُبسل نفس بذنوبها وكفرها بربها، وترتهن فتغلق بما كسبت من إجرامها في عذاب الله".

قال البغوي:" أي: وعظ بالقرآن، {أن تبسل} أي: لأن لا تبسل، أي: لا تسلم، {نفس} للهلاك، {بما كسبت}".

قال السمعاني: أي:" وذكر به، لأن لا تسلم نفس للهلاك بعملها".

قال ابن عطية:" معنى الآية: وذكر بالقرآن والدين وادع إليه لئلا تبسل نفس التارك للإيمان بما كسبت من الكفر وآثرته من رفض الإسلام".

قال الزمخشري: أي:" وذكر به أى بالقرآن {أن تبسل نفس}، مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسها".

وفي قوله: {أَن تُبْسَلَ} [الأنعام: ٧٠]، ستة أوجه:

أحدها: أن تسلم، قاله الحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، والسدي. وهو مروي عن

=

=

ابن عباس في رواية الضحاك.

والثاني: أن تُحْبَس، قاله قتادة.

والثالث: أن تُفْضح، قاله ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة.

والرابع: أن تُؤْخَذ بما كسبت، قاله ابن زيد. وهذا قريب من قول قتادة، أي: "الحبس".

والخامس: أن تُجْزَى، قاله الكلبي.

والسادس: أن تُرْتَهن، قاله الفراء ، من قولهم: أسد باسل، لأن فريسته مُرْتَهَنَة معه لا تَفْلِت منه، ومنه قول عوف بن الأحوص الكلابي:

وَإِبْسَالِي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ بَعَوْنَاهُ وَلا بِدَمٍ مُرَاقِ

وقوله: «بعوناه» أي: جنيناه، وقال الشنفرى:

هُنَالِكَ لا أَرْجُو حَيَاةً تَسُرُّنِي سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبْسَلا بِالْجَرَائِرِ

قال ابن كثير:" وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كما قال: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [المدثر: ٣٨، ٣٩]".

وقال بعض أهل العلم: وأصل «الإبسال»: التحريم، من قولهم: شراب بَسْل، اي: حرام، والعرب تقول: هذا عليك بسل أي حرام ، قال الشاعر:

بَكَرت تَلُومُكَ بَعْدَ وَهْنٍ فِي النَّدى بسلٌ عليكِ مَلامَتِي وَعِتَابي

أي: حرام عليك ملامتي وعتابي.

قال ابن عطية:" وهذا بعيد".

قوله تعالى: {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ} [الأنعام: ٧٠]، أي:" ليس لها غير الله ناصر ينصرها، فينقذها من عذاب، ولا شافع يشفع لها عنده".

=

=

قال ابن كثير:" أي: لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كما قال: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٥٤]".

قال الطبري:" يقول: ليس لها، حين تسلم بذنوبها فترتهن بما كسبت من آثامها، أحدٌ ينصرها فينقذها من الله الذي جازاها بذنوبها جزاءها، {ولا شفيع}، يشفع لها، لوسيلة له عنده".

قال السعدي:" أي: قبل أن تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا} [الأنعام: ٧٠]، أي:" وإن تَفْتَدِ بأي فداء لا يُقْبَل منها".

قال قتادة:" لو جاءت بملء الأرض ذهبًا لم يقبل منها".

قال السدي:" فما يعدلها لو جاءت بملء الأرض ذهبًا لتفتدي به ما قُبل منها".

قال ابن زيد:" {وإن تعدل}: وإن تفتد، يكون له الدنيا وما فيها يفتدي بها " {لا يؤخذ منه}، عدلا عن نفسه، لا يقبل منه".

وقال أبو عبيدة: أي:" إن تقسط كل قسط لا يقبل منها. لأنّما التوبة فى الحياة".

قال الطبري: معناه:" وإن تعدل النفس التي أبسلت بما كسبت، كل فداء، لا يقبل منها، وقد تأوّل ذلك بعض أهل العلم بالعربية بمعنى: وإن تُقسط كل قسط لا يقبل منها. وقال: إنها التوبة في الحياة، وليس لما قال من ذلك معنى، وذلك أن كل تائب في الدنيا فإن الله تعالى ذكره يقبل توبته".

قال ابن كثير:" أي: ولو بذلت كلّ مبذول ما قبل منها كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران: ٩١]".

قال البغوي:" أي: [إن] تفد كل فداء، {لا يؤخذ منها}".

=

=

قال السعدي:" أي: تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهبا {لا يؤخذ منها} أي: لا يقبل ولا يفيد".

قال القرطبي:" العدل: الفدية".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا} [الأنعام: ٧٠]، أي:" أولئك الذين ارتُهِنوا بذنوبهم".

قال البغوي: أي:" أسلموا للهلاك".

قال السعدي:" {أولئك} الموصوفون بما ذكر {الذين أبسلوا} أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك {بما كسبوا}".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين إن فدوا أنفسهم من عذاب الله يوم القيامة كل فداء لم يؤخذ منهم، هم أسلموا لعذاب الله، فرهنوا به جزاءً بما كسبوا في الدنيا من الآثام والأوزار".

عن السدي: "{أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا}، قال يقال: أسلموا".

عن ابن عباس: {أولئك الذين أبسلوا}، قال: فُضحوا".

عن ابن زيد: {أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا}، قال: أخذوا بما كسبوا".

قوله تعالى: {لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [الأنعام: ٧٠]، أي:" لهم في النار شراب شديد الحرارة وعذاب موجع؛ بسبب كفرهم بالله تعالى ورسوله محمَّد ﷺ وبدين الإسلام".

قال السمرقندي:" {شراب من حميم}، يعني: ماء حار قد انتهى حره".

قال السعدي:"، أي: ماء حار قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم".

قال الطبري:" وإنما جعل تعالى ذكره لهؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية شرابًا من حميم، لأن الحارّ من الماء لا يروي من عطش. فأخبر أنهم إذا عطشوا في جهنم لم يغاثوا بماء يرويهم، ولكن بما يزيدون به عطشًا على ما بهم من العطش

=

قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا

=

{وعذاب أليم}، يقول: ولهم أيضًا مع الشراب الحميم من الله العذابُ الأليم والهوان المقيم {بما كانوا يكفرون}، يقول: بما كان من كفرهم في الدنيا بالله، وإنكارهم توحيده، وعبادتهم معه آلهة دونه".

قال القرطبي:" «الحميم»: الماء الحار، وفي التنزيل: {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيم} [الحج: ١٩] الآية".

و «الحميم»: هو الحارّ، في كلام العرب، وإنما هو: محموم، صرف إلى: فعيل، ومنه قيل للحمّام، حمام، لإسخانه الجسم، ومنه قول مرقش:

فِي كُلِّ مُمْسًى لَهَا مِقْطَرَةٌ فِيهَا كِبَاءٌ مُعَدٌّ وَحَمِيمْ

يعني بذلك: ماء حارًّا، ومنه قول أبي ذويب الهذلي في صفة فرس:

تَأْبَى بِدِرَّتِهَا إِذَا مَا اسْتُضْغِبَتْ إلا الْحَمِيمَ فَإِنَّهُ يَتَبَضَّعُ

يعني بالحميم: عرق الفرس.

وفي نسخ قوله تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا} [الأنعام: ٧٠] قولان:

أحدهما: أنه اقتضى المسامحة لهم والإعراض عنهم ثم نسخ بآية السيف: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}، [سورة التوبة: ٥]، وهذا مذهب قتادة، والسدي، واختيار الطبري.

والثاني: أنه خرج مخرج التهديد: كقوله تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}، [المدثر: ١١]، فعلى هذا هو محكم، وهذا مذهب مجاهد، وهو اختيار النحاس، ومكي بن أبي طالب، وابن الجوزي.

اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١).

{قل أندعوا} أَنَعْبُدُ {مِنْ دُون الله مَا لَا يَنْفَعنَا} بِعِبَادَتِهِ {وَلَا يَضُرّنَا} بِتَرْكِهَا وَهُوَ الْأَصْنَام {وَنُرَدّ عَلَى أَعْقَابنَا} نَرْجِع مُشْرِكِينَ {بَعْد إِذْ هَدَانَا الله} إِلَى الْإِسْلَام {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ} أَضَلَّتْهُ {الشَّيَاطِين فِي الْأَرْض حَيْرَان} مُتَحَيِّرًا لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَب حَال مِنْ الْهَاء {لَهُ أَصْحَاب} رُفْقَة {يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى} أَيْ لِيُهْدُوهُ الطَّرِيق يَقُولُونَ لَهُ {ائْتِنَا} فَلَا يُجِيبهُمْ فَيَهْلَك وَالِاسْتِفْهَام لِلْإِنْكَارِ وَجُمْلَة التَّشْبِيه حَال مِنْ ضَمِير نُرَدّ {قُلْ إِنَّ هُدَى الله} الَّذِي هُوَ الْإِسْلَام {هُوَ الْهُدَى} وَمَا عَدَاهُ ضَلَال {وَأُمِرْنَا لِنُسْلِم} أَيْ بأن نسلم {لرب العالمين}.

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢).

{وَأَنْ} أَيْ بِأَنْ {أَقِيمُوا الصَّلَاة وَاتَّقُوهُ} تَعَالَى {وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} تُجْمَعُونَ يَوْم الْقِيَامَة للحساب[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا} [الأنعام: ٧١]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أنعبد من دون الله تعالى أوثانًا لا تنفع ولا تضر؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ".

قال السدي:"هذه الآلهة".

عن مجاهد في قوله:" {ما لا ينفعنا ولا يضرنا}، قال: الأوثان".

قال البغوي:" {ما لا ينفعنا} إن عبدناه، {ولا يضرنا} إن تركناه، يعني: الأصنام ليس إليها نفع ولا ضر".

قال الزمخشري: يعني:" قل أندعوا أنعبد من دون الله الضار النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا".

=

=

قال الطبري:" وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره نبيه ﷺ على حجته على مشركي قومه من عبدة الأوثان. يقول له تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ والأنداد، والآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعو من دون الله حجرًا أو خشبًا لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت، إن كنتم تعقلون فتميزون بين الخير والشر؟ فلا شك أنكم تعلمون أن خدمة ما يرتجى نفعه ويرهب ضره، أحق وأولى من خدمة من لا يرجى نفعه ولا يخشى ضره!".

قال القرطبي: "قوله تعالى (قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُنَا) أي ما لا ينفعنا إن دعوناه ، (وَلاَ يَضُرُّنَا) إن تركناه؛ يريد الأصنام".

قوله تعالى: {وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ} [الأنعام: ٧١]، أي:" ونرجع إلى الكفر بعد هداية الله تعالى لنا إلى الإسلام".

قال الطبري:" يقول: ونرد إلى أدبارنا، فنرجع القهقري خلفنا، لم نظفر بحاجتنا، بعد إذ هدانا الله، فوفقنا له".

قال أبو عبيدة:" يقال: ردّ فلان على عقيبيه، أي: رجع ولم يظفر بما طلب ولم يصب شيئا".

قال البغوي:"أي: إلى الشرك مرتدين".

قال الزمخشري: أي:" راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام".

قال السعدي:" أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم. فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد".

قال الآلوسي: "والتعبير عن الرجوع إلى الشرك بالرد على الأعقاب كما قال شيخ الإسلام لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم في القبح مع ما فيه من الإشارة

=

=

إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر".

قوله تعالى: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ} [الأنعام: ٧١]، أي:" أي فيكون مثلنا كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقته في هوّة سحيقة، فَضَلَّ في الأرض متحيرًا لا يدري أين يذهب".

قال قتادة:" أضلته في الأرض حيران".

قال مجاهد:"رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق، فذلك مثل من يضلّ بعد إذ هدي".

وعن مجاهد أيضا:" هذا مثل ضربه الله للكافر، يقول: الكافر حيران، يدعوه المسلم إلى الهدى فلا يجيب".

قال القرطبي:" أي: استغوته وزينت له هواه ودعته إليه. يقال: هوى يهوي إلى الشيء أسرع إليه".

قال الثعلبي: {اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ} " أي: أضلته".

قال أبو عبيدة:" وهو: الحيران الذي يشبّه له الشياطين فيتبعها حتى يهوى فى الأرض فيضلّ".

قال الزمخشري: أي:" كالذي ذهبت به مردة الجن والغيلان في الأرض المهمه حيران تائها ضالا عن الجادة لا يدرى كيف يصنع".

قال البغوي:" أي: يكون مثلنا كمثل الذي استهوته الشياطين، أي: أضلته، و «الحيران»: المتردد في الأمر، لا يهتدي إلى مخرج منه".

قال السعدي:" أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه له الموصل إلى مقصده. فبقي {حَيْرَان}".

قال الطبري:" فيكون مثلنا في ذلك مثل الرجل الذي استتبعه الشيطان، يهوي في الأرض، و «حيران»، فإنه: «فعلان»، من قول القائل: قد حار فلان في الطريق، فهو

=

=
يَحَار فيه حَيرة وحَيَرَانًا وَحيرُورة، وذلك إذ ضل فلم يهتد للمحجَّة".
وقال الزجاج: {الذي استهوته الشياطين في الأرض}،" أي: كالذي زينت له الشياطين هواه في حال حيرته".
قال السدي:" فيكون مثلنا كمثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد الإيمان، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، فضلّ الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض".
عن ابن عباس:" قوله: {كالذي استهوته الشياطين في الأرض}، وهم «الغيلان»، يدعونه باسمه واسم أبيه واسم جده، فيتبعها، فيرى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في الهلكة، وربما أكلته أو تلقيه في مضلّة من الأرض يهلك فيها عطشًا. فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله ﷻ".
قوله تعالى: {لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا} [الأنعام: ٧١]، أي:" وله رفقة عقلاء مؤمنون يدعونه إلى الطريق الصحيح الذي هم عليه فيأبى ولا يستجيب لهم".
قال السدي:" وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم، يقولون: ائتنا، فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعكم بعد المعرفة بمحمد، ومحمد الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام".
قال الزمخشري:" أى: لهذا المستهوى أصحاب رفقة يدعونه إلى الهدى إلى أن يهدوه الطريق المستوى. أو سمى الطريق المستقيم بالهدى، يقولون له ائتنا وقد اعتسف المهمه تابعا للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم. وهذا مبنى على ما تزعمه العرب وتعتقده: أن الجن تستهوى الإنسان، والغيلان تستولى عليه، كقوله: {الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسّ} [البقرة: ٢٧٥]، فشبه الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم".
=

=

قال الطبري:" يقول: لهذا الحيران الذي قد استهوته الشياطين في الأرض، أصحابٌ على المحجة واستقامة السبيل، يدعونه إلى المحجة لطريق الهدى الذي هم عليه، يقولون له: ائتنا، وهذا مثل ضربه الله تعالى ذكره لمن كفَر بالله بعد إيمانه، فاتبع الشياطين، من أهل الشرك بالله وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه، المقيمون على الدين الحق، يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم به متمسكون، وهو له مفارق وعنه زائل، يقولون له:"ائتنا فكن معنا على استقامة وهدى"! وهو يأبى ذلك، ويتبع دواعي الشيطان، ويعبد الآلهة والأوثان".

قال البغوي:" هذا مثل ضربه الله تعالى لمن يدعو إلى الآلهة ولمن يدعو إلى الله تعالى، كمثل رجل في رفقة ضل به الغول عن الطريق يدعوه أصحابه من أهل الرفقة هلم إلى الطريق، ويدعوه الغول: هلم، فيبقى حيران لا يدري أين يذهب، فإن أجاب الغول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الطريق اهتدى".

قال السعدي:" والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعين حائرا وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي متعارضة، دواعي الرسالة والعقل الصحيح، والفطرة المستقيمة {يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى} والصعود إلى أعلى عليين. ودواعي الشيطان، ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلى الضلال، والنزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع داعي الهدى، في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك. ومنهم من يتساوى لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع، تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة".

قال الزجاج: قيل في التفسير يعنى بهذا عبد الرحمن بن أبي بكر، {ائتنا} أي: تابعنا

=

=

في إيماننا".

عن ابن عباس قوله:" {أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا}، قال: هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعونَ إلى الله، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهًا ضالا إذ ناداه مناد: يا فلان بن فلان، هلمّ إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه: يا فلان، هلم إلى الطريق! فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان. يقول: مثل من يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة والندامة".

وروي عن عن ابن عباس أيضا قوله:" {كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى}، فهو الرجل الذي لا يستجيب لهدى الله، وهو رجل أطاعَ الشيطان، وعمل في الأرض بالمعصية، وحار عن الحقّ وضل عنه، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى، ويزعمون أن الذي يأمرونه هدًى. يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس: إن الهدى هدى الله، والضلالة ما تدعو إليه الجنّ".

قال الطبري:" فكأنّ ابن عباس -على هذه الرواية- يرى أن أصحاب هذا الحيران الذين يدعونه إنما يدعونه إلى الضلال، ويزعمون أنّ ذلك هدى، وأنّ الله أكذبهم بقوله: {قل إنّ هدى الله هو الهدى}، لا ما يدعوه إليه أصحابه.

وهذا تأويل له وجه، لو لم يكن الله سمى الذي دعا الحيرانَ إليه أصحابه"هدى"، وكان الخبر بذلك عن أصحابه الدعاة له إلى ما دعوه إليه: أنهم هم الذين سموه، ولكن الله سماه: «هدى»، وأخبر عن أصحاب الحيران أنهم يدعونه إليه. وغير جائز أن يسمي الله"الضلال" هدى، لأن ذلك كذب، وغير جائز وصف الله بالكذب، لأن ذلك وصفه بما ليس من صفته. وإنما كان يجوز توجيه ذلك إلى

=

=

الصواب، لو كان ذلك خبراً من الله عن الداعي الحيران أنهم قالوا له: تعال إلى الهدى، فأما وهو قائل: {يدعونه إلى الهدى}، فغير جائز أن يكون ذلك، وهم كانوا يدعونه إلى الضلال".

وذكر عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى بَيِّنًا».

وإذا قرئ ذلك كذلك، كان «البين» من صفة: {الهدى}، ويكون نصب «البين» على القطع من {الهدى}، كأنه قيل: يدعونه إلى الهدى البين، ثم نصب «البين» لما حذفت «الألف واللام»، وصار نكرة من صفة المعرفة، وهذه القراءة التي ذكرناها عن ابن مسعود تؤيد قول من قال:"الهدى" في هذا الموضع، هو الهدى على الحقيقة.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى} [الأنعام: ٧١]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إنَّ هدى الله الذي بعثني به هو الهدى الحق".

قال الزمخشري:" {هدى الله}: وهو الإسلام، هو الهدى وحده وما وراءه ضلال وغى، ومن يبتغ غير الإسلام دينا. فماذا بعد الحق إلا الضلال".

قال البغوي:" يزجر عن عبادة الأصنام، كأنه يقول: لا تفعل ذلك فإن الهدى هدى الله، لا هدى غيره".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، القائلين لأصحابك: {اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم}، فإنا على هدى: ليس الأمر كما زعمتم، {إن هدى الله هو الهدى}، يقول: إن طريق الله الذي بينه لنا وأوضحه، وسبيلنا الذي أمرنا بلزومه، ودينه الذي شرعه لنا فبينه، هو الهدى والاستقامة التي لا شك فيها، لا عبادة الأوثان والأصنامالتي لا تضر ولا تنفع، فلا نترك الحق ونتبع الباطل".

قال السعدي:" أي: ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما

=

=

عداه، فهو ضلال وردى وهلاك".

قوله تعالى: {وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٧١]، أي:" وأُمِرنا جميعًا لنسلم لله تعالى رب العالمين بعبادته وحده لا شريك له فهو رب كل شيء ومالكه".

قال الطبري:" يقول: وأمرَنا ربنا وربّ كل شيء تعالى وجهه، لنسلم له، لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وقيل: وأمرنا كي نسلم، وأن نسلم لرب العالمين".

قال البغوي:" أي: أن نسلم، {لرب العالمين}، والعرب تقول: أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل".

قال السعدي: أي:" بأن ننقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم".

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى اللام في لنسلم؟ قلت: هي تعليل للأمر، بمعنى: أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم".

عن قتادة قوله: {قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا}، حتى بلغ: {لنسلم لرب العالمين}، علمها الله محمدًا وأصحابه، يخاصمون بها أهلَ الضلالة".

قوله {لرب العالمين} قال بعض العلماء: واعلم أن تربيته تعالى مخالفة لتربية غيره ، وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى يربي عبيده لا لغرض نفسه ، وغيره يربون لغرض أنفسهم لا لغرض غيرهم.

الثاني: أن غيره إذا ربى فبقدر تلك التربية يظهر النقصان في خزائنه وفي ماله وهو متعال عن النقصان والضرر ، كما قال تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا

=

=

نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ).

الثالث: أن غيره من المحسنين إذا ألح الفقير عليه أبغضه وحرمه ومنعه ، والحق تعالى بخلاف ذلك ، كما قال ﷺ: (إن الله تعالى يحب الملحين في الدعاء).

الرابع: أن غيره من المحسنين ما لم يطلب منه الإحسان لم يعط ، أما الحق تعالى فإنه يعطي قبل السؤال ، ألا ترى أنه رباك حال كنت جنينًا في رحم الأم ، وحال ما كنت جاهلًا غير عاقل ، لا تحسن أن تسأل منه ، ووقاك وأحسن إليك مع أنك ما سألته وما كان لك عقل ولا هداية.

الخامس: أن غيره من المحسنين ينقطع إحسانه إما بسبب الفقر أو الغْيبة أو الموت ، والحق تعالى لا ينقطع إحسانه البتة.

السادس: أن غيره من المحسنين يختص إحسانه بقوم دون قوم ولا يمكنه التعميم ، أما الحق تعالى فقد وصل تربيته وإحسانه إلى الكل ، كما قال: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).

فثبت تعالى أنه رب العالمين ومحسن إلى الخلائق أجمعين ، فلهذا قال تعالى في حق نفسه: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

قوله تعالى: {وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [الأنعام: ٧٢]، أي:" وكذلك أُمرنا بأن نقيم الصلاة كاملة".

قال البغوي:"أي: وأمرنا بإقامة الصلاة".

قال السعدي: "أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها... لم يقل: يفعلون الصلاة ، أو يأتون الصلاة ، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة ، فإقام الصلاة ، إقامتها ظاهرًا بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها ، وإقامتها باطنًا بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر ما يقوله ويفعله منها".

=

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

=

قال الطبري: أي:" وأمرنا بإقامة الصلاة، وذلك أداؤها بحدودها التي فرضت علينا".

قال القرطبي:" إقامة الصلاة: الإتيان بها والدوام عليها. ويجوز أن يكون {وأن أقيموا الصلاة} عطفا على المعنى، أي: يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا الصلاة، لأن معنى {ائتنا}: أن ائتنا".

روي عن ابن مسعود قال: "و «إقامة الصلاة»: تمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع، والإقبال عليها فيها".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوهُ} [الأنعام: ٧٢]، أي:" وأن نخشاه بفعل أوامره واجتناب نواهيه".

قال السعدي: أي: "بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهى".

قال البغوي:"أي: وأمرنا بالتقوى".

قال الطبري:" يقول: واتقوا رب العالمين الذي أمرنا أن نسلم له، فخافوه واحذروا سَخطه، بأداء الصلاة المفروضة عليكم، والإذعان له بالطاعة، وإخلاص العبادة له".

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٧٢]، أي:" وهو -جل وعلا- الذي إليه تُحْشَرُ جميع الخلائق يوم القيامة".

قال البغوي:" أي: تجمعون في الموقف للحساب".

قال السعدي: "أي: تُجْمَعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها".

قال الطبري:" يقول: وربكم رب العالمين، هو الذي إليه تحشرون فتجمعون يوم القيامة، فيجازي كلَّ عامل منكم بعمله، وتوفي كل نفس ما كسبت".

(٧٣).

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْض بِالْحَقِّ} أَيْ مُحِقًّا {و} اُذْكُرْ {يَوْم يَقُول} لِلشَّيْءِ {كُنْ فَيَكُون} هُوَ يَوْم الْقِيَامَة يَقُول لِلْخَلْقِ قُومُوا فَيَقُومُوا {قَوْله الْحَقّ} الصِّدْق الْوَاقِع لَا مَحَالَة {وَلَهُ الْمُلْك يَوْم يُنْفَخ فِي الصُّوَر} الْقَرْن النَّفْخَة الثَّانِيَة مِنْ إسْرَافِيل لَا مُلْك فِيهِ لِغَيْرِهِ {لِمَنْ الْمُلْك الْيَوْم لِلَّهِ} {عَالِم الْغَيْب وَالشَّهَادَة} مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ {وَهُوَ الْحَكِيم} فِي خَلْقه {الْخَبِير} بِبَاطِنِ الْأَشْيَاء كَظَاهِرِهَا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [الأنعام: ٧٣].

أي: وليس عبثًا، فإن الله منزه عن العبث، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة، فالحق ضد الباطل، فالله خلقهما لحكم باهرة، لم يخلقهما باطلًا ولا عبثًا ولا لعبًا كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون).

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله: إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جلا وعلا.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

=

=

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق ، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا).

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقًا متلبسًا بالحق ومن الحق الذي من أجله خلق السموات والأرض ، تعليمه لخلقه أنه تعالى على كل شيء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شيء علمًا ، كما قال تعالى (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا).

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما: هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملًا ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا ، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيئ فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) ، وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثًا ، فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللهُ) أي: تنزه وتعاظم وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

قال مقاتل:" يعني: بأنه لم يخلقهما باطلا لغير شيء، ولكن خلقهما لأمر هو كائن".

=

=

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأنداد، الداعيك إلى عبادة الأوثان: أمرنا لنسلم لرب العالمين، الذي خلق السماوات والأرض بالحق، لا من لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر".

قال القرطبي:" أي: فهو الذي يجب أن يعبد لا الأصنام. ومعنى {بالحق} أي: بكلمة الحق. يعني قوله: «كن»".

وفي قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [الأنعام: ٧٣]، أربعة اقوال:

أحدها: خلقهما للحق.

والثاني: خلقهما حقا.

والثالث: خلقهما بكلامه وهو الحق.

والرابع: خلقهما بالحكمة.

قال البغوي: {بِالْحَقِّ}:" قيل: «الباء» بمعنى: «اللام»، أي: إظهارا للحق لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته".

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ} [الأنعام: ٧٣]، أي:" واذكر -أيها الرسول- يوم القيامة إذ يقول الله: «كن»، فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب".

قال القرطبي:" أي: واذكر يوم يقول كن. أو اتقوا يوم يقول: كن. أو قدّر يوم يقول كن. وقيل: هو عطف على الهاء في قول: «واتقوه»".

قال الزمخشري:" {اليوم} بمعنى «الحين». والمعنى: أنه خلق السموات والأرض قائما بالحق والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء كن فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة، أى لا يكون شيأ من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب".

وفي قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ} [الأنعام: ٧٣]، وجهان:

=

=

أحدهما: أن يقول ليوم القيامة: كن فيكون، لا يثنِّي إليه القول مرة بعد أخرى، قاله مقاتل.

قال البغوي: فـ"يدل على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال: ويوم يقول للخلق: موتوا فيموتون، وقوموا فيقومون".

والثاني: أنه يقول للسموات كوني صورًا يُنْفَخ فيه لقيام الساعة، فتكون صورًا مثل القرآن، وتبدل سماءً أخرى، قاله الكلبي.

قال البغوي:" أي: الصدق الواقع لا محالة، يريد أن ما وعده حق كائن".

قوله تعالى: {قَوْلُهُ الْحَقُّ} [الأنعام: ٧٣]، أي:" قوله هو الحق الكامل".

قال البغوي: فـ"يدل على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال: ويوم يقول للخلق: موتوا فيموتون، وقوموا فيقومون".

قال ابن الجوزي:" أي: الصدق الكائن لا محالة".

قوله تعالى: {وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} [الأنعام: ٧٣]، أي:" وله الملك سبحانه وحده، يوم ينفخ المَلَك في «القرن» النفخة الثانية التي تكون بها عودة الأرواح إلى الأجسام".

قال القرطبي:" أي: وله الملك يوم ينفخ في الصور. أو وله الحق يوم ينقخ في الصور. وقيل: هو بدل من {يوم يقول}. و «الصور» قرن من نور ينفخ فيه، النفخة الأولى للفناء والثانية للإنشاء".

قال ابن الجوزي:" معنى الكلام: أن الملوك يومئذ لا ملك لهم، فهو المنفرد بالملك وحده، كما قال: والأمر يومئذ لله".

قال البغوي:" يعني: ملك الملوك يومئذ زائل، كقوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤]، وكما قال: {وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِ} [الانفطار: ١٩]، والأمر له في كل وقت، ولكن لا أمر في ذلك اليوم لأحد مع أمر الله".

=

=

قال الطبري:" خُصّ بالخبر عن ملكه يومئذ، وإن كان الملك له خالصًا في كل وقت في الدنيا والآخرة، لأنه عنى تعالى ذكره أنه لا منازع له فيه يومئذ ولا مدّعي له، وأنه المنفرد به دون كل من كان ينازعه فيه في الدنيا من الجبابرة، فأذعن جميعهم يومئذ له به، وعلموا أنهم كانوا من دعواهم في الدنيا في باطل".

وفي «الصور» قولان:

أحدهما: أنه قرن ينفخ فيه نفختان: إحداهما لفناء من كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشر كل مَيْتٍ.

واعتلوا لقولهم ذلك بقوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [سورة الزمر: ٦٨]، وبالخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه قال إذ سئل عن الصور:"هو قرن يُنفخ فيه".

وقال مجاهد: "الصور كهيئة البوق".

وحكى ابن قتيبة: أن الصور: القرن، في لغة قوم من أهل اليمن، وأنشد:

نحن نطحنا غداة الجمعين بالضابحات في غبار النقعين

نطحا شديدا لا كنطح الصورين.

وأنشد الفراء:

لَوْلا ابْنُ جَعْدَةَ لَمْ تُفْتَحْ قُهُنْدُزُكُمْ وَلا خُرَاسَانَ حَتَّى يُنْفَخَ الصُّورُ

رجّحه البغوي ، وقال ابن الجوزي:" وهذا اختيار الجمهور".

والثاني: أن {الصور}، جمع: «صورة»، يقال: صورة وصور، بمنزلة سورة وسور، كسورة البناء والمراد نفخ الأرواح في صور الناس، قاله الحسن ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، وارتضاه البخاري ، قال النابغة:

=

=

ألم تر أنّ الله أعطاك سورة ترى كلّ ملك دونها يتذبذب

قال ابن قتيبة:" السورة في هذا البيت سورة المجد. وهي مستعارة من سورة البناء".

وقال العجّاج:

فربّ ذى سرادق محجور سرت إليه في أعالي السّور

ومنها: سورة المجد أعاليه، وقال جرير:

لمّا أتى خبر الزّبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع

وكذلك قرأ الحسن، ومعاذ القارئ، وأبو مجلز، وأبو المتوكل: «في الصور» بفتح الواو.

قال ثعلب: "الأجود أن يكون {الصور}: القرن، لأنه قال ﷻ: {ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض}، ثم قال: {ثم نفخ فيه أخرى}، ولو كان الصور، كان: ثم نفخ فيها، أو فيهن، وهذا يدل على أنه واحد، وظاهر القرآن يشهد أنه ينفخ في الصور مرتين".

وقد روى أهل التفسير عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصور قرن ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع. والثانية: نفخة الصعق. والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين».

قال ابن عباس: "يعني: بالصور: النفخة الأولى ، ألم تسمع أنه يقول: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى يعني الثانية فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [سورة الزمر: ٦٨]".

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندنا، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن إسرافيلَ قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى

=

=

يؤمر فينفخ» ، وأنه قال: «الصور قرن ينفخ فيه» ".

وروى إسحاق بن يوسف الأزرق عن أبي عمرو «ننفخ» بنونين.

قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الأنعام: ٧٣]، أي:" وهو سبحانه الذي يعلم ما غاب عن حواسكم -أيها الناس - وما تشاهدونه".

قال ابن عباس:" يعني: أن عالم الغيب والشهادة، هو الذي ينفخ في الصور".

وقال الحسن: "الشهادة، ما قد رأيتم من خلقه، والغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قال الطبري: أي:" عالم ما تعاينون: أيها الناس، فتشاهدونه، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه".

قال البغوي: أي:" يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه، لا يغيب عن علمه شيء".

قال ابن الجوزي:" {الغيب}: وهو ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه، والشهادة وهو ما شاهدوه ورأوه".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ٧٣]، أي:" وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، الخبير بأمور خلقه".

قال الطبري:" {وهو الحكيم}، في تدبيره وتصريفه خلقه من حال الوجود إلى العدم، ثم من حال العدم والفناء إلى الوجود، ثم في مجازاتهم بما يجازيهم به من ثواب أو عقاب، {الخبير}، بكل ما يعملونه ويكسبونه من حسن وسيئ، حافظ ذلك عليهم ليحازيهم على كل ذلك، يقول تعالى ذكره: فاحذروا، أيها العادلون بربكم، عقابَه، فإنه عليم بكل ما تأتون وتذرون، وهو لكم من وراء الجزاء على ما تعملون".

عن أبي العالية: قوله:" {الحكيم}، قال: حكيم في أمره".

=

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤).

{وَ} اُذْكُرْ {إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيم لِأَبِيهِ آزَرَ} هُوَ لَقَبه وَاسْمه تَارِخ {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَة} تَعْبُدهَا اسْتِفْهَام تَوْبِيخ {إِنِّي أَرَاك وَقَوْمك} بِاتِّخَاذِهَا {فِي ضَلَال} عَنْ الْحَقّ {مُبِين} بَيِّن.

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥).

{وَكَذَلِكَ} كَمَا أَرَيْنَاهُ إِضْلَال أَبِيهِ وَقَوْمه {نُرِي إِبْرَاهِيم مَلَكُوت} مُلْك {السَّمَاوَات وَالْأَرْض} لِيَسْتَدِلّ بِهِ على وحدانيتنا {وليكونن مِنْ الْمُوقِنِينَ} بِهَا وَجُمْلَة وَكَذَلِكَ وَمَا بَعْدهَا اعْتِرَاض وَعُطِفَ عَلَى قَالَ.

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦).

=

عن محمد بن جعفر بن الزبير: قوله: {الحكيم}، قال: الحكيم في عذره ورحمته إلى عباده".

{فَلَمَّا جَنَّ} أَظْلَم {عَلَيْهِ اللَّيْل رَأَى كَوْكَبًا} قِيلَ هُوَ الزَّهْرَة {قَالَ} لِقَوْمِهِ وَكَانُوا نَجَّامِينَ {هَذَا رَبِّي} فِي زَعْمكُمْ {فَلَمَّا أَفَلَ} غَابَ {قَالَ لَا أُحِبّ الْآفِلِينَ} أَنْ أَتَّخِذهُمْ أَرْبَابًا لِأَنَّ الرَّبّ لَا يَجُوز عَلَيْهِ التَّغَيُّر وَالِانْتِقَال لِأَنَّهُمَا مِنْ شَأْن الْحَوَادِث فَلَمْ يَنْجَع فِيهِمْ ذلك.

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧).

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَر بَازِغًا} طَالِعًا {قَالَ} لَهُمْ {هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي} يُثَبِّتنِي عَلَى الْهُدَى {لَأَكُونَن مِنْ الْقَوْم الضَّالِّينَ} تَعْرِيض لِقَوْمِهِ بِأَنَّهُمْ عَلَى ضَلَال فَلَمْ يَنْجَع فِيهِمْ ذَلِكَ.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨).

{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْس بَازِغَة قَالَ هَذَا} ذَكَرَهُ لتذكير خَبَره {رَبِّي هَذَا أَكْبَر} مِنْ الْكَوْكَب وَالْقَمَر {فَلَمَّا أَفَلَتْ} وَقَوِيَتْ عَلَيْهِمْ الْحُجَّة وَلَمْ يَرْجِعُوا {قَالَ يَا قَوْم إِنِّي بَرِيء مِمَّا تُشْرِكُونَ} بِاَللهِ مِنْ الْأَصْنَام وَالْأَجْرَام الْمُحْدَثَة الْمُحْتَاجَة إِلَى مُحْدِث فَقَالُوا لَهُ مَا تَعْبُد.

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ (٧٩).

قَالَ {إِنِّي وَجَّهْت وَجْهِي} قَصَدْت بِعِبَادَتِي {لِلَّذِي فَطَرَ} خَلَقَ {السَّمَاوَات وَالْأَرْض} أَيْ الله {حَنِيفًا} مَائِلًا إلَى الدِّين الْقَيِّم {وَمَا أَنَا مِنْ المشركين} به[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ} [الأنعام: ٧٤]، أي: واذكر يا محمد لقومك حين قال إبراهيم لأبيه آزر منكرًا عليه. وهذه الآية نص على أن اسم والد إبراهيم هو آزر.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر، يا محمد لحجاجك الذي تحاجّ به قومك، وخصومتك إياهم في آلهتهم، وما تراجعهم فيها، مما نلقيه إليك ونعلمكه من البرهان والدلالة على باطل ما عليه قومك مقيمون، وصحة ما أنت عليه مقيم من الدين، وحقيقة ما أنت عليهم به محتج حِجَاج إبراهيم خليلي قومَه، ومراجعته إياهم في باطل ما كانوا عليه مقيمين من عبادة الأوثان، وانقطاعه إلى الله والرضا به وليًّا وناصرًا دون الأصنام، فاتخذه إمامًا واقتد به، واجعل سيرته في قومك لنفسك مثالا إذ قال لأبيه مفارقًا لدينه، وعائبًا عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه: يا آزر".

اختلف العلماء في اسم والد خليل الله إبراهيم عليه السلام ،على قولين:

القول الأول: اسمه (تارح) ، أو (تارخ).

وهو قول أكثر العلماء والمفسرين ، بل قال الزجاج: لا خلاف بين النسابين في أن اسم أبي إبراهيم تارح. وقد اعترض الإمام القرطبي على نقل الإجماع بإثبات وجود الخلاف.

وقال ابن كثير رحمه الله: جمهور أهل النسب - منهم ابن عباس - على أن اسم أبيه =

=

تارح ، وأهل الكتاب يقولون تارخ. (البداية والنهاية).

وقد ورد ذلك في صريح كلام ابن عباس: كما عند ابن أبي حاتم في التفسير (٤/ ١٣٢٤ - ١٣٢٥) بإسنادين عنه. وصريح كلام مجاهد أيضًا: كما في جامع البيان للطبري (١١/ ٤٦٦). وصريح كلام ابن جريج: أخرجه ابن المنذر بسند صحيح كما قال السيوطي في " الدر المنثور " (٣/ ٣٠٠) ، وفي " الحاوي " (٢/ ٢٥٩)

ومع شهرة هذا القول ، فلا نعلم له أصلًا من كتاب الله ، أو السنة الصحيحة ، ولعل عمدة من قاله من أهل العلم أحاديث أهل الكتاب ، وأقوال النسابين الذين يستقون منهم.

ويبقى السؤال - بناء على هذا القول - ما المقصود بـ (آزر) إذن في الآية الكريمة: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

فنقول ، اختلفوا في توجيه الآية إلى أقوال كثيرة:

قال بعض المفسرين: إن لوالد إبراهيم عليه السلام اسمين ، آزر ، و (تارح).

وقال كثير من المفسرين إن أبا إبراهيم اسمه بالسريانية تارح وبغيرها آزر.

وصرح بعضهم بأن (آزر) اسم صنم ، كما قال مجاهد: آزر لم يكن بأبيه ، إنما هو صنم.

وقال آخرون: هو سبٌّ وعيب بكلامهم ، ومعناه: معوَجٌّ ، كأنه تأوّل أنه عابه بزَيْغه واعوجاجه عن الحق.

وجوز الطبري رحمه الله أيضًا أن يكون (آزر) لقبا لوالد إبراهيم ، وليس اسمًا. ذكر ذلك في " جامع البيان". إلى آخر التأويلات والتخريجات التي لا يقوم عليها دليل.

القول الثاني: اسمه (آزر) ، أخذًا بظاهر الآية الكريمة (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

=

=

وبظاهر الحديث الشريف الذي يرويه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: (يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، فَأَيِ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟! فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ).

وأشهر من قال بهذا القول إمام المغازي والسير: محمد بن إسحاق ، كما روى ذلك عنه ابن جرير الطبري بسنده.

واختاره الإمام الطبري فقال: أولى القولين بالصواب منهما عندي قولُ من قال: هو اسم أبيه؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر أنه أبوه ، وهو القول المحفوظ من قول أهل العلم ، دون القول الآخر الذي زعم قائلُه أنه نعتٌ.

قال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ - في تعليقه على تأويلات القول الأول: هذه الأقوال وغيرها مما ذهب إليه بعض المفسرين لا تستند إلى دليل ، وأقوال النسابين لا ثقة بها ، وما في الكتب السالفة ليس حجة على القرآن ، فهو الحجة ، وهو المهيمن على غيره من الكتب ، والصحيح أن آزر هو الاسم العَلَم لأبي إبراهيم كما سماه الله في كتابه.

ففي قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ} [الأنعام: ٧٤]، أقوال كما تقدم نزيدها إيضاحا:

أحدها: أن آزر اسم أبيه كما تقدم، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي ، ومحمد بن إسحاق ، والضحاك ، والكلبي.

قال محمد: "«آزر»، أبو إبراهيم. وكان، فيما ذكر لنا والله أعلم، رجلا من أهل

=

=
كُوثَى، من قرية بالسواد، سواد الكوفة".
قال ابن عباس:"يعني بآزر: الصنم، وأبو إبراهيم اسمه: يازر. وأمه اسمها: مثاني. وامرأته اسمها: سارة. وأم إسماعيل اسمها: هاجر، وهي سرية إبراهيم".
روي عن سعيد بن عبد العزيز قال: هو «آزر»، وهو «تارح»، مثل: «إسرائيل» و «يعقوب»".
قال الزمخشري:" «آزر» اسم أبى إبراهيم عليه السلام. وفي كتب التواريخ أن اسمه بالسريانية: تارح. والأقرب أن يكون وزن «آزر»: فاعل، مثل: تارح وعابر وعازر وشالخ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم، وهو عطف بيان {لأبيه}".
قال ابن عطية:" وقد ثبت أن اسمه تارح فله على هذا القول اسمان كيعقوب وإسرائيل، وهو في الإعراب على هذا بدل من الأب المضاف في موضع خفض وهو اسم علم، وقال مجاهد بل هو اسم صنم وهو في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: أتتخذ أصناما. وفي هذا ضعف".
والثاني: أن آزر اسم صنم، وكان اسم أبيه تارح، قال مجاهد ، وسعيد بن المسيب ، ويمان.
كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها؟ أتتخذ أصناما آلهة؟ فكأنه جعل أصناما بدلا من آزر، والاستفهام معناه الإنكار.
والثالث: أنه ليس باسم، وإنما هو صفة سب بعيب، وهذا قول سليمان التيمي.
عن معتمر بن سليمان قال: "سمعت أبي يقرأ: {وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر}، قال: بلغني أنها أعوج، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم".
وفي معناه ثلاثة أقوال:
أحدها: أنه المعوج، كأنه عابه بزيغه وتعويجه عن الحق، ذكره الفراء ، وهو قول سليمان.
=

=

والثاني: أنه المخطئ، فكأنه قال: يا مخطئ أتتخذ أصناما؟ ذكره الزجاج.

قال ابن عطية:" قال بعضهم بل هو صفة ومعناه هو المعوج المخطئ. ويعترض هذا بأن «آزر» إذا كان صفة فهو نكرة ولا يجوز أن تنعت المعرفة بالنكرة ويوجه ذلك على تحامل بأن يقال أريدت فيه الألف واللام وإن لم يلفظها، وإلى هذا أشار الزجاج لأنه قدر ذلك فقال لأبيه المخطئ، وبأن يقال إن ذلك مقطوع منصوب بفعل تقديره اذن المعوج أو المخطئ، والا تبقى فيه الصفة بهذه الحال. وهذا ضعيف، وقيل نصبه على الحال كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه وهو في حال عوج وخطأ".

والرابع: وقيل: معناه الشيخ الهنم بالفارسية. ذكره الثعلبي.

والرابع: أنه لقب لأبيه، وليس باسمه، قاله مقاتل بن حيان.

قال الفراء:" وقد أجمع أهل النسب على أنه ابن تارح، فكأن «آزر» لقب له".

قال ابن الانباري: "قد يغلب على اسم الرجل لقبه، حتى يكون به أشهر منه باسمه".

قال الماوردي:"فإن قيل: فكيف يصح من إبراهيم - وهو نبي - سبَّ أباه؟

قيل: لأنه سبّه بتضييعه حق الله تعالى، وحق الوالد يسقط في تضييع حق الله".

قرأ يعقوب: «آزر»، بالرفع، يعني: «آزر»، والقراءة المعروفة بالنصب، وهو اسم أعجمي لا ينصرف فينتصب في موضع الخفض.

قوله تعالى: {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} [الأنعام: ٧٤]، أي:" أتجعل من الأصنام آلهة تعبدها من دون الله تعالى؟".

قال الطبري:" وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيل إبراهيم لأبيه آزر أنه قال: {أتتخذ أصنامًا آلهة}، تعبدها وتتخذها ربًّا دون الله الذي خلقك فسوَّاك ورزقك؟، و «الأصنام»: جمع: صنم، والصنم: التمثال من حجر أو خشب أو من

=

=

غير ذلك في صورة إنسان، وهو «الوثن»، وقد يقال للصورة المصوّرة على صورة الإنسان في الحائط وغيره: صنم، ووثن".

قال المراغي: أي:" يا آزر أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك وخلقها؟ فهو المستحق للعبادة دونها".

قال النسفي:" استفهام توبيخ، أى أتتخذها آلهة وهي لا تستحق الإلهية".

قال السعدي:" أي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء".

ثبت في الصحيح: أن إبراهيم يلقى آباه آزر يوم القيامة فيقول له أبوه: يا بني ، اليوم لا أعصيك؟ فيقول إبراهيم: أي رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزَى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم! انظر ما وراءك ، فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى في النار.

قوله تعالى: {إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٧٤]، أي:" إني أراك وقومك في ضلال بيِّن عن طريق الحق".

قال السعدي:" حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئا، وتركتم عبادة خالقكم، ورازقكم، ومدبركم".

قال الطبري:" يقول: {إني أراك}، يا آزر، {وقومَك} الذين يعبدون معك الأصنام ويتخذونها آلهة، في زوال عن محجّة الحق، وعدول عن سبيل الصواب، يتبين لمن أبصَره أنه جوْرٌ عن قصد السبيل، وزوالٌ عن محجة الطريق القويم. يعني بذلك أنه قد ضلّ هو وهم عن توحيد الله وعبادته، الذي استوجب عليهم إخلاص العبادة له بآلائه عندهم، دون غيره من الآلهة والأوثان".

قال الشنقيطي:" أي: في ذهاب عن طريق الحق بين واضح لكل من له أدنى عقل، كيف تتركون عبادة الخالق الرازق النافع الضار المحيي المميت وتعبدون جمادات لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر؟!! هذا هو الضلال المبين

=

=

الواضح لكل من له أدنى عقل".

قال المراغي:" أي إنى أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك، فى ضلال عن الصراط المستقيم، مبين لا شبهة فيه للهدى، فإن هذه الأصنام تماثيل تنحتونها من الحجارة أو تقطعونها من الخشب، أو تصنعونها من المعادن، فأنتم أرفع منها قدرا وأعز جانبا، ولم تكن آلهة بذاتها بل باتخاذكم إياها ولا يليق بالعاقل أن يعبد ما هو مساو له فى الخلق، ولا ما هو مقهور بتصرف الخالق فيه، ومحتاج إلى الغنى القادر، ولا يقدر على نفع ولا ضر، ولا إعطاء ولا منع.

والتعبير بالضلال البين بيان لما حدث منهم بما تدل عليه اللغة كقوله تعالى لخاتم أنبيائه: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى: ٧] وقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الذي يسلكه: إن الطريق من هنا فأنت حائد أو ضال عنه.

وقد دلت آثار الكشف الحديث فى العراق على صدق ما عرف فى التاريخ من عبادة أولئك القوم للأصنام الكثيرة حتى كان لكل منهم صنم للعبادة خاص به، سواء فى ذلك الملوك والسوقة، وكانوا يعبدون الفلك والنيرات من الكواكب عامة والدراري السبع خاصة".

قال صاحب المنار:" «الضلال»: العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التي يطلبها العاقل من سيره الحسي أو المعنوي، وغاية الدين تزكية النفس بمعرفة الله وعبادته، وما شرعه من الأعمال والآداب للفوز بسعادة الدارين. وأما عبادة غير الله تعالى - ولو بقصد التقرب إليه - فهو مدس للنفس مفسد لها، فلا يوصلها إلا إلى الهلاك الأبدي. والتعبير عنها بالضلال ليس فيه سب ولا جفاء ولا غلظة كما زعم من استشكله من الولد للوالد، وقابله بأمر الله تعالى لموسى وهارون أن يقولا لفرعون قولا لينا، وأجاب عنه بأنه حسن للمصلحة، كالشدة في تربية الأولادأحيانا، ومن استدل به على أن آزر كان عم إبراهيم لا والده، فالصواب أن

=

=

التعبير بالضلال البين هنا بيان للواقع باللفظ الذي يدل عليه لغة، كقوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى: ٧] وكقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الحسي: إن الطريق من هنا، فأنت حائد أو ضال عنه، ومعنى قول إبراهيم لأبيه: إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك في ضلال - عن صراط الحق المستقيم - بين ظاهر لا شبهة للهدى فيه، فإن هذه الأصنام التي اتخذتموها آلهة لكم لم تكن آلهة في أنفسها، بل باتخاذكم وجعلكم، ولستم من خلقها ولا من صنعها، بل هي من صنعكم، ولا تقدر على نفعكم ولا ضركم، وذلك أنها تماثيل تنحتونها من الحجارة، أو تقتطعونها من الخشب، أو تصوغونها من المعدن، فأنتم أفضل منها، ومساوون في أصل الخلقة لمن جعلت ممثلة لهم من الناس، أو لما صنعت مذكرة به من النيرات، ولا يليق بالإنسان أن يعبد ما هو دونه، ولا ما هو مساو له في كونه مخلوقا مقهورا بتصرف الخالق، ومربوبا فقيرا محتاجا إلى الرب الغني القادر، وقد دلت آثار أولئك القوم التي اكتشفت في العراق على صحة ما عرف في التاريخ من عبادتهم للأصنام الكثيرة، حتى كان يكون لكل منهم صنم خاص به، سواء الملوك والسوقة في ذلك، وكانوا يعبدون الفلك ونيراته عامة، والدراري السبع خاصة".

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنعام: ٧٥]، أي:" وكما هدينا إبراهيم عليه السلام إلى الحق في أمر العبادة نُريه ما تحتوي عليه السموات والأرض من ملك عظيم، وقدرة باهرة".

قال الطبري: أي:" وكما أريناه البصيرة في دينه، والحقّ في خلافه ما كانوا عليه من الضلال، نريه ملكوت السماوات والأرض، يعني: ملكه".

قال الثعلبي:" يعني كما أريناه البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه نريه {ملكوت السماوات والأرض}، أي: ملكهما".

=

=

قال ابن عطية:" الآية المتقدمة تقضي بهداية إبراهيم عليه السلام والإشارة هنا بـ {ذلك} هي إلى تلك الهداية، أي: وكما هديناه إلى الدعاء إلى الله وإنكار الكفر أريناه ملكوت، ونري لفظها الاستقبال ومعناها المضي، وحكى المهدوي: أن المعنى وكما هديناك يا محمد فكذلك نري إبراهيم. وهذا بعيد إذ اللفظ لا يعطيه".

وفي المراد بقوله تعالى: {مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنعام: ٧٥]، وجوه من التأويل:

أحدها: أنه خلق السموات والأرض، قاله ابن عباس ، وقتادة.

والثاني: مُلْك السموات والأرض.

واختلف من قال بهذا فيه على وجهين:

أحدهما: أن الملكوت هو المُلْك بالنبطية، قاله عكرمة.

والثاني: أنه المُلْك بالعربية، يقال مُلْك وملكوت كما يقال رهبة ورهبوت، ورحمة ورحموت، والعرب تقول: رهبوت خير من رحموت، أي أن نُرْهَب خير من أن نُرْحَم، قاله الأخفش ، وابن قتيبة.

والثالث: معناه: آيات السماوات والأرض. قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والسدي ، وغيرهم.

ومن الأخبار التي وردت في هذا المعنى:

روي عن مجاهد، قال:" فرجت له السماوات فنظر إلى ما فيهنّ، حتى انتهى بصره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع فنظر ما فيهن".

قال السدي:" أقيم على صخرة وفتحت له السماوات، فنظر إلى ملك الله فيها، حتى نظر إلى مكانه في الجنة. وفتحت له الأرضون حتى نظَر إلى أسفل الأرض، فذلك قوله: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا} [سورة العنكبوت: ٢٧]، يقول: آتيناه مكانه في الجنّة، ويقال:"أجره" الثناء الحسن".

=

=

عن سلمان قال: "لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، رأى عبدًا على فاحشة، فدعا عليه، فهلك. ثم رأى آخر على فاحشة، فدعا عليه فهلك. ثم رأى آخر على فاحشة، فدعا عليه فهلك. فقال: أنزلوا عبدِي لا يُهْلِك عبادِي!".

قال عطاء:" عطاء قال: "لما رفع الله إبراهيم في الملكوت في السماوات، أشرفَ فرأى عبدًا يزني، فدعا عليه، فهلك. ثم رُفع فأشرف، فرأى عبدًا يزني، فدعا عليه، فهلك. ثم رفع فأشرف، فرأى عبدًا يزني، فدعا عليه، فنودي: على رِسْلِك يا إبراهيم، فإنك عبد مستجابٌ لك، وإني من عبدي على ثلاث: إما أن يتوب إليّ فأتوب عليه، وإما أن أخرج منه ذرية طيبة، وإما أن يتمادى فيما هو فيه، فأنا من ورائه".

وعن أسامة: "أن إبراهيم خليل الرّحمن حدَّث نفسه أنه أرحمُ الخلق، وأن الله رفعه حتى أشرفَ على أهل الأرض، فأبصر أعمالهم. فلما رآهم يعملون بالمعاصي قال: اللهم دمِّر عليهم! فقال له ربه: أنا أرحم بعبادي منك، اهبطْ، فلعلهم أن يتوبوا إليّ ويُراجِعوا".

والرابع: معناه: خلق السماوات والأرض وما بينهما من الآيات، قاله مقاتل.

والخامس: هو الشمس والقمر والنجوم، قاله الضحاك ، وهو مروي عن ابن عباس قي رواية علي بن ابي طلحة.

وقال مجاهد:" الشمس والقمر".

والسادس: أن ملكوت السماوات: الشمس، والقمر، والنجوم، وملكوت الأرض: الجبال، والشجر، والبحار، قاله قتادة.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قولُ من قال: عنى الله تعالى ذكره بقوله:"وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض"، أنه أراه ملك السماوات والأرض، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم

=

=

والشجر والدواب وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما، وجلَّى له بواطنَ الأمور وظواهرَها، لما ذكرنا قبل من معنى"الملكوت"، في كلام العرب: الملك، إذ حكي عن العرب سماعًا: «له مَلَكوت اليمنِ والعراق»، بمعنى: له ملك ذلك".

قوله تعالى: {وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [الأنعام: ٧٥]، أي:" ليكون من الراسخين في الإيمان".

قال مقاتل: يعني: {مِنَ الْمُوقِنِينَ} " بالرب أنه واحد لا شريك له".

قال النحاس:" أي: وليكون من الموقنين فعلنا ذلك".

قال الطبري:" يعني: أنه أراه ملكوت السماوات والأرض، ليكون ممن يقرّ بتوحيد الله، ويعلم حقيقة ما هداه له وبصّره إياه، من معرفة وحدانيته، وما عليه قومه من الضلالة، من عبادتهم الأصنام، واتخاذهم إياها آلهة دون الله تعالى".

قال ابن الجوزي:" هذا عطف على المعنى، لأن معنى الآية: نريه ملكوت السماوات والأرض ليستدل به، وليكون من الموقنين".

قال ابن كثير:"قيل: «الواو» زائدة، تقديره: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، كقوله: {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام: ٥٥]. وقيل: بل هي على بابها، أي نريه ذلك ليكون عالما وموقنا".

وفي ما يوقن به ثلاثة أقوال:

أحدها: وحدانية الله وقدرته.

والثاني: نبوته ورسالته.

والثالث: ليكون موقنا بعلم كل شيء حسا، لا خبرا.

أخرج الطبري عن ابن عباس قوله:" {وليكون من الموقنين}، أنه جلَّى له الأمر سرَّه وعلانيتَه، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق. فلما جعل يلعن أصحاب

=

=

الذنوب، قال الله: إنك لا تستطيع هذا! فردَّه الله كما كان قبل ذلك".

قال الطبري:" فتأويل ذلك على هذا التأويل: أريناه ملكوت السماوات والأرض ليكون ممن يوقن علم كل شيء حسًّا لا خبرًا".

وعن عبد الرحمن بن عائش الحضرميّ قال: "صلى بنا رسول الله ﷺ ذات غداةٍ، فقال له قائل: ما رأيتك أسفرَ وجهًا منك الغداة! قال: ومالي، وقد تبدّى لي ربّي في أحسن صورة، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى، يا محمد؟ قلت: أنت أعلم يا رب! فوضع يده بين كتفي فوجدت بردَها بين ثدييّ، فعلمت ما في السماوات والأرض، ثم تلا هذه الآية: {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين}".

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا} [الأنعام: ٧٦]، أي:" فلما أظلم على إبراهيم عليه السلام الليل وغطَّاه ناظر قومه؛ ليثبت لهم أن دينهم باطل، وكانوا يعبدون النجوم. رأى إبراهيم عليه السلام كوكبًا".

قال أبو عبيدة:" أي: غطّى عليه وأظلم عليه".

قال الطبري:"يقول: فلما واراه الليل وغيّبه، أبصر كوكبًا حين طلع".

قال ابن كثير:" أي: تغشاه وستره {رَأَى كَوْكَبًا} أي: نجما".

عن زيد بن علي:"قوله: {فلما جن عليه الليل رأى كوكبا}، قال: الزهرة".

وعن السدي:" {رأى كوكبا} قال: هو المشترى".

يقال: جنَّ عليه الليل، وجنَّه الليل، وأجنه، وأجنّ عليه: وإذا ألقيت «على»، كان الكلام بالألف أفصح منه بغير «الألف»، أجنه الليل، أفصح من: أجن عليه، وجنّ عليه الليل، أفصح من جنَّه، وكل ذلك مقبول مسموع من العرب.

ويقال:"أتى فلان في جِنّ الليل، و «الجن» من ذلك، لأنهم استجنُّوا عن أعين بني آدم فلا يرون، وكل ما توارى عن أبصار الناس، فإن العرب تقول فيه: قد جَنّ،

=

=

ومنه قول الهذلي:

وَمَاءٍ وَرَدْتُ قُبَيْلَ الكَرَى وَقَدْ جَنَّهُ السَّدَفُ الأَدْهَمْ

وقال عبيد:

وَخَرْقٍ تَصِيحُ البُومُ فِيهِ مَعَ الصَّدَى مَخُوفٍ إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ مَرْهُوبِ

ومنه: أجننت الميت، إذا واريته في اللحد، وجننته، وهو نظير: جنون الليل، في معنى غطيته، قال دريد بن الصّمّة:

ولولا جنون الليل أدرك ركضنا بذي الرّمث والأرطي عياض بن ناشب

وبعضهم ينشده: ولولا جنان الليل، أي غطاؤه وسواده، وما جنّك من شئ فهو جنان لك، وقال سلامة بن جندل:

ولولا جنان الليل ما آب عامر إلى جعفر سرباله لم يمزّق

قال ابن أحمر يخاطب ناقته:

جنان المسلمين أودّ مسّا وإن جاورت أسلم أو غفارا

أي: سوادهم، يقول: دخولك فى المسلمين أودّ لك.

قرأ: ابن كثير وعاصم -فى رواية حفص- «رءا» بفتح الراء والهمزة، وقرأ نافع بين الفتح والكسر، وقرأ أبو عمرو: «رءا» بفتح الراء وكسر الهمزة، وروى القطعى عن عبيد بن عقيل عن أبى عمرو «رءا» بكسر الراء والهمزة جميعا، وقرأ عاصم -فى رواية أبى بكر- وابن عامر وحمزة والكسائى «رءا» بكسر الراء والهمزة.

قوله تعالى: {قَالَ هَذَا رَبِّي} [الأنعام: ٧٦]، أي:" فقال إبراهيم -مستدرجا قومه لإلزامهم بالتوحيد-: هذا ربي".

قال قتادة:" ذكر لنا أن نبي الله إبراهيم ﷺ بعد ما أراه الله ملكوت السموات رأى كوكبا، {قال هذا ربي}".

=

=

وفي قوله تعالى: {قَالَ هَذَا رَبِّي} [الأنعام: ٧٦]، خمسة أقوال:

أحدها: أنه قال: هذا ربي في ظني، لأنه في حال تقليب واستدلال.

والثاني: أنه على ظاهره، فقال ذلك اعتقادًا أنه ربه، قاله ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة ، وقالوا: وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه، قبل أن يثبت عنده دليل.

قال ابن عباس:" فعبده حتى غاب، فلما غاب قال: لا أحب الآفلين".

واختاره الطبري، محتجا بخبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر: {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّين} [الأنعام: ٧٧].

قال ابن الجوزي:" وهذا القول لا يرتضى، والمتأهلون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال. فأما قوله: {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي}، فما زال الأنبياء يسألون الهدى، ويتضرعون في دفع الضلال عنهم، كقولهم: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم: ٣٥]، ولأنه قد آتاه رشده من قبل، وأراه ملكوت السماوات والأرض ليكون موقنا، فكيف لا يعصمه عن مثل هذا التحيير؟!".

والثالث: أنه قال ذلك في حال الطفولية والصغر، لأن أمه ولدته في مغارة حذرًا عليه من نمرود، فلما خرج عنه قال هذا القول قبل قيام الحجة عليه، لأنها حال لا يصح فيها كفر ولا إيمان، ولا يجوز أن يكون قال ذلك بعد البلوغ.

والرابع: أنه لم يقل ذلك قول معتقد، وإنما قاله على وجه الإنكار لعبادة الأصنام، فإذا كان الكوكب والشمس القمر وما لم تصنعه يد ولا عَمِلَه بشر لم تكن معبودة لزوالها، فالأصنام التي هي دونها أولى ألاّ تكون معبودة.

قال الفراء:" إنما قال: هذا ربي استدراجا للحجة على قومه ليعيب آلهتهم أنها ليست بشيء، وأن الكوكب والقمر والشمس أكبر منها ولسن بآلهة".

والخامس: أنه قال ذلك توبيخًا على وجه الإنكار الذي يكون معه ألف الاستفهام

=

=

وتقديره: أهذا ربي، كما قال الشاعر:

رَفَوْنِي وَقَالُوا: يَا خُوَيْلِدُ، لا تُرَعْ! فَقُلْتُ، وأَنْكَرْتُ الوُجُوهَ: هُمُ هُمُ؟

يعني: أهم هم؟ قالوا: ومن ذلك قول أوس:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي، وَإِنْ كُنْتُ دَارِيًا، شُعَيْثَ بنَ سَهْمٍ أم شُعَيْثَ بْنَ مِنْقَرِ

بمعنى: أشعيث بن سهم؟.

قال السعدي:" وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات، هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة، من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها. وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته، فليس عليه دليل".

قال ابن كثير:" والحق أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر. فبين فيه مثل ما بين في النجم.

=

=

ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون، {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤] وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظرا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} الآيات [الأنبياء: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٦١].

وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة».

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء» ، وقال الله في كتابه العزيز: {فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ} [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

=

=
ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [الأعراف: ١٧٢]، ومعناه على أحد القولين، كقوله: {فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} كما سيأتي بيانه.

فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل - الذي جعله الله {أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: ١٢٠] ناظرا في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب. ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا".

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَفَلَ} [الأنعام: ٧٦]، أي:" فلما غاب الكوكب".

قال سعيد بن جبير:" {فلما أفل}: ذهب".

قال الطبري:" معناه: فلما غاب وذهب".

قال ابن إسحاق:"ا «لأفول»، الذهاب، يقال منه: أفل النجم يأفُلُ ويأفِلُ أفولا وأفْلا، إذا غاب، ومنه قول ذي الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا نُجُومٌ، وَلا بِالآفِلاتِ الدَّوَالِكِ

ويقال: أين أفلت عنا، بمعنى: أين غبت عنا؟".

قال السدي:" فلما رفع رأسه إلى السماء فإذا هو بالكوكب، وهو المشترى، ف {قال: هذا ربي}، فلم يلبث أن غاب".

قوله تعالى: {قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} [الأنعام: ٧٦]، أي:" قال: لا أحب الآلهة التي تغيب".

قال أبو عبيدة "أي: من الأشياء، ولم يقصد قصد الشمس والقمر والنجوم فيجمعها على جميع الموات".

قال ابن الجوزي:" أي: حب رب معبود، لأن ما ظهر وأفل كان حادثا مدبرا".
=

=

عن قتادة:" {لا أحب الآفلين}، قال: الزائلين" ، "علم أن ربّه دائم لا يزول".

قال الزجاج:" أي لا أحب من كانت حالته أن يطلع ويسير على هيئة يتبين معها أنه محدث منتقل من مكان إلى مكان، كما يفعل سائر الأشياء التي أجمعتم معي على أنها ليست بآلهة، أي لا أتخذ ما هذه حاله إلها، كما أنكم لا تتخذون كل ما جرى مجرى هذا من سائر الأشياء آلهة، ليس أنه جعل الحجة عليهم أن ما غاب ليس بإله، لأن السماء والأرض ظاهرتان غير غائبتين وليس يدعى فيهما هذه الدعوى، وإنما أراد التبيين لهم القريب، لأن غيبوبته أقرب ماالناظرون به فيما يظهر لهم، كما قال: {فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} [البقرة: ٢٥٨]".

قال النحاس:" ومن أحسن ما قيل في هذا ما صح عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال في قول الله جل وعز: {نور على نور} [النور: ٣٥]، قال: كذا قلب المؤمن يعرف الله جل وعز ويستدل عليه بقلبه فإذا عرفه ازداد نورا على نور وكذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عرف الله عَزَّ وَجَلَّ بقلبه واستدل عليه بدلائله فعلم أن له ربا وخالقا فلما عرفه الله جل وعز بنفسه ازداد معرفة فقال: أتحاجوني في الله وقد هدان [الأنعام: ٨٠]".

(تنبيه): اشتبهت هذه الآية على كثير من الطوائف وقالوا: نفهم من كلام إبراهيم أن الله لا يوصف بالإتيان والمجيء وما فيه حركة؛ لقوله: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} [الأنعام:٧٦] قالوا: الآفل هو المتحرك الذي تقوم به الحوادث، فيكون الخليل قد نفى المحبة عمن تقوم به الحوادث، فلا يكون إلهًا، ومن نظر إلى تفاسيرهم وكلامهم وجد اضطرابًا في تخريج الآيات وتفسيرها. انظر الكشاف ٢/ ٣٩، التسهيل ١/ ٢٧٧، الوجيز ١/ ٣٦٢، زاد المسير ٣/ ٥٨، تفسير البيضاوي ٢/ ٤٢٣، إيضاح الدليل ص ١١٧.

وخلاصة الجواب على هذا الفهم من ثلاثة وجوه:

=

=

١- أن إبراهيم رأى بزوغ الكوكب وتحركه إلى أفوله، ولم يقل: لا أحب البازغين، ولا المتحركين، ولا أحب من تقوم به الحركات والحوادث، فلو كان احتجاجه بالحركة والانتقال لم ينتظر حتى يغيب.

٢- أن الأفول في لغة العرب هو المغيب والاحتجاب وليس هو الحركة والانتقال. قال شيخ الإسلام في مجوع الفتاوى ٦/ ٢٥٤، ٥/ ٥٤٧: (والأفول باتفاق أهل اللغة والتفسير: هو الغيب والاحتجاب؛ بل هذا معلوم بالاضطرار من لغة العرب التي نزل بها القرآن، وهو المراد باتفاق العلماء. فلم يقل إبراهيم: لا أحب الآفلين إلا حين أفل وغاب عن الأبصار فلم يبق مرئيًا ولا مشهودًا فحينئذ قال: لا أحب الآفلين. وهذا يقتضي أن كونه متحركًا متنقلًا تقوم به الحوادث؛ بل كونه جسمًا متحيزًا تقوم به الحوادث لم يكن دليلًا عند إبراهيم على نفي محبته، فإن كان إبراهيم إنما استدل بالأفول على أنه ليس رب العالمين - كما زعموا -: لزم من ذلك أن يكون ما يقوم به الأفول - من كونه متحركًا منتقلًا - تحله الحوادث؛ بل ومن كونه جسمًا متحيزًا: لم يكن دليلًا عند إبراهيم على أنه ليس رب العالمين، وحينئذ فيلزم أن تكون قصة إبراهيم حجة على نقيض مطلوبهم؛ لا على تعيين مطلوبهم، وهكذا أهل البدع لا يكادون يحتجون بحجة سمعية ولا عقلية إلا وهي عند التأمل حجة عليهم؛ لا لهم).

٣- كل الآيات التي جاء فيها إثبات الإتيان والمجيء.

قال ابن القيم: (قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ} [الأنعام:١٥٨]، لما ذكر إتيانه سبحانه ربما توهم متوهم: أن المراد إتيان بعض آياته أزال هذا الوهم، ورفع الإشكال بقوله: {أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام:١٥٨]، فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصًا صريحًا في معناه لا يحتمل). والله أعلم.

=

=

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا} [الأنعام: ٧٧]، أي:" فلما رأى إبراهيم القمر طالعًا".

قال أبو عبيدة وابن كثير: "أي: طالعا".

قال السمعاني:" وكان ذلك في ليلة قد تأخر طلوع القمر فيها قليلا".

وقرأ عاصم -فى رواية أبى بكر- وحمزة: «رءا القمر» بكسر الراء وفتح الهمزة فى كل القرآن.

قوله تعالى: {قَالَ هَذَا رَبِّي} [الأنعام: ٧٧]، أي:" قال لقومه -على سبيل استدراج الخصم-: هذا ربي".

قال ابن عباس:" فعبده حتى غاب، فلما غاب، قال: {لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين}".

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَفَلَ} [الأنعام: ٧٧]، أي:" فلما غاب القمر".

قوله تعالى: {قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} [الأنعام: ٧٧]، أي:" قال -مفتقرا إلى هداية ربه-: لئن لم يوفقني ربي إلى الصواب في توحيده، لأكونن من القوم الضالين عن سواء السبيل بعبادة غير الله تعالى".

قال القرطبي:" دله العلم على أنه غير مستحق لذلك، فنفاه بقلبه وعلم أنه مربوب وليس برب. وقيل: إنما قال: «هذا ربي» لتقرير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم، فلما أفل النجم قرر الحجة وقال: ما تغير لا يجوز أن يكون ربا. وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها".

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً} [الأنعام: ٧٨]، أي:" فلما رأى الشمس طالعة".

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟

=

=

قلت: الاحتجاج بالأفول أظهر، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب".

وقرأ عاصم -فى رواية أبى بكر- وحمزة: «رءا الشمس» بكسر الراء وفتح الهمزة فى كل القرآن.

قوله تعالى: {قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ} [الأنعام: ٧٨]، أي:" قال لقومه: هذا ربي، هذا أكبر من الكوكب والقمر".

قال ابن كثير:" أي: هذا المنير الطالع ربي، {هَذَا أَكْبَرُ}، أي: جرمًا من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة".

قال الكسائي والأخفش: أي:" هذا الطالع ربّي".

وقال غيرهما: أي: "هذا الضوء".

وقال الأخفش الصغير: أي: "هذا الشخص" ، كما قال الأعشى:

قامت تبكيه على قبره من لي من بعدك يا عامر

تركتني في الدار ذا غربة قد ذل من ليس له ناصر

قال البغوي:" {هذا أكبر}، أي: أكبر من الكوكب والقمر، ولم يقل هذه مع أن الشمس مؤنثة لأنه أراد هذا الطالع، أو رده إلى المعنى، وهو الضياء والنور، لأنه رآه أضوأ من النجوم والقمر".

قال قتادة:" رأى خلقًا هو أكبرَ من الخلقين الأوّلين وأنور".

قال ابن عباس:" فعبدها حتى غابت، فلما غابت قال: {يا قوم إنّي بريء مما تشركون}".

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما وجه التذكير في قوله: {هذا ربي} والإشارة للشمس؟

قلت: جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد، كقولهم: ما جاءت حاجتك، ومن كانت أمك، لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا وكان اختيار هذه الطريقة

=

=

واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث. ألا تراهم قالوا في صفة الله: «علام» ولم يقولوا «علامة»، وإن كان العلامة أبلغ، احترازا من علامة التأنيث".

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَفَلَتْ} [الأنعام: ٧٨]، أي:" فلما غابت الشمس".

قال البغوي وابن كثير:" أي: غابت".

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ٧٨]، أي:" قال لقومه: إني بريء مما تشركون من عبادة الأوثان والنجوم والأصنام التي تعبدونها من دون الله تعالى".

قال الطبري:" وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه لما تبيّن له الحق وعرَفه، شهد شهادةَ الحقّ، وأظهر خلاف قومِه أهلِ الباطل وأهلِ الشرك بالله، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قِيل الحقِّ والثبات عليه، مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إياه عليه، وقال لهم: يا قوم إنّي بريء مما تشركون، مع الله الذي خلقني وخلقكم في عبادته من آلهتكم وأصنامكم، إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خلق السماوات والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويُحْيي ويميت، لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع".

قوله تعالى: {حَنِيفًا} [الأنعام: ٧٩]، أي:" مائلا عن الشرك إلى التوحيد".

قال أبو السعود:" أي: مائلا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائغة كلها".

قال ابن كثير:" أي: في حال كوني {حَنِيفًا}، أي: مائلا عن الشرك إلى التوحيد".

قال الطبري:" ثم أخبرهم تعالى ذكره: أن توجيهه وجهه لعبادته، بإخلاص العبادة له، والاستقامة في ذلك لربه على ما يحبُّ من التوحيد، لا على الوجه الذي يوجَّه له وَجْهه من ليس بحنيف، ولكنه به مشرك، إذ كان توجيه الوجه على غير التحنُّف غير نافع موجِّهه، بل ضارّه ومهلكه".

=

=

عن ابن وهب قال:" قال ابن زيد في قول قوم إبراهيم لإبراهيم: تركت عبادة هذه؟ فقال: {إني وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض}، فقالوا: ما جئت بشيء! ونحن نعبده ونتوجّهه! فقال: لا {حنيفًا}!! قال: مخلصًا، لا أشركه كما تُشْركون".

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {حَنِيفًا} [الأنعام: ٧٩]، على أقوال:

أحدها: أن الحنيفية حج البيت، والحنيف هو الحاج. وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعطية ، وكثير بن زياد ، وعبد الله بن قاسم ، والضحاك ، والسدي.

وقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم الإسلام (الحنيفية)، لأنه أول إمام لزم العباد - الذين كانوا في عصره، والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة - اتباعه في مناسك الحج، والائتمام به فيه. قالوا: فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته، فهو (حنيف)، مسلم على دين إبراهيم".

والثاني: أنها اتباع الحق، قاله مجاهد في إحدى الروايات ، والربيع بن أنس.

والثالث: اتباع إبراهيم في شرائعه التي هي شرائع الإسلام.

فقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم «الحنيفية»، لأنه أول إمام سن للعباد الختان، فاتبعه من بعده عليه. قالوا: فكل من اختتن على سبيل اختتان إبراهيم، فهو على ما كان عليه إبراهيم من الإسلام، فهو " حنيف " على ملة إبراهيم".

والرابع: أنها: «الإخلاص»: وقوله {بل ملة إبراهيم حنيفا}، معناه: (بل ملة إبراهيم مخلصا)، فـ(الحنيف) " على قولهم: المخلص دينه لله وحده ، قاله السدي ، ومقاتل بن سليمان ، وخصيف ، وعطاء.

والخامس: وقيل: «الحنيفية»: الإسلام. فكل من ائتم بإبراهيم في ملته فاستقام عليها، فهو «حنيف».

=

=

قال القفال: "وبالجملة فالحنيف لقب لمن دان بالإسلام كسائر ألقاب الديانات، وأصله من إبراهيم عليه السلام".

والسادس: أن الحنيف: المستقيم. قاله محمد بن كعب ، وروي عن عيسى بن جارية مثله.

السابع: أن الحنيف: الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم. قاله أبو قلابة.

الثامن: أن الحنيف: الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلا. قاله أبو العالية.

التاسع: أن الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات، والعمات، وما حرم الله ﷻ، والختان. وكانت حنيفة في الشرك: كانوا أهل الشرك، وكانوا يحرمون في شركهم الأمهات والبنات والخالات والعمات، وكانوا يحجون البيت، وينسكون المناسك. قاله قتادة.

والصواب: أن «الحنيفية»: هو الإستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته، قال الإمام الطبري: "وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت، لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء. وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفا بقوله: {ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين} [سورة آل عمران: ٦٧]، فكذلك القول في الختان. لأن " الحنيفية " لو كانت هي الختان، لوجب أن يكون اليهود حُنفاء. وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} [سورة آل عمران: ٦٧].

قوله تعالى: {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٧٩]، أي:" وما أنا من المشركين مع الله غيره".

قال أبو السعود: أي: "في شيء من الأفعال والأقوال".

=

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠).

{وَحَاجَّهُ قَوْمه} جَادَلُوهُ فِي دِينه وَهَدَّدُوهُ بِالْأَصْنَامِ أن تصيبه بسوء إن تركها {قال أتحاجوني} بِتَشْدِيدِ النُّون وَتَخْفِيفهَا بِحَذْفِ إِحْدَى النُّونَيْنِ وَهِيَ نُون الرَّفْع عِنْد النُّحَاة وَنُون الْوِقَايَة عِنْد القراء أتجادلونني {فِي} وحدانية {الله وقد هدان} تعالى إليها {ولا أخاف ما تشركون} هـ {بِهِ} مِنْ الْأَصْنَام أَنْ تُصِيبنِي بِسُوءٍ لِعَدَمِ قُدْرَتهَا عَلَى شَيْء {إِلَّا} لَكِنْ {أَنْ يَشَاء رَبِّي شَيْئًا} مِنْ الْمَكْرُوه يُصِيبنِي فَيَكُون {وَسِعَ رَبِّي كُلّ شَيْء عِلْمًا} أَيْ وَسِعَ عِلْمه كُلّ شَيْء {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} هَذَا فَتُؤْمِنُونَ.

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١).

=

قال الطبري: " ولست منكم، أي: لست ممن يدين دينكم، ويتّبع ملّتكم أيُّها المشركون".

قال السعدي: " فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان".

{وَكَيْفَ أَخَاف مَا أَشْرَكْتُمْ} بِاَللهِ وَهِيَ لَا تَضُرّ وَلَا تَنْفَع {وَلَا تَخَافُونَ} أَنْتُمْ مِنْ الله {أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاَللهِ} فِي الْعِبَادَة {مَا لَمْ يُنَزِّل بِهِ} بِعِبَادَتِهِ {عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} حُجَّة وَبُرْهَانًا وَهُوَ الْقَادِر عَلَى كُلّ شَيْء {فَأَيّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقّ بِالْأَمْنِ} أَنَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ {إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} مَنْ الْأَحَقّ بِهِ أَيْ وَهُوَ نحن فاتبعوه قال تعالى.

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢).

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا} يَخْلِطُوا {إيمانهمْ بِظُلْمٍ} أَيْ شِرْك كَمَا فُسِّرَ بِذَلِكَ فِي حَدِيث الصحيحين {أولئك لهم الأمن} من العذاب {وهم مهتدون}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن علي؛ قال: نزلت هذه الآية في إبراهيم وأصحابه خاصة ليس في هذه الأمة.

أخرجه الحاكم (٢/ ٣١٦) من طريق أبي حذيفة ثنا الثوري عن زياد بن علاقة عن زياد بن حرملة قال: سمعت عليًا (وذكره).

وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٣٣ رقم ٧٥٤٤)، والطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٧٠) من طريق قيس بن الربيع عن زياد بن علاقة به.

وهو بمجموعهما حسن إلى زياد بن عِلاقة، لكن زياد بن حرمله لم نجد له ترجمة!.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣٠٩) وزاد نسبته للفريابي وعبد بن حميد وابن مردويه.

أما الحاكم؛ فقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه! "، وسكت عنه الذهبي.

=

=

وعن بكر بن سوادة؛ قال: حمل رجل من العدو على المسلمين فقتل رجلًا، ثم حمل فقتل آخر، ثم حمل فقتل آخر، ثم قال: أينفعني الإسلام بعد هذا؟ قالوا: ما ندري حتى نذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ؛ فقال: "نعم"، فضرب فرسه فدخل فيهم، ثم حمل على أصحابه فقتل رجلًا، ثم آخر، ثم آخر؛ ثم قُتِل، قال: فيرون أن هذه الآية نزلت فيه: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٣٣ رقم ٧٥٤٥) من طريق عبيد الله بن زحر عنه به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: عبيد الله هذا ضعيف.

* قوله تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ} [الأنعام: ٨٠]، أي:" وجادله قومه في توحيد الله تعالى".

قال ابن عباس: "جادلوه في آلهتهم وخوّفوه بها".

قال الربيع:" يقول: خاصموه".

قال الطبري:" وجادل إبراهيم قومه في توحيد الله وبراءته من الأصنام، وكان جدالهم إياه قولُهم: أن آلهتهم التي يعبدونها خير من إلهه".

قال ابو السعود:" أي: شرعوا في مغالبته في أمر التوحيد".

قال الزمخشري:" وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفى الشركاء عنه منكرين لذلك".

قال القرطبي:" قوله تعالى: {وحاجه قومه} دليل على الحجاج والجدال، حاجوه في توحيد الله".

قال السعدي:" أيُّ فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه -هو بنفسه- يدعو الناس إلى ما هو عليه".

قوله تعالى: {قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ} [الأنعام: ٨٠].

=

=

وقد ذكرت حججهم في مواضع في القرآن ، منها قوله في سورة الأنبياء (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين إلى قوله وأنا على ذلكم من الشاهدين).

وقوله في سورة الشعراء (قال هل يَسْمعونكم إذْ تدعون أو ينفعونكم أو يضُرّون الآيات).

وفي سورة الصافات (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون إلى قوله فجعلناهم الأسفلين).

وكلّها محاجَّة حقيقيّة، ويدخل في المحاجّة ما ليس بحجَّة ولكنَّه ممّا يرونه حججًا بأن خوّفُوه غضب آلهتهم، كما يدلّ عليه قوله: (ولا أخاف ما تشركون به).

والتقدير: وحاجّه قومه فقالوا: كيت وكيت.

قال ابن عباس:" قال أتخاصموني في الله".

قال الطبري:" يقول: أتجادلونني في توحيدي الله وإخلاصي العمل له دون ما سواه من آلهة".

قال محمد بن إسحاق:" محمد بن إسحاق: وحاجه قومه عند ذلك في الله يستوصفونه إياه، ويخبرونه أن آلهتهم خير مما يعبد، فقال: {أتحاجوني في الله وقد هدان}".

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى: «أتحجونى» مشددتين، وقرأ نافع وابن عامر: «أتحجونى» مخففتين.

قوله تعالى: {وَقَدْ هَدَانِ} [الأنعام: ٨٠]، أي:"إلى توحيده وأنتم تريدون أن أكون مثلكم في الضلالة والجهالة وعدم الهداية".

قال الزمخشري:" يعنى إلى التوحيد".

قال الطبري:" يقول: وقد وفقني ربي لمعرفة وحدانيته، وبصّرني طريق الحقّ حتى

=

=

أيقنتُ أن لا شيء يستحق أن يعبد سواه".

قال ابو السعود:" {وقد هدان}، حال من ضمير المتكلم مؤكدة للإنكار فإن كونه عليه السلام مهديا من جهة الله تعالى ومؤيدا من عنده مما يوجب استحالة محاجته عليه السلام أي أتجادلونني في شأنه تعالى ووحدانيته والحال أنه تعالى هداني إلى الحق بعد ما سلكت طريقتك بالفرض والتقدير وتبين بطلانها تبينا تاما كما شاهدتموه".

قرأ الكسائى: «هدن» ممالة الدال، وقرأ الباقون: «هدن» بالفتح.

قوله تعالى: {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} [الأنعام: ٨٠]، أي:" فإن كنتم تخوفونني بآلهتكم أن توقع بي ضررًا فإنني لا أرهبها فلن تضرني".

قال الطبري:" يقول: ولا أرهب من آلهتكم التي تدعونها من دونه شيئًا ينالني به في نفسي من سوء ومكروه. وذلك أنهم قالوا له: «إنا نخاف أن تمسَّك آلهتنا بسوء من برص أو خبل، لذكرك إياها بسوء!»، فقال لهم إبراهيم: لا أخاف ما تشركون بالله من هذه الآلهة أن تنالَنِي بضر ولا مكروه، لأنها لا تنفع ولا تضر".

قال القرطبي:" أي: لأنه لا ينفع ولا يضر- وكانوا خوفوه بكثرة آلهتهم- إلا أن يحييه الله ويقدره فيخاف ضرره حينئذ، والهاء في {به} يحتمل أن تكون لله ﷻ، ويجوز أن تكون للمعبود".

قال السعدي:" أيٌّ فإنها لن تضرني، ولن تمنع عني من النفع شيئا".

قال ابن جريج:" دعا قومُه مع الله آلهةً، وخوّفوه بآلهتهم أن يصيبَه منها خَبَل، فقال إبراهيم: {أتحاجوني في الله وقد هدان}، قال: قد عرفت ربّي، لا أخاف ما تشركون به".

قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا} [الأنعام: ٨٠]، أي:" أي إِلا إِذا أراد ربي أن يصيبني شيءٌ من المكروه فيكون".

فالاستثناء هنا منقطع: أي: لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ والمعنى: أخبرهم أنه لا

=

=

يخاف من آلهتهم أن تلحق به ضررًا من موت أو ضرر ، إلا أن يشاء ربي ضررًا يقع بي فيقع ، فالأمر إليه ، وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وذهب قوم وزعموا أن الاستثناء متصل ، وقالوا: لا أخاف من معبوداتكم إلا أن يشاء الله أن يجعل لي منها ضررًا ، كأن يُسقط عليّ قطعة من القمر الذي تعبدون ، أو من الشمس الذي تعبدون ، وأن يخلق في الحجارة عقولًا وقوة تبطش بي بها ، وهذا كله خلاف التحقيق".

قال الطبري: " يقول: ولكن خوفي من الله الذي خلقني وخلق السماوات والأرض، فإنه إن شاء أن ينالني في نفسي أو مالي بما شاء من فناء أو بقاءٍ، أو زيادة أو نقصان أو غير ذلك، نالني به، لأنه القادر على ذلك".

قال القرطبي: " أي إلا أن يشاء أن يلحقني شي من المكروه بذنب عملته فتتم مشيئته. وهذا استثناء ليس من الأول.. وقال: {إلا أن يشاء ربي} يعني: أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم".

قال البغوي:" وليس هذا باستثناء عن الأول بل هو استثناء منقطع، معناه لكن إن يشأ ربي شيئا أي سوء، فيكون ما شاء".

قال ابو السعود:" قوله تعالى {إلا أن يشاء ربى شيئا} استثناء مفرغ من أعم الأوقات أي لا أخاف ما تشركونه به سبحانه من معبوداتكم في وقت من الأوقات إلا في وقت مشيئتهتعالى شيئا من إصابة مكروه من جهتها وذلك إنما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلا وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عَلَيْهِ السَّلَامُ إظهار منه لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلام لأمره واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته".

قوله تعالى: {وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الأنعام: ٨٠]، أي:" أحاط علمه بجميع الأشياء".

=

=

قال البغوي:" أي: أحاط علمه بكل شيء".

قال القرطبي:" أي: وسع علمه كل شي".

قال الطبري:" يقول: وعلم ربي كلَّ شيء، فلا يخفى عليه شيء، لأنه خالق كل شيء، وليس كالآلهة التي لا تضرّ ولا تنفع ولا تفهم شيئًا، وإنما هي خشبة منحوتةٌ، وصورة ممثلة".

قال ابو السعود:" كأنه تعليل للاستثناء، أي: أحاط بكل شيء علما فلا يبعد أن يكون في علمه تعالى أن يحيق بي مكروه من قبلها بسبب من الأسباب وفي الإظهار في موضع الإضمار تأكيد للمعنى المذكور واستلذاذ بذكره تعالى".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} [الأنعام: ٨٠]، أي:" تتذكرون فتعلموا أنه وحده المعبود المستحق للعبودية؟".

قال الزمخشري:" فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز".

قال الطبري:" يقول: أفلا تعتبرون، أيها الجهلة، فتعقلوا خطأ ما أنتم عليه مقيمون، من عبادتكم صورةً مصوّرة وخشبة منحوتة، لا تقدر على ضر ولا على نفع، ولا تفقه شيئًا ولا تعقله وترككم عبادةَ من خلقكم وخلق كلّ شيء، وبيده الخير، وله القدرة على كل شيء، والعالم لكل شيء".

قال ابو السعود:" أي: أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شيء ما من نفه ولا ضر فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضراري وفي إيراد التذكر دون التفكر ونظائره غشارة إلى أن أمر أصنامهم مركوز في العقول لا يتوقف إلى على التذكر".

(تنبيه): الخوف من غير الله تعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إلى ما هو شرك؛ وإلى ما هو محرم؛ وإلى ما هو مباح.

أولا:- الخوف الشركي: وهو خوف السر (خوف التعظيم - خوف العبودية)

=

=

يعني أن يخاف في داخله من هذا المخوف منه من أن يمسه بسوء، وهذا النوع مناف لأصل التوحيد.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى عن إبراهيم وقومه: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} [الأنعام: ٨٠].

يفهم من الآية: أن الخوف من الشيطان وأوليائه مناف للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك؛ فهو مناف لأصله، وإلا فهو مناف لكماله.

وأيضا قوله تعالى عن هود وقومه: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ} [هود:٥٤ - ٥٥].

وكما في قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: ٣٦].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره: قوله {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} [الزمر: ٣٦]:، قال: "يعني المشركين - يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلا منهم وضلالا؛ ولهذا قال ﷻ: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧)} [الزمر: ٣٦ - ٣٧] أي: منيع الجناب، لا يضام من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ولا أشد انتقاما منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

ثانيا:- الخوف المحرم: وهو أن يخاف من مخلوق؛ فيطيعه في معصية الله، أو يترك ما أوجبه الله عليه - خوفا من عقابه -، بحيث أنه إذا هدده إنسان وأمره بفعل محرم فخافه - وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به - فهذا خوف محرم، لأنه يؤدي

=

=

إلى فعل محرم بلا عذر ، وهذا النوع مناف لكمال التوحيد الواجب.

وفي الحديث:"ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده؛ فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق؛ أن يقول بحق أو يذكر بعظيم".

وكما في وصية النبي ﷺ لأبي ذر:"وأن لا أخاف في الله لومة لائم".

ثالثا:- الخوف الطبيعي: وهذا أمر طبيعي؛ كالخوف من عدو أو سبع، أو نار، أو مؤذ ومهلك ونحو ذلك، كما كان النبي ﷺ يعوذ بالله من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم.

وهذا النوع مباح لا يتعلق به مدح ولا ذم إلا إن أدى إلى محظور شرعي.

والخوف من الله تعالى درجات، فمن الناس من يغلو في خوفه؛ فيقنط من رحمة ربه؛ فلا يستغفره ولا ينتهي عن معصيته! ومنهم من يفرط فيه؛ فلا يأبه بعذاب ربه؛ فلا ينتهي أيضا عن معصيته، ومنهم من يعتدل في خوفه - وهذا هو الخوف العدل - وضابطه أنه يرد العبد عن محارم الله فقط ولا يقنطه.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "والقدر الواجب من الخوف؛ ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسط في فضول المباحات؛ كان ذلك فضلا محمودا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضا أو موتا أو هما لازما بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل؛ لم يكن محمودا".

قوله تعالى: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [الأنعام: ٨١].

أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدون من دون الله ، التي لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق.

وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار، كيف أخاف هذه الجمادات التي لا تنفع ولا

=

=
تضر، وأنتم لا تخافون جبار السماوات والأرض.
قال الرازي: "لأن الخوف إنما يحصل ممن يقدر على النفع والضر ، والأصنام جمادات لا تقدر ولا قدرة لها على النفع والضر ، فكيف يحصل الخوف منها؟".
قال محمد بن إسحاق:" يقول: كيف أخاف وثَنًا تعبدون من دون الله لا يضرُّ ولا ينفع".
قال ابن كثير:" أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدون من دون الله".
قال البغوي:" يعني الأصنام، وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع".
قال الطبري:" وهذا جواب إبراهيم لقومه حين خوفوه من آلهتهم أن تمسَّه، لذكره إياها بسوء في نفسه بمكروه، فقال لهم: وكيف أخاف وأرهب ما أشركتموه في عبادتكم ربَّكم فعبدتموه من دونه، وهو لا يضر ولا ينفع؟ ولو كانت تنفع أو تضر، لدفعت عن أنفسها كسرِى إياها وضربي لها بالفأس!".
قال القرطبي:" في {كيف} معنى الإنكار، أنكر عليهم تخويفهم إياه بالأصنام وهم لا يخافون الله ﷻ، أي كيف أخاف مواتا".
قال السمعاني:" الإشراك: هو الجمع بين الشيئين في معنى؛ فالإشراك بالله: هو أن يجمع مع الله غير الله فيما لا يجوز إلا لله، ومعنى الآية: وكيف أخاف الأصنام وما أشركتم".
قوله تعالى: {وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} [الأنعام: ٨١]، أي:" وأنتم لا تخافون ربي الذي خلقكم، وخلق أوثانكم التي أشركتموها معه في العبادة، من غير حجة لكم على ذلك؟".
قال محمد بن إسحاق:" ولا تخافون أنتم الذي يضر وينفع، وقد جعلتم معه شركاء لا تضر ولا تنفع؟".
قال الزجاج:" أي: ولا تخافون أنتم شرككم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، أي:
=

=

حجة بينة".

قال الطبري: أي:"وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضركم في إشراككم في عبادتكم إياه، {ما لم ينزل به عليكم سلطانًا}، يعني: ما لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته حُجّة، ولم يضع لكم عليه برهانًا، ولم يجعل لكم به عذرًا".

قال السمعاني: أي:" وأنتم أحق بالخوف مني حيث أشركتم بالله، ولا تخافون الله بشرككم أو فعلكم الذي لم ينزل به الله حجة وسلطانا؟".

قال الزمخشري:" {سلطانا} أى: حجة، لأن الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة، كأنه قال: وما لكم تنكرون على الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف".

قال البغوي:" {سلطانا}، حجة وبرهانا".

عن ابن عباس:" كل سلطان في القرآن حجة".

قال ابن ابي حاتم:"وروي، عن أبي مالك ومحمد بن كعب وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدي ونضر بن عربي، مثله".

قوله تعالى: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ} [الأنعام: ٨١]، أي:" فأي الفريقين: فريق المشركين وفريق الموحدين أحق بالطمأنينة والسلامة والأمن من عذاب الله؟".

قال محمد بن إسحاق:" أي: بالأمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة، الذي يَعْبد الذي بيده الضرّ والنفع، أم الذي يعبد ما لا يضرّ ولا ينفع؟ يضرب لهم الأمثال، ويصرِّف لهم العبر، ليعلموا أنَّ الله هو أحق أن يخاف ويعبد مما يعبُدون من دونه".

قال الزجاج:" أي: أحق بأن يأمن من العذاب، الموحد أم المشرك".

=

=

قال البغوي: يقول" أنا وأهل ديني أم أنتم؟".

قال ابن كثير:" فأي الطائفتين أصوب؟ الذي عَبَد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟".

قال الطبري:" يقول: أنا أحق بالأمن من عاقبة عبادتي ربّي مخلصًا له العبادة، حنيفًا له ديني، بريئًا من عبادة الأوثان والأصنام، أم أنتم الذين تعبدون من دون الله أصنامًا لم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها برهانًا ولا حجة".

قال الزمخشري:" ولم يقل: فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم، احترازا من تزكيته نفسه، فعدل عنه إلى قوله: {فأي الفريقين}، يعنى: فريقى المشركين والموحدين".

عن مجاهد:" قول إبراهيم حين سألهم: {أيُّ الفريقين أحق بالأمن}، هي حجة إبراهيم ﷺ".

عن ابن جريج قال:" {فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون}، أمَنْ يعبد ربًّا واحدًا، أم من يعبد أربابًا كثيرة؟ يقول قومه: الذين آمنوا برب واحد".

عن ابن زيد:" قوله: {فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون}، أمن خاف غير الله ولم يخفه، أم من خاف الله ولم يخف غيره؟ فقال الله تعالى ذكره:"الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم"، الآية".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٨١]، أي:" إن كنتم تعلمون صدق ما أقول فأخبروني".

قال الطبري:" يقول: إن كنتم تعلمون صدق ما أقول، وحقيقة ما أحتجُّ به عليكم، فقولوا وأخبروني: أيُّ الفريقين أحق بالأمن؟".

قال الربيع:" أفلج الله إبراهيم ﷺ حين خاصمهم، فقال: {وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا فأيّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون}؟ ثم قال: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على

=

=
قومه}".
قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ٨٢]، أي:" الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه ولم يخلطوا إيمانهم بشرك".
قال ابن كثير:" أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك، له، ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة".
وفي الظلم ها هنا قولان:
أحدهما: أنه الشرك، قاله ابن مسعود ، وأُبَيّ بن كعب ، وسلمان ، وحذيفة ، وابن عباس ، وأبو ميسرة ، وإبراهيم ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، والسدي ، وأبو عبدالرحمن ، وابن إسحاق.
روى البخاري عن ابن مسعود قال:" لما نزلت هذه الآية: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم}، شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: ليس كما تظنُّون، وإنما هو ما قال لقمان لابنه: {لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]".
قال شيخ الإسلام: الذي شق عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد لنفسه ، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ، فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلمٌ في كتاب الله ، وحينئذٍ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبسوا إيمانهم بظلم.
(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك ، له ، ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون في الدنيا والآخرة.
والثاني: أنه سائر أنواع الظلم، والمعنى: ولم يخلطوا إيمانهم بشيء من معاني الظلم، وذلك: فعلُ ما نهى الله عن فعله، أو ترك ما أمر الله بفعله، وقالوا: الآية على
=

=

العموم، لأن الله لم يخصَّ به معنى من معاني الظلم.

ومن قال بهذا اختلفوا في عمومها وخصوصها على قولين:

أحدهما: أنها عامة.

والثاني: أنها خاصة.

واختلف من قال بتخصيصها فيمن نزلت على قولين:

أحدهما: أن هذه الآية نزلت في إبراهيم خاصة وليس لهذه الأمة منها شيء، قاله علي كرّم الله وجهه.

والثاني: أنها فيمن هاجر إلى المدينة، قاله عكرمة.

قال أبو جعفر الطبري:" وأولى القولين بالصحة في ذلك، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ، وهو الخبر الذي رواه ابن مسعود عنه أنه قال: الظلم الذي ذكره الله تعالى ذكره في هذا الموضع، هو الشرك".

واختلفوا فيمن كانت هذه الآية جوابًا منه على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه جواب من الله تعالى فصل به بين إبراهيم ومن حَاجّه من قومه، قاله ابن زيد ، وابن إسحاق.

والثاني: أنه جواب قومه لما سألهم: {أَيُّ الْفَرِيقَينِ أَحَقُّ بِالأمْنِ}؟ فأجابوا بما فيه الحجة عليهم، قاله ابن جريج.

والثالث: أنه جواب إبراهيم كما يسأل العالم نفسه فيجيبها، حكاه الزجاج.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢]، أي:" أولئك لهم الطمأنينة والسلامة، وهم الموفقون إلى طريق الحق".

قال الطبري:" يعني: هؤلاء الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك {لهم الأمن} يوم القيامة من عذاب الله، وهم المصيبون سبيل الرشاد، والسالكون طريق النجاة".

=

=

قوله تعالى (لهم الأمن) هل أمن كامل أم لا؟

نقول: إن كان إيمانه كاملًا وسليمًا من المعاصي فله الأمن الكامل ، وأما إذا سلم من الشرك الأكبر ولم يسلم من الشرك الأصغر وبعض الذنوب ، فهدايته وأمنه ليس كاملًا.

مثال ذلك: مرتكب الكبيرة آمن من الخلود في النار ، وغير آمن من العذاب ، بل هو تحت المشيئة.

وأما من وافى الله محققًا للتوحيد ، فإنه آمن أمنًا مطلقًا ، آمن من الخلود في النار ، وآمن من العذاب.

قال شيخ الإسلام: فمن سلم من أجناس الظلم الثلاث ، يعني الظلم الذي هو الشرك ، وظلم العباد ، وظلمه لنفسه بما دون الشرك ، كان له الأمن التام والاهتداء التام).

قال السعدي: قوله تعالى (لهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء ، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم ، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا ، لا بشرك ، ولا بمعاص ، حصل لهم الأمن التام ، والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ، ولكنهم يعملون السيئات ، حصل لهم أصل الهداية ، وأصل الأمن ، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة ، أن الذين لم يحصل لهم الأمران ، لم يحصل لهم هداية ، ولا أمن ، بل حظهم الضلال والشقاء.

والقاعدة: الحكم إذا علق بوصف ، فإنه يزيد بزيادته وينقص بنقصانه ، فمن جاء بالإيمان الكامل فله الهدى والأمن الكامل ، وإذا كان ناقصًا نقص بقدر ما نقص من الإيمان.

قال ابن تيمية: ومن تدبر أحوال العالم وجد كلَّ صلاح في الأرض سببه توحيدُ الله

=

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣).

{وَتِلْكَ} مُبْتَدَأ وَيُبْدَل مِنْهُ {حُجَّتنَا} الَّتِي احْتَجَّ بِهَا إبْرَاهِيم عَلَى وَحْدَانِيَّة الله مِنْ أُفُول الْكَوْكَب وَمَا بَعْده وَالْخَبَر {آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيم} أَرْشَدْنَاهُ لَهَا حُجَّة {عَلَى قَوْمه نَرْفَع دَرَجَات مَنْ نَشَاء} بِالْإِضَافَةِ وَالتَّنْوِين فِي الْعِلْم وَالْحِكْمَة {إنَّ رَبّك حَكِيم} فِي صُنْعه {عَلِيم} بِخَلْقِهِ.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤).

{وَوَهَبْنَا لَهُ إسْحَاق وَيَعْقُوب} ابْنه {كُلًّا} مِنْهُمَا {هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل إبْرَاهِيم {وَمِنْ ذُرِّيَّته} أَيْ نُوح {دَاوُد وَسُلَيْمَان} ابنه {وأيوب ويوسف} بن يعقوب {وموسى وهارون وكذلك} كما جزيناهم {نجزي المحسنين}.

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥).

=

وعبادتُه وطاعةُ رسوله، وكلَّ شرٍ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليطِ عدو وغيرِ ذلك سببه مخالفة الرسول، والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عموما وخصوصا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

{وزكريا ويحيى} ابنه {وعيسى} بن مَرْيَم يُفِيد أَنَّ الذُّرِّيَّة تَتَنَاوَل أَوْلَاد الْبِنْت {وإلياس} بن أخي هارون أخي موسى {كل} منهم {من الصالحين}.

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦).

{وإسماعيل} بن إبراهيم {واليسع} اللام زائدة {ويونس ولوطا} بن هَارَانِ أَخِي إبْرَاهِيم {وَكُلًّا} مِنْهُمْ {فَضَّلْنَا عَلَى العالمين} بالنبوة.

وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧).

{وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتهمْ وَإِخْوَانهمْ} عُطِفَ عَلَى كُلًّا أَوْ نُوحًا وَمِنْ لِلتَّبْعِيضِ لِأَنَّ بَعْضهمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَد وَبَعْضهمْ كَانَ فِي وَلَده كافر {واجتبيناهم} اخترناهم {وهديناهم إلى صراط مستقيم}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام: ٨٣]، أي:" وتلك الحجة التي حاجَّ بها إبراهيم عليه السلام قومه هي حجتنا التي وفقناه إليها حتى انقطعت حجتهم".

قال ابن كثير:" أي: وجهنا حجته على قومه".

قال الطبري:" قولَ إبراهيم لمخاصميه من قومه المشركين: {أي الفريقين أحق بالأمن}، أمن يعبد ربًّا واحدًا مخلصًا له الدين والعبادة، أم من يعبد أربابًا كثيرة؟ وإجابتهم إياه بقولهم: بل من يعبد ربًّا واحدًا أحق بالأمن، وقضاؤهم له على =

=

أنفسهم، فكان في ذلك قطع عذرهم وانقطاع حجتهم، واستعلاء حجة إبراهيم عليهم، فهي الحجةالتي آتاها الله إبراهيم على قومه".

قال القرطبي: " {تلك}، إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة".

قال الشنقيطي: "قوله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ) قال مجاهد وغيره هي قوله تعالى (وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن) الآية ، وقد صدقه الله ، وحكم له بالأمن والهداية ، فقال (الذين آمَنُوا وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ) والظاهر شمولها لجميع احتجاجاته عليهم ، كما في قوله (لا أُحِبُّ الآفلين) ، لأن الأفول الواقع في الكوكب والشمس والقمر أكبر دليل وأوضح حجة على انتفاء الربوبية عنها ، وقد استدل إبراهيم عليه ، وعلى نبينا الصلاة والسلام بالأفول على انتفاء الربوبية في قوله (لا أُحِبُّ الآفلين) فعدم إدخال هذه الحجة في قوله (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ) غير ظاهر ، وبما ذكرنا من شمول الحجة لجميع احتجاجاته المذكورة صدر القرطبي ، والعلم عند الله تعالى".

قال ابن عاشور: "فإيتاء الحجّة إلهامُه إيّاها وإلقاءُ ما يعبِّر عنها في نفسه ، وهو فضل من الله على إبراهيم إذ نصره على مناظريه".

وفي هذه «الحجة» التي أوتيها إبراهيم-عليه السلتم-، ثلاثة أقوال:

أحدها: قوله لهم: {أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا} أم تعبدون من يملك الضر والنفع؟ فقالوا: مالك الضر والنفع أحق.

والثاني: أنه لما قال: {فَأَيُّ الْفَرِيقَينِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ}، عبادة إله واحد أم آلهة شتى؟ فقالوا: عبادة إله واحد فأقروا على أنفسهم. وهذا قول مجاهد ، وهو اختيار أبي جعفر الطبري.

=

=

والثالث: أنهم لما قالوا لإبراهيم ألا تخاف أن تخبلك آلهتنا؟ فقال: أما تخافون أن تخبلكم آلهتكم بجمعكم للصغير مع الكبير في العبادة.

واختلفوا في سبب ظهور الحجَّة لإبراهيم على قولين:

أحدهما: أن الله تعالى أخطرها بباله حتى استخرجها بفكره.

والثاني: أنه أمره بها ولقنه إياها.

قوله تعالى: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ} [الأنعام: ٨٣]، أي:" نرفع مَن نشاء من عبادنا مراتب في الدنيا والآخرة".

قال البغوي: أي:"بالعلم".

قال الزمخشري:" يعنى: في العلم والحكمة".

قال مالك: "سمعت زيد بن أسلم يقول في هذه الآية: {نرفع درجات من نشاء}: إنه العلم، يرفع الله به من يشاء في الدنيا".

قرأ أهل الكوفة ويعقوب: «درجات» بالتنوين -هاهنا وفي سورة يوسف-، أي: نرفع درجات من نشاء بالعلم والفهم والفضيلة والعقل، كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى وحاج قومه في التوحيد.

وهذه الآية تدل على أن من علمه الله الحُجج ومناظرات الخصوم التي يثبت بها التوحيد ويدفع بها شبه المبطلين ، فإن الله يرفع من درجاته حيث أتبع قوله (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) أتبعه بقوله (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ) أي: كما رفعنا درجة إبراهيم ، بما آتيناه من تلك الحجة التي صدع بها بالحق ، وقهر بها الخصوم.

والدرجة المنزلة والمرتبة.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (نرفع درجات من نشاء) في المعنى قولان.

أحدهما: أن الرفع بالعلم والفهم والمعرفة.

والثاني: بالاصطفاء للرسالة.

=

=

وقال القرطبي: قوله تعالى (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ) أي بالعلم والفهم والإمامة والملك.

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ٨٣]، أي:" إن ربك حكيم في تدبير خلقه، عليم بهم".

عن أبي العالية: "{حكيم}، يقول: حكيم في أمره".

قال محمد ابن إسحاق:"حكيم في عذره وحجته إلى عباده" ، "عليم بما يخفون".

قال ابن كثير:" أي: حكيم في أفعاله وأقواله {عَلِيمٌ} أي: بمن يهديه ومن يضله، وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس: ٩٦، ٩٧]".

قال الطبري:" يعني: إن ربك، يا محمد، {حكيم}، في سياسته خلقَه، وتلقينه أنبياءه الحجج على أممهم المكذّبة لهم، الجاحدة توحيد ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره، {عليم}، بما يؤول إليه أمر رسله والمرسل إليهم، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياهم، وهلاكهم على ذلك، أوإنابتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى ذكره وتصديق رسله، والرجوع إلى طاعته، يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: فأَنَسِ، يا محمد، في نفسك وقومك المكذبيك، والمشركين، بأبيك خليلي إبراهيم ﷺ، واصبر على ما ينوبك منهم صبرَه، فإني بالذي يؤول إليه أمرك وأمرهم عالم، وبالتدبير فيك وفيهم حكيم".

قال الرازي: "المعنى أنه إنما يرفع درجات من يشاء بمقتضى الحكمة والعلم ، لا بموجب الشهوة والمجازفة، فإن أفعال الله منزهة عن العبث والفساد والباطل".

قال السعدي: "فلا يضع العلم والحكمة إلا في المحل اللائق بهما وهو أعلم بذلك المحل ، وبما ينبغي له".

قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} [الأنعام: ٨٤].

=

=

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعَن في السن ، وأيس هو وامرأته (سارة) من الولد ، فجاءت الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) وبشروهما مع وجوده بنبوته ، وأن له نسلًا وعقبًا كما قال (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) أي: يولد لهذا المولود ولد في حياتِكما ، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب.

وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه كما قال تعالى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا).

قال القرطبي: " أي: جزاء له على الاحتجاج في الدين وبذل النفس فيه".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فجزينا إبراهيم ﷺ على طاعته إيانا، وإخلاصه توحيد ربه، ومفارقته دين قومه المشركين بالله، بأن رفعنا درجته في عليين، وآتيناه أجره في الدنيا، ووهبنا له أولادًا خصصناهم بالنبوّة، وذرية شرفناهم منا بالكرامة، وفضلناهم على العالمين، منهم: ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب".

قال ابن كثير: " يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق، بعد أن طَعَن في السن، وأيس هو وامرأته "سارة" من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} [هود: ٧٢، ٧٣]، وبشروه مع

=

=

وجوده بنبوته، وبأن له نسلا وعَقِبا، كما قال: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [الصافات: ١١٢]، وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود: ٧١] أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يَعْقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم "يعقوب"، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم، عليه السلام، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله، عز وجل، عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا} [مريم: ٤٩]، وقال هاهنا: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلا هَدَيْنَا}".

قال السعدي:"{يَعْقُوبَ} ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين".

قوله تعالى: {كُلًّا هَدَيْنَا} [الأنعام: ٨٤]، أي:" ووفَّقنا كلا منهما لسبيل الرشاد". وهذا تمام إقرار العين ، لأن الولد إذا كان غير صالح لم يكن قرة عين ، فهبته والنعمة به إنما تتم إذا كان مهديًا ، لا إن كان غير مهدي.

قال القرطبي:" أي: كل واحد منهم مهتد".

قال البغوي: أي:" أووفقنا وأرشدنا".

قال الطبري:" يقول: هدينا جميعهم لسبيل الرشاد، فوفقناهم للحق والصواب من الأديان".

قال السعدي:" {كُلا} منهما {هَدَيْنَا} الصراط المستقيم، في علمه وعمله".

قال أبو حيان: قوله تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) (إسحاق) ابنه لصلبه من

=

=

سارة ويعقوب ابن إسحاق كما قال تعالى (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) وعدد تعالى نعمه على إبراهيم فذكر إيتاءه الحجة على قومه ، وأشار إلى رفع درجاته وذكر ما منّ به عليه من هبته له هذا النبي الذي تفرعت منه أنبياء بني إسرائيل ، ومن أعظم المنن أن يكون من نسل الرجل الأنبياء والرسل ولم يذكر إسماعيل مع إسحاق.

قوله تعالى: {وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ} [الأنعام: ٨٤]، أي:" وكذلك وفَّقنا للحق نوحًا -من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب-".

قال الطبري: أي:" ونوحًا وفقنا للحق والصواب من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب".

قال ابن كثير:" أي: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح، عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه في السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم، عليه السلام، لم يبعث الله، عز وجل، بعده نبيا إلا من ذريته، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} الآية [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨]".

قال البغوي: {مِنْ قَبْلُ} " أي: من قبل إبراهيم".

قال الخازن: يعني من قبل إبراهيم أرشدنا نوحًا ووفقناه للحق والصواب ومنَنّا عليه بالهداية.

=

=

وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه في السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذرية نوح ، وكذلك الخليل إبراهيم عليه السلام ، لم يبعث الله عز وجل بعده نبيًا إلا من ذريته كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ).

قال السعدي:" وهدايته من أنواع الهدايات الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم من الرسل، الذي هو أحدهم".

قوله تعالى: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} [الأنعام: ٨٤].

أي: وهدينا من ذريته داود وسليمان.. ، والضمير يعود إلى نوح ، لأنه أقرب مذكور ، وهذا اختيار ابن جرير وابن عطية.

قال الخازن: وهو اختيار جمهور المفسرين.

قال الرازي: قوله تعالى (ومن ذرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وسليمان).

فقيل: المراد ومن ذرية نوح ، ويدل عليه وجوه: الأول: أن نوحًا أقرب المذكورين وعود الضمير إلى الأقرب واجب.

الثاني: أنه تعالى ذكر في جملتهم لوطًا وهو كان ابن أخ إبراهيم وما كان من ذريته ، بل كان من ذرية نوح عليه السلام ، وكان رسولًا في زمان إبراهيم.

الثالث: أن ولد الإنسان لا يقال أنه ذريته، فعلى هذا إسماعيل - عليه السلام - ما كان من ذرية إبراهيم، بل هو من ذرية نوح - عليه السلام -.

الرابع: قيل إن يونس عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وكان من ذرية نوح عليه السلام.

والقول الثاني: أن الضمير عائد إلى إبراهيم عليه السلام ، والتقدير: ومن ذرية إبراهيم داود وسليمان.

=

=

واحتج القائلون بهذا القول: بأن إبراهيم هو المقصود بالذكر في هذه الآيات وإنما ذكر الله تعالى نوحًا لأن كون إبراهيم عليه السلام من أولاده أحد موجبات رفعة إبراهيم.

قال الطبري: أي:" وهدينا أيضًا من ذرّية نوح، داود وسليمان [وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ].. و «الهاء» التي في قوله: {ومن ذريته}، من ذكر نوح. وذلك أن الله تعالى ذكره ذكر في سياق الآيات التي تتلو هذه الآية لوطًا فقال: {وإسماعيل واليسع ويونس ولوطًا وكلا فضلنا على العالمين}، ومعلوم أن لوطًا لم يكن من ذرية إبراهيم صلى الله عليهم أجمعين. فإذا كان ذلك كذلك، وكان معطوفًا على أسماء من سمَّينا من ذريته، كان لا شك أنه لو أريد بالذرية ذرية إبراهيم، لما دخل يونس ولوط فيهم. ولا شك أن لوطًا ليس من ذرّية إبراهيم، ولكنه من ذرية نوح، فلذلك وجب أن تكون «الهاء» في «الذرية» من ذكر نوح".

قال ابن كثير:" {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ} أي: وهدينا من ذريته {دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ} الآية، وعود الضمير إلى "نوح"؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر. وهو اختيار ابن جرير، ولا إشكال عليه. وعوده إلى "إبراهيم"؛ لأنه الذي سبق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك "لوط"، فإنه ليس من ذرية "إبراهيم"، بل هو ابن أخيه مادان بن آزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبًا، كما في قوله تعالى: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٣]، فإسماعيل عمه، ودخل في آبائه تغليبا. وكما قال في قوله: {فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلا إِبْلِيسَ} [الحجر: ٣٠، ٣١] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة؛ لأنه كان قد تشبه بهم، فعومل معاملتهم، ودخل معهم تغليبا، وكان من الجن وطبيعتهم النار والملائكة من النور".

قال البغوي:" {ومن ذريته} أي ومن ذرية نوح عليه السلام، ولم يرد من ذرية إبراهيم

=

=

لأنه ذكر في جملتهم يونس ولوطا ولم يكونا من ذرية إبراهيم {داود} يعني: داود بن أيشا، {وسليمان} يعني ابنه، {وأيوب} وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، {ويوسف} هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، {وموسى} وهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب. {وهارون} هو أخو موسى أكبر منه بسنة".

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الأنعام: ٨٤]، أي:" وكما جزينا هؤلاء الأنبياء بإحسانهم نجزي كل محسن".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: جزينا نوحًا بصبره على ما امتحن به فينا، بأن هديناه فوفقناه لإصابة الحق الذي خذلنا عنه من عصانا فخالف أمرنا ونهينا من قومه، وهدينا من ذريته من بعده من ذكر تعالى ذكره من أنبيائه لمثل الذي هديناه له. وكما جزينا هؤلاء بحسن طاعتهم إيانا وصبرهم على المحن فينا، كذلك نجزي بالإحسان كل محسن".

قال البغوي:" أي: وكما جزينا إبراهيم على توحيده بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولادا أنبياء أتقياء كذلك، {نجزي المحسنين} على إحسانهم، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم".

قال أبو حيان:" (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ) وقرنهما لأنهما أب وابن ولأنهما ملكان نبيان ، وقدم داود لتقدمه في الزمان ولكونه صاحب كتاب ولكونه أصلًا لسليمان وهو فرعه (وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ) قرنهما لاشتراكهما في الامتحان ، أيوب بالبلاء في جسده ونبذ قومه له ، ويوسف بالبلاء بالسجن ولغربته عن أهله ، وفي مآلهما بالسلامة والعافية ، وقدم أيوب لأنه أعظم في الامتحان".

قوله تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥)} [الأنعام: ٨٥].

=

=

وكذلك هدينا زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وكل هؤلاء الأنبياء عليهم السلام من الصالحين.

قوله تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ} [الأنعام: ٨٥]، أي:" وكذلك هدينا زكريا ويحيى وعيسى وإلياس".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وهدينا أيضًا لمثل الذي هدينا له نوحًا من الهدى والرشاد من ذريته: زكريا بن إدُّو بن برخيًّا، ويحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم ابنة عمران بن ياشهم بن أمون بن حزقيا، وإلياس".

قال البغوي:" {وزكريا} وهو زكريا بن آذن، {ويحيى} وهو ابنه، {وعيسى} وهو ابن مريم بنت عمران".

مسألة: عيسى عليه السلام لا أب له؛ وبهذا استدل من قال بأن أولاد البنات ينسبون لجدهم، وأنهم يدخلون في الوقف عند إطلاقه في الذرية والأولاد، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين:

فذهب قوم: إلى أن أولاد البنات في حكم أولاد البنين، فمن أوقف مالا على ذريته وأولاده، فإن أولاد البنات كأولاد البنين؛ لهذه الآية، ولأن النبي ﷺ قال للحسن بن علي: (إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) (٣).

وبهذا القول قال أبو حنيفة والشافعي، وهو رواية عن أحمد، وجاء عن غيرهم، وغلط ابن الحاجب في حكاية الإجماع.

وقد ذهب آخرون: إلى أن أولاد البنات لا يدخلون في حكم الأولاد ولا أولادهم؛ وبهذا قال مالك، وهو رواية أخرى عن أحمد، وهو الأشهر في مذهبه عند المتأخرين؛ وذلك هو المعروف عند العرب، وعلى عرفهم نزل القرآن، ومنه قوله تعالى: {يوصيكم الله في أولادكم} [النساء - ١١]، فلا ينصرف إلا إلى الأولاد

=

=

وأولاد الأبناء دون البنات.

قوله تعالى: (وَإِلْيَاسَ) - عليه السلام - ، وقد ذكر الله قصته في آيات من كتابه ، وبيّن أنه رسول كريم ، وبيّن في سورة الصافات محاجته لقومه في قوله (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ. أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ).

قال أبو حيان: قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا وبدأ بزكريا ويحيى لسبقهما عيسى في الزمان ، وقدّم زكريا لأنه والد يحيى فهو أصل ، ويحيى فرع وقرن عيسى وإلياس لاشتراكهما في كونهما لم يموتا بعد وقدّم عيسى لأنه صاحب كتاب ودائرة متسعة.

واختلفوا في «إِلْيَاسَ» على ثلاثة اقوال:

أحدها: أنه إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، ابن أخي موسى نبيّ الله ﷺ. قاله ابن إسحاق.

والثاني: أنه إدريس، كما أن إسرائيل هو يعقوب. وهذا قول عبد الله بن مسعود.

قال البغوي:" والصحيح أنه غيره، لأن الله تعالى ذكره في ولد نوح، وإدريس جد أبي نوح وهو إلياس ياسين بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران".

والثالث: أنه جدّ نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، و «أخنوخ» هو «إدريس بن يرد بن مهلائيل». وهذا قول وهب بن منبه ، وبه قال أهل الأنساب ، وهو اختيار أبي جعفر الطبري.

قال الطبري:" والذي يقول أهل الأنساب أشبه بالصواب، وذلك أنّ الله تعالى ذكره نسب «إلياس» في هذه الآية إلى «نوح»، وجعله من ذريته، و «نوح» ابن إدريس عند أهل العلم، فمحال أن يكون جدّ أبيه منسوبًا إلى أنه من ذريته".

قوله تعالى: {كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ} [الأنعام: ٨٥]، أي:" وكل هؤلاء الأنبياء عليهم

=

=

السلام من الصالحين".

قال الطبري:" يقول: من ذكرناه من هؤلاء الذين سمينا {من الصالحين}، يعني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس صلى الله عليهم".

قال ابن كثير:" وفي ذكر «عيسى» -عليه السلام- في ذرية «إبراهيم» -أو «نوح»، على القول الآخر- دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال؛ لأن «عيسى»، عليه السلام، إنما ينسب إلى «إبراهيم»، عليه السلام، بأمه «مريم» -عليها السلام-، فإنه لا أب له.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي حرب بن أبي الأسود قال: «أرسل الحجاج إلى يحيى بن يَعْمُر فقال: بَلَغَني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ، تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ} حتى بلغ {وَيَحْيَى وَعِيسَى}؟ قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صدقت».

فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربي:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأجانب

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيه أيضا، لما ثبت في صحيح البخاري، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» فسماه ابنا، فدل على دخوله في الأبناء.

وقال آخرون: هذا تجوز".

قوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)} [الأنعام: ٨٦].

وهدينا كذلك إسماعيل واليسع ويونس ولوطا، وكل هؤلاء الرسل فضَّلناهم على

=

=

أهل زمانهم.

قوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا} [الأنعام: ٨٦]، أي:" وهدينا كذلك إسماعيل واليسع ويونس ولوطا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وهدينا أيضًا من ذرية نوح: إسماعيل، وهو: إسماعيل بن إبراهيم، واليسع: هو اليسع بن أَخْطُوب بن العجوز، ويونس، هو: يونس بن متى، ولوطًا، بينا الحق لهم، ووفقناهم له".

قال البغوي:" {وإسماعيل} وهو ولد إبراهيم، {واليسع} وهو ابن أخطوب بن العجوز، {ويونس} وهو يونس بن متى، {ولوطا} وهو لوط بن هاران بن أخي إبراهيم".

وقرأ ذلك حمزة والكسائي: «وَاللَّيْسَعَ» بلامين، وبالتشديد، وقالوا: إذا قرئ كذلك، كان أشبه بأسماء العجم، وأنكروا التخفيف.

قال أبو جعفر الطبري:" والصواب من القراءة في ذلك عندي، قراءةُ من قرأه بلام واحدة مخففة، لإجماع أهل الأخبار على أن ذلك هو المعروف من اسمه، دون التشديد، مع أنه اسم أعجمي، فينطق به على ما هو به.

وإنما يُعْلَم دخول «الألف واللام» فيما جاء من أسماء العرب على: يفعل. وأما الاسم الذي يكون أعجميًّا، فإنما ينطق به على ما سَمَّوا به. فإن غُيِّرَ منه شيء إذا تكلمت العرب به، فإنما يغيّر بتقويم حرف منه من غير حذف ولا زيادة فيه ولا نقصان. و"الليسع" إذا شدد، لحقته زيادة لم تكن فيه قبل التشديد. وأخرى، أنه لم يحفظ عن أحد من أهل العلم علمنا أنه قال: اسمه"ليسع". فيكون مشددًا عند دخول «الألف واللام» اللتين تدخلان للتعريف".

قوله تعالى: {وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٨٦]، أي:" وكل هؤلاء الرسل فضَّلناهم على أهل زمانهم".

=

=

قال الطبري والبغوي:" يعني: على عالم أزمانهم".

قال السعدي:" درجات الفضائل أربع - وهي التي ذكرها الله بقوله: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصصهم الله [ص:٢٦٤] في كتابه، أفضل ممن لم يقص علينا نبأهم بلا شك".

قوله تعالى: {وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧)} [الأنعام: ٨٧]

وكذلك وفَّقنا للحق من شئنا هدايته من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم، واخترناهم لديننا وإبلاغ رسالتنا إلى مَن أرسلناهم إليهم، وأرشدناهم إلى طريق صحيح، لا عوج فيه، وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشرك.

قوله تعالى: {وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ} [الأنعام: ٨٧]، أي:" وكذلك وفَّقنا للحق من شئنا هدايته من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وهدينا أيضًا من آباء هؤلاء الذين سماهم تعالى ذكره آخرين سواهم، لم يسمهم، للحق والدين الخالص الذي لا شرك فيه، فوفقناهم له".

قال ابن كثير:" ذكر أصولهم وفروعهم. وذوي طبقتهم، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم".

قال السعدي:" أي: وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم".

قال البغوي:" {مِنْ} فيه للتبعيض، لأن آباء بعضهم كانوا مشركين، {وذرياتهم} أي: ومن ذرياتهم. وأراد به ذرية بعضهم: لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد، وكان في ذرية بعضهم من كان كافرا".

=

ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨).

{ذَلِكَ} الدِّين الَّذِي هُدُوا إلَيْهِ {هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده وَلَوْ أشركوا} فرضا {لحبط عنهم ما كانوا يعملون}.

=

قوله تعالى: {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ} [الأنعام: ٨٧]، أي:" واخترناهم لديننا وإبلاغ رسالتنا إلى مَن أرسلناهم إليهم".

قال مجاهد:" أخلصناهم".

قال البغوي: أي:" اخترناهم واصطفيناهم".

قال الطبري:" يقول: واخترناهم لديننا وبلاغ رسالتنا إلى من أرسلناهم إليه، كالذي اخترنا ممن سمَّينا".

و «الاجتباء» عند أهل اللغة بمعنى: الاختيار، مشتق من: جبيت الماء في الحوض، أي: جمعته. فالاجتباء: ضم الذي تجتبيه إلى خاصتك.

قال الكسائي:"جبيت الماء في الحوض وجبوته، أي جمعته. والجابية: الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل. قال الأعشى:

[تَرُوحُ على آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةٌ كجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقيِّ تَفْهَقُ"

قوله تعالى: {وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٨٧]، أي:" وأرشدناهم إلى طريق صحيح، لا عوج فيه، وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشرك".

قال البغوي: أي:" أرشدناهم، {إلى صراط مستقيم}".

قال الطبري:" يقول: وسدّدناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوجّ، وذلك دين الله الذي لا عِوَج فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله ربُّنا لأنبيائه، وأمر به عباده".

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩).

{أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَاب} بِمَعْنَى الْكُتُب {وَالْحُكْم} الْحِكْمَة {وَالنُّبُوَّة فَإِنْ يَكْفُر بِهَا} أَيْ بِهَذِهِ الثَّلَاثَة {هَؤُلَاءِ} أَيْ أَهْل مَكَّة {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا} أَرْصَدْنَا لَهَا {قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} هُمْ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَار.

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠).

{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى} هُمْ {الله فَبِهُدَاهُمْ} طَرِيقهمْ مِنْ التَّوْحِيد وَالصَّبْر {اقْتَدِهِ} بِهَاءِ السَّكْت وَقْفًا وَوَصْلًا وَفِي قِرَاءَة بِحَذْفِهَا وَصْلًا {قُلْ} لِأَهْلِ مَكَّة {لَا أَسْأَلكُمْ عَلَيْهِ} أَيْ الْقُرْآن {أَجْرًا} تُعْطُونِيهِ {إِنْ هُوَ} مَا الْقُرْآن {إِلَّا ذِكْرَى} عِظَة {لِلْعَالَمِينَ} الْإِنْس وَالْجِنّ[1].

---

(١) قوله تعالى: {ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [الأنعام: ٨٨]، أي: ذلك الهدى الذي هدى الله به هؤلاء الأنبياء الكرام المذكورين في سورة الأنعام هو هدى الله وتوفيقه إياهم، ولا هدى إلا هدى الله (قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ).
ومفهوم الآية أن من لم يشأ الله هدايته فلا هادي له، فالهداية والإضلال كلها بمشيئته وحده.
النبوة منحة ربانية لا دخل لها بالعقل.
=

=

قال ابن كثير:" أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم".

قال الطبري: أي:" هذا الهدي الذي هديت به من سميت من الأنبياء والرسل، فوفقتهم به لإصابة الدين الحقّ الذي نالوا بإصابتهم إياه رضا ربهم، وشرفَ الدنيا، وكرامة الآخرة، هو توفيق الله ولطفه، الذي يوفق به من يشاء، ويلطف به لمن أحب من خلقه، حتى ينيب إلى طاعة الله، وإخلاص العمل له، وإقراره بالتوحيد، ورفضِ الأوثان والأصنام".

قال البغوي:" {هدى الله} دين الله، {يهدي به} يرشد به، {من يشاء من عباده}".

قال السعدي: أي:" فاطلبوا منه الهدى فإنه إن لم يهدكم فلا هادي لكم غيره، وممن شاء هدايته هؤلاء المذكورون".

قوله تعالى: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٨]، أي:" ولو أن هؤلاء الأنبياء أشركوا بالله -على سبيل الفرض والتقدير وحاشاهم - لحبط عنهم ما كانوا يعملون ، فكل ما عملوه من خير فإنه يكون باطل حابط ، لأن الشرك محبط للعمل ، فغيرهم من باب أولى".

قال الطبري:" يقول: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سميناهم، بربهم تعالى ذكره، فعبدوا معه غيره، لبطل فذهبَ عنهم أجرُ أعمالهم التي كانوا يعملون، لأن الله لا يقبل مع الشرك به عملا".

قال القرطبي:" أي: لو عبدوا غيري لحبطت أعمالهم، ولكني عصمتهم. و «الحبوط»: البطلان".

قال ابن كثير:" {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} الآية [الزمر: ٦٥]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ

=

=
الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١]، وكقوله {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ١٧] وكقوله {لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الزمر: ٤]".

قال القاسمي: "(وَلَوْ أَشْرَكُوا) هؤلاء مع عظمتهم (لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من الأعمال المرضية فكيف بمن عداهم".

وقال أبو السعود: "(وَلَوْ أَشْرَكُوا) أي: هؤلاءِ المذكورون (لَحَبِطَ عَنْهُمْ) مع فضلهم وعلوِّ طبقاتِهم (مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من الأعمال المَرْضيّة الصالحة ، فكيف بمَنْ عداهم وهُم هُم وأعمالُهم أعمالُهم".

قال السعدي" فإن الشرك محبط للعمل، موجب للخلود في النار. فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار، لو أشركوا -وحاشاهم- لحبطت أعمالهم فغيرهم أولى".

وفي الآية دليل على أن الشرك محبط للعمل.

كما قال تعالى (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ).

وقال تعالى مخاطبًا لنبينا (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ، وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع ، كقوله تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ).

وإحباط العمل مقيد بأن يموت على شركه كما قال تعالى (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [الأنعام: ٨٩]، أي:" أولئك الذين أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية والحكمة الربانية والنبوة والرسالة".

قال ابن كثير:" أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، ولطفا منا بالخليقة".
=

=

قال الطبري: يعني:"هؤلاء الذين سميناهم من أنبيائه ورسله، نوحًا وذريته الذين هداهم لدين الإسلام، واختارهم لرسالته إلى خلقه، هم {الذين آتيناهم الكتاب}، يعني بذلك: صحفَ إبراهيم وموسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى صلوات الله عليهم أجمعين، {والحكم}، يعني: الفهم بالكتاب، ومعرفة ما فيه من الأحكام".

قال البغوي:" {الكتاب} أي: الكتب المنزلة عليهم، {والحكم} يعني: العلم والفقه".

قال مجاهد:" {الحكم}، هو اللبُّ".

و «اللب»: "هوالعقل، فكأنه أراد: أن الله آتاهم العقل بالكتاب، وهو بمعنى ما قلنا أنه الفهم به".

قوله تعالى: {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ} [الأنعام: ٨٩]، أي:" فإن يجحد -أيها الرسول- بآيات هذا القرآن الكفارُ من قومك".

قال ابن عباس:" يقول: إن يكفروا بالقرآن".

قال البغوي: {هَؤُلَاءِ}، أي:" الكفار، يعني: أهل مكة".

قال القرطبي:" أي بآياتنا. هؤلاء، أي: كفار عصرك يا محمد".

قال الطبري: يقول:"فإن كفر قومك من قريش، يا محمد، بآياتنا، وكذبوا وجحدوا حقيقتها".

قال ابن كثير:" أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتابيين، {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا} أي: بالنبوة. ويحتمل أن يكون الضمير عائدا على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة. وقوله: {هَؤلاءِ} يعني: أهل مكة".

قوله تعالى: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: ٨٩]، أي:" فقد وكلنا بها قومًا آخرين -أي: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة- ليسوا

=

=

بها بكافرين، بل مؤمنون بها، عاملون بما تدل عليه".

قال الطبري: يقول:" فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رُسلَنا وأنبياءنا من قبلك، الذين لا يجحدون حقيقتها، ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها".

قال ابن كثير: أي:"فقد وكلنا بها قوما {آخَرِينَ} يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، {لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} أي: لا يجحدون شيئا منها، ولا يردون منها حرفًا واحدًا، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه".

قال القرطبي:" يريد: الأنصار من أهل المدينة والمهاجرين من أهل مكة".

قال الماوردي:" ومعنى قوله: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا}، أي: أقمنا بحفظها ونصرتها، يعني: كتب الله وشريعة دينه".

قال الزمخشري:" معنى توكيلهم بها: أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه. والباء في {بها} صلة «كافرين». وفي {بكافرين} تأكيد النفي".

وقد قال بعضهم: "معنى قوله: {فقد وكّلنا بها قومًا}، رزقناها قومًا".

وفي المعنيين بقوله تعالى: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: ٨٩]، سبعة اقوال:

أحدها: فإن تكفر بها قريش فقد وكلنا بها الأنصار، قاله الضحاك ، وسعيد بن المسيب ، والسدي.

والثاني: فإن يكفر بها أهل مكة فقد وكلنا بها أهل المدينة، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وابن جريج ، وقتادة-في إحدى الروايات-.

والثالث: فإن تكفر بها قريش فقد وكلنا بها الملائكة، قاله أبو رجاء.

=

=

والرابع: معناه: إن يكفر بها أمتك، فقد وكلنا بها النبيين والصالحين، وهذا قول الحسن ، وقتادة.

روي عن قتادة:" {فإن يكفر بها هؤلاء}، قال: يعني قوم محمد. ثم قال: {فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين}، يعني: النبيين الذين قص قبل هذه الآية قصصهم. ثم قال: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده}".

وفي رواية أخرى عن قتادة ايضا:" عن قتادة قوله:"فإن يكفر بها هؤلاء"، يعني أهل مكة، {فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين}، وهم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ}".

والخامس: يعني قوله: {فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين}: من هاجر من مكة إلى المدينة. قاله عكرمة".

والسادس: يعني: قوله: {فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين}: أهل المدينة ولأنصار. قاله ابن عباس في رواية.

والسابع: أنهم كل المؤمنين، قاله بعض المتأخرين.

قال أبو جعفر الطبري:" وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قولُ من قال: عنى بقوله: {فإن يكفر بها هؤلاء}، كفار قريش {فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين}، يعني به الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم الله تعالى ذكره في الآيات قبل هذه الآية. وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما بينها بأن يكون خبرًا عنهم، أولى وأحق من أن يكون خبرًا عن غيرهم".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠]، أي:" أولئك الأنبياء المذكورون هم الذين وفقهم الله تعالى لدينه الحق، فاتبع هداهم -أيها الرسول- واسلك سبيلهم".

قال السعدي:" أي: امش -أيها الرسول الكريم- خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار،

=

=

واتبع ملتهم وقد امتثل ﷺ، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص، فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وبهذا الملحظ، استدل بهذه من استدل من الصحابة، أن رسول الله ﷺ، أفضل الرسل كلهم".

قال البغوي:" أي: هداهم الله، فبسنتهم وسيرتهم، {اقتده}".

قال ابن كثير:" ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا ﷺ: {أُولَئِكَ} يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه {الَّذِينَ هَدَى اللهُ} أي: هم أهل الهداية لا غيرهم، {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ} أي: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمرا للرسول ﷺ، فأمته تبع له فيما يشرعه لهم ويأمرهم به".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه، والعمل بما فيه من أمر الله، والانتهاء عما فيه من نهيه، فوفقهم جل ثناؤه لذلك، فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم {اقتده}، يا محمد، أي: فاعمل، وخذ به واسلكه، فإنه عمل لله فيه رضًا، ومنهاجٌ من سلكه اهتدى".

وأما على تأويل من تأول ذلك: أن القوم الذين وكّلوا بها هم أهل المدينة أو: أنهم هم الملائكة فإنهم جعلوا قوله: {فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين}، اعتراضًا بين الكلامين، ثم ردّوا قوله: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده}، على قوله: {أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة}.

قال ابن عباس:" ثم قال في الأنبياء الذين سماهم في هذه الآية: {فبهداهم اقتده}".

وعن العوام قال: "سمعت مجاهدا، عن السجدة التي في، قال: نعم سألت ابن

=

=

عباس فقرأ هذه الآية: {من ذريته داود وسليمان} إلى قوله: أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده}، قال: أمر نبيكم أن يقتدي بداود ﷺ".

عن ابن جريج قوله:" {ووهبنا له إسحاق ويعقوب}، إلى قوله: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده}، يا محمد".

عن ابن زيد قوله:" {أولئك الذين هدى الله}، يا محمد، {فبهداهم اقتده}، ولا تقتد بهؤلاء".

قال السدي:" ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده}".

قال الزمخشري:" قوله: {فبهداهم اقتده}، أي: فاختص هداهم بالاقتداء، ولا تقتد إلا بهم. وهذا معنى تقديم المفعول، والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع، فإنها مختلفة وهي هدى، ما لم تنسخ. فإذا نسخت لم تبق هدى، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبدا".

و «الاقتداء» في كلام العرب، بالرجل: اتباع أثره، والأخذ بهديه. يقال: فلان يقدو فلانًا، إذا نحا نحوه، واتبع أثره، قِدَة، وقُدوة وقِدوة وقِدْيَة.

والهاء في قوله: {اقتده} هاء الوقف، وحذف حمزة والكسائي الهاء في الوصل، والباقون بإثباتها وصلا ووقفا، وقرأ ابن عامر: «اقتده»، بإشباع الهاء كسرا.

قوله تعالى: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} [الأنعام: ٩٠]، أي:" قل للمشركين: لا أطلب منكم على تبليغ الإسلام عوضًا من الدنيا".

قال ابن عباس:"قل لهم يا محمد: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجرا".

وفي رواية اخرى عنه- أيضا-:" يقول: عرضا من عرض الدنيا".

قال عطاء بن دينار:" يقول: لا أسألكم على ما جئتكم به أجرا".

قال ابن زيد:" يقول: لا أسألكم على القرآن أجرا".

=

=

قال ابن كثير:" أي: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن {أَجْرًا} أي: أجرة، ولا أريد منكم شيئا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الذين أمرتك أن تذكّرهم بآياتي، أن تبسَل نفس بما كسبت، من مشركي قومك يا محمد: {لا أسألكم}، على تذكيري إياكم، والهدى الذي أدعوكم إليه، والقرآن الذي جئتكم به، عوضًا أعتاضه منكم عليه، وأجرًا آخذه منكم".

قال السعدي:" {قُلْ} للذين أعرضوا عن دعوتك: {لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} أي: لا أطلب منكم مغرما ومالا جزاء عن إبلاغي إياكم، ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله".

قال ابن عاشور: فليس المقصود من قوله: (لا أسألكم عليه أجرًا) ردّ اعتقاد معتقد أو نفي تهمة قيلت ولكن المقصود به الاعتبار ولفت النّظر إلى محض نصح الرّسول ﷺ في رسالته وأنّها لنفع النّاس لا يجرّ منها نفعًا إلى نفسه.

وقد منع الله على الأنبياء أن يأخذوا جُعلًا في مقابل التبليغ ، لأنهم لو أخذوه لكانوا يتهمونهم بأنهم أرادوا بما جاءوا به من أجل المال ، ولئلا يثقل الناس ، لأن النفوس مجبولة على بغض المغرم (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ).

قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٩٠]، أي:" ما هذا القرآن إلا عظةٌ وتذكير لجميع الخلق".

قال البغوي:" أي: تذكرة وعظة {لِلْعَالَمِينَ}".

قال ابن كثير:" أي: يتذكرون به فَيُرْشَدُوا من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان".

قال الطبري: أي:" وما ذلك مني إلا تذكير لكم، ولكل من كان مثلكم ممن هو مقيم على باطل، بَأسَ الله أن يَحُلّ بكم، وسَخَطه أن ينزل بكم على شرككم به

=

=

وكفركم = وإنذارٌ لجميعكم بين يدي عذاب شديد، لتذكروا وتنزجروا".

قال السعدي: أي:" يتذكرون به ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم، فيذرونه، ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه. ويتذكرون به الأخلاق الحميدة، والطرق الموصلة إليها، والأخلاق الرذيلة، والطرق المفضية إليها، فإذا كان ذكرى للعالمين، كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فعليهم قبولها والشكر عليها".

من أسماء القرآن الذكر ، كما قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ، وقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر).

قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر: إنه محتمل معنيين:

أحدهما: أنه ذكر من الله جل ذكره ، ذكّر به عباده ، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه ، وسائر ما أودعه من حكمه.

والآخر: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه ، كما قال جل ثناؤه (وإنه لذكر لك ولقومك ، يعني أنه شرف به شرف له ولقومه.

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: وسمي القرآن ذكرًا:

أولًا: لما فيه من التذكير والموعظة.

ثانيًا: لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ).

ثالثًا: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة ، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعًا: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم ، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ).

خامسًا: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي.

=

=

* مسألة في مباحث الإيمان بالرسل.

مسألة: تعريف النبي والرسول.

النبي في لغة العرب مشتق من النبأ وهو الخبر، قال تعالى: عَمَّ يَتَسَاءلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيم [النبأ: ١ - ٢].

وإنّما سمّي النبي نبيًّا لأنه مُخْبِرٌ مُخْبَر، فهو مُخْبَر، أي: أنَّ الله أخبره، وأوحى إليه قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ [التحريم: ٣]، وهو مُخْبِرٌ عن الله تعالى أمره ووحيه نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [الحجر: ٤٩] وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ [الحجر: ٥١].

وقيل: النبوة مشتقة من النَّبْوَة، وهي ما ارتفع من الأرض، وتطلق العرب لفظ النبي على علم من أعلام الأرض التي يهتدى بها، والمناسبة بين لفظ النبي والمعنى اللغوي، أنَّ النبي ذو رفعة وقدر عظيم في الدنيا والآخرة، فالأنبياء هم أشرف الخلق، وهم الأعلام التي يهتدي بها الناس فتصلح دنياهم وأخراهم.

والإرسال في اللغة التوجيه، فإذا بعثت شخصًا في مهمة فهو رسولك، قال تعالى حاكيًا قول ملكة سبأ: وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ [النمل: ٣٥]، وقد يريدون بالرسول ذلك الشخص الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذًا من قول العرب: (جاءت الإبلُ رَسَلًا) أي: متتابعة.

وعلى ذلك فالرُّسل إنّما سمّوا بذلك لأنَّهم وُجّهوا من قبل الله تعالى: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا [المؤمنون: ٤٤]، وهم مبعوثون برسالة معينة مُكلَّفون بحملها وتبليغها ومتابعتها.

* الفرق بين الرسول والنبي.

لا يصحُّ قول من ذهب إلى أنه لا فرق بين الرسول والنبي، ويدلُّ على بطلان هذا القول ما ورد في عدة الأنبياء والرسل، فقد ذكر الرسول ﷺ أنَّ عدة الأنبياء مائة

=

=

وأربعة وعشرون ألف نبي، وعدَّة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا (١)، ويدلّ على الفرق أيضًا ما ورد في كتاب الله من عطف النبي على الرسول وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ إِلاّ إِذَا تَمَنّىَ أَلْقَى الشّيْطَانُ فِيَ أُمْنِيّتِهِ [الحج: ٥٢]، ووصف بعض رسله بالنبوة والرسالة مما يدُل على أن الرسالة أمر زائد على النبوة، كقوله في حقِّ موسى عليه السلام: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىَ إِنّهُ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نّبِيًّا [مريم: ٥١].

والشائع عند العلماء أنَّ النبي أعم من الرسول، فالرسول هو من أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ، وعلى ذلك فكلُّ رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا (٢).

وهذا الذي ذكروه هنا بعيد لأمور:

الأول: أن الله نصَّ على أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ... [الحج: ٥٢]، فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ فالإرسال يقتضي من النبي البلاغ.

الثاني: أنَّ ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس، ثمَّ يموت هذا العلم بموته.

الثالث: قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه ابن عباس: (عرضت عليَّ الأمم، فجعل يمرُّ النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد)

فدلّ هذا على أنَّ الأنبياء مأمورون بالبلاغ، وأنَّهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم. فقيل (الرسولَ مَنْ أُوحي إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله)

قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في شرح الطحاوية: وهذا يدل على أنَّ

=

=

الفرق قائم ما بين النبي وما بين الرسول، وأنّ النبي إرساله خاص وأنَّ الرسول إرساله مطلق، فلهذا نقول دلّت آية سورة الحج {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ} على أنّ كلا من النبي والرسول يقع عليه إرسال.

فما الفرق بينهما من جهة التعريف؟

الجواب: أنَّ العلماء اختلفوا على أقوال كثيرة في تعريف هذا وهذا، ولكن الاختصار في ذلك مطلوب: وهو أنَّ تعريف النبي-وهي مسألة اجتهادية-:

النبي هو من أَوْحَى الله إليه بشرعٍ لنفسه أو أَمرَه بالتبليغ إلى قوم موافقين؛ يعني موافقين له في التوحيد.

والرسول: هو من أَوْحى الله إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه إلى قوم مخالفين.

وتلحظ أنَّ هذا التعريف للنبي وللرسول أَنه لا مَدْخَلَ لإيتاء الكتاب في وصف النبوة والرسالة، فقد يُعطى النبي كتابًا وقد يعطى الرسول كتابًا، وقد يكون الرسول ليس له كتاب وإنما له صحف {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} [الأعلى:١٩]، وقد يكون له كتاب.

فإذًا من جَعَلَ الفيصل أو الفرق بين النبي والرسول هو إيتاء الكتاب، وحي جاءه بكتاب مُنَزَّلْ من عند الله - ﷻ -، فهذا ليس بجيد، بل يقال كما ذكرت لك في التعريف أنَّ المدار على:

-النبي مُوحَى إليه، والرسول موحى إليه.

-النبي يوحى إليه بشرع أو بفصلٍ في قضية؛ شرع يشمل أشياء كثيرة، -وكذلك الرسول يوحى إليه بشرع.

-النبي يُوحى إليه لإبلاغه إلى قوم موافقين أو ليعمل به في خاصة نفسه كما جاء في الحديث (ويأتي النبي وليس معه أحد)، الرسول يُبعث إلى قوم مخالفين له.

ولهذا جاء في الحديث أن (العلماء ورثة الأنبياء) ولم يجعلهم ورثة الرسل، وإنما

=

=

قال (وإن العلماء ورثة الأنبياء)، وذلك لأنّ العالم في قومه يقوم مقام النبي في إيضاح الشريعة التي معه، فيكون إذًا في إيضاح شريعته، في إيضاح الشريعة يكون ثَمَّ شَبَه ما بين العالم والنبي، ولكن النبي يُوحى إليه فتكون أحكامه صوابًا؛ لأنها من عند الله – ﷻ –، والعالم يوضِحُ الشريعة ويعرض لحُكْمِهِ الغلط.

يتعلق بهذه المسألة بحث أنَّ الرسول قد يكون متابعًا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ، كما أنَّ النبي يكون متابعًا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ. فإذًا الفرق ما بين النبي والرسول في إتباع الشريعة – شريعة مَنْ قَبْلْ– أَنَّ النبي يكون متابعا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ، والرسول قد يكون متابعًا –كيوسف عليه السلام جاء قومه بما بعث به إبراهيم عليه السلام ويعقوب–، وقد يكون يُبْعَثُ بشريعة جديدة. وهذا الكلام؛ هذه الاحترازات لأجل أنَّ ثمة طائفة من أهل العلم جعلت كل مُحْتَرَزٍ من هذه الأشياء فرقا ما بين النبي والرسول.

فإذًا كما ذكرت لكم:

– الكتاب قد يُعطاهُ النبي وقد يُعطاهُ الرسول.

– بَعْثُهُ لقوم موافقين أو مخالفين هذا مدار فرق ما بين النبي والرسول.

– الرسول قد يبعث بشريعة مَنْ قَبْلَهْ بالتوحيد بالديانة التي جاء بها الرسول لمن قبله، لكن يُرْسل إلى قوم مخالفين، وإذا كانوا مخالفين فلا بد أن يكون منهم مَنْ يُصَدِّقُهُ ويكون منهم من يُكَذِّبُه؛ لأنه ما من رسول إلا وقد كُذِّب، كما جاء في ذلك الآيات الكثيرة. وانظر كتاب النبوات لشيخ الإسلام (ص٢٥٥).

وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ كما ثبت في الحديث (٥)، وأنبياء بني إسرائيل كلّهم مبعوثون بشريعة موسى: التوراة وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحي الله إليهم أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِيَ إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىَ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ أن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ... [البقرة: ٢٤٦] فالنبي كما يظهر من الآية يُوحَى إليه

=

=

شيء يوجب على قومه أمرًا، وهذا لا يكون إلا مع وجوب التبليغ. واعتبر في هذا بحال داود وسليمان وزكريا ويحي فهؤلاء جميعًا أنبياء، وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل، والحكم بينهم وإبلاغهم الحق، والله أعلم بالصواب.

مسألة: معنى الإيمان بالرسل.

الإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان، قال تعالى: قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [آل عمران: ٨٤].

ومن لم يؤمن بالرسل ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا [النساء: ١٣٦].

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون ويعتقدون اعتقادًا جازمًا بأن الله سبحانه أرسل إلى عباده رسلًا مبشرين ومنذرين، ودعاة إلى دين الحق، لهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور. فكانت دعوتهم إنقاذًا للأمم من الشرك والوثنية، وتطهيرًا للمجتمعات من التحلل والفساد، وأنهم بلغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وقد جاؤوا بمعجزات باهرات تدل على صدقهم، ومن كفر بواحد منهم؛ فقد كفر بالله تعالى: وبجميع الرسل عليهم السلام، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: ١٥٠]. وقد بين الله الحكمة من بعثة الرسل الكرام، فقال تعالى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا

=

=

حَكِيمًا [النساء:١٦٥]. ولقد أرسل الله رسلًا وأنبياء كثيرين منهم من ذكره لنا في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ ومنهم من لم يخبرنا عنهم، قال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ [غافر:٧٨]. وقال: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل:٣٦]. والمذكور من أسمائهم في القرآن الكريم خمسة وعشرون رسولًا ونبيًا، وهم: أبو البشر آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، شعيب، أيوب، ذو الكفل، موسى، هارون، داود، سليمان، إلياس، اليسع، يونس، زكريا، يحيى، عيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والرسل؛ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وأفضل أولي العزم نبي الإسلام، وخاتم الأنبياء والمرسلين ورسول رب العالمين؛ محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال الله تبارك وتعالى: وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ [الأحزاب:٤٠]. وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بهم جميعًا من سمى الله منهم ومن لم يسم، من أولهم آدم عليه السلام... إلى آخرهم وخاتمهم وأفضلهم نبينا محمد بن عبدالله؛ صلى الله عليهم أجمعين. والإيمان بالرسل إيمان مجمل، والإيمان بنبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم إيمان مفصل يقتضي ذلك منهم اتباعه فيما جاء به على وجه التفصيل.

والذين يزعمون أنَّهم مؤمنون بالله ولكنّهم يكفرون بالرسل والكتب هؤلاء لا يقدرون الله حقَّ قدره، وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ [الأنعام: ٩١]. فالذين يقدرون الله حقَّ قدره، ويعلمون صفاته التي اتصف بها من العلم والحكمة والرحمة لا بدَّ أن يوقنوا بأنَّه أرسل الرسل وأنزل الكتب، لأن هذا مقتضى صفاته، فهو لم يخلق الخلق عبثًا، أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً [القيامة: ٣٦].

=

=

ومن كفر بالرسل وهو يزعم أنَّه يؤمن بالله فهو عند الله كافر لا ينفعه إيمانه، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

فقد نصَّت الآية على كفر من زعم الإيمان بالله وكفر بالرسل وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ، يقول القرطبي في هذه الآية: (نصّ سبحانه على أنَّ التفريق بين الله ورسله كفر، وإنَّما كان كفرًا لأنَّ الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أُمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية، وكذلك التفريق بين الله ورسله).

مسألة: ما يجب علينا نحو الرسل.

يجب على الأمة تجاه الرسل حقوق عظيمة بحسب ما أنزلهم الله من المنازل الرفيعة في الدين، وما رفعهم الله إليه من الدرجات السامية الجليلة عنده، وما شرفهم به من المهمات النبيلة، وما اصطفاهم به من تبليغ وحيه وشرعه لعامة خلقه. ومن هذه الحقوق:

١ - تصديقهم جميعًا فيما جاءوا به، وأنهم مرسلون من ربهم، مبلغون عن الله ما أمرهم الله بتبليغه لمن أرسلوا إليهم وعدم التفريق بينهم في ذلك. قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ [النساء: ٦٤]. وقال تعالى: وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [المائدة: ٩٢]. وقال ﷻ: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ

=

=
سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا [النساء: ١٥٠، ١٥١]. فيجب تصديق الرسل فيما جاءوا به من الرسالات وهذا مقتضى الإيمان بهم.

ومما يجب معرفته أنه لا يجوز لأحد من الثقلين متابعة أحدٍ من الرسل السابقين بعد مبعث محمد ﷺ المبعوث للناس كافة، إذْ أن شريعته جاءت ناسخة لجميع شرائع الأنبياء قبله، فلا دين إلا ما بعثه الله به ولا متابعة إلا لهذا النبي الكريم. قال تعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا.. [الأعراف: ١٥٨].

٢- موالاتهم جميعًا ومحبتهم والحذر من بغضهم وعداوتهم.

قال تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ [المائدة: ٥٦]. وقال تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [التوبة: ٧١]. فتضمنت الآية وصف المؤمنين بموالاة بعضهم لبعض فدخل في ذلك رسل الله الذين هم أكمل المؤمنين إيمانًا، وعليه فإن موالاتهم ومحبتهم في قلوب المؤمنين هي أعظم من موالاة غيرهم من الخلق لعلو مكانتهم في الدين ورفعة درجاتهم في الإيمان. ولذا حذر الله من معاداة رسله وعطفها في الذكر على معاداة الله وملائكته، وقرن بينهما في العقوبة والجزاء. فقال عز من قائل: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ [البقرة: ٩٨].

يجب على الأمة تجاه الرسل حقوق عظيمة بحسب ما أنزلهم الله من المنازل الرفيعة في الدين، وما رفعهم الله إليه من الدرجات السامية الجليلة عنده، وما شرفهم به من المهمات النبيلة، وما اصطفاهم به من تبليغ وحيه وشرعه لعامة خلقه. ومن هذه الحقوق:

=

=

١- تصديقهم جميعًا فيما جاءوا به، وأنهم مرسلون من ربهم، مبلغون عن الله ما أمرهم الله بتبليغه لمن أرسلوا إليهم وعدم التفريق بينهم في ذلك. قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ [النساء: ٦٤]. وقال تعالى: وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [المائدة: ٩٢]. وقال ﷻ: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا [النساء: ١٥٠، ١٥١]. فيجب تصديق الرسل فيما جاءوا به من الرسالات وهذا مقتضى الإيمان بهم.

ومما يجب معرفته أنه لا يجوز لأحد من الثقلين متابعة أحدٍ من الرسل السابقين بعد مبعث محمد ﷺ المبعوث للناس كافة، إذْ أن شريعته جاءت ناسخة لجميع شرائع الأنبياء قبله، فلا دين إلا ما بعثه الله به ولا متابعة إلا لهذا النبي الكريم. قال تعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا.. [الأعراف: ١٥٨].

٢- موالاتهم جميعًا ومحبتهم والحذر من بغضهم وعداوتهم.

قال تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ [المائدة: ٥٦]. وقال تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [التوبة: ٧١]. فتضمنت الآية وصف المؤمنين بموالاة بعضهم لبعض فدخل في ذلك رسل الله الذين هم أكمل المؤمنين إيمانًا، وعليه فإن موالاتهم ومحبتهم في قلوب المؤمنين هي أعظم من موالاة غيرهم من الخلق لعلو مكانتهم في الدين ورفعة درجاتهم في الإيمان. ولذا حذر الله من معاداة رسله وعطفها في الذكر على معاداة

=

=

الله وملائكته، وقرن بينهما في العقوبة والجزاء. فقال عز من قائل: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ [البقرة: ٩٨]

مسألة: صالحون مختلف في نبوتهم.

١ - ذو القرنين:

ذكر الله خبر ذي القرنين في آخر سورة الكهف، ومما أخبر الله به عنه أنه خاطبه قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا [الكهف: ٨٦].

فهل كان هذا الخطاب بواسطة نبيّ كان معه، أو كان هو نبيًّا؟ جزم الفخر الرازي بنبوته ، وقال ابن حجر: (وهذا مرويٌّ عن عبد الله بن عمرو، وعليه ظاهر القرآن) ومن الذين نفوا نبوته عليٌّ بن أبي طالب.

٢- تبع:

ورد ذكر تبع في القرآن الكريم، قال تعالى: أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ [الدخان: ٣٧]، وقال: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُّبَّعٍ كُلّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقّ وَعِيدِ [ق: ١٢ - ١٤]، فهل كان نبيًّا مرسلًا إلى قومه فكذبوه فأهلكهم الله؟ الله أعلم بذلك.

الأفضل التوقف في أمر ذي القرنين وتُبّع:

والأفضل أن يتوقف في إثبات النبوة لهذين، لأنه صحّ عن الرسول ﷺ أنه قال: (ما أدري أتُبّع نبيًّا أم لا، وما أدري ذا القرنين نبيًا أم لا) فإذا كان الرسول ﷺ لا يدري، فنحن أحرى بأن لا ندري.

٣- الخضر:

الخضر هو العبد الصالح الذي رحل إليه موسى ليطلب منه علمًا، وقد حدثنا الله عن خبرهما في سورة الكهف.

=

=

وسياق القصة يدلّ على نبوته من وجوه:

أحدها: قوله تعالى: فَوَجَدَا عَبْدًا مّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مّنْ عِندِنَا وَعَلّمْنَاهُ مِن لّدُنّا عِلْمًا [الكهف: ٦٥]، والأظهر أنّ هذه الرحمة هي رحمة النبوة، وهذا العلم هو ما يوحى إليه به من قبل الله.

الثاني: قول موسى له: هَلْ أَتّبِعُكَ عَلَىَ أَن تُعَلّمَنِ مِمّا عُلّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىَ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْني عَن شَيءٍ حَتّىَ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا [الكهف: ٦٦ - ٧٠] فلو كان غير نبيّ لم يكن معصومًا، ولم يكن لموسى - وهو نبيٌّ عظيم، ورسول كريم، واجب العصمة - كبيرُ رغبةٍ، ولا عظيم طلبة في علم وَليٍّ غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه، والتفتيش عنه، ولو أنَّه يمضي حقبًا من الزمان، قيل: ثمانين سنة، ثمَّ لما اجتمع به، تواضع له، وعظّمه، واتبعه في صورة مستفيد منه، دلّ على أنه نبيٌّ مثله، يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خصّ من العلوم اللدنيَّة والأسرار النبويَّة بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم، نبيّ بني إسرائيل الكريم.

الثالث: أنّ الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام، وهذا دليل مستقلٌّ على نبوتَّه، وبرهان ظاهر على عصمته، لأنَّ الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده، لأنَّ خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز الخطأ عليه بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم علمًا منه بأنّه إذا بلغ يكفر، ويحمل أبويه على الكفر لشّدة محبتهما له، فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته دلّ ذلك على نبوته وأنّه مؤيد من الله بعصمته. الرابع: أنّه لمَّا فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى، ووضح له عن

=

=
حقيقة أمره وجلاَّه، قال بعد ذلك كلّه: رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي [الكهف: ٨٢]، يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به، وأوحي إليّ فيه.
قال الحافظ في الفتح (١/ ٢٢١): ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا إنه يستفاد من قصة موسى والخضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء وأما الأولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى ويؤيده الحديث المشهور استفت قلبك وإن أفتوك قال القرطبي وهذا القول زندقة وكفر لأنه إنكار لما علم من الشرائع فإن الله قد أجرى سنته وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه المبينين لشرائعه وأحكامه كما قال الله تعالى الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس وقال الله أعلم حيث يجعل رسالاته وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به وحث على طاعتهم والتمسك بما أمروا به فإن فيه الهدى وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك فمن ادعى أن هناك طريقا أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغني بها عن الرسول فهو كافر يقتل ولا يستتاب قال وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا لأن من قال إنه يأخذ عن قلبه لأن الذي يقع فيه هو حكم الله وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة كما قال نبينا ﷺ إن روح القدس نفث في روعي قال وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال أنا لا آخذ عن الموتى وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت وكذا قال آخر أنا آخذ عن قلبي
=

=

عن ربي وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع نسأل الله الهداية والتوفيق انتهى.

وقال العلامة الشنقيطي – رحمة الله تعالى عليه – في تفسير قوله تعالى: {فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما} الكهف/ ٦٥:

ولكنه يفهم من بعض الآيات أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوة، وأن هذا العلم اللدني علم وحي... ومعلوم أن الرحمة وإيتاء العلم اللدني أعم من كون ذلك عن طريق النبوة وغيرها، والاستدلال بالأعم على الأخص في أن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص كما هو معروف، ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم اللدني الذين امتن الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله تعالى: {وما فعلته عن أمري} الكهف / ٨٢، أي: وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا، وأمر الله إنما يتحقق بطريق الوحي، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله جل وعلا، ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر، وتعييب سفن الناس بخرقها؛ لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله تعالى، وقد حصر تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى: (قل إنما أنذركم بالوحي) الأنبياء/ ٤٥، و " إنما " صيغة حصر.

وقال أيضا:"... وبهذا كله تعلم: أن قتل الخضر للغلام، وخرقه للسفينة وقوله: (وما فعلته عن أمري)، دليل ظاهر على نبوته، وعزا الفخر الرازي في تفسيره القول بنبوته للأكثرين، ومما يستأنس به للقول بنبوته تواضع موسى عليه الصلاة والسلام له في قوله: (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا) الكهف/ ٦٦، وقوله: (ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا) الكهف/ ٦٩، مع قول الخضر له: (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) الكهف/ ٦٨.".

وقال العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (٢/ ٥١٦): قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في أول رسالته «الزهر النضر»: «باب ما ورد في كونه نبيًا، قال الله تعالى في

=

=

خبره عن موسى حكاية عنه: {وما فعلته عن أمري}، وهذه ظاهرة أنه فعله بأمر من الله، والأصل عدم الوساطة، ويحتمل أن يكون بوساطة نبي آخر لم يذكره، وهو بعيد، ولا سبيل إلى القول بأنه إلهام، لأن ذلك لا يكون من غير نبي وحيًا حتى يعمل به ما عمل؛ من قتل النفس، وتعريض الأنفس للغرق. فإن قلنا: إنه نبي، فلا إنكار في ذلك.

وأيضًا، كيف يكون غير النبي أعلم من النبي، وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في الحديث الصحيح: «أن الله تعالى قال لموسى: بلى عبدنا خضر»؟!. وأيضا فكيف يكون النبي تابعًا لغير نبي؟! وقال الثعلبي: هو نبي في جميع الأقوال. وكان بعض أكابر العلماء يقول: أول عقدة تحل من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبيًا، لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي! كما قال قائلهم وهو ابن عربي صاحب «الفصوص» و «الفتوحات المكية»:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

قلت: وهناك آية أخرى تدل على نبوته عليه الصلاة والسلام، وهي قوله تعالى في: {آتيناه رحمة من عندنا}، فقد ذكر العلامة الآلوسي في تفسيرها ثلاثة أقوال، أشار إلى تضعيفها كلها، ثم قال: «والجمهور على أنها الوحي والنبوة، وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس،... والمنصور ما عليه الجمهور، وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة، وبمجموعها يكاد يحصل اليقين» روح المعاني (٥/ ٩٢ - ٩٣).

قلت: ولقد صدق رحمه الله تعالى، فإن المتأمل في قصته مع موسى عليهما الصلاة والسلام يجد أن الخضر كان مظهرًا على الغيب وليس ذلك لأحد من الأولياء، بدليل قوله تعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحدًا إلا من ارتضى من رسول}، وذلك ظاهر في مواطن عدة من القصة، أذكر ما تيسر منها:

=

=

١- قوله لموسى عندما طلب منه الصحبة {إنك لن تستطيع معي صبرا} فهذا الجزم منه عليه السلام لدليل واضح على أنه كان على علم بذلك، ولم يكن من باب الظن والتخرص منه، حاشاه، ويؤيده زيادة جاءت في بعض طرق الحديث عقب هذه الآية بلفظ: «وكان رجلًا يعلم علم الغيب، قد علم ذلك».

٢- ومثله قوله في تأويله قتل الغلام: «وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرًا، وكان أبواه قد عطفا عليه، فلو أنه أدرك، أرهقهما طغيانًا وكفرًا، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا». زاد في رواية: «ووقع أبوه على أمه فعلقت فولدت منه خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا». وإخباره عليه السلام أن الغلام طبع كافرًا، وأن أباه وقع على أمه فحملت وولدت خيرًا منه، لهو من الأمور الغيبية المحضة التي لا مجال للاطلاع عليها إلا من طريق النبوة والوحي، فذلك من أقوى الأدلة على أنه كان نبيًا، إن لم يكن رسولا.

٣- ومن ذلك قول - صلى الله عليه وآله وسلم -: «لما لقي موسى الخضر عليهما السلام، جاء طير، فألقى منقاره في الماء فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطير؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله إلا كما أخذا منقاري من الماء». فهذا صريح في أن الخضر، قد علم منطق الطير، وهو من الغيب الذي لا يعلمه البشر، فهو في هذا على نحو النبي سليمان عليه الصلاة والسلام الذي حكى الله عنه في القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} (النمل: ١٦). وخلاصة القول في هذه المسألة أن الأدلة المتقدمة إذا تأملها المسلم ووعاها بقلبه، تيقن أن الصواب القول بنبوة الخضر كما ذهب إليه جمهور العلماء ولذلك فعل ما فعل من العجائب التي لم يصبر لها موسى عليه الصلاة والسلام، وهو كليم الله تعالى، وبه نستطيع أن نحل تلك العقدة من الزندقة التي أشار إليها الحافظ ابن حجر فيما سبق، ونحوها مما يعتقده كثير من الصوفية من

=

=

الاعتقاد بالظاهر والباطن، والحقيقة والشريعة التي أفسد عقيدة كثير من الخاصة فضلًا عن العامة، فاعتقدوا الصلاح بل الولاية في كثير من الفساق الذين لا يصلون ولا يشهدون جماعات المسلمين ولا أعيادهم بدعوى الظاهر، وأنهم في الباطن من كبار أولياء الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وما قصة شيخ الإسلام ابن تيمية مع البطائحية الذين كانوا يتظاهرون في دمشق بالولاية والكرامة في زمانه حتى نصره الله عليهم، وقضى على باطنهم وباطلهم عن القارئ يعيد. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} (ق: ٣٧).

مسألة: لا تثبت النبوة إلاّ بالدليل.

يذكر علماء التفسير والسير أسماء كثير من الأنبياء نقلًا عن بني إسرائيل، أو اعتمادًا على أقوال لم تثبت صحتها، فإن خالفت هذه النقول شيئًا مما ثبت عندنا من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ رفضناها، كقول الذين قالوا: (إنَّ الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة يس كانوا من أتباع عيسى، وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيين بعد عيسى).

نردّ هذّا كله، لأنَّه ثبت في الحديث الصحيح أنّه ليس بين عيسى ابن مريم وبين رسولنا صلوات الله وسلامه عليهما نبيٌّ ، فالرسل المذكورون في آية سورة يس إما رسل بعثوا قبل عيسى، وهذا هو الراجح، أو هم - كما يقول بعض المفسرين - مبعوثون من قبل عيسى وهذا بعيد، لأن الله أخبر أنّه مرسلهم، والرسول عند الإطلاق ينصرف إلى الاصطلاح المعروف، وما ورد من أنَّ خالد بن سنان نبي عربي ضيعه قومه فهو حديث لا يصح.

أما ما ورد عن بني إسرائيل من أخبار بتسمية بعض الأنبياء مما لا دليل عليه من الكتاب والسنة، فلا نكذّبه، ولا نصدّق به، لأنَّ خبرهم يحتمل الصدق والكذب.

مسألة: في عدد الأنبياء.

=

=

اختلف أهل العلم في عدد الأنبياء والمرسلين، وذلك بحسب ما ثبت عندهم من الأحاديث الوارد فيها ذكر عددهم، فمن حسنها أو صححها فقد قال بمقتضاها، ومن ضعفها فقد قال بأن العدد لا يعرف إلا بالوحي فيتوقف في إثبات العدد، وأشهر هذه الأحاديث حديث أبي ذر رضي الله عنه، وفيه أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، والرسل منهم: ثلاثمائة وخمسة عشر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠٩): وهذا الذي ذكره أحمد، وذكره محمد بن نصر، وغيرهما، يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل، وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم ا. هـ والظاهر أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤيدهم في ذلك، وقد أشار إلى حديث أبي ذر بصيغة التضعيف فقال: "وقد روي في حديث أبي ذر أن عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر "، ولم يستدل به، بل استدل بالآيات الدالة على كثرتهم.

وقال ابن عطية - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في تفسير آية النساء -: وقوله تعالى: (ورسلا لم نقصصهم عليك) النساء/ ١٦٤: يقتضي كثرة الأنبياء، دون تحديد بعدد، وقد قال تعالى (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) فاطر/ ٢٤، وقال تعالى: (وقرونا بين ذلك كثيرا) الفرقان/ ٣٨، وما يذكر من عدد الأنبياء فغير صحيح، الله أعلم بعدتهم، صلى الله عليهم. انتهى

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٣/ ٢٥٦): كم عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؟.

فأجابوا: لا يعلم عددهم إلا الله؛ لقوله تعالى: (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) غافر/ ٧٨، والمعروف منهم من ذكروا في القرآن أو صحت بخبره السنة.

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٢/ ٦٦، ٦٧): وجاء في حديث أبي ذر عند

=

=

أبي حاتم بن حبان وغيره أنه سأل النبي ﷺ عن الرسل وعن الأنبياء فقال النبي ﷺ: الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفا والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر، وفي رواية أبي أمامة: ثلاثمائة وخمسة عشر، ولكنهما حديثان ضعيفان عند أهل العلم، ولهما شواهد ولكنها ضعيفة أيضا، كما ذكرنا آنفا، وفي بعضها أنه قال عليه الصلاة والسلام ألف نبي فأكثر، وفي بعضها أن الأنبياء ثلاثة آلاف وجميع الأحاديث في هذا الباب ضعيفة، بل عد ابن الجوزي حديث أبي ذر من الموضوعات. والمقصود أنه ليس في عدد الأنبياء والرسل خبر يعتمد عليه، فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى، لكنهم جم غفير، قص الله علينا أخبار بعضهم ولم يقص علينا أخبار البعض الآخر، لحكمته البالغة جل وعلا.

مسألة: الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فعن أنس في حديث الإسراء: (والنبي نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم) رواه البخاري في صحيحه (٣٥٧٠)، وهذا وإن كان من قول أنس إلا أن مثله لا يقال من قبل الرأي كما يقول احافظ في الفتح (٦/ ٥٧٩)، وقد ورد هذا من قول الرسول ﷺ، فقد صحّ عنه أنّه قال: (إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٨٧)، وقال ﷺ عن نفسه: (إنّ عيني تنامان ولا ينام قلبي) رواه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

و مما تفرد به الأنبياء أنّهم يخيَّرون بين الدنيا والآخرة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من نبي يمرض إلاّ خيّر بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحّة شديدة، فسمعته يقول: مع الَّذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشُّهداء والصَّالحين [النساء: ٦٩] فعلمت أنه خيَّر) رواه البخاري (٤٥٨٦).

وممّا خص به الأنبياء بعد موتهم أمور تتعلق بهم في القبر، منها: الأول: أنّه لا يقبر

=

=

نبيٌّ إلاّ في الموضع الذي مات فيه، ففي الحديث: (لم يقبر نبيٌّ إلا حيث يموت) صححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠١). ولهذا فإنّ الصحابة - رضوان الله عليهم - دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة حيث قبض.

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله أنّ الأرض لا تأكل أجسادهم، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى، ففي الحديث (إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) وهو حديث صحيح.

مسألة: لم يرد في السنة النبوية ما يدل على مكان دفن المسيح عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وأما الحديث الذي يروى في ذلك فضعيف جدا لا يثبت، وهذا بيانه: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ينزل عيسى ابن مريم إلى الأرض، فيتزوج، ويولد له، ويمكث خمسا وأربعين سنة، ثم يموت فيدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى ابن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر) أخرجه ابن أبي الدنيا كما عزاه إليه الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٥٦٢)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٩١٥)، وفي المنتظم (١/ ١٢٦)، وفي الوفا (٢/ ٧١٤) من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، والإفريقي ضعيف بمرة، وقال الذهبي في الميزان (٢/ ٥٦٢): منكر، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٦٥٦٢): منكر انتهى، ووردت بعض الآثار في هذا الشأن عن بعض الصحابة والتابعين ممن قرؤوا التوراة وعرفوا ما فيها وهي أيضا ضعيفة لا تثبت.

مسألة: سئل شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٨): عن رجلين تجادلا، فقال أحدهما: إن تربة محمد ﷺ أفضل من السماوات والأرض. وقال الآخر: الكعبة أفضل، فمع من الصواب؟

فأجاب: "الحمد لله، أما نفس محمد ﷺ فما خلق الله خلقا أكرم عليه منه، وأما

=

=

نفس التراب فليس هو أفضل من الكعبة البيت الحرام، بل الكعبة أفضل منه، ولا يعرف أحد من العلماء فضل تراب القبر على الكعبة إلا القاضي عياض، ولم يسبقه أحد إليه، ولا وافقه أحد عليه، والله أعلم" انتهى.

مسألة: ذهب بعض العلماء إلى أنّ الله أنعم على بعض النساء بالنبوة، فمن هؤلاء أبو الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم، والذين يقولون بنبوة النساء متفقون على نبوة مريم، ومنهم من ينسب النبوة إلى غيرها، ويعدّون من النساء النبيات: حواء وسارة وأمّ موسى وهاجر وآسية. وهؤلاء عندما اعترض عليهم بالآية التي تحصر الرسالة في الرجال دون النساء، قالوا: نحن لا نخالف في ذلك، فالرسالة للرجال، أمّا النبوة فلا يشملها النصُّ القرآني، وليس في نبوة النساء تلك المحذورات التي عددتموها فيما لو كان من النساء رسول، لأنَّ النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها، يعمل بها، ولا يحتاج إلى أن يبلغها إلى الآخرين.

وحجّة هؤلاء أن القرآن أخبر بأن الله تعالى أوحى إلى بعض النساء، فمن ذلك أنه أوحى إلى أمّ موسى: (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) [القصص: ٧]، وأرسل جبريل إلى مريم فخاطبها (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا).. [مريم: ١٧ - ١٩] وخاطبتها الملائكة قائلة: (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) [آل عمران: ٤٢ - ٤٣].

فأبو الحسن الأشعري يرى أنّ كلَّ من جاءه الملك عن الله - تعالى - بحكم من أمر أو نهي أو بإعلام فهو نبي، وقد تحقق في أمّ موسى ومريم شيء من هذا، وفي غيرهما أيضًا، فقد تحقق في حواء وسارة وهاجر وآسية بنصّ القرآن. واستدلوا

=

=

أيضًا باصطفاء الله لمريم على العالمين (وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) [آل عمران: ٤٢] وبقوله ﷺ: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون) رواه البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١) قالوا: الذي يبلغ مرتبة الكمال هم الأنبياء.

وهذا الذي ذكروه لا ينهض لإثبات نبوة النساء، والرد عليهم من وجوه:

الأول: أنّا لا نسلم لهم أن النبي غير مأمور بالتبليغ والتوجيه ومخالطة الناس، والذي اخترناه أن لا فرق بين النبي والرسول في هذا، وأنَّ الفرق في غير ذلك.

وإذا كان الأمر كذلك فالمحذورات التي قيلت في إرسال رسول من النساء قائمة في بعث نبي من النساء، وهي محذورات كثيرة تجعل المرأة لا تستطيع القيام بحقّ النبوة.

الثاني: قد يكون وحي الله إلى هؤلاء النسوة أم موسى وآسية.. إنّما وقع منامًا، فقد علمنا أنّ من الوحي ما يكون منامًا، وهذا يقع لغير الأنبياء.

الثالث: لا نسلم لهم قولهم: إن كل من خاطبته الملائكة فهو نبي، ففي الحديث أن الله أرسل ملكًا لرجل يزور أخًا له في الله في قرية أخرى، فسأله عن سبب زيارته له، فلمّا أخبره أنه يحبّه في الله، أعلمه أنَّ الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبّه، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة، وقد جاء جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول ﷺ والصحابة يشاهدونه ويسمعونه.

الرابع: أنّ الرسول ﷺ توقف في نبوة ذي القرنين مع إخبار القرآن بأنّ الله أوحى إليه (قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) [الكهف: ٨٦].

الخامس: لا حجّة لهم في النصوص الدالة على اصطفاء الله لمريم، فالله قد صرح بأنّه اصطفى غير الأنبياء: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) [فاطر: ٣٢]، واصطفى آل إبراهيم

=

=
وآل عمران على العالمين، ومن آلهما من ليس بنبيّ جزمًا (إِنَّ اللهَ اصْطَفَىَ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) [آل عمران: ٣٣].

السادس: لا يلزم من لفظ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به النبوة، لأنّه يطلق لتمام الشيء، وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء، وعلى ذلك فالكمال هنا غير كمال الأنبياء.

السابع: ورد في بعض الأحاديث النصّ على أن خديجة من الكاملات وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة.

الثامن: ورد في بعض الأحاديث أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلاّ ما كان من مريم ابنة عمران، وهذا يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية، لأنّ فاطمة ليست بنبيّة جزمًا وقد نصَّ الحديث على أنها أفضل من غيرها، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتان لكانتا أفضل من فاطمة.

التاسع: وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والإخبار بفضلها، قال تعالى: (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلانِ الطَّعَامَ) [المائدة: ٧٥] فلو كان هناك وصفًا أعلى من ذلك لوصفها به، ولم يأت في نصّ قرآني ولا في حديث نبويّ صحيح إخبار بنبوة واحدة من النساء. وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أنّ مريم ليست بنبيّة، وذكر النووي في (الأذكار) عن إمام الحرمين أنّه نقل الإجماع على أنّ مريم ليست نبيّة، ونسبه في (شرح المهذب) لجماعة، وجاء عن الحسن البصري: ليس في النساء نبيّة ولا في الجنّ، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩٦) وأبو محمد (يقصد شيخ الإسلام الإمام ابن حزم) مع كثرة علمه وتبحره وما يأتي به من الفوائد العظيمة: له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتي به من الأقوال الحسنة الفائقة وهذا كقوله: إن مريم نبية وإن آسية نبية وإن أم موسى نبية.
=

=

وقد ذكر القاضي أبو بكر والقاضي أبو يعلى وأبو المعالي وغيرهم: الإجماع على أنه ليس في النساء نبية والقرآن والسنة دلا على ذلك: كما في قوله: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى} وقوله: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة} ذكر أن غاية ما انتهت إليه أمه: الصديقية وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

مسألة: هل ثبت أن المسيح عليه السلام سيدفن في آخر الزمان في الحجرة النبوية؟

لم يرد في السنة النبوية ما يدل على مكان دفن المسيح عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وأما الحديث الذي يروى في ذلك فضعيف جدا لا يثبت، وهذا بيانه:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ينزل عيسى ابن مريم إلى الأرض، فيتزوج، ويولد له، ويمكث خمسا وأربعين سنة، ثم يموت فيدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى ابن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر).

رواه ابن أبي الدنيا - كما عزاه إليه الذهبي في "ميزان الاعتدال" (٢/ ٥٦٢) - وابن الجوزي في "العلل المتناهية" (٢/ ٩١٥) وفي "المنتظم" (١/ ١٢٦)، وفي "الوفا" (٢/ ٧١٤) أيضا: من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي.

قال ابن الجوزي: "هذا حديث لا يصح، والإفريقي ضعيف بمرة " انتهى.

وأورده الذهبي في "ميزان الاعتدال" في سياق المناكير التي رواها هذا الراوي، وقال: "فهذه مناكير غير محتملة " انتهى.

وقال الشيخ الألباني في "السلسلة الضعيفة" برقم (٦٥٦٢): "منكر " انتهى.

ووردت بعض الآثار في هذا الشأن عن علماء الصحابة ممن قرؤوا التوراة وعرفوا ما فيها:

١ - قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: (مكتوب في التوراة صفة محمد، وصفة عيسى بن مريم، يدفن معه) رواه البخاري في "التاريخ الكبير" (٦/ ٢٢٩)،

=

=

والترمذي في "السنن" (رقم/ ٣٦١٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (القطعة المفقودة ص/ ١١١)، والآجري في كتاب "الشريعة" (٣/ ١٣٢٤) بألفاظ متقاربة، ولكني اخترت اللفظ الذي عند الترمذي لتصريحه بنقل الكلام عن التوراة.

كلهم رووه من طريق عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده.

وهذا إسناد ضعيف، فيه عثمان بن الضحاك: قال أبو داود: ضعيف. انظر "تهذيب التهذيب" (٧/ ١٢٤). وفيه: محمد بن يوسف لم يوثقه أحد، وإنما ذكره ابن حبان في "الثقات" انظر ترجمته في "تهذيب التهذيب" (٩/ ٥٣٤) لذلك قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بعد إخراجه الحديث في التاريخ الكبير في ترجمته: "هذا لا يصح عندي، ولا يتابع عليه " انتهى.

وقال العلامة الألباني في "السلسلة الضعيفة" برقم (٦٩٦٢): "موقوف ضعيف " انتهى.

٢- عن سعيد بن المسيب قال: (إن قبور الثلاثة في صفة بيت عائشة، وهناك موضع قبر يدفن فيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ).

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٦): "من وجه ضعيف " انتهى.

كما ذكر ذلك بعض العلماء والمؤرخين:

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ثم يقبض الله روح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويذوق الموت، ويدفن إلى جانب النبي ﷺ في الحجرة... ، وقد قيل إنه يدفن بالأرض المقدسة مدفن الأنبياء " انتهى.

"التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" (ص/ ١٣٠١) وذكر نحوه ابن عساكر وغيره.

=

=

والذي يتحصل مما سبق أنه لم يثبت في حوادث آخر الزمان دفن عيسى عليه السلام في الحجرة النبوية، وما ورد في ذلك إنما هي آثار ضعيفة السند، ومأخوذة عن غير الكتاب والسنة، والله أعلم.

مسألة: الجواب عن إشكال حول قول يوسف عليه السلام: اذكرني عند ربك؟

أظهر القولين في تفسيره هذه الآية أن الذي نسي ذكر ربه في هذه الآية، ليس هو يوسف عليه السلام، وإنما هو السجين الآخر، الذي طلب منه يوسف أن يذكره عند ربه، قال تعالى: (وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك، فأنساه الشيطان ذكر ربه، فلبث في السجن بضع سنين) سورة يوسف/ ٤٢.

وإذا كان الأظهر في تفسير الآية أن الناسي هو حامل الرسالة من يوسف إلى عزيز مصر، فليس في إرسال هذه الرسالة: أن يذكر العزيز بأمر يوسف، شيء مما يخل بمنصب الرسالة، بل ولا منصب التوكل على الله وإنزال الحوائج به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "قال تعالى: (فأنساه الشيطان ذكر ربه)، قيل: أنسي يوسف ذكر ربه لما قال: (اذكرني عند ربك).

وقيل: بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه، وهذا هو الصواب، فإنه مطابق لقوله: (اذكرني عند ربك)، قال تعالى: (فأنساه الشيطان ذكر ربه)، والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك؛ ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه؛ بل كان ذاكرا لربه. وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه، وقال لهما: (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار. ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)، وقال لهما قبل ذلك: (لا يأتيكما طعام ترزقانه)، أي: في الرؤيا (إلانبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما)، يعني التأويل، (ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله

=

=

وهم بالآخرة هم كافرون. واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون)، فبذا يذكر ربه ﷻ فإن هذا مما علمه ربه؛ لأنه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله وإن كانوا مقرين بالصانع، ولا يؤمنون بالآخرة، واتبع ملة آبائه أئمة المؤمنين - الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره - إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ فذكر ربه ثم دعاهما إلى الإيمان بربه، ثم بعد هذا عبر الرؤيا، فقال: (يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا) الآية، ثم لما قضى تأويل الرؤيا: (وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك)، فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه؟

وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربه، أي الذكر المضاف إلى ربه والمنسوب إليه، وهو أن يذكر عنده يوسف.

والذين قالوا ذلك القول، قالوا: كان الأولى أن يتوكل على الله ولا يقول اذكرني عند ربك. فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين.

فيقال: ليس في قوله: (اذكرني عند ربك) ما يناقض التوكل؛ بل قد قال يوسف: (إن الحكم إلا لله) كما أن قول أبيه: (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) لم يناقض توكله، بل قال: (وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون).

وأيضا: فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصا مع توكله على غير الله، فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركا، لا في عبادته ولا توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين)، فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده.

وقوله: (اذكرني عند ربك) مثل قوله لربه: (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ

=

=

عليم)، فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضا للتوكل، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه، فكيف يكون قوله للفتى: (اذكرني عند ربك) مناقضا للتوكل، وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به؛ ليعلم حاله، ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس.

ولهذا بعد أن طلب: (وقال الملك ائتوني به)، قال: (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم)، فيوسف يذكر ربه في هذه الحال كما ذكره في تلك.

ويقول: (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة)، فلم يكن في قوله له: (اذكرني عند ربك) ترك لواجب ولا فعل لمحرم حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين...

والمقصود أن يوسف لم يفعل ذنبا ذكره الله عنه، وهو سبحانه لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنبا إلا ذكر استغفاره منه، ولم يذكر عن يوسف استغفارا من هذه الكلمة " انتهى باختصار. من "مجموع الفتاوى" (١٥/ ١١٢ - ١١٨).

مسألة: هل النبي ﷺ أفضل الخلق؟.

وردت في فضائل النبي ﷺ وخصائصه أدلة كثيرة جدا، ولم يرد - فيما نعلم - دليل صريح فيه النص صراحة على أن النبي ﷺ أفضل الخلق، والذي ورد النص عليه: أنه ﷺ أفضل البشر وسيد ولد آدم.

روى مسلم (٤٢٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع).

وقد فهم العلماء من هذا النص وغيره من النصوص الواردة في فضائل نبينا ﷺ أنه أفضل الخلق.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في "شرح صحيح مسلم": وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على

=

=
الخلق كلهم، لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة، وهو ﷺ أفضل الآدميين وغيرهم" انتهى.

وقد تتابع العلماء على وصف النبي ﷺ بأنه أفضل الخلق، ونكتفي بالإشارة إلى بعض مواضع كلامهم خشية الإطالة:

الإمام الشافعي في "الأم" (٤/ ١٦٧).

الإمام عبد الرازق الصنعاني في مصنفه (٢/ ٤١٩).

شيخ الإسلام ابن تيمة في "مجموع الفتاوى" (١/ ٣١٣) و (٥/ ١٢٧، ٤٦٨).

ابن القيم في تهذيب السنن حديث رقم (١٧٨٧) من عون المعبود.

ابن حجر في "فتح الباري" شرح حديث رقم (٦٢٢٩).

المرداوي في " الإنصاف" (١١/ ٤٢٢).

الألوسي في"روح المعاني" (٤/ ٢٨٤).

الطاهر بن عاشور في تفسيره (٢/ ٤٢٠).

السعدي في تفسيره (٥١، ١٨٥، ٦٩٩).

محمد الأمين الشنقيطي في "أضواء البيان" (٩/ ٢١٥).

الشيخ عبد العزيز بن باز في "مجموع الفتاوى" (٢/ ٧٦، ٣٨٣).

علماء اللجنة الدائمة للإفتاء، وقد سئلوا: هل نقول بأن النبي ﷺ خير البشر أو خير الخلق؟ وهل هناك دليل على أنه خير الخلق، كما يقول كثير من الناس؟

فأجابوا: "جاء في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة بيان عظم قدر نبينا محمد ﷺ ورفعة مكانته عند ربه تعالى من خلال الفضائل الجليلة والخصائص الكريمة التي خصه الله بها، مما يدل على أنه أفضل الخلق وأكرمهم على الله وأعظمهم جاها عنده سبحانه، قال الله سبحانه: (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) النساء/ ١١٣، وأجناس الفضل التي
=

=

فضله الله بها يصعب استقصاؤها؛ فمن ذلك: أن الله ﷻ اتخذه خليلا، وجعله خاتم رسله، وأنزل عليه أفضل كتبه، وجعل رسالته عامة للثقلين إلى يوم القيامة، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأجرى على يديه من الآيات ما فاق به جميع الأنبياء قبله، وهو سيد ولد آدم، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع، وبيده لواء الحمد يوم القيامة، وأول من يجوز الصراط، وأول من يقرع باب الجنة، وأول من يدخلها... إلى غير ذلك من الخصائص والكرامات الواردة في الكتاب والسنة، مما جعل العلماء يتفقون على أن النبي ﷺ هو أعظم الخلق جاها عند الله تعالى، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظم الخلق جاها عند الله، لا جاه لمخلوق أعظم من جاهه، ولا شفاعة أعظم من شفاعته".

فمما ذكر وغيره يتبين أن نبينا محمدا ﷺ هو أفضل الأنبياء، بل وأفضل الخلق، وأعظمهم منزلة عند الله تعالى، ولكن مع هذه الفضائل والخصائص العظيمة فإنه ﷺ لا يرقى عن درجة البشرية، فلا يجوز دعاؤه والاستغاثة به من دون الله ﷻ، كما قال تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) الكهف/ ١١٠، وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم" انتهى. "فتاوى اللجنة الدائمة" (٢٦/ ٣٥).

وقد توقف في ذلك العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، نظرا لأنه لم يرد بذلك نص صريح فقال: "المشهور عند كثير من العلماء إطلاق أن محمدا ﷺ أفضل الخلق، كما قال الناظم:

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فمل عن الشقاق

لكن الأحوط والأسلم أن نقول: محمد ﷺ سيد ولد آدم، وأفضل البشر، وأفضل

=

=

الأنبياء، أو ما أشبه ذلك اتباعا لما جاء به النص، ولم أعلم إلى ساعتي هذه أنه جاء أن النبي ﷺ أفضل الخلق مطلقا في كل شيء... فالأسلم أن الإنسان في هذه الأمور يتحرى ما جاء به النص. مثلا لو قال قائل: هل فضل الله بني آدم عموما على جميع المخلوقات؟ قلنا: لا؛ لأن الله تعالى قال: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في لبر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الإسراء/ ٧٠، لم يقل: على كل من خلقنا، فمثل هذه الإطلاقات ينبغي على الإنسان أن يتقيد فيها بما جاء به النص فقط ولا يتعدى. والحمد لله، نحن نعلم أن محمدا ﷺ خاتم النبيين، وأشرف الرسل وأفضلهم وأكرمهم عند الله ﷻ، وأدلة ذلك من القرآن والسنة الصحيحة معروفة مشهورة، وأما ما لم يرد به دليل صحيح فإن الاحتياط أن نتورع عنه، لكنه مشهور عند كثير من العلماء، تجدهم يقولون: إن محمدا أشرف الخلق" انتهى "لقاءات الباب المفتوح" (٥٣/ ١١).

مسألة: هل صحيح أن النبي ﷺ خلق من نور؟.

نبينا محمد ﷺ سيد ولد آدم أجمعين، وهو بشر من بني آدم، ولد من أبوين، يأكل الطعام ويتزوج النساء، يجوع ويمرض، ويفرح ويحزن، ومن أظهر مظاهر بشريته أن الله سبحانه توفاه كما يتوفى الأنفس، ولكن الذي يميز النبي ﷺ هو النبوة والرسالة والوحي.

قال الله تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد) الكهف/ ١١٠.

وحال النبي ﷺ في بشريته هو حال جميع الأنبياء والمرسلين.

قال الله تعالى: (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) الأنبياء/ ٨.

وقد أنكر الله على الذين تعجبوا من بشرية الرسول ﷺ، فقال سبحانه: (وقالوا مال

=

=

هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) الفرقان/ ٧.

فلا يجوز تجاوز ما يقرره القرآن الكريم من رسالة النبي ﷺ وبشريته، ومن ذلك: أنه لا يجوز وصفه ﷺ بأنه نور أو لا ظل له، أو أنه خلق من نور، بل هذا من الغلو الذي نهى عنه النبي ﷺ حين قال: (لا تطروني كما أطري عيسى ابن مريم، وقولوا عبد الله ورسوله) رواه البخاري (٦٨٣٠).

وقد ثبت أن الملائكة هي التي خلقت من نور، وليس أحد من بني آدم، قال النبي ﷺ: (خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من نار السموم، وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم) رواه مسلم (٢٩٩٦).

قال العلامة الألباني في الصحيحة (٤٥٨): "وفيه إشارة إلى بطلان الحديث المشهور على ألسنة الناس: (أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر)! ونحوه من الأحاديث التي تقول بأنه ﷺ خلق من نور، فإن هذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور، دون آدم وبنيه، فتنبه ولا تكن من الغافلين " انتهى.

وقد سئلت اللجنة الدائمة للإفتاء السؤال التالي: هنا في الباكستان علماء فرقة (البريلوية) يعتقدون أنه لا ظل للنبي ﷺ، وهذا دلالة على عدم بشرية النبي ﷺ. هل هذا الحديث صحيح. ليس الظل للنبي ﷺ؟.

فأجابت: "هذا القول باطل، مناف لنصوص القرآن والسنة الصريحة الدالة على أنه صلوات الله وسلامه عليه بشر لا يختلف في تكوينه البشري عن الناس، وأن له ظلا كما لأي إنسان، وما أكرمه الله به من الرسالة لا يخرجه عن وصفه البشري الذي خلقه الله عليه من أم وأب، قال تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) الآية، وقال تعالى: (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) الآية.

أما ما يروى من أن النبي ﷺ خلق من نور الله، فهو حديث موضوع " انتهى.

=

=

"فتاوى اللجنة الدائمة" (١/ ٤٦٤).

مسألة: عصمة الأنبياء.

الأنبياء هم صفوة البشر، وهم أكرم الخلق على الله تعالى، اصطفاهم الله تعالى لتبليغ الناس دعوة لا إله إلا الله، وجعلهم الله تعالى الواسطة بينه وبين خلقه في تبليغ الشرائع، وهم مأمورون بالتبليغ عن الله تعالى، قال الله تعالى: "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين " الأنعام / ٨٩. والأنبياء وظيفتهم التبليغ عن الله تعالى مع كونهم بشرا، ولذلك فهم بالنسبة للأمر المتعلق بالعصمة على حالين:

١- العصمة في تبيلغ الدين.

٢- العصمة من الأخطاء البشرية.

أولا: أما بالنسبة للأمر الأول، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون في التبليغ عن الله تبارك وتعالى، فلا يكتمون شيئا مما أوحاه الله إليهم، ولا يزيدون عليه من عند أنفسهم، قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ " يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس " المائدة / ٦٧، وقال تعالى: "ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين " الحاقة / ٤٧ - ٤٤، وقال تعالى: "وما هو على الغيب بضنين " التكوير / ٢٤، قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - في تفسير هذه الآية " وما هو على ما أوحاه الله إليه بشحيح، يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء، وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه، البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، إليهم الغاية في العلوم... " انتهى

=

=

فالنبي في تبليغه لدين ربه وشريعته لا يخطأ في شيء البتة لا كبير ولا قليل، بل هو معصوم دائما من الله تعالى.

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - رَحِمَهُ اللَّهُ - (فتاوى ابن باز ج٦/ ٣٧١): "قد أجمع المسلمون قاطبة على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - ولاسيما محمد ﷺ معصومون من الخطأ فيما يبلغونه عن الله ﷻ، قال تعالى: "والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى " النجم / ١ - ٥)، فنبينا محمد ﷺ معصوم في كل ما يبلغ عن الله قولا وعملا وتقريرا، هذا لا نزاع فيه بين أهل العلم " انتهى.

وقد اتفقت الأمة على أن الرسل معصومون في تحمل الرسالة، فلا ينسون شيئا مما أوحاه الله إليهم، إلا شيئا قد نسخ، وقد تكفل الله جل وعلا لرسوله _ ﷺ _ أن يقرئه فلا ينسى، إلا شيئا أراد الله أن ينسيه إياه وتكفل له بأن يجمع له القرآن في صدره. قال تعالى. " سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله " الأعلى / ٧، وقال تعالى: "إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه " القيامة / ١٧ - ١٨.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ (مجموع الفتاوى ج١٨/ ٧): "فان الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله ﷻ فلا يكون خبرهم إلا حقا وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب وأنه ينبئ الناس بالغيب والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه " انتهى.

ثانيا: بالنسبة للأنبياء كأناس يصدر منهم الخطأ، فهو على حالات:

عدم الخطأ بصدور الكبائر منهم:

أما كبائر الذنوب فلا تصدر من الأنبياء أبدا وهم معصومون من الكبائر، سواء قبل بعثتهم أم بعدها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - (مجموع الفتاوى: ج٤/ ٣١٩):

=

=

" إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف... وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول " انتهى.

وأما صغائر الذنوب فربما تقع منهم أو من بعضهم، ولهذا ذهب أكثر أهل العلم إلى أنهم غير معصومين منها، وإذا وقعت منهم فإنهم لا يقرون عليها بل ينبههم الله تبارك وتعالى عليها فيبادرون بالتوبة منها.

مسألة: التفاضل بين الأنبياء والرسل.

قال ابن كثير: (لا خلاف أن الرسول أفضل من بقية الأنبياء) وقال السفاريني: (الرسول أفضل من النبي إجماعًا لتميزه بالرسالة التي هي أفضل من النبوة)

وقد بدأ الله بذكر الرسول قبل النبي في قوله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [الحج: ٥٢]. وقدم سبحانه الوصف بالرسالة على الوصف بالنبوة في قوله في كل من موسى وإسماعيل عليهما السلام: وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا [مريم: ٥١]. فلعل في هذه دلالة على فضل الرسول على النبي، إذا الترتيب كان قاضيا بتقديم النبي على الرسول، لأن النبوة تكون أولًا ثم الرسالة، ففي تقديمها على النبوة إفادة معنى. ودلل الماوردي على فضل الرسول فقال: (الرسول أعلى منزلة من النبي ولذلك سميت الملائكة رسلًا ولم يسموا أنبياء) ولكن هذا الاستدلال على القول بتفضيل الملائكة على الأنبياء وهو مرجوح. كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

ومن أوجه فضل الرسل على الأنبياء:

أن الرسالة في أصلها قدر زائد على النبوة فهي نبوة وزيادة، فالرسل ساووا الأنبياء

=

=

في النبوة، وفضلوا عليهم بالرسالة - صلوات الله وسلامه على الجميع -، يقول القرطبي: (معلوم أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل، فإن من أرسل فضل على غيره في الرسالة واستووا في النبوة).

قال: (إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم وهذا مما لا خفاء فيه)

وفي قول القرطبي هذا وجه آخر من وجوه فضل الرسول على النبي وهو ما يلقاه الرسل دون الأنبياء من المنازعة مع أقوامهم، وذكر ابن القيم طبقات المكلفين فجعل الطبقة الأولى مرتبة أولي العزم من الرسل ثم الطبقة الثانية من عداهم من الرسل ثم قال: (الطبقة الثالثة الذين لم يرسلوا إلى أممهم وإنما كانت لهم النبوة دون الرسالة فاختصوا بإيحاء الله إليهم، وإرساله ملائكته إليهم، واختصت الرسل عنهم بإرسالهم إلى الأمة بدعوتهم إلى الله بشريعته وأمره واشتركوا في الوحي ونزول الملائكة عليهم)

ومن وجوه فضل الرسول على النبي: أن الرسالة تثمر هداية الكافرين وإزالة الشرك، أما النبوة فتثمر توجيه المؤمنين وصيانة أحكام الله فيهم، وهذا مستفاد مما ذكر من الفرق بين النبي والرسول أن النبي يبعث في مؤمنين، والرسول في كافرين، ولا شك أن هداية الكافر خير من تعليم المؤمن وفي كل خير، قال ﷺ لعلي رضي الله عنه لما أمره بدعوة أهل خيبر إلى الإسلام: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم)

وهذا الإجماع المذكور على فضل الرسول على النبي واقع خلافًا للعز بن عبد السلام كما يقول السفاريني فإن العز قال: (إن قيل أيهما أفضل النبوة أم الإرسال؟ فنقول: النبوة أفضل، لأن النبوة إخبار عما يستحقه الرب من صفات الجمال ونعوت الكمال، وهي متعلقة بالله من طرفيها، والإرسال دونها أمر بالإبلاغ إلى العباد، فهو متعلق بالله من أحد طرفيه وبالعباد من الطرف الآخر، ولا شك أن ما

=

=

يتعلق بالله من طرفيه أفضل مما يتعلق به من أحد طرفيه، والنبوة سابقة على الإرسال فإن قول الله لموسى: إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مقدم على قوله: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فجميع ما تحدث به قبل قوله: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ نبوة، وما أمره بعد ذلك من التبليغ فهو إرسال، والحاصل أن النبوة راجعة إلى التعريف بالإله وبما يجب له والإرسال إلى أمر الرسول بأن يبلغ عنه إلى عباده أو إلى بعض عباده ما أوجبه عليهم من معرفته، وطاعته، واجتناب معصيته، وكذلك الرسول عليه السلام لما قال له جبريل: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ إلى قوله: إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى كان هذا نبوة، وكان ابتداء الرسالة حين جاء جبريل بـ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ.

ويظهر من كلام العز بن عبد السلام حصره سبب تفضيله النبي على الرسول في أمرين:

الأول: أن النبوة متعلقة بالله من طرفيها، والإرسال متعلق بالله من أحد طرفيه وبالعباد من الطرف الآخر.

الثاني: أن النبوة سابقة على الإرسال.

أما الأول: فإنه لم يعين الطرفين ما هما على التحديد، إلا أنه بنى ذلك على تفريقه بين النبوة والرسالة بأن النبوة تعريف الله نبيه به سبحانه وبما يجب له، ومثاله في كلامه قول الله لموسى عليه السلام: إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وقول جبريل للنبي ﷺ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، والرسالة الأمر بالتبليغ، ومثاله قوله سبحانه لموسى عليه السلام: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ وقوله للنبي ﷺ: قم فأنذر، فكان النبوة على هذا وحي خاص بالنبي لا يبلغه لغيره، والرسول من أمر بالتبليغ فرجع إلى قول من جعل الفرق بينهما أن النبي من أوحي إليه بوحي ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه، وهو غير مسلم، فإن الإرسال ثابت لهما كما تقدم بيانه في مسألة الفرق، وثبوت الإرسال لهما يجعل النبوة متعلقة بالله وبالعباد كالرسالة،

=

=

فيكون السبب المذكور في تفضيل النبي على الرسول منتقضًا.

وأما الثاني: فإن سبق النبوة دليل على فضل الرسالة عليها لأنه لا يبلغ مرتبة الرسالة إلا من كان نبيًا فهي مرتبة شريفة تفضل مرتبة النبوة، فلا يبلغ مبلغ الرسول إلا من كان نبيًا أولًا.

ونبوة الرسول تكون إعدادا له للقيام بأعباء الرسالة - وهذا مفهوم من كلام العز - فدل على فضل الرسالة على النبوة.

وقد فهم السفاريني من كلام العز بن عبد السلام تخصيصه فضل النبوة على الرسالة في حال اجتماعهما في شخص واحد لا مطلقًا قال السفاريني: (الرسول أفضل من النبي إجماعًا، لتميزه بالرسالة التي هي أفضل من النبوة، على الأصح خلافًا لابن عبد السلام) إلى أن قال: (ثم أن محل الخلاف فيهما مع اتحاد محلهما وقيامهما معًا بشخص واحد، أما مع تعدد المحل فلا خلاف في أفضلية الرسالة على النبوة).

وقال في موضع آخر: (الرسالة أفضل من النبوة ولو في شخص واحد، خلافًا للعز بن عبد السلام في قوله أن نبوة النبي أفضل من رسالته لقصرها على الحق تعالى، إذ هي الإيحاء بما يتعلق بالباري جل شأنه من غير ارتباط له بالخلق، وأما مع تعدد المحل فلا خلاف في أفضلية الرسالة على النبوة ضرورة جمع الرسالة لها مع زيادة) قال: (على أن الصحيح المعتمد أفضلية الرسالة مطلقًا).

وليس في كلام العز الذي وجدته ونقلته إلا إطلاق تفضيل النبوة على الرسالة لا كما يذكر السفاريني إلا أن يكون وقف على غير ما وقفت عليه.

هذا وقد جاء في كلام لابن حجر في ذكره وجوهًا في تعليل نهي النبي ﷺ عبادة من قول: ورسولك الذي أرسلت، ليقول: ونبيك الذي أرسلت في حديث الدعاء قبل النوم، وكان مما قاله: (أو لأن لفظ النبي أمدح من لفظ الرسول، لأنه مشترك في

=

=

الإطلاق على كل من أرسل بخلاف لفظ النبي فإنه لا اشتراك فيه عرفًا) وهذا في عرف اللغة لا في عرف الشرع، بل وصف الرسالة في عرف الشرع يستلزم وصف النبوة. فالصحيح أن الرسالة أفضل من النبوة، والرسول أفضل من النبي، فلفظ الرسول أمدح من لفظ النبي.

مسألة: توجيه النهي الوارد في التفضيل بين الأنبياء.

لابد من اعتقاد التفاضل بين الأنبياء واعتقاد فضل الرسل على الأنبياء وفضل أولي العزم على بقية الرسل وفضل محمد ﷺ على سائر الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، لقيام الأدلة الشرعية الصريحة الصحيحة على ذلك، وقد ثبت عن النبي ﷺ نهيه عن التفضيل بين الأنبياء، ونهيه عن تفضيله خاصة على بعض الأنبياء، وفي هذا إشكال يظهر لناظره ويزول لمتأمله، وقد خرج العلماء وجوهًا من القول في توجيه ذلك النهي.

أما ما ورد عن النبي ﷺ فقد قال ﷺ: (لا تخيروا بين الأنبياء)، وفي رواية (لا تفضلوا بين الأنبياء) وهو واقع في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس جاء يهودي، فقال: يا أبا القاسم، ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: أضربته؟ قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث، على محمد ﷺ؟ فأخذتني غضبة ضربت وجهه، فقال النبي ﷺ: لا تخيروا بين الأنبياء..) الحديث ، وفي رواية: (لا تخيروني بين الأنبياء) وفي رواية: (لا تفضلوا بين أنبياء الله)، وروى القصة أبو هريرة بنحوه إلا أنه قال: (لا تخيروني على موسى) وفي حديث ثان قال ﷺ: (لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى) إلا أن النهي في هذا الحديث يحتمل التأويل على وجهين:

الأول: أن يكون المراد بقوله (أنا): رسول الله ﷺ نفسه، قال الخطابي: (وهذا

=

=

أولى الوجهين وأشبههما بمعنى الحديث، فقد جاء من غير هذا الطريق أنه ﷺ قال: (ما ينبغي لنبي أن يقول: أنا خير من يونس بن متى) فعم الأنبياء كلهم فدخل هو في جملتهم.

الثاني: أن يكون إنما أراد ﷺ بقوله: لا ينبغي لعبد): من سواه من الناس، أي لا ينبغي للعبد القائل أن يقول ذلك.

وقد دل على أن هذا هو الأولى في معنى الحديث جملة من ألفاظ الحديث في عدد من رواياته في الصحيحين، ففي رواية: (لا أقول إن أحدًا أفضل من يونس بن متى) وفي رواية: (من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب) فلا يصح مع قوله: فقد كذب أن يكون المراد رسول الله ﷺ.

وفي رواية يقول ﷺ: (قال - يعني الله تبارك وتعالى - لا ينبغي لعبد لي (وفي لفظ: لعبدي) أن يقول: أنا خير من يونس بن متى) فقوله: (لعبد لي) يمنع أن يكون المراد رسول الله ﷺ خاصة.

والحاصل أن في الحديثين ينهى رسول الله ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء، وعن تفضيله على موسى ويونس خاصة - على حمل الحديث في يونس على أن النبي ﷺ هو المراد - وهو ﷺ أفضل منهما ومن سائر الأنبياء وجميع الخلق قطعًا كما تقدمت الدلائل عليه من الكتاب والسنة والإجماع، وفي هذا إشكال ظاهر، وقد وجه العلماء ذلك النهي لإزالة الإشكال في أقوال متعددة، منها:

١ - أن النهي ورد قبل أن يعلم النبي ﷺ أنه سيد ولد آدم وأفضل الأنبياء فلما علم أخبر به، وأن النهي عن التفضيل منسوخ بالقرآن.

إلا أن في هذا القول نظر كما يقول ابن كثير، قال: (لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخرًا، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا والله أعلم)، وهو كما قال، بل والقول بالنسخ مردود، فإن التفاضل بين

=

=

الأنبياء ،وفضل أولى العزم من الرسل منهم، وتفضيله ﷺ على يونس، كل ذلك قد ورد في الآيات المكية في سورة الإسراء، والأحقاف، والقلم، وقصة حديث أبي سعيد وأبي هريرة وقعت في المدينة، وكذلك الحديث الآخر في يونس عليه السلام ورد من رواية أبي هريرة وابن عباس، وابن عباس على سبيل المثال، من صغار الصحابة توفي النبي ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقد ورد أيضًا من رواية عبد الله بن مسعود.

٢- أن النهي من باب التواضع وهضم النفس ونفي الكبر والعجب. قال القاضي عياض: (وهذا لا يسلم من الاعتراض) وهذا التوجيه لا يتناسب مع قوله ﷺ (فقد كذب) في رواية: (من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب) إن حمل الحديث على أن المراد بقوله (أنا) رسول الله ﷺ. فإذا حمل على أن المراد به من سواه ﷺ، فإن لهذا التوجيه وجهه، خاصة مع قوله ﷺ: (إن الله أوصى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد) ويكون مناسبًا أيضًا مع قوله: (ولا فخر) في حديث (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) المتقدم ذكره.

٣- أن النهي عن تعيين المفضول، أما تفضيل بعضهم على بعض في الجملة دون تعيين المفضول فهو دلالة النصوص، قاله ابن عطية واستشهد له بقوله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم) بإطلاق دون تعيين. ونقل القرطبي قول من قال: (إن النهي اقتضى منع إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى، فإن الله أخبر بأن الرسل متفاضلون، فلا تقول: نبينا خير من الأنبياء، ولا من فلان النبي، اجتنابًا لما نهي عنه، وتأدبًا به، وعملًا باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل)

إلا أن في هذا التوجيه نظرًا، فالله ﷻ لما أخبر أنه فضل بعض النبيين على بعض في آية الإسراء، وبعض الرسل على بعض في آية البقرة، جعل يعين في الآيتين بعض المتفاضلين ويذكر بعض الوجوه التي فضلوا بها، فعمم ثم خص كما هو ظاهر من

=

=

لفظ الآيتين وقد تقدم ذكرهما مرارًا.

وقد عين الله ﷻ أولي العزم بالذكر وفضلهم على بقية الأنبياء - كما تقدم -، والرسل أفضل من الأنبياء كما دل عليه الدليل واتفق عليه العلماء، فالرسول أفضل من النبي وفي هذا تعيين كما هو ظاهر، أما الإجمال في قوله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم) فهو دال على التعيين أيضًا، إذ ثبوت كونه ﷺ أفضل من الأنبياء جملة دليل كونه أفضل من كل واحد منهم مفصلًا، هذا مع قيام دليل على التعيين فلقد استدل العلماء بقوله تعالى: وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ على أن النبي ﷺ أفضل من يونس، وهذا شاهد على التعيين، فالمراد بالنهي إذًا غير هذا الوجه.

٤- أن المراد بالنهي المنع من التفضيل من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها فهم متساوون فيها، وإنما التفاضل بالخصائص والمحن ونحوها. قال القرطبي: (وهذا قول حسن فإنه جمع بين الآيات والأحاديث من غير نسخ).

وقال ابن قتيبة في حديث لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى: (ويجوز أن يريد لا تفضلوني عليه في العمل فلعله أكثر عملًا مني، ولا في البلوى والامتحان فإنه أعظم مني محنة).

٥- أن المراد بالنهي منع التفضيل من عند أنفسنا لأن مقام التفضيل إنما هو إلى الله، وروي عن أحمد بن حنبل - رَحِمَهُ اللَّهُ - أنه كان يمنع من المفاضلة بين الأنبياء مع قوله بأن بعضهم أفضل من بعض وأن محمدًا أفضلهم، لكنه يقول ليس تعيين التفضيل إلى أحد منا.

٦- أن المراد بالنهي منع التفضيل بمجرد الآراء والعصبية. وهذا قد يؤول إلى سابقه.

٧- أن المراد بالنهي منع التفضيل الذي يؤدي إلى الخصومة والتشاجر. وذلك في مثل الحال التي تحاكم فيها اليهودي مع الأنصاري عند النبي ﷺ كما في حديث

=

=

أبي سعيد وأبي هريرة فهذا التوجيه ملائم لسبب ورود الحديث.

٨- أن المراد بالنهي منع التفضيل الذي يؤدي إلى توهم النقص في المفضول، أو الغض منه، والإزراء به.

قال الخطابي في النهي الوارد: (معنى هذا ترك التخيير بينهم على وجه الإزراء ببعضهم، فإنه ربما أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم والإخلال بالواجب من حقوقهم، ويفرض الإيمان بهم، وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم في درجاتهم فإن الله سبحانه قد أخبر أنه قد فاضل بينهم) وممن قال بهذا التوجيه ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعليه حمل حديث أبي سعيد وأبي هريرة المذكور. وهو لائق بحديث: (ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى).

فقد ذكر أهل العلم أنه إنما خص يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالذكر لما يخشى على من سمع ما قصه الله علينا من شأنه وما كان من قلة صبره، ونهي نبينا عليهما الصلاة والسلام عن أن يكون مثله، من أن يقع في نفسه تنقيص له، فبالغ ﷺ في ذكر فضل يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لسد هذه الذريعة ، إلا أن هناك من خرج بهذه العلة للنهي عن حدها فأطلق حكم النهي لمطلق هذه العلة، فجعل النهي مطلقًا لهذه العلة، فقال كما نقل القرطبي: (لا يقال: النبي أفضل من الأنبياء كلهم ولا من فلان ولا خير، كما هو ظاهر النهي، لما يتوهم من النقص في المفضول، لأن النهي اقتضى منع إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى، فإن الله تعالى أخبر بأن الرسل متفاضلون، فلا تقول: نبينا خير من الأنبياء، ولا من فلان النبي، اجتنابًا لما نهي عنه، وتأدبًا به وعملًا باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل)

وظاهر هذا الكلام أن المراد من النهي - عند قائله - هو منع تعيين المفضول، لا تفضيل بعض النبيين على بعض في الجملة كما في آخر النقل،... ، ثم جعل العلة من عدم تعيين المفضول هي دفع توهم نقص المفضول كما في أول النقل، وظاهر

=

=

هذا جعل تعيين المفضول موهمًا نقصه، هكذا بهذا الإطلاق وهو خطأ، ويكفي في الجواب عن القول بألا يقال النبي أفضل من الأنبياء أن يورد حديث أبي هريرة في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: فضلت على الأنبياء بست الحديث.

مسألة: الجواب عن شبهة استغناء العقل عن الوحي.

يزعم بعض الناس في عالم اليوم أنّه يمكنهم الاستغناء عن الرسل والرسالات بالعقول التي وهبهم الله إياها، ولذلك نراهم يسنُّون القوانين، ويحلُّون ويحرمون، ويخططون ويوجهون، ومستندهم في ذلك كلّه أن عقولهم تستحسن ذلك أو تقبحه، وترضى به أو ترفضه، وهؤلاء لهم سلف قالوا مثل مقالتهم هذه (فالبراهمة - وهم طائفة من المجوس - زعموا أن إرسال الرسل عبث، لا يليق بالحكيم، لإغناء العقل عن الرسل، لأنّ ما جاءت به الرسل إن كان موافقًا للعقل حسنًا عنده فهو يفعله، وإن لم يأت به، وإن كان مخالفًا قبيحًا - فإن احتاج إليه فعله وإلاّ تركه).

ولا يجوز في مجال الحجاج والنزاع أن يبادر المسلم إلى إنكار قدرة العقل على إدراك الحسن والقبح، (فإنّ الله قد فطر عباده على الفرق بين الحسن والقبيح، وركب في عقولهم إدراك ذلك، والتمييز بين النوعين، كما فطرهم على الفرق بين النافع والضار والملائم لهم والمنافر، وركب في حواسهم إدراك ذلك، والتمييز بين أنواعه.

والفطرة الأولى: (وهي فطرته العباد على الفرق بين الحسن والقبيح) هي خاصة الإنسان التي تميز بها عن غيره من الحيوانات، وأما الفطرة الثانية (وهي فطرته للعباد على الفرق بين النافع والضار..) فمشتركة بين أصناف الحيوان) والذي ينبغي أن ينازع فيه أمور:

الأول: أنّ هناك أمورًا هي مصلحة للإنسان لا يستطيع الإنسان إدراكها بمجرد

=

=

عقله، لأنها غير داخلة في مجال العقل ودائرته، (فمن أين للعقل معرفة الله - تعالى - بأسمائه وصفاته.. ؟ ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده؟ ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه، وما أعدّ لأوليائه، وما أعدّ لأعدائه، ومقادير الثواب والعقاب، وكيفيتهما، ودرجاتهما؟ ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يُظهِر اللهُ عليه أحدًا من خلقه إلاّ من ارتضاه من رسله إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل، وبلغته عن الله، وليس في العقل طريق إلى معرفته)

الثاني: أن الذي يدرك العقل حسنه أو قبحه يدركه على سبيل الإجمال، ولا يستطيع أن يدرك تفاصيل ما جاء به الشرع، وإن أدركت التفاصيل فهو إدراك لبعض الجزئيات وليس إدراكًا كليًا شاملًا: (فالعقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلًا أو ظلمًا فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كلّ فعل وعقد)

الثالث: أن العقول قد تحار في الفعل الواحد، فقد يكون الفعل مشتملًا على مصلحة ومفسدة، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أو مصلحته، فيتوقف العقل في ذلك، فتأتي الشرائع ببيان ذلك، وتأمر براجح المصلحة، وتنهى عن راجح المفسدة، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره، والعقل لا يدرك ذلك، وتأتي الشرائع ببيانه، فتأمر به من هو مصلحة له، وتنهى عنه من حيث هو مفسدة في حقّه، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر، وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي إليها العقل، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة، والمفسدة الراجحة.

وفي هذا يقول ابن تيمية: (الأنبياء جاؤوا بما تعجز العقول عن معرفته، ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول)

الرابع: ما يتوصل إليه العقل وإن كان صحيحًا، فإنه ليس إلا فرضيات، قد تجرفها

=

=

الآراء المتناقضة، والمذاهب الملحدة.

ولو استطاعت البقاء فإنها - في غيبة الوحي - ستكون تخمينات شتى، يلتبس فيها الحق بالباطل.

بطلان قول البراهمة:

والبراهمة الذين يزعمون أنّ العقل يغني عن الوحي لا نحتاج إلى إيراد الحجج لإبطال قولهم، وكل ما نفعله أن نوجه الأنظار إلى ما قادتهم إليه عقولهم التي زعموا أنهم يستغنون بها عن الوحي، هذا زعيم من زعمائهم في القرن العشرين يقول مفاخرًا: (عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانًا، لأني أعبد البقرة، وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع). ولقد قاده عقله إلى تفضيل أمّه البقرة على أمّه التي ولدته: (وأمي البقرة تفضل أمّي الحقيقية من عدة وجوه، فالأمّ الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين، وتتطلب منّا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكنّ أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا، ولا تطلب منّا شيئًا مقابل ذلك سوى الطعام العادي..) ومضى عابد البقر يقارن بين أمّه البقرة وأمّه الحقيقية موردًا الحجج والبراهين على أفضلية أمّه البقرة على أمّه الحقيقية إلى أن قال: (إنّ ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعدّ نفسي واحدًا من هؤلاء الملايين). وقد قرأت منذ مدة في مجلة العربي التي تصدر في الكويت عن معبد فخم مكسو بالرخام الأبيض ترسل إليه الهدايا والألطاف - من شتى أنحاء الهند، بقي أن تعلم أنّ الآلهة التي تقدم لها القرابين وترسل لها النذور في ذلك المعبد الفخم إنّما هي الفئران. هذه بعض الترهات التي هدتهم إليها عقولهم التي زعموا أنّ فيها غنية عن الوحي الإلهي.

مجالات العقل: إن الذين يريدون أن يستغنوا عن الوحي بالعقل يظلمون العقل ظلمًا كبيرًا، ويبددون طاقة العقل في غير مجالها، (إن للعقل اختصاصه وميدانه

=

=

وطاقته، فإذا اشتغل خارج اختصاصه جانبه الصواب، وحالفه الشطط والتخبط، وإذا أجري في غير ميدانه كبا وتعثر، وإذا كلف فوق طاقته كان نصيبه العجز والكلال. إن العالم المادي المحسوس أو عالم الطبيعة هو ميدان العقل الفسيح الذي يصول فيه ويجول، فيستخرج مكنوناته، ويربط بين أسبابه وعلله، ومقدماته ونتائجه، فيكشف ويخترع، ويتبحّر في العلوم النافعة في مختلف ميادين الحياة، وتسير عجلة التقدم البشري إلى أمام.

أما إذا كلف النظر خارج اختصاصه أعني ما وراء الطبيعة فإنه يرجع بعد طول البحث والعناء بما لا يروي غليلًا ولا يشفي عليلًا، بل يرجع بسخافات وشطحات)

موقع العقل من الوحي:

يزعم كثير من الناس أن الوحي يلغي العقل ويطمس نوره، ويورثه البلادة والخمول، وهذا زعم كاذب، ليس له من الصحة نصيب، فالوحي الإلهي وجّه العقول إلى النظر في الكون والتدبر فيه، وحث الإنسان على استعمار هذه الأرض، واستثمارها، وفي مجال العلوم المنزلة من الله وظيفة العقل أن ينظر فيها، ليستوثق من صحة نسبتها إلى الله تعالى، فإن تبين له صحة ذلك فعليه أن يستوعب وحي الله إليه، ويستخدم العقل الذي وهبه الله إياه في فهم وتدبر الوحي، ثم يجتهد في التطبيق والتنفيذ.

والوحي مع العقل كنور الشمس أو الضوء مع العين، فإذا حجب الوحي عن العقل لم ينتفع الإنسان بعقله، كما أنّ المبصر لا ينتفع بعينه إذا عاش في ظلمة، فإذا أشرقت الشمس، وانتشر ضوؤها انتفع بناظريه، وكذلك أصحاب العقول إذا أشرق الوحي على عقولهم وقلوبهم أبصرت واهتدت فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: ٤٦]

وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١).

{وَمَا قَدَرُوا} أَيْ الْيَهُود {الله حَقّ قَدْره} أَيْ مَا عَظَّمُوهُ حَقّ عَظَمَته أَوْ مَا عَرَفُوهُ حَقّ مَعْرِفَته {إِذْ قَالُوا} لِلنَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ خَاصَمُوهُ فِي الْقُرْآن {مَا أَنْزَلَ الله عَلَى بَشَر مِنْ شَيْء قُلْ} لَهُمْ {مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء فِي الْمَوَاضِع الثَّلَاثَة {قَرَاطِيس} أَيْ يَكْتُبُونَهُ فِي دَفَاتِر مُقَطَّعَة {يُبْدُونَهَا} أَيْ مَا يُحِبُّونَ إبداؤه مِنْهَا {وَيُخْفُونَ كَثِيرًا} مِمَّا فِيهَا كَنَعْتِ مُحَمَّد ﷺ {وَعُلِّمْتُمْ} أَيّهَا الْيَهُود فِي الْقُرْآن {مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ} مِنْ التَّوْرَاة بِبَيَانِ مَا الْتَبَسَ عَلَيْكُمْ وَاخْتَلَفْتُمْ فِيهِ {قُلْ الله} أَنْزَلَهُ إِنْ لَمْ يَقُولُوهُ لَا جَوَاب غَيْره {ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خوضهم} باطلهم {يلعبون}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قوله: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ}؛ يعني: من بني إسرائيل، قالت اليهود: يا محمد! أنزل الله عليك كتابًا؟ قال: "نعم"، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابًا؟ قال: فأنزل الله: قل يا محمد: {مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ

=
ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ}، قال: "الله أنزله".
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٧٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٤١ رقم ٧٥٩١) من طريق المثنى وأبي حاتم الرازي كلاهما عن عبد الله بن صالح كاتب الليث ثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وإسناده ضعيف على الراجح.
وعن سعيد بن جبير؛ قال: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: "أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى: أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين"، وكان حبرًا سمينًا؛ فغضب، وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه الذين معه: ويحك! ولا موسى؟! فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء؛ فأنزل الله: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)}.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٧٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٤٢ رقم ٧٥٩٧) من طريق يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد به.
وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: جعفر بن أبي المغيرة؛ ليس بالقوي في سعيد؛ كما قال ابن منده.
وعن محمد بن كعب القرظي؛ قال: جاء ناس من يهود إلى النبي ﷺ وهو محتب، فقالوا: يا أبا القاسم! ألا تأتينا بكتاب من السماء؛ كما جاء به موسى ألواحًا يحملها من عند الله؟ فأنزل الله: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً} [النساء: ١٥٣]؛
=

=

فجثا رجل من يهود، فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئًا؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٧٧) من طريق أبي معشر المدني عن محمد به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: أبو معشر؛ ضعيف، وكان أسن واختلط.

وعن عكرمة؛ قال: نزلت في مالك بن الصيف كان من قريظة من أحبار يهود.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٧٦، ١٧٧) -: ثنا حجاج عن ابن جريج عن عكرمة. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال.

والثانية: ابن جريج لم يسمع من عكرمة. والثالثة: سنيد صاحب "التفسير" ضعيف.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٧٧) من طريق أسباط بن نصر عن السدي بنحوه.

وهذا -أيضًا- ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال. والثانية: وضعف أسباط.

وعن محمد بن كعب القرظي؛ قال: أمر الله محمدًا أن يسأل أهل الكتاب عن أمره وكيف يجدونه في كتبهم، فحملهم حسدهم أن يكفروا بكتاب الله ورسله، فقالوا: {مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ}؛ فأنزل الله {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ...}، ثم قال: يا محمد! هلم لك إلى الخبير، ثم أنزل: {الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}

=

=
[الفرقان: ٥٩] {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٤].
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣١٥) ونسبه لأبي الشيخ.
* قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الأنعام: ٩١]، أي:" وما عَظَّم هؤلاء المشركون الله حق تعظيمه".
عن عبد الله بن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-؛ قال: قوله: {وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء}؛ يعني: من بني إسرائيل، قالت اليهود: يا محمد! أنزل الله عليك كتابا؟ قال: "نعم"، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابا؟ قال: فأنزل الله: قل يا محمد: {من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون} ، قال: "الله أنزله".
فإن قيل: لماذا قولهم يدل على عدم تعظيم الله؟
فالجواب: لأنهم بهذا القول نسبوا لله السفه حيث يخلق الخلق والكون من غير حكمة ، وهو سبحانه الحكيم العليم ، فهؤلاء الذين نفوا إنزال الكتب على الرسل وتكليف الخلائق ومجازاتهم ، هؤلاء ظنوا بالله أنه خلق الخلق عبثًا ، ولم يخلقه للحكم البالغة ، والله يقول (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) وقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) ثم نزه نفسه عن هذا فقال (فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ).
قال ابن كثير:" يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم".
قال القرطبي:" أي: فيما وجب له واستحال عليه وجاز".
قال الزمخشري: أي:" وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحى إليهم، وذلك من أعظم رحمته وأجل نعمته وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين أو ما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين
=

=

وشدة بطشه بهم، ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوة. والقائلون هم اليهود".

قال السعدي:" هذا تشنيع على من نفى الرسالة، من اليهود والمشركين وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا، فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملا لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفي لأعظم منة، امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة، التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة، والفلاح، إلا بها، فأي قدح في الله أعظم من هذا؟".

قال القرطبي: وشرحُ هذا أنهم لما قالوا (مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) نَسَبُوا الله ﷻ إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده ، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح؛ فلم يعظِّموه حقَّ عظمته ولا عرفوه حقَّ معرفته. وقال أبو عبيدة: أي ما عرفوا الله حقّ معرفته. قال النحاس: وهذا معنى حسن؛ لأن معنى قدرت الشيء وقدّرته عرفت مقداره. ويدلّ عليه قوله تعالى: (إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) أي لم يعرفوه حق معرفته؛ إذ أنكروا أن يرسل رسولًا. والمعنيان متقاربان".

وفي قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الأنعام: ٩١]، أربعة تاويلات:

أحدها: وما عظموه حق عظمته، قاله الحسن ، والسدي ، وميكائيل ، والفراء ، والزجاج.

والثاني: وما عرفوه حق معرفته، قاله أبو عبيدة.

والثالث: وما وصفوه حق صفته، قاله الخليل.

والرابع: وما آمنوا بأن الله على كل شيء قدير، قاله ابن عباس.

والخامس. معناه: ما علموا كيف هو حيث كذبوا. قاله محمد بن كعب.

قوله تعالى: {إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٩١]، أي:" إذ

=

=

أنكروا أن يكون الله تعالى قد أنزل على أحد من البشر شيئًا من وحيه".

وفي هذا الكتاب الذي أنكروا نزوله قولان:

أحدهما: أنه التوراة، أنكر حبر اليهود فيما أنزل منها ما روي أن النبي -ﷺ- رأى هذا الحبر اليهودي سمينًا، فقال له: «أَمَا تَقْرَءُونَ فِي التَّورَاةِ: أَنَّ الله يَبْغَضُ الحَبْرَ السَّمِينَ» فغضب من ذلك وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فتبرأت منه اليهود ولعنته، حكاه ابن بحر.

والقول الثاني: أنه القرآن أنكروه ردًا لأن يكون القرآن مُنَزَّلًا.

وفي قائل ذلك قولان:

أحدهما: أنهم مشركي قريش. قاله ابن عباس ، ومجاهد ، واختاره الطبري ، وابن كثير.

قال ابن كثير:" هو الأظهر؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش - والعرب قاطبة - كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ [وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [يونس: ٢]، وقال تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا} [الإسراء: ٩٤، ٩٥]، وقال هاهنا: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ}".

والثاني: اليهود. وهذا قول محمد بن كعب القرظي ، وهو مروي عن ابن عباس ايضا.

وقال قتادة:" هم اليهود والنصارى، قوم آتاهم الله علمًا فلم يقتدوا به، ولم يأخذوا به، ولم يعملوا به، فذمهم الله في عملهم ذلك. ذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول: إن

=

=

من أكثر ما أنا مخاصَمٌ به غدًا أن يقال: يا أبا الدرداء، قد علمت، فماذا عملت فيما علمت؟".

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: عني بقوله {وما قدروا الله حق قدره}، مشركو قريش. وذلك أن ذلك في سياق الخبر عنهم أولا فأن يكون ذلك أيضًا خبرًا عنهم، أشبهُ من أن يكون خبرًا عن اليهود ولما يجر لهم ذكرٌ يكون هذا به متصلا مع ما في الخبر عمن أخبر الله عنه في هذه الآية، من إنكاره أن يكون الله أنزل على بشر شيئًا من الكتب، وليس ذلك مما تدين به اليهود، بل المعروف من دين اليهود: الإقرار بصُحُف إبراهيم وموسى، وزبور داود. وإذا لم يأت بما روي من الخبر، بأن قائل ذلك كان رجلا من اليهود، خبرٌ صحيح متصل السند ولا كان على أن ذلك كان كذلك من أهل التأويل إجماعٌ وكان الخبر من أوّل السورة ومبتدئها إلى هذا الموضع خبرًا عن المشركين من عبدة الأوثان وكان قوله: {وما قدروا الله حق قدره}، موصولا بذلك غير مفصول منه لم يجز لنا أن ندّعي أن ذلك مصروف عما هو به موصول، إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل، ولكني أظن أن الذين تأوّلوا ذلك خبرًا عن اليهود، وجدوا قوله: "قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورًا وهدى للناس يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرًا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم "، فوجهوا تأويل ذلك إلى أنه لأهل التوراة، فقرءوه على وجه الخطاب لهم: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ}، فجعلوا ابتداء الآية خبرًا عنهم، إذ كانت خاتمتها خطابًا لهم عندهم. وغير ذلك من التأويل والقراءة أشبه بالتنزيل، لما وصفت قبل من أن قوله: {وما قدروا الله حق قدره}، في سياق الخبر عن مشركي العرب وعبدة الأوثان وهو به متصل، فالأولى أن يكون ذلك خبرًا عنهم، والأصوب من القراءة في قوله: (يَجْعَلُونَهُ

=

=
قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا)، أن يكون بالياء لا بالتاء، على معنى: أنّ اليهود يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرًا، ويكون الخطاب بقوله: {قل من أنزل الكتاب}، لمشركي قريش. وهذا هو المعنى الذي قصده مجاهد إن شاء الله في تأويل ذلك، وكذلك كان يقرأ".

قوله تعالى: {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ} [الأنعام: ٩١]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: إذا كان الأمر كما تزعمون، فمن الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى إلى قومه نورًا للناس وهداية لهم؟".

قال ابن كثير:" أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: {مَنْ أَنزلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى} يعني: التوراة التي قد علمتم - وكل أحد - أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نورًا وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات".

قال الرازي: اعلم أنه تعالى سماه نورًا تشبيهًا له بالنور الذي به يبين الطريق.

فإن قالوا: فعلى هذا التفسير لا يبقى بين كونه نورًا وبين كونه هدى للناس فرق ، وعطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير.

قلنا: النور له صفتان: إحداهما: كونه في نفسه ظاهرًا جليًا ، والثانية: كونه بحيث يكون سببًا لظهور غيره ، فالمراد من كونه نورًا وهدى هذان الأمران.

قوله تعالى: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [الأنعام: ٩١]، أي:" تجعلون هذا الكتاب- يا معشر اليهود- في قراطيس متفرقة، تظهرون بعضها، وتكتمون كثيرًا منها".

قال ابن كثير:" أي: يجعلها حَمَلَتُهَا قراطيس، أي: قِطَعًا يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون، ويقولون:
=

=

{هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ} [البقرة: ٧٩]، أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}".

ويجعلونها في قراطيس ليستعينوا بها على إخفاء ما يحبون وإبداء ما يحبون ، لأنه لو جاءت نسخة الكتاب كاملة لعُرف الحقيقة فيه كما قال تعالى (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا). وقال تعالى (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

وقال القرطبي: (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أي في قراطيس (تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) هذا لليهود الذين أخفَوْا صفة النبيّ ﷺ وغيرها من الأحكام.

(تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) قال الطبري: ومما كانوا يكتمونه إياهم ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته.

وفي هذا دليل على أن اليهود كتموا العلم ولذلك غضب عليهم ولعنوا ، وحرفوا كتابهم مما فيه الإخبار بنبوة النبي ﷺ.

وقد اختلف العلماء هل التحريف وقع في أصل كتابهم أو تلك القراطيس التي كانوا يبدونها للناس ، والراجح: أن التحريف وقع في أصل كتابهم ، ويدل لهذا تلك النسخ الموجودة في الآفاق التي تتناقض غاية التناقض.

قوله تعالى: {وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ} [الأنعام: ٩١]، أي:" أي عُلّمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم ولا آباؤكم".

قال مجاهد:" {وعلمتم}، معشرَ العرب {ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم}".

وعن عبد الله بن كثير: "إنه سمع مجاهدًا يقول في قوله: {وعلمتم ما لم تعلموا

=

=

أنتم ولا آباؤكم}، قال: هذه للمسلمين".

قال ابن كثير:" أي: ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك أنتم ولا آباؤكم".

قال الشنقيطي: أظهر الأقوال فيها: أن المراد بهم اليهود الذين أنزل عليهم التوراة، أن الله علمهم بواسطة القرآن من غرائب ما في التوراة وعجائبه ما كانوا جاهلين به، لأن القرآن مهيمن على الكتب كما قال تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ). وقال تعالى (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ).

وقيل: هي خطاب للمسلمين، أي علّموا على لسان محمد ﷺ.

قوله تعالى: {قُلِ اللهُ} [الأنعام: ٩١]، أي:" قل: الله هو الذي أنزله".

قال ابن عباس:" قال: الله أنزله".

قال القرطبي:" أي: قل يا محمد: الله الذي أنزل ذلك الكتاب على موسى وهذا الكتاب علي. أو قل الله علمكم الكتاب".

قال البغوي:" هذا راجع إلى قوله {قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى} فإن أجابوك وإلا فقل أنت: الله، أي: قل أنزله الله".

قال السعدي: أي:" فإذا سألتهم عمن أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات، فأجب عن هذا السؤال. و {قل الله} الذي أنزله، فحينئذ يتضح الحق وينجلي مثل الشمس، وتقوم عليهم الحجة، ثم إذا ألزمتهم بهذا الإلزام".

قال الطبري:"قوله: {قل الله}، فإنه أمرٌ من الله جل ثناؤه نبيَّه محمدًا ﷺ أن يجيبَ استفهامَه هؤلاء المشركين عما أمره باستفهامهم عنه بقوله: {قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورًا وهدى للناس يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرًا}، بقيل الله، كأمره إياه في موضع آخر في هذه السورة بقوله: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ

=

=

ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}، [سورة الأنعام: ٦٣]. فأمره باستفهام المشركين عن ذلك، كما أمره باستفهامهم إذ قالوا: {ما أنزل الله على بشر من شيء}، عمن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورًا وهدى للناس. ثم أمره بالإجابة عنه هنالك بقيله: {قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ} [سورة الأنعام: ٦٤]، كما أمره بالإجابة ههنا عن ذلك بقيله: الله أنزله على موسى".

وفي قوله تعالى: {قُلِ اللهُ} [الأنعام: ٩١]، وجهان:

احدهما: معناه: قل: الله أنزله. وهذا قول ابن عباس.

والثاني: معناه: لا يكون خطاب لهم إلا هذه الكلمة، كلمة: «الله». حكاه ابن كثير عن بعضهم.

قال ابن كثير:" وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين، من أن معنى {قُلِ اللهُ} أي: لا يكون خطاب لهم إلا هذه الكلمة، كلمة: «الله». وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمرًا بكلمة مفردة من غير تركيب، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها".

قوله تعالى: {ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام: ٩١]، أي:"ثم دع هؤلاء في حديثهم الباطل يخوضون ويلعبون".

قال قتادة:" فذمهم الله في عملهم ذلك".

قال القرطبي:" أي: لاعبين، ولو كان جوابا للأمر لقال: يلعبوا. ومعنى الكلام التهديد. وقيل: هو من المنسوخ بالقتال".

قال ابن كثير:" أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون ألهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟".

=

=

قال السعدي:" أي: اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون".

قال الطبري:" يقول لنبيه محمد ﷺ: ثم ذَرْ هؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام، بعد احتجاجك عليهم في قيلهم: {ما أنزل الله على بشر من شيء}، بقولك: {من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورًا وهدى للناس}، وإجابتك ذلك بأن الذي أنزله: الله الذي أنزل عليك كتابه {في خوضهم}، يعني: فيما يخوضون فيه من باطلهم وكفرهم بالله وآياته {يلعبون}، يقول: يستهزئون ويسخرون،

وهذا من الله وعيد لهؤلاء المشركين وتهدُّد لهم: يقول الله جل ثناؤه: ثم دعهم لاعبين، يا محمد. فإني من وراء ما هم فيه من استهزائهم بآياتي بالمرصاد، وأذيقهم بأسي، وأحلّ بهم إن تمادوا في غَيِّهم سَخَطي".

مسألة: مطالب في التوراة.

المطلب الأول: مما تتكون التوراة وكيف أخذوها:

ذكر الله تبارك وتعالى كتبه التي أنزلها على خلقه، ورضياها لهم، وكان من أوائل الكتب التي فصل فيها تبارك وتعالى ـ شرائعه كتابه الذي أنزله على موسى وهو التوراة فقال: تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ} والآيات التي تتحدث عن التوراة تورد مدى ما فعله اليهود حيالها من إيمان وتحريف وتبديل وغير ذلك فما هي التوراة.

وردت الآثار عن السلف في تفسير آيات القرآن التي تحدثت عن اليهود وإيمانهم بكتب الله المنزلة فقد جحد كثيرٌ منهم أن الله أنزل كتبًا كما جاء بعض اليهود إلى الرسول ﷺ يجادلونه في ذلك بل ردوا ما جاء عن موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ويروى ذلك أيضًا عن بعض كبارهم كما فعل مالك بن الصيف حيث قال: والله ما أنزل على بشر من شيء وحين راجعه اليهود في ذلك فقالوا: ويحك ولا

=

=

موسى قال: والله ما أنزل الله على بشر فقال تعالى في ذلك: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى} [سورة الأنعام ٦/ ٩١] الآية. وورد مثل ذلك في حق فنحاص اليهودي.

بل فسر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ قوله تعالى: {وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ} [سورة القصص ٢٨/ ٤٨] قالت اليهود إنا بكل كتاب في الأرض من توراة وإنجيل وزبور وفرقان كافرون.

ورد في الآثار أن الله تبارك وتعالى كتب لموسى الألواح وهي التي فيها التوراة وكما قال تعالى: {فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} وأدنى الله موسى حتى سمع صريف الأقلام كما قال بعض السلف.

واختلف السلف في ماهية التوراة، ومن أي شيء هي، فقيل: من ياقوته، وقيل: زمرد أخضر، وقيل: غير ذلك.

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ بعد قول سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره: "أقول رحم الله سعيدًا، ما كان أغناه عن هذا الذى قاله من جهة نفسه، فمثله لا يقال بالرأي، ولا بالحدس، والذي يغلب به الظن، أن كثيرًا من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور، فلهذا اختلف واضطربت، فهذا يقول من خشب، وهذا يقول من ياقوت، وهذا يقول من زمرد، وهذا يقول من زبرجد، وهذا يقول من برد، وهذا يقول من حجر"

وقال أبو شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ: "فقد ذكر في الألواح: مما هي؟ وما عددها؟ أقوالًا كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين وعن كعب ووهب من أهل الكتاب الذين أسلموا، مما يشير إلى منبع هذه الروايات، وأنها من إسرائيليات بني إسرائيل، وفيها من المرويات ما يخالف المعقول والمنقول".

ولكن الثابت أن الله زادها شرفًا، بأن كتبها بيده سبحانه وتعالى، كما في الحديث

=

=

قال: ((احتج آدم وموسى عليهما السلام فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة، فقال آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، تلومني على أمر قدره علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة!؟ فحج آدم موسى.))

ومما كتب الله فيها ما أمر به بنو إسرائيل وما نهوا عنه من الحلال والحرام بل من كل شيء موعظة وتفصيلًا ومما جاء فيها:

"لا تشرك بي شيئًا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض، فإن كل ذلك خلقي ولا تحلف باسمي كاذبًا، ووقرّ والديك." وفيها ذكر الرسول ﷺ.

وفي حديث صفوان بن عسال المرادي _ قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} فقال لا تقل له شيئًا فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين فسألاه فقال النبي: ((لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرئ إلى ذي سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة أو قال لا تفروا من الزحف -شعبة الشاك - وأنتم يا معشر يهود عليكم خاصة أن لا تعدوا في السبت.)) قال فقبلا يديه ورجليه وقالا:نشهد أنك نبي قال:فما يمنعكما أن تتبعاني قالا: إن داود عليه السلام دعا أن لا يزال من ذريته نبي، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود.))

قال ابن كثير رحمه الله: "اشتبه على الراوي التسع الآيات بالعشر الكلمات وذلك أن الوصايا التي أوصاها الله إلى موسى وكلمه بها ليلة القدر بعد ما خرجوا من ديار مصر وشعب بني إسرائيل حول الطور حضور وهارون ومن معه وقوف على الطور أيضًا وحينئذ كلم الله موسى تكليمًا آمرًا له بهذه العشر كلمات وقد فسرت في هذا الحديث.

=

=

هذا ما ورد في الآثار التي رواها السلف عن التوراة.

وأما التوراة المعاصرة فقد فصل فيها العلماء وعلى ما تحتوي فهي تسمى اليوم العهد القديم مقابلًا للعهد الجديد وهو الإنجيل.

العهد القديم:

هو التوراة الكتابية بمجموع أسفارها المقدسة لدى اليهود والنصارى، ومعنى العهد في هذه التسمية، وتسمية العهد الجديد ما يرادف معنى الميثاق، فالعهد القديم هو الميثاق الذي أخذه الله على الإسرائيليين أن يلتزموا به.

أما اصطلاح (العهد القديم) فما كان معروفًا قديمًا، وإنما هو اصطلاح حديث خططت له اليهودية، واستجابت له البروتستنتية النصرانية ثم الكاثوليكية لتكون التوراة أمًا للعقيدة النصرانية، فوضع النصارى التوراة وسموها بالعهد القديم إلى جوار الأناجيل وبقية أسفار دينهم وسموها بالعهد الجديد، وضموا الاثنين في غلاف واحد باسم (الكتاب المقدس) لتكون عقيدة اليهود في التوراة هي عقيدة النصارى كذلك، بما ضمن لليهود تعاطف النصارى معهم في كل ما تتبناه التوراة من عقائد، فيتبعون اليهود لأنهم يوصفون في التوراة بأنهم شعب الله المختار! ويعينونهم بكل طاقاتهم على تحقيق أحلامهم وادعاءاتهم، ومن تلك الأحلام تملك أرض الميعاد.... في حين أن التوراة لم يكن لها رصيد في الماضي لدى العالم النصراني، ولم تكن الكنيسة قبل أربعة قرون لتسمح بقراءة التوراة وتداولها بينهم. وهو المصدر الأول للتشريع، وقد قسم من حيث المحتوى إلى:

١ - الأسفار الناموسية: وعددها خمس وهي: التكوين ـ الخروج ـ اللاويين ـ العدد ـ التثنية.

ويدعي اليهود نسبتها إلى موسى عليه السلام وقد ورد بها الحديث عن بدء الخلق العام وخلق آدم عليه السلام وتفرع بنيه منه حتى إبراهيم عليه السلام ، ثم التناسل من إبراهيم،

=

=

والإشارة إلى سكنى إسماعيل عليه السلام أرض مكة (فازان) ،وإغفال الحديث عن سائر ولد إبراهيم، إلا إسحاق عليه السلام ، ومن خرج من صلبه وهو ما ركز عليه كاتبوا سفر التكوين حتى وفاة عليه السلام يوسف عليه السلام.

وأما أسفار الخروج- والعدد -واللاويين- والتثنية- فقد تحدثت عن الخروج من مصر إلى سيناء، وما كان من أمر القوم مع موسى وهارون عليهما السلام ، والآداب التي كلفوا بها، فتخلوا عنها، فضلًا عن ذكرها لقتل موسى لهارون عليهما السلام لأنه حقد عليه، كما أشارت إلى وفاة موسى عليه السلام ودفنه وحزن بني إسرائيل عليه، وأنه لم يقم نبي في بني إسرائيل مثله بعده. مع نسبة هذا الكلام إلى موسى. وهذه الأسفار تسمى بالتوراة عند الإطلاق.

٢- الأسفار التاريخية: وعددها اثنا عشر هي: يشوع - القضاة- راعوث - صموئيل الأول والثاني - الملوك الأول والثاني- أخبار الأيام الأول والثاني - عزارا - نحميا - أستير-

وهذا القسم يدل اسمه على محتواه حيث التركيز على تاريخ بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام وهي خير معبر عن شرور القوم وآثامهم وفسادهم الخلقي فضلًا عن إلقائها الضوء على السلب والنهب والغصب كأمر مشروع عند اليهود.

٣- الأسفار الشعرية: وعددها خمسة هي: أيوب- مزامير داود - أمثال سليمان - الجامعة - نشيد الإنشاد - وهي في جملتها ضرب من الحِكَم والأمثال والترانيم فضلًا عن سيرة أيوب عليه السلام مع فساد خُلُقي عبر عنه في سفر نشيد الإنشاد بدعوى أنه أدب صوفي يهودي.

٤- أسفار الأنبياء: وعددها سبعة عشر سفرًا هي: أشعيا - أرميا - مراثي أرميا - حزقيال -دانيال - هوشع - يؤئيل - عاموس - عوبديان- يونان- ميخا -ناحوم - حبقوق -صفنيا -حجي- زكريا- ملاخى.

=

=

وبذلك تكون الأسفار في جملتها تسعة وثلاثين (٣٩) سفرًا تعورف عليها باسم (العهد القديم).

وقد بقيت أسفار عدة محل خلاف من حيث القبول والرد.

ويكفي المسلم أن القرآن قد أشار إلى أن تحريفًا قد وقع في هذا المصدر وأن اليد اليهودية قد امتدت إليه بالزيادة كما سيأتي.

والذي بقي من نسخ التوراة المتداولة الآن ثلاثة أنواع:

١ - العبرانية: وهي معتبرة لدى اليهود، والبرتستنت.

٢- اليونانية: معتبرة لدى النصارى جميعًا، حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وكانوا يعتقدون بتحريف العبرانية، وهي لم تزل معتبرة عند الكنيسة اليونانية، وكنائس المشرق.

٣- السامرية:وهي معتبرة لدى السامريين، وهي كالعبرانية، ولكنها سبعة أسفار، وتزيد عليها بالألفاظ والفقرات، ومن النصارى من يفضلها على العبرانية.

ترجمة التوراة:

بدأت الترجمات العربية القديمة في أوائل القرن التاسع للميلاد، وأقدم ترجمة عربية للتوراة من العبرانية واليونانية والسريانية كانت في زمن هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ترجمها: أحمد بن عبد الله سلام الإنجيلي مولى هارون الرشيد، وترجمة يوحنا أسقف إشبيليا في أسبانيا عام ٧٢٤م كما ترجمها أبو زيد حنين بن إسحاق النسطوري ـ يهودي ت ٢٩٠هـ ٨٧٣م من السبعينية اليونانية إلى العربية وهي أصح النسخ عند الأغلبية. وهنالك تراجم عربية غيرهم لم يصلنا من جميعها شيء.

أما أشهر الترجمات العربية الحديثة فهي ما يلي:

١ - ترجمة فارس يوسف الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٢) في لندن بمعاونة الدكتور لي

=

=

وهي دقيقة جدًا طبعت عام ١٨٥٧م. ولكنها بعد طبع الترجمة أعلن المؤلف إسلامه في تونس وسمى اسمه (أحمد أبو العباس) فمنعت من التداول وصودرت وهي أصح الترجمات.

٢- الترجمة البروتستانتية الأمريكية: (١٨٦٠-ـ ١٨٦٤م) وقامت بها الإرساليات الأمريكية ـ بيروت.

٣- ترجمة اليسوعية الكاثوليكية عام ١٨٧٢ ـ ١٨٨٠) في بيروت. أعيدت طباعتها في مجلد واحد سنة ١٩٦٠م.

٤- ترجمة الآباء الدومنيكان في الموصل عام (١٨٧٨م).

٥- ترجمة سميث وكرينلوس البستاني واليازجيك عام ١٨٦٥م.

التلمود:

ومن الكتب المعتبرة عند اليهود (التلمود) ، ويسمونه قديمًا (المثناة) و (المشنا) وربما كان مقدمًا عند أكثرهم على التوراة، ولعله المقصود ببعض الآثار:أنهم استحدثوا كتابًا من عندهم وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، وقد وردت آثار بذكره منها:

١- عن أبي موسى _ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن بني إسرائيل كتبوا كتابًا واتبعوه وتركوا التوراة.))

٢- وروي أن عمر بن الخطاب _ أراد أن يكتب السنن فاستشار أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق يستخير الله فيها شهرًا ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له، فقال: ((إني كنت أريد أن اكتب السنن، وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدًا.)) والفاروق _ يقصد المثناة.

٣- كما روى ابن حزم بسنده إلى زيد بن أسلم قال: حدثه أن يهودية جاءت إلى

=

=

عمر بن الخطاب _ فقالت: إن ابني هلك فزعمت اليهود أنه لا حق لي في ميراثه، فدعاهم عمر _، فقال: ((ألا تعطون هذه حقها فقالوا: لا نجد لها حقًا في كتابنا فقال: أفي التوراة قالوا: بل في المثناة قال: وما المثناة قالوا:كتاب كتبه أقوام علماء حكماء فسبهم عمر _ وقال: اذهبوا فأعطوها حقها.))

٤- وقال ابن زيد في قوله تعالى: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ} قال: ((هؤلاء اليهود كتبوا كتابًا ضادوا به كتاب الله، يقال له المثناة، المحق فيها مبطل في التوراة والمبطل فيها محق في التوراة.))

والتلمود:هو المصدر الثاني من حيث المنزلة الدينية في الظاهر، والأول من حيث الالتزام والتطبيق، ومحتواه عبارة عن تعاليم وضعها الحاخامات عبر فترة زمنية لاقى اليهود فيها من الهوان ما لاقَوْا، وبخاصة بعد استذلالهم من قبل غيرهم، وتفرقهم إلى سائر البقاع، فلعبت البقية الباقية دورها في وضع تلك التعاليم لجمع شتات اليهود ثانية، ولإحياء نزعة العنصرية وادعاء الاصطفاء، فضلًا عن تفاصيل تتناول جوانب السياسة والاقتصاد والاجتماع والعقيدة والأخلاق. إفسادا للعقائد، وتحريفًا لكلام الله، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "فليهن أمة الغضب علم المشنا والتلمود وما فيهما من الكذب على الله وعلى كليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وما يحدث لهم أحبارهم وعلماء السوء منهم كل وقت."

وقد قسم علماء اليهود التلمود إلى قسمين:

١- الأول: «المشناة» وهي كلمة تعني الأصل أو المتن أو الجوهر أو الصلب. ومحتواها عبارة عن جملة من التعاليم الشفوية التي كانت تنقل شفاهًا على ألسنة الساسة وقادة التوجيه، ثم بدا لهم التدوين في أواخر القرن الأول ومطلع القرن الثاني الميلادي.

٢- الثاني: «الجمارة» وهي شروح للنصوص السابقة وقد نمت تلك الشروح في

=

=

منطقتين. أولاهما: فلسطين وهي الأقدم والأقل حجمًا، وثانيتهما: في بابل وهي تبلغ حدًا كبيرًا في الحجم. وقد كان للشروح أثرها في وجود تلمودين.

أ- الأول: تلمود فلسطين أو أورشليم، ب- الثاني: تلمود بابل وهو المراد عند الإطلاق.

هذا ويدعي بعض اليهود أن «المشناة» قد أوحي بها إلى موسى عليه السلام شفاهًا في طور سنياء محاولين ليّ بعض النصوص لإثبات ذلك، وأن أربعين من علماء اليهود قد تناقلوا تلك التعاليم عن موسى جيلًا بعد جيل، زمن وجود الهيكل، فلما هدم دونت تلك التعاليم لتكون وسيلة لجمع شتات اليهود. كما قال ابن النديم: "سألت رجلًا من أفاضلهم عن ذلك فقال: أنزل الله جل اسمه على موسى التوراة... ولموسى كتاب يقال له: المشنا ومنه يسخرج اليهود علم الفقه والشرائع والأحكام وهو كتاب كبير."

وتشتمل المشناة على ستة مباحث تتعلق بـ -لوائح الزراعة - لوائح الأعياد- والصيام - قوانين الزواج والطلاق والنذور- وعلاقة اليهود بغيرهم- القوانين المدنية والجنائية- قوانين الصلاة - قوانين الطهارة والنجاسة- كما يلحق بها بعض الرسائل الأخرى.

وقد اعترى التلمود ما اعترى العهد القديم من زيادة ونقصان وتصحيف وتحريف وقبول وردّ.

قال ابن القيم عن التلمود: "ولم يكن المؤلفون له في عصر واحد وإنما ألفوه في جيل بعد جيل، فلما نظر متأخروهم إلى ذلك، وأنه كلما مر عليه الزمان زادوا فيه، وفي الزيادات المتأخرة ما ينقض كثيرًا من أوله، علموا أنهم إن لم يقفلوا باب الزيادة وإلا أدى إلى الخلل الفاحش، فقطعوا الزيادة وحظروها على فقهائهم، وحرموا من يزيد عليه شيئًا فوقف الكتاب على ذلك المقدار."

=

=

وفي القرن الخامس عشر الميلادي أجرى اليهود بعض التعديلات فيه، وذلك بحذف بعض النصوص المتعلقة بلعن المسيح عليه السلام وسبه وسب أتباعه؛ حتى لا يكون ذلك وسيلة لإيذاء نصارى الغرب لهم.

وقدسية التلمود آكد وأشد من قدسية التوراة، وأقوال الحاخامات أعلى قدرًا من نصوص الوحي - كما يزعمون -.

المطلب الثاني: تحريف التوراة والاتجار بها

لاشك أن اليهود هم أهل التحريف كما وصفهم الله في آيات كثيرة كما قال تعالى:

١- {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ = ٧٥ } [سورة البقرة ٢/ ٧٥]

٢- {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [سورة النساء ٤/ ٤٦]

٣- {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [سورة المائدة ٥/ ١٣]

٤- {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ} [سورة المائدة ٥/ ٤١].

والتحريف منطبق عليهم جميعًا، جيلا بعد جيل، قال الطبري رحمه الله: "يحرفون كلام ربهم الذي أنزله على نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم، وهو التوراة، فيبدلونه ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله جل وعز على نبيهم، ويقولون لجهال الناس: هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى صلى الله عليه وسلم، والتوراة التي أوحاها إليه. وهذا من صفة القرون التي كانت بعد موسى من اليهود ممن أدرك بعضهم عصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن الله عز ذكره أدخلهم في عداد الذين ابتدأ الخبر عنهم ممن أدرك موسى منهم، إذ كانوا من أبنائهم وعلى منهاجهم في الكذب على الله والفرية عليه

=

=

ونقض المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة."

وأسباب تحريفهم لكلام الله، وإحكامه، هي أهوائهم مرة، وحسدهم مرة، والمتاجرة بدينهم وبيعه رخيصًا لأتباعهم مرارًا كثيرة.

فعن البراء بن عازب _ قال: ((مُر على النبي ﷺ بيهودي محمم مجلود.)) ، فدعا النبي ﷺ رجلًا من علمائهم، فقال: ((أهكذا تجدون حد الزاني فيكم؟ قال: نعم. قال: فأنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني فيكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أحدثك، ولكن الرجم، ولكن كثر الزنا في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا تعالوا نجتمع فنضع شيئا مكان الرجم فيكون على الشريف والوضيع، فوضعنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال النبى ﷺ: اللهم إني أنا أول من أحيا أمرك إذ أماتوه. فأمر به فرجم، فأنزل الله: {لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} [سورة آل عمران ٣/ ١٧٦] الآية.))

وللعلماء في معنى تحريف اليهود للتوراة أقوال:

١- القول الأول: هو أن التحريف والتبديل قد وقع في التأويل لا في النص المنزل. فمعنى تحريف الكلام عند من يقولون بهذا الرأي هو: أنهم -يتأوّلونه على غير تأويله-. أي: تحريفًا معنويًا، ومن القائلين بهذا القول الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "{يُحَرِّفُونَ} يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله ﷻ ولكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله." وهو اختيار ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- القول الثاني: وهو أن التوراة قد غُيِّرت وبُدِّلت ،في اللفظ والمعنى، ولكن التغيير والتحريف أصاب جملًا قليلة وألفاظًا يسيرة. أما أكثر التوراة فهو باقٍ على ما أنزله الله على موسى الكليم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وممن قال بهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: "أن ما وقع من التبديل قليل، والأكثر لم يبدل، والذي لم يبدل فيه

=

=

ألفاظ صريحة تبين بها المقصود من غلط ما خالفها، ولها شواهد ونظائر متعددة يصدق بعضها بعضًا، بخلاف المبدل فإنه ألفاظ قليلة، وسائر نصوص الكتب يناقضها، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبي ﷺ." وقال: "يعلم من هذا أن التوراة التي كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس وبعد مجيء بختنصر وبعد مبعث المسيح عليه السلام وبعد مبعث محمد ﷺ فيها حكم الله والتوراة التي كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله ﷺ، وإن قيل أنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثل ذلك فإن هذا غير معلوم لنا، وهو أيضًا متعذر بل يمكن تغيير كثير من النسخ وإشاعة ذلك عند الأتباع حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير بعد ذلك، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة في الغالب إنما يختلف في اليسير من ألفاظها فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول ممكن لا يمكن أحدًا أن يجزم بنفيه، ولا يقدر أحد من اليهود والنصارى أن يشهد بأن كل نسخة في العالم بالكتابين متفقة الألفاظ، إذ هذا لا سبيل لأحد إلى علمه، والاختلاف اليسير في ألفاظ هذه الكتب موجود في الكثير من النسخ كما قد تختلف نسخ بعض كتب الحديث، أو تبدل بعض ألفاظ بعض النسخ."

٣- القول الثالث: أن التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام كلها أو أكثرها قد بُدِّل وغيِّر. والتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام لا تطابق بينها وبين التوراة الموجودة بين أيدي الناس اليوم في شيء، وأن أحبار اليهود أولوا كثيرًا من آيات التوراة تأويلًا فاسدًا وباطلًا. ولكنهم كذلك لم يقتصروا على تحريف التأويل؛ بل قاموا فعلًا بإضافة أشياء كثيرة لم ينزلها الله تعالى، ومن المستحيل أن يكون قد أنزلها مثل زعمهم - أن الله قام بمصارعة يعقوب عليه السلام طوال الليل ومع هذا لم يستطع أن يتغلب على يعقوب.- ومثل زعمهم أن الله منع آدم عليه السلام من الأكل من شجرة

=

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢).

{وَهَذَا} الْقُرْآن {كِتَاب أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَك مُصَدِّق الَّذِي بَيْن يَدَيْهِ} قَبْله مِنْ الْكُتُب {وَلِتُنْذِر} بِالتَّاءِ وَالْيَاء عُطِفَ عَلَى مَعْنَى مَا قَبْله أَيْ أَنْزَلْنَاهُ لِلْبَرَكَةِ وَالتَّصْدِيق وَلِتُنْذِر بِهِ {أُمّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلهَا} أَيْ أَهْل مَكَّة وَسَائِر النَّاس {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتهمْ يُحَافِظُونَ} خَوْفًا مِنْ عِقَابهَا[1].

=

المعرفة حتى يبقى جاهلًا فلا يستطيع أن ينافس الرب في ملكوته - وأن هارون عليه السلام هو الذي صنع لبني إسرائيل العجل- وهو الذي أمرهم بعبادته. إلى آخر الأمثلة الكثيرة كما ذكر ذلك ابن حزم وإلى هذا القول ذهب الإمام ابن القيم الذي يقول: "وفي التوراة التي بأيديهم من التحريف والتبديل وما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء ما لا يشك فيه ذو بصيرة، والتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام بريئة." ورجح هذا القول ابن حجر قال: "ولا خلاف أنهم حرفوا وبدلوا والاشتغال بنظرها وكتابتها لا يجوز بالإجماع.

(١) قوله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام: ٩٢]، أي:" وهذا القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة".

سمي القرآن كتابًا: لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال تعالى (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون) أي اللوح المحفوظ ، وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة قال تعالى (فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة) ، وهو كتاب في الصحف التي بأيدينا ، فهو مكتوب بأيدينا ونقرؤه من هذه الكتب.

=

=

قال قتادة:" هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ".

قال ابن كثير:" قوله: {وَهَذَا كِتَابٌ} يعني: القرآن".

قال البغوي:" أي: القرآن كتاب مبارك أنزلناه".

قال القرطبي:" يعني: القرآن، بورك فيه، والبركة الزيادة".

قال السعدي أي: القرآن، وَصفُه البركة، وذلك لكثرة خيراته، وسعة مبراته".

قوله تعالى: {مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [الأنعام: ٩٢]، أي:" يشهد على صدق ما تقدمه من الكتب المنزلة وأنها من عند الله".

عن أبي العالية: {مصدق الذي بين يديه}، يعني: من التوراة والإنجيل".

عن عباس: قوله: "{مصدق}، قال: شاهد".

وعن ابن عباس أيضا:" {مصدق}، يقول: مصدق الذي بين يديه يقول: لما قبله من الكتب التي أنزلها الله والآيات والرسل الذين بعثهم الله بالآيات، نحو موسى وعيسى ونوح وهود وشعيب وصالح وأشباههم من المرسلين: مصدق يقول: وأنت تتلو عليهم يا محمد وتخبرهم به غدوة وعشيا وبين ذلك، وأنت عندهم أميا لم تقرأ كتابا ولم تبعث رسولا، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه وصدقه، يقول الله، في ذلك لهم عبرة وبيان عليهم حجة لو كانوا يعقلون".

قوله تعالى: {وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [الأنعام: ٩٢]، أي:" أنزلناه لنخوِّف به من عذاب الله وبأسه أهل «مكة» ومن حولها من أهل أقطار الأرض كلها".

قال السعدي " أي: وأنزلناه أيضا لتنذر أم القرى، وهي: مكة المكرمة، ومن حولها، من ديار العرب، بل، ومن سائر البلدان. فتحذر الناس عقوبة الله، وأخذه الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك".

قال البغوي:" أراد أهل أم القرى، {ومن حولها} أي: أهل الأرض كلها شرقا وغربا".

=

=

قال الطبري:" يقول: أنزلنا إليك، يا محمد، هذا الكتاب مصدِّقًا ما قبله من الكتب، ولتنذِر به عذابَ الله وبأسَه مَنْ في أم القرى، وهي مكة {ومن حولها}، شرقًا وغربًا، من العادلين بربّهم غيره من الآلهة والأنداد، والجاحدين برسله، وغيرهم من أصناف الكفار".

قال ابن كثير:" {أُمَّ الْقُرَى} يعني: مكة {وَمَنْ حَوْلَهَا} من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، كما قال في الآية الأخرى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨]، وقال {لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩]، وقال {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [هود: ١٧]، وقال {تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، وقال {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: ٢٠]، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنّ أحد من الأنبياء قبلي»، وذكر منهن: «وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة» ".

قال ابن عباس:" يعنى بـ {أم القرى}، مكة، {ومن حولها}، من القرى إلى المشرق والمغرب".

وفي سبب تسمية مكة بـ «أُمّ الْقُرَى» خمسة أقوال:

أحدها: لأنها مجتمع القرى، كما يجتمع الأولاد إلى الأم.

والثاني: لأن أول بيت وضع بها، فكأن القرى نشأت عنها، قاله السدي.

والثالث: سميت أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل. وهذا معنى قول قتادة ، وبه قال البغوي.

قال قتادة:" بلغني أن الأرض دُحِيَتْ من مكة".

=

=

والرابع: لأنها معظمة كتعظيم الأم، فكانت أعظم القرى شأنا. قاله الزجاج ، قال الزمخشري:

فمن يلق في بعض القريات رحله فأم القرى ملقى رحالي ومنتابى

والخامس: لأن الناس يؤمونها من كل جانب، أي يقصدونها. قاله الزجاج ايضا.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «ولينذر»، بالياء، أي: ولينذر الكتاب.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [الأنعام: ٩٢]، أي:" والذين يصدقون بالحياة الآخرة، يصدقون بأن القرآن كلام الله".

قال ابن كثير:" أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن".

قال الطبري: يقول:" ومن كان يؤمن بقيام الساعة والمعادِ في الآخرة إلى الله، ويصدِّق بالثواب والعقاب، فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، ويصدق به، ويقرّ بأن الله أنزله.. لأنه منذرُ من بلغه وعيدَ الله على الكفر به وعلى معاصيه، وإنما يجحد به وبما فيه ويكذِّب، أهل التكذيب بالمعاد، والجحود لقيام الساعة، لأنه لا يرجو من الله إن عمل بما فيه ثوابًا، ولا يخاف إن لم يجتنب ما يأمره باجتنابه عقابًا".

قال السعدي " لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه، وانقاد لمراضي الله".

وفي رجوع الضمير في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [الأنعام: ٩٢]، ثلاثة اقوال:

أحدها: إلى الكتاب، وتقديره: والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بهذا الكتاب، قاله الكلبي.

والثاني: إلى محمد-ﷺ-. وتقديره: والذين يؤمنون بالآخرة، يؤمنون بمحمد -ﷺ- لِمَا قد أظهر الله تعالى من معجزته وأَبَانَه الله من صدقه، نقله الماوردي عن

=

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣).

=

الفراء.

والثالث: إلى محمد -ﷺ- والتنزيل. قاله الفراء.

قال القرطبي:" {يؤمنون به}، يريد: أتباع محمد ﷺ، بدليل قوله: {وهم على صلاتهم يحافظون} إيمان من آمن بالآخرة ولم يؤمن بالنبي عليه السلام ولا بكتابه غير معتد به".

قال الماوردي:"فإن قيل: فيمن يؤمن بالآخرة من أهل الكتاب لا يؤمنون به؟ قيل: لا اعتبار لإيمانهم بها لتقصيرهم في حقها، فصاروا بمثابة من لم يؤمن بها".

قوله تعالى: {وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [الأنعام: ٩٢]، أي:" ويحافظون على إقام الصلاة في أوقاتها".

قال ابن كثير:" أي: يقومون بما افترض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها".

قال الطبري: يقول:" ويحافظ على الصلوات المكتوبات التي أمرَه الله بإقامتها".

قال البغوي:" يعني: الصلوات الخمس، {يحافظون} يداومون، يعني: المؤمنين".

قال السعدي " أي: يداومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها، ومكملاتها. جعلنا الله منهم".

{وَمَنْ} أَيْ لَا أَحَد {أَظْلَم مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله كذبا} بادعائه النُّبُوَّة وَلَمْ يُنَبَّأ {أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ولم يوحى إِلَيْهِ شَيْء} نَزَلَتْ فِي مُسَيْلِمَة {وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْل مَا أَنْزَلَ الله} وَهُمْ الْمُسْتَهْزِئُونَ قَالُوا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْل هَذَا {وَلَوْ تَرَى} يَا مُحَمَّد {إِذْ الظَّالِمُونَ} الْمَذْكُورُونَ {فِي غَمَرَات} سَكَرَات {الْمَوْت وَالْمَلَائِكَة بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ} إِلَيْهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّعْذِيب يَقُولُونَ لَهُمْ تَعْنِيفًا {أَخْرِجُوا أَنْفُسكُمْ} إِلَيْنَا لِنَقْبِضهَا {الْيَوْم تُجْزَوْنَ عَذَاب الْهُون} الْهَوَان {بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْر الْحَقّ} بِدَعْوَى النُّبُوَّة وَالْإِيحَاء كَذِبًا {وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاته تَسْتَكْبِرُونَ} تَتَكَبَّرُونَ عَنْ الْإِيمَان بِهَا وَجَوَاب لَوْ رَأَيْت أَمْرًا فَظِيعًا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

وعن قتادة؛ قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في مسيلمة، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: "رأيت فيما يرى النائم كأن في يدي سوارين من ذهب، فكبرا عليّ وأهماني، فأوحي إليّ أن أنفخهما؛ فنفختهما، فطارا، فأولتهما في منامي الكذابين اللذين أنا بينهما: كذاب اليمامة: مسيلمة، وكذاب صنعاء: العنسي، وكان يقال له: الأسود.

أخرجه الطبري (٧/ ١٨١، ١٨٢): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة ثنا قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عكرمة قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ}؛ نزلت في مسيلمة أخي بني عدي بن حنيفة فيما كان يسجع ويتكهن، {وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ}؛ نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخي بني عامر بن لؤي كان يكتب للنبي ﷺ، وكان فيما يملي: {عَزِيزٌ =

=

حَكِيمٌ} فيكتب: {غَفُورٌ رَحِيمٌ} فيغيره، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوّل، فيقول: نعم سواء، فرجع عن الإسلام ولحق بقريش، وقال لهم: لقد كان ينزل عليه {عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فأحوّله، ثم أقول لما أكتب فيقول: "نعم سواء"، ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة إذ نزل النبي ﷺ بمر.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٨١) -: ثني حجاج عن ابن جريج عنه به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال. والثانية: ابن جريج لم يسمع من عكرمة. والثالثة: سنيد صاحب "التفسير" ضعيف.

وعن السدي: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ}؛ قال: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح أسلم وكان يكتب للنبي ﷺ، فكان إذا أملى عليه: {سَمِيعًا عَلِيمًا} كتب هو: {عَلِيمًا حَكِيمًا} وإذا قال: {عَلِيمًا حَكِيمًا} كتب: {سَمِيعًا عَلِيمًا}؛ فشك وكفر، وقال: إن كان محمد يوحى إليه؛ فقد أوحي إليّ، وإن كان ينزله؛ فقد أنزلت مثل ما أنزل الله، قال محمد: {سَمِيعًا عَلِيمًا}؛ فقلت أنا: {عَلِيمًا حَكِيمًا}، فلحق بالمشركين، ووشي بعمار وجبير عند ابن الحضرمي -أو لبني عبد الدار-؛ فأخذوهم، فعُذّبوا؛ حتى كفروا، وجدع أذن عمار يومئذ، فانطلق عمار إلى النبي ﷺ فأخبره بما لقي والذي أعطاهم من الكفر، فأبى النبي ﷺ أن يتولاه؛ فأنزل الله في شأن ابن أبي سرح وعمار وأصحابه من كفر بالله من بعد إيمانه: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا} فالذي أكره؛ عمار وأصحابه، والذي شرح بالكفر صدرًا؛ ابن أبي سرح.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٨١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٤٦ رقم ٧٦٢٦) من طريق أسباط بن نصر عن السدي به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال. والثانية: أسباط هذا؛ صدوق كثير الخطأ يغرب.

وعن عكرمة؛ قال: لما نزلت: {وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)} [المرسلات: ١، ٢]؛ قال النضر -وهو من بني عبد الدار-: والطاحنات طحنًا والعاجنات عجنًا وقولًا كثيرًا؛ فأنزل الله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣١٨) ونسبه لعبد بن حميد.

وعن أبي خلف الأعمى؛ قال: كان ابن أبي سرح يكتب للنبي ﷺ الوحي، فأتى أهل مكة فقالوا: يا ابن أبي سرح! كيف كتبت لابن أبي كبشة القرآن؟ قال: كنت أكتب كيف شئت؛ فأنزل الله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٤٦ رقم ٧٦٢٤) من طريق معان بن رفاعة عنه به.

وإسناده ضعيف جدًا.

وعن ابن جريج في قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ}؛ قال: نزلت في مسيلمة الكذاب ونحوه ممن دعا إلى مثل ما

=

=
دعا إليه، {وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ}؛ قال: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣١٧) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

وعن عبد الله بن عباس ﷺ قوله -تعالى-: {وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ}؛ نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان قد تكلم بالإسلام، فدعاه رسول الله ﷺ ذات يوم يكتب له شيئًا، فلما نزلت الآية التي في المؤمنين: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ} أملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله: {ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢)} [المؤمنون: ١٢ - ٤٢] عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال رسول الله ﷺ: "هكذا أنزلت عليّ"، فشك عبد الله حينئذ، وقال: لئن كان محمد صادقًا لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه، ولئن كان كاذبًا لقد قلت كما قال، وذلك قوله: {سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ} وارتد عن الإسلام.

ذكره الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٤٨) معلقًا وهو من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. وإسناده تالف.

وعن شرحبيل بن سعد؛ قال: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وارتد عن الإسلام، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة؛ أتى به عثمان رسول الله فاستأمن له.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٤٨) بسند حسن إلى ابن بكير عن ابن إسحاق ثني شرحبيل به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: شرحبيل اختلط قبل موته.

* قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} [الأنعام: ٩٣]،" هو استفهام معناه النفي ، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فجعل له شريكًا أو
=

=

ولدًا ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله".

قال ابن كثير:" أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل له شريكا أو ولدا".

قال البغوي:" أي: اختلق {على الله كذبا} فزعم أن الله تعالى بعثه نبيا".

قال الطبري: أي:" ومن أخطأ قولا وأجهل فعلا ممن اختلق على الله كذبًا، فادعى عليه أنه بعثه نبيًّا وأرسله نذيرًا، وهو في دعواه مبطل، وفي قيله كاذب، وهذا تسفيهٌ من الله لمشركي العرب، وتجهيلٌ منه لهم، في معارضة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والحنفيِّ مسيلمة، لنبي الله ﷺ، بدعوى أحدهما النبوّة، ودعوى الآخر أنه قد جاء بمثل ما جاء به رسول الله ﷺ ونفْيٌ منه عن نبيه محمد ﷺ اختلاقَ الكذب عليه ودعوى الباطل".

قوله تعالى: {أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ} [الأنعام: ٩٣]، أي:" أو ادعى كذبًا أن الله أوحى إليه ولم يُوحِ إليه شيئًا".

قال ابن كثير: أي:" أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله".

عن عكرمة قوله: "{ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء}، قال: نزلت في مسيلمة أخي بني عدي بن حنيفة، فيما كان يسجع ويتكهن به".

قوله تعالى: {وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ} [الأنعام: ٩٣]، أي:" أو ادَّعى أنه قادر على أن يُنْزل مثل ما أنزل الله من القرآن؟".

قال ابن عباس:" زعم أنه لو شاء قال مثله يعني الشعر".

قال ابن كثير:" يعني: ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول، كما قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [الأنفال: ٣١]".

قال السعدي " أي: ومن أظلم ممن زعم. أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ويجاري

=

=

الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع، كما شرعه الله. ويدخل في هذا، كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله. وأي: ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركةَ القوي الغني، الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته؟".

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ} [الأنعام: ٩٣]، ثلاثة اقوال:

أحدها: من تقدم ذكره من مدعي الوحي والنبوة. وهذا قول قتادة.

والثاني: أنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان كتب للنبي ﷺ. قاله السدي ، وعكرمة.

والثالث: ما حكاه الحكم عن عكرمة: أنها نزلت في النضر بن الحارث، لأنه عارض القرآن، لأنه قال: والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا، فاللاقمات لقمًا.

قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ} [الأنعام: ٩٣]، أي:" ولو أنك أبصرت -أيها الرسول- هؤلاء المتجاوزين الحدَّ وهم في أهوال الموت لرأيت أمرًا هائلا".

قال ابن عباس:" هذا عند الموت، و «البسط»: الضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم".

قال الطبري: أي:" ولو ترى، يا محمد، حين يغمر الموت بسكراته هؤلاء الظالمين العادلين بربهم الآلهة والأنداد، والقائلين: {ما أنزل الله على بشر من شيء}، والمفترين على الله كذبًا، الزاعمين أنّ الله أوحى إليه ولم يوحَ إليه شيء، والقائلين: {سأنزل مثل ما أنزل الله}، فتعاينهم وقد غشيتهم سكرات الموت، ونزل بهم أمر الله".

قال السعدي:" لما ذم الظالمين، ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار،

=

=

ويوم القيامة فقال: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ} أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكُرَبه الشنيعة -لرأيت أمرا هائلا وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها".

قال القرطبي:" والجواب محذوف لعظم الأمر، أي: ولو رأيت الظالمين في هذه الحال لرأيت عذابا عظيما".

قال ابن كثير:" {فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ}، أي: في سكراته وغمراته وكُرُباته".

قال القرطبي: والغَمْرة الشدّة؛ وأصلها الشيء الذي يغمُر الأشياء فيُغطّيها.

ومنه غَمَرَه الماء ، ثم وُضعت في معنى الشدائد والمكاره ، ومنه غَمَرات الحرب.

وقال ابن عاشور: والغمرة بفتح الغين ما يغمُر ، أي يَغُمّ من الماء فلا يترك للمغمور مخلصًا.

وشاعت استعارتها للشدّة تشبيهًا بالشدّة الحاصلة للغريق حين يغمره الوادي أو السّيل حتّى صارت الغمرة حقيقة عرفيّة في الشدّة الشّديدة.

فغمرة كل شيء، كثرته ومعظمه، وأصله الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها، ومنه قول بشر بن أبي حازم:

وَهَلْ يُنْجِي مِنَ الْغَمَرَاتِ إلا بُرَاكَاءُ القِتَالِ أوِ الفِرَارُ

قال ابن عطية: قوله ﷻ (ولو ترى إذ الظالمون) الآية ، جواب (لو) محذوف تقديره لرأيت عجبًا أو هولًا ونحو هذا وحذف هذا الجواب أبلغ من نصه لأن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية تخيله و (الظالمون) لفظ عام لمن واقع ما تقدم ذكره وغير ذلك من أنواع الظلم الذي هو كفر و" الغمرات " جمع غمرة وهي المصيبة المبهمة المذهلة ، وهي مشبهة بغمرة الماء.

قوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ} [الأنعام: ٩٣]، أي:" والملائكة الذين يقبضون أرواحهم باسطو أيديهم بالعذاب".

=

=

قال السعدي: يعني:" إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب".

قال ابن كثير:" أي: بالضرب كما قال: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ} الآية [المائدة: ٢٨]، وقال: {وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ} الآية [الممتحنة: ٢]".

قال الطبري: أي:" والملائكة باسطو أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم، كما قال جل ثناؤه: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ} [سورة محمد: ٢٧، ٢٨]".

وفي قوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ} [الأنعام: ٩٣]، وجوه:

أحدها: أن بسط الملائكة أيديها، مدّها، ومعناه: ان الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم والظالمون في غمرات الموت، وملك الموت يتوفّاهم. وهذا قول ابن عباس ، وروي عن السدي نحو ذلك.

والثاني: باسطوا أيديهم بالعذاب، قاله الحسن ، والضحاك ، وأبو صالح.

والثالث: باسطو أيديهم بإخراج أنفس الكفار، وهو مثل قوله: {يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُم} [الأنفال: ٥٠]، قاله الفراء.

والرابع: باسطوا أيديهم بصحائف الأعمال. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ} [الأنعام: ٩٣]، أي:" قائلين لهم: أخرجوا أنفسكم".

قال السعدي: "يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيها للخروج من الأبدان: {أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ}".

قال القرطبي:" أي: خلصوها من العذاب إن أمكنكم، وهو توبيخ. وقيل: أخرجوها كرها، لأن روح المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه، وروح الكافر تنتزع انتزاعا شديدا، ويقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى

=

=

عذاب الله وهو أن، كذا جاء في حديث أبي هريرة وغيره، وقيل: هو بمنزلة قول القائل لمن يعذبه: لأذيقنك العذاب ولأخرجن نفسك، وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها ملك الموت وأعوانه. وقيل: يقال هذا للكفار وهم في النار".

قال ابن كثير:" وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنَّكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: {أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ".

قال الطبري:" فإن قال قائل: ما وجه قوله: {أخرجوا أنفسكم}، ونفوس بني آدم إنما يخرجها من أبدان أهلها رب العالمين؟ فكيف خوطب هؤلاء الكفار، وأمروا في حال الموت بإخراج أنفسهم؟ فإن كان ذلك كذلك، فقد وجب أن يكون بنو آدم هم يقبضون أنفس أجسامهم!

قيل: إن معنى ذلك بخلاف الذي إليه ذهبت، وإنما ذلك أمرٌ من الله على ألسن رُسله الذين يقبضون أرواحَ هؤلاء القوم من أجسامهم، بأداء ما أسكنها ربها من الأرواح إليه، وتسليمها إلى رسله الذين يتوفَّونها".

وفي قوله تعالى: {أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ} [الأنعام: ٩٣]، وجوه:

أحدها: أي: من أجسادكم عند معاينة الموت إرهاقًا لهم وتغليظًا عليهم، وإن كان إخراجها من فعل غيرهم.

والثاني: معناه: أخرجوا أنفسكم من العذاب إن قدرتم، تقريعًا لهم وتوبيخًا بظلم أنفسهم، قاله الحسن.

والثالث: أن يكون معناه خلصوا أنفسكم بالاحتجاج عنها فيما فعلتم. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} [الأنعام: ٩٣]، أي:" اليوم تُجزون

=

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ

=

العذاب الذي يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد".

قال ابن كثير: أي:"اليوم تهانون غاية الإهانة".

قال السعدي: "أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويذلكم والجزاء من جنس العمل".

عن السدي:" أما عذاب الهون: الذي يهينهم".

قوله تعالى: {بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ} [الأنعام: ٩٣]، أي:" بما كنتم تكذبون على الله".

قال ابن كثير: أي:" كما كنتم تكذبون على الله".

قال السعدي: أي: "من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاءت به الرسل".

قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام: ٩٣]، أي:" وكنتم تستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله".

قال ابن كثير: أي:" وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسله".

قال القرطبي:" أي: تتعظمون وتأنفون عن قبول آياته".

قال السعدي: "أي: تَرَفَّعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب، والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده".

قال ابن عباس:" آيتان يبشر بهما الكافر عند موته: {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم} إلى قوله: {بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون}، قال: فهاتان آيتان يبشر بهما الكافر في الدنيا".

بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤).

{و} يُقَال لَهُمْ إِذَا بُعِثُوا {لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى} مُنْفَرِدِينَ عَنْ الْأَهْل وَالْمَال وَالْوَلَد {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّل مَرَّة} أَيْ حُفَاة عُرَاة غُرْلًا {وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ} أَعْطَيْنَاكُمْ مِنْ الْأَمْوَال {وَرَاء ظُهُوركُمْ} فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ اخْتِيَاركُمْ {و} يُقَال لَهُمْ تَوْبِيخًا {مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ} الْأَصْنَام {الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ} أَيْ فِي اسْتِحْقَاق عِبَادَتكُمْ {شُرَكَاء} لِلَّهِ {لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنكُمْ} وَصْلكُمْ أَيْ تَشَتَّتَ جَمْعكُمْ وَفِي قِرَاءَة بِالنَّصْبِ ظَرْف أَيْ وَصْلكُمْ بَيْنكُمْ {وَضَلَّ} ذَهَبَ {عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} فِي الدُّنْيَا مِنْ شَفَاعَتهَا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة؛ قال: قال النضر بن الحارث: سوف تشفع لي اللات والعزى؛ فنزلت هذه الآية.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٨٥) -: ثني حجاج عن ابن جريج عن عكرمة. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال. و الثانية: ابن جريج لم يسمع من عكرمة. والثالثة: سنيد هذا صاحب "التفسير" ضعيف.

* قوله تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ٩٤]، أي: يقال لهم يوم معادهم هذا: جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد حفاة عراة غرلاً كما خلقناكم أول مرة ، لأن الإنسان يخرج من بطن أمه وحيدًا فريدًا ، لا مال له ، حافيًا ، عاريًا ، لا نعال له ولا لباس غير مختون.

=

=

قال القرطبي:" المعنى: جئتمونا واحدا واحدا، كل واحد منكم منفردا بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر ممن كان يصاحبكم في الغي، ولم ينفعكم ما عبدتم من دون الله".

قال ابن كثير:" أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الكهف: ٤٨]، أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث".

قال البغوي:" هذا خبر من الله أنه يقول للكفار يوم القيامة: ولقد جئتمونا فرادى وحدانا، لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم، {كما خلقناكم أول مرة} عراة حفاة غرلا".

قال الزمخشري:" {فرادى}، أي: منفردين عن أموالكم وأولادكم وما حرصتم عليه، وآثرتموه من دنياكم، وعن أوثانكم التي زعمتم أنها شفعاؤكم وشركاء لله، {كما خلقناكم أول مرة}، على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد".

قال الماوردي:" فإن قيل: فقوله: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا} خبر عن ماض، والمقصود منه الاستقبال؟ فعن ذلك جوابان:

أحدهما: أنه يقال لهم ذلك في الآخرة فهو على الظاهر إخبار.

والثاني: أنه لتحققه بمنزلة ما كان، فجاز، وإن كان مستقبلًا أن يعبر عنه بالماضي".

قال العلماء: "يحشر العبد غدا وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد، فمن قطع منه عضو يرد في القيامة عليه. وهذا معنى قوله:" غرلا" أي غير مختونين، أي يرد عليهم ما قطع منه عند الختان".

روي عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أنه سمع جابر بن عبد الله، يقول: "بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيرا، ثم شددت عليه رحلي، فسرت إليه شهرا، حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس، فقلت للبواب:

=

=

قل له: جابر على الباب، فقال ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني، واعتنقته، فقلت: حديثا بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت، أو أموت قبل أن أسمعه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يحشر الناس يوم القيامة - أو قال: العباد - عراة غرلا بهما " قال: قلنا: وما بهما؟ قال: "ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، ولا ينبغي لأحد من أهل النار، أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولأحد من أهل النار عنده حق، حتى أقصه منه، حتى اللطمة " قال: قلنا: كيف وإنا إنما نأتي الله ﷻ عراة غرلا بهما؟ قال: بالحسنات والسيئات".

عن القاسم، قال: قالت عائشة: قلت: يا رسول الله، كيف يحشر الناس يوم القيامة؟ قال: "عراة حفاة". قلت: والنساء؟ قال: "والنساء" قلت: يا رسول الله، فما يستحيا؟ قال: "يا عائشة، الأمر أهم من أن ينظر بعضهم إلى بعض".

وقرأ الأعرج «فردى»، مثل: سكرى وكسلى، بغير ألف.

قوله تعالى: {وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ} [الأنعام: ٩٤]، أي:" وتركتم وراء ظهوركم ما مكنَّاكم فيه مما تتباهون به من أموال في الدنيا".

قال ابن الجوزي: "(وراء ظهوركم) أي: في الدنيا ، والمعنى: أن ما دأبتم في تحصيله في الدنيا فني ، وبقي الندم على سوء الاختيار".

قال الزمخشري:" ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة وراء ظهوركم لم ينفعكم ولم تحتملوا منه نقيرا ولا قدمتموه لأنفسكم".

قال البغوي: أي: "خلفتم ما أعطيناكم من الأموال والأولاد والخدم، خلف ظهوركم في الدنيا".

=

=

قال القرطبي: " أي: [ما] أعطيناكم وملكناكم، و «الخول»: ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنعم، {وراء ظهوركم}، أي: خلفكم".

قال ابن كثير: " أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا {وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ}".

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: "يقول ابن آدم: مالي مالي (قال): وهل لك يا ابن آم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت".

عن عبدِ الله بن الشِّخِّيرِ - بكسر الشينِ والخاء المعجمتين - رضي الله عنه - ، أنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَهُوَ يَقْرَأُ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} قَالَ: ((يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي ، مالي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟!) رواه مسلم.

وعن ابن مسعود. قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: (أَيُّكُم مَالُ وَارِثِهِ أحبُّ إِلَيْهِ مِنْ... مَالِهِ؟ قالوا: يَا رسول اللهِ ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: ((فإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ) رواه البخاري.

وقال الحسن البصري: "يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج فيقول الله، ﷻ له: أين ما جمعت؟ فيقول يا رب، جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول: فأين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدم شيئا، وتلا هذه الآية: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ}".

قوله تعالى: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ} [الأنعام: ٩٤]، أي:" وما نرى معكم في الآخرة أوثانكم التي كنتم تعتقدون أنها تشفع لكم، وتَدَّعون أنها شركاء مع الله في العبادة".

قال السدي: " فإن المشركين كانوا يزعمون أنهم كانوا يعبدُون الآلهة، لأنهم شفعاء

=

=

يشفعون لهم عند الله، وأنّ هذه الآلهة شركاءُ لله".

قال القرطبي:" أي: الذين عبدتموهم وجعلتموهم شركاء- يريد الأصنام- أي شركائي. وكان المشركون يقولون الأصنام شركاء الله وشفعاؤنا عنده".

قال ابن كثير: {زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ} " أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم، [وهذا] تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدار الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أن تلك تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثَمَّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، وياديهم الرب، ﷻ، على رءوس الخلائق: {أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام: ٢٢]".

وفي قوله تعالى: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ} [الأنعام: ٩٤]، وجهان:

أحدهما: آلهتهم التي كانوا يعبدونها، قاله الكلبي.

والثاني: الملائكة الذين كانوا يعتقدون شفاعتهم عند الله، لقولهم: {هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّ} [يونس: ١٨]، يعني: الملائكة. قاله مقاتل.

وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ} [الأنعام: ٩٤]، وجهان:

أحدهما: يعني شفعاء، قاله الكلبي.

والثاني: أى: متحملين عنكم تحمل الشركاء عن الشركاء.

قال الزمخشري:" {فيكم شركاء}، في استعبادكم، لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها، فقد جعلوها لله شركاء فيهم وفي استعبادهم".

قوله تعالى: {لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [الأنعام: ٩٤]، أي:" لقد زال تَواصُلُكم الذي كان بينكم في الدنيا".

قال ابن كثير:" أي: لقد انقطع ما بينكم من الوُصُلات والأسباب والوسائل".

قال الطبري:" يعني: تواصلَهم الذي كان بينهم في الدنيا، ذهب ذلك اليوم، فلا

=

=

تواصل بينهم ولا توادّ ولا تناصر، وقد كانوا في الدنيا يتواصلون ويتناصرون، فاضمحلّ ذلك كله في الآخرة، فلا أحدَ منهم ينصر صاحبه، ولا يواصله".

قال السعدي: "أي: تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها فلم تنفع ولم تُجْد شيئا".

وفي قوله تعالى: {لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [الأنعام: ٩٤]، وجوه:

أحدها: تفرق جمعكم في الآخرة.

والثاني: ذهب تواصلكم في الدنيا، قاله مجاهد ، وقتادة ، وأبوبكر العياش.

والثالث: يعني: الأرحام والمنازل. قاله ابن عباس.

والرابع: يعني: ما كان بينهم وبين آلهتهم. قاله الضحاك.

والخامس: يعني بينهم وبين شركائهم من الملائكة من المودة والتواصل. قاله مقاتل.

وقرئ: «بَيْنُكُمْ» بالرفع، بمعنى: لقد تقطع وصلُكم.

قوله تعالى: {وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام: ٩٤]، أي:" وذهب عنكم ما كنتم تَدَّعون من أن آلهتكم شركاء لله في العبادة".

قال مقاتل: أي:" في الدنيا بأن مع الله شريكا".

قال الطبري: أي:" وحاد عن طريقكم ومنهاجكم ما كنتم من آلهتكم تزعمون أنه شريك ربكم، وأنه لكم شفيع عند ربكم، فلا يشفع لكم اليوم".

قال السعدي: {مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}، أي: "من الربح، والأمن والسعادة، والنجاة، التي زينها لكم الشيطان، وحسنها في قلوبكم، فنطقت بها ألسنتكم. واغتررتم بهذا الزعم الباطل، الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم".

قال ابن كثير:" أي: وذهب عنكم {مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} من رجاء الأصنام، كما قال:

=

إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥).

=

{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون: ١٠١]، وقال {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [العنكبوت: ٢٥]، وقال {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} الآية [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا} إلى قوله: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ٢٢ - ٢٤]، والآيات في هذا كثيرة جدا".

قال الشنقيطي: ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْأَنْدَادَ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فِي الدُّنْيَا تَضِلُّ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَنْقَطِعُ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا مِنَ الصِّلَاتِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا ،.

كَقَوْلِهِ (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ).

وَقَوْلِهِ (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا).

وَقَوْلِهِ (إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).

وَقَوْلِهِ (أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ).

{إِنَّ الله فَالِق} شَاقّ {الْحَبّ} عَنْ النَّبَات {وَالنَّوَى} عَنْ النَّخْل {يُخْرِج الْحَيّ مِنْ الْمَيِّت} كالإنسان والطائر من النطفة والبيضة {من الحي ذَلِكُمْ} الْفَالِق الْمُخْرِج {الله فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ الْإِيمَان مَعَ قِيَام الْبُرْهَان.

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦).

{فَالِق الْإِصْبَاح} مَصْدَر بِمَعْنَى الصُّبْح أَيْ شَاقّ عَمُود الصُّبْح وَهُوَ أَوَّل مَا يَبْدُو مِنْ نور النهار عن ظلمة الليل {وجاعل اللَّيْل سَكَنًا} تَسْكُن فِيهِ الْخَلْق مِنْ التَّعَب {وَالشَّمْس وَالْقَمَر} بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى مَحَلّ اللَّيْل {حُسْبَانًا} حِسَابًا لِلْأَوْقَاتِ أَوْ الْبَاء مَحْذُوفَة وَهُوَ حَال مِنْ مُقَدَّر أَيْ يَجْرِيَانِ بِحُسْبَانٍ كَمَا فِي آيَة الرَّحْمَن {ذَلِكَ} الْمَذْكُور {تَقْدِير الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْعَلِيم بِخَلْقِهِ}[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [الأنعام: ٩٥].

يبيّن تعالى في هذه الآيات عجائب قدرته وعظيم صنعه الدالة على أنه المعبود وحده، القادر على كل شيء فقال (إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) أي: يفلق الحب يعني يشقها تحت الأرض لخروج النبات منها، ويفلق ويشق النوى، ويخرج منها الشجرة.

- والنوى: نواة جميع الأشجار، مثل نواة المشمش، ونواة الخوخ ونحو ذلك.

قال ابن كثير: " يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي: يشقه في الثرى فتنبت الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف أشكالها =

=

وألوانها وطعومها من النوى".

قال السعدي: "يخبر تعالى عن كماله، وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: {إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ} شامل لسائر الحبوب، التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها، وأشكالها، ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار، من النخيل والفواكه، وغير ذلك. فينتفع الخلق، من الآدميين والأنعام، والدواب. ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاتون، وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك. ويريهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويريهم من بدائع صنعته، وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة".

قال البغوي:" {النوى} جمع النواة، وهي كل ما لم يكن حبا، كالتمر والمشمش والخوخ ونحوها".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [الأنعام: ٩٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها: يعني: فالق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة، قاله الحسن ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد.

والثاني: أن الفلق الشق الذي فيهما، قال مجاهد ، وأبو مالك.

والثالث: أنه يعني: خالق الحب والنوى، قاله ابن عباس ، والضحاك.

قال الطبري:": وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي، ما قدّمنا القول به. وذلك أن الله جل ثناؤه أتبع ذلك بإخباره عن إخراجه الحي من الميت والميت من الحي، فكان معلومًا بذلك أنه إنَّما عنى بإخباره عن نفسه أنّه فالق الحب عن النبات، والنوى عن الغُرُوس والأشجار، كما هو مخرج الحي من الميت،

=

=

والميّت من الحي.

وأما القول الذي حكي عن الضحاك في معنى {فالق}، أنه خالق، فقولٌ إن لم يكن أراد به أنّه خالق منه النبات والغُروس بفلقه إياه لا أعرف له وجهًا، لأنه لا يعرف في كلام العرب: فلق الله الشيء، بمعنى: خلق".

قوله تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} [الأنعام: ٩٥]، أي:" يخرج الحي من الميت كالإنسان والحيوان مثلا من النطفة، ويخرج الميت من الحي كالنطفة من الإنسان والحيوان".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يخرج السنبل الحيّ من الحبّ الميت، ومخرج الحبِّ الميت من السنبل الحيّ، والشجرِ الحيّ من النوى الميت، والنوى الميِّت من الشجر الحيّ".

قال ابن كثير:" أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى، الذي هو كالجماد الميت، كما قال: {وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ} [يس: ٣٣ - ٣٦]، وقوله: {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} معطوف على {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} ثم فسره ثم عطف عليه قوله: {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ}".

قال السعدي: "{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} كما يخرج من المني حيوانا، ومن البيضة فرخا، ومن الحب والنوى زرعا وشجرا، {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ} وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح {مِنَ الْحَيِّ} كما يخرج من الأشجار والزروع النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضا ونحو ذلك".

وفي قوله تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} [الأنعام:

=

=

٩٥]، اقوال:

أحدها: يخرج السنبلة الحية من الحبة الميتة، والنخلة الحية من النواة الميتة، ويعني بإخراج الميت من الحي أن يخرج الحبة الميتة من السنبلة الحية، والنواة الميتة من النخلة الحية، قاله وأبو مالك ، والسدي.

والثاني: معناه: يخرج النطفة الميتة من الحي، ثم يخرج من النطفة بشرًا حيًّا، أخرجه الطبري عن ابن عباس.

وأخرج ابن ابي حاتم: عن ابن عباس في قوله: "{يخرج الحي من الميت} قال: يخرج من النطفة بشرا". قال ابن ابي حاتم:"وروي عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري وسعيد بن جبير ومجاهد والنخعي وقتادة والضحاك نحو ذلك".

والثالث: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، قاله الحسن.

وروي عن عمر:" {يخرج الحي من الميت}، يخرج المؤمن من الكافر".

والرابع: أنه يخرج الفَطِن الجَلْد من البليد العاجز، ويخرج البليد العاجز من الفَطِن الجَلْد. أفاده الماوردي.

قال ابن كثير:" وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، من قائل: يخرج الولد الصالح من الكافر، والكافر من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها".

قوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [الأنعام: ٩٥]، أي:" ذلكم الله الخالق المدبر فكيف تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان".

قال ابن كثير:" أي: فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أي: فكيف تصرفون من الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون مع الله غيره".

قال الطبري: أي:" فإنه يقول: فاعل ذلك كلِّه اللهُ جل جلاله، فأيّ وجوه الصدّ عن

=

=

الحقّ، أيها الجاهلون، تصدّون عن الصواب وتصرفون، أفلا تتدبرون فتعلمون أنّه لا ينبغي أن يُجعل لمن أنعم عليكم بفلق الحب والنوى، فأخرج لكم من يابس الحب والنوى زروعًا وحُروثًا وثمارًا تتغذون ببعضه وتفكّهون ببعضه، شريكٌ في عبادته ما لا يضر ولا ينفع، ولا يسمع ولا يبصر؟".

قال السعدي: "{ذَلِكُمْ} الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها {اللهُ} رَبُّكُمْ أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه. {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أي: فأنى تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا؟".

قال القرطبي:" {ذلكم الله} ابتداء وخبر. {فأنى تؤفكون} فمن أين تصرفون عن الحق مع ما ترون من قدرة الله جل وعز".

قوله تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ} [الأنعام: ٩٦]، أي:" والله سبحانه وتعالى هو الذي شق ضياء الصباح من ظلام الليل".

قال البغوي: أي:" شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وكاشفه، وهو أول ما يبدو من النهار، يريد مبدئ الصبح وموضحه".

قال القرطبي:" أي: ذلكم الله ربكم فالق الإصباح. وقيل المعنى أن الله فالق الإصباح. والصبح والصباح أول النهار، وكذلك الإصباح، أي: فالق الصبح كل يوم، يريد الفجر".

قال ابن كثير:" أي: خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بدآدئه وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه، كما قال تعالى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا}

=

=

[الأعراف: ٥٤]، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح".

قال السعدي: "ولما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلقه كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ} أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئا فشيئا، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم، ومعايشهم، ومنافع دينهم ودنياهم".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ} [الأنعام: ٩٦]، وجوه:

أحدها: فالق الصبح، قاله قتادة.

والثاني: أنه إضاءة الفجر، قاله مجاهد.

والثالث: أن معناه خالق نور النهار، وهذا قول الضحاك.

والرابع: أن الإصباح ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل، قاله ابن عباس.

والخامس: معناه: فلق الإصباح عن الليل. قاله ابن زيد.

والسادس: معناه: خالق الليل والنهار. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

وذكر عن الحسن البصري أنّه كان يقرأ: «فَالِقُ الأَصْبَاحِ» ، بفتح الألف، "كأنه تأول ذلك بمعنى جمع «صبح»، كأنه أراد صبح كل يوم، فجعله «أصباحًا»".

وقرأ النخعي: «فلق الإصباح».

قوله تعالى: {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [الأنعام: ٩٦]، أي:" وجعل الليل مستقرًا، يسكن فيه من يتعب بالنهار فيأخذ نصيبه من الراحة".

قال البغوي: أي:" يسكن فيه خلقه".

قال ابن كثير:" أي: ساجيا مظلما تسكن فيه الأشياء، كما قال: {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ

=
إِذَا سَجَى} [الضحى: ١، ٢]، وقال {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل: ١، ٢]، وقال {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [الشمس: ٣، ٤]".

قال السعدي: "ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور {جَعَلَ} الله {اللَّيْلَ سَكَنًا} يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبدا إلى يوم القيامة".

قال الزمخشري:" «السكن»: ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناسا به واستراحا إليه، من زوج أو حبيب. ومنه قيل للنار: سكن، لأنه يستأنس بها. ألا تراهم سموها المؤنسة، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه وجمامه. ويجوز أن يراد: وجعل الليل مسكونا فيه من قوله لتسكنوا فيه".

روي عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: "كان لصهيب امرأة فكان يطيل السهر، قال: فقالت له: يا صهيب، قد أفسدت علي نفسك! فقال صهيب: إن الله جعل الليل سكنا لصهيب، إن صهيبا إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [الأنعام: ٩٦]، وجوه:

أحدهما: أنه سُمِّي سكنًا لأن كل متحرك بالنهار يسكن فيه.

والثاني: لأن كل حي يأوي فيه إلى مسكنه.

والثالث: لأنه يسكن فيه كل طير ودابة. وهذا قول قتادة.

وقرأ أهل الكوفة: «وجعل» على الماضي، «الليل» نصب اتباعا للمصحف.

وقرأ النخعي: «وجعل الليل».

قوله تعالى: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا} [الأنعام: ٩٦]، أي:" وجعل الشمس
=

=

والقمر يجريان في فلكيهما بحساب متقن مقدَّر، لا يتغير ولا يضطرب".

قال البغوي:" أي: جعل الشمس والقمر بحساب معلوم لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما، و «الحسبان» مصدر كالحساب".

قال ابن كثير:" أي: يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} الآية [يونس: ٥]، وكما قال: {لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٤٠]، وقال {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ} [الأعراف: ٥٤]".

قال السعدي: "{و} جعل تعالى {الشمس وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا} بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتنضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما واختلافهما - لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس، بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت".

وفي قوله تعالى: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا} [الأنعام: ٩٦]، وجهان:

أحدهما: وجعل الشمس والقمر يجريان في أفلاكهما بحساب. وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي ، والربيع ، وقتادة في احد قوليه.

والثاني: معناه: وجعل الشمس والقمر ضياء، قاله قتادة.

قال الماوردي: وكأنه أخذه من قوله تعالى: {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَآءِ} [الكهف: ٤٠] قال: نارًا".

قال الطبري: "وأولى القولين في تأويل ذلك عندي بالصواب، تأويل من تأوَّله:

=

=

وجعل الشمس والقمرَ يجريان بحساب وعددٍ لبلوغ أمرهما ونهاية آجالهما، ويدوران لمصالح الخلق التي جُعِلا لها، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية، لأن الله تعالى ذكره ذكَر قبلَه أياديه عند خلقه، وعظم سلطانه، بفلقه الإصباح لهم، وإخراج النبات والغِراس من الحب والنوى، وعقّب ذلك بذكره خلق النجوم لهدايتهم في البر والبحر. فكان وصفه إجراءه الشمس والقمرَ لمنافعهم، أشبه بهذا الموضع من ذكر إضاءتهما، لأنه قد وصف ذلك قبلُ بقوله: {فالق الإصباح}، فلا معنى لتكريره مرة أخرى في آية واحدة لغير معنى".

قوله تعالى: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [الأنعام: ٩٦]، أي:" ذلك تقدير العزيز الذي عزَّ سلطانه، العليم بمصالح خلقه وتدبير شئونهم".

قال سعيد بن جبير:" {العليم}، يعني" عالما بها".

قال ابن كثير:" أي: الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف العليم بكل شيء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيرًا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم، كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس: ٣٧، ٣٨]".

قال السعدي:" {ذَلِكَ} التقدير المذكور {تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذللة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر {الْعَلِيم} الذي أحاط علمه، بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه، تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير، ونظام بديع، تحيُّرُ العقول في حسنه وكماله، وموافقته للمصالح والحكم".

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧).

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُوم لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَات الْبَرّ وَالْبَحْر} فِي الْأَسْفَار {قَدْ فَصَّلْنَا} بَيَّنَّا {الْآيَات} الدَّلَالَات عَلَى قُدْرَتنَا {لِقَوْمٍ يعلمون} يتدبرون[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام: ٩٧]، أي:" والله سبحانه هو الذي جعل لكم أيها الناس النجوم علامات، تعرفون بها الطرق ليلا إذا ضللتم بسبب الظلمة الشديدة في البر والبحر".

قال الطبري: أي:" والله الذي جعل لكم، أيها الناس، النجوم أدلةً في البر والبحر إذا ضللتم الطريق، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلا تستدلّون بها على المحجَّة، فتهتدون بها إلى الطريق والمحجة، فتسلكونه وتنجون بها من ظلمات ذلك، كما قال جل ثناؤه: {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة النحل: ١٦]، أي: من ضلال الطريق في البرّ والبحر وعنى بالظلمات، ظلمة الليل، وظلمة الخطأ والضلال، وظلمة الأرض أو الماء".

قال ابن كثير:" ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن في أول سورة {حم} السجدة، قال: {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت: ١٢]. وقوله: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}، قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر".

=

=

قال القرطبي:" بيّن كمال قدرته، وفي النجوم منافع جمة. ذكر في هذه الآية بعض منافعها، وهي التي ندب الشرع إلى معرفتها، وفي التنزيل: {وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} [الصافات: ٧]، {وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِين} [الملك: ٥]. و «جعل» - هنا- بمعنى: خلق".

قال السعدي:" حين تشتبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم. منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيرَه أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات".

قال البغوي:" والله تعالى خلق النجوم لفوائد:

أحدها: وهو أن راكب البحر والسائر في القفار يهتدي بها في الليالي إلى مقاصده.

والثاني: أنها زينة للسماء كما قال: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [الملك: ٥].

ومنها: رمي الشياطين، كما قال: {وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِين} [الملك: ٥]".

عن ابن عباس قوله: "{وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر}، قال: يضلّ الرجل وهو في الظلمة والجور عن الطريق".

قال قتادة: "خلق الله هذه النجوم لثلاث زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد أخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به".

قال ابن جبرين:"يرد قتادة على المنجمين الذين يستدلون بطلوع النجوم على الحوادث التي تحدث في الأرض من العاهات والمصائب، ومن الأمطار والخيرات، ومن العقوبات ونحوها، وما ذاك ألا أن النجوم لا تحدث شيئًا

=

=

بنفسها، بل الله تعالى جعلها مسخرة كما قال الله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} [النحل:١٢]، وقال تعالى: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [النحل:١٦] أي: يقتدون في طرقهم، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام:٩٧] (لتهتدوا) يعني: أنكم تستدلون بها على الجهة التي تريدونها، وتعرفون أي جهة تقصدونها، فجعلها الله علامات ليهتدى بها، كما جعلها زينة في قوله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [الملك:٥] أي: بهذه النجوم، وقال تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} [الصافات:٦] والكواكب التي في هذه السماء هي زينة لها، فإذا كنت في ليلة مظلمة ونظرت إلى السماء ترى نجومها تزهر في كل جانب، كالسرج تضيء، فهي زينة للسماء.

قال ابن كثير:" أي: قد بيناها ووضحناها {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} أي: يعقلون ويعرفون الحق ويجتنبون الباطل".

قال القرطبي:" أي: بيناها مفصلة لتكون أبلغ في الاعتبار، {لقوم يعلمون} خصهم لأنهم المنتفعون بها".

قال الطبري:" يقول: قد ميَّزنا الأدلة، وفرَّقنا الحجج فيكم وبيّناها، أيها الناس، ليتدبّرها أولو العلم بالله منكم، ويفهمها أولو الحجا منكم، فينيبوا من جهلهم الذي هم مقيمون عليه، وينزجروا عن خطأ فعلهم الذي هم عليه ثابتون، ولا يتمادوا عنادًا لله مع علمهم بأن ما هم عليه مقيمون خطأ في غَيِّهم".

قال السعدي:" أي: بيناها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجفاء، المعرضين عن آيات الله، وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان

=

=

لا يفيدهم شيئا، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبسا، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلا".

* قال البخاري في صحيحه ، قال قتادة: (خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء ، ورجومًا للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به).

- خلق الله هذه النجوم لحكم:

الأولى: زينة للسماء.

قال تعالى (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ). وفي هذه الآية إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا.

وقال تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ). (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا).

الثانية: رجومًا للشياطين ، أي لشياطين الجن الذين يسترقون السمع.

كما في الآية السابقة (وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ).

قال تعالى (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا).

الثالثة: علامات يهتدى بها.

قال تعالى (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ).

فقوله (علامات) أي دلالات على الجهات والبلدان ونحو ذلك ، كما قال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر).

(قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ) أي: قد بيّنا ووضحنا الدلالات الواضحة على قدرتنا وكمالنا ،

=

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨).

{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ} خَلَقَكُمْ {مِنْ نَفْس وَاحِدَة} هِيَ آدَم {فَمُسْتَقَرّ} مِنْكُمْ فِي الرَّحِم {وَمُسْتَوْدَع} مِنْكُمْ فِي الصُّلْب وَفِي قِرَاءَة بِفَتْحِ الْقَاف أَيْ مَكَان قَرَار لَكُمْ {قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَات لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} مَا يُقَال لَهُمْ(١).

=

وأنه ليس لأحد يعبد غيرنا.

(لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أي: يعقلون ويعرفون الحق ويجتنبون الباطل.

- وإنما خصّ القوم الذين يعلمون لأنهم هم المنتفعون بها، ومن أساليب القرآن العظيم: أن يُخصص بالكلام المنتَفع به كقوله (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) وهو مذكر للأسود والأحمر، وكقوله (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ...) وهو منذر لجميع الناس.

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [الأنعام: ٩٨].

يبين الله فيه هذه الآيات بعض البراهين الدالة على أنه الرب المعبود وحده، ومن ذلك أنه خلق جميع الآدميين من نفس واحدة وهو: أبوهم آدم عليه السلام، وأمهم امرأة واحدة، مع اختلاف أشكالهم وألوانهم وألسنتهم.

- وفي ذلك إبداع عظيم.

- وأصل الإنشاء: الإبراز من العدم إلى الوجود.

- والبشر منهم من خلق من دون ذكر ولا أنثى وهو آدم، ومنهم من خلق من ذكر دون أنثى وهي حواء، ومنهم من خلق من أنثى دون ذكر وهو عيسى، ومنهم من

=

=

خلق من ذكر وأنثى وهو سائر البشر.

قال ابن كثير:" آدم عليه السلام، كما قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً} [النساء: ١]".

قال البغوي: أي:" خلقكم وابتدأكم، {من نفس واحدة} يعني: آدم عليه السلام".

قال السعدي:" وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه، وأوصافه تفاوتا لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه".

قوله تعالى: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [الأنعام: ٩٨]، أي:" فجعل لكم مستقرًا تستقرون فيه، وهو أرحام النساء، ومُستودعًا تُحفَظُون فيه، وهو أصلاب الرجال".

قال السعدي:" وجعل الله لبني آدم «مستقرا»، أي" منتهى ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار، التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار، هي التي خلق الخلق لسكناها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم

في البرزخ، كل ذلك، على وجه الوديعة، التي لا تستقر ولا تثبت، بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر، وأما هذه الدار، فإنها «مستودع» وممر".

واختلف في تفسير قوله تعالى: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [الأنعام: ٩٨]، على اقوال:

أحدها: والثالث: «فمستقر» في أرحام النساء و «مستودع» في أصلاب الرجال، قاله مجاهد ، والضحاك ، وعطاء ، وقتادة ، وعكرمة ، وإبراهيم ، والسدي ، وابن زيد ، وهو مروي عن ابن عباس أيضا.

والثاني: فمستقر في الأرض، و «مستودع» في الأصلاب، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير.

=

=

والثالث: «فمستقر» في الرحم، «ومستودع» في القبر، قاله ابن مسعود ، وإبراهيم ، ومقسم.

والرابع: «فمستقر» في الدنيا «ومستودع» في الآخرة، قاله مجاهد.

والخامس: «فمستقر» في الأرض «ومستودع» في القبر، قاله الحسن.

والسادس: «فمستقر» في الأرض على ظهورها، «ومستودع» عند الله. وهذا مروي عن عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير.

والسابع: أن مستقرها حيث تأوي. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

والثامن: أن «المستقر»، ما فرغ من خلقه. وهذا مروي عن السدي ايضا.

والتاسع: ان «المستقر»: الذي قد مات فاستقر به عمله. وهذا مروي عن الحسن ايضا.

والعاشر: «فمستقر» في الدنيا. وهذا مروي عن عبد الله بن مسعود أيضا.

والحادي عشر: أن «المستودع»: القبر، و «المستقر»: الجنة والنار، لقوله ﷻ في صفة الجنة والنار: {حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا} [الفرقان: ٧٦]، {سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا} [الفرقان: ٦٦]. حكاه البغوي عن بعضهم.

قال ابن كثير:" والقول الأول هو الأظهر".

وقال الطبري:" وأولى التأويلات في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه عمّ بقوله: {فمستقر ومستودع}، كلَّ خلقه الذي أنشأ من نفس واحدة، مستقرًّا ومستودعًا، ولم يخصص من ذلك معنى دون معنى. ولا شك أنّ من بني آدم مستقرًّا في الرحم، ومستودعًا في الصلب، ومنهم من هو مستقر على ظهر الأرض أو بطنها، ومستودع في أصلاب الرجال، ومنهم مستقر في القبر، مستودع على ظهر الأرض. فكلٌّ «مستقر» أو «مستودع» بمعنى من هذه المعاني، فداخل في عموم قوله: {فمستقر ومستودع} ومراد به، إلا أن يأتي خبرٌ يجب التسليم له بأنه معنيٌّ به

=

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩).

=

معنى دون معنى، وخاص دون عام".

قرأ ابن كثير وأهل البصرة «فمستقر» بكسر القاف، يعني: فمنكم مستقر ومنكم مستودع، وقرأ الآخرون بفتح القاف، أي: فلكم مستقر ومستودع.

قوله تعالى: {قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: ٩٨]، أي:" قد بينا الحجج وميزنا الأدلة، وأحكمناها لقوم يفهمون مواقع الحجج ومواضع العبر".

قال قتادة:" يقول: قد بينا الآيات لقوم يفقهون".

قال ابن كثير:" {لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} أي: يفهمون ويَعُون كلام الله ومعناه".

قال الطبري:" يقول تعالى: قد بيّنا الحجج، وميزنا الأدلة والأعلام وأحكمناها {لقوم يفقهون}، مواقعَ الحجج ومواضع العبر، ويفهمون الآيات والذكر، فإنهم إذا اعتبروا بما نبّهتهم عليه من إنشائي من نفس واحدة ما عاينوا من البشر، وخلقي ما خلقت منها من عجائب الألوان والصور، علموا أنّ ذلك من فعل من ليس له مثل ولا شريك فيشركوه في عبادتهم إياه".

قال السعدي:" {لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه، وبيناته".

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم قيل: {يعلمون} مع ذكر النجوم، و {يفقهون}، مع ذكر إنشاء بنى آدم؟

قلت كان إنشاء الإنس من نفسواحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرا، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقا له".

{وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا} فِيهِ الْتِفَات عَنْ الْغَيْبَة {بِهِ} بِالْمَاءِ {نَبَات كُلّ شَيْء} يَنْبُت {فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ} أَيْ النَّبَات شَيْئًا {خَضِرًا} بِمَعْنَى أَخْضَر {نُخْرِج مِنْهُ} مِنْ الْخَضِر {حَبًّا مُتَرَاكِبًا} يَرْكَب بَعْضه بَعْضًا كَسَنَابِل الْحِنْطَة وَنَحْوهَا {وَمِنْ النَّخْل} خَبَر وَيُبْدَل مِنْهُ {مِنْ طَلْعهَا} أَوَّل مَا يَخْرُج مِنْهَا وَالْمُبْتَدَأ {قِنْوَان} عَرَاجِين {دَانِيَة} قَرِيب بَعْضهَا مِنْ بَعْض {و} أخرجنا به {جنات} بَسَاتِين {مِنْ أَعْنَاب وَالزَّيْتُون وَالرُّمَّان مُشْتَبِهًا} وَرَقهمَا حَال {وَغَيْر مُتَشَابِه} ثَمَرهَا {اُنْظُرُوا} يَا مُخَاطَبُونَ نَظَرَ اعْتِبَار {إِلَى ثَمَره} بِفَتْحِ الثَّاء وَالْمِيم وَبِضَمِّهِمَا وَهُوَ جَمْع ثَمَرَة كَشَجَرَةٍ وَشَجَر وَخَشَبَة وَخَشَب {إِذَا أَثْمَرَ} أَوَّل مَا يَبْدُو كَيْفَ هو {و} إلى {ينعه} نُضْجه إِذَا أَدْرَكَ كَيْفَ يَعُود {إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَات} دَلَالَات عَلَى قُدْرَته تَعَالَى عَلَى الْبَعْث وَغَيْره {لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِهَا فِي الْإِيمَان بِخِلَافِ الْكَافِرِينَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [الأنعام: ٩٩]، أي:" والله سبحانه هو الذي أنزل من السحاب مطرًا بقدر مباركًا، رزقًا للعباد وغياثًا للخلائق، رحمة من الله لخلقه".

وفي هذا تذكير لنعمة أخرى من نعمه سبحانه الجليلة المنبئة عن كمال قدرته ﷻ وسعة رحمته.

قال القرطبي: "أي: المطر".

قال الطبري: أي: "والله الذي له العبادة خالصة لا شريك فيها لشيء سواه، هو =

=

الإله الذي أنزل من السماء ماء".

قال ابن كثير: " أي بقدر مباركًا، رزقًا للعباد وغياثًا للخلائق".

قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ٩٩]، أي:" فأخرج به نبات كل شيء".

قال القرطبي: "أي: كل صنف من النبات. وقيل: رزق كل حيوان".

قال الزمخشري: أي:" نبت كل صنف من أصناف النامي، يعنى أن السبب واحد وهو الماء. والمسببات صنوف مفتنة، كما قال: {يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} [الرعد: ٤]".

قال الطبري: أي: "فأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء من غذاء الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم، ما يتغذون به ويأكلونه فينبتُون عليه وينمون. وإنما معنى قوله: {فأخرجنا به نبات كل شيء}، فأخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلحُ، ولو قيل: معناه: فأخرجنا به نبات جميع أنواع النبات، فيكون {كل شيء}، هو أصناف النبات كان مذهبًا، وإن كان الوجه الصحيح هو القولَ الأول".

قال السعدي: "وهذا من أعظم مننه العظيمة، التي يضطر إليها الخلق، من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعا وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء، مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله، وانبسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجدب واليأس والقحط، ففرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون، مما يوجب لهم، أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم، وعبادته والإنابة إليه، والمحبة له".

- قال ابن الجوزي: قوله تعالى: (نبات كل شيء) قولان.

=

=

أحدهما: نبات كل شيء من الثمار ، لأن كل ما ينبت فنباته بالماء.

والثاني: رزق كل شيء وغذاؤه.

قوله تعالى:(فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا) [الأنعام: ٩٩]، أي:" فأخرجنا من النبات شيئًا غضًّا أخضر".

(خَضِرًا) المراد به: الذي ينبت أخضر كالبقول. وإلى هذا المعنى ذهب علماء التفسير واللغة، فممن قال بهذا: الأخفش، والطبري، والزجاج، والنحاس، والثعلبي، والماوردي، والزمخشري، والبغوي، وأبو حيان.

قال الطبري:" يعني: أخرجنا من الماء الذي أنزلناه من السماء رطبًا من الزرع".

قال الماوردي:" يعني: زرعًا رطبًا بخلاف صفته عند بذره".

قال ابن كثير:" أي: زرعًا وشجرًا أخضر، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب والثمر".

قال الزمخشري: أي:" شيئا غضا أخضر. يقال أخضر وخضر، كأعور وعور، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة".

قال ابن منظور: "وكل غض خضر، وفي التنزيل { فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا } قال: خضرا ههنا بمعنى أخضر".

قال السعدي:" ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتا لأكثر الناس فقال: {فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا... } {وَمِنَ النَّخْلِ}".

قوله تعالى: {نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا} [الأنعام: ٩٩]، أي:" ثم أخرج من الزرع حَبًّا يركب بعضه بعضًا، كسنابل القمح والشعير والأرز".

قال الطبري:" يقول: نخرج من الخضر حبًّا يعني: ما في السنبل، سنبل الحنطة والشعير والأرز، وما أشبه ذلك من السنابل التي حبُّها يركب بعضه بعضًا".

قال الماوردي:" يعني: السنبل الذي قد تراكب حبه".

=

=

قال ابن كثير: {حبا متراكبا} " أي: يركب بعضه بعضا، كالسنابل ونحوها".

قال الزمخشري:" {نخرج منه}، من الخضر، {حبا متراكبا}، وهو السنبل".

قال السعدي: {حبا متراكبا} "أي: بعضه فوق بعض، من بر، وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك، من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضا إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار".

عن السدي قوله: "{منه خضرًا نخرج منه حبًّا متراكبًا}، فهذا السنبل".

قوله تعالى: {وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} [الأنعام: ٩٩]، أي:" وأخرج من طلع النخل -وهو ما تنشأ فيه عذوق الرطب- عذوقًا قريبة التناول".

قال الضحاك:" يعني: النخل القصارَ الملتزقة بالأرض، و «القنوان»: طلعه".

قال السعدي: "{وَمِنَ النَّخْلِ} أخرج الله {مِنْ طَلْعِهَا} وهو الكفرى، والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء {قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} أي: قريبة سهلة التناول، متدلية على من أرادها، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كرب ومراقي، يسهل صعودها".

قال ابن كثير:" {قِنْوَانٌ}: جمع «قِنو» وهي عُذُوق الرّطب، {دَانِيَةٌ} أي: قريبة من المتناول".

قال البغوي:" والطلع أول ما يخرج من ثمر النخل، {قنوان} جمع قنو وهو العذق، مثل صنو وصنوان، ولا نظير لهما في الكلام، {دانية} أي: قريبة المتناول ينالها القائم والقاعد".

وفي معنى: «القنوان» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الطلع، قاله الضحاك.

=

=

والثاني: أنه الجمار. ذكره الماوردي.

والثالث: هي الأعذاق. وهذا قول ابن عباس ، وقتادة.

قال ابن عباس:"يعني: بـ «القنوان الدانية»، قصار النخل، لاصقة عُذُوقها بالأرض".

عن قتادة قوله: "{من طلعها قنوان دانية}، قال: عذوق متهدلة".

وأهل الحجاز يقولون: قِنْوان، وقيس يقولون: قُنْوان، وتميم تقول: قُنْيان، بالياء، وهي جمع: قنو، كما أن: صنوان، جمع: صنو ، قال امرؤ القيس:

فَأَثَّتْ أَعَالِيهِ، وَآدَتْ أُصُولُهُ وَمَالَ بِقِنْوانٍ مِنَ البُسْرِ أَحْمَرَا

وقال آخر:

لَهَا ذَنَبٌ كَالْقِنْوِ قَدْ مَذِلَتْ بِهِ وَأَسْحَمَ لِلتَّخْطَارِ بَعْدَ التَّشَذُّرِ

وفي قوله تعالى: {دَانِيَةٌ} [الأنعام: ٩٩]، وجهان:

أحدهما: دانية من المجتني لقصر نخلها وقرب تناولها، قاله ابن عباس.

والثاني: دانية بعضها من بعض لتقاربها، قاله الحسن.

عن البراء في قوله: "{قنوان دانية}، قال: قريبة".

قوله تعالى: {وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ} [الأنعام: ٩٩]، أي:" وأخرج سبحانه بساتين من أعناب".

قال الماوردي:" يعني: بساتين من أعناب".

قال الطبري:": وأخرجنا أيضًا بساتينَ من أعناب".

قال ابن كثير:" أي: ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا، كما امتن تعالى بهما على عباده، في قوله: {وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [النحل: ٦٧]، وكان ذلك قبل تحريم الخمر، وقال: {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ

=
وَأَعْنَابٍ} [يس: ٣٤]".
وقرأ الأعمش: «وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ» بالرفع ، على إتباعها «القنوان» في الإعراب، وإن لم تكن من جنسها، كما قال عبد الله بن الزبعرى:

وَرَأَيْتِ زَوْجَكِ فِي الوَغَى مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحَا

قال الطبري:" والقراءة التي لا أستجيز أن يقرأ ذلك إلا بها، النصبُ: {وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ}، لإجماع الحجة من القرأة على تصويبها والقراءة بها، ورفضهم ما عداها، وبُعْدِ معنى ذلك من الصواب إذ قرئ رفعًا".
قوله تعالى: {وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} [الأنعام: ٩٩]، أي:" وأخرج شجر الزيتون والرمان الذي يتشابه في ورقه ويختلف في ثمره شكلا وطعمًا وطبعًا".
قال القرطبي:" وخص الرمان والزيتون بالذكر لقربهما منهم ومكانهما عندهم. وهو كقوله: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} [الغاشية: ١٧]، ردهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه".
قال السعدي: "فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنوابت".
وفي قوله تعالى: {مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} [الأنعام: ٩٩]، قولان:
أحدهما: مشتبها ورقه مختلفًا ثمره، قال قتادة.
قال القرطبي: أي:" ورق الزيتون يشبه ورق الرمان في اشتمال على جميع الغصن وفي حجم الورق، وغير متشابه في الذواق".
والثاني: مشتبهًا لونه مختلفًا طعمه، قاله الكلبي ، وأجازه الطبري.
قال الزمخشري:" المعنى: بعضه متشابها وبعضه غير متشابه، في القدر واللون والطعم. وذلك دليل على التعمد دون الإهمال".
=

=

قال السعدي: "وقوله {مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبها في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك، إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضا، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكهون، ويقتاتون، ويعتبرون".

قوله تعالى: {انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ} [الأنعام: ٩٩]، أي:" انظروا أيها الناس إلى ثمر هذا النبات إذا أثمر، وإلى نضجه وبلوغه حين يبلغ".

قال السعدي:" أي: انظروا إليه، وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبرا وآيات، يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده، وكمال اقتداره وعنايته بعباده".

قال الزمخشري:" {انظروا إلى ثمره إذا أثمر}، إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا ضعيفا لا يكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئا جامعا لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدره ومدبره وناقله من حال إلى حال".

قال القرطبي:" أي: نظر الاعتبار لا نظر الإبصار المجرد عن التفكر. والثمر في اللغة جنى الشجر".

قال ابن كثير: {انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ} " أي: نضجه، [وقيل]: فكروا في قُدْرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حَطَبًا صار عِنبًا ورطبًا وغير ذلك، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم

والروائح، كما قال تعالى: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد: ٤]".

=

=

قال ابن عباس ، والضحاك ،وعطاء الخراساني ، وقتادة ، والسدي ، وعبد الله بن ابي إسحاق البصري:" {ينعه}، نضجه".

عن البراء: {انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه}، قال: نضجه حين ينضج".

قال السمعاني: {انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه}:" أي: في نضجه، ومنه قول الحجاج حيث خطب، وقال: «إني أرى رءوسا قد أينعت، وآن قطافها، وأنا والله صاحبها، ورأى دماء ترقرق بين اللحى والعمائم» ".

قرأ حمزة والكسائي" «ثمرِهِ» بالضم، وقرأ الباقون بالفتح ، وفي اختلافه بالضم والفتح قولان:

أحدهما: أن «الثُّمُر» بالضم جمع ثمار، وبالفتح جمع ثمرة، قاله علي بن عيسى.

والثاني: أن «الثُّمُر» بالضم: المال، وبالفتح: ثمر النخل، قاله مجاهد ، وأبو جعفر الطبري.

وقرئ: «وينعه» بالضم. يقال: ينعت الثمرة ينعا وينعا. وقرأ ابن محيصن: «ويانعه».

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ٩٩]، أي:" إن في ذلكم – أيها الناس – لدلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته لقوم يصدقون به تعالى ويعملون بشرعه".

قال ابن كثير:" أي: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته {لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي: يصدقون به، ويتبعون رسله".

قال السعدي:" فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكر في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه، عقلا وفطرة، وشرعا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن في إنزال الله من السماء الماءَ الذي أخرج به

=

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠).

{وَجَعَلُوا لِلَّهِ} مَفْعُول ثَانٍ {شُرَكَاء} مَفْعُول أَوَّل وَيُبْدَل مِنْهُ {الْجِنّ} حَيْثُ أَطَاعُوهُمْ فِي عِبَادَة الأوثان {و} قد {خلقهم} فكيف يكونون شُرَكَاء {وَخَرَقُوا} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد أَيْ اخْتَلَقُوا {لَهُ بَنِينَ وَبَنَات بِغَيْرِ عِلْم} حَيْثُ قَالُوا عُزَيْر بن الله وَالْمَلَائِكَة بَنَات الله {سُبْحَانه} تَنْزِيهًا لَهُ {وتعالى عما يصفون} بأن له ولدا.

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١).

=

نباتَ كل شيء، والخضِرَ الذي أخرج منه الحبَّ المتراكب، وسائر ما عدَّد في هذه الآية من صنوف خلقه «لآيات»، يقول: في ذلكم، أيها الناس، إذا أنتم نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموّه، علمتم أن له مدبِّرًا ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجج وبرهان وبيان {لقوم يؤمنون}،يقول: لقوم يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء. وخصّ بذلك تعالى ذكره القوم الذين يؤمنون، لأنهم هم المنتفعون بحجج الله والمعتبرون بها، دون من قد طَبعَ الله على قلبه، فلا يعرف حقًّا من باطل، ولا يتبين هدًى من ضلالة".

هو {بديع السماوات والأرض} مُبْدِعهمَا مِنْ غَيْر مِثَال سَبَقَ {أَنَّى} كَيْفَ {يَكُون لَهُ وَلَد وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَة} زَوْجَة {وَخَلَقَ كُلّ شَيْء} مِنْ شَأْنه أَنْ يُخْلَق {وهو بكل شيء عليم}(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ} [الأنعام: ١٠٠]، أي:" وجعل هؤلاء المشركون الجن شركاء لله تعالى في العبادة؛ اعتقادًا منهم أنهم ينفعون أو يضرون، وهذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا في عبادة الله أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم".

قال الطبري: يقول: "وجعلوا لله الجنَّ شركاءَ في عبادتهم إياه".

عن الضحاك في قوله: {وجعلوا لله شركاء}: يقول: هل تشركون عبيدكم في الذي لكم فتكونوا فيه سواء؟ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟".

قال القرطبي: "هذا ذكر نوع آخر من جهالاتهم، أي فيهم من اعتقد لله شركاء من الجن".

قال ابن كثير:" هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا في عبادة الله أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

فإن قيل: فكيف عُبدت الجن وإنما كانوا يعبدون الأصنام؟

فالجواب: أنهم إنما عبدوا الأصنام عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كما قال تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا} [النساء: ١١٧ –
=

=

١٢٠]، وقال تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا} [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: {يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} [مريم: ٤٤]، وقال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [يس: ٦٠، ٦١]، وتقول الملائكة يوم القيامة: {سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ: ٤١]، ولهذا قال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ}".

وتقدم اسم «الله» على «الشركاء»، لاستعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكا أو جنيا أو إنسيا أو غير ذلك.

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ} [الأنعام: ١٠٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المجوس نسبت الشر إلى إبليس، وتجعله بذلك شريكًا لله.

والثاني: أن مشركي العرب جعلوا الملائكة بنات الله وشركاء له، قاله قتادة، والسدي، وابن زيد. كقوله تعالى: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ}، فَسَمَّى الملائكة لاختفائهم عن العيون جنة.

والثالث: أنه أطاعوا الشيطان في عبادة الأوثان حتى جعلوها شركاء لله في العبادة، قاله الحسن، والزجاج، والزمخشري.

قال السعدي:" يخبر تعالى: أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم، بآياته البينات، وحججه الواضحات -أن المشركين به، من قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء، يدعونهم، ويعبدونهم، من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم".

وفي: {الْجِنَّ} [الأنعام: ١٠٠]، وجهان من النصب:

=

=

أحدهما: أن يكون تفسيرًا «للشركاء».

والآخر: أن يكون معنى الكلام: وجعلوا لله الجن شركاء، وهو خالقهم.

وقرئ: «الجن» بالرفع، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الجن. وبالجر على الإضافة التي للتبيين.

قوله تعالى: {وَخَلَقَهُمْ} [الأنعام: ١٠٠]، أي:" وقد علموا أنه تعالى هو الذي خلقهم وانفرد بإيجادهم فكيف يجعلونهم شركاء له؟".

قال ابن عباس:" والله: خلقهم".

قال الطبري: يقول: "وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير".

قال ابن كثير:" أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، كما قال إبراهيم عليه السلام: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٥، ٩٦]، ومعنى الآية: أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يُفْرَد بالعبادة وحده لا شريك له".

قال القرطبي: أي: خلق الجاعلين له شركاء. وقيل: خلق الجن الشركاء".

قال الزمخشري: أي:" وخلق الجاعلين لله شركاء. ومعناه: وعلموا أن الله خالقهم دون الجن، ولم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق شريكا للخالق. وقيل: الضمير للجن".

و قوله تعالى: {وَخَلَقَهُمْ} [الأنعام: ١٠٠]، يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه خلقهم بلا شريك له، فَلِمَ جعلوا له في العبادة شريكًا؟.

والثاني: أنه خلق من جعلوه شريكًا فكيف صار في العبادة شريكًا.

وقرأ يحيى بن يعمر «وَخَلْقَهُمْ» بتسكين اللام. ومعناه: أنهم جعلوا خلقهم الذي صنعوه بأيديهم من الأصنام لله شريكًا.

وقرأ ابن مسعود: «وهو خلقهم» بزيادة «هو».

=

=

قوله تعالى: {وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٠٠]، أي:" ولقد كذب هؤلاء المشركون على الله تعالى حين نسبوا إليه البنين والبنات؛ جهلا منهم بما يجب له من صفات الكمال".

قال الطبري:" يقول: وتخرَّصوا لله كذبًا، فافتعلوا له بنين وبنات بغير علم منهم بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلا بالله وبعظمته، وأنه لا ينبغي لمن كان إلهًا أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك".

قال ابن كثير:" ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولدا، كما يزعم من قاله من اليهود في العزير، ومن قال من النصارى في المسيح وكما قال المشركون من العرب في الملائكة: إنها بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا".

قال الماوردي:" «البنون»: قول النصارى في المسيح أنه ابن الله، وقول اليهود أن عزيرًا ابن الله، و «البنات»: قول مشركي العرب في الملائكة أنهم بنات الله".

قال السعدي:" أي: ائتفكوا، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله، بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه؟!!".

وفي قوله تعالى: {وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٠٠]، وجوه:

أحدها: أن معنى: {خرقوا}: كذبوا، قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد ، وأبو عمرو.

والثاني: معناه: جعلوا له بنين وبنات. وهذا قول ابن عباس.

والثالث: معانه: وصفوا له. قاله الضحاك.

والرابع: يعني: قطعوا له. وهذا قول السدي.

والخامس: يعني: أنهم تخرَّصوا. وهذا مروي عن ابن عباس ، وقتادة -أيضا-.

=

=

والسادس: يريد: افتروا، والخلق والخرق واحد، قاله الفراء.

قال ابن كثير:" معنى قوله تعالى: {وَخَرَقُوا}، أي: واختلقوا وائتفكوا، وتخرّصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف".

وقرأ نافع وحده: «وخرقوا» مشددة الراء، للمبالغة والتكثير، لأن المشركين ادعوا الملائكة بنات الله، والنصارى المسيح. واليهود عزيرا.

وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «وحرفوا» بحاء غير معجمة وبتشديد الراء وبالفاء. وقرأ ابن السميفع، والجحدري: «وخارقوا» بألف وخاء معجمة.

قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنعام: ١٠٠]، أي:" تنزَّه الله وتقدّس وعلا عما نسبه إليه المشركون من ذلك الكذب والافتراء".

قال ابن كثير:" أي: تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد، والنظراء والشركاء".

قال السعدي:"نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} فإنه تعالى، الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، وآفة وعيب".

قال الطبري: يقول: "يقول تعالى ذكره: تنزه الله، وعلا فارتفع عن الذي يصفه به هؤلاء الجهلة من خلقه، في ادّعائهم له شركاء من الجن، واختراقهم له بنين وبنات، وذلك لا ينبغي أن يكون من صفته، لأن ذلك من صفة خلقه الذين يكون منهم الجماع الذي يحدث عنه الأولاد، والذين تضطرّهم لضعفهم الشهواتُ إلى اتخاذ الصاحبة لقضاء اللذات، وليس الله تعالى ذكره بالعاجز فيضطره شيء إلى شيء، و لا بالضعيف المحتاج فتدعوه حاجته إلى النساء إلى اتخاذ صاحبة لقضاء لذة".

عن ابن عباس: قوله:" «سبحان الله»، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء، ثم قال عمر لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله- قد عرفناه، فما سبحان الله؟ فقال له

=

=

علي رضي الله عنه: كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها، وأحب أن تقال".

روي عن ميمون بن مهران: عن «سبحان الله»، فقال: "اسم يعظم الله به، ويحاشى به من السوء".

عن الضحاك في قوله:" {سبحانه} يقول: عجب".

عن قتادة:" {سبحانه وتعالى عما يصفون}، عما يكذبون".

قال الطبري" وأحسب أن قتادة عنى بتأويله: أنهم يكذبون في وصفهم الله بما كانوا يصفونه به، من ادعائهم له بنين وبنات لا أنه وجه تأويل «الوصف» إلى «الكذب»".

قوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنعام: ١٠١]، أي: والله تعالى هو الذي أوجد السموات والأرض وما فيهن على غير مثال سابق".

قال القرطبي:" أي: مبدعهما".

قال البغوي:" أي: مبدعهما لا على مثال سبق".

قال ابن كثير:" أي: مبدع السموات والآرض وخالقهما ومنشئهما ومحدثها على غير مثال سبق.. ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الله الذي جعل هؤلاء الكفرة به له الجنَّ شركاءَ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم: {بديع السماوات والأرض}، يعني: مبتدعها ومحدثها وموجدها بعد أن لم تكن".

قال السدي:" يقول: ابتدعهما فخلقهما، ولم يخلق قبلهما شيئا فيتمثل عليه".

وروي عن مجاهد نحو ذلك.

عن ابن زيد في قوله:" {بديع السماوات والأرض}، قال: هو الذي ابتدع خلقهما جل جلاله، فخلقهما ولم يكونا شيئًا قبله".

قال أبو العالية:"يعني قوله: {بديع السماوات والأرض}، ابتدع خلقها، ولم

=

=

يشركه في خلقها أحد". وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك.

وقرئ: «بديع» بالجر ردا على قوله: {وجعلوا لله}، أو على {سُبْحَانَهُ} [الأنعام: ١٠٠]. وبالنصب على المدح.

قوله تعالى: {أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ} [الأنعام: ١٠١]، أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنما يكون متولدًا عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد.

قال القرطبي: " أي: من أين يكون له ولد. وولد كل شي شبيهه، ولا شبيه له {ولم تكن له صاحبة}، أي: زوجة".

قال السعدي: " أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، الذي لا صاحبة له أي: لا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده".

قال ابن كثير: " أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنما يكون متولدا عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا [تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ * هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٨٨ - ٩٥]".

قال الطبري: " والولد إنما يكون من الذكر والأنثى، ولا ينبغي أن يكون لله سبحانه صاحبة، فيكون له ولد. وذلك أنه هو الذي خلق كل شيء. يقول: فإذا كان لا شيء إلا اللهُ خلقه، فأنّى يكون لله ولد، ولم تكن له صاحبة فيكون له منها ولد؟".

=

=

والله منزه عن الولد لأمور متعددة:

أولًا: لأنه مالك كل شيء، والمالك لا بد أن يكون المملوك مباينًا له في كل الأحوال.

ثانيًا: أنه ليس له زوجة، والابن إنما يكون غالبًا ممن له زوجة، كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ).

ثالثًا: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء، أي: بقاء النوع باستمرار النسل، والرب ﷻ ليس بحاجة إلى ذلك، لأنه الحي الذي لا يموت.

رابعًا: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني).... [قاله الشيخ ابن عثيمين].

قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالًا واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له، وبأنه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذي فِيهِ يَمْتُرُون مَا كَانَ للهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه إِذَا قضى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون) وقال أيضًا في آخر هذه السورة (وَقَالُوا اتخذ الرحمن وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدًّا * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السموات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْدًا).

قوله تعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٠١]، أي: "وهو الذي خلق كل شيء

=

=

من العدم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والله خلق كل شيء، ولا خالق سواه. وكلُّ ما تدَّعون أيها العادلون بالله الأوثان من دونه، خلقُه وعبيده، مِلكًا، كان الذي تدعونه ربًّا وتزعمون أنه له ولد، أو جنيًّا أو إنسيًّا".

قال القرطبي: قوله: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} " عموم معناه الخصوص، أي خلق العالم. ولا يدخل في ذلك كلامه وصفات ذاته. ومثله: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦]، ولم تسع إبليس ولا من مات كافرا. ومثله: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْء} [الأحقاف: ٢٥]، ولم تدمر السماوات والأرض".

قوله تعالى: {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٠١]، أي: ولا يخفى عليه شيء من أمور الخلق".

قال سعيد بن جبير:" يعني: من أعمالكم عليم".

قال الطبري:" يقول: والله الذي خلق كل شيء، لا يخفى عليه ما خلق ولا شيء منه، ولا يعزب عنه مثقالُ ذرة في الأرض ولا في السماء، عالم بعددكم وأعمالكم، وأعمال من دعوتموه ربًّا أو لله ولدًا، وهو محصيها عليكم وعليهم، حتى يجازي كلا بعمله".

قال ابن كثير:" {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه؟ وهو الذي لا نظير له فأنى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا".

قال السعدي:" وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات، وما اشتملت عليه من النظام التام، والخلق الباهر، فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق، وكمال حكمته، كما قال تعالى: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} وكما قال تعالى: {وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ}

=

ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢).

{ذَلِكُمْ الله رَبّكُمْ لَا إلَه إلَّا هُوَ خَالِق كُلّ شَيْء فَاعْبُدُوهُ} وَحِّدُوهُ {وَهُوَ عَلَى كل شيء وكيل} حفيظ[1].

=

ذلكم الذي خلق ما خلق، وقدر ما قدر".

وفي هذه الآية الكريمة، إبطال الولد من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن مبتدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة، لأن الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسما حتى يكون والدا.

والثاني: أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد وهو متعال عن مجانس، فلم يصح أن تكون له صاحبة، فلم تصح الولادة.

والثالث: أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج.

(١) قوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ١٠٢]، أي:" ذلكم -أيها المشركون- هو ربكم جل وعلا الذي خلق كلَّ شيء ولا ولد له ولا صاحبة".

قال السعدي:" أي: المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل، ونهاية الحب، الرب، الذي ربى جميع الخلق بالنعم، وصرف عنهم صنوف النقم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الذي خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم، هو الله ربكم، أيها العادلون بالله الآلهة والأوثان، والجاعلون له الجن شركاء، وآلهتكم التي لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا تفعل خيرًا ولا شرًا".

=

=

قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ١٠٢]، أي:"لا معبود بحق سواه".

قال محمد ابن إسحاق:" أي: ليس معه غيره شريك في أمره".

قال الطبري:"وهذا تكذيبٌ من الله جل ثناؤه للذين زعموا أن الجن شركاء الله. يقول جل ثناؤه لهم: أيها الجاهلون، إنه لا شيء له الألوهية والعبادة، إلا الذي خلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم، فإنه لا ينبغي أن تكون عبادتكم وعبادةُ جميع من في السموات والأرض إلا له خالصة بغير شريك تشركونه فيها".

عن كعب، قال: "{لا إله إلا الله}: كلمة الإخلاص".

قوله تعالى: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ} [الأنعام: ١٠٢]، أي:" خالق كل شيء فانقادوا واخضعوا له بالطاعة والعبادة".

قال الطبري: أي:"فإنه خالق كل شيء وبارئه وصانعه، وحق على المصنوع أن يفرد صانعه بالعبادة، فذلُّوا له بالطاعة والعبادة والخدمة، واخضعوا له بذلك".

قال ابن كثير:" فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل".

قال السعدي: أي:" فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه. فإن هذا هو المقصود من الخلق، الذي خلقوا لأجله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]".

عن ابن عباس:" {اعبدوا}، أي: وحدوا".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الأنعام: ١٠٢]، أي:" وهو سبحانه على كل شيء وكيل وحفيظ، يدبر أمور خلقه".

قال البغوي: أي: "بالحفظ له وبالتدبير فيه".

قال ابن كثير:" أي: حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار".

=

=

قال الطبري: " يقول: والله على كل ما خلق من شيء رقيبٌ وحفيظ، يقوم بأرزاق جميعه وأقواته وسياسته وتدبيره وتصريفه بقدرته".

قال الزمخشري: " يعنى: وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال، رقيب على الأعمال".

قال السعدي: " أي: جميع الأشياء، تحت وكالة الله وتدبيره، خلقا، وتدبيرا، وتصريفا، ومن المعلوم، أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتمامه، وكمال انتظامه، بحسب حال الوكيل عليه. ووكالته تعالى على الأشياء، ليست من جنس وكالة الخلق، فإن وكالتهم، وكالة نيابة، والوكيل فيها تابع لموكله.

وأما الباري، تبارك وتعالى، فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم، وحسن التدبير والإحسان فيه، والعدل، فلا يمكن لأحد أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللا ولا فطورا، ولا في تدبيره نقصا وعيبا.

ومن وكالته: أنه تعالى، توكل ببيان دينه، وحفظه عن المزيلات والمغيرات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم".

قال ابن عاشور: "وجملة (فاعبدوه) مفرّعة على قوله: (ربّكم لا إله إلاّ هو) وقد جعل الأمر بعبادته مفرّعًا على وصفه بالرّبوبيّة والوحدانيّة لأنّ الربوبيّة مقتضية استحقاق العبادة، والانفرادُ بالربوبيّة يقتضي تخصيصه بالعبادة، وقدْ فهم هذا التّخصيص من التّفريع.

فالذي يخلق هو المستحق للعبادة.

كما قال تعالى (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ).

وقال تعالى (هَـذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ. إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي

=

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣).

{لَا تُدْرِكهُ الْأَبْصَار} أَيْ لَا تَرَاهُ وَهَذَا مَخْصُوص لِرُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ فِي الْآخِرَة لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وُجُوه يَوْمئِذٍ نَاضِرَة إِلَى رَبّهَا نَاظِرَة} وَحَدِيث الشَّيْخَيْنِ إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر وَقِيلَ الْمُرَاد لَا تُحِيط بِهِ {وَهُوَ يُدْرِك الْأَبْصَار} أَيْ يَرَاهَا وَلَا تَرَاهُ وَلَا يَجُوز فِي غَيْره أَنْ يُدْرِك الْبَصَر وَهُوَ لَا يُدْرِكهُ أَوْ يُحِيط بِهِ عِلْمًا {وَهُوَ اللَّطِيف} بِأَوْلِيَائِهِ {الْخَبِير} بِهِمْ[1].

=

فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ).

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) أي: حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار.

(١) قوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} [الأنعام: ١٠٣]، أي: "لا تحيط به".

قال القرطبي: " قوله تعالى: {وهو يدرك الأبصار}، أي: لا يخفى عليه شي إلا يراه ويعلمه. إنما خص الأبصار، لتجنيس الكلام".

قال السعدي: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} " أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم. فإنه إذا نفى الإدراك، الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل على أن الرؤية ثابتة، فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال: «لا تراه الأبصار» ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم. {وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ} أي: هو الذي أحاط علمه، بالظواهر

=

=

والبـواطن، وسـمعه بجميـع الأصـوات الظـاهرة، والخفيـة، وبـصره بجميـع المبصرات، صغارها، وكبارها".

اختلف في تفسير قوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} [الأنعام: ١٠٣]، على أقوال:

أحدها: معناه لا تحيط به الأبصار، وهو يحيط بالأبصار. وهذا قول ابن عباس ، وقتادة ، وعطية العوفي ، وهو قول أهل السنة.

قال البغوي:"أما قوله: {لا تدركه الأبصار} علم أن الإدراك غير الرؤية لأن الإدراك هو: الوقوف على كنه الشيء والإحاطة به، والرؤية: المعاينة، وقد تكون الرؤية بلا إدراك، قال الله تعالى في قصة موسى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [الشعراء: ٦١]، {قَالَ كَلّا} [الشعراء: ٦٢]، وقال: {لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [طه: ٧٧]، فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية، فالله ﷻ يجوز أن يرى من غير إدراك وإحاطة كما يعرف في الدنيا ولا يحاط به، قال الله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠]، فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم".

والقول الثاني: معناه: لا تراه الأبصار وهو يرى الأبصار. وهذا قول السدي، وهو قول باطل.

والقول الثالث: لا تدركه أبصار الخلق في الدنيا بدليل قوله: {لاَ تَدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} وتدركه في الآخرة بدليل قوله: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٣] وهو يدرك الأبصار في الدنيا والآخرة.

والرابع: لا تدركه أبصار الظالمين في الدنيا والآخرة، وتدركه أبصار المؤمنين، وهو يدرك الأبصار في الدنيا والآخرة، لأن الإدراك له كرامة تنتفي عن أهل المعاصي.

=

=

والقول الخامس: أن الأبصار لا تدركه في الدنيا والآخرة، ولكن الله يحدث لأوليائه حاسة سادسة سوى حواسهم الخمس يرونه بها، اعتِلاَلًا بأن الله أخبر برؤيته، فلو جاز أن يُرَى في الآخرة بهذه الأبصار وإن زِيْدَ في قواها جاز أن يرى بها في الدنيا وإن ضعفت قواها بأضعف من رؤية الآخرة، لأن ما خُلِقَ لإدراك شيء لا يُعْدَمُ إدراكه، وإنما يختلف الإدراك بحسب اختلاف القوة والضعف، فلما كان هذا مانعًا من الإدراك - وقد أخبر الله تعالى بإدراكه - اقتضى أن يكون ما أخبر به حقًا لا يدفع بالشبه، وذلك بخلق حاسة أخرى يقع بها الإدراك، وهو قول باطل.

القول السادس: أن المراد بقوله: {لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ}، أي: العقول. وهذا قول أبي الحصين يحيى بن الحصين قارئ أهل مكة.

قال ابن كثير:" هذا غريب جدًا، وخلاف ظاهر الآية، وكأنه اعتقد أن الإدراك في معنى الرؤية".

القول السابع: إنه تعالى لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة. وهذا قول المعتزلة، وهو قول باطل.

قال ابن كثير:" وقال آخرون، من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من الآية: إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة. فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله. أما الكتاب، فقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى عن الكافرين: {كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥].

قال الإمام الشافعي: «فدل هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُون عنه تبارك وتعالى».

وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصُهَيْب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه

=

=

وكرمه آمين".

قال البغوي:" يتمسك أهل الاعتزال بظاهر هذه الآية في نفي رؤية الله ﷻ عيانا.

ومذهب أهل السنة: إثبات رؤية الله ﷻ عيانا جاء به القرآن والسنة، قال الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال: {كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥]، قال مالك رضي الله عنه: «لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله الكفار بالحجاب».

وقرأ النبي ﷺ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]» ، وفسره بالنظر إلى وجه الله ﷻ" .

وأخرج الآجري بسنده إلى عبد الله بن وهب قال: "قال مالك - رحمه الله تعالى - "الناس ينظرون إلى الله ﷻ يوم القيامة بأعينهم".

وممن صرح بأن الله ﷻ يرى يوم القيامة بالأبصار وأنكر على من أنكر ذلك. إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رَحِمَهُ اللَّهُ -.

قال الإمام الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر» ، «وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب» ، فالمؤمنون يرونه، والكافرون عنه يومئذ محجوبون، كما قال جل ثناؤه: (كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) [سورة المطففين: ١٥]".

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "فقوله: {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} يدل على غاية عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية.

قال ابن كثير: فيه أقوال للأئمة من السلف: أحدها: لا تدركه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في

=

=

الصحاح والمسانيد والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: من زعم أن محمدًا أبصر ربه فقد كذب. [وفي رواية: على الله] فإن الله يقول (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ).

قال الشنقيطي: قوله تعالى (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) هذه الآية الكريمة توهم أن الله تعالى لا يرى بالأبصار، وقد جاءت آيات أخر تدل على أنه يرى بالأبصار:

كقوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ، وكقوله (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) ، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم.

وكذلك قوله (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) على أحد القولين.

وكقوله تعالى في الكفار (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) ، يفهم من دليل خطابه أن المؤمنين ليسوا محجوبين عن ربهم والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن المعنى: لا تدركه الأبصار أي في الدنيا فلا ينافي الرؤية في الآخرة.

الثاني: أنه عام مخصوص برؤية المؤمنين له في الآخرة، وهذا قريب في المعنى من الأول.

الثالث: وهو الحق: أن المنفي في هذه الآية الإدراك المشعر بالإحاطة بالكنه، أما مطلق الرؤية فلا تدل الآية على نفيه بل هو ثابت بهذه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة واتفاق أهل السنة والجماعة على ذلك.

وحاصل هذا الجواب أن الإدراك أخص من مطلق الرؤية ، لأن الإدراك المراد به الإحاطة، والعرب تقول: رأيت الشيء وما أدركته ، فمعنى لا تدركه الأبصار: لا تحيط به كما أنه تعالى يعلمه الخلق ولا يحيطون به علمًا ، وقد اتفق العقلاء على أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فانتفاء الإدراك لا يلزم منه انتفاء مطلق الرؤية ، مع أن الله تعالى لا يدرك كنهه على الحقيقة أحد من الخلق، والدليل على صحة هذا الوجه ما أخرجه الشيخان من حديث أبي موسى مرفوعًا (حجابه النور

=

=

أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) ، فالحديث صريح في عدم الرؤية في الدنيا ويفهم منه عدم إمكان الإحاطة مطلقًا.

والحاصل أن رؤيته تعالى بالأبصار جائزة عقلًا في الدنيا والآخرة؛ لأن كل موجود يجوز أن يرى عقلًا ، وأما في الشرع فهي جائزة وواقعة في الآخرة ممتنعة في الدنيا ، ومن أصرح الأدلة في ذلك ما رواه مسلم وابن خزيمة مرفوعًا: إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا ، والأحاديث برؤية المؤمنين له يوم القيامة متواترة والعلم عند الله تعالى.

(وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ) أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه ، لأنه خلقها كما قال تعالى (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير).

وقد يكون عبر بالأبصار عن المبصرين، كما قال السُّدِّي في قوله (لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَار) لا يراه شيء وهو يرى الخلائق.

قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٠٣].

قال الطبري:" يقول: والله تعالى ذكره المتيسر له من إدراك الأبصار، والمتأتِّي له من الإحاطة بها رؤيةُ ما يعسر على الأبصار من إدراكها إياه وإحاطتها به ويتعذر عليها، {الخبير}، يقول: العليم بخلقه وأبصارهم، والسبب الذي له تعذر عليها إدراكه، فلطف بقدرته فهيأ أبصار خلقه هيئة لا تدركه، وخبرَ بعلمه كيف تدبيرها وشؤونها وما هو أصلح بخلقه".

قال السعدي: الذي لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك السرائر والخفايا، والخبايا والبواطن. ومن لطفه، أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي، من حيث لا يحتسب، حتى أنه يقدر عليه الأمور، التي يكرهها العبد، ويتألم منها، ويدعو الله أن يزيلها، لعلمه أن دينه أصلح، وأن كماله متوقف

=

=

عليها، فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين".

قال القرطبي:" {اللَّطِيفُ} أي: الرفيق بعباده، يقال: لطف فلان بفلان يلطف، أي رفق به. واللطف في الفعل الرفق فيه. واللطف من الله تعالى التوفيق والعصمة. وألطفه بكذا، أي بره به".

وعن أبي العالية:" {اللطيف} باستخراجها، {الخبير}، بمكانها".

قال ابن كثير:" وهذا كما قال تعالى إخبارا عن لقمان فيما وعظ به ابنه: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ١٦]".

(واللَّطِيفُ) اسم من أسماء الله تعالى.

ينتظم هذا الاسم في ثلاثة معاني:

أولًا: اللطيف: بعباده الرفيق بهم الذي يوصل إليهم مصالحهم بالطرق الخفية، التي لا يشعر بها العبد ، ولا يسعى فيها كقوله - سبحانه (اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيز).

ثانيًا: اللطيف: الذي لطف علمه ودق حتى أحاط بالخفيات من الأمور ، فمن دقة علمه وعظيم إحاطته بخفي ودقيق المعلومات أنه يرى النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء.

ثالثًا: الذي لطف عن أن يحاط به أو يدرك بالكُنه (بالحقيقة) والكيفية، يقول تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ. وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) فقد أحاط سبحانه بجميع الموجودات، ولم يحط به علمًا أحد من خلقه، وإن علموا شيئًا من أسمائه وصفاته، مما تفضل عليهم بتعليمهم إياه، إلا أنهم لم يعلموا حقائقها، ولا كنه ذاته العلية تعالى وتعاظم سبحانه.

- قال السعدي: اللطيف: الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا

=

=

والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى "الخبير" وبمعنى "الرؤوف.

لم يقترن اسم الله اللطيف إلا باسمه الخبير ، ويرجع السبب ، لأن الاسمين يتلاقيان في المعنى... فالله تعالى يطلِّع على بواطن الأمور ويلطف بعباده، فلا يُقدِّر لهم إلا ما فيه الخير.. وقد يخفى على العبد هذا الخير، فيُقابل قضاء الله بالاعتراض ، والله تعالى يقول (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) فلا يلطف بك إلا من عرفك وكان خبيرًا بمواطن ضعفك وقوتك وبكل أحوالك.

(تتمة): لقد انعقد إجماع أهل السنة والجماعة – رحمهم الله تعالى – على أنه جل وعلا يرى رؤية حقيقية في الآخرة على ما يريده جل وعلا من كيفيتها، فالرؤية في الآخرة من المسائل المتفق عليها ومستند هذا الإجماع القرآن والسنة.

وقد ذهبت المعتزلة والجهمية ومن تبعهم من الخوارج والإمامية وبعض الزيدية وبعض المرجئة إلى نفي رؤية الله تعالى عيانا في الدنيا والآخرة، وقالوا: باستحالة ذلك عقلا؛ لأنهم يقولون إن البصر لا يدرك إلا الألوان والأشكال، أي ما هو مادي والله تعالى ذات غير مادية، فمن المستحيل إذن أن يقع عليه البصر، فالقول برؤية الله تعالى هدم للتنزيه وتشويه لذات الله وتشبيه له حيث إن الرؤية لا تحصل إلا بانطباع صورة المرئي في الحدقة، ومن شرط ذلك انحصار المرئي في جهة معينة من المكان حتى يمكن اتجاه الحدقة إليه، ومن المعلوم علم اليقين أن الله تعالى ليس بجسم ولا تحده جهة من الجهات ولو جاز أن يرى في الآخرة لجازت رؤيته الآن. فشروط الرؤية لا تتغير في الدنيا والآخرة. قال ابن رشد في مناهج الأدلة (٨١): "ومن كانت هذه مبادئه فلا يتوقع منه غير هذا إذا كان محترما لها يستنبط منها النتائج المنطقية".

=

=

واستدلوا على هذا بالسمع والعقل:

فمن جهة السمع: أولا قوله تعالى: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الأنعام: ١٠٣]، ووجه الدلالة من الآية كما قال عبد الجبار: هو أنه نفى أن يدرك بالأبصار، وقد علمنا أن الإدراك إذا قرن بالبصر أفاد ما تفيده رؤية البصر، وإذا كان إذا أطلق فقد يستعمل بمعنى اللحوق، فيقال أدرك الغلام إذا بلغ وأدركت الثمرة إذا نضجت، وأدرك فلان فلان إذا لحقه، وقال سبحانه: حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ [يونس:٩٠] يعني لحقه الغرق، وقال سبحانه: فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ [الشعراء: ٦١] يعني لملحوقون، وقد يقال عند الإطلاق أدركت الحرارة والبرودة وأدركت الصوت، وكل ذلك إنما يصح إذا لم يقرن بالبصر، ومتى قرن به زال الاحتمال عنه، فاختص بفائدة واحدة وهي الرؤية بالبصر، فإذا صح ذلك فيجب أن يكون لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام: ١٠٣] في باب الدلالة على أنه لا يرى، بمنزلة قوله لو قال: "لا تراه الأبصار، فثبت أنه نفى عن نفسه إدراك البصر فيتناول جميع الأبصار في جميع الأوقات.

ومما يؤيد العموم أن عائشة رضي الله عنها لما أنكرت قول ابن عباس في أن محمدا ﷺ رأى ربه ليلة المعراج تمسكت في نصرة ما ذهبت إليه بهذه الآية ولو لم تكن هذه الآية مفيدة للعموم بالنسبة إلى كل الأشخاص وكل الأحوال لما تم ذلك الاستدلال، ولا شك أنها من أكثر الناس علما بلغة العرب، فثبت أن هذه الآية دالة على النفي بالنسبة إلى كل الأشخاص وذلك يفيد المطلوب. وأيضا "إن الباري تعالى تمدح بكونه لا يرى، حيث إن قوله: "لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وقعت في أثناء المدائح فإن ما قبلها مشتمل على المدح والثناء، وقوله بعدها وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ [الأنعام: ١٠٣] أيضا مدح وثناء، فيجب أن يكون قوله لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام: ١٠٣] مدحا وثناء، وذلك يوجب الركاكة، وهي غير لائقة بكلام الله

=

=

تعالى وتقدس، وحينئذ نقول: إن كل ما كان عدمه مدحا ولم يكن ذلك من باب الفعل كان ثبوته نقصا في حق الله تعالى، والنقص على الله تعالى محال، لقوله لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ [البقرة: ٢٥٥] وقوله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى: ١١] وقوله لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ [الإخلاص: ٣] إلى غير ذلك، فوجب أن يقال كونه تعالى مرئيا محال. وقد أطال القاضي عبد الجبار في تقرير هذا الدليل وفرض الاعتراضات والرد عليها فقال بعد تقرير وجه الدلالة:

فإن قيل: ولو قلتم إن الإدراك إذا اقترن بالبصر لم يحتمل إلا الرؤية؟

قلنا: لأن الرائي ليس بكونه رائيا حالة زائدة على كونه مدركا، لأنه لو كان أمرا زائدا عليه لصح انفصال أحدهما عن الآخر، إذ لا علاقة بينهما من وجه معقول والمعلوم خلافه.. يبين ما ذكرناه أنه لا فرق بين قولهم: أدركت ببصري هذا الشخص، وبين قولهم رأيت ببصري هذا الشخص، أو أبصرت ببصري هذا الشخص، حتى لو قال أدركت ببصري وما رأيت، أو رأيت وما أدركت لعد مناقضا..

فإن قيل: ولم قلتم إن هذه الآية وردت مورد التمدح؟

قلنا: لأن سياق الآية يقتضي ذلك، وكذلك ما قبلها وما بعدها، لأن جميعه في مدائح الله تعالى، وغير جائز من الحكيم أن يأتي بجملة مشتملة على المدح ثم يخلطها بما ليس بمدح البتة، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول أحدنا:

فلان ورع تقي نقي الجيب مرضي الطريقة أسود يأكل الخبز يصلي بالليل ويصوم بالنهار، لما لم يكن لكونه أسود يأكل الخبز تأثير في المدح.

يبين ذلك: أنه تعالى لما بين تميزه عما عداه من الأجناس بنفي الصاحبة والولد، بين أن تميزه عن غيره من الذوات بأن لا يرى ويرى. وبعد فإن الأمة اتفقوا على أن الآية واردة مورد التمدح فلا كلام في ذلك.

=

=

فإن قيل: وأي مدح في أنه لا يرى القديم تعالى وقد شاركه فيه المعدومات وكثير من الموجودات؟

قلنا: لم يقع التمدح بمجرد أن لا يرى، وإنما يقع التمدح بكونه رائيا ولا يرى، ولا يمتنع في الشيء أن لا يكون مدحا ثم بانضمام شيء آخر إليه يعتبر مدحا وهكذا فلا مدح في نفي الصاحبة والولد مجردا، ثم إذا انضم إليه كونه حيا لا آفة به صار مدحا، وهكذا فلا مدح في أنه لا أول له، فإن المعدومات تشاركه في ذلك، ثم يصير مدحا بانضمام شيء آخر إليه، وهو كونه قادرا عالما حيا سميعا بصيرا موجودا، كذلك في مسألتنا.

فإن قيل: إن ما ليس بمدح إذا انضم إليه ما هو مدح كيف يصير مدحا لا مانع من ذلك فمعلوم أن قوله ﷻ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ [البقرة: ٢٥٥] بمجرده ليس بمدح ثم صار مدحا لانضمامه إلى قوله اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقرة: ٢٥٥].

فإن قيل: فلو جاز فيما ليس بمدح أن يصير مدحا بانضمامه إلى غيره لكان لا يمتنع أن يصير الجهل مدحا بانضمامه إلى الشجاعة وقوة القلب، حتى يحسن أن يمدح الواحد غيره بأنه جاهل قوي القلب شجاع؟

قيل له: إن ما وضع للنقص من الأوصاف نحو قولنا، جاهل وعاجز وما شاكلها. لا تختلف فائدته ولا تتغير حاله لا بالانضمام ولا عدم الانضمام، بل يفيد النقص بكل حال، سواء ضم إلى غيره أو لم يضم، وليس كذلك سبيل ما ليس بمدح ولا نقص فإن ذلك مما لا يمتنع أن يصير مدحا بغيره على ما ذكرناه.

فإن قيل: فجوزوا أن يصير قولنا أسود مدحا بأن ينضم إليه قولنا عالم ومعلوم أن ذلك لا يصير مدحا لما لم يكن مدحا في نفسه، فإذا لم يجز أن يصير مدحا فكذلك لا يجوز في قوله تعالى: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام:١٠٣] أن يصير مدحا بأن ينضم إليه قوله تعالى: وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ.

=

=

قيل له: إنا لم نقل إن ما ليس بمدح، إذا انضم إليه ما هو مدح صار مدحا على كل حال، بل قلنا: إن ما ليس بمدح إذا انضم إليه ما هو مدح وحصل بمجموعهما البينونة صار مدحا، ولم تحصل البينونة بانضمام قولنا أسود إلى قولنا عالم، بخلاف مسألتنا لأنه حصل ههنا بينونة على الوجه الذي ذكرناه. فإن قيل: وما وجه البينونة؟

قلنا: وجه البينونة هو أنه يرى ولا يرى.

فإن قيل: هلا جاز أن تكون جهة التمدح هو كونه قادرا على أن يمنعنا من رؤيته؟

قلنا: هذا تأويل بخلاف تأويل سائر المفسدين، وما هذا سبيله من التأويلات يكون فاسدا، وبعد: فإن هذا حمل خطاب الله تعالى على غير ما تقتضيه حقيقة اللغة ومجازها فلا يجوز.

فإن قيل: ولم قلتم إن هذا المدح يرجع إلى الذات؟

قلنا: لأن المدح على قسمين أحدهما يرجع إلى الذات، والآخر يرجع إلى الفعل، وما يرجع إلى الذات فعلى قسمين:

أحدهما: يرجع إلى الإثبات نحو قولنا قادر عالم حي عليم بصير.

والثاني: يرجع إلى النفي وذلك نحو قولنا لا يحتاج ولا يتحرك ولا يسكن.

وأما ما يرجع إلى الفعل فعلى ضربين أيضا:

أحدهما: يرجع إلى الإثبات نحو قولنا رازق محسن ومتفضل.

والثاني: يرجع إلى النفي وذلك نحو قولنا لا يظلم ولا يكذب.

إذا ثبت هذا فالواجب أن ننظر في قوله لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام:١٠٣] من أي القبيلين هو. لا يجوز أن يكون هذا من قبيل ما يرجع إلى الفعل لأنه تعالى لم يفعل فعلا حتى لا يرى وليس يجب في الشيء إذا لم ير أن يحصل منه فعل حتى لا يرى فإن كثيرا من الأشياء لا ترى وإن لم تفعل أمرا من الأمور كالمعدومات

=

=

وككثير من الأعراض.. ولاشيء إذا لم ير فإنما لم ير لما هو عليه في ذاته لا لأنه يفعل أمرا من الأمور وإذا كان الأمر كذلك صح أن هذا التمدح راجع إلى ذاته على ما نقوله.

فإن قيل: ولم قلتم إن ما كان نفيه مدحا راجعا إلى ذاته كان إثباته نقصا.

قيل له: لأنه لو لم يكن إثباته نقصا لم يكن نفيه مدحا إلا أن نفي السنة والنوم لما كان مدحا كان إثباته نقصا حتى لو قال أحدنا: إنه تعالى ينام. كان هذا أيضا نقصا. وبعد فإنه تعالى إذا لم ير فإنما لم ير بما هو عليه في ذاته فلو رئي وجب أن يكون قد خرج عما هو عليه في ذاته فكان نقصا.

فإن قيل: وأي نقص في أن يرى القديم تعالى وما وجه النقص في ذلك؟

قلنا: لا يلزمنا أن نعلم ذلك مفصلا بل إذا علمنا على الجملة أنه تعالى تمدح بنفي الرؤية عن نفسه مدحا راجعا إلى ذاته، وعلمنا أن ما كان نفيه مدحا يرجع إلى الذات كان إثباته نقصا، وهذا كاف. فإذا أردت التفصيل فلأن في انقلابه وخروجه عما هو عليه في ذاته.

فإن قيل: وما أنكرتم أن المراد بقوله تعالى: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام:١٠٣] أي لا تحيط به الأبصار؟ فنحن هكذا نقول.

قلنا الإحاطة ليس هي بمعنى الإدراك لا في حقيقة اللغة ولا في مجازها ألا ترى أنهم يقولون: السور أحاط بالمدينة، ولا يقولون: أدركها أو أدرك بها، وكذلك يقولون: عين الميت أحاطت بالكافور ولا يقولون أدركته.

وبعد: فإن قبل هذا تأويل بخلاف تأويل المفسرين فلا يقبل، على أنه كما لا تحيط به الأبصار لا يحيط هو بالأبصار لأن المانع عن ذلك في الموضعين واحد فلا يجوز حمل الإدراك المذكور في الآية على الإحاطة لهذه الوجوه.

فإن قيل: لا تعلق لكم بالظاهر، لأن الذي يقتضيه الظاهر هو أن الأبصار لا تراه

=

=

ونحن كذلك نقول.

قيل له: إنه تعالى تمدح بنفي الرؤية عن نفسه فلابد من أن يحمل على وجه يقع به البينونة بينه وبين غيره من الذوات بهذا الذي قد ذكرتموه لأن الأبصار كما لا تراه فكذلك لا ترى غيره.

فإن قيل: لو كان المراد بقوله تعالى: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام: ١٠٣] المبصرون، لوجب مثله في قوله: وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ [الأنعام: ١٠٣] أن يكون المبصرين ليكون النفي مطابقا للإثبات، وهذا يقتضي أن يرى القديم نفسه لأنه من المبصرين وكل من قال إنه تعالى يرى نفسه قال إنه يراه غيره.

قيل له: إنه تعالى وإن كان مبصرا فإنما يرى ما تصح رؤيته، ونفسه يستحيل أن ترى، لما قد بينا أن تمدح بنفي الرؤية مدحا يرجع إلى ذاته، وما كان نفيه راجعا إلى ذاته فإن إثباته نقص والنقص لا يجوز على الله تعالى.

وبعد: فإن المراد بقوله لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام: ١٠٣] المبصرون بالأبصار فكذلك في قوله وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ [الأنعام: ١٠٣] فيجب أن يكون هذا هو المراد ليكون النفي مطابقا للإثبات والله تعالى ليس من المبصرين بالأبصار فلا يلزم ما ذكرتموه.

فإن قيل: قوله تعالى: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام: ١٠٣] عام في دار الدنيا ودار الآخرة وقوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] خاص في دار الآخرة ومن حق العام أن يحمل على الخاص كما أن من حق المطلق أن يحمل على المقيد. وربما يستدل بهذه الآية ابتداء على أنه تعالى يرى في دار الآخرة.

وجوابنا أن العام إنما يبنى على الخاص إذا أمكن تخصيصه، وهذه الآية لا تحتمل التخصيص لأنه تعالى يمدح بنفي الرؤية عن نفسه مدحا يرجع إلى ذاته وما كان

=

=

نفيه مدحا راجعا إلى ذاته كان إثباته نقصا، والنقص لا يجوز على الله تعالى على وجه. وبعد فإن هذه الآية إنما تخصص تلك الآية إذا أفادت أنه تعالى يرى في حال من الحالات وليس في الآية ما يقتضي ذلك لأن النظر ليس هو بمعنى الرؤية، هذا هو الجواب عنه إذا تعلقوا به على هذا الوجه.وزاد الإمامية على ذلك أيضا أوهام القلوب لا تدركه فكيف بأبصار العيون فقالوا في قوله لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ: (أي إحاطة الوهم، ألا ترى إلى قوله قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ليس يعني بصر العيون فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ليس يعني من البصر بعينه وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا [الأنعام: ١٠٤] ليس يعني عمى العيون إنما عنى إحاطة الوهم كما يقال فلان بصير بالشعر، وفلان بصير بالفقه، وفلان بصير بالدراهم، وفلان بصير بالثياب. والله أعظم من أن يرى بالعين.

وبعد استعراضنا لغالب هذه الافتراضات المعارضة وردهم عليها والمحاولات الجادة لكي يسلم لهم الدليل على نفي رؤية الله تعالى نقول: لسنا بحاجة إلى تتبع كل هذه الافتراضات ومناقشتها لأنها مبنية على وجهة استدلال خاطئة وسنبين إن شاء الله الخطأ في وجه الدلالة وهذا كاف لإزاحة الدليل عن مرادهم، فقد بنوا استدلالهم بالآية على وجهين:

الأول: على أن الإدراك المقرون بالبصر لا يحتمل إلا الرؤية وقد نفي والنفي عام في جميع الأوقات والأزمان.

الثاني: أن الله تمدح بكونه لا يرى – على فهمهم – وما كان عدمه مدحا كان وجوده نقصا يجب تنزيه الله عنه.

والجواب على الوجه الأول بأوجه:

الوجه الأول: أن هذا افتراء على اللغة وأنه مجرد دعوى لا دليل عليها وقد رد على هذه الدعوى ابن حزم في الفصل. قال: (واحتجت المعتزلة بقوله ﷻ: لاَّ

=

=
تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ (قال أبو محمد) هذا لا حجة لهم فيه لأن الله تعالى إنما نفى الإدراك، والإدراك عندنا في اللغة معنى زائد على النظر والرؤية وهو معنى الإحاطة ليس هذا المعنى في النظر والرؤية فالإدراك منفي عن الله تعالى على كل حال في الدنيا والآخرة، برهان ذلك قول الله ﷻ: فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [الشعراء: ٦١] وأخبر تعالى أنه رأى بعضهم بعضا فصحت منهم الرؤية لبني إسرائيل ونفى الله الإدراك بقول موسى عليه السلام لهم: قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [الشعراء: ٦١] فأخبر تعالى أنه رأى أصحاب فرعون بني إسرائيل ولم يدركوهم ولا شك في أن ما نفاه الله تعالى غير الذي أثبته فالإدراك غير الرؤية والحجة لقولنا هو الله تعالى.

قال ابن القيم: (فلم ينف موسى عليه السلام الرؤية ولم يريدوا بقولهم إِنَّا لَمُدْرَكُونَ إنا لمرئيون فإن موسى عليه السلام نفى إدراكهم إياهم بقوله كَلا وأخبر الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى [طه: ٧٧]. فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما لا يعلم ولا يحاط به وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من بعدهم من الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ لا تحيط به الأبصار، وقال قتادة هو أعظم من أن تدركه الأبصار، وقال ابن عطية: ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به من عظمته وبصره يحيط بهم.الوجه الثاني: أن تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ موجبة كلية، وقد دخل عليها النفي فرفعها ورفع الموجبة الكلية سالبة جزئية، وبالجملة فيحتمل إسناد النفي إلى الكل ومع احتمال الثاني فلم يبق فيه حجة لكم علينا، لأن أبصار الكفار لا تدركه، هذا على تقدير أن اللام في الجمع للعموم والاستغراق وإلا عكسنا القضية، وقلنا لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ سالبة مهملة في قوة الجزئية فالمعنى لا تدركه
=

=

بعض الأبصار، وتخصيص البعض بالنفي يدل بالمفهوم على الإثبات للبعض، فالآية حجة لنا.

الوجه الثالث: أن قوله تعالى: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام:١٠٣] الآية، وإن عمت في الأشخاص باستغراق اللام، فإنها لا تعم في الأزمان، لأنها سالبة مطلقة لا دائمة. ونحن نقول بموجبه حيث لا يرى في الدنيا.

الوجه الرابع: ويقال لهم على دعوى العموم في لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ كما قال أبو الحسن الأشعري: (إذا كان قول الله ﷻ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ في العموم كقوله وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ [الأنعام:١٠٣] لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر فخبرونا أليس الأبصار والعيون لا تدركه رؤية ولا لمسا ولا ذوقا ولا على وجه من الوجوه؟ فإن قالوا: نعم، فيقال لهم: أخبرونا عن قوله ﷻ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ في العموم كقوله لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ.

الوجه الخامس: قال الألوسي: (قد يقال إن قوله تعالى: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ المراد نفي الرؤية وقد عدم إذن الله تعالى للأبصار بالإدراك. والدليل على صحة إرادة هذا القيد هو أن العباد لا يقدرون على شيء من المقدورات إلا بإذن الله تعالى ومشيئته وتمكينه فلا تدركه الأبصار إلا بإذنه وهو المطلوب. ويؤيد هذا البيان ويشيد أركانه أنه لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام:١٠٣] وقع بعد قوله سبحانه وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ووجه التأييد أن الله تعالى أخبر بأنه على كل شيء وكيل الإيمان متول لأموره ومعلوم أن الأبصار من الأشياء وأن إدراكها من أمورها فهو سبحانه وتعالى متوليها ومتصرف فيها على حسب مشيئته فيفيض عليها الإدراك ويأذن لها إذا شاء كيف شاء وعلى الحد الذي شاء ويقبض عنها الإدراك قبضا كليا أو جزئيا في الإيمان وقوله تعالى: شاء كيف شاء ولا يخفى على هذا أنه غاية التمدح بالعزة والقهر والغلبة فإن من هو على كل شيء وكيل إذا لم تدركه

=

=

الأبصار إلا بإذنه مع كونه يدرك الأبصار ولا تخفى عليه خافية كان ذلك غاية في عزته وقهره وكونه غالبا على أمره.

الوجه السادس: قال الرازي: (هب أن هذه الآية عامة إلا أن الآيات الدالة على إثبات الرؤية لله تعالى خاصة والخاص مقدم على العام.

وذلك مثل قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة:٢٢ - ٢٣] وغيرها فإن هذا خاص بالمؤمنين، ويأتي إن شاء الله بيان أن النظر هو الرؤية البصرية قطعا، وبيان أن إلى حرف جر لا بمعنى النعمة على مدعاكم، وأن المنفي في الآية تمدحا غير الرؤية التي يثبتها أهل السنة وهو الإدراك على وجه الإحاطة. وعلى ذلك يمكن التخصيص. أما الجواب عن الوجه الثاني وهو قولهم: "إن الله تمدح بأن لا يرى.. الخ". نقول هذا الكلام مجرد دعوى فأين الدليل عليها؟ وثبوت المدح في سياق الكلام ليس لكم فيه دليل على امتناع الرؤية، بل لنا فيه الحجة على صحة الرؤية، لأنه يمتنع حصول التمدح بنفي الرؤية لو كان تعالى في ذاته بحيث تمتنع رؤيته بل إنما يحصل التمدح لو كان بحيث تصح رؤيته، ثم إنه تعالى يحجب الأبصار عن رؤيته، قال ابن القيم: (فالنفي يمتنع أن يكون سببا لحصول المدح والثناء، لأن المدح لا يكون إلا بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال، ولا يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إلا إذا تضمن أمرا وجوديا كتمدحه بنفي السنة والنوم، المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيته وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه، ونفي الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته ونفي المثل

=

=

المتضمن لكمال ذاته وصفاته، ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمرا ثبوتيا؛ فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه فلو كان المراد بقوله لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ أنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار والرب جل جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض فإذا المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به كما كان المعنى في قوله: وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ [يونس:٦١] أنه يعلم كل شيء، وفي قوله: وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ [ق: ٣٨] أنه كامل القدرة، وفي قوله: وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف: ٤٩] وفي قوله: لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ [البقرة: ٢٥٥] أنه كامل القيومية، فقوله لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام:١٠٣] يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية كما مر.

ثانيا: من أدلة المعتزلة على نفي الرؤية قوله تعالى: وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ [الأعراف: ١٤٣] فقد استدلوا بالآية على عدم الرؤية من وجوه:

الوجه الأول: قال تعالى: لَن تَرَانِي ولَن موضوعة للتأبيد وإذا لم يره موسى أبدا لم يره غيره إجماعا، قال الزمخشري في معنى لَن: (إنها لتأكيد النفي الذي تعطيه لا وذلك أن لا تنفي المستقبل تقول: لا أفعل غدا فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غدا، والمعنى أن فعله ينافي حالي كقوله تعالى: لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ [الحج: ٧٣] فقوله لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام:١٠٣] نفي للرؤية فيما يستقبل ولَن

=

=

تَرَانِي تأكيد وبيان لأن النفي مناف لصفاته.

فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ بما قبله؟ قلت: اتصل به على معنى أن النظر إلي محال فلا تطلبه، ولكن عليك بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يزحف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به، وكيف أفعله، وكان بسبب طلبك الرؤية لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من علم أثره كأنه عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا [مريم: ٩٠].

قال عبد الجبار بن أحمد: (فإن قالوا: أليس أنه تعالى قال حاكيا عن اليهود: وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [البقرة: ٩٥] أي لا يتمنون الموت ثم قال حاكيا عنهم: وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ [الزخرف: ٧٧] فكيف يقال إن لَن موضوعة للتأبيد؟ قلنا: إن لَن موضوعة للتأبيد ثم ليس يجب أن لا يصح استعمالها إلا حقيقة بل لا يمتنع أن تستعمل مجازا وصار الحال فيها كالحال في قولهم أسد وخنزير وحمار فكما أن موضعها وحقيقتها لحيوانات مخصوصة ثم تستعمل في غيرها على سبيل المجاز والتوسع واستعمالهم في غيرها لا يقدح في حقيقتها كذلك ههنا).

هذا ما قالوا في وجه الدلالة بالنسبة للنفي ب لَن وفي أبديتها له، ومحاولات الرد على ما يرد عليه من اعتراضات ولكن هيهات فقد أسفر الصبح لذي عينين فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذي رين فقولهم: (إن لن موضوعة للتأبيد هذا افتراء على اللغة وليس يشهد بصحته كتاب معتبر ولا نقل صحيح قال الشيخ جمال الدين بن مالك رَحِمَهُ اللهُ: ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقوله أردد وخلافه أعضدا. قال صاحب النحو الوافي: (لَن وهو حرف يفيد النفي بغير دوام ولا تأبيد إلا بقرينة خارجة عنه فإذا دخل على المضارع نفى معناه في الزمن المستقبل المحض غالبا

=

=

نفيا مؤقتا يقصر ويطول من غير أن يدوم ويستمر فمن يقول: لن أسافر، أو لن أشرب، أو لن أقرأ غدا أو نحو هذا فإنما يريد نفي السفر أو غيره في قابل الأزمنة مدة معينة يعود بعدها إلى السفر ونحوه إن شاء ولا يريد النفي الدائم المستمر في المستقبل إلا إن وجدت قرينة مع الحرف لَن تدل على الدوام والاستمرار ويؤيد هذا قوله تعالى حكاية عن مريم: فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا [مريم: ٢٦] إذ لو كانت لَن هنا تفيد تأبيد النفي لوقع التعارض بينها وبين كلمة الْيَوْمَ في الآية؛ لأن اليوم محدد معين، وهي غير محددة ولا معينة، ولوقع التكرار في قوله تعالى فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا [البقرة: ٩٥] فما فائدة كلمة أبدا التي تدل على التأبيد إن كانت لَن تدل عليه ثم مع تقييدها بالتأبيد إن كانت لَن تدل عليه ثم مع تقييدها بالتأبيد هنا لم تدل عليه قال تعالى: وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ [الزخرف: ٧٧] فكيف إذا أطلقت. ومما يؤيد عدم كونها للتأبيد المطلق تحديد الفعل بعدها قال تعالى على لسان ابن يعقوب فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي [يوسف: ٨٠] وقال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في ذكر الدجال: (تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه ﷻ حتى يموت) فهذه الشواهد دليل على عدم اقتضاء لَن النفي المؤبد.

فإن قيل: كيف دلت لَن على التأبيد في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ [الحج: ٧٣]. قلنا: لم تدل لَن على التأبيد هنا إلا بسبب قرينة "خارجية" هي العلم القاطع المستمد من المشاهدة الصادقة الدائمة وليس من ذات دلالة لَن والله أعلم.قال الغزالي: (وأما قوله سبحانه لَن تَرَانِي فهو دفع لما التمسه وإنما التمس في الدنيا فلو قال أرني أنظر إليك في الآخرة فقال: لَن تَرَانِي لكان ذلك دليلا على نفي الرؤية ولكن في حق موسى صلوات الله سبحانه

=

=

وسلامه عليه على الخصوص لا على العموم، وما كان أيضا دليلا على الاستحالة فكيف وهو جواب على السؤال في الحال. فالحاصل: أن لَن هنا لتأكيد نفي ما وقع السؤال عنه، والسؤال إنما وقع عن تحصيل الرؤية في الحال فكان قوله لَن تَرَانِي نفيا لذلك المطلوب، فأما أن تفيد النفي الدائم فلا، وأما عن استشهاد الزمخشري على أن لَن تشعر باستحالة المنفي بها عقلا فمردود بكثير من الآيات كقوله تعالى فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا [التوبة: ٨٣] وقوله تعالى: لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ [هود: ٣٦]، وقوله تعالى: لَّن تَتَّبِعُونَا [الفتح: ١٥]. فإن الأخبار الواردة في هذه الآيات كلها جائزات عقلا لولا أن الخبر منع من وقوعها، فالرؤية كذلك، فدعوى الاستحالة العقلية على هذا باطلة لهذه الآيات وغيرها.

أما دعوى عبد الجبار بن أحمد المجاز في قوله تعالى: وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [البقرة: ٩٥] فمردودة بأن المجاز خلاف الأصل، فإن الأصل الحقيقة، وهذه دعوى لا تقف عند حد، وسهلة يسيرة على كل من كان الدليل ضده، ومخالفا لرأيه، فيرده بدعوى المجاز وأن الحقيقة ما يدعيها، وتنزلا نقول: أين القرينة الدالة على أن المراد خلاف الحقيقة؟ ولا قرينة ههنا فالآية على حقيقتها. ولَن لا تقتضي النفي الأبدي وإن اقتضت فليس يدل على منع الجواز بل على منع وقوع الجائز.

الثاني من أوجه دلالة الآية على استحالة الرؤية عند المعتزلة: قوله تعالى: وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي [الأعراف:١٤٣] ووجه الدلالة كما قال عبد الجبار: (هو أنه علق الرؤية باستقرار الجبل فلا يخلو: إما أن يكون علقها باستقراره بعد تحركه وتدكدكه، أو علقها به حال تحركه لا يجوز أن تكون الرؤية علقها باستقرار الجبل، لأن الجبل قد استقر ولم ير موسى ربه، فيجب أن يكون

=

=

قد علق ذلك باستقرار الجبل بحال تحركه دالا بذلك على أن الرؤية مستحيلة عليه، كاستحالة استقرار الجبل حال تحركه، ويكون هذا بمنزلة قوله تعالى: وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ [الأعراف: ٤٠]. والجواب: أنه علقها باستقرار الجبل من حيث هو من غير قيد بحال الحركة أو السكون، وإلا لزم الاحتمال في الكلام، واستقرار الجبل من حيث هو ممكن قطعا، فلو فرض وقوعه لما لزم منه محال لذاته، واستقراره عند حركته ليس بمحال، إذ قد يحصل الاستقرار بدل الحركة ولا محذور فيه، إذ المحال الاستقرار مع الحركة في آن واحد، لا وقوع شيء منهما في وقوله تعالى: آخر بدل صاحبه.

الثالث من أوجه دلالة الآية على استحالة الرؤية عند المعتزلة: قوله تعالى: وَخَرَّ موسَى صَعِقًا [الأعراف:١٤٣] ولو كانت الرؤية جائزة فلم خر موسى عند سؤالها؟ قال الزمخشري: وَخَرَّ موسَى صَعِقًا من هول ما رأى.. ومعناه خر مغشيا عليه غشية كالموت، وروي أن الملائكة مرت عليه وهو مغشي عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة. بناء على هذا حكموا بامتناع الرؤية على الله تعالى.

والحق أنه ليس فيها دلالة على المنع بل إن دلالتها على الجواز أقرب، فإن الصعق لم يحدث لموسى عليه السلام إلا عندما رأى الجبل يتدكدك لما تجلى له الرب تبارك وتعالى ظهورا، أو على القول أن موسى رأى الله - على ضعفه - فصعق، وهذا يدل على الجواز وإنما كان الصعق نتيجة عدم تحمل موسى رؤية الله تعالى في هذه الدار الفانية. أما ما أورد الزمخشري من مرور الملائكة على موسى وهو صعق.. الخ. فقد علق عليها الإسكندري قائلا: (فهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عونا وظهرا على المعتقد الفاسد. والوجه التورك

=

=

بالغلط على ناقلها، وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى صفي الله وكليمه بالوكز بالرجل والغمص في الخطاب.

وهل مثل هذه الرواية يحتج بها على عدم الرؤية؟ أو يستشهد بها وأنتم تردون الأحاديث الثابتة عن الرسول ﷺ؟ والمنقولة نقلا صحيحا بحجة أنها آحاد، فما أكثر تناقض من يسلك غير سبيل المؤمنين ويتخذ إلهه هواه.

الرابع من أوجه دلالة الآية على استحالة الرؤية عند المعتزلة: قوله تعالى: حكاية عن موسى عليه السلام: فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ [الأعراف:١٤٣] أي أنزهك مما لا يجوز عليك. قال الرازي عند حكايته للأوجه التي استدل بها المعتزلة على نفي الرؤية من الآية: قوله سُبْحَانَكَ الكلمة للتنزيه فوجب أن يكون المراد منه تنزيه الله تعالى عما تقدم ذكره، والذي تقدم ذكره هو رؤية الله تعالى. فكان قوله سُبْحَانَكَ تنزيها له عن الرؤية، فثبت بهذا أن نفي الرؤية تنزيه لله تعالى، وتنزيه الله إنما يكون عن النقائص والآفات وذلك على الله محال فثبت أن الرؤية على الله ممتنعة).

هكذا قالوا في تأويلها، وصحيح أن المراد هو تنزيه الله تعالى وتعظيمه وإجلاله عن أن يتحمل رؤيته من كتب عليه الفناء حتى لا يتعارض مع ما ورد من إثبات الرؤية عن الله وعن رسوله ﷺ في دار الآخرة، والرؤية ليست من النقائص على ما يدعيه نفاتها فهي ليست نقصا في المخلوق بل هي كمال وكل كمال اتصف به المخلوق، وأمكن أن يتصف به الخالق فالخالق أولى به، وقد أثبتها الله لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، وطلبها موسى عليه السلام، فكيف يصح أن ندعي أنها من النقائص ومن أين لنا القول في هذا؟ إلا إذا كان فروخ اليونان أعرف بما يجوز على الله ويمتنع من نفسه، وأعرف من رسله عليهم الصلاة والسلام تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

الخامس من أوجه دلالة الآية على استحالة الرؤية عند المعتزلة:

=

=

قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام لما أفاق أنه قال: تُبْتُ إِلَيْكَ ولولا أن طلب الرؤية ذنب لما تاب منه، ولولا أنه ذنب ينافي صحة الإسلام لما قال: وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قال الزمخشري: تُبْتُ إِلَيْكَ من طلب الرؤية وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بأنك لست بمرئي ولا تدرك بشيء من الحواس.

قال: فإن قلت: فإن كان طلب الرؤية لقومه على ما قلت فمم تاب؟ قلت: من إجرائه تلك المقالة العظيمة - وإن كان لغرض صحيح - على لسانه من غير إذن فيه من الله تعالى.

قال الباقلاني: (ويقال لهم في قوله تعالى: تُبْتُ إِلَيْكَ أنه لم يقل جل اسمه أنه تاب من مسألته إياه الرؤية فيمكن أن يكون ذكر ذنوبا له قد قدم التوبة منها، فجدد التوبة عند ذكرها لهول ما رأى، كما يسارع الناس إلى التوبة ويجددونها عند مشاهدة الهول والآيات، ويحتمل أن يكون المعنى في قوله: تُبْتُ إِلَيْكَ من ترك استئذاني لك في هذه المسألة العظيمة، ومثلها ما لا يكون معه تكليف لمعرفتك والعلم بك. ويحتمل أن يكون أراد بقوله: تُبْتُ إِلَيْكَ أن أسألك الرؤية لهول ما أصابني لا لأنها مستحيلة عليك، ولا لأني عاص في سؤالي، كما يقول القائل: تبت من كلام فلان ومعاملته وركوب البحر ومن الحج ماشيا، إذا ناله في ذلك تعب ونصب وشدة وإن كان ذلك مباحا حسنا جائزا، والتوبة هي الرجوع عن الشيء، ومن ذلك سمي الإقلاع عن الذنوب والعود إلى طاعة الله تعالى توبة منها قوله تعالى: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [التوبة: ١١٨] أي رجع بهم إلى الفضل والامتثال ليرجعوا عما كانوا عليه، فقوله: تُبْتُ إِلَيْكَ أي رجعت عن سؤالي إياك الرؤية، وهذا هو أصل التوبة وليس الرجوع عن الشيء يقتضي كونه عصيانا فبطل تعلقهم بالآية.

قال القرطبي: (قال مجاهد في قوله تُبْتُ إِلَيْكَ من مسألة الرؤية في الدنيا.. وقيل

=

=

قاله على جهة الإنابة والخشوع له عند ظهور الآيات - كما مر -. وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية).

قال الرازي: قوله تعالى: وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ يعني أول المصدقين أنه لا يراك أحد في الدنيا. أو يقال: وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بأنه لا يجوز السؤال منك إلا بإذنك.

وسيأتي إن شاء الله تعالى للبحث زيادة عند الاستدلال بهذه الآية عند أهل السنة.

ثالثا: مما استدلوا به على نفي قولهم: إن الله تعالى ما ذكر سؤال الرؤية في موضع من كتابه إلا واستعظمه، وورد ذكر ذلك في ثلاث آيات:

الأولى: قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا [الفرقان: ٢١].

وطالب الممكن لا يكون عاتيا مستكبرا بل يكون بمنزلة طلب سائر المعجزات.

الثانية: قوله تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ [البقرة: ٥٥].

ولو أمكنت الرؤية لما عاقبهم بسؤالها في الحال.

الثالثة: قوله تعالى: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا [النساء: ١٥٣]. فقد سمى الله تعالى ذلك السؤال ظلما وجازاهم به في الحال بأخذ الصاعقة، ولو جاز كونه مرئيا لكان سؤالهم هذا سؤالا لمعجزة زائدة، ولم يكن ظلما ولا سببا للعقاب.

والجواب عن هذا: أن الاستعظام إنما كان لطلبهم الرؤية تعنتا وعنادا. قال أبو الحسن الأشعري: (إن بني إسرائيل سألوا رؤية الله ﷻ عن طريق الإنكار لنبوة موسى، وترك الإيمان به حتى يروا الله، لأنهم قالوا: لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ

=

=

جَهْرَةً فلما سألوه الرؤية عن طريق ترك الإيمان بموسى عليه السلام حتى يريهم الله سؤالهم من غير أن تكون الرؤية مستحيلة عليه، كما استعظم الله سؤال أهل الكتاب أن ينزل عليهم كتابا من السماء من غير أن يكون ذلك مستحيلا ولكن لأنهم أبوا أن يؤمنوا بنبي الله حتى ينزل عليهم من السماء كتابا).

كما أنكر قول من قال: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا إلى قوله أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ [الإسراء:٩٣] لأنه إنما كان على وجه الاستخفاف بالرسل والتمرد لا على طلب الزيادة في العلم، ولو كان طلب الرؤية ممتنعا في ذاته لمنعهم موسى عليه السلام عن ذلك، كما منعهم حين طلبوا أمرا ممتنعا، وهو أن يجعل لهم صنما إلها يعبدونه كما يفعل غيرهم إذ قال لهم: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ [الأعراف: ١٣٩].

ولا يتصور سكوت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن بيان الحق لأممهم وخاصة فيما يتعلق بالذات الإلهية مما يجوز ويمتنع فلما لم يحصل من موسى عليه السلام إنكار على من طلب الرؤية دل ذلك على جوازها.

رابعا: من أدلتهم السمعية قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ [الشورى: ٥١].

ووجه الدلالة: أن الله تبارك وتعالى نفى كلامه لأحد من البشر إلا من هذه الطرق الثلاثة:

١- الوحي:

وهو القذف في الروع، أي أن الله تبارك وتعالى يقذف في قلب النبي شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، وهو مثل ما حصل لأم موسى. أو يكون رؤيا منام ورؤيا الأنبياء وحي.

=

=

٢- الكلام بلا وساطة ومن وراء حجاب:

وذلك مثل كلام اله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ عندما عرج به إلى السماء، وكما كلم موسى عليه السلام، وقد سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها.

٣- إرسال الرسل:

وهو الملك الذي ينزل بالوحي كما ينزل جبريل عليه السلام أو غيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وإذا لم يره من يكلمه في وقت الكلام لم يره في غيره إجماعا، وإذا لم يره هو أصلا لم يره غيره أيضا إذ لا قائل بالفرق ، يؤيد هذا ما جاء في حديث مسروق قال: (كنت متكئا عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن، قالت: من زعم أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئا فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله ﷻ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ [التكوير: ٢٣]، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى [النجم: ١٣]، فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه فقال: (إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين. رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض)، فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ [الشورى: ٥١].... الحديث.والجواب: كما قال صاحب المواقف (أن التكليم وحيا وقد يكون حال الرؤية فإن الوحي كلام يسمع بسرعة وماذا فيه من الدليل على نفي الرؤية).

واستدلال عائشة رضي الله عنها بالآية على نفي الرؤية للنبي ﷺ لربه، هذا حق، لأن النفي منصب على وقوع الرؤية في الدنيا - ولم تقع لأحد على الصحيح - وليس لنفي جواز الرؤية مطلقا كما يستدل به النفاة من الجهمية والمعتزلة والإمامية وغيرهم

=

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤).

قُلْ يَا مُحَمَّد لَهُمْ {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِر} حجج {من ربكم فمن أبصر} ها فَآمَنَ {فَلِنَفْسِهِ} أَبْصَرَ لِأَنَّ ثَوَاب إبْصَاره لَهُ {وَمَنْ عَمِيَ} عَنْهَا فَضَلَّ {فَعَلَيْهَا} وَبَال إضْلَاله {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} رَقِيب لِأَعْمَالِكُمْ إنَّمَا أنا نذير.

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥).

{وَكَذَلِكَ} كَمَا بَيَّنَّا مَا ذُكِرَ {نُصَرِّف} نُبَيِّن {الْآيَات} لِيَعْتَبِرُوا {وَلِيَقُولُوا} أَيْ الْكُفَّار فِي عَاقِبَة الأمر {دارست} ذَاكَرْت أَهْل الْكِتَاب وَفِي قِرَاءَة دَرَسْت أَيْ كتب الماضين وجئت بهذا منها {ولنبينه لقوم يعلمون}[1].

=

وجمهور أهل السنة على أن الرؤية في الدنيا وإن كانت جائزة إلا أنها لم تقع فيها.

(١) قوله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأنعام: ١٠٤]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: قد جاءتكم براهين ظاهرة تبصرون بها الهدى من الضلال، مما اشتمل عليها القرآن، وجاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام".

قال الزجاج:" أي: قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر".

قال البغوي:"يعني: الحجج البينة التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل".

قال السعدي:"أي: آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار، لما

=

=

اشتملت عليه من فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة، لأنها صادرة من الرب، الذي ربى خلقه، بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها، تبيين الآيات، وتوضيح المشكلات".

قال القرطبي:" {بَصَائِرُ}، أي: آيات وبراهين يبصر بها ويستدل، جمع بصيرة وهي الدلالة".

قال الطبري:" وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه نبيَّه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين نبَّههم بهذه الآيات من قوله: {إن الله فالق الحب والنوى} إلى قوله: {وهو اللطيف الخبير}، على حججه عليهم، وعلى سائر خلقه معهم، العادلين به الأوثان والأنداد، والمكذبين بالله ورسوله محمد ﷺ وما جاءهم من عند الله، قل لهم يا محمد: {قد جاءكم}، أيها العادلون بالله، والمكذبون رسوله، {بصائر من ربكم}، أي: ما تبصرون به الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر".

قال ابن كثير:" البصائر: هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول ﷺ".

قال الزمخشري:" «البصيرة»: نور القلب الذي به يستبصر، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر، أى: جاءكم من الوحى، والتنبيه على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر".

عن ابن زيد:" «البصائر»: الهدى، بصائر في قلوبهم لدينهم، وليست ببصائر الرؤوس. وقرأ: {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج: ٤٦]، وقال: إنما الدين بصره وسمعه في هذا القلب".

وعن قتادة:" {قد جاءكم بصائر من ربكم}، أي: بينة".

و «البصائر»: جمع «بصيرة»، ومنه قول لأسعر الجعفي:

حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَى

=

=

قوله تعالى: {فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ} [الأنعام: ١٠٤]، أي:" فمَن تبيَّن هذه البراهين وآمن بمدلولها فنَفْعُ ذلك لنفسه".

قال الزجاج:" المعنى: فلنفسه نفع ذلك".

قال البغوي:" أي: فمن عرفها وآمن بها فلنفسه عمل، ونفعه له".

قال الزمخشري: أي:"فمن أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر وإياها نفع".

قال الطبري: أي:" فمن تبين حجج الله وعرَفها وأقرَّ بها، وآمن بما دلّته عليه من توحيد الله وتصديق رسوله وما جاء به، فإنما أصاب حظ نفسه، ولنفسه عمل، وإياها بَغَى الخير".

قال ابن كثير:" {فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ} مثل قوله: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [الإسراء: ١٥]".

قال القرطبي:" «الإبصار»: هو الإدراك بحاسة البصر، أي فمن استدل وتعرف فنفسه نفع".

قال السعدي:" {فَمَنْ أَبْصَرَ} بتلك الآيات، مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها {فَلِنَفْسِهِ} فإن الله هو الغني الحميد".

ووصف الدلالة بالمجيء لتفخيم شأنها؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس؛ كما يقال: جاءت العافية وقد انصرف المرض ، وأقبل السعود وأدبر النحوس.

قوله تعالى: {وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا} [الأنعام: ١٠٤].

يعني ومن جهل ولم يعرف الآيات ولم يستدل بها إلى الطريق ، وزجر فلم ينزجر ، وبيّن له الحق فما انقاد له ولا تواضع (فعليها) يعني فعلى نفسه عمى ولها ضر ،وكان وبال ذلك العمى عليه لأن الله تعالى غني عن خلقه.

قال الزجاج:" أي: فعلى نفسه ضرر ذلك، لأن الله جل ثناؤه غني عن خلقه".

=

=

قال ابن كثير:" أي: فإنما يعود وبال ذلك عليه، كقوله: {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦]".

قال البغوي:" أي: من عمي عنها فلم يعرفها ولم يصدقها فعليها، أي: فبنفسه ضر، ووبال العمى عليه".

قال الزمخشري: أي:"ومن عمي عنه فعلى نفسه عمى وإياها ضر بالعمى".

قال القرطبي: أي:" لم يستدل، فصار بمنزلة الأعمى، فعلى نفسه يعود عماه".

قال الطبري: "يقول: ومن لم يستدلّ بها، ولم يصدق بما دلَّته عليه من الإيمان بالله ورسوله وتنزيله، ولكنه عمي عن دلالتها التي تدل عليها، يقول: فنفسَه ضر، وإليها أساء لا إلى غيرها".

قال السعدي:" {وَمَنْ عَمِيَ} بأن بُصِّر فلم يتبصر، وزُجِر فلم ينزجر، وبين له الحق، فما انقاد له ولا تواضع، فإنما عماه مضرته عليه".

قوله تعالى: {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [الأنعام: ١٠٤]، أي:" وما أنا عليكم بحافظ أحصي أعمالكم، وإنما أنا مبلغ، والله يهدي مَن يشاء ويضل مَن يشاء وَفْق علمه وحكمته".

قال ابن كثير:" أي: بحافظ ولا رقيب، بل أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء".

قال البغوي: أي:"برقيب أحصي عليكم أعمالكم، إنما أنا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أفعالكم".

قال الزمخشري: {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}، "أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم".

قال الزجاج:" أي: فعلى نفسه ضرر ذلك، لأن الله جل ثناؤه غني عن خلقه".

قال الطبري:" يقول: وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم،

=

=

وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والله الحفيظ عليكم، الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم".

قال القرطبي: " أي: لم أومر بحفظكم على أن تهلكوا أنفسكم".

وفي نسخ قوله تعالى: {فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [الأنعام: ١٠٤]، قولان:

أحدهما: أن هذه الآية تتضمن ترك قتال الكفار ثم نسخت بآية السيف. ذكره ابن حزم ، وابن سلامة.

قال الزجاج:" قوله: {وما أنا عليكم بحفيظ}، أي: لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ والوكيل، وهذا قبل الأمر بالقتال، فلما أمر النبي ﷺ بالقتال صار حفيظا عليهم ومسيطرا على كل من تولى".

والثاني: أن المعنى: لست رقيبا عليكم أحصي أعمالكم، فهي على هذا محكمة. فسره بذلك الطبري ، وهو اختيار مكي بن أبي طالب.

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ} [الأنعام: ١٠٥]، أي:" وكما بيَّنَّا في هذا القرآن للمشركين البراهين الظاهرة في أمر التوحيد والنبوة والمعاد نبيِّن لهم البراهين في كل ما جهلوه".

قال القرطبي: " أي: نصرف الآيات مثل ما تلونا عليك. أي: كما صرفنا الآيات في الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه في هذه السورة نصرف في غيرها".

قال ابن كثير: " أي: وكما فصلنا الآيات في هذه السورة، من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها في كل موطن لجهالة الجاهلين".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: كما صرفت لكم، أيها الناس، الآيات والحجج في هذه السورة، وبينتها، فعرفتكموها، في توحيدي وتصديق رسولي وكتابي ووقَّفتكم عليها، فكذلك أبيِّن لكم آياتي وحججي في كل ما جهلتموه فلم تعرفوه

=

=

من أمري ونهيي".

قال البغوي: {نُصَرِّفُ الْآيَاتِ}، أي:" نفصلها ونبينها في كل وجه".

عن السدي:" {وكذلك نصرف الآيات}، لهؤلاء العادلين بربهم، كما صرفتها في هذه السورة، ولئلا يقولوا: {درسْتَ}".

قوله تعالى: {وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ} [الأنعام: ١٠٥]، أي:" أي وليقول المشركون درست يا محمد في الكتب وقرأت فيها وجئتَ بهذا القرآن".

قال السدي:" يعني: دراسة القرآن".

قال ابن كثير: أي:" وليقول المشركون والكافرون المكذبون: دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وقارأتهم وتعلمت منهم".

قال القرطبي:" أي نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست".

قال الشنقيطي: يعني ليزعموا إن النَّبي ﷺ إنما تعلم هذه القرآن بالدرس والتعليم من غيره من أهل الكتاب، كما زعم كفار مكة أنه ﷺ تعلم هذا القرآن من جبر ويسار، وكانا غلامين نصرانيين بمكة، وقد أوضح الله تعالى بطلان افترائهم هذا في آيات كثيرة كقوله (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) ، وقوله (فَقَالَ إِنْ هذآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هذآ إِلاَّ قَوْلُ البشر سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) ، ومعنى يؤثر: يرويه محمد ﷺ عن غيره في زعمهم الباطل، وقوله (وَقَالَ الذين كفروا إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض) الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وفي قوله تعالى: {وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ} [الأنعام: ١٠٥]، خمس قراءات يختلف تأويلها بحسب اختلافها:

=

=

إحداهن: «دَرَسْتَ»، بمعنى: قرأت وتعلمت من أهل الكتاب، تقول ذلك قريش للنبي -ﷺ-، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي ، وأبي بن كعب.

والثانية: «دَارَسْتَ»، بجزم السين، ونصب التاء، بمعنى: ذاكرت وقارأت، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومروي عن ابن عباس ، وهي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو.

وفيها على هذه القراءة تأويل ثانٍ، أنها بمعنى خاصمت وجادلت. وهو قول ابن عباس.

والثالثة: «دَرَسَتْ»، بتسكين التاء، بمعنى: انمحت وتقادمت، قاله ابن الزبير ، والحسن ، وهي قراءة ابن عامر ، وابن مسعود.

والرابعة: «دُرِسَتْ»، بضم الدال، لما لم يسم فاعله تليت وقرئت، قاله قتادة.

والخامسة: «دَرَسَ»، بمعنى: قرأ النبي -ﷺ- وتلا، وهذا حرف أبي بن كعب ، وابن مسعود.

قال ابن كثير:" وهذا غريب، فقد روي عن أبي بن كعب خلاف هذا".

قال الطبري:"وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب، قراءة من قرأه: {وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ}، بتأويل: قرأتَ وتعلمت؛ لأن المشركين كذلك كانوا يقولون للنبي ﷺ، وقد أخبر الله عن قيلهم ذلك بقوله: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [سورة النحل: ١٠٣]. فهذا خبرٌ من الله ينبئ عنهم أنهم كانوا يقولون: إنما يتعلم محمد ما يأتيكم به من غيره. فإذ كان ذلك كذلك، فقراءة: {وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ}، يا محمد، بمعنى: تعلمت من أهل الكتاب، أشبهُبالحق، وأولى بالصواب من قراءة من قرأه: «دارسْتَ»، بمعنى: قارأتهم وخاصمتهم، وغير ذلك من القراءات".

=

=

قوله تعالى: {وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأنعام: ١٠٥]، أي:" ولنبين -بتصريفنا الآيات- الحقَّ لقوم يعلمونه، فيقبلونه ويتبعونه".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كما صرفنا الآيات والعبر والحجج في هذه السورة لهؤلاء العادلين بربهم الآلهة والأنداد، كذلك نصرف لهم الآيات في غيرها، كيلا يقولوا لرسولنا الذي أرسلناه إليهم::إنما تعلمت ما تأتينا به تتلوه علينا من أهل الكتاب، فينزجروا عن تكذيبهم إياه، وتقوُّلهم عليه الإفك والزور، ولنبين بتصريفنا الآيات الحقَّ، لقوم يعلمون الحق إذا تبيَّن لهم فيتبعوه ويقبلوه، وليسوا كمن إذا بُيِّن لهم عَمُوا عنه فلم يعقلوه، وازدادوا من الفهم به بعدًا".

قال ابن كثير:" أي: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه. فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء. كما قال تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ} [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [الحج: ٥٣] وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ} [المدثر: ٣١]. وقال تعالى: {وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا} [الإسراء: ٨٢] وقال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت: ٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء: ولهذا قال هاهنا: {وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ

=

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦).

{اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْك مِنْ رَبّك} أَيْ القرآن {لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين}[1].

= الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}".

روي عن ابن عباس:" {يعلمون}، يقول: يعقلون".

(١) قوله تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [الأنعام: ١٠٦].

يقول تعالى آمرا لرسوله ﷺ ولمن اتَّبع طريقته (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) أي: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مِرْية فيه ، لأنه لا إله إلا هو.

قال البغوي:" يعني: القرآن اعمل به".

قال القرطبي:" يعني: القرآن، أي: لا تشغل قلبك وخاطرك بهم، بل اشتغل بعبادة الله".

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرا لرسوله ﷺ ولمن اتَّبع طريقته: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}، أي: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مِرْية فيه".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: اتبع، يا محمد، ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك، فاعمل به، وانزجر عما زجرك عنه فيه، ودع ما يدعوك إليه مشركو قومك من عبادة الأوثان والأصنام".

قال الخازن: الخطاب للنبي ﷺ يعني اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك وهو القرآن فاعمل به وبلغه إلى البادي ولا تلتفت إلى قول من يقول:

=

=

دارست أو درست.

وفي قوله اتبع ما أوحي إليك من ربك تعزية لقلب النبي ﷺ وإزالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم درست.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبّكَ) استئناف في خطاب النّبي عليه الصّلاة والسّلام لأمره بالإعراض عن بهتان المشركين وأن لا يكترث بأقوالهم ، فابتداؤه بالأمر باتّباع ما أوحي إليه يتنزّل منزلة المقدّمة للأمر بالإعراض عن المشركين ، وليس هو المقصد الأصلي من الغرض المسوق له الكلام ، لأنّ اتّباع الرّسول ﷺ ما أوحي إليه أمر واقع بجميع معانيه؛ فالمقصود من الأمر الدّوام على اتّباعه.

والمعنى: أعرض عن المشركين اتّباعًا لما أنزل إليك من ربّك ، والمراد بما أوحي إليه القرآن.

قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ١٠٦]، أي:" أي لا معبود بحقٍ إلا هو".

عن ابن عباس، "قوله: {لا إله إلا هو: توحيد}".

قال الطبري: أي: "فإنه لا إله إلا هو. يقول: لا معبود يستحق عليك إخلاص العبادة له إلا الله الذي هو فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح، وجاعلُ الليل سكنًا، والشمسَ والقمر حسبانًا".

قوله تعالى: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٠٦].

قال البغوي: يعني: "فلا تجادلهم".

قال الطبري:" يقول: ودع عنك جدالهم وخصومتهم. ثم نسخ ذلك جل ثناؤه بقوله في براءة: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}، الآية [سورة التوبة: ٥]".

قال ابن كثير:" أي: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم. واعلم أن لله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى

=

=

الناس كلهم جميعا ولو شاء الله لجمعهم على الهدى".

عن ابن عباس: "أما قوله: {وأعرض عن المشركين} ونحوه، مما أمر الله المؤمنين بالعفو عن المشركين، فإنه نسخ ذلك قوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}".

قال ابن عطية في تفسير هذه الآية:" هذان أمران للنبي ﷺ مضمنهما الاقتصار على اتباع الوحي وموادعة الكفار. وذلك كان في أول الإسلام ثم نسخ الإعراض عنهم بالقتال والسوق إلى الدين طوعا أو كرها".

وقال مكي بن أبي طالب -بعد عزوه دعوى النسخ إلى ابن عباس بدون إسناد-: "وأكثر الناس على أنها محكمة وأن المعنى لا ينبسط إلى المشركين، من قولهم: أوليته عرض وجهي، وهذا المعنى لا يجوز أن ينسخ. لأنه لو نسخ لصار المعنى: أبسط إليهم وخالطهم، وهذا لا يؤثر به ولا يجوز".

قال ابن عاشور: والمراد بالإعراض عن المشركين الإعراض عن مكابرتهم وأذاهم لا الإعراض عن دعوتهم ، فإنّ الله لم يأمر رسوله ﷺ بقطع الدّعوة لأي صنف من النّاس ، وكلّ آية فيها الأمر بالإعراض عن المشركين فإنّما هو إعراض عن أقوالهم وأذاهم ، ألا ترى كلّ آية من هذه الآيات قد تلتْها آيات كثيرة تدعو المشركين إلى الإسلام والإقلاع عن الشّرك كقوله تعالى في سورة النساء (فأعرض عنهم وعِظْهُم).

قال الرازي: قوله تعالى (وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين) فقيل: المراد ترك المقابلة ، فلذلك قالوا إنه منسوخ ، وهذا ضعيف لأن الأمر بترك المقابلة في الحال لا يفيد الأمر بتركها دائمًا ، وإذا كان الأمر كذلك لم يجب التزام النسخ.

وقيل المراد ترك مقابلتهم فيما يأتونه من سفه ، وأن يعدل صلوات الله عليه إلى الطريق الذي يكون أقرب إلى القبول وأبعد عن التنفير والتغليظ.

وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧).

{وَلَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاك عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} رَقِيبًا فَتُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ {وَمَا أَنْت عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} فَتُجْبِرهُمْ عَلَى الْإِيمَان وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْقِتَالِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا} [الأنعام: ١٠٧]، أي:" ولو شاء الله تعالى أن لا يشرك هؤلاء المشركون لما أشركوا، بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

قال ابن عباس:" يقول الله تبارك وتعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين".

قال البغوي:" أي: لو شاء لجعلهم مؤمنين".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: أعرض عن هؤلاء المشركين بالله، ودع عنك جدالهم وخصومتهم ومسابَّتهم {ولو شاء الله ما أشركوا}، يقول: لو أراد ربُّك هدايتهم واستنقاذهم من ضلالتهم، للطف لهم بتوفيقه إياهم فلم يشركوا به شيئًا، ولآمنوا بك فاتبعوك وصدَّقوا ما جئتهم به من الحق من عند ربك".

قال ابن كثير:" أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون".

قال العثيمين:"أن الله تعالى أخبر أن شركهم واقع بمشيئته تسلية لرسوله ﷺ لا دفاعًا عنهم، وإقامة للعذر لهم، بخلاف احتجاج المشركين على شركهم بمشيئة الله، فإنما قصدوا به دفع اللوم عنهم وإقامة العذر على استمرارهم على الشرك؛ =

=

ولهذا أبطل الله احتجاجهم ولم يبطل أن شركهم واقع بمشيئته".

قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [الأنعام: ١٠٧]، أي:" وما جعلناك - أيها الرسول- عليهم رقيبًا تحفظ عليهم أعمالهم".

قال البغوي: أي: "رقيبا".

قال ابن كثير:" أي: حافظا تحفظ أعمالهم وأقوالهم".

قال القرطبي:"أي: لا يمكنك حفظهم من عذاب الله".

قال الطبري:" يقولُ جل ثناؤه: وإنما بعثتك إليهم رسولا مبلِّغًا، ولم نبعثك حافظًا عليهم ما هم عاملوه، تحصي ذلك عليهم، فإن ذلك إلينا دونك".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام: ١٠٧]، أي:" وما أنت بقَيِّمٍ عليهم تدبر مصالحهم".

قال قتادة:" أي: بحفيظ".

قال القرطبي:"أي: قيم بأمورهم في مصالحهم لدينهم أو دنياهم، حتى تلطف لهم في تناول ما يجب لهم، فلست بحفيظ في ذلك ولا وكيل في هذا، إنما أنت مبلغ. وهذا قبل أن يؤمر بالقتال".

قال ابن كثير:" أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم {إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ} كما قال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ} [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقال {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: ٤٠]".

قال الطبري:" يقول: ولست عليهم بقيِّم تقوم بأرزاقهم وأقواتهم ولا بحفظهم، فما لم يُجْعل إليك حفظه من أمرهم".

قال ابن الجوزي:" قال ابن عباس رضي الله عنهما نسخ: [{وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}] بآية السيف، وعلى ما ذكرنا في نظائرها تكون محكمة".

قال ابن عطية:"قوله تعالى: {وما جعلناك عليهم حفيظا} كان في أول الإسلام،

=

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨).

{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ} هُمْ {مِنْ دُون الله} أَيْ الْأَصْنَام {فَيَسُبُّوا الله عَدْوًا} اعْتِدَاء وَظُلْمًا {بِغَيْرِ عِلْم} أَيْ جَهْلًا مِنْهُمْ بِاَللهِ {كَذَلِكَ} كَمَا زَيَّنَّا لِهَؤُلَاءِ مَا هُمْ عَلَيْهِ {زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّة عَمَلهمْ} مِنْ الْخَيْر وَالشَّرّ فَأْتُوهُ {ثُمَّ إلَى رَبّهمْ مَرْجِعهمْ} فِي الْآخِرَة {فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} فَيُجَازِيهِمْ بِهِ[1].

=

وكذلك {وما أنت عليهم بوكيل}".

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة؛ قال: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار؛ فيسب الكفارُ الله عدوًا بغير علم؛ فأنزل الله ﷻ: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢١٥)، والطبري في "جامع البيان" (٧/ ٢٠٨) وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٦٦/ ٧٧٦١) عن معمر عن قتادة به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن السدي: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}؛ قال: لما حضر أبا طالب الموت؛ قالت قريش: انطلقوا بنا فلندخل على هذا الرجل، فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه؛ فإنا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه، فلما مات قتلوه، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن

=

=

الحارث وأمية وأبيّ ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البختري، وبعثوا رجلًا منهم يقال له: المطلب، قالوا: استأذن على أبي طالب، فأتى أبا طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك، فأذن لهم فدخلوا عليه، فقالوا: يا أبا طالب! أنت كبيرنا وسيدنا، وإن محمدًا قد آذانا وآذى آلهتنا؛ فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولندعه وإلهه، فدعاه فجاء النبي ﷺ، فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك، قال رسول الله ﷺ: "ما تريدون"؟ قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك، قال له أبو طالب: قد أنصفك قومك فاقبل منهم، فقال النبي ﷺ: "أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها؛ ملكتم العرب، ودانت لكم بها المعجم بالخراج"؟ قال أبو جهل: نعم وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها، فما هي؟ قال: "قولوا: لا إله إلا الله"، فأبوا واشمأزوا، قال أبو طالب: يا ابن أخي! قل غيرها؛ فإن قومك قد فزعوا منها، قال: "يا عم! ما أنا بالذي أقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها يزيدي ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها؛ إرادة أن يؤيسهم"، فغضبوا وقالوا: لتكفن عن شتمك آلهتنا؛ أو لنشتمنك ولنشتمن من يأمرك؛ فذلك قوله: {فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ٢٠٧، ٢٠٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٦٧ رقم ٧٧٦٢) كلاهما من طريق أسباط بن نصر ثنا السدي به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال. والثانية: أسباط هذا؛ صدوق كثير الخطأ ويغرب.

* قوله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الأنعام: ١٠٨].

يقول تعالى ناهيا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله

=

=

المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين به: ولا تسبُّوا الذين يدعو المشركون من دون الله من الآلهة والأنداد".

قال القرطبي:"نهى سبحانه لمؤمنين أن يسبوا أوثانهم، لأنه علم إذا سبوها نفر الكفار وازدادوا كفرا".

قال ابن عاشور: "والمخاطب بهذا النّهي المسلمون لا الرّسول ﷺ لأنّ الرّسول لم يكن فحّاشًا ولا سبّابًا لأنّ خُلقه العظيم حائل بينه وبين ذلك ، ولأنّه يدعوهم بما ينزل عليه من القرآن فإذا شاء الله تركه من وحيه الّذي ينزله ، وإنّما كان المسلمون لغيرتهم على الإسلام ربّما تجاوزوا الحدّ ففرطت منهم فرطات سبّوا فيها أصنام المشركين.

روى الطّبري عن قتادة قال: كان المسلمون يسبّون أوثان الكفّار فيردّون ذلك عليهم فنهاهم الله أن يستَسبّوا لربّهم. وهذا أصحّ ما روي في سبب نزول هذه الآية وأوفَقُه بنظم الآية".

قال ابن كثير: ومن هذا القبيل -وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها -ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ملعون من سب والديه ، قالوا يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: "يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه". أو كما قال، عليه السلام.

- قال القرطبي: قال العلماء: حكمها باق في هذه الأمّة على كلّ حال ، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أنّه إنْ سبّ المسلمون أصنامه أو أمور شريعَته أن يَسُبّ هو الإسلام أو النّبي عليه الصّلاة والسّلام أو اللّهَ ﷻ لم يحلّ للمسلم أن يسبّ صُلبانهم ولا كنائسهم لأنّه بمنزلة البعث على المعصيّة أ. هـ ، أي على زيادة الكفر.

=

=

وليس من السبّ إبطال ما يخالف الإسلام من عقائدهم في مقام المجادلة ولكنّ السبّ أن نباشرهم في غير مقام المناظرة بذلك.

- قال الشوكاني: وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق، والناهي عن الباطل، إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به، بل كان واجبًا عليه، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله، المتصدين لبيانها للناس، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف.

- قال ابن القيم: وإذا تدبرت الشريعة وجدتها قد أتت بسد الذرائع إلى المحرمات وذلك عكس باب الحيل الموصلة إليها، فالحيل وسائل وأبواب إلى المحرمات وسد الذرائع عكس ذلك فبين البابين أعظم تناقض والشارع حرم الذرائع وإن لم يقصد بها المحرم لإفضائها إليه فكيف إذا قصد بها المحرم نفسه.

فنهى الله تعالى عن سبع آلهة المشركين لكونه ذريعة إلى أن يسبوا الله سبحانه وتعالى عدوا وكفرا على وجه المقابلة.

وأخبر النبي ﷺ أن من أكبر الكبائر شتم الرجل والديه قالوا: وهل يشتم الرجل والديه قال: نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه.

ولما جاءت صفية رضي الله تعالى عنها تزوره ﷺ وهو معتكف قام معها ليوصلها إلى بيتها فرآهما رجلان من الأنصار فقال: على رسلكما إنها صفية بنت حييي فقالا: سبحان الله! يا رسول الله فقال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا، فسد الذريعة إلى ظنهما السوء بإعلامهما أنها صفية.

وأمسك ﷺ عن قتل المنافقين مع ما فيه من المصلحة لكونه ذريعة إلى التنفير

=

=

وقول الناس: إن محمدًا يقتل أصحابه.

وحرم القطرة من الخمر وإن لم تحصل بها مفسدة الكثير لكون قليلها ذريعة إلى شرب كثيرها.

ونهى الله سبحانه النساء أن: يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، فلما كان الضرب بالرجل ذريعة إلى ظهور صوت الخلخال الذي هو ذريعة إلى ميل الرجال إليهن نهاهن عنه.

وأمر الله سبحانه الرجال والنساء بغض أبصارهم لما كان النظر ذريعة إلى الميل والمحبة التي هي ذريعة إلى مواقعة المحظور.

قوله تعالى: {فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٠٨]، أي:" حتى لا يتسبب ذلك في سبهم الله جهلا واعتداءً: بغير علم".

قال الطبري:" فيسبَّ المشركون اللهَ جهلا منهم بربهم، واعتداءً بغير علم".

قال ابن عباس:" قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سبِّ آلهتنا، أو لنهجوَنَّ ربك! فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، فيسبوا الله عدوًا بغير علم".

قال قتادة:" كان المسلمون يسبون أوثان المشركين، فيردون ذلك عليهم، فنهاهم الله أن يستسبوا لربهم قوما جهلة لا علم لهم بربهم".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٠٨]، قولان:

أحدهما: لا تسبوا الأصنام فتسب عبدة الأصنام من يسبها، قاله السدي.

والثاني: لا تسبوها فيحملهم الغيظ والجهل على أن يسبوا من تعبدون كما سَبَبْتم ما يعبدون. وهذا معنى قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"إذا سببت إلهه سبَّ إلهك، فلا تسبوا آلهتهم".

قال السعدي:"ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزا، بل مشروعا في الأصل، وهو

=

=

سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثانا وآلهة مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها، ولكن لما كان هذا السب طريقا إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وآفة، وسب، وقدح -نهى الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم يحمون لدينهم، ويتعصبون له".

وقرأ أهل مكة: «عَدُوًّا»، بالتشديد، بمعنى: أنهم اتخذوه عدوًّا.

وقرآ الحسن البصري وعثمان بن سعدي: «عُدُوًّا» مضمومة العين مشددة الواو.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [الأنعام: ١٠٨].

أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حبّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره.

قال البغوي:" أي: كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان، كذلك زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية".

قال القرطبي:"أي كما زينا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينا لكل أمة عملهم".

قال الطبري: أي:" كما زيّنا لهؤلاء العادلين بربهم الأوثَانَ والأصنام، عبادةَ الأوثان وطاعةَ الشيطان بخذلاننا إيّاهم عن طاعة الرحمن، كذلك زيَّنا لكل جماعةٍ اجتمعت على عملٍ من الأعمال من طاعة الله ومعصيته، عملَهم الذي هم عليه مجتمعون".

قال ابن كثير:" أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حبّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره".

وفي قوله تعالى: {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [الأنعام: ١٠٨]، ثلاثة اقوال:

=

=

أحدها: كما زينا لكم فعل ما أمرناكم به من الطاعات كذلك زينا لمن تقدم من المؤمنين فعل ما أمرناهم به من الطاعات، قاله الحسن.

والثاني: كذلك شبهنا لكل أهل دين عملهم بالشبهات ابتلاء لهم حتى قادهم الهوى إليها وعَمُوا عن الرشد فيها.

والثالث: كما أوضحنا لكم الحِجج الدالة على الحق كذلك أوضحنا لمن قبلكم من حِجج الحق مثل ما أوضحنا لكم.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ} [الأنعام: ١٠٨]، أي:" ثم إلى ربهم معادهم جميعًا

قال أبو العالية:" يرجعون إليه بعد الحياة".

قال الطبري: أي:" ثم مرجعهم بعد ذلك ومصيرهم إلى ربهم".

قال ابن كثير:" أي: معادهم ومصيرهم".

قوله تعالى: {فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٠٨]، أي:" فيخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، ثم يجازيهم بها".

قال ابن كثير:" أي: يجازيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

قال الطبري:" يقول: فيُوقفهم ويخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملون بها في الدنيا، ثم يجازيهم بها، إن كان خيرًا فخيرًا، وإن كان شرًّا فشرًّا، أو يعفو بفضله، ما لم يكن شركًا أو كفرًا".

وفي حكم قوله نعالى: {وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٠٨]، قولان:

أحدهما: أنها نسخت بتنبيه الخطاب في آية السيف، لأنها تضمنت الأمر بقتلهم، والقتل أشنع من السب. ذكره ابن حزم ، وهبة الله.

والثاني: أنهما محكمة. وهذا قول بعض المفسرين.

=

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩).

{وَأَقْسَمُوا} أَيْ كُفَّار مَكَّة {بِاَللهِ جَهْد أَيْمَانهمْ} أَيْ غَايَة اجْتِهَادهمْ فِيهَا {لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَة} مِمَّا اقْتَرَحُوا {لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ} لَهُمْ {إِنَّمَا الْآيَات عِنْد الله} يُنَزِّلهَا كَمَا يَشَاء وَإِنَّمَا أَنَا نَذِير {وَمَا يُشْعِركُمْ} يُدْرِيكُمْ بِإِيمَانِهِمْ إِذَا جَاءَتْ أَيْ أَنْتُمْ لَا تَدْرُونَ ذَلِكَ {أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ} لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِي وَفِي قِرَاءَة بِالتَّاءِ خِطَابًا لِلْكُفَّارِ وَفِي أُخْرَى بِفَتْحِ أَنَّ بِمَعْنَى لَعَلَّ أَوْ مَعْمُولَة لما قبلها[1].

=

قال ابن الجوزي:"ولا أرى هذه الآية منسوخة، بل يكره للإنسان أن يتعرض بما يوجب ذكر معبوده بسوء أو بنبيه ﷺ".

قلت: ودعوى النسخ ضعيف لعدم الدليل، ولأن وجوب القتال لا يتنافى مع حكم هذه الآية والله أعلم.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (إِلَى رَبِّهِم) والعدول عن اسم الجلالة إلى لفظ (ربّهم) لقصد تهويل الوعيد وتعليل استحقاقه بأنّهم يرجعون إلى مالكهم الذي خلقهم فكفروا نعمه وأشركوا به فكانوا كالعبيد الآبقين يطوِّفون ما يطوفوّن ثمّ يقعون في يد مالكهم.

والإنباء: الإعلام ، وهو توقيفهم على سوء أعمالهم.

(١) ذكر سبب النزول.

عن محمد بن كعب القرظي؛ قال: كلم رسول الله ﷺ قريش، فقالوا: يا محمد! تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا،

=

=

وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة؛ فأتنا بشيء من الآيات حتى نصدقك، فقال النبي ﷺ: "أيّ شيء تحبون أن آتيكم به"، قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبًا، فقال لهم: "فإن فعلت؛ تصدقوني؟ "، قالوا: نعم، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين، فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل عليه السلام، فقال له: "لك ما شئت: إن شئت أصبح ذهبًا، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك؛ لنعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم"، فقال: "بل يتوب تائبهم"؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧/ ٢١٠)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٤٩، ١٥٠) من طريق أبي معشر المدني عنه. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: أبو معشر المدني نجيح؛ ضعيف، أسن واختلط.

وعن ابن جريج: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ} في المستهزئين، هم الذين سألوا رسول الله ﷺ الآية، فنزل فيهم: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣٤٠) ونسبه لأبي الشيخ.

=

=

* قوله تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ} [الأنعام: ١٠٩].

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيمانًا مؤكدة بأغلظ الأيمان وأشدها.

والجَهد بالفتح هو المشقة ، والجُهد: الوسع ، تقول: بذلت جُهدي: أي وسعي ، وبلغ مني الجَهد: أي المشقة.

قال الزجاج:" أي: اجتهدوا في المبالغة فى اليمين".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وحلف بالله هؤلاء العادلون بالله جَهْد حَلِفهم، وذلك أوكدُ ما قدروا عليه من الأيمان وأصعبُها وأشدُّها".

قال ابن كثير:" يقول تعالى إخبارًا عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيمانًا مؤكدة".

قال السعدي:"أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ قسما اجتهدوا فيه وأكدوه".

قال القرطبي:" أي: حلفوا. وجهد اليمين أشدها، وهو بالله فقوله: {جهد أيمانهم} أي: غاية أيمانهم التي بلغها علمهم، وانتهت إليها قدرتهم. وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ظنا منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى، كما أخبر عنهم بقوله تعالى: {نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣]. وكانوا يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك، وكانوا يحلفون بالله تعالى وكانوا يسمونه جهد اليمين إذا كانت اليمين بالله".

عن مجاهد في قول الله:" {وأقسموا بالله جهد أيمانهم}، قال: هي يمين".

قال الكلبي ومقاتل: "إذا حلف الرجل بالله، فهو جهد يمينه".

قوله تعالى: {لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا} [الأنعام: ١٠٩]، أي:" لئن جاءنا محمد بعلامة خارقة لنصدقنَّ بما جاء به".

=

=

قال الطبري:" يقول: قالوا: نقسم بالله لئن جاءتنا آية تصدِّق ما تقول، يا محمد، مثلُ الذي جاء مَنْ قبلنا من الأمم، لنصدقن بمجيئها بك، وأنك لله رسولٌ مرسل، وأنّ ما جئتنا به حقٌّ من عند الله".

قال ابن كثير:" {آيَةٌ} أي: معجزة وخارق، {لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا} أي: ليصدقنها".

قال مجاهد:" سألت قريش محمدًا أن يأتيهم بآية، واستحلفهم: ليؤمننّ بها".

قال الماوردي: "هؤلاء قوم من مشركي أهل مكة حلفوا بالله لرسوله ﷺ لئن جاءتهم آية اقترحوها ليؤمنن بها ، قال ابن جريج: هم المستهزئون..".

واختلف في الآية التي اقترحوها على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن تجعل لنا الصفا ذهبًا. وهذا قول محمد بن كعب القرظي.

والثاني: ما ذكره الله في آخر: {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَينَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيل (٩٢)} إلى قوله: {كِتَابًا نَقْرَؤُهُ} [الإسراء: ٩٠ - ٩٣]. فأمر الله نبيه حين أقسموا له أن يقول لهم: {قُلْ إِنَّمَا الأَيَاتُ عِنْدَ اللهِ}. وهذا قول الزجاج.

والثالث: أنه لما نزل قوله تعالى في «الشعراء»: {إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُم لَهَا خَاضِعِينَ}، قال المشركون: أنزلها علينا حتى نؤمن بها إن كنت من الصادقين، فقال المؤمنون: يا رسول الله أنزلها عليهم ليؤمنوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قاله الكلبي.

قال السعدي:" وهذا الكلام الذي صدر منهم، لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به الرسول قطعا، فإن الله أيد رسوله ﷺ، بالآيات البينات، والأدلة الواضحات، التي -عند الالتفات لها- لا تبقي أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به، فطلبهم -بعد ذلك- للآيات من باب

=

=

التعنت، الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم، فإن الله جرت سنته في عباده، أن المقترحين للآيات على رسلهم، إذا جاءتهم، فلم يؤمنوا بها -أنه يعاجلهم بالعقوبة".

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ} [الأنعام: ١٠٩].

أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتًا وكفرًا وعنادًا، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابكم، وإن شاء تركككم.

قال مقاتل:" إن شاء أرسلها وليست بيدي".

قال البغوي: أي:" والله قادر على إنزالها".

قال الطبري:" يقول لنبيه ﷺ: {قل إنما الآيات عند الله}، وهو القادر على إتيانكم بها دون كل أحد من خلقه".

قال ابن كثير:" أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتًا وكفرًا وعنادًا، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابكم، وإن شاء تركككم".

قال السعدي:" أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به، وتصديقه".

قوله تعالى: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٠٩].

قيل: المخاطب ب (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) المشركون، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم: وما يدريكم بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها ، وعلى هذا فالقراءة: "إنها إذا جاءت لا يؤمنون" بكسر "إنها" على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها.

=

=

وقيل: المخاطب بقوله (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) المؤمنون، أي: وما يدريكم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز في (أَنَّهَا) الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم، وعلى هذا فتكون "لا" في قوله (أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ) صلة كما في قوله (مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) ، وقوله (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ) أي: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك وحرام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يدريكم -أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصا على إيمانهم -أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون.

قال الزمخشري: أي:"وما يدريكم أنها أن الآية التي تقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك. وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها. فقال ﷻ وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، على معنى أنكم لا تدرون ما سبق على به من أنهم لا يؤمنون به. ألا ترى إلى قوله: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّة} [الأنعام: ١١٠]".

قال الطبري: أي:" وما يدريكم، أيها المؤمنون، لعل الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون، فيعاجلوا بالنقمة والعذاب عند ذلك، ولا يؤخَّروا به".

وروي عن مجاهد قوله: "{إنما الآيات عند الله وما يشعركم}، وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت. ثم استقبل يخبر عنهم فقال: {إذا جاءت لا يؤمنون}". وروي عن اين زيد نحو هذا المعنى.

وعلى هذا القول فإن قوله: {وما يشعركم}، خوطب به المشركون المقسمون بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنن، وانتهى الخبر عند قوله: {وما يشعركم}، ثم استُؤنف الحكم عليهم بأنهم لا يؤمنون عند مجيئها استئنافًا مبتدأ.

وقرئ: «إنَّها» بكسر ألف، على أن قوله: {إِنَّهَا إِذَا جَاءَتَ لا يُؤْمِنُون}، خبر مبتدأ منقطعٌ عن الأول.

=

=

وقد تأوَّل قوم قرؤوا، ذلك بفتح «الألف» من «أنها» بمعنى: «لعلها». وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أبيّ بن كعب.

وقد ذكر عن العرب سماعًا منها: اذهب إلى السوق أنك تشتري لي شيئًا، بمعنى: لعلك تشتري ،وقال امرؤ القيس:

عُوجا على الطَّلَلِ المُحيل لأننا نبكي الديارَ كما بكى ابنُ حِذَامِ

قال الزمخشري:" وتقويها قراءة أبى: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون".

وقد قيل: إن قول عدي بن زيد العِبَاديّ:

أَعَاذِلَ، مَا يُدْرِيكِ أَنَّ مَنِيَّتِي إِلَى سَاعَةٍ فِي الْيَومِ أَوْ فِي ضُحَى الغَدِ

بمعنى: لعل منيَّتي؛ وقد أنشدوا في بيت لحطائط بن يعفر:

أرينى جوادا مات هزلا لأننى أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخِيلا مُخَلَّدَا

بمعنى: لعلني.

ومنه بيتُ توبة بن الحميِّر:

لَعَلَّك يَا تَيْسًا نزا فِي مَرِيرَةٍ مُعَذِّبُ لَيْلَى أَنْ تَرَانِي أَزُورُهَا

قوله: «لَعَلَّك يا تيسًا»، بمعنى: «لأنّك» التي في معنى «لعلك»، وأنشد بيت أبي النجم العجليّ:

قُلْتُ لِشَيْبَانَ ادْنُ مِنْ لِقَائِهِ أَنَّا نُغَدِّي القَوْمَ مِنْ شِوَائِهِ

بمعنى: لعلنا نغدِّي القوم.

وقرئ: «وما يشعرهم أنها إذا جاءت لا يؤمنون». قال الزمخشري:"أى: يحلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها. وما يشعرهم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعا عليها فلا يؤمنوا بها".

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠).

{وَنُقَلِّب أَفْئِدَتهمْ} نُحَوِّل قُلُوبهمْ عَنْ الْحَقّ فَلَا يَفْهَمُونَهُ {وَأَبْصَارهمْ} عَنْهُ فَلَا يُبْصِرُونَهُ فَلَا يُؤْمِنُونَ {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ} أَيْ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ الْآيَات {أَوَّل مَرَّة وَنَذَرهُمْ} نَتْرُكهُمْ {فِي طغيانهم} ضلالهم {يَعْمَهُونَ} يَتَرَدَّدُونَ مُتَحَيِّرِينَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ١١٠]، أي:" ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، فنحول بينها وبين الانتفاع بآيات الله، فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بآيات القرآن عند نزولها أول مرة، ونتركهم في تمرُّدهم على الله متحيِّرين، لا يهتدون إلى الحق والصواب".

قال ابن كثير:" في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء ورُدَّت عن كل أمر".

قال السعدي:" أي: ونعاقبهم، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان".

وفي قوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ١١٠]، وجهان:

أحدهما: معناه: لو أنَّا جئناهم بآية كما سألوا، ما آمنوا، كما لم يؤمنوا بما قبلَها أول مرة، لأن الله حال بينهم وبين ذلك. وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد.

قال مجاهد:" نحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة".

عن ابن زيد قوله: "{ونقلب أفئدتهم وأبصارهم}، نمنعهم من ذلك، كما فعلنا بهم =

=
أول مرة. وقرأ: {كما لم يؤمنوا به أول مرة}".
قال ابن عباس:" لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء، ورُدَّتْ عن كل أمر".
والثاني: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لو رُدُّوا من الآخرة إلى الدنيا فلا يؤمنون، كما فعلنا بهم ذلك، فلم يؤمنوا في الدنيا. قالوا: وذلك نظير قوله (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ)، [سورة الأنعام: ٢٨]. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.
قال الطبري:" وأولى التأويلات في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه، أخبر عن هؤلاء الذين أقسموا بالله جهدَ أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها: أنَّه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ويصرِّفها كيف شاء، وأنّ ذلك بيده يقيمه إذا شاء، ويزيغه إذا أراد وأنّ قوله: {كما لم يؤمنوا به أول مرة}، دليل على محذوف من الكلام= وأنّ قوله:"كما" تشبيه ما بعده بشيء قبله.
وإذْ كان ذلك كذلك، فالواجب أن يكون معنى الكلام: ونقلب أفئدتَهم، فنزيغها عن الإيمان، وأبصارَهم عن رؤية الحق ومعرفة موضع الحجة، وإن جاءتهم الآية التي سألوها، فلا يؤمنوا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله، كما لم يؤمنوا بتقليبنا إياها قبلَ مجيئها مرَّة قبل ذلك".
وقرئ: «ويقلب» بالياء، أى: الله ﷻ. وقرأ الأعمش: «وتقلب أفئدتهم وأبصارهم»، على البناء للمفعول.
وقال القرطبي: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ).
هذه آية مُشْكِلة ، ولا سِيّما وفيها (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ).
قيل: المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب النار وحرِّ الجمر؛ كما لم يؤمنوا في الدنيا.
(وَنَذَرُهُمْ) في الدنيا ، أي نمهلهم ولا نعاقبهم؛ فبعض الآية في الآخرة ، وبعضها في
=

=

الدنيا.

ونظيرها (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) فهذا في الآخرة ، (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) في الدنيا.

وقيل: ونقلب في الدنيا؛ أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية ، كما حُلنا بينهم وبين الإيمان أوّل مرة؛ لمّا دعوتَهم وأظهرتَ المعجزة.

وفي التنزيل (وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ) ، والمعنى: كان ينبغي أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم؛ فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبَهم وأبصارهم.

- وقال ابن القيم: واختلف في قوله (كما لم يؤمنوا به أول مرة).

فقال كثير من المفسرين: المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة.

قال ابن عباس في رواية عطاء عنه: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي قال وهذا كقوله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه).

وقال آخرون المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم.

وهذا معنى حسن ، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعًا من التعليل كقوله (وأحسن كما أحسن الله إليك).

وقوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم) والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه: الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر ، والتقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه ، وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ، ووصولهم إليها كما سألوا أن يؤمنوا إذا جاءتهم ، لأنهم رأوها عيانًا ، وعرفوا أدلتها ، وتحققوا صدقها ، فإذا لم يؤمنوا كان تقليبًا لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها

=

=

الذي ينبغي أن تكون عليه.

قوله تعالى: {وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١٠]، أي:" ونتركهم في تمرُّدهم على الله متحيِّرين، لا يهتدون إلى الحق والصواب".

قال الطبري:" ونذر هؤلاء المشركين الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم: لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها عند مجيئها في تمرُّدهم على الله واعتدائهم في حدوده، يتردَّدون، لا يهتدون لحق، ولا يبصرون صوابًا، قد غلب عليهم الخِذْلان، واستحوذ عليهم الشيطانُ".

قال الزمخشري:" أى: نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه".

قال أبو مالك:" {ونذرهم}، يعني: نتخلى عنهم".

أخرج ابن ابي حاتم عن أبي العالية، في قوله:" {في طغيانهم}، يعني: في ضلالتهم".

وقال ابن عباس:" {في طغيانهم}، في كفرهم".

قال ابن ابي حاتم:"وروي عن السدي نحو قول ابن عباس وقتادة والربيع نحو قول أبي العالية".

قال السعدي:" وهذا من عدل الله، وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسبا لأحوالهم".

وفي تفسير قوله تعالى: {يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١٠]، وجوه:

أحدها: يتمادون. وهذا قول ابن عباس ، والسدي.

والثاني: يترددون في كفرهم. وهذا قول أبي العالية ، ومجاهد ، وأبي مالك ، والربيع بن أنس ، وهو مروي عن ابن عباس أيضا.

والثالث: يلعبون. وهذا قول الأعمش.

=

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١).

{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ الْمَلَائِكَة وَكَلَّمَهُمْ الْمَوْتَى} كَمَا اقْتَرَحُوا {وَحَشَرْنَا} جَمَعْنَا {عَلَيْهِمْ كُلّ شَيْء قُبُلًا} بِضَمَّتَيْنِ جَمْع قَبِيل أَيْ فَوْجًا فَوْجًا وَبِكَسْرِ الْقَاف وَفَتْح الْبَاء أَيْ مُعَايَنَة فَشَهِدُوا بِصِدْقِك {مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} لِمَا سَبَقَ فِي عِلْم الله {إِلَّا} لَكِنْ {أَنْ يَشَاء الله} إيمَانهمْ فَيُؤْمِنُوا {وَلَكِنَّ أَكْثَرهمْ يَجْهَلُونَ} ذَلِكَ[1].

=

والرابع: يتحيرون. أفاده القرطبي.

قال ابن عطية:" «الطغيان»: التخبط في الشر والإفراط فيما يتناوله المرء، و «العمى»: التردد والحيرة".

وقرأ الأعمش والهمداني: «ويذرهم» بالياء، وجزم الراء على وجه التخفيف، أى: الله ﷻ.

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ} [الأنعام: ١١١]، أي:" ولو أننا أجبنا طلب هؤلاء، فنزَّلنا إليهم الملائكة من السماء".

قال الطبري: أي:" فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عيانًا".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم {لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا} فنزلنا عليهم الملائكة، أي: تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا} [الإسراء: ٩٢]، {قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله} [الأنعام: ١٢٤]، {وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ

=

=
اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا} [الفرقان: ٢١]".
قوله تعالى: {وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى} [الأنعام: ١١١]، أي:" وأحيينا لهم الموتى فكلموهم وأخبروهم بصدق محمد ﷺ".
قال البغوي: يعني:"بإحيائنا إياهم فشهدوا لك بالنبوة كما سألوا".
قال الطبري: أي:" وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حُجَّةً لك، ودلالة على نبوّتك، وأخبروهم أنك محقٌّ فيما تقول، وأن ما جئتهم به حقٌّ من عند الله".
قال ابن كثير:" أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل".
قوله تعالى: {وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا} [الأنعام: ١١١]، أي:" وجمعنا لهم كل شيء طلبوه فعاينوه مواجهة".
قال الطبري: أي:" وحشرنا عليهم كل شيء فجعلناهُم لك قبلا".
وفي قوله تعالى: {قُبُلًا} [الأنعام: ١١١]، قراءتان:
إحداهما: «قِبَلا»، بكسر القاف وفتح الباء، قرأ بها نافع، وابن عامر ، ومعنى ذلك: معاينة ومجاهرة، قاله ابن عباس ، وقتادة.
والقراءة الثانية: «قُبُلًا»، بضم القاف والباء، وهي قراءة الباقين ، وفي تأويلها ثلاثة أقاويل:
أحدها: أن «القُبُل» جمع: قبيل وهو: الكفيل، فيكون معنى «قُبُلًا» أي: كُفَلاء.
والثاني: أن معنى ذلك: قبيلة قبيلة وصفًا صفًا، قاله مجاهد ، وعبد الله بن زيد.
قال ابن كثير:" أي: تعرض عليهم كل أمة بعد أمة، فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به".
والثالث: معناه مقابلة، قاله ابن عباس ، وابن زيد ، وابن إسحاق.
قال الطبري:"وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندنا، قراءةُ من قرأ: {وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا}، بضم «القاف والباء»، لما ذكرنا من احتمال ذلك الأوجهَ
=

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢).

=

التي بينّا من المعاني، وأن معنى «القِبَل» داخلٌ فيه، وغير داخل في القبل معاني: «القِبَل»".

قوله تعالى: {مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ} [الأنعام: ١١١]، أي:" لم يصدِّقوا بما دعوتهم إليه -أيها الرسول- ولم يعملوا به، إلا من شاء الله له الهداية".

قال الطبري: أي:" ما آمنوا ولا صدّقوك ولا اتبعوك إلا أن يشاء الله ذلك لمن شاء منهم".

قال ابن كثير:" أي: إن الهداية إليه، لا إليهم. بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته. وهذه الآية كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس: ٩٦، ٩٧]".

عن ابن عباس قوله: "{ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا}، وهم أهل الشقاء، ثم قال: {إلا أن يشاء الله}، وهم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه أن يدخلوا في الإيمان".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام: ١١١]، أي:" ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين يجهلون ذلك".

قال الطبري:" يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك، يحسبون أن الإيمان إليهم، والكفرَ بأيديهم، متى شاؤوا آمنوا، ومتى شاؤوا كفروا. وليس ذلك كذلك، ذلك بيدي، لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته، ولا يكفر إلا من خذلته عن الرشد فأضللته".

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوًّا} كَمَا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ أَعْدَاءَك وَيُبْدَل مِنْهُ {شَيَاطِين} مَرَدَة {الْإِنْس وَالْجِنّ يُوحِي} يُوَسْوِس {بَعْضهمْ إِلَى بَعْض زُخْرُف الْقَوْل} مُمَوَّه مِنْ الْبَاطِل {غُرُورًا} أَيْ لِيَغُرُّوهُمْ {وَلَوْ شَاءَ رَبّك مَا فَعَلُوهُ} أَيْ الْإِيحَاء الْمَذْكُور {فَذَرْهُمْ} دَعْ الْكُفَّار {وَمَا يَفْتَرُونَ} مِنْ الْكُفْر وَغَيْره مِمَّا زُيِّنَ لَهُمْ وَهَذَا قَبْل الأمر بالقتال.

وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣).

{وَلِتَصْغَى} عُطِفَ عَلَى غُرُورًا أَيْ تَمِيل {إِلَيْهِ} أَيْ الزُّخْرُف {أَفْئِدَة} قُلُوب {الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا} يَكْتَسِبُوا {مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} مِنْ الذُّنُوب فَيُعَاقَبُوا عَلَيْهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ} [الأنعام: ١١٢].

يقول تعالى: وكما جعلنا لك -يا محمد -أعداءً يخالفونك، ويعادونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضًا أعداء فلا يَحزنك ذلك.

كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا).

وقال تعالى (مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو =

=

عِقَابٍ أَلِيمٍ).

وقال تعالى:)وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ).

وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي.

والمراد بشياطين الإنس والجن ، والمردة من النوعين. والشيطان: كل عات متمرد من الإنس والجن.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مسلِّيَه بذلك عما لقي من كفرة قومه في ذات الله، وحاثًّا له على الصبر على ما نال فيه: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا}، يقول: وكما ابتليناك، يا محمد، بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداء شياطينَ... فهذا الذي امتحنتك به، لم تخصص به من بينهم وحدك، بل قد عممتهم بذلك معك لأبتليهم وأختبرهم، مع قدرتي على منع من آذاهم من إيذائهم، فلم أفعل ذلك إلا لأعرف أولي العزم منهم من غيرهم. يقول: فاصبر أنتَ كما صبر أولو العزم من الرسل".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: وكما جعلنا لك - يا محمد - أعداءً يخالفونك، ويعادونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضا أعداء فلا يَهِيدنَّك ذلك، كما قال تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ} [آل عمران: ١٨٤]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا [حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان: ٤٣]، وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: «إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي» ".

قال البغوي:" {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا}، أي: أعداء فيه تعزية للنبي ﷺ، يعني كما ابتليناك بهؤلاء القوم، فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء".

=

=

قال القرطبي: " يعزي نبيه ويسليه، أي كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك {عدوا}، أي: أعداء".

قال الشنقيطي: هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ، وَبَيَّنَ هُنَا أَنَّ أَعْدَاءَ الْأَنْبِيَاءِ هُمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَصَرَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ أَعْدَاءَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُجْرِمِينَ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مِنَ الْإِنْسِ شَيَاطِينَ ، وَصَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ الْآيَةَ) ، وَقَدْ جَاءَ الْخَبَرُ بِذَلِكَ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ مُتَمَرِّدٍ شَيْطَانًا ، سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الْجِنِّ أَوْ مِنَ الْإِنْسِ كَمَا ذَكَرْنَا ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِمَا ، وَفِي الْحَدِيثِ: «الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ» ، وَقَوْلُهُ: شَيَاطِينُ ، بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: عَدُوًّا ، أَوْ مَفْعُولٌ أَوَّلُ لِـ «جَعَلْنَا» ، وَالثَّانِي: «عَدُوًّا» ، أَيْ: جَعَلْنَا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَدُوًّا.

- قال السعدي: ومن حكمة الله تعالى، في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصارًا قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته: أن في ذلك بيانًا للحق، وتوضيحًا له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه ، فإنه -حينئذ- يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافس فيها المتنافسون.... (تفسير السعدي).

ومن الحكم: رفعة درجات الأنبياء ، وحصول أجر مجاهدة الأعداء التي تدل على قوة الإيمان ورسوخه.

عن أبي مالك: "قوله: {شياطين}، يعني: إبليس وذريته".

=

=

عن قتادة في قوله: "{شياطين الإنس والجن}، قال: من الإنس شياطين، ومن الجن شياطين، يوحي بعضهم إلى بعض".

عن أبي يزيد المدني عن عكرمة قال:" قدمت على المختار، فأكرمني وأنزلني عليه حتى كان يتعاهد مبيتي بالليل، قال فقال: لي: اخرج فحدث الناس. قال: فخرجت، فجاء رجل فقال ما تقول في الوحي؟ قلت: الوحي وحيان. قال الله ﷻ: {بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} ، وقال الله: {شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} ، قال: فهموا بي أن يأخذوني، فقلت: ما لكم ذاك، إني مفتيكم وضيفكم فتركوني".

قال ابن كثير:" وإنما عَرَضَ عِكْرِمة بالمختار - وهو ابن أبي عبيد - قبحه الله، وكان يزعم أنه يأتيه الوحي، وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر وكانت من الصالحات، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال: صدق، قال الله تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ} [الأنعام: ١٢١]".

وفي قوله تعالى: {شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ} [الأنعام: ١١٢]، وجوه:

أحدها: معناه: شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، وشياطين الإنس يوحون إلى شياطين الجن. قاله عكرمة.

قال البغوي:"معناه: شياطين الإنس التي مع الإنس، وشياطين الجن التي مع الجن، وليس للإنس شياطين، وذلك أن إبليس جعل جنده فريقين فبعث فريقا منهم إلى الإنس وفريقا منهم إلى الجن، وكلا الفريقين أعداء للنبي ﷺ ولأوليائه، وهم الذين يلتقون في كل حين، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن: أضللت صاحبي بكذا فأضل صاحبك بمثله، وتقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك، فذلك وحي بعضهم إلى بعض".

والثاني: أن للإنسان شيطان، وللجنّي شيطان. وهذا قول ابن عباس ، والسدي ،

=

=

وعزاه البغوي إلى قتادة ومجاهد والحسن.

قال البغوي:"الشيطان: العاتي المتمرد من كل شيء، قالوا: إن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز من إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه، يدل عليه ما روي عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس"؟ فقلت: يا رسول الله وهل للإنس من شياطين؟ قال: "نعم، هم شر من شياطين الجن».

وقال مالك بن دينار: «إن شياطين الإنس أشد علي من شياطين الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عيانا»".

والثالث: شياطين الإنس كفارهم، وشياطين الجن كفارهم، قاله مجاهد.

والرابع: أن شياطين الإنس والجن مردتهم، قاله الحسن ، واختاره الطبري.

قال الطبري:" جعل عكرمة والسدي في تأويلهما هذا الذي ذكرت عنهما، عدوّ الأنبياء الذين ذكرهم الله في قوله: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا}، أولادَ إبليس، دون أولاد آدم، ودون الجن وجعل الموصوفين بأن بعضهم يوحي إلى بعض زخرف القول غرورًا، ولدَ إبليس، وأن مَنْ مع ابن آدم من ولد إبليس يوحي إلى مَنْ مع الجن من ولده زخرفَ القول غرورًا، وليس لهذا التأويل وجه مفهوم، لأن الله جعل إبليس وولده أعداءَ ابن آدم، فكل ولده لكل ولده عدوّ. وقد خصّ الله في هذه الآية الخبر عن الأنبياء أنه جعل لهم من الشياطين أعداءً. فلو كان معنيًّا بذلك الشياطين الذين ذكرهم السدي، الذين هم ولد إبليس، لم يكن لخصوص الأنبياء بالخبرِ عنهم أنه جعل لهم الشياطين أعداءً، وجهٌ. وقد جعل من ذلك لأعدى أعدائه، مثل الذي جعللهم. ولكن ذلك كالذي قلنا، من أنه معنيٌّ به أنه جعل مردة الإنس والجن لكل نبي عدوًّا يوحي بعضهم إلى بعض من القول ما يؤذيهم به".

=

=

ويذكر عن أبي ذر: "أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا ذر، هل تعوَّذت بالله من شر شياطين الإنس والجنّ؟ قال: قلت: يا رسول الله، هل للإنس من شياطين؟ قال: نعم!".

وفي رواية اخرى:" قال: نعم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا".

عن قتادة قال: "بلغني أن أبا ذر قام يومًا يُصلّي، فقال له النبي ﷺ: تعوَّذ يا أبا ذر، من شياطين الإنس والجن. فقال: يا رسول الله، أوَ إنّ من الإنس شياطين؟ قال: نعم!".

قال ابن كثير:" فهم ابن جرير من هذا؛ أن المراد بشياطين الإنس عند عِكْرِمة والسُّدِّي: الشياطين من الجن الذين يضلون الناس، لا أن المراد منه شياطين الإنس منهم. ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عِكْرِمة، وأما كلام السُّدِّي فليس مثله في هذا المعنى، وهو محتمل، وقد روى ابن أبي حاتم نحو هذا، عن ابن عباس من رواية الضحاك، عنه، قال: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، قال: فيلتقي شياطين الإنس وشياطين الجن، فيقول هذا لهذا: أضلله بكذا، أضلله بكذا. فهو قوله: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من حديث أبي ذر: إن للإنس شياطين منهم، وشيطان كل شيء ما رده، ولهذا جاء في صحيح مسلم، عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «الكلب الأسود شيطان». ومعناه - والله أعلم -: شيطان في الكلاب".

قوله تعالى: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ} [الأنعام: ١١٢]، أي:" يوسوس بعضهم إلى بعض بالضلال والشر".

قال البغوي:" أي: يلقي".

=

=

قال الطبري:" يوحي بعض هؤلاء الشياطين إلى بعض".

قال ابن كثير:" أي: يلقي بعضهم إلى بعض".

قال ابن عباس:" شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس. قال: فإن الله يقول: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِم} ".

عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: "{وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا}، قال: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، قال: فيلقى شيطان الإنس وشيطان الجن، فيقول هذا لهذا: أضلله بكذا، وأضلله بكذا، قال: فهو قوله: {يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا}".

وفي قوله تعالى: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ} [الأنعام: ١١٢]، ثلاثة أوجه:

أحدها: يعني يوسوس بعضهم بعضًا.

والثاني: يشير بعضهم إلى بعض، فعبر عن الإشارة بالوحي كقوله: {فَأَوْحَى إِلَيهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم: ١١]، و {زُخْرُفَ الْقَوْلِ} ما زينوه لهم من الشبه في الكفر وارتكاب المعاصي.

والثالث: يأمر بعضهم بعضًا كقوله: {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا} [فصلت: ١٢]، أي: أمر.

قال القرطبي:" {يوحي بعضهم إلى بعض.. }: عبارة عما يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس. وسمي وحيا، لأنه إنما يكون خفية".

قوله تعالى: {زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: ١١٢]، أي:" يوسوسون بالكلام المزيّن والأباطيل المموّهة ليغروا الناس ويخدعوهم".

قال ابن كثير: أي: "القول المزين المزخرف، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره".

=

=

قال الطبري: يعني: "المزيَّن من القول بالباطل، ليغرّوا به المؤمنين من أتباع الأنبياء فيفتنوهم عن دينهم.. وأما «الغرور»: فإنه ما غرّ الإنسان فخدعه فصدَّه عن الصواب إلى الخطأ وعن الحق إلى الباطل".

قال البغوي:" {زخرف القول}، وهو قول مموه مزين بالباطل لا معنى تحته، {غرورا} يعني: لهؤلاء الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم، يغرونهم غرورا، والغرور: القول الباطل".

قال ابن عباس:" يقول: حسَّن بعضهم لبعضٍ القول ليتّبعوهم في فتنتهم".

عن عكرمة ومجاهد قوله:" {زخرف القول غرورًا}، قالا: تزيين الباطل بالألسنة".

قال ابن زيد:" «الزخرف»، المزيَّن، حيث زيَّن لهم هذا الغرور، كما زيَّن إبليس لآدم ما جاءه به وقاسمه إنه له لمن الناصحين. وقرأ: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ}، [سورة فصلت: ٢٥]. قال: ذلك الزخرف".

عن السدي: "أما «الزخرف»، فزخرفوه، زيَّنوه". " {غرروًا}، قال: يغرّون به الناسَ والجنّ".

قال القرطبي:" جعل تمويههم زخرفا لتزيينهم إياه، ومنه سمي الذهب زخرفا. وكل شي حسن مموه فهو زخرف. والمزخرف المزين. وزخارف الماء طرائقه".

قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} [الأنعام: ١١٢]، أي:" ولو أراد ربك -جلَّ وعلا- لحال بينهم وبين تلك العداوة، ولكنه الابتلاء من الله".

قال البغوي:" أي: ما ألقاه الشيطان من الوسوسة في القلوب".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولو شئت، يا محمد، أن يؤمن الذين كانوا لأنبيائي أعداءً من شياطين الإنس والجن فلا ينالهم مكرهم ويأمنوا غوائلهم وأذاهم، فعلتُ ذلك، ولكني لم أشأ ذلك، لأبتلي بعضهم ببعض، فيستحق كل

=

=

فريق منهم ما سبق له في الكتاب السابق".

قال ابن كثير: "أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نَبيّ عدوّ من هؤلاء".

قوله تعالى: {فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١١٢]، أي:" فدعهم وما يختلقون مِن كذب وزور".

قال الطبري:" يقول: فدعهم -يعني الشياطين الذين يجادلونك بالباطل من مشركي قومك ويخاصمونك بما يوحي إليهم أولياؤهم من شياطين الإنس والجن- {وما يفترون}، يعني: وما يختلقون من إفك وزور. يقول له ﷺ: اصبر عليهم، فإني من وراء عقابهم على افترائهم على الله، واختلاقهم عليه الكذبَ والزور".

قال ابن كثير: "أي: فدعهم، {وَمَا يَفْتَرُونَ} أي: يكذبون، أي: دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم".

قال ابن الجوزي:" قوله تعالى: {فذرهم وما يفترون} إن قلنا إن هذا تهديد كما سبق في الآية السادسة فهو محكم، وإن قلنا إنه أمر بترك قتالهم فهو منسوخ بآية السيف".

قوله تعالى: {وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [الأنعام: ١١٣]، أي:" ولِتميل إليه قلوب الكفار الذين لا يصدقون بالحياة الآخرة ولا يعملون لها".

قال ابن عباس:" يقول: تزيغ إليه أفئدة". وفي رواية اخرى عنه:" لتميل إليه".

قال السدي:" يقول: تميل إليه قلوبُ الكفار، ويحبونه، ويرضون به".

قال ابن زيد:" {ولتصغى}، وليهووا ذلك وليرضوه. يقول الرجل للمرأة: صَغَيْت إليها، هويتها".

=

=

قال الطبري:" يقول: ولتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة".

قال ابن كثير: "أي: ولتميل إليه - قاله ابن عباس - {أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ}، أي: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم".

قال البغوي:" أي: تميل إليه، والصغو: الميل، يقال: صغو فلان معك، أي: ميله، والفعل منه: صغى يصغي، صغا، وصغى يصغى، ويصغو صغوا، والهاء في "إليه" راجعة إلى زخرف القول".

يقال: صغيت، بالياء، حكي عن بعض بني أسد: صَغيت إلى حديثه، فأنا أصغَى صُغِيًّا، بالياء، وذلك إذا ملت. ويقال: صَغْوِي معك، إذا كان هواك معه وميلك، مثل قولهم: ضِلَعِي معك، ويقال: أصغيت الإناء، إذا أملته ليجتمع ما فيه، ومنه قول الشاعر:

تَرَى السَّفِيَهَ بِهِ عَنْ كُلِّ مُحْكَمَةٍ زَيْغٌ، وفيهِ إلَى التَّشْبِيهِ إصْغَاءُ

ويقال للقمر إذا مال للغيوب:"صغا" و"أصغى".

قوله تعالى: {وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} [الأنعام: ١١٣]، أي:" ولتحبَّه أنفسهم، وليكتسبوا من الأعمال السيئة ما هم مكتسبون".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وليكتسبوا من الأعمال ما هم مكتسبون".

قال ابن كثير: "{وَلِيَرْضَوْهُ} أي: يحبوه ويريدوه. وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} [الصافات: ١٦١ - ١٦٣]، وقال تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات: ٨، ٩]".

عن السدي:" {ليرضوه}، قال: يحبونه ويرضونه".

وفي قوله تعالى: {وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} [الأنعام: ١١٣]، ثلاثة وجوه:

أحدها: معناه: ليعملوا من الذنوب ما هم عاملون. وهذا قول السدي ، وابن زيد ،

=

=

والزجاج.

والثاني: وليكتسبوا من الشرك والمعاصي ما هم مكتسبون، قاله جويبر ، وبه قال الطبري ، والبغوي. وهو قريب من المعنى الأول.

حكي عن العرب سماعًا: خرج يقترف لأهله، بمعنى يكسب لهم. ومنه قيل: قارف فلان هذا الأمر، إذا واقعه وعمله، وكان بعضهم يقول: هو التهمة والادعاء. يقال للرجل: أنت قَرَفْتَنِي، أي اتهمتني. ويقال: بئسما اقترفتَ لنفسك ، وقال رؤبة:

أَعْيَا اقْتِرَافُ الكَذِبِ المَقْرُوفِ تَقْوَى التَّقِي وعِفَّةَ العَفِيفِ

ومنه قوله تعالى: {وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَة} [الشورى: ٢٣].

والثالث: وليكذبوا على الله ورسوله ما هم كاذبون، ذكره الزجاج ، والماوردي.

قال الزجاج:"أي: ليختلقوا وليكذبوا، وهذه «لام أن»، المعنى" «ولأن يرضوه وليقترفوا»، على أن «اللام» «لام أمر»، ومعناه معنى التهدد والوعيد، كما تقول: افعل ما شئت، فلفظه لفظ الأمر ومعناه معنى التهدد".

قال السعدي: (وَلِيَرْضَوْهُ) بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولًا ، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات ، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقًا قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظًا غير وافية، وإن كانت باطلًا ردوها على من قالها، كائنًا من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤).

وَنَزَلَ لَمَّا طَلَبُوا مِنْ النَّبِيّ ﷺ أَنْ يَجْعَل بَيْنه وَبَيْنهمْ حَكَمًا قُلْ {أَفَغَيْر الله أَبْتَغِي} أَطْلُب {حَكَمًا} قَاضِيًا بَيْنِي وَبَيْنكُمْ {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَاب} الْقُرْآن {مُفَصَّلًا} مُبَيَّنًا فِيهِ الْحَقّ مِنْ الْبَاطِل {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَاب} التَّوْرَاة كَعَبْدِ الله بْن سَلَام وَأَصْحَابه {يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّل} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {مِنْ رَبّك بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَن مِنْ الْمُمْتَرِينَ} الشَّاكِّينَ فِيهِ وَالْمُرَاد بِذَلِكَ التَّقْرِير لِلْكُفَّارِ أَنَّهُ حق[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا} [الأنعام: ١١٤]، أي: قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب قاضيًا بيني وبينكم؟

قال أبو حيان: قال مشركوا قريش لرسول الله ﷺ اجعل بيننا وبينك حكمًا إن شئتَ من أحبار اليهود أو النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت.

قال الطبري:" قل لهؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام، القائلين لك: كفَّ عن آلهتنا، ونكف عن إلهك: إن الله قد حكم عليّ بذكر آلهتكم بما يكون صدًّا عن عبادتها، فليس لي أن أتعدَّى حكمه وأتجاوزه، لأنه لا حَكَم أعدل منه، ولا قائل أصدق منه".

قال ابن كثير:" يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره: {أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}، أي: بيني وبينكم".

قال البغوي:"أي: قل لهم يا محمد أفغير الله، أطلب قاضيا بيني وبينكم، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكما فأجابهم به".

=

=

قال القرطبي:" المعنى: أفغير الله أطلب لكم حاكما وهو كفاكم مئونة المسألة في الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصل، أي المبين. ثم قيل: الحكم أبلغ من الحاكم، إذ لا يستحق التسمية بحكم إلا من يحكم بالحق، لأنها صفة تعظيم في مدح. والحاكم صفة جارية على الفعل، فقد يسمى بها من يحكم بغير الحق".

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} [الأنعام: ١١٤]، أي:" وهو سبحانه الذي أنزل إليكم القرآن مبينًا بأوضح بيان ، مفصّلًا فيه الحق والباطل ، موضحًا الهدى من الضلال، فيه الحكم فيما تختصمون فيه من أمري وأمركم؟".

والمراد بالكتاب القرآن ، والضمير في (إليكم) خطاب للمشركين ، فإنّ القرآن أُنزل إلى النّاس كلّهم للاهتداء به ، فكما قال الله (بما أنزل إليك أنزله بعلمه) قال (يأيُّها النّاس قد جاءكم بُرْهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا) وفي قوله (إليكم) هنا تسجيل عليهم بأنَّه قد بلّغهم فلا يستطيعون تجاهلًا.

قال الطبري:" يعني القرآن {مفصَّلا}، يعني: مبينًا فيه الحكم فيما تختصمون فيه من أمري وأمركم".

قال قتادة ، وابن كثير:" {مُفَصَّلا}، أي: مبينا".

قال البغوي:" {مُفَصَّلا}، مبينا فيه أمره ونهيه، يعني: القرآن، وقيل: مفصلا أي خمسا خمسا وعشرا وعشرا، كما قال: {لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} [الفرقان: ٣٢]".

وفي قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} [الأنعام: ١١٤ وجوه:

أحدها: تفصيل آياته لتبيان معانيه فلا تُشْكِل.

والثاني: تفصيل الصادق من الكاذب.

والثالث: تفصيل الحق من الباطل، والهدى من الضلال، قاله الحسن.

والرابع: تفصيل الأمر من النهي، والمستحب من المحظور، والحلال من الحرام.

قال ربيعة:" إن الله تبارك وتعالى أنزل الكتاب وترك فيه موضعا للسنة، وسن

=

=

رسول الله ﷺ وترك فيها موضعا للرأي".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} [الأنعام: ١١٤]، أي:" وبنو إسرائيل الذين آتاهم الله التوراة والإنجيل يعلمون علمًا يقينًا أن هذا القرآن منزل عليك -أيها الرسول- من ربك بالحق".

قال السمرقندي:" يعني: مؤمني أهل الكتاب، {يعلمون أنه منزل من ربك بالحق}، يعني: القرآن منزل من الله بالعدل".

قال ابن كثير:" أي: من اليهود والنصارى، {يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنزلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}، أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين".

قال البغوي:"يعني: علماء اليهود والنصارى الذين آتيناهم التوراة والإنجيل، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب، وقال عطاء: هم رءوس أصحاب النبي ﷺ، والمراد بـ«الكتاب»: هو القرآن، {يعلمون أنه منزل} يعني: القرآن".

قال القرطبي:" {والذين آتيناهم الكتاب}، يريد اليهود والنصارى. وقيل: من أسلم منهم كسلمان وصهيب وعبد الله بن سلا. {يعلمون أنه}، أي: القرآن. {منزل من ربك بالحق}، أي: أن كل ما فيه من الوعد والوعيد لحق... وقال عطاء: {الذين آتينا الكتاب} وهم رؤساء أصحاب محمد عليه السلام: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ".

قال أبو حيان: "أي والذين أعطيناهم علم التوراة والإنجيل والزبور والصحف، والمراد علماء أهل الكتاب فهو عام بمعنى الخصوص".

وقال ابن عاشور: والمراد بالَّذين آتاهم الله الكتابَ: أحبار اليهود ، لأنّ الكتاب هو التّوراة المعروف عند عامّة العرب ، وخاصّة أهلُ مكَّة ، لتردّد اليهود عليها في التّجارة ، ولتردّد أهل مكّة على منازل اليهود بيَثرب وقُراها ولكون المقصود بهذا الحكم أحبارَ اليهود خاصّة قال (آتيناهم الكتاب) ولم يقل: أهلُ الكتاب.

=

=

ومعنى علم الّذين أوتوا الكتاب بأنّ القرآن منزّل من الله: أنّهم يجدونه مصدّقًا لما في كتابهم ، وهم يعلمون أنّ محمّدًا ﷺ لم يَدرس كتابهم على أحد منهم ، إذ لو درسه لشاع أمْرُه بينهم ، ولأعلنوا ذلك بين النّاس حين ظهور دعوته.

وهم أحرص على ذلك ، ولم يَدّعوه.

وعلمُهم بذلك لا يقتضي إسلامهم لأنّ العناد والحسد يصدّانهم عن ذلك.

وقيل: المراد بالَّذين آتاهم الله الكتاب: مَن أسلموا من أحبار اليهود ، مثل عبدا لله بن سلاَم.

(يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ) أي: أنّ كلّ ما فيه من الوعد والوعيد لَحَق.

(فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرين) قيل: الخطاب للرسول خطاب لأمته.

وقيل: لكل سامع أي إذا ظهرت الدلالة فلا ينبغي أن يمتري فيه.

وقيل: هو من باب التهييج والإلهاب كقوله (ولا تكونن من المشركين).

قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص «منزل»، بتشديد الزاي، وقرأ الباقون بالتخفيف.

قوله تعالى: {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [الأنعام: ١١٤]، أي:" فلا تكونن من الشاكِّين في شيء مما أوحينا إليك".

قال الربيع:" يقول: لا تكونن في شك مما قصَصنا عليك".

قال الحسن: "يقول: يا محمد، لا تكن في شك".

قال السرمقندي:" يعني: الشاكين في أنه الحق وأنه من الله تعالى، خاطبه بذلك وأراد به غيره من المؤمنين لكي لا يشكوا فيه".

قال الطبري:" يقول: فلا تكونن، يا محمد، من الشاكين في حقيقة الأنباء التي جاءتك من الله في هذا الكتاب، وغيرِ ذلك مما تضمنه، لأن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنَّه منزل من ربك بالحق".

=

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥).

{وتمت كلمات رَبّك} بِالْأَحْكَامِ وَالْمَوَاعِيد {صِدْقًا وَعَدْلًا} تَمْيِيز {لَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِهِ} بِنَقْصٍ أَوْ خَلْف {وَهُوَ السَّمِيع} لِمَا يُقَال {الْعَلِيم} بِمَا يُفْعَل[1].

=

قال ابن كثير: قوله:" {فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} كقوله {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس: ٩٤]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أشك ولا أسأل» ".

قال ابن عاشور: ويحتمل أن يكون المخاطب الرّسول عليه الصلاة والسلام، والمقصود من الكلام المشركون الممترون، على طريقة التّعريض، كما يقال: (إياكَ أعني واسمعي يا جارةْ).

ومنه قوله تعالى (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك) وهذا الوجه هو أحسن الوجوه، والتفريع فيه كما في الوجه الثّاني.

(١) قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥]، أي:" وتمت كلمة ربك -وهي القرآن- صدقًا في الأخبار والأقوال، وعدلا في الأحكام".

قال قتادة:" يقول: صدقًا وعدلا فيما حكَم". وفي رواية اخرى عنه:" يقول: فيما وعد".

قال الطبري:" يقول: كملت كلمة ربك من الصدق والعدل".

قال السرمقندي:" يقول: وجب قول ربك بأنه ناصر محمد ﷺ وأن عاقبة الأمر به صدقا وعدلا يعني: صدقا فيما وعد الله له من النصرة وعدلا فيما حكم به".

=

=

قال ابن كثير:" يقول: صدقا في الأخبار وعدلا في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مَفْسَدة، كما قال: {يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ [وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} إلى آخر الآية [الأعراف: ١٥٧]".

قال ابن عاشور: قوله: (كَلِمَةُ رَبِّكَ) قرأه الجمهور بصيغة الجمع وقرأه عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف: كَلمة بالإفراد فقيل: المراد بالكلمات أو الكلمة القرآن ، وهو قول جمهور المفسّرين ، ونقل عن قتادة ، وهو الأظهر ، المناسب لجعْل الجملة معطوفة على جملة (والذين آتيناهم الكتاب) فأمّا على قراءة الإفراد فإطلاق الكلمة على القرآن باعتبار أنّه كتاب من عند الله ، فهو من كلامه وقوله ،... وأمّا على قراءة الكلمات بالجمع فإطلاقها على القرآن باعتبار ما يشتمل عليه من الجمل والآيات ، أو باعتبار أنواع أغراضه من أمر ، ونهي ، وتبشير ، وإنذار ، ومواعظ ، وإخبار ، واحتجاج ، وإرشاد ، وغير ذلك.

ومعنى تمامها أنّ كلّ غرض جاء في القرآن فقد جاء وافيًا بما يتطلّبه القاصد منه.

قال الماوردي: وفي تمامه أربعة أوجه محتملة:

أحدها: تمام حُجَجِهِ ودلائله.

والثاني: تمام أحكامه وأوامره.

والثالث: تمام إنذاره بالوعد والوعيد.

والرابع: تمام كلامه واستكمال صوره.

وفي قوله تعالى: {صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥]، وجهان:

أحدهما: صدقًا في وعده ووعهده، وعدلًا في أمره ونهيه، قاله ابن بحر ، وروي عن قتادة نحو ذلك.

=

=

والثاني: صدقًا فيما حكاه، عدلًا فيما قضاه، وهو معنى قول قتادة في إحدى الروايات.

قال ابن عاشور: الصّدق: المطابقة للواقع في الإخبار: وتحقيق الخبر في الوعد والوعيد ، والنّفوذ في الأمر والنّهي ، فيشمل الصّدقُ كلّ ما في كلمات الله من نوع الإخبار عن شؤون الله وشؤون الخلائق ، والعدل: إعطاء من يستحقّ ما يستحقّ ، ودفع الاعتداء والظلمِ على المظلوم ، وتدبير أمور النّاس بما فيه صلاحهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «وتمت كلمت ربك»، جماعا.

قوله تعالى: {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الأنعام: ١١٥]، أي:" فلا يستطيع أحد أن يبدِّل كلماته الكاملة".

قال محمد بن كعب القرظي:" لا تبديل لشيء قاله في الدنيا والآخرة".

قال ابن كثير:" أي: ليس أحد يُعقِّبُ حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة".

قال السرمقندي:" يقول: لا مغير لوعده كقوله: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا} [غافر: ٥١]، ويقال: لا مبدل لكلماته يعني: لا ينقض بعضها بعضا ولا يشبه كلام البشر".

قال البغوي:" قيل: أراد بـ«الكلمات»: القرآن لا مبدل له، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون".

قال ابن الجوزي: وفي قوله (لا مبدِّل لكلماته) قولان:

أحدهما: لا يقدر المفترون على الزيادة فيها والنقصان منها.

والثاني: لا خُلف لمواعيده ، ولا مغير لحكمه.

- قال القرطبي: ودلّت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن؛ لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه ، لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شيء من الأمور كلها.

قوله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: ١١٥]، أي:" والله تعالى هو السميع لما يقول عباده، الحليم بظواهر أمورهم وبواطنها".

=

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦).

{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَر مَنْ فِي الْأَرْض} أَيْ الْكُفَّار {يُضِلُّوك عَنْ سَبِيل الله} دِينه {إِنْ} مَا {يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنّ} فِي مُجَادَلَتهمْ لَك فِي أمر الميتة إذْ قَالُوا مَا قَتَلَ الله أَحَقّ أَنْ تَأْكُلُوهُ مِمَّا قَتَلْتُمْ {وَإِنْ} مَا {هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧).

{إِنَّ رَبّك هُوَ أَعْلَم} أَيْ عَالِم {مَنْ يَضِلّ عَنْ سَبِيله وَهُوَ أَعْلَم بِالْمُهْتَدِينَ} فَيُجَازِي كلا منهم[1].

=

قال الطبري:" معناه: والله {السميع}، لما يقول هؤلاء العادلون بالله، المقسمون بالله جهد أيمانهم: لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، وغير ذلك من كلام خلقه، {العليم}، بما تؤول إليه أيمانهم من برٍّ وصدق وكذب وحِنْثٍ، وغير ذلك من أمور عباده".

قال ابن كثير:" {وَهُوَ السَّمِيعُ} لأقوال عباده، {الْعَلِيمُ} بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله".

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [الأنعام: ١١٦].

قال السرمقندي:" يعني: أهل أرض مكة فيما يدعونه إلى ملة آبائه. ويقال: {وإن تطع أكثر من في الأرض}، يعني: الكفار، لأن أكثر من في الأرض كانوا الكفار.

=

=

يضلوك عن سبيل الله يعني: يصرفوك عن دين الإسلام".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تطع هؤلاء العادلين بالله الأنداد، يا محمد، فيما دعوك إليه من أكل ما ذبحوا لآلهتهم، وأهلُّوا به لغير ربهم، وأشكالَهم من أهل الزيغ والضلال، فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن دين الله، ومحجة الحق والصواب، فيصدُّوك عن ذلك، وإنما قال الله لنبيه: {وإن تطع أكثر من في الأرض}، من بني آدم، لأنهم كانوا حينئذ كفارًا ضلالا فقال له جل ثناؤه: لا تطعهم فيما دعوك إليه، فإنك إن تطعهم ضللت ضلالهم، وكنتَ مثلهم، لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ} [الصافات: ٧١]، وقال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣]".

قال البغوي:" وذلك أن أكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة، وقيل: أراد أنهم جادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين في أكل الميتة، وقالوا: أتأكلون ما تقتلون ولا تأكلون ما قتله الله ﷻ؟ فقال: {وإن تطع أكثر من في الأرض} أي: وإن تطعهم في أكل الميتة يضلوك عن سبيل الله".

عن ابن عباس: قوله: "{عن سبيل الله}، قال: عن دين الله".

قوله تعالى: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ} [الأنعام: ١١٦]، أي:" ما يتبعون في أمر الدين إلا الظنون والأوهام يقلّدون آباءهم ظنًا منهم أنهم كانوا على الحق".

قال البغوي:" يريد: أن دينهم الذي هم عليه ظن وهوى لم يأخذوه عن بصيرة".

قال الطبري:" أخبر جل ثناؤه أنهم من أمرهم على ظن عند أنفسهم، وحسبان على صحة عزمٍ عليه وإن كان خطأ في الحقيقة".

قال ابن كثير: أي:"وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في

=

=

ظنون كاذبة وحسبان باطل".

قال السرمقندي:" يعني: أن أكثرهم يتبعون أكابرهم بالظن، ويتبعونهم فيما لا يعلمون أنهم على الحق فإن قيل: كيف يعذبون وهم ظانون على غير يقين؟

قيل لهم: لأنهم اقتصروا على الظن والجهل، لأنهم اتبعوا أهواءهم ولم يتفكروا في طلب الحق. ويقال: {إن يتبعون إلا الظن}، يعني: في أكل الميتة واستحلالها".

قال مجاهد:" ما كان من ظن في القرآن فهو يقين".

قوله تعالى: {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١١٦]، أي:" وما هم إلا قومٌ يكذبون".

قال البغوي: يعني:"يكذبون".

قال الطبري:" يقول: ما هم إلا متخرِّصون، يظنون ويوقعون حَزْرًا، لا يقينَ علمٍ".

قال ابن كثير:" الخرص: هو الحزر، ومنه خرص النخل، وهو حَزْرُ ما عليها من التمر وكذلك كله قدر الله ومشيئته".

قال السمرقندي:" يعني: ما هم إلا كاذبون باستحلالهم الميتة، لأنهم كانوا يقولون: ما قتل الله فهو أولى بالحل وبأكله مما نذبحه بأيدينا".

(فائدة): يقول تعالى، لنبيه محمد ﷺ، محذرًا عن طاعة أكثر الناس (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم، وعلومهم. فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق، بل غايتهم أنهم يتبعون الظن، الذي لا يغني من الحق شيئًا ، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون ، ومن كان بهذه المثابة ، فحري أن يحذِّر الله منه عبادَه ، ويصف لهم أحوالهم ، لأن هذا -وإن كان خطابًا للنبي ﷺ فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام، التي ليست من خصائصه.

ودلت هذه الآية ، على أنه لا يستدل على الحق، بكثرة أهله، ولا يدل قلة

=

=

السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك ، فإن أهل الحق هم الأقلون عددًا ، الأعظمون -عند الله- قدرًا وأجرًا ، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه. (السعدي).

- في هذه الآية أن أكثر الناس على غير الحق.

فما أكثر ما ذم الله ﷻ الكثرة في كنابه ، ومدح القلة.

قال الإمام الشاطبي: وهذه سنة الله في الخلق: أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل لقوله تعالى: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقوله (وقليل من عبادي الشكور) ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم وذلك حين يصير المعروف منكرًا والمنكر معروفًا وتصير السنة بدعة والبدعة سنة.

وقال ابن القيم: ولما رأى المنافقون ومَن فى قلبه مرض قِلَّة حزبِ الله وكثرةَ أعدائه، ظنُّوا أن الغلبة إنما هى بالكثرة، وقالوا (غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ) ، فأخبر سبحانه أن النصر بالتوكل عليه لا بالكثرة، ولا بالعدد، والله عزيز لا يُغالَب، حكيم ينصر مَن يستحق النصر، وإن كان ضعيفًا، فعزتُه وحكمتُه أوجبت نصرَ الفئةِ المتوكِّلَةِ عليه. "

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ (بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبًا. فطوبى للغرباء) أخرجه مسلم.

وسئل عنهم فقال ﷺ (ناس صالحون قليل في ناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم).

وعن معاوية – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ (افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمَّة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلاّ واحدة وهي الجماعة).

=

=

فقد جعل ﷺ الطائفة المنصورة الناجية في مقابل الفرق الهالكة قليل.

قال ابن مسعود: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك.

وعن الفضيل بن عياض: اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين واياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين.

قال أبو شامة: وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة؛ فالمراد به لزوم الحق وإتباعه وإن كان المتمسك به قليلًا والمخالف كثيرًا؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وفي السنن: إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها). والتجديد إنما يكون بعد الدروس، وذاك هو غربة الإسلام.

وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شك من دين الإسلام، كما كان الأمر حين بدأ. قال تعالى: (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إليكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ) إلى غير ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صحة الإسلام.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب (كتاب التوحيد: باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب بعدما ذكر حديث ابن عباس السابق): فيه مسائل: الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

وقال الإمام الشوكاني: عند قوله تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) أخبره الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من في الأرض أضلوه، لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين، ومنهم الطائفة التي تزال على الحق ولا يضرها خلاف من يخالفها، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ.

قال العلامة ابن باز: وليحذر كل مسلم أن يغتر بالأكثرين ، ويقول: إن الناس قد

=

=

ساروا إلى كذا ، واعتادوا كذا ، فأنا معهم ، فإن هذه مصيبة عظمى ، قد هلك بها أكثر الماضين ، ولكن أيها العاقل ، عليك بالنظر لنفسك ومحاسبتها والتمسك بالحق وإن تركه الناس ، والحذر مما نهى الله عنه وإن فعله الناس ، فالحق أحق بالاتباع ، كما قال تعالى (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله) وقال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) وقال بعض السلف رحمهم الله: (لا تزهد في الحق لقلة السالكين ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين.

قال العلامة الألباني: فالمؤمن لا يستوحش من قلة السالكين على طريق الهدى ولا يضره كثرة المخالفين.

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١١٧]، أي:" إن ربك هو أعلم بالضالين عن سبيل الرشاد".

قال الزجاج:" المعنى: إن ربك هو أعلم أيّ الناس يضل عن سبيله، وهذا مثل قوله: {لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [الكهف: ١٢]".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، إن ربك الذي نهاك أن تطيع هؤلاء العادلين بالله الأوثانَ، لئلا يُضِلوك عن سبيله، هو أعلم منك ومن جميع خلقه أيُّ خلقه يَضلّ عن سبيله بزخرف القول الذي يوحِي الشياطين بعضُهم إلى بعض، فيصدُّوا عن طاعته واتباع ما أمر به".

قال ابن كثير:" و {هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ} فييسره لذلك".

قوله تعالى: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [الأنعام: ١١٧]، أي: وهو أعلم" بمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد".

قال الطبري:" يقول: وهو أعلم أيضًا منك ومنهم بمن كان على استقامة وسدادٍ، لا يخفى عليه منهم أحد. يقول: واتبع، يا محمد، ما أمرتك به، وانته عما نهيتك عنه من طاعة مَنْ نهيتك عن طاعته، فإني أعلم بالهادي والمضلِّ من خلقي، منك".

=

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨).

{فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْم الله عَلَيْهِ} أَيْ ذبح على اسمه {إن كنتم بآياته مؤمنين.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩).

=

قال ابن كثير: " {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} فييسرهم لذلك، وكل ميسر لما خلق له".

قال البغوي:" أخبر أنه أعلم بالفريقين الضالين والمعتدين فيجازي كلا بما يستحقه".

وقيل: {أعلم}، في هذا الموضع بمعنى «يعلم»، ومن ذلك قول حاتم الطائي:

فَحَالَفَتْ طَيِّئٌ مِنْ دُونِنَا حِلِفًا ... وَاللهُ أَعْلَمُ ما كُنَّا لَهُمْ خُذْلا

ومنه قول الخنساء:

القَوْمُ أَعْلَمُ أَنَّ جَفْنَتَهُ ... تَعْدُو غَدَاةَ الرِّيحِ أَوْ تَسري

واعترض الإمام الطبري على قائل هذا القول، وذلك "أنه عطف عليه بقوله: {وهو أعلم بالمهتدين}، فأبان بدخول «الباء» في {المهتدين} أن {أعلم} ليس بمعنى «يعلم»، لأن ذلك إذ كان بمعنى «يفعل»، لم يوصل بالباء، كما لا يقال: هو يعلم بزيد، بمعنى: يعلم زيدًا".

وكذلك ضعّفه القطربي قائلا:" وهذا لا حجة فيه، لأنه لا يطابق {هو أعلم بالمهتدين}، ولأنه يحتمل أن يكون على أصله".

{وما لكم أ} ن {لَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْم الله عَلَيْهِ} مِنْ الذَّبَائِح {وَقَدْ فُصِّلَ} بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَلِلْفَاعِلِ فِي الْفِعْلَيْنِ {لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} فِي آيَة {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَة} {إلَّا مَا اُضْطُرِرْتُمْ إلَيْهِ} مِنْهُ فَهُوَ أَيْضًا حَلَال لَكُمْ الْمَعْنَى لَا مَانِع لَكُمْ مِنْ أَكْل مَا ذُكِرَ وَقَدْ بَيَّنَ لَكُمْ الْمُحَرَّم أَكْله وَهَذَا لَيْسَ مِنْهُ {وَإِنَّ كَثِيرًا لَيَضِلُّونَ} بِفَتْحِ الْيَاء وَضَمّهَا {بِأَهْوَائِهِمْ} بِمَا تَهْوَاهُ أَنْفُسهمْ مِنْ تَحْلِيل الْمَيْتَة وَغَيْرهَا {بِغَيْرِ عِلْم} يَعْتَمِدُونَهُ فِي ذَلِكَ {إنَّ رَبّك هُوَ أَعْلَم بِالْمُعْتَدِينَ} الْمُتَجَاوِزِينَ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؛ فأنزل الله: {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)}.

أخرجه أبو داود (٢٨١٩)، والترمذي (٣٠٦٩)، والطبري في تفسيره (٨/ ١٥)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٦١)، والضياء في المختارة (١٠/ ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧)، والبيهقي (٩/ ٢٤٠)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٢/ ٣٠٠ - ٣٠١)، =

=

والضياء في المختارة (١٠/ رقم٢٧١) وإسناده ضعيف، ولكن له شواهد ينجبر بها لذا حسنه الترمذي، وقال العلامة الألباني في صحيح أبي داود: صحيح، لكن ذكر اليهود فيه منكر والمحفوظ أنهم المشركون، وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٢٨) عن هذ اللفظه يه نظر من وجوه ثلاثة: أحدها: أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا. الثاني: أن الآية من الأنعام، وهي مكية. الثالث: أن هذا الحديث رواه الترمذي بلفظ أتى ناس النبي ﷺ فذكره، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٤/ ٤٤٠): حديث صحيح، وهذا إسناد حسن في المتابعات من أجل عمران بن عيينة - وهو أخو سفيان - فهو ضعيف يعتبر به في المتابعات، وقد توبع، إلا أنه أخطأ في ذكر اليهود في الرواية، لأن المحفوظ هو المشركون لا اليهود، كما نبه عليه ابن كثير في "تفسيره" عند تفسير هذه الآية المذكورة.

وعن عكرمة؛ قال: إن مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم، وكاتبتهم فارس، وكتبت فارس إلى مشركي قريش: أن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله فما ذبح الله بسكين من ذهب؛ فلا يأكله محمد وأصحابه للميتة، وأما ما ذبحوا هم؛ يأكلون، وكتب بذلك المشركون إلى أصحاب محمد عليه السلام، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء؛ فنزلت: {وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ١٣) -: ثنا حجاج عن ابن جريج قال: قال عمرو بن دينار عن عكرمة به. وهذا سند ضعيف؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال. والثانية: ابن جريج مدلس. والثالثة: سنيد صاحب "التفسير" ضعيف.

وعنه أيضا أن المشركين دخلوا على نبي الله ﷺ، قالوا: أخبرنا عن الشاة إذا ماتت

=

=

من قتلها؟ قال: الله قتلها، قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣٤٨) ونسبه لأبي داود في "ناسخه".

ثم رأينا الطبري أخرجه في "جامع البيان" (٨/ ١٣): ثنا ابن حميد ثنا يحيى بن واضح ثنا الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة به. وهذا مرسل ضعيف جدًا؛ للكلام المعروف في ابن حميد؛ بل إن بعضهم اتهمه، فإن توبع عليه عند أبي داود في "ناسخه"؛ فيكون مرسلًا حسنًا، والله أعلم.

وعن قتادة؛ قال: في قوله -تعالى-: {وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}: جادلهم المشركون في الذبيحة، فقالوا: أما ما قتلتم بأيديكم؛ فتأكلونه، وأما ما قتل الله؛ فلا تأكلونه؛ يعنون: الميتة، فكانت هذه مجادلتهم إياهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ١٤): ثنا محمد بن عبد الأعلى ثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وأخرجه الطبري -أيضًا- (٨/ ١٤): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: قوله: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} الآية؛ يعني: عدو الله إبليس، أوحى إلى أوليائه من أهل الضلالة فقال لهم: خاصموا أصحاب محمد في الميتة، فقولوا: أما ما ذبحتم وقتلتم؛ فتأكلون، وأما ما قتل الله؛ فلا تأكلون، وأنتم تزعمون أنكم تتبعون أمر الله؛ فأنزل الله على نبيه: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} وإنا والله ما نعلمه كان شرك قط إلا بإحدى ثلاث: أن يدعو مع الله إلهًا آخر، أو يسجد لغير الله، أو يسمي الذبائح لغير الله. وهذا مرسل جيد الإسناد.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما حرم الله الميتة أمر الشيطان أولياءه، فقال

=

=

لهم: ما قتل الله لكم خير مما تذبحون أنتم بسكاكينكم؛ فقال الله: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ١٣) من طريق العوفي عن ابن عباس به. وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن الضحاك في قوله: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ}: هذا شأن الذبيحة، قال المشركون للمسلمين: تزعمون أن الله حرم عليكم الميتة، وأحل لكم ما تذبحون أنتم بأيديكم، وحرم عليكم ما ذبح هو لكم، وكيف هذا وأنتم تعبدونه؟ فأنزل الله هذه الآية: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ} إلي قوله: {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ١٤، ١٥): حدثت عن الحسين بن الفرج قال: سمعت أبا معاذ نا عبيد بن سليمان عن الضحاك. وسنده ضعيف جدًا، واه بمرة؛ فيه علل: الأولى: الإعضال.

والثانية: أبو معاذ سليمان بن أرقم؛ متروك. والثالثة: الانقطاع بين الطبري والحسين بن الفرج.

وأخرجه الطبري -أيضًا- (٨/ ١٤) من طريق جويبر عن الضحاك قال: قال المشركون: ما قتلتم فتأكلونه، وما قتل ربكم لا تأكلونه؟! فنزلت: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ

=

=

وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}. وسنده تالف، واه بمرة؛ جويبر؛ ضعيف جدًا، وقد اتهمه بعضهم ثم هو معضل.

وعن السدي؛ قال: إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله وما ذبح الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم أكلتموه؟! فقال الله: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ} فأكلتم الميتة {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ١٤): ثنا محمد بن الحسن ثنا أحمد بن المفضل ثنا أسباط بن نصر عن السدي به. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علل: الأولى: الإعضال. والثانية: أسباط؛ صدوق كثير الخطأ يغرب. والثالثة: لم نجد ترجمة لمحمد هذا.

وعن الشعبي أنه سئل عن قوله: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}؛ فقيل: تزعم الخوارج أنها في الأمراء؟ قال: كذبوا؛ إنما أنزلت هذه الآية في المشركين، كانوا يخاصمون أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون: أما ما قتل الله؛ فلا تأكلوا منه؛ يعني: الميتة، وأما ما قتلتم أنتم؛ فتأكلون منه؛ فأنزل الله: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ} إلي قوله {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)}، قال: لئن أكلتم الميتة وأطعتموهم إنكم لمشركون.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٨٠ رقم ٧٨٥٠): ثنا علي بن الحسين ثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا مالك بن إسماعيل ثنا عيسى بن عبد الرحمن عنه به. وهو مرسل حسن الإسناد.

=

=

* قوله تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ} [الأنعام: ١١٨].

والخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين الذين ضايقهم جدال المشركين لهم في شأن الذبائح.

والمعنى كلوا أيها المؤمنون مما ذكر اسم اللّه عليه عند ذبحه واتركوا ما ذكر عليه اسم غيره كالأوثان أو ما ذبح على النصب ، أو ما ذكر اسم مع اسمه - تعالى - أو ما مات حتف أنفه ، ولا تضرنكم مخالفتكم للمشركين في ذلك فإنهم ما يتبعون في عقائدهم ومآكلهم وأعمالهم إلا تقاليد الجاهلية وأوهامها التي لا ترتكز على شيء من الحق.

قال البغوي:" أي: كلوا مما ذبح على اسم الله، وذلك أنهم كانوا يحرمون أصنافا من النعم ويحلون الأموات، فقيل لهم: أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وعباده المؤمنين به وبآياته: {فكلوا}، أيها المؤمنون، مما ذكّيتم من ذبائحكم وذبحتموه الذبح الذي بينت لكم أنه تحلّ به الذبيحة لكم، وذلك ما ذبحه المؤمنون بي من أهل دينكم دين الحق، أو ذبحه مَنْ دان بتوحيدي من أهل الكتاب، دون ما ذبحه أهل الأوثان ومَنْ لا كتاب له من المجوس".

قال الزجاج:" معناه كلوا مما أخلصتم ذبحه لله، والمنع من الميتة داخل في هذا. وليس بين الناس اختلاف في أن المشركين ناظروا المسلمين، فقالوا لهم: تتركون ما سبقكم الله إلى إماتته وتأكلون ما أمتم أنتم فأعلم جل وعز أن الميتة حرام وأن ما قصد بتزكيته اتباع أمر الله ﷻ فذلك الحلال".

قال ابن كثير:" هذا إباحة من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه: أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها".

=

=

قال ابن جزى: "قوله تعالى (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) القصد بهذا الأمر إباحة ما ذكر اسم الله عليه، والنهي عما ذبح للنصب وغيرها، وعن الميتة وهذا النهي يقتضيه دليل الخطاب من الأمر ثم صرح به في قوله الآتي (أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ)".

عن ابن جريج قال:"قلت لعطاء قوله: {فكلوا مما ذكر اسم الله عليه}، قال: يأمر بذكر اسمه على الشراب والطعام والذبح. وكل شيء يدلّ على ذكره يأمر به".

وعن عطاء عن سعيد في قوله: "{فكلوا مما ذكر اسم الله عليه}، وكلوه فإنه حلال".

قال القرطبي: المعنى: ما المانع لكم من أكل ما سمّيتم عليه ربّكم وإن قتلتموه بأيديكم.

قال ابن عاشور: والوجه عندي أنّ سبب نزول هذه الآية ما تقدّم آنفًا من أنّ المشركين قالوا للنّبي ﷺ وللمسلمين، لمّا حَرّم الله أكل الميتة: "أنأكل ما نَقتل ولا نَأكل ما يقتلُ اللهُ" يعنون الميتة، فوقع في أنفس بعض المسلمين شيء، فأنزل الله (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) أي فأنبأهم الله بإبطال قياس المشركين المُموّهِ بأنّ الميتة أولى بالأكل ممّا قتله الذّابح بيده، فأبدى الله للنّاس الفرق بين الميتة والمذكّى، بأنّ المذكّى ذُكر اسم الله عليه، والميتة لا يذكر اسم الله عليها، وهو فارق مؤثّر.

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ} [الأنعام: ١١٨]، أي:" إن كنتم ببراهين الله تعالى الواضحة مصدقين".

قال الطبري:" يقول: إن كنتم بحجج الله التي أتتكم وأعلامه، بإحلال ما أحللت لكم، وتحريم ما حرمت عليكم من المطاعم والمآكل، مصدّقين، ودَعوا عنكم زخرف ما توحيه الشياطين بعضها إلى بعض من زخرف القول لكم، وتلبيس

=

=

دينكم عليكم غرورًا".

عن ابن جبير: قوله: "{إن كنتم بآياته}، يعني: القرآن" ، " {مؤمنين}، قال: مصدقين".

قال البيضاوي:" فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحله الله سبحانه وتعالى واجتناب ما حرمه".

قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ} [الأنعام: ١١٩]، أي:" وأيُّ شيء يمنعكم أيها المسلمون من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه".

قال الزجاج:" المعنى: أي شيء يقع لكم في أن لا تأكلوا".

قال سعيد:" يعني: الذبائح".

قال الطبري: يقول:" وأيُّ شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه؟".

قوله تعالى: {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} [الأنعام: ١١٩]، أي:" وقد بيَّن الله سبحانه لكم جميع ما حرَّم عليكم؟ لكن ما دعت إليه الضرورة بسبب المجاعة، مما هو محرم عليكم كالميتة، فإنه مباح لكم".

قال ابن كثير:" أي: قد بَيَّن لكم ما حَرم عليكم ووضحه، إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم".

قال الزجاج:" أي: فصل لكم الحلال من الحرام، وأحل لكم في الاضطرار ما حرم عليكم"

عن قتادة: "{وقد فصل لكم ما حرم عليكم}، يقول: قد بين لكم ما حرم عليكم".

وروي عن ابن زيد مثله.

وعن قتادة -أيضا-: "{إلا ما اضطررتم إليه}، من الميتة".

وعن عن سعيد قوله: "{إلا ما اضطررتم إليه}، يعني: ما حرم عليكم من الميتة، فهو الاضطرار كله".

=

=

قال الطبري:" قوله: {إلا ما اضطررتم إليه}، فإنه يعني تعالى ذكره: أن ما أضطررنا إليه من المطاعم المحرّمة التي بيَّن تحريمها لنا في غير حال الضرورة، لنا حلال ما كنا إليه مضطرين، حتى تزول الضرورة".

قال ابن عاشور: قوله تعالى (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) أكثر المفسرين قالوا: المراد منه قوله تعالى في أول سورة المائدة: (حُرّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير) وفيه إشكال: وهو أن سورة الأنعام مكية وسورة المائدة مدنية ، وهي آخر ما أنزل الله بالمدينة ، وقوله (وَقَدْ فَصَّلَ) يقتضي أن يكون ذلك المفصل مقدمًا على هذا المجمل ، والمدني متأخر عن المكي ، والمتأخر يمتنع كونه متقدمًا ، بل الأولى أن يقال المراد قوله بعد هذه الآية (قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يطعمه) وهذه الآية وإن كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل إلا أن هذا القدر من التأخير لا يمنع أن يكون هو المراد والله أعلم.

وقال القرطبي: وقيل (فصل) أي بيّن ، وهو ما ذكره في سورة "المائدة" من قوله (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير)

قلت هذا فيه نظر؛ فإن (الأنعام) مكية والمائدة مدنِية فكيف يحيل بالبيان على ما لم ينزل بعد ، إلا أن يكون فصّل بمعنى يفصّل. والله أعلم.

وقال الشنقيطي: قَوْلُهُ تَعَالَى (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْآيَةَ ، التَّحْقِيقُ أَنَّهُ فَصَّلَهُ لَهُمْ بِقَوْلِهِ: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً...) ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مَا ذَكَّيْتُمْ ، وَذَكَرْتُمْ عَلَيْهِ اسْمَ اللهِ؟ ، وَالْحَالُ أَنَّ اللهَ فَصَّلَ لَكُمُ الْمُحَرَّمَ أَكْلُهُ عَلَيْكُمْ فِي قَوْلِهِ: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ الْآيَةَ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْهُ.

وَمَا يَزْعُمُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ أَنَّهُ فَصَّلَهُ لَهُمْ بِقَوْلِهِ: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ الْآيَةَ ، فَهُوَ غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَهِيَ مِنْ آخِرِ

=

=
مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ بِالْمَدِينَةِ ، وَقَوْلُهُ: (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، فَالْحَقُّ هُوَ مَا ذَكَرْنَا ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.

وقرئ: «وَقَدْ فُصِّلَ لَكَمْ»، بضم فائه وتشديد صاده، «مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ»، بضم حائه وتشديد رائه، على وجه ما لم يسمَّ فاعله في الحرفين كليهما.

وروي عن عطية العوفي أنه كان يقرأ ذلك: «وَقَدْ فَصَلَ»، بتخفيف الصاد وفتح الفاء، بمعنى: وقد أتاكم حكم الله فيما حَرَّم عليكم.

قوله (إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ) إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات بسبب شدة الجوع ففي هذه الحالة يباح لكم أن تأكلوا من هذه المحرمات ما يحفظ عليكم حياتكم. هذا هو حكم اللّه الذي يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر فعليكم أن تتبعوه ، وألا تلقوا بالا إلى أوهام المتخرصين وأصحاب الظنون الباطلة.

قال تعالى (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).

وقال تعالى (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).

قوله تعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١١٩]، أي:" وإنَّ كثيرًا من الضالين ليضلون عن سبيل الله أشياعهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال بأهوائهم؛ جهلا منهم".

قال الزجاج:" أي: إن الذين يحلون الميتة ويناظرونكم في إحلالها، وكذلك كل مايضلون فيه، إنما يتبعون فيه الهوى والشهوة ولا بصيرة ولا علم عندهم"

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإن كثيرًا من الناس الذين يجادلونكم في أكل ما حرم الله عليكم، أيها المؤمنون بالله، من الميتة، ليُضلون أتباعهم بأهوائهم من غير علم منهم بصحة ما يقولون، ولا برهان عندهم بما فيه يجادلون، إلا ركوبًا منهم
=

=

لأهوائهم، واتباعًا منهم لدواعي نفوسهم، اعتداءً وخلافًا لأمر الله ونهيه، وطاعة للشياطين".

قال ابن كثير:" ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة، من استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى: فقال {وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} أي: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم".

عن سعيد بن جبير: قوله: "{وإن كثيرا}، يعني: من مشركي العرب" ، "{ليضلون بأهوائهم بغير علم}، يعني: في أمر الذبائح وغيره".

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر: «ليضلون» بفتح الياء.

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} [الأنعام: ١١٩]، أي:" إن ربك -أيها الرسول- هو أعلم بمن تجاوز حده في ذلك، وهو الذي يتولى حسابه وجزاءه".

قال البغوي: أي:" الذين يجاوزون الحلال إلى الحرام".

قال الطبري:" يقول: إن ربك، يا محمد، الذي أحلَّ لك ما أحلَّ وحرَّم عليك ما حرم، هو أعلم بمن اعتدى حدوده فتجاوزها إلى خلافها، وهو لهم بالمرصاد".

قال ابن عاشور: قوله تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ..) وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب (ليَضِلُّون) بفتح الياء على أنّهم ضالّون في أنفسهم، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: بضمّ الياء على معنى أنَّهم يُضلّلون النّاس، والمعنى واحد، لأنّ الضالّ من شأنه أن يُضلّ غيره ، ولأنّ المُضلّ لا يكون في الغالب إلاّ ضالًا، إلاّ إذا قصد التّغرير بغيره.

والمقصود التّحذير منهم وذلك حاصل على القراءتين.

- في هذا التحذير من الهوى ، وسمى هوى لأنه يهوي بصاحبه.

قال تعالى (ولوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ).

=

=

وقال تعالى (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ).

وقال تعالى (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

وقال ﷺ (ثلاث مهلكات:... وهوى متبع).

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِين) أى: أعلم منك يا محمد ومن كل مخلوق بالمتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل والحلال والحرام.

ففي الجملة الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول ﷺ.

قال الإمام الرازي: وقد دلت هذا الآية على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام.

وقال: والمقصود من هذه الكلمة التهديد والتخويف.

- قال ابن عاشور: قوله تعالى (إن ربك هو أعلم بالمعتدين) تذييل ، وفيه إعلام للرّسول ﷺ بتوعّد الله هؤلاء الضالّين المضلين ، فالإخبار بعلم الله بهم كناية عن أخذه إيَّاهم بالعقوبة وأنَّه لا يفلتهم ، لأنّ كونه عالمًا بهم لا يُحتاج إلى الإخبار به.

وهو وعيد لهم أيضًا ، لأنَّهم يسمعون القرآن ويُقرَأ عليهم حين الدّعوة.

مسألة: الصواب في حكم التسمية على الذبيحة أن العبرة بالنية والذبح والذابح؛ فما ذبحه غير المسلم والكتابي، يحرم ولو سمي عليه، وما خنق أو وقذ، فلا يحل ولو سمي عليه، ولو كان الخانق مسلما، وما سمي عليه وذبح من غير المسلم والكتابي، فلا يحل؛ لأن المجوس لو سموا لم تؤكل ذبائحهم، وجملة الأقوال في وجوب التسمية عن الأئمة قولان:

الأول: قالوا بوجوب التسمية، وأن ما ذبح ولم يسم عيه، لا يحل ولو كان الذابح

=

=

مسلما ولم يذكر اسم غير الله عليه سواء؛ وهذا قول الجمهور: أبي حنيفة ومالك وأحمد، اتفق هؤلاء في العامد، ولكنهم اختلفوا في تارك التسمية نسيانا، على قولين هما روايتان عن أحمد، والجمهور: على أنه معذور.

وقال بعذر الناسي من الأصحاب: ابن قدامة، وجماعة.

وقيل: إن الناسي كالعامد، وهذا رواية عن أحمد؛ قال بها جماعة من الأصحاب؛ كأبي الخطاب، وابن تيمية؛ أخذا بظاهر الأدلة من القرآن؛ كما في الآيات السابقة، وكما في قوله ﷺ: (ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه، فكلوا)، وأنه في الحديث قرن ذكر اسم الله وخروج الدم سواء، فكما لا يسقط خروج الدم بالنسيان، فكذلك التسمية، وكذلك: الذابح خنقا بلا عمد كالتارك للتسمية نسيانا.

الثاني: أن التسمية سنة ولا تجب، وتركها عمدا فضلا عن السهو لا يضر، ما لم ينو بها غير الله أو يهل به غير اسم الله؛ وهو قول الشافعي، ورواية عن أحمد، وهو مذهب الشافعية، وقد صح هذا المعنى عن ابن عباس وجماعة من أصحابه؛ وهو الأقرب للصواب.

* التسمية والإهلال عند الذبح: والمراد بإيجاب التسمية قصد الإهلال؛ لأن العرب تهل بذبحها لأصنامها وتذكر اسمها لا اسم الله؛ فجاء ما ينافي ذلك ويناقضه؛ لأن الله تعالى قال: {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق}، وهذا الفسق في الآية هو الفسق في الآية الأخرى: {فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به} [الأنعام: ١٤٥]؛ فالمقصود به: الإهلال لغير الله، لا مجرد ترك التسمية من الموحد، وقد تترك التسمية نسيانا ولا يكون ذلك فسقا؛ ولهذا جاء بيان ذلك القصد في مواضع؛ فذكر الله المحرمات وجعل منها قوله: {وما أهل به لغير الله} [البقرة: ١٧٣]، فلم يذكر الله في موضع واحد ما أهل به لغير الله وما لم يذكر اسم الله عليه؛ لأن المقصود بهما معنى واحد، ولو كانا معنيين، لذكرا جميعا في آية

=

=

واحدة، ولكنهما يتناوبان بالقصد فيغني أحدهما عن الآخر عند ذكره، والمعنى المشترك بينهما هو القصد.

* تارك التسمية عند الذبح عمدا: والتارك المتعمد للتسمية إن كان تركه لها يعتقد عدم وجوب الذبح لله، فذلك فسق كما في الآية؛ لأنه شارك المشركين في عدم قصد الله، ولم يشاركهم في قصد أوثانهم.

والمشابهة بين إنهار الدم بالذبح والتسمية وتركهما، وقياس نسيان التسمية على نسيان الذبح والإماتة بالخنق أو الصعق قياس مع الفارق؛ لأن علة الأمر بالذبح عدم حبس الدم في البهيمة؛ فنسيان الذبح كالعمد فيه، بخلاف تعمد ترك التسمية؛ فلا يوجد علة تقوم في المذبوح وإنما في الذابح، وما تعلق بالذابح إن جعل القصد لغير الله، فهي محرمة، لا لخبث لحمها؛ وإنما لحكمها، كتحريم الذهب والحرير على الرجال، وتلبسه النساء، فهذا من الأحكام التي لا تتعلق علة التحريم فيها بنجاسة العين المحرمة، وإنما بما اقترن بها.

ومن تعمد ترك التسمية تهاونا ولم يقصد بها غير الله ولم يسم غيره، فلا تحرم ذبيحته على الأرجح، وإن قيل بتأثيمه.

فالقول بوجوب التسمية عند الذبح مع عدم تحريم المذبوح عند تعمد تركها، أقرب إلى الصواب من القول بوجوب التسمية وتحريم أكلها عند تعمد تركها، وينسب إلى بعض الأئمة أقوال في حرمة أكل ما تركت التسمية عليه عمدا من بهيمة الأنعام؛ لأنهم يقولون بوجوب التسمية، والقول بوجوب التسمية لا يلزم منه جعل الذبيحة في حكم الميتة إلا لمن صرح بذلك، أو كانت أصوله تقتضي ذلك.

والله قد أحل ذبيحة أهل الكتاب، ولم يلزم أهل الإيمان بالتحري في تسميتهم على ذبائحهم، وتركهم لذكر اسم الله على الذبيحة يقع منهم أكثر من أهل الإسلام؛ وهدا ظاهر في حديث عائشة؛ أن قوما قالوا للنبي ﷺ: إن قوما يأتونا باللحم، لا

=

وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠).

{وَذَرُوا} اُتْرُكُوا {ظَاهِرِ الْإِثْمِ وَبَاطِنه} عَلَانِيَته وَسِرّه {والإثم قيل الزنى وَقِيلَ كُلّ مَعْصِيَة {إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمِ سَيُجْزَوْنَ} فِي الْآخِرَة {بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ} يَكْتَسِبُونَ[1].

=

ندري: أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: (سموا عليه أنتم وكلوه)، قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر.

وأما حديث: (ذبيحة المسلم حلال، سمى أو لم يسم، ما لم يتعمد، والصيد كذلك) فضعيف لا يثبت.

(١) قوله تعالى: {وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [الأنعام: ١٢٠]، أي:" واتركوا -أيها الناس- جميع المعاصي، ما كان منها علانية وما كان سرًّا".

قال الربيع:" نهى الله عن ظاهر الإثم وباطنه أن يعمل به".

وفي قوله تعالى: {وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [الأنعام: ١٢٠]، وجوه من التأويل:

أحدها: سره وعلانيته، قاله مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن انس ، واختاره الزجاج.

قال الزجاج:"والذي يدل عليه الكلام أن المعنى - والله أعلم - اتركرا الإثم - ظهرا، أو بطنا، أي لا تقربوا ما حرم الله عليكم جهرا ولا سرا".

والثاني: ظاهر الإثم: ما حرم من نكاح ذوات المحارم بقوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتكُمْ..} [النساء:٢٣] الآية، وباطنه: الزِّنى، وهذا قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير.

=

=

وروي عن مجاهد، قال" {ما ظهر منها}، الجمع بين الأختين، وتزويج الرجل امرأة أبيه من بعده، {وما بطن}، الزنى".

والثالث: أن ظاهر الإثم أُوْلاَت الرايات من الزواني، والباطن ذوات الأخدان، لأنهن كُنَّ يستحللنه سرًا، قاله السدي ، والضحاك.

والرابع: أن ظاهر الإثم العِرية التي كانو يعملون بها حين يطوفون بالبيت عراة، وباطنه الزِّنى، قاله ابن زيد.

والخامس: أن ظاهر الإثم ما يفعله بالجوارح، وباطنه ما يعتقده بالقلب. أفاده الماوردي.

قال الإمام ابن كثير:" والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله، وهي كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا} الآية [الأعراف: ٣٣]".

قال البغوي:" {ظاهر الإثم وباطنه}، يعني: الذنوب كلها لأنها لا تخلو من هذين الوجهين... وأكثر المفسرين على أن ظاهر الإثم الإعلان بالزنا، وهم أصحاب الروايات، وباطنه الاستسرار به، وذلك أن العرب كانوا يحبون الزنا فكان الشريف منهم يتشرف، فيسر به، وغير الشريف لا يبالي به فيظهره، فحرمهما الله ﷻ".

قال الإمام الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره تقدم إلى خلقه بترك ظاهر الإثم وباطنه، وذلك سره وعلانيته. و «الإثم» كل ما عُصِي الله به من محارمه، وقد يدخل في ذلك سرُّ الزنى وعلانيته، ومعاهرة أهل الرايات وأولات الأخدان منهن، ونكاحُ حلائل الآباء والأمهات والبنات، والطواف بالبيت عريانًا، وكل معصية لله ظهرت أو بطنت. وإذ كان ذلك كذلك، وكان جميعُ ذلك «إثمًا»، وكان الله عمّ بقوله: {وذروا ظاهر الإثم وباطنه}، جميع ما ظهر من الإثم وجميع ما بطن لم يكن لأحد أن يخصّ من ذلك شيئًا دون شيء،

=

=

إلا بحجة للعذر قاطعة.

غير أنه لو جاز أن يوجَّه ذلك إلى الخصوص بغير برهان، كان توجيهه إلى أنه عنى بظاهر الإثم وباطنه في هذا الموضع، ما حرم الله من المطاعم والمآكل من الميتة والدم، وما بيَّن الله تحريمه في قوله: {حرمت عليكم الميتة} إلى آخر الآية، أولى، إذ كان ابتداء الآيات قبلها بذكر تحريم ذلك جرى، وهذه في سياقها. ولكنه غير مستنكر أن يكون عنى بها ذلك، وأدخل فيها الأمر باجتناب كل ما جانسه من معاصي الله، فخرج الأمر عامًا بالنهي عن كل ما ظهر أو بطن من الإثم".

وقال القرطبي:" قوله تعالى: {وذروا ظاهر الإثم وباطنه} للعلماء فيه أقوال كثيرة وحاصلها راجع إلى أن الظاهر ما كان عملا بالبدن مما نهى الله عنه، وباطنه ما عقد بالقلب من مخالفة أمر الله فيما أمر ونهى، وهذه المرتبة لا يبلغها إلا من اتقى وأحسن، كما قال: {ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا} [المائدة: ٩٣]".

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ} [الأنعام: ١٢٠]، أي:" إن الذين يفعلون المعاصي سيعاقبهم ربهم؛ بسبب ما كانوا يعملونه من السيئات".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الذين يعملون بما نَهاهم الله عنه، ويركبون معاصيَ الله ويأتون ما حرَّم الله، سيثيبهم الله يوم القيامة بما كانوا في الدنيا يعملون من معاصيه".

قال السدي:" {الإثم}، المعصية".

قال البغوي: {يَقْتَرِفُونَ}، أي:" يكتسبون في الدنيا".

عن النواس بن سمعان قال: "سألت رسول الله ﷺ عن الإثم، فقال: الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس".

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١).

{وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَر اسْم الله عَلَيْهِ} بِأَنْ مَاتَ أَوْ ذُبِحَ عَلَى اسْم غَيْره وَإِلَّا فَمَا ذَبَحَهُ الْمُسْلِم وَلَمْ يُسَمِّ فِيهِ عَمْدًا أَوْ نِسْيَانًا فَهُوَ حَلَال قَالَهُ بن عَبَّاس وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيّ {وَإِنَّهُ} أَيْ الْأَكْل مِنْهُ {لَفِسْق} خُرُوج عَمَّا يَحِلّ {وَإِنَّ الشَّيَاطِين لَيُوحُونَ} يُوَسْوِسُونَ {إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ} الْكُفَّار {لِيُجَادِلُوكُمْ} فِي تَحْلِيل الميتة {وإن أطعتموهم} فيه {إنكم لمشركون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ} [الأنعام: ١٢١]، أي:" ولا تأكلوا -أيها المسلمون- من الذبائح التي لم يذكر اسم الله عليها عند الذبح، كالميتة وما ذبح للأوثان والجن، وغير ذلك".

قال الطبري: يعني:"لا تأكلوا، أيها المؤمنون، مما مات فلم تذبحوه أنتم، أو يذبحه موحِّدٌ يدين لله بشرائع شَرَعها له في كتاب منزل، فإنه حرام عليكم ولا ما أهلَّ به لغير الله مما ذبَحه المشركون لأوثانهم".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ} [الأنعام: ١٢١]، أربعة تأويلات:

أحدها: المراد بها ذبائح كانت العرب تذبحها لأوثانها، قاله عطاء.

والثاني: أنها الميتة، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير.

والثالث: أنه صيد المشركين الذين لا يذكرون اسم الله، ولا هم من أهل التسمية، يَحْرُمُ على المسلمين أن يأكلوه حتى يكونوا هم الذين صادوه، حكاه ابن بحر.

والرابع: عنى بذلك كلَّ ذبيحة لم يذكر اسمُ الله عليها. وهذا قول الحسن.

=

=

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عنى بذلك ما ذُبح للأصنام والآلهة، وما مات أو ذبحه من لا تحلّ ذبيحته".

وفي تحريم أكل الذبيحة التي لم يذكر اسمُ الله عليها، ثلاثة أقوال:

أحدها: لا يحرم سواء تركها عامدًا أو ناسيًا، قاله الحسن ، والشافعي وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد. نقلهاعنه حنبل. وهو رواية عن الإمام مالك ، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحكي عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وعطاء بن أبي رباح.

وحمل الشافعي الآية الكريمة: {وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى {أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ} [الأنعام: ١٤٥].

قال ابن كثير:" وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي -رَحِمَهُ اللَّهُ- قوي، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل «الواو» في قوله: {وإِنَّهُ لَفِسْقٌ} حالية، أي: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقًا، ولا يكون فسقا حتى يكون قد أهل به لغير الله. ثم ادعى أن هذا متعين، ولا يجوز أن تكون «الواو» عاطفة، لأنه يلزم منه عطف جملة إسمية خبرية على جمله فعلية طلبية. وهذا ينتقض عليه بقوله: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ} فإنها عاطفة لا محاولة، فإن كانت «الواو» التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال؛ امتنع عطف هذه عليها، فإن عطفت على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره، وإن لم تكن «الواو» حالية، بطل ما قال من أصله".

والثاني: يحرم إن تركها عامدًا، ولا يحرم إن تركها ناسيًا، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك ، وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه .

قال ابن كثير:" وهو محكي عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المُسَيَّب، وعَطَاء،

=

=

وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه "الهداية" الإجماع - قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمدا، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ: لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع. وهذا الذي قاله غريب جدًا، وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعي.

وقد نقل ابن جرير وغيره. عن الشعبي، ومحمد بن سيرين، أنهما كرها متروك التسمية نسيانا، والسلف يطلقون الكراهية على التحريم كثيرا، والله أعلم. إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفا لقول الجمهور، فيعده إجماعا، فليعلم هذا".

واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه، عن ابن عباس، وأبي هريرة، وأبي ذر وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: "إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه". وفيه نظر، والله أعلم.

وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدي، من حديث مروان بن سالم القرقساني، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي؟ فقال النبي ﷺ: "اسم الله على كل مسلم" ولكن هذا إسناده ضعيف، فإن مروان بن سالم القرقساني أبا عبد الله الشامي، ضعيف، تكلم فيه غير واحد من الأئمة".

واعترض الطبري لهذا المذهب، فقال:"وأما من قال: عنى بذلك: ما ذبحه المسلم فنسي ذكر اسم الله، فقول بعيد من الصواب، لشذوذه وخروجه عما عليه الحجة مجمعة من تحليله، وكفى بذلك شاهدًا على فساده".

وقد روي عن عِكْرِمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "المسلم يكفيه اسمه، إن نسي أن يسمي حين يذبح، فليذكر اسم الله وليأكله".

=

=

والثالث: يحرم سواء تركها عامدًا أو ناسيًا، قاله ابن عمر ، ونافع مولى ابن عمر ، وعامر الشعبي ، وابن سيرين ، وعبد الله بن يزيد الخطمي ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور ، وداود الظاهري ، واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي من متأخري الشافعية.

واحتجوا لمذهبهم هذا بظاهر هذه الآية، وبقوله في آية الصيد: {فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ} [المائدة: ٤]. ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: {وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله -.

وكذلك احتجوا بالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة: "إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله عليه فكل".

وحديث رافع بن خُدَيْج. "ما أنهر الدم وذكر اسم الله فكل".

وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن: "لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه".

وحديث جُنْدَب بن سفيان البَجَلي قال: "قال رسول الله ﷺ: من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله".

وعن عائشة، رضي الله عنها:" أن قوما قالوا: يا رسول الله إن قوما يأتوننا باللحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا، فقال رسول الله ﷺ: «سموا الله عليه وكلوه»".

قال ابن كثير:"ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، وأنهم خشوا ألا تكون وجدت من أولئك، لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد".

=

=

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [الأنعام: ١٢١]، أي:" وإن الأكل من تلك الذبائح لخروج عن طاعة الله تعالى".

قال سعيد بن جبير:"يعني: أكل الميتة لمعصيته".

قال الطبري:"يعني: معصية كفر".

قوله (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) جملة حالية والضمير يعود على الأكل من الذي لم يذكر اسم اللّه عليه ، أى: وإن الأكل من ذلك الحيوان المذبوح الذي لم يذكر اسم اللّه عليه لخروج عن طاعة اللّه تعالى وابتعاد عن الفعل الحسن إلى الفعل القبيح ، وفي ذلك ما فيه من تنفيرهم من أكل ما لم يذكر اسم اللّه عليه.

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [الأنعام: ١٢١]، قولان:

أحدهما: أن المراد به: «المعصية»، قاله ابن عباس.

والثاني: المراد به: «الإثم».

والثالث: المراد به: «الكفر». حكاه الطبري عن آخرين.

قوله تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} [الأنعام: ١٢١]، أي:" وإن الشياطين ليوسوسون إلى المشركين أوليائهم في الضلال لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم: إنكم بعدم أكلكم الميتة لا تأكلون ما قتله الله، بينما تأكلون مما تذبحونه".

قال الزجاج:"أي: يوسوس الشيطان لوليه فيلقي في قلبه الجدال بالباطل، وهو ما وصفنا من أن المشركين جادلوا المسلمين في الميتة".

قال البغوي:"أراد أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم، وذلك أن المشركين قالوا: يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ فقال: الله قتلها، قالوا: أفتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتله

=

=

الكلب والصقر حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله هذه الآية".

قال الطبري: وَأَوْلَى الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ أَخْبَرَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوا الْمُؤْمِنِينَ فِي تَحْرِيمِهِمْ أَكْلَ الْمَيْتَةِ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ جِدَالِهِمْ إِيَّاهُمْ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُوحُونَ كَانُوا شَيَاطِينَ الإِنْسِ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنْهُمْ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا شَيَاطِينَ الْجِنِّ أَوْحَوْا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْجِنْسَانِ كِلاَهُمَا تَعَاوَنَا عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمَا فِي الآيَةِ الأُخْرَى الَّتِي يَقُولُ فِيهَا: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) ، بَلْ ذَلِكَ الأَغْلَبُ مِنْ تَأْوِيلِهِ عِنْدِي ، لِأَنَّ اللهَ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ أَنَّهُ جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ، كَمَا جَعَلَ لِأَنْبِيَائِهِ مِنْ قَبْلِهِ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْمُزَيَّنَ مِنَ الأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ ، ثُمَّ أَعْلَمُهُ أَنَّ أُولَئِكَ الشَّيَاطِينَ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ لِيُجَادِلُوهُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا حَرَّمَ اللهُ مِنَ الْمَيْتَةِ عَلَيْهِمْ.

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} [الأنعام: ١٢١]، ثلاثة تأويلات:

أحدها: أنه عنى بالشياطين قومًا من أهل فارس كتبوا إلى أوليائهم من قريش أن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ولا يأكلون ما ذبح الله يعني الميتة، ويأكلون ما ذبحوه لأنفسهم، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، قاله عكرمة.

والثاني: أن الشياطين قالوا ذلك لأوليائهم من قريش، قاله ابن عباس ، وقتادة.

والثالث: أن قومًا من اليهود قالوا ذلك للنبي -ﷺ-، وهذا مروي عن ابن عباس.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنّ الشياطين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوا المؤمنين في تحريمهم أكل الميتة، بما ذكرنا من جدالهم إياهم وجائز أن يكون الموحون كانوا شياطين الإنس يوحون إلى

=

=

أوليائهم منهم، وجائز أن يكونوا شياطين الجن أوحوا إلى أوليائهم من الإنس، وجائز أن يكون الجنسان كلاهما تعاونا على ذلك، كما أخبر الله عنهما في الآيةالأخرى التي يقول فيها: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [سورة الأنعام: ١١٢]. بل ذلك الأغلب من تأويله عندي، لأن الله أخبر نبيه أنه جعل له أعداء من شياطين الجن والإنس، كما جعل لأنبيائه من قبله، يوحي بعضهم إلى بعض المزيَّنَ من الأقوال الباطلة، ثم أعلمه أن أولئك الشياطين يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوه ومن تبعه من المؤمنين فيما حرمَ الله من الميتة عليهم".

وفي وحي الشياطين إلى أوليائهم وجهان:

أحدهما: أنها إشارتهم.

الذبيحة فيحمل أمرهم على ذلك فإن تيقنا أنهم تركوا ذكره جاز أن يكون عن نسيان، والنسيان لا يمنع الحل، فإن تركوا لا عن نسيان، لم يجز الأكل فلا وجه للنسخ أصلا، ومن قال من المفسرين إن المراد بها لم يذكر اسم الله عليه البتة فقد خص عاما، والقول بالعموم أصح وعلى قول الشافعي هذه الآية محكمة. لأنه إما أن يراد بها عنده الميتة أو يكون نهي كراهة".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا، أن هذه الآية محكمة فيما أنزلت، لم ينسخ منها شيء، وأن طعام أهل الكتاب حلال، وذبائحهم ذكيّة. وذلك مما حرم الله على المؤمنين أكله بقوله: {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه}، بمعزل. لأن الله إنما حرم علينا بهذه الآية الميْتة، وما أهلّ به للطواغيت، وذبائحُ أهل الكتاب ذكية سمُّوا عليها أو لم يسمُّوا، لأنهم أهل توحيد وأصحاب كتب لله، يدينون بأحكامها، يذبحون الذبائح بأديانهم، كما يذبح المسلم بدينه، سمى الله على ذبيحته أو لم يسمِّه، إلا أن يكون ترك من ذكر تسمية الله على ذبيحته على

=

=

الدينونة بالتعطيل، أو بعبادة شيء سوى الله، فيحرم حينئذ أكل ذبيحته، سمى الله عليها أو لم يسم".

قال ابن كثير:" وهذا الذي قاله صحيح، ومن أطلق من السلف النسخ هاهنا فإنما أراد التخصيص".

قوله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٢١]، أي:" وإن أطعتموهم -أيها المسلمون في تحليل الميتة- فأنتم وهم في الشرك سواء".

قال ابن عباس:"يقول: وإن أطعتموهم في أكل ما نهيتكم عنه".

عن السدي: "{وإن أطعتموهم}، فأكلتم الميتة".

قال الطبري:"يعني: وإن أطعتموهم في أكل الميتة وما حرم عليكم ربكم، إنكم إذًا مثلهم، إذ كان هؤلاء يأكلون الميتة استحلالا. فإذا أنتم أكلتموها كذلك، فقد صرتم مثلهم مشركين".

قال ابن كثير:" أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا

إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١]، وقد روى الترمذي في تفسيرها، عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: «بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» ".

قال الزجاج:"هذه الآية فيها دليل أن كل من أحل شيئا مما حرم الله عليه أوحرم شيئا

مما أحل الله له فهو مشرك. لو أحل محل الميتة في غير اضطرار، أو أحل الزنا لكان مشركا بإجماع الأمة، وإن أطاع الله في جميع ما أمر به، وإنما سمي مشركا لأنه اتبع غير الله، فأشرك بالله غيره".

=

=

الفهرس

قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩). ٥
لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠). ٨
سورة الأنعام ٤٣
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)..... ٥٦
وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤)..... ٧٧
فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥). ٧٧
أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦). ٨٢
وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)..... ٨٩
وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩). ٩٤
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠). ١٠٢
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١). ١٠٥
وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣). ١١٤
قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)..... ١١٨

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥). ١٢٣
مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦). ١٢٣
وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧). ١٢٦
وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨). ١٣٢
قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩). ١٣٦
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠). ١٨٣
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١). ١٨٧
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢). ١٩١
ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣). ١٩١
انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤). ١٩١
وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦). ٢٠٨
وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧). ٢١٤
بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨). ٢١٥
وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩). ٢٢٤

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠). ٢٢٦
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١). ٢٢٨
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢). ٢٣٥
قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣). ٢٣٩
وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤). ٢٤٨
وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥). ٢٥٣
وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧). ٢٦٥
وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨). ٢٦٦
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩). ٢٨٠
قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠). ٢٨٤
بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١). ٢٨٤

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢). ٢٩٢
فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣). ٢٩٢
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤). ٢٩٢
فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥). ٢٩٢
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦). ٣٠٨
قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧). ٣١٣
وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨). ٣١٧
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩). ٣١٧
قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠). ٣٢٢
وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١). ٣٢٩
وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢). ٣٣٤
وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ

بِالشَّاكِرِينَ (٥٣). ٣٤٨
وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤). .. ٣٥٤
وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥). ٣٦٨
قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦). ٣٧٠
قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)..... ٣٧٠
قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨). ٣٧١
وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩). ٣٨١
وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّىٰ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠). ٣٩٢
وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١). ٤١٢
ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢). ٤١٣
قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣)..... ٤٢٠
قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤). ٤٢٠

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥). .. ٤٢١
وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦). ٤٣٧
لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧). ٤٣٧
وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨). ٤٤٠
وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩). .. ٤٤١
وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠). ٤٨٧
قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١). ٤٩٤
وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢). ٤٩٥
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣). .. ٥٠٤
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤). ٥١٢
وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥). ... ٥١٢
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ

(٧٦). ٥١٢
فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨). ٥١٣
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩). ٥١٣
وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠). ٥٣٨
وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١). ٥٣٨
الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢). ٥٣٩
وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣). ٥٥٣
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤). ٥٥٣
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥). ٥٥٣
وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (٨٦). ٥٥٤
وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧). ٥٥٤
ذَلِكَ هُدَىٰ اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨). ٥٦٩
أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا

لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩). ٥٧٠
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠). ٥٧٠
وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١). ٦٢٦
وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢). ٦٤٩
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣). ٦٥٣
وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤). ٦٦٣
إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥). ٦٧٠
فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦). ٦٧١
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)..... ٦٨٠
وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨). ٦٨٤
وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩). ٦٨٧
وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠). ٦٩٦
بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١). ٦٩٦
ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)..... ٧٠٦
لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)..... ٧٠٩
قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤)..... ٧٣٧
وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥). ٧٣٧
اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦). ٧٤٥
وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧).٧٤٨
وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)..... ٧٥٠

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)..... ٧٥٧
وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)..... ٧٦٤
وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)..... ٧٦٨
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢). ٧٧٠
وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)..... ٧٧١
أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤). ٧٨٢
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥). . ٧٨٦
وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦). ٧٨٩
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧). ٧٨٩
فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)..... ٧٩٥
وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)..... ٧٩٥
وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ

(١٢٠)..... ٨١٠
الفهرس..... ٨٢٣